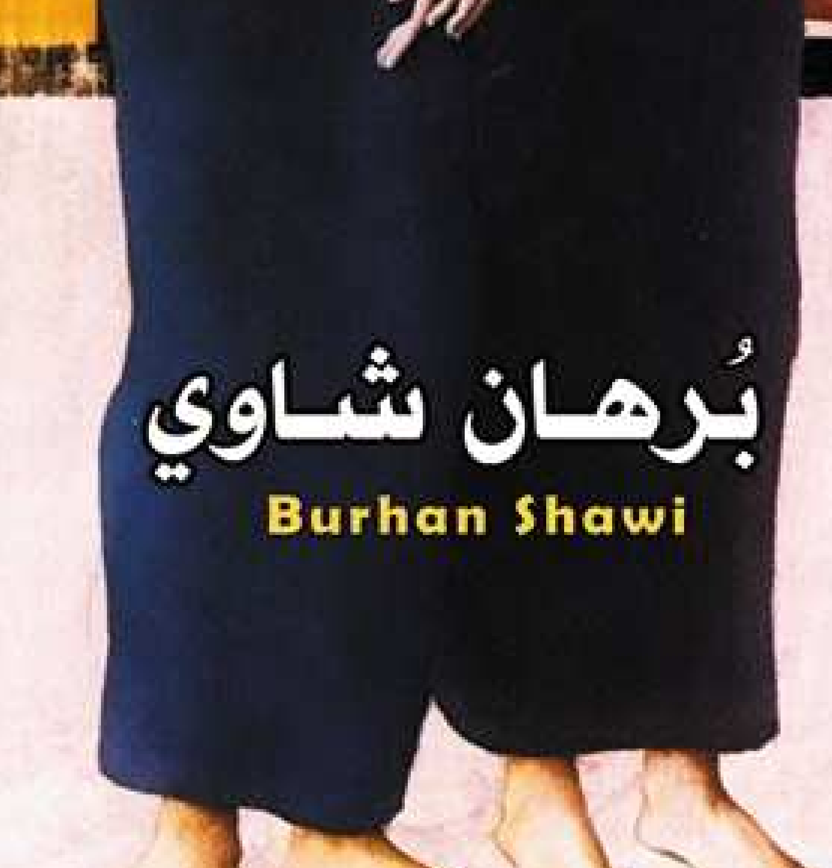


متاهة العميان

THE BLIND'S LABYRINTH

رواية



بُرهان شاوي

Burhan Shawi



الكتاب: متاهة العميان
رواية
المؤلف: بُرهان شاوي
عدد الصفحات: 608

الطبعة: الأولى 2019
الناشر: دار النخبة 6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل
أمام سور نادى الزمالك - 01288688875
E-mail: alnokhoba@gmail.com

متاهة العميان

The blind's Labyrinth

رواية

Novel

بُرهان شاوي

BURHAN SHAWI



2019

فهرس

«ادخلوا من الباب الضيق، لأنه واسعٌ البابُ ورحبٌ الطريقُ الذي يؤدي إلى الهلاك، وكثيرون هم الذين يدخلون منه.

ما أضيقَ البابَ وأكربَ الطريقَ الذي يؤدي إلى الحياة، وقليلون هم الذين يجدونه....

إنجيل متى 14-13:7 ...

« قلت: أيها العجوز أين هي عين ماء الحياة؟

قال: في الظلمات..

إذ كنتَ طالبًا لها فالبس في رجليك نعالًا خاصة، والزم طريق التوكل لتصل إلى الظلمات..

قلت: الطريق من أي جانب؟

قال: من كل جهة تذهب..إن تسر تعرف الطريق

قلت: وما هي علامات الظلمات؟

قال: السواد..وأنت نفسك في الظلمات لكنك لا تعلم!! ..

شيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي

من رسالة - (عقل سرخ - العقل الأحمر)

إيثـاكـا العميـــان

مرَّ أكثر من شهرين على ذلك اليوم المشؤوم. إنه يتذكر ذلك جيدًا، وكأنه شريط سينمائي يمر أمام عينيه..لم يكن وحده..كان آدم الشبيبي معه أيضًا. حينها أوقفا تاكسيًا وصعدا إليه. طلبا من السائق التوجّه إلى منطقة الطبّالة التي تسكن فيها حواء الكرخي. كانت الطرقات مزدحمة.

حينما كانا في سيارة التاكسي كان القلقُ باديًا على وجه آدم أبوالتّنك أكثر مما على وجه آدم الشبيبي، إذ أنه لم يشرح لصديقه ما يدور في ذهنه من مخاوف سوى أنهما يجب أن يكونا قرب حواء الكرخي لأنها في خطر.

على بعد مائتي متر تقريبًا من البناية التي تسكنها حواء الكرخي كانت ثمة سيارات شرطة وازدحام..وتجمّع للناس.لم يستطع سائق التاكسي المرور بسهولة. اقتربت السيارة من الزحمة. توقّفت. لم يكن بالإمكان المرور. فتح السائق نافذة السيارة وسأل شابًا كان قادمًا من مكان الحادث:

– ماذا هناك..؟ لماذا كل هذا التجمع..؟

فوجئ الشاب بصوت السائق واقترب من النافذة ثم قال:

– هناك امرأة قتيلة..يقال مرت سيارة خاصة..أطلقوا النار عليها من مسدس كاتم للصوت.. وفرّ القتلة..كان هناك بعض المارة..الشرطة تقول إنها امرأة عراقية..مسكينة..لا تزال في عز شبابها.

قفز آدم أبوالتنك من السيارة فتبعه آدم الشبيبي الذي أعطى السائق مبلغًا أكبر مما يجب.

راود آدم أبوالتّنك هاجس خطير. حين اقترب من التجمّع شق طريقه وسط الدائرة المحيطة بالقتيلة. صار في المقدمة..انتبه إلى امرأتين عراقيتين تلبسان العباءات السود وخلفهما امرأتان بملابس الراهبات، لكن ملامحهما تشي إلى أنهما أوربيتان، إحداهما ذات جمال مُشع، في ريعان الشباب، والأخرى امرأة مسنّة. كانتا تقفان خلف المرأتين العراقيتين اللتين جلستا قرب جثة القتيلة.

حدّق آدم أبوالتّنك في الجثة بتركيز فعرف على الفور أنها حواء الكرخي. إذن، كان الرجلان اللذان انتبه لهما في المقهى قد جاءا لاغتيال حواء الكرخي وليس صديقتها كما كان يظن لحظتها..كيف لم ينتبه لذلك، أو كيف هي نفسها لم تنتبه لذلك..؟ أتراها كانت تحس بموتها..؟ لماذا قالت لهما وداعًا وليس إلى اللقاء...؟. كانت الأسئلة تتوالى على ذهنه المتوتر.

وبدون وعي منه انهار آدم أبوالتنك على ركبتيه أمام الجثة باكيًا، بينما انسحب آدم الشبيبي من حلقة الجمع البشري مرتبكًا ومذعورًا ..ركض باتجاه شارع جانبي والدموع تملأ عينيه..لم يكن يعرف إلى أين يذهب..!.

في تلك اللحظات رن الهاتف النقال للقتيلة. لم يتجرأ أحد على أن يأخذ الجهاز الذي كان خارج حقيبتها اليدوية الملقاة بجانب الجثة. ظل الهاتف يرن..ويرن.

وبرغم نحيبه المكتوم على حواء الكرخي لم يستطع آدم أبوالتنك أن يكتم فضوله في معرفة المتصل، فألقى نظرة على شاشة الجهاز.. وركّز نظرته،

على الشاشة فانتبه إلى الرقم الدولي 0039، وبسرعة فكّر في المفاتيح الدولية للاتصال، فعرفَ أن الإتصال يأتي من إيطاليا.. وسأل نفسه من تراه يتصل بها من إيطاليا..؟

ترك آدم أبوالتنك جثة حواء الكرخي ملقاة على الأرض وذهب مسرعًا إلى شقتها ليأخذ الطفل هابيل وحقيبة المخطوطات، وأشياء أخرى تخصها قبل أن يأتي رجال المباحث الجنائية ليفتشوها. كان خائفًا على حياة الطفل هابيل..لقد فسّر جريمة الاغتيال مع نفسه بأن الذين قاموا بها كانوا يريدون الوصول، إما إلى الطفل هابيل، وإما إلى مخطوطات الكاتب آدم البغدادي، والتي حملتها هي معها حينما هربت من بغداد.

حين وصل الشقة كانت حواء الفارسي، الفتاة العراقية التي تعمل في خدمتها موجودة. هما يعرفان بعضهما قليلًا، فهو الذي جاء بها لتعمل هنا مساعدة لحواء الكرخي في أمور البيت ورعاية الطفل هابيل..لذا كان مجيئه إلى الشقة طبيعيًا.. ولم تشُك هي في أي شيء..طلب منها إحضار الطفل ليأخذه معه لأن حواء الكرخي تعرضت لحادث ولا يمكن إبقاء الطفل وحده، لكنه لم يخبرها بطبيعة الحادث.. لمح في صالة الاستقبال الحقيبة الجلدية التي تضم المخطوطات.. سألته إن كان عليها أن تغادر الآن، أو إن كان عليها المجيء في الغد والأيام المقبلة، فطلب منها التريث والبقاء في البيت إلى حين اتصاله بها..كما وعدها بأن سيمر عليها ويعطيها أجور الأيام التي عملت فيها لديها.

***

يذكر الآن ما دار بينه وبيت آدم الشبيبي بعدما عاد بالحقيبة وبالطفل هابيل إلى شقته..كانت الحقيبة على الطاولة أمامه. ظل يحدّق فيها للحظات، ثم رفع رأسه ناظرًا إلى آدم الشبيبي الذي يجلس قبالته، حزينًا، ضائعًا، مسكونًا بخوف يطل من نظراته التائهة.

انتبه آدم الشبيبي إلى أن أبو التنك ينظر إليه، لكنه لم يبال بنظراته. ظل شارد النظرات، غارقًا في تأملاته العميقة، المرتبطة بأحداث ذلك اليوم المأساوي، إلّا أنه لم يستطع تجنب الحديث مع آدم أبو التنك الذي بادره قائلًا:

– هل تعرف كيف قُتل الكاتب آدم البغدادي..؟ أنت كنتَ في بغداد حينها..

انتبه آدم الشبيبي حينما سمع اسم الكاتب آدم البغدادي. نظر مستغربًا إليه.. وأجاب:

– لا أعرف بالضبط تفاصيل ذلك.. لكني سمعت روايات وتخمينات عن عملية الاغتيال..لكن ما الذي ذكّرك به..؟

صمت آدم أبو التنك للحظات..نظر إلى الحقيبة الجلدية التي أمامه على الطاولة، ثم نظر إلى آدم الشبيبي من خلال نظّارته الزجاجية الثقيلة متفحصًا.. أعاد النظر إلى الحقيبة الجلدية مركزًا نظراته عليها..وقال وكأنه يكشف سرًا خطيرًا:

– هذه الحقيبة مليئة بمخطوطاتهِ، ولا أدري إن كانت حواء الكرخي قد دفعت حياتها ثمناً لها..؟

اعتدل آدم الشبيبي في جلسته ودب في كيانه نشاط مفاجئ، وسأل:

– ماذا تقول..؟ ومن أين أتيت بهذه الحقيبة..؟ وما علاقة حواء الكرخي بها..؟ ولماذا تعتقد أنها قُتلت بسببها..؟

– هذه الحقيبة كانت قد حملتها معها حينما جاءت من بغداد..هي حكت لي كل شيء بالتفصيل.. فقد كان هناك صحفي وفنان اسمه آدم المحروم، وهو أحد أصدقاء الكاتب المغدور آدم البغدادي، وقد أخذ هذه المخطوطات من

شقته بعد اغتياله بساعات..ووصلت إلى يد امرأة شابة اسمها حواء الزاهد، وهي صديقة لحواء الكرخي، وفي الوقت نفسه هي أم الطفل هابيل..وقد تم اغتيالها أثناء محاولتها الهرب ومغادرة العراق بمعية حواء الكرخي التي تمكنت من مغادرة العراق بعد اغتيال صديقتها، حاملة معها المخطوطات والطفل اليتيم هابيل، وجاءت بهما إلى الشام..وأنا أخذتها اليوم مع الطفل هابيل من الشقة بعد عملية الاغتيال..

– أعرف ذلك..لكن من أين لك أن تعرف بأنها اغتيلت بسبب هذه المخطوطات..؟

– لا أعرف بالضبط..أعتقد ذلك.. وربما بسبب الطفل هابيل..فهناك ربما من يريد القضاء عليه..أو خطفه..لا أعرف..

صمت آدم الشبيبي للحظات مصدومًا من هذه الاحتمالات، التي هو يعرف الكثير من تفاصيلها، لاسيما في ما يتعلق حواء الزاهد وعلاقة حواء الكرخي بها، لكنه يشك في أن دافع الاغتيال هو المخطوطات..فسأل بارتباك وبنبرة فيها شيء من البرود:

– وهل ستبقي الطفل معك..؟ ألا يشكل كل هذا خطرًا عليك..لو صح أن القتلة يبحثون عنه..؟

فوجئ آدم أبوالتنك بالسؤال، وكأنه لم يفكر في الأمر، فنظر بارتباك، وقال:

– أكيد سأبقيه معي..أو..لا أعرف بالضبط.. بصراحة لم أفكر في الموضوع بعد..

– يجب أن تعرف..وتقرر..

ازدادت نظرات آدم أبوالتنك حيرة وقال:

– أنت محق..لا بد أن أجد حلًا لهذه المشكلة..لكن هل تعتقد أن من قام باغتيال حواء الكرخي يعرف أن المخطوطات والطفل عندي..

قال آدم الشبيبي بتوتر بعد لحظات من التفكير:

– لا أدري..؟ لكن هل هناك من يعرف بأنك قد أخذت المخطوطات والطفل..غيري..؟

كان وقع السؤال على آدم أبوالتنك مفاجئًا، وكأنه انتبه لما وراء السؤال من مخاطر، فأجاب مستسلمًا:

– نعم..الفتاة العراقية..حواء الفارسي..التي جئت بها كمساعدة لحواء الكرخي في شؤون البيت..لقد تحدثت معها..كانت في البيت مع الطفل..

– إذن عليك أن تفهمها بأن لا تُخبر أيًا كان عن أخذك للمخطوطات والطفل..

– نعم..أنت مُحق..سأذهب إليها غدًا..قال آدم أبوالتنك مؤيدًا.

– ولماذا غدًا..؟ إذهب الآن..فربما يصلون إليها قبلك..!

صمت آدم أبوالتنك للحظات، ثم قال:

– أنت مُحق.. عليّ الذهاب الآن..

نهض قلقًا..التفت إلى آدم الشبيبي قائلًا:

– لن أتأخر..لقد جهزت قنينة الحليب..هي موجودة في المطبخ..إذا ما استيقظ الطفل فيمكن إطعامه..كما توجد علبة من شوربة الأطفال..لكن أنا لا أتأخر..سأستقل تاكسيًا..

قال ذلك وخرج. بقي آدم الشبيبي في الشقة وحيدًا...أحس بشيء من الخوف البارد يسري في أعماقه.

اللعب بالكلمات

مدّ يده إلى الحقيبة الموضوعة على الطاولة، وسحب إحدى المخطوطات التي تتألف من رزمة ليست كبيرة وضخمة من الأوراق مثل بقية المخطوطات الأخرى التي بدت ضخمة من خلال فتحة الحقيبة.

كان واضحًا أن المخطوطة مكتوبة على جهاز الحاسوب ومطبوعة بشكل واضح..أخذ يتصفحها دون أن يفكر برضا أو عدم رضا آدم أبوالتنك عن تصرفه بفتح الحقيبة. تصفّح رزمة الأوراق..وقعت عيناه على عنوان بالخط العريض «**متاهة العميـان**» **للأعمى سليل العميان آدم البغدادي**..

لم ينو أن يقرأ هذه الرزمة الآن وإنما ود أن يتصفحها فقط، إلا أن عينيه وقعتا على أسطر استوقفته. أخذ يقرأ في صمت، لكنه كان يسمع الكلمات التي يقرأها تُنطق عاليًا في أعماقه..وداخل جمجمته:

«**هل تدرك معنى أن يلتفّ الزمن حول رقبتك..حول حياتك..مثلما تلتف الأشرطة الرقيقة حول جثمان المومياء..؟..لا أعتقد..لكن لمن أكتب أنا هذه الكلمات..؟ ومع من أتحدث أصلًا..؟ صحيح أنا أكتب لنفسي..لكن هذه خدعة..قناع مزيف..ادعاء كاذب..فما دمت أكتب فهذا يعني أنني أنتظر من يقرأ ما أكتب..!!**

أنا لست سوى أعمى..أنا مثل أوديسوس أبحث عن إيثاكا..رحي هائمة تمضي قُدمًا مخترقة دخان حرائق السنين وضباب غابات الحياة باحثة عن إيثاكا المعنى..وقارئي أعمى أيضًا.... .

ابتسم آدم الشبيبي مع نفسه حينما قرأ الجملة الأخيرة..كيف لهذا الكاتب الأعمى وصديقه الأعمى سيتحدثان عن رؤية أشياء جديدة إذاً..؟.

في تلك اللحظة سمع بكاء الطفل هابيل. وضع المخطوطة جانبًا. أحس بالارتباك..فهو لا يعرف كيف يُطعم طفلًا رضيعًا..لكنه فكّر مع نفسه بأن قنينة الحليب جاهزة وما عليه سوى أن يضعها في فمه.

قام بتوتر واضح إلى المطبخ. كانت القنينة موجودة أمام عينيه على طاولة الطعام المستديرة .أخذها وتوجه إلى غرفة النوم حيث الطفل الرضيع هابيل..

كان الطفل يبكي بكاءًا متقطعًا. نظر إليه لثوانٍ..تأمله.. ثم وضع حلمة القنينة في فمه. فأخذ الطفل يمتصها بنهم..لا يعرف آدم الشبيبي كيف تسربت الأسطر التي قرأها قبل قليل إلى ذهنه..فكر مع نفسه..بأن كل منا يبحث عن إيثاكاه..يحلم بإيثاكا العميان. غرق في تأملاته بينما كان الرضيع قد امتص نصف القنينة تقريبًا.

***

دخل آدم أبوالتنك إلى الشقة متعبًا، وقلقًا..وبدا أن المهمة التي مضى إليها لم تحل بما يرضيه. جلس على الصوفا دون أن يقول شيئًا..نظر آدم الشبيبي إليه نظرات مليئة بالاستفسار والترقب، وبعد لحظات سأل:

- ماذا جرى..؟ لماذا تأخرت كل هذا الوقت..؟ هل اتفقت معها..؟

نظر آدم أبوالتنك من وراء نظراته ذات العدسات الضيقة للحظات، ثم قال:

- تحدثت معها..كانت تشك في القصة التي رويتها لها..لأنها أخبرتني بأنها حين خرجتْ من الشقة..وبينما هي تنزل إلى الطابق الأسفل، من خلال الدرج، انتبهت إلى رجلين خرجا من المصعد وكان أحدهما مسلحًا.. لكن بدا أنهما ليسا عراقيين..وأخذا يطرقان باب الشقة بقوة وعصبية.. خافت هي فنزلت الدرج هاربة..وأخبرتني أنها لا تريد العودة للعمل عند حواء الكرخي..طبعا هي لم تكن تعرف بأنها قد قُتلت..وإنما كانت خائفة من هذين الرجلين الغامضين اللذين أعتقدُ أنهما القاتلان..فاضطررت إلى إخبارها الحقيقة..انهارت المسكينة..إنها فتاة طيبة..أخذت تلطم خدها على طريقة نسائنا العراقيات.. وتولول..بالكاد أسكتُّها..وأخبرتها بأنني أحتاجها من أجل الطفل هابيل..المسكينة ازداد بكاؤها على هابيل..هي لا تعرف أنه ليس ابن حواء الكرخي..

فتح آدم الشبيبي عينيه على سعتهما تعجبًا وسأل متعجبًا:

- هل أخبرتها بأن حواء الكرخي قُتلت..؟

- نعم..

- وهل حدثتك بالتفاصيل عن الرجلين اللذين قرعا الباب بعنف..؟ هل تعرف أوصافهما..؟ من المؤكد أنهما القاتلان اللذان نفذا عملية الإغتيال.. هل قالت أنهما يبدوان ليسا بعراقيين..؟

نظر آدم أبوالتنك إليه للحظات متسفهمًا لكنه لم يدرك كنه السؤال، فقال:

– نعم..لماذا تسأل..؟ ماذا تقصد..؟

– لا أدري..أظن أنهما يتعقبان الطفل هابيل..فلو كانت مهمتهما اغتيال حواء الكرخي لكانا اكتفيا بذلك..!..لماذا جاءا إلى شقتها بعد اغتيالها..؟ أظن أني أتذكرهما ، فقد لمحت إثنين كانا يجلسان في مقهى „الروضة" قربنا..وكانا يتطلعان لها.. ينظران إليها بفضول..

– لماذ لم تنبهني حينها..؟

– لا أعرف.لم يخطر في بالي أنهما يضمران لها شرًا.. ثم هذا تخمين مني..ربما هو ليس كذلك..؟ ربما اللذان أرادا اقتحام الشقة هما غير هذين اللذين كانا في المقهى..وغير الذين قاموا باغتيالها أصلًا..؟

صمت للحظات.كان الجو متوترًا.. كل منهما كان يفسّر الأحداث التي جرت ذلك اليوم بطريقته..فجأة سأل آدم أبوالتنك وكأنه تذكر شيئًا:

– هل أفاق الصغير من النوم..هل بكى..؟

– نعم..بكى..فذهبت إليه وأرضعته من قنينة الحليب التي جهزتها أنت.. شبع ونام مجددًا.

– جيد..

نظر إليه آدم الشبيبي، وكأنه انتبه إلى أنه لم يسمع القصة كاملة، فما الذي جرى بين آدم أبوالتنك وبين الفتاة التي كانت تخدم في بيت حواء الكرخي، فسأل:

– طيب..وماذا اتفقت معها..؟

– مع من..؟

– مع االمربية التي كانت تخدم في الشقة..

– أوه..حواء الفارسي..نعم..كانت خائفة جدًا..وترفض العمل والاقتراب من العمارة التي فيها الشقة..كانت مرعوبة.. لكن هابيل هو الذي رقق قلبها.. فوافقت على رعايته..واتفقت معها على رعايته هنا في شقتي..ترعاه النهار كله..وإذا اقتضى الأمر ستبقى الليل معه..فهي تعيش وحيدة في دمشق.

– إذا كان الأمر كذلك فلِمَ لا تعيش هي هنا..توجد لديك غرفة صغيرة هنا..

نظر إليه آدم أبوالتنك مرعوبًا، وقال:

– هنا..؟ أعوذ بالله..

– لماذا..؟

– أنا أخاف من النساء..هن أفاعي الفردوس المفقود..لقد فقدنا الفردوس ولم يبق منه سوى الأفاعي..ثم أنا رجل ميت..

– ميت..؟ ماذا تقصد..؟

– أنا آدم أبوالتنك الميت منذ سنين..منذ انقلاب 1963..

– لم أفهم..؟

– أفضل لك أن لا تفهم..فهذا الذي يجلس أمامك..الذي هو أنا.. والذي سميته ذات يوم مختار دمشق.. ليس أكثر من ذاكرة حائرة تمشي.. تجّتر أحداثًا صارت وهمًا في بحيرة الزمن..لا أريد أن أكون بطلًا..ولا أريد الاقتراب، ليس من امرأة فحسب..بل من ظل امرأة..النساء كارثة تمشي على الأرض..أسوأ بمليون مرة من الدكتور آدم كارثة...

ابتسما كلاهما بمرارة عندما جاء ذكر الدكتور آدم كارثة..لكن سرعان ما اختفت البسمة عن وجهيهما..إذ أحسا بأنه من غير اللائق أن يبتسما في يوم مقتل صديقتهما حواء الكرخي. كانا كتلة ممزوجة من الحزن والخوف والحيرة وانتظار اللا أحد ..وبدون إرادة منه ألقى آدم الشبيبي نظرة على المخطوطات التي كانت على الطاولة..ظل ينظر إليها بتركيز شديد، ثم رفع رأسه إلى آدم أبوالتنك وسأله:

- أتحب القراءة..؟

فوجئ آدم أبوالتنك من السؤال. ارتبك قليلًا. ثم قال بإنكسار:

- أحب القراءة..أحب أن أقرأ كل الكتب التي انتجتها البشرية.. لكن عمري لا يكفيني..ثم أني أحيانًا أسأل نفسي: لماذا أهدر عمري في القراءة..؟ ألكي أتعلم منها الحكمة..؟وأية حكمة..؟ أمن الحكمة أن أهدر عمري في قراءة الكتب..؟ ثم ماذا ستقول لنا الحكمة..؟ أنا متأكد أنها ستقول بأن علينا أن نعيش حياتنا بكل شغفها ولا نهدر أية دقيقة منها..والقراءة هي هدر للوقت..أليس كذلك..؟ أنا شخصيًا أعرف الكثير من الأسماء الفكرية والمصطلحات الفلسفية والسياسية..لكني لم أقرأ عنها في الكتب وإنما عرفتها من خلال الاستماع لهؤلاء الذين أهدروا الساعات والأيام والأسابيع والشهور والسنوات لمعرفتها..هم يتناقشون وأنا أستمع فأكون قد أخذت زبدة القول والكلام..

- والصحف..؟ ألا تقرأ الصحف ..؟

- الصحف..أنا لا أشتري الصحف..وإنما أقرأها في المقهى.. كل الأخبار في الصحف كاذبة..لا توجد أخبار حقيقية إلا أخبار الوفيات..

أتدري..مضى عليّ أكثر من ربع قرن في دمشق..جئتها شابًا..الإنسان لا يشعر أنه تقدم في السن إلا حينما يرى، بعد سنوات، الذين كانوا بالنسبة إليه مثالًا للجمال والأناقة..أو ينتبه لذلك حينما يبدأ الجسد وقواه لا تطاوع إرادة الشخص..فأنا أحس بتعب شديد وكأني أحمل أغلالًا، بينما عملي ليس مرهقًا، لا جسديًا ولا نفسيًا، لكني برغم ذلك أحس بتعب شديد..

نظر آدم الشبيبي إليه بإشفاق وسأله:

- لماذا لم تتزوج..؟

- أتزوج..؟ هل أنا مجنون..؟ أمامي جبال من تجارب الزواج الفاشلة..

- لكن الأطفال يمنحون الحياة معنى..

- إنك تعذب نفسك بالسؤال عن معنى الحياة..إنس ذلك..عش هكذا بدون أسئلة..إقفل على دماغك..خذ الحياة بيسر..وعش هكذا..ثم..ها أنت تراني أركض ليل نهار من أجل مساعدة الناس.. وبالتخصيص العراقيين.. أتدري لماذا أفعل ذلك..؟

نظر آدم الشبيبي إليه دون أن يسأله، فواصل الآخر قائلًا:

- أولًا لأهرب من هذا السؤال المقيت عن معنى الحياة..وأيضًا لأمنح حياتي معنى..لأننا عندما نفكر بالإنسانية جمعاء فإن التفكير في معنى الحياة يصير سؤالًا زائدًا وبلا معنى..

نظر إليه آدم الشبيبي نظرة متسائلة حزينة وقال:

- يعني أنك لا تفعل ذلك لقناعاتك السياسية..ولحبك الأصيل لفعل الخير..؟

- ليس دائمًا..كان ذلك في البداية..حتى صار طبعي أن أركض وراء الناس من أجل مساعدتهم..

- هذا يعني أن التفكير في الإنسانية وفعل الخير لا يكون بالضرورة إيمانًا راسخًا وعقائديًا بالإخوة الإنسانية..وإنما يمكن أن يكون أيضًا أشبه بالهروب من الذات، وإيجاد تبرير أخلاقي للامعنى الحياة..؟

نظر آدم أبوالتنك إليه وكأنه يكبت نفسه عن مشاكسته، ثم قال:

- لا أعرف ماذا تعني هذه الكلمات الكبيرة بالضبط..لكني أحس أن الأمر هكذا فعلًا.. لكن قل لي أنت كيف تنظر لمعنى الحياة..هل لها معنى حقًا..؟

فوجئ آدم الشبيبي من السؤال..ارتبك لثوان، هيأ نفسه ثم قال:

- لقد فكرت في السؤال عن معنى الحياة فلم أجد لها من معنى سوى الحب..وإرواء الرغبات..وأعتقد أن النشوة هي مركز أهداف الحياة.. النشوة التي أستمدها من كل شيء، لكن ذروة الشهوات وأهمها هو الحب وممارسته..

استمع آدم أبوالتنك بانتباه شديد لما قاله الآخر، وبدا كأنه يفكر فيه، لكن قال بشيء من اللامبالاة:

- كل شيء سينقضي..وكل نشوة لا تـدوم..ولا يبقى سوى الضجر.. الضجر حتى بالإستمرار في العيش..الملاذ هو النوم أو النسيان..والقيام بتكرار الواجبات التافهة..أنا أحيانًا أكره نفسي..أحتقرها..أقلل من شأنها..وهذا ما يبعث الراحة في نفسي.. وأعتقد أن إذلال النفس أفضل من تأنيب الضمير..

- ولماذ يؤنبك ضميرك..؟

أحس آدم الشبيبي وكأنه وخزه بإبرة، فأجاب آدم أبوالتنك بعصبية:

– لأني كنت أكره أمي..فقد كنت طفلًا عليلًا..سلمتني وأنا في الثالثة من عمري إلى خالتي كي تعتني بي..نسيتني طوال ثلاث سنوات.. وحين عدت إلى المنزل لقيت منها الظلم والإهمال..كنت أُعاقَب لأسباب تافهة..بل كنت أُعاقَب بسبب أخطاء ومشاكسات أخوتي..حتى أن بعض الأفكار كانت تراودني بأني لست ابنها وإنما ابن خالتي..فأخذت أكرهها..وربما هذا ما أفقدني التوازن في حياتي العادية..وأجج في نفسي الشعور بتأنيب الضمير.. إبعاد أمي لي واستبدادها في التعامل معي في ما بعد..هز ثقتي بنفسي..لذلك وجدت في السياسة ملاذًا..لاسيما حين أخذ رفاقي ورفيقاتي يحتفون بي ويغدقون علي من مودتهم..لكن بعد موت أمي أحسست أنها مسكينة.. هي أيضًا ضحية ظروف اجتماعية. لقد عرفت في ما بعد أنها كانت تحب ابن عمها لكنها زُوجت لأبي كهدية من قبيلتها..لأن أخاها قتل عمي..أي أنها كانت دية وفصلًا للدم..وكانت هي كما تُسمى لدينا „فصلّية"...وهكذا عاشت مع أبي دون حب..ونحن جئنا إلى الحياة كواجب مقرف كانت تتقبله مرغمة..لذا لم تمنحنا الحب كرهًا بأبي..

نظر آدم الشبيبي إليه بإستغراب..وظل صامتًا للحظات، حتى انتبه آدم أبوالتّنك إلى نظرات الاستغراب والتساؤل المرتسمة على وجهه..فسأله:

– لماذا تنظر إليّ هكذا..؟ هل قلت شيئا غريبًا..؟

ارتبك آدم الشبيبي قليلًا، ثم قال:

– لم أكن أظنك تفكر بهذه الطريقة الغريبة..ظننتك، وعذرًا على قولي، إنك إنسان عادي..سياسي تقليدي..ولست عميقًا إلى هذه الدرجة..ظننتك أبسط من ذلك بكثير.. ظننتك حزبيًا يؤدي مسؤلياته التنظيمية من خلال علاقته بالآخرين..

– ههه..كلامي أدهشك..؟ لا ضير..نحن نحتاج أحيانًا إلى بعض السخرية والهزل..وإلّا فهي لا تُطاق..

– ماذا تقصد..؟

ابتسم آدم أبوالتنك ابتسامة حزينة، وقال:

– أردت أن ألعب أمامك دور المثقف المعقد..الذي يطرح قضايا كبيرة مثل مقولة هاملت: أكون أو لا أكون ، ذلك هو السؤال..وأتحدث بلسان شخصيات تسموّنها إشكالية..ويبدو أنك اقتنعت بما قلته..؟ لا يا صديقي. أنا آدم أبوالتّنك..أنا ملتزم بقضية الطبقة العاملة وحزبها الطليعي..وكل هذه الفذلكات التي يتحدث بها المثقفون لا تعنيني..

ارتبك آدم الشبيبي وارتسمت الحيرة على وجهه، وقال:

– لم أفهم..؟ هل تقصد أن كل ما قلته لا تقصده وغير صحيح، وأنك كنت تسخر مني..؟

– لا ..لا..معاذ الله..لكني كنت أريد أن أثبت لك بأن الإنسان كذاب كبير..ومدّع كبير..ومقنع كبير...وأن اللعب بالكلمات من أسهل الألعاب التي لا تُكلّف شيئًا.

– هل تقصدني..هل تقصد أنني ألعب بالكلمات..؟

– لا..أنا أقصد نفسي..فقد تلاعبت بالكلمات كما رأيت..وأجدت اللعب..أليس كذلك..؟

ظل آدم الشبيبي ينظر إليه بتساؤل وكأنه يعيد تحليل ما دار بينهما من حوار..فجأة نهض واقفًا..نظر آدم أبوالتّنك إليه مستغربًا. أحس أنه جرح مشاعره.نظر آدم الشبيبي إليه للحظات وقال:

- أريد أن أذهب الآن..الوقت متأخر..

أحس آدم أبو التنك بالحرج والارتباك، فقال:

- يمكنك البقاء هنا الليلة..

- لا..لا..ضروري أن أذهب..لكن هل بالإمكان أن آخذ هذه المخطوطة معي كي أقرأها الليلة..وآتي بها غدًا..؟

لم يشأ آدم أبوالتنك أن يوافق، لكنه أراد أن يصحح الموقف، فقال:

- يمكنك طبعًا..لكن بشرط أن ترجعها غدًا..أنت تعرف خطورة قصة هذه المخطوطات..وربما هذه المخطوطات وراء اغتيال حبيبتنا حواء الكرخي..

نظر آدم الشبيبي إليه نظرة مرتبكة مليئة بالحيرة والانكسار..مد يده إلى المخطوطة التي كان يقرأ فيها..أخذها..وخرج دون أن يقول شيئًا..وعند الباب التفت إلى آدم أبوالتّنك الذي بقيَ جالسًا حائرًا من هذه النهاية للحوار بينهما الليلة، وقال له:

- تصبح على خير..

الفصل الثالث

في رحاب الظّلام المنعش

استيقظ آدم أبوالتّنك مبكرًا. كان قد سهر الليل حتّى ساعات الفجر، وانكشاف الظّلمة عن الأرض. ظلّ طوال تلك السّاعات يحاول تفسير حكاية اغتيال حوّاء الكرخي ويقلبها من مختلف الجوانب. استرجع تأريخ معرفته بها.. كيف جاءت وحدها إلى دمشق.. وكيف تعرّضت للمحاصرة من قبل الرجال العراقيّين السياسيّين من مختلف توجّهاتهم وأحزابهم.. واستذكر كلّ ما أُثير حولها من غبار وشائعات نالت من سمعتها.. وكيف تعرّف إليها في مقهى الروضة.. وكيف توثّقت العلاقة بينهما.. وكيف أحبّها حبًّا صامتًا لم يبح به قط، على الرّغم من أنّها كانت تحدس تعلّقه بها، لكنّها لم تشجّعه يومًا على البوح بمشاعره نحوها..وكان هو يعّد ذلك قساوة منها، لكن ذلك لم يؤثر على مشاعره نحوها..وحتى بعد أن ذبلت تلك المشاعر مثل باقة ورد في مزهرية من الخزف الصيني..بل يتذكر كيف ساعدها للسفر إلى أوروبا عن طريق التّهريب..وكيف عادت إلى العراق بعد سقوط النّظام الدكتاتوري واحتلال البلاد من قبل أمريكا.. وكيف جرى اغتيال صديقتها حواء الزاهد أم هابيل.. وكيف جاءت بالطّفل معها.. لكن هابيل الآن في عهدته..ليس لهذا الطّفل في العالم أحد سواه.. وبالرّغم من كل تداعياته، فأنّه لم يستطع أن يجد الجواب الشّافي على سؤاله: من اغتال حوّاء الكرخي.. ولماذا..؟.

نهض مغادرًا الصوفا التي في صالون البيت الصغير، والتي يتخذ منها عادةً سريرًا له.. مرَّ على الغرفة حيث ينام الطفل، فوجده مغمضًا عينيه، ولا تصدر عنه أيّة حركة.. أحسّ بالخوف من أن يكون الطفل قد مات.. انحنى على حافّة المهد الخشبي.. قرّب رأسه من أنف الطفل، فارتعب أكثر لأنّه لم يشعر بأثر لتنفّسه.. رفع رأسه، وأخذ ينظر إلى وجه الطفل، فلمحه يحرّك شفتيه، وكأنّه يمصّ الحليب من حلمة القنّينة.. ابتسم مع نفسه، وشعر بالرّاحة لكون الطّفل حيًّا.

خرج من الغرفة.. اتجه إلى المطبخ.. أعدَّ للطّفل قنّينة الحليب، ولنفسه شايًا. شعر بشيء من الجوع، فأخرج من الثّلاجة شيئًا من الزيتون، وقطعة من الجبن.. ورغيفًا من الخبز..سخّنه قليلًا على عين الطبّاخ المتّقدة.. سمع حركة في الغرفة.. نهض مسرعًا.. رأى أنّ الطّفل هابيل قد استيقظ، وهو ينظر إلى سقف الغرفة.. محرّكًا يديه ورجليه بحركات متشنجة لا إرادية. أخذه من المهد.. احتضنه.. اتّجه إلى الصّالة..ومن دون إرادة منه، قبّل الطفل هابيل.. أخذ يتشمّمه.. أعجبته رائحته الطّفولية..احتضن الطفل ممدّدًا إياه بين ذراعيه في حجره..أخذ الطفل ينظر إلى آدم أبوالتّنك.. كانت عينا الطّفل ذكيّتين أو هكذا بدت له.. أحسّ بأنّ الطّفل لا يزيح نظراته عنه.. فابتسم له، وقال:

– طيّب يا أستاذ هابيل..أقدّم لك نفسي.. أنا آدم أبوالتّنك..

فجأة، أخذ الطفل يحرّك يديه ورجليه بحركة متشنّجة، لكنّها عفوية.. ابتسم آدم أبوالتّنك له. في تلك اللحظة، رنّ جرس الباب الخارجي.. نهض آدم أبوالتنك والطفل بين ذراعيه..توجه إلى الغرفة..وضع الطّفل

في المهد.. ثم خرج ليفتح الباب.. أحسّ بالرّاحة حينما رأى المربية حواء الفارسي عند الباب.

دخلت الفتاة مرتبكة.. لكنّها تشجّعت حينما سألها آدم أبوالتّنك إن كانت قد تناولت الإفطار أم لا.. دعاها إلى أن تشاركه فطوره.. فقالت إنّها تناولت فطورها، لكنّها ستشاركه شرب الشاي.. ثمّ أخذت تتجوّل في البيت الصغير.. دخلت من دون أن تسأله إلى حيث ينام الطفل.. ومن هناك سألته عن مكان الحفاظات.. وقالت له بأنّها ستغير له حفاظاته، وإنّ عليه أن يملأ الطّشت البلاستيكي بالماء الدافئ كي تحمّم الطّفل هابيل.

***

في ذلك النهار، وبعد دقائق من وصول حواء الفارسي، دخل آدم الشّبيبي إلى شقّة آدم أبوالتّنك خلسة..لم يكن الباب مغلقًا كليًّا.. ارتاب هو، فمن عادة آدم أبوالتّنك أن يغلق الباب.. وقد تحدّث هو عن ذلك ذات مرّة.. بأنّه لن يشعر بالأمان، إلّا إذا أقفل الأبواب كلّها على نفسه.. فما الذي جرى.. راودته في تلك اللحظة أفكار سيّئة عن احتمال اغتيال آدم أبوالتّنك من قبل القتلة الذين اغتالوا حوّاء الكرخي..إلّا أنّه سمع طرطشة ماء تأتي من جهة المطبخ..تسلّل خفية..أخذ يقترب من المطبخ بحذر.. فلمح فتاة منحنيةً، وهي تغسل الطفل هابيل، بينما يمسك به آدم أبوالتّنك، وهو محني الرأس، وكأنّه يتحاشى النّظر إلى الفتاة.

كانت مؤخّرة الفتاة مثيرة جدًا وهي منحنية..راودت آدم الشّبيبي أحلام يقظة جنسيّة سريعة بأن يأتيها من الخلف، ويرفع ثوبها إلى الأعلى، ويولجه فيها..ولم يستطع الاستمرار في أحلامه الشبقيّة، إذ انتبه آدم أبوالتّنك إليه فجأة..فابتسم له.. وقال له:

- تعال..ساعدنا في تحميم هابيل.

توقفت الفتاة واستقامت ملتفتة إليه. أعجبها منذ اللحظة الأولى..وعلى الرغم من أنها فزّت حينما تحدث آدم أبوالتّنك.. إلّا أنّها استرخت حينما رأت آدم الشبيبي.. أخذت الطفل هابيل بين ذراعيها، بعد أن لفته بمنشفة كبيرة، وضمّته إلى صدرها..سارع آدم أبوالتّنك إلى التّعريف بينهما، فقدّمها له:

- هذه حوّاء الفارسي المربية..

ثم وجّه كلامه إلى حوّاء المرّبية، معرّفًا بآدم الشبيبي:

- وهذا آدم الشّبيبي..صحفي..شاعر..كاتب..مثقف..معقّد..

- معقّد..؟ ماذا يعني معقّد..؟

قالت حوّاء المربّية مستفسرة باستنكار، ثمّ عقّبت مبتسمة:

- ومن أيّ شيء هو متعقّد لا سمح الله..؟

- المثقّفون كلّهم معقّدون..حينما يتحدثون إليك، لا يتحدّثون بكلمات مفهومة وبسيطة ليوصلوا مقاصدهم، وإنّما يستخدمون مصطلحات وكلمات كبيرة..مثل الديالكتيك..والفينامونولجيا.. والتفكيك..والبنيوية.. والميتافيزيك..التناص والميتانص.. الشفافية..التماهي..

فتحت الفتاة عينيها باستغراب، وقالت:

- بأيّة لغة أنت تتكلم..؟ أنا سمعت بهذه المصطلحات لكني لا أفهمها..

- هذا ما أقصده..حينما قلت إنّ المثقّفين معقّدون..

نظرت الفتاة إلى آدم الشّبيبي الذي كان ينظر إلى آدم أبوالتّنك مبتسمًا من سخريته المعتادة من المثقّفين، وسألتْ:

– ألا تعرف أن تتحدّث مثلنا.. كي نفهمك..؟

ابتسم آدم الشّبيبي، وقال:

– طبعا أعرف..لكن صديقي أبوالتّنك يبالغ قليلًا.. فنحن، هذا إذا اعتبرت نفسي مثقفًا، حينما نتحدّث في ما بيننا نستخدم هذه المصطلحات في نقاشاتنا..لكنّنا حينما نتحدّث مع إنسان بسيط في الأمور العادية، فمن المؤكّد نحن لا نستخدمها ..بل نحن في ما بيننا نتحدّث عن الأمور العاديّة بلغة عاديّة..وهذا شيء طبيعي.. الأطبّاء مثلًا حينما يتحدّثون في ما بينهم، فهم يتحدّثون بالمصطلحات الطّبيّة..لا أحد يفهمهم..هم فقط يفهمون بعضهم البعض..وكذا هم الكتّاب والأدباء والنقّاد..فهم يتحدّثون بلغة اختصاصهم.. لذلك هم يفهمون بعضهم..إلّا إذا أراد البعض أن يستعرض ثقافته في الأمور العاديّة، فيتحدث بلغة معقّدة في أشياء بسيطة ويومية..

ابتسمت هي له وقالت:

– أنا أريد أن أتعلّم ...وأعرف هذه المصطلحات..هل ستشرحها لي..؟

ابتسم أبوالتّنك حينما لاحظ الميل المباشر والواضح لحوّاء الفارسي نحو آدم الشّبيبي، وقال:

– لا تخافي.. سيشرحها لك، وهو الممنون..

ضحكت وهي تأخذ الطّفل هابيل وتذهب إلى الغرفة، بينما احمرّ وجه آدم الشّبيبي، وارتبك.

***

حين وطئت حواء الفارسي أرض الغرفة، وصارت بعيدة عن أنظار الآدمَين، أحسّت بالرعب..لم تكن الغرفة التي دخلتها هي الغرفة التي

دخلتها قبل أن تحّمم الطفل هابيل..أحسّت أنّها في مكان لا حدود له، ولا نهايات واضحة..جدرانه متخفّية في الظلمة، ولا يتبيّنها البصر..وثمّة ريح باردة ومنعشة تأتي من أعماق الظّلمة..أحسّت وكأنّها في سرداب أو مرآب مفتوح وفارغ تحت بناية ضخمة.."لا هذا ليس مرآبًا تحت بناية.. هو بستان.. ثمة خرير لماء يجري في جدول غير مرئي.. أصوات بعض طّيور لا تُرى.. طائر نقّار الخشب يطغي صوته الرتيب في تلك الظّلمة الباردة.. أين هي، وما هذا المكان ..؟" سألت نفسها، وأحسّت وكأنّها فقدت ذاكرتها.. لم تتذكّر أين كانت.. وكيف صارت هنا في هذا المكان المُظلم..!..لكن في وسط هذا المكان الغامض كان مهد الطفل هابيل لا يزال في مكانه..لا يحيطه شيء..استغربت جدًا..! كيف اختفت معالم الغرفة بينما لم يبق منها سوى هذا المهد الخشبي..!؟.

انحنت برفق ووضعت الطفل هابيل في المهد ملفوفًا بالمنشفة الكبيرة.. انتبهت إلى وجه الطفل هابيل.. كان يضيء محاطًا بهالة وكأن ثمة شمعة تضيئه.. وكان هو ينظر إليها نظرات ذكية وواعية، وكأنّها نظرات لا تعود لطفل رضيع، وإنّما لإنسان بالغ..فجأة.. سمعت وقع خطى يأتي من أعماق الظلمة..!..

لا تعرف كيف أُضيء القسم الأول القريب إليها من ذلك المكان الغامض.. بعد لحظات، سمعت وقع خطوات قادمة من أعماق الظلمة.. اتضح لها حين وصل وقع الخطوات إلى القسم المضيء أنهن خمس نساء.. وهالها أن تجد حواء الكرخي تتوسطهن..وإلى جانبها من اليمين امرأتين جميلتين ترتديان العباءة العراقية وإثنتين أخريين بملابس الراهبات من جهة اليسار.. أحسّت بالخوف.. فهي تعرف أنّ حوّاء الكرخي قد قُتلت.

اقتربت النّساء الخمس منها مبتسمات، فأحسّت بطمأنينة لا تعرف سرّها تسري في ثنايا روحها.. وقفن على مقربة متر منها..لم يتكلمن معها..كانت عيونهن متقدة بحنان كبير ومتجهة نحو وجه الطفل هابيل..!

امرأة جميلة جدًّا تلبس العباءة العراقيّة اقتربت منها أكثر من الأخريات.. انحنت على الطّفل هابيل في مهده..ارتعش وجه المرأة بشوق ولهفة، ثمّ فاض بحنان مشوب بالحزن.. اقتربت حوّاء الكرخي أيضًا، وقفت على الجهة المقابلة من المهد.. نظرت إلى الطفل هابيل.. همست حوّاء الكرخي للمرأة الأخرى:

– هذا ابنك هابيل الزّاهد يا حوّاء.. ألم أقل لك إنّه بخير..

انحنيتا على المهد..وصارتا تحيطان الطّفل بوجهيهما..كان الطفل ينظر إلى تلك المرأة الجميلة التي انحنت بوجهها عليه وكأنّه يعرفها..أشرق وجهه بابتسامة عريضة.. وأخذ يطلق صوتًا ضاحكًا، محرّكًا يديه ورجليه بمرحٍ طفولي.

ابتعدت المرأة التي خمّنت حوّاء الفارسي بأنّها أم الطفل هابيل..تبعتها حوّاء الكرخي..استغربت حواء المربية من أن حواء الكرخي لم تنظر إليها.. بل تعاملت معها وكأنّها لا تعرفها بتاتًا..تراجعت المرأتان حتى صارتا في موازاة بقيّة النساء على خطٍّ مستقيم..كانت النساء الخمس واقفات ينظرن بحنان إلى المهد..نظرات فيها خشوع وأمومة فياضة..كانت النساء الخمس أشبه بقديسات يقمن طقسًا دينيًا..انتبهت حوّاء المربّية إلى أنّ الضّوء الذي أنار الجزء المتقدّم من المكان أخذ يخفت شيئًا فشيئًا، وعمّ الظلام من جديد..واختفت النساء الخمس في قلب الظلام..!.

كان المكان مظلمًا..والهواءُ منعشًا..والأمانُ كبيرًا..وصوتُ خرير الماء رتيبًا في الجدول المختفي..وأصواتُ الطّيور المغرّدة بين لحظة وأخرى، ويتعالى خفق أجنحة الطيور..ثم يعلو عليها صوت طائر نقار الخشب.. بضرباته الرّتيبة والسّريعة..من دون أن ترى أي طير..

فجأة..اختفى كلّ شيء..لم تعد تسمع خرير الماء في الجدول، ولا أصوات الطيور، ولا ضربات نقار الخشب الرتيبة..ولم تعد تهبّ نسائم منعشة من أعماق الظلمة الوارفة الظلال..بل وجدت نفسها في قاعة مظلمة، لا متناهية العمق.. ومن أعماق الظلام، أخذت تسمع وقع حوافر حصان.. لكنّها لا تراه.. تصاعدت إيقاعات وقْع الحصان، وأخذت تتعالى.. ومن أعماق الظّلمة، أخذ يتشكّل أمامها حيوان هزيل.. اقترب وقع الخطى منها.. وانكشف ضوء فضيّ بسيط أشبه بضوء القمر عندما يكون بدرًا.. فرأت أمامها حصانًا هزيلًا.. هزيلًا جدًّا.. أمعنت النّظر إليه.. كان هزيلًا بشكل يثير الشّفقة..أضلاعه ناتئة، تكاد تشقّ جلده، وتبرز خارجة.. بالكاد يمشي.. البخار يتصاعد من منخريه.

وقف الحصان الهزيل أمامها..رفع رأسه إليها مُنكسرًا..انتبهت إلى أنّه مفقوء العينين..حصان أعمى..ظلّ لدقائق لا يفعل شيئًا، وكأنّما قد تجمّد.. ثمّ حمحم بصعوبة.. واستدار راجعًا من حيث أتى.. يمشي متعبًا..

شيئًا فشيئًا، اختفى الحصان في الظّلمة..يتبعه وقع خطاه..إلى أن اندثرت الأصوات في العتمة أيضًا. أحسّت بشفقة على الحصان الهزيل الأعمى.. المفقوء العينين.. سألت نفسها: لماذا جاء إليّ..؟ لماذا وقف وكأنّه يريد

أن يقول شيئًا..؟ ومن فقأ عينيه..؟ وكيف جاء ماشيًا إليّ..؟ لماذا عاد إلى أعماق الظلام..؟ من هو..؟ وماذا يعني كلّ هذا..؟

أحسّتْ حواء الفارسي للحظة أنها خارج الزّمان والمكان..ربّما هي تحلم..فهي لم تنم البارحة نومًا هائئًا..أغلقت عينيها للحظة واحدة.. وحين فتحت عينيها، وجدت نفسها في الغرفة نفسها، بينما وصلها صوت الآدمَين يتحدّثان..استغربت ما جرى لها.. أتُرى ما مرّ بها كان وهمًا..؟ حلم يقظة..؟ أم أنّها فعلًا كانت في مكان ما، وقابلت أمّ الطفل هابيل، وكذلك حوّاء الكرخي.. كيف جرى ذلك..؟..هل هذا البيت مسكون بالأرواح..؟ وحتّى لو كانت قد رأت أرواحًا، فإنّها لم تكن خائفة، وهنّ كنّ جميلات جدًّا مثل قديسات أو شفيعات..

قطع عليها تداعياتها مع نفسها صوت آدم الشّبيبي وهو يحادث آدم أبو التّنك قائلًا:

- الحبّ من طرف واحد تعاسة وشقاء..

- وهل الحبّ موجود أصلًا..؟ قال آدم أبو التّنك بنرفزة..

وخمّنت أنّهما دخلا إلى المطبخ..فقد خفتت الأصوات..لم تعد تسمع سوى غمغمة غير واضحة..فكّرت مع نفسها بأنّهما كلاهما محقّ، فالحب من طرف واحد تعاسة وشقاء..ولكن، هل الحب موجود أصلًا..؟ الحبّ وهم.. هي تعرف ذلك..!

الهبوط إلى السرداب

مرّ شهران تقريبًا على ذلك اليوم المشؤوم ..كانا في مقهى „الروضة „ كعادتهما..قال آدم أبوالتّنك هامسًا، وهو يتلفت في ما حوله، وكأنه يحاول أن يطمئن بأن حديثهما لن يسمعه أحد:

- لقد جاءني إلى المقهى..، ضابط ومرافقان، وطلبوا مني التفضل معهم لطرح بعض الأسئلة حول اغتيال المرحومة حواء الكرخي..فذهبت معهم..

- آها..؟

ارتسمت علامات الخوف الممزوج بالدهشة على وجه آدم الشبيبي، ثم أحس بالخجل، لأن الجواب كان واضحًا. نظر آدم أبو التنك إليه مستغربًا سؤاله، فتدارك الآخر الأمر، فسأل بالنبرة والهمس نفسه:

- وماذا جرى..ماذا سألوك..؟

حاول آدم أبو التنك أن يمنح نفسه قوة وهمية فقال بلا مبالاة وكأنه لم يهتم بالأمر:

- لاشيء..مجرد أسئلة عادية..لم يحققوا معي من باب الشك والاتهام.. إذ اتضح أنهم يعرفون علاقتي الطيبة بالمرحومة..إلى جانب أنهم يعرفونني منذ عشرات السنين..ويبدو أن لديهم معلومات كثيرة جدًا عن كل العراقيين

المتواجدين هنا في دمشق..وهذا ما كنت أتوقعه..لكني لم أتوقع أنهم يعرفون دقائق الأمور التي تجري بين أوساط العراقيين..وكأن بين العراقيين من يتعاون سرًا معهم..

كان وجه آدم الشبيبي مذعورًا، وفهم من آدم أبوالتنك بأن التحقيق كان طويلًا ومتشعّبًا، لكن كل هذا لم يكن يهمه، إذ كان يفكر بشيء آخر، فسأل بخوف واضح:

- هل سألوك عني..؟

صمت آدم أبوالتنك لثوانٍ..فكر للحظات في أن يصمت أكثر ليعذب هذا المثقف المذعور، فلطالما كان الآخر ينظر إليه بتعالٍ متحصنًا بثقافته، ويحرجه بالسؤال عن كتب لم يسمع بها ولم يقرأها، مستعرضًا عضلاته الفكرية..متعاليًا عليه بأنه يكتب الشعر ويعمل في الصحافة..لذا جاءت فرصته وعليه أن يعذبه الآن نفسيًا..نظر إليه فوجده مرعوبًا..ينظر إليه بتوسل منتظرًا الجواب وكأنه قضاء محتوم، فتراجع عن صمته..وأحس نحوه بشفقة، فقال:

- نعم..سألوني عنك..؟

فتح آدم الشبيبي عينيه على آخرهما وسأل بتعجب مشوب بخوف:

- ماذا سألوك..؟ وماذا قلت لهم..؟

ارتسمت ابتسامة غامضة على وجه آدم أبوالتنك، وظل صامتًا للحظات.. ثم قال بلا مبالاة مصطنعة:

- وضّحت لهم طبيعة علاقتك بالمرحومة..بأنك كنت على علاقة طيبة جدًا معها..بل كانت ثمة خصوصية في علاقتكما.. علاقتك بها كانت عاطفية وشخصية..ربما تشكلت حينما كنتما في بغداد..

ارتبك آدم الشبيبي، فقال بإنكار ونبرة احتجاجية:

- لا..لا..كيف تقول لهم ذلك..؟ لم تكن بيننا علاقة عاطفية..ولا شخصية..مجرد استلطاف لا أكثر.

نظر آدم أبوالتنك إليه بغضب مكتوم إلى هذا الفأر الذي يريد القفز من السفينة الغارقة..لكن إلى أين ..؟ إلى البحر..؟..فقال دون أن يستطيع كتم غضبه بالكامل:

- لماذا أنت خائف إلى هذه الدرجة بحيث تُنكر حبك لها..وتنفي علاقتكما..إنهم لا يشكّون بك أبدًا..فلا تخف..أن يسألوا عنك فهو أمر طبيعي..نحن كنّا أقرب الناس لها ..ومن المؤكد أنهم رأونا معًا مرات ومرات..ومن الطبيعي أن يستفسروا منا..ولأني هنا منذ أكثر من ربع قرن فهم يعرفونني..لذلك استفسروا مني..فلا تخف..ولا تتنكر لحبك بهذه السهولة.. هذا عيب..لايليق بك..ولا يليق بصديقتنا الرائعة التي رحلت عن عالمنا غدرًا.

ارتبك آدم الشبيبي من هجوم آدم أبوالتنك عليه بهذه الطريقة..والحديث عن علاقتهما بهذا الوضوح..أحس بخجل حقيقي.. صمت للحظات، لكنه عاد وقال:

- ما تقوله صحيح..لكن أنا الذي كنت أكن لها المشاعر..أما من طرفها فلم يكن الأمر كذلك..

أحس آدم أبوالتنك براحة خفية، إذن فهو مثله يحبها من طرفٍ واحد، لكن سرعان ما استذكر المشاهد التي جمعتهما معًا، وتأكد من زيف كلام آدم الشبيبي، فقد انتبه هو بنفسه إلى أن المرحومة كانت تميل بشكل واضح إلى آدم الشبيبي..لكنها كانت تعرف أنه هو أيضًا يحبها، لذلك لم تود أن

تجرح مشاعره بكشف طبيعة مشاعرها التي تكنها لآدم الشبيبي أمامه..كانت لا تريد أن تخسره..ولا تخسر أي من عشاّقها..وقال في نفسه متحسرًا: آه من النساء..لكن الشبيبي الآن وحيد..وقد خسرها مثله أيضًا..ومرق في أعماقه خاطر هرب منه مباشرةً..إذ خطر بذهنه أنه من الجيد بأنها رحلت، فقد خلصته من نار الغيرة، كما أن الآخر خسرها ولم يحصل عليها..لكنه خجل من هذا الخاطر فأراد أن يخفف على الآخر..فقال:

- لكنهم، كما يبدو لي، يشكّون في أن دوافع الاغتيال شخصية، ولا يعتقدون بأية دوافع سياسية وراء ذلك..إلا أنهم سألوني عن اسماء ثلاثة أشخاص، إن كنت أعرفهم أو سمعت بهم..

- من هم الأشخاص الذين سألوك عنهم..؟

نظر آدم أبوالتنك إليه من خلال نظاراته الضيقة وكأنه يتوجس أن يسرد كل ما جرى هناك، فقال:

- سألوني عن المرأة العراقية التي اختفت فجأة..صديقة المرحومة.. تلك المرأة التي سكنت فندق الشام، التي اسمها حواء ذوالنورين..وكذلك عن شخصٍ اسمه قابيل العباسي يبدو أنه زوجها..ويلاحقها.. وآخر اسمه الحاج هابيل..

ارتد آدم الشبيبي للوراء مندهشًا ومصدومًا عندما سمع الإسم الأخير.. انتبه آدم أبوالتنك له..نظر إليه بتفحص للحظة..ثم سأله:

- ما بك..؟ هل تعرفهم..؟

ارتبك آدم الشبيبي وقال بنبرة فيها خوف واضح:

– أعرفهم..أعرف المدعو الأخير..الحاج هابيل..

– أتعرفه..؟ من هو..؟

– هذه قصة طويلة..باختصار..أنا لا أعرفه شخصيًا..لكني أعرفه اسمًا.. هو أخو زوج حواء الزاهد..أم الطفل هابيل..

ارتسمت علامات المفاجأة على وجه آدم أبوالتنك، وقال باستغراب:

– ماذا..؟

– نعم..الحاج هابيل هو أخو زوج السيدة حواء الزاهد..أم الطفل هابيل.. وكان يهددها..وهو الذي اختطف صديقي قابيل الفهد..مدير المدرسة التي كان فيها ابن حواء الزاهد من زوجها الرسمي..واختفى صديقي..وأعتقد أنهم قتلوه..وكان هذا الرجل وبعض أصحابه من أحد الأحزاب الدينية قد ذبح الصحفي والفنان آدم المحروم..الذي هو والد هابيل..

– لم أفهم..اروِ لي القصة بالتفصيل..لقد اخبرتني المرحومة حواء الكرخي بشكل مبتسر جدًا عن الطفل هابيل..وأنه ابن صديقتها التي تم اغتيالها..لكنها لم تحك لي تفاصيل الحكاية بدقة..

أحس آدم الشبيبي بأهميته الشخصية..فأخذ يسرد الحكاية كما يعرفها، فتقدم بجذعه الأعلى إلى الأمام، وخفض رأسه، وكأنه يروي أسرارًا وقال بهدوء:

– كما قلت لك..الحاج هابيل قاتل..مجرم..لكنه مُتنفذ..ينتمي لأحد الأحزاب الشيعية المتنفذة والحاكمة في العراق..وكما قلت لك..فقد ذبح الصحفي والفنان آدم المحروم لأن الأخير كان على علاقة مع حواء الزاهد زوجة أخيه..وبعد أن ذبحوا حبيبها آدم المحروم اعترفت حواء

الزاهد على الحاج هابيل ومن معه الذين هددوها بقتله في الليلة نفسها.. فاعتقل..لكنه دفع أموالًا طائلة..رشاوى..فخرج من السجن..وأخذ يهدد حواء الزاهد......(تلتفت في ما حوله للحظات وواصل)..لقد تعرفنا.. أنا والمرحومة حواء الكرخي على حواء الزاهد من خلال صديقي قابيل الفهد..مدير المدرسة..الذي كان يستلطف حواء الزاهد ويحاول أن يساعدها باعتبارها أم لطفلين..وأرملة.. وقد استنجدت حواء الزاهد هذه به بعد أن أخذت التهديدات تصلها بشكل مجهول أول الأمر، ثم عرفت أنها من حميها الحاج هابيل..فطلب صديقي مني أن نقف إلى جانبها لأنها تعيش مع طفليها وحدهم..فذهبت حواء الكرخي إليها..وتعرفت عليها.. صارت بينهما علاقة صداقة قوية جدًا..

صمت آدم الشبيبي للحظات..أراد أن يتبين أهميته وأهمية ما يعرفه ووقعه على الآخر..بينما كان آدم أبوالتنك يتلقف كل كلمة ينطق آدم الشبيبي بها بمتعة وغيرة لا يعرف مصدرها..كان يحس أن حواء الكرخي لم تثق به بالكامل وإلّا لكانت روت له كل هذه التفاصيل التي يعرفها الآخر..ولم يشأ أن يقاطع آدم الشبيبي بأسئلة جانبية، فقال له:

واصل..

أحس آدم الشبيبي بشيء من الخيبة لكنه أدرك بأنه أثار فضوله، فواصل:

المرحومة حواء الكرخي أحبتها جدًا..وكانت تحدثني عنها كثيرًا.. وأرادت أن تساعدها..حتى أنها أقنعتها بمغادرة العراق..ثم قرّرتا المجيء إلى الشام..وهذا ما جرى فعلًا..لكن كما يبدو أن الحاج هابيل كان يترصدها..فقبل الوصول إلى موقف السيارات التي تتجه إلى سوريا أرسل

الحاج هابيل، إثنين من أعوانه على دراجتهم النارية وتوجها نحو التاكسي الذي كان يقل حواء الزاهد وابنيها وحواء الكرخي معهما.. وأطلقوا النار بسرعة على من فيه....لقد أخبرتني المرحومة حواء الكرخي حينما وصلت دمشق بكل هذه التفاصيل...لقد قُتلت حواء الزاهد وابنها الكبير الذي كان اسمه آدم الملاك فورًا، كما قُتل سائق التاكسي..ونجت حواء الكرخي والطفل الرضيع هابيل الذي كان في حجرها..

لذلك أعتقد أن للحاج هابيل يدًا باغتيال حواء الكرخي..خاصةً وهو يعرف بأنها أخذت الطفل معها..وهم يريدون القضاء على الطفل..لاسيما وأن الطفل سُجل في الدوائر الرسمية باسم زوج حواء الزاهد المتوفي.. وليس باسم حبيبها آدم المحروم..وربما هم يريدون القضاء عليه للإستيلاء على الإرث الكبير الذي يخص زوج حواء الزاهد..لكنهم لا يعرفون بأن المرحومة حواء الكرخي في اللحظات الأخيرة وبمساعدة أخيها المسؤول الكبير جدًا في الحزب الحاكم ألحقت الطفل بجواز سفرها ..وجاءت به إلى هنا مع المخطوطات التي كانت بحوزة حواء الزاهد والتي هي بدورها أخذتها من حبيبها آدم المحروم..الذي أخذها من شقة الكاتب المغدور آدم البغدادي بعد اغتياله مباشرة...لا أعرف..

كان آدم أبوالتنك يستمع إليه وكأنه غير مصدق ما يسمع..وأحس بغيظه يتكثف..وعلى غير توقع من آدم الشبيبي سأل:

- وقابيل العباسي..هل تعرفه..؟

- نعم..سمعت به أيضًا.

- وماذا تعرف عنه..؟

– ليس أكثر مما تعرفه أنت عنه..

– فقد روت لي المرحومة حواء الكرخي هنا في دمشق قصة صديقتها التي رافقتها في الطريق..أقصد هذه المرأة التي سألوك عنها..حواء ذوالنورين.. فهذا المدعو قابيل العباسي هو قائد لتنظيم إرهابي..ضابط برتبة عالية في جهاز مخابرات النظام السابق، لكنه صار أميرًا في تنظيم القاعدة..وتزوج المرأة حواء ذوالنورين قسرًا..فهو صديق ابنها الذي انتحر بعد أن رأى فيديو مصورًا، فيه عملية اغتصاب أمه من قبل الذين خطفوه..وكما علمت أن الأم حواء ذوالنورين هربت بعد انتحار ابنها..ورافقت المرحومة حواء الكرخي في الطريق..وأنهما سكنا معًا في الأيام الأولى بفندق „الشام"..لكنني لا أعرف عن قابيل العباسي أكثر مما رويت لك الآن..

صمت آدم أبوالتنك للحظة..ارتسمت على وجهه علامات تفكير داخلي..نظر إلى آدم الشبيبي وقال وكأنه اكتشف سرًا.

– الآن أدركت من هو القاتل..إنه هو..قابيل العباسي..لأني عرفت أن هناك من يتعقب حواء ذوالنورين من بغداد.. وأخبرت المرحومة بذلك..أحد رفاقنا كان في موقف السيارات ببغداد حينما جاء رجال مريبون..وأخذوا يسألون في إدارة النقليات عن امرأة اسمها حواء ذوالنورين ومعهم صورة لها..لكن المرحومة لم تقل لي إن اسم زوج صديقتها هو قابيل العباسي..

علق آدم الشبيبي بلامبالاة:

– هي أخبرتني بذلك أيضًا...

أحس آدم ابوالتنك بالغيظ مرة أخرى من حواء الكرخي لأنها أخبرت آدم الشبيبي عن شخصية قابيل العباسي بينما هو آدم أبوالتنك الذي توجه إلى

شقتها ليخبرها بأن حياة صديقتها في خطر لأن هناك من يبحث عنها لكنها لم تخبره بالتفاصيل.. إلا أن آدم الشبيبي سأله مباغتًا.

- ولماذا سألوك عن هذه المرأة التي اسمها حواء ذوالنورين..؟ ألم يكن بإمكانهم أن يحققوا معها مباشرة..؟.

كان آدم أبوالتنك مشتتًا بين حواره الداخلي مع نفسه والحوار مع آدم الشبيبي، فقال:

- قالوا إن هذه المرأة قد اختفت من الشام نهائيًا..لم يعثروا لها على أثر.. وقد أرادوا التحقيق مع مدير الفندق الذي كانت تسكن فيه..إلّا أن الرجل قد جُن بعد أن قام بقتل ابنه في هجوم إرهابي على الفندق حيث كان ابنه مع الإرهابيين..

- وأين اختفت..؟

- لا أحد يعرف..

انتبه آدم أبوالتنك إلى ارتباك آدم الشبيبي غير الطبيعي..فكر مع نفسه بأنه يخفي شيئًا..لاسيما وأن الآخر بدأ يتحرك وكأنه يريد مغادرة المقهى..وسأل بشكل مفاجئ:

- هل ستبقى هنا..؟

استغرب آدم ابوالتنك سؤاله، لكنه انتبه إلى أن الآخر قلق جدًا ومذعور، فسأله:

- لماذا..؟ هل هناك شيء..؟

رد آدم الشبيبي محاولًا السيطرة على ارتباكه:

- لا..لكني كنت أسأل لأني سأذهب..أشعر بتعبٍ شديد..ولا أدري ماذ أفعل..أفكر بمغادرة سوريا إلى الخارج..بصراحة أنا خائف..لأن الحاج هابيل يعرف أني صديق قابيل الفهد الذي تم خطفه من قبله..وكذلك أنا صديق المرحومة حواء الكرخي التي كانت مع المرحومة حواء الزاهد.. وأعرف حكايته كلها..إلى جانب أنه طاردني أيضًا خاصةً حينما كنت مع قابيل الفهد قبل اختطافه..فحينما كنت في بغداد رأيت هناك من يتعقبني.. حينها لم أكن أعرف من هم هؤلاء الذين يتبعونني..لكن بعد اغتيال حواء الزاهد أم الطفل هابيل..ونجاة المرحومة حواء الكرخي ووصولها إلى دمشق..والتي حكت لي تفاصيل كنت أجهلها..واغتيالها هنا في دمشق.. صرت خائفًا على نفسي..فيمكن أن يصلوا إليّ..

صُدم آدم ابوالتنك. لم يكن يعتقد أن الأمور متداخلة إلى هذا الحد..ولم يكن يعتقد بأن آدم الشبيبي له علاقة بكل ما يجري وأنه قريب من هذه الدائرة المرعبة من القتل والذبح..كان يعتقد أن مجيئه إلى سوريا هو شبيه بمجيء عشرات الألوف من العراقيين الذين هربوا من الإرهاب والصراع الطائفي في البلاد..الآن تكشّف له الموقف مثلما تكشف ستارة المسرح عن المشهد الدرامي على الخشبة..أحس بتغير في موقفه.. استيقظت إرادة الخير في أعماقه..وتدفقت مشاعر تعاطف نحو هذا الفتى الوسيم المرعوب.. فسأله:

- وماذا ستفعل..؟ إلى أين تريد الذهاب الآن..؟

- لا أعرف..إلى الفندق..أريد مغادرة سوريا بأي شكل..أريد أن أهرب من كل هؤلاء قبل أن يصلوني..

صمت آدم أبوالتنك للحظات، فكر مع نفسه، ثم قال له:

– هل لديك مال..؟

– ماذا تقصد..؟

– تريد أن تهرب وتهاجر..هل لديك المال كي تدفع للمهربين..؟

– لدي مبلغ ما..لا أدري إن كان يكفي..أريد أن أغادر من هنا..أنا خائف..

نظر آدم أبوالتنك إليه وقال بتعاطف وود مكتوم:

– تعال معي..تستطيع أن تسكن عندي..سنفّكر بالأمر جيدًا..أعرف بعض المهربين..ربما سنستطيع تهريبك إلى قبرص أو إلى تركيا ومنها إلى أوروبا.. أو يمكنك السفر إلى أي بلد عربي يتساهل مع العراقيين قليلًا..لكن الآن من الأفضل أن تنتقل للسكن عندي..وتوفر لنفسك هذا المبلغ الذي تدفعه لأصحاب الفندق..وفي الوقت نفسه ستكون في أمان لدي.. اجلس الآن..

ارتبك آدم الشبيبي أكثر لكن الرعب تقلص في عينيه وشعّتا بأمان.. وجلس دون أن ينطق شيئًا.

***

حين دخلا إلى الصالة كان الوقت غروبًا.. وكانت المربية حواء الفارسي جالسة على الصوفا تشاهد مسلسلًا تلفزيونيًا سوريًّا..وكان الطفل هابيل في حجرها جالسًا ينظر إلى الشاشة وكأنه يفهم ما يدور فيها ويحرك رجليه ويديه بحركة فرح متشنجة مُطلقًا كركراتٍ طفولية مرحة..

استغربت حينما رأت آدم الشبيبي ومعه حقيبة كبيرة، لكنها شعرت براحة نفسية لرؤيته..نهضت من مكانها محتضنة الطفل..ابتسم لها آدم أبوالتنك قائلًا:

- سلام عليكم..الأستاذ آدم الشبيبي سيعيش لدينا مؤقتًا..لحين سفره..

نظرت حواء المربية إليهما دون أن تفهم شيئًا وسألت دون أن ترد على السلام:

- وهل سيسافر الأستاذ..؟

نظر آدم أبوالتنك إليه منتظرًا أن يجيب إلا أن آدم الشبيبي كان مرتبكًا، فلم يجب وإنما انهمك بوضع الحقيبة جانبًا وتسويتها إلى جانب الحائط، فانبرى آدم أبوالتنك موضحًا.

- سيسافر إلى أوروبا قريبًا..سيدرس في إحدى جامعات فرنسا..

لا يعرف آدم أبوالتنك لِمَ أجاب هكذا ولِمَ أختار فرنسا..فقد قال ذلك بعفوية، إذ أنها سألت:

- ولماذا لا يدرس هنا في الجامعات السورية..؟

نظر آدم أبوالتنك إلى آدم الشبيبي، وكأنه يدعوه كي ينقذه بإجابة سريعة، فبادر الآخر قائلًا:

- أريد أن أدرس الأدب الفرنسي..وأفضل مكان لدراسته هو أن أذهب لفرنسا نفسها..هل تعرفين ستندال..؟

نظرت إليه بغرابة، وسألت وكأنها لا تعرف شيئًا.

- ما هذا الستندال..؟ هل هو بشر أو شيء ما.. أو مكان..؟

ابتسم لها بطيبة قائلًا:

- ستندال كاتب عظيم..أحد أنبياء الحب في هذا العالم..

ارتسمت الدهشة على وجه حواء الفارسي وقالت بنبرة فيها مزاح مقصود:

– هل هو نبي..؟ صلوات الله عليه إذن..لكن ما معنى أحد أنبياء الحب..؟ كل الأنبياء يدعون للصوم والصلاة.. والعبادات..ويخيفوننا بجهنم..وعذاب القبر..والحب لديهم حرام..وفسق..وغواية الشيطان.. فكيف بهذا الستندال يكون نبي حب..؟

ابتسم آدم الشبيبي برغم ارتباكه ابتسامة عريضة وقال:

– نعم..ستندال صلوات الله عليه..نبي يدعو إلى الحب..لديه كتاب فيه تعاليمه المقدسة عن الحب..

كانت عينا حواء الفارسي تتابعان آدم الشبيبي وكأنها تشرب كلماته وتعاني من أجل فهمها، فتألقت عيناها وقالت:

– أنا أيضًا حنونة جدًا...ألف امرأة ذكية ومثقفة ليس عندهن ربع الحنان والطيبة التي عندي..أنا اتمنى مثلًا أن أنذر عمري لتربية هذا الطفل اليتيم.. هابيل..

في تلك اللحظة..تغيرت ملامح آدم أبوالتنك..التقط جملتها الأخيرة فقاطعهما سائلًا إياها:

– يعني لو طلبت منك أن تكرسي كل حياتك لتربيته..وتبنّيه..على أن أوفر لك كل شيء للمعيشة.. هل تقبلين..؟

نظرت إليه مُندهشة، وارتبك آدم الشبيبي إذ أنه لم يفهم ما يدور في رأس آدم أبوالتنك من أفكار، بينما واصل آدم أبوالتنك توضيح مقصده عندما رأى عدم فهمهما لما قال:

– أقصد..هل أنت مستعدة لتبنّي هابيل ليصير ابنا لك..أقصد أن تربيه أنت..وأنا أتكفل بكل شيء..بمعيشتك.. ومعيشته، ومصروفكما، وكل ما يخصكما..من سكن وعيش وملابس..

نظرت حواء الفارسي إليه..ثم نظرت إلى الطفل الذي تحتضنه بذراعيها وتضمه لصدرها..ورأت أنه مرح ويبتسم..فضمته إلى صدرها، وقالت بحنان وحماس:

– طبعًا مستعدة..ومستعدة أن أفديه بروحي..

هيمن صمت على الموقف..كان آدم الشبيبي مثل الأخرس لا يستطيع أن يقول شيئًا، وكان مثل حواء الفارسي ينظر إلى آدم أبوالتنك ليقول كلمته.. وبعد لحظات قال:

– ممتاز..لكن بشرط..

صمت الآخران..لم يقولا شيئًا..فواصل آدم أبوالتنك قائلًا:

– شرطي أن تغيبي..أن تغيبي أنت والطفل..أقصد تختفين عن الأنظار.. بحيث لا يعرف أحد عنكما شيئًا..خاصةً عنه..سواي طبعًا..وسأجد لك بيتًا للإيجار في مكان قريب..إما في دمشق..أو الزبداني.. وسأعطيك مرتبًا شهريًا..ليس كبيرًا..لكنه معقول..وسأتحمل نفقتكما كلها دون نقصان.. لكن غيبتك تكون سرية بالكامل..ولا أخفيك..فهذا الطفل ربما سيُقتل مثل أمه..لذلك فالغيبة واجبة..لا تخافي غيبتك ستكون غيبة صغرى..هل أنت موافقة الآن..؟

نظر آدم الشبيبي إليه وكأنما ينظر إلى قديس..أما حواء المربية فشعرت نحوه بامتنان مكتشفة رجولة غير منظورة فيه..بينما هو نظر إليهما ثم إلى الطفل هابيل، وقال بنشاط ومرح:

– لنعّد الطعام الآن قبل أن تذهبي..وتطعميه..وغدًا تأتين بشكل مبكر لنبحث عن بيت.. ويمكنك أن تعتبري نفسك أنك وجدت عملًا في بيت ما بالزبداني..

– لا عليك..سأرتب كل شيء..وخذ الصغير من يدي الآن..وأنا سأعدّ لكما الطعام..

أخذ آدم أبوالتنك الطفل هابيل إلى حضنه وأخذ يُقبّله بحنان. كان آدم الشبيبي في تلك اللحظة يفكر بغرابة الإنسان وتحوّلاته العجيبة.

الغيبة الصغرى...

مضى شهران على ذلك اليوم المشؤوم.. وخلال هذين الشهرين وجد آدم أبوالتنك بيتًا صغيرًا جدًا، شبه متداعٍ، في أطراف دمشق على طريق بيروت.. كان بيتًا منعزلًا، لا يبعد عن الطريق العام المتجه إلى لبنان كثيرًا، ولم يكن بعيدًا عن نهر بردى الذي ينساب من هناك بموازاته تقريبًا..كان البيت أشبه بكنيسة مهجورة، ومن الداخل كأنه مسكونًا بأرواح الذين عاشوا فيه لأجيال وبأنفاسهم الدافئة..!.

كان البيت يعود لإمرأة عجوز وابنها..انتقلا إلى دمشق المدينة بعد أن وجد الإبن عملًا في مطعم وبارٍ ليلي في الطرف الآخر من المدينة، في منطقة „جرمانا"..وقد انتقلت حواء الفارسي مع الطفل هابيل للسكن في هذا البيت المنعزل والموحش بعد أن أجرى آدم أبوالتنك وآدم الشبيبي تصليحات وترميمات فيه، بل إن آدم أبوالتنك أثّثه وجهّزه بحيث صار يليق بالعيش الدافئ.. وبمستوى أعلى من حلم المربية.

في الأسبوع الأول كان آدم أبو التنك وآدم الشبيبي يزوران البيت، على الرغم من أنه يبعد عن سكن آدم أبوالتنك نوعا ما..حيث كان يسكن في أحد أزقّة منطقة سوق الميدان.. ثم في الأسبوع الثاني صارت الزيارات بين يوم وآخر..وبعد شهر صارت مرتين في الأسبوع..وفي نهاية الشهر الأول جاءت

المربية العراقية إلى دمشق، لكنها كانت قبل ذلك قد مرّت على مسكن آدم أبوالتنك حاملة الطفل هابيل..تركته عنده مستأذنة في زيارة أمها.

خلال هذين الشهرين توطدت العلاقة بين المربية والرجلين..كانا يأتيان إليها وهما يحملان الفواكه والحلويات ومستلزمات الطفل هابيل..يقضيان معظم ذلك النهار عندها ثم يعودان إلى دمشق. وخلال هذه اللقاءات توطدت العلاقة بين الرجلين من جهة، وبين كل منهما مع المربية، مع خصوصية علاقتها بكل واحد منهما..، بل حتى العلاقة التي توطدت بين الرجلين كانت مثل المرآة..وجه زئبقي صاف، وآخر معتم غامض.

كل من الرجلين؛ كان يجد نفسه منجذبًا لهذه الفتاة الغريبة..وكانا يزورانها ليس لتفقد الطفل فحسب وإنما لأنهما كان يشعران بالدفء في هذا البيت الغريب، على الرغم من أنها كانت تتألق في أعماق كل منهما بطريقة مختلفة عن الآخر.

كان آدم أبو التنك يحاول أن يعرف في كل لقاء، لاسيما في الشهر، معلومات أكثر عن هذه الفتاة، وعن أهلها، وأصلها وفصلها، يدفعه فضول هائل وقلق غير مبرر على مستقبل الطفل هابيل..لكنه لم يصل إلى أيّة معلومات مهمة حولها سوى أنها تعيش مع امرأة تقول إنها أمها..!!..لكنه في الوقت نفسه يحرّض آدم الشبيبي على التواصل العاطفي معها..بيد أنه حين يكون وحده تراوده خواطر أن يتزوجها، ولو شكليًا من أجل أن يطمئن أكثر على الطفل هابيل..لكن كل هذا تغير في الشهر الثاني..!.

آدم الشبيبي، بدوره كانت تتقد فيه رغبات جنسية نحوها، ولم تفارقه أحلام اليقظة معها، لكنه في الوقت نفسه كان يحرّض آدم أبوالتنك على

فكرة الزواج منها والاستقرار معها، رافضا تحريض الآخر على إقامة علاقة عاطفية معها ، مبررًا ذلك من أنّه لا ينوي البقاء في سوريا، وأنه سيسعى للوصول إلى أوروبا، بيد أن كل هذا تغير في الشهر الثاني..!

حواء الفارسي كانت تدرك المشاعر التي يكنّها الرجلان نحوها. وبرغم ميلها نحو آدم الشبيبي، إلا أنها لم تشأ أن ينتبه آدم أبوالتنك إلى ذلك، فكانت تحاول أن تمنح الأهمية لكل منهما بشكل خاص، لاسيما حينما تكون هناك لحظات يغيب فيها أحدهما أو يكون مشغولًا ولا ينتبه لنظراتها التي توجّهها لأحدهما في تلك اللحظات. لم تكن لعوبًا، لكنها كانت لا تريد أن تخسر أيًا منهما، وأن تحتفظ بخصوصية علاقتها مع كل منهما على حِدة..إلّا أن ذلك تغيّر في الشهر الثاني..!

***

بعد مرور شهر تقريبًا..وفي الهزيع الأخير من الليل..وفي ليلة غاب فيها القمر..رنّ هاتف آدم أبوالتنك النّقال..ظل يرن طويلًا..فزّ آدم أبوالتنك من نومه فَزعًا على رنين الهاتف..مد يده إلى نظّارته ثم أخذ جهاز الهاتف..قفز معتدلًا عن سريره حينما رأى اسم حواء الفارسي على شاشة الجهاز.. وما أن قال نعم، حتى جاءه صوتها مرعوبًا..تطلب منه الحضور فورًا إلى حيث تسكن لأنها خائفة..!

- لماذا..؟ ماذا حصل..هل جرى شيء ما لهابيل..؟

سألها آدم أبوالتنك مرعوبًا وليس في ذهنه سوى الطفل هابيل. إلّا أن صوتها جاء مرتبكًا ومتقطّعًا وغير مترابط:

- لا..لم يحصل له شيء ..لكني خائفة..هناك أرواح في البيت..! أرجوكما تعالا حالًا..

- أرواح..؟ ماذا تقولين يا حواء..؟!.. إهدأي واخبريني ماذا حدث..

فجاء صوتها محشرجًا ومرتبكًا:

- كنت أشاهد التلفزيون في الصالة..أتابع فيلمًا أجنبيًا..وأخذتني الغفوة..لكن أصواتًا نسوية سمعتها تأتي من غرفة هابيل.. خفت..كانت الأصوات واضحة..نهضت بخوف وتوجّهت إلى غرفة النوم، وحين فتحت الباب بهدوء رأيت خمس نساء ثلاثة منهن يحطن بالمهد..وأظن أنني رأيت المرحومة حواء الكرخي بينهن..لكنها لم تنظر إليّ..

- ماذا تقولين..؟..هل أنت في حالة طبيعية..؟

- أنا طبيعية..وأعرف أنك لا تصدقني..لكن هذا ما حدث..سبق لي ورأيت ذلك في بيتكم..في غرفته..لكني لحظتها ظننت أنني أحلم..أنا أتصل بك الآن من الصالة وأخاف الدخول إلى غرفة النوم..أرجوك تعال فورًا..أنا خائفة..أنهن يتحلقن حول مهد الصغير هابيل..ولا أعرف ماذا يردن منه..

في تلك اللحظات دخل آدم الشبيبي الذي كان يرقد في الصالة إلى غرفة نوم آدم أبوالتنك، حيث أنه فزّ على رنين الهاتف النقال وصرخة الدهشة الممزوجة بالخوف التي صدرت منه..كان هو في سرواله القصير وقميصه الذي لم يكن قد نزعه، فسأل بتوتر:

- ماذا هناك..؟ ما الذي جرى..؟

أحس آدم أبوالتنك بالارتباك حين دخل آدم الشبيبي إلى غرفته، لكنه في الوقت نفسه أحس بالارتياح أيضًا..فقال له:

– هذه هي حواء الفارسي..تقول إن هناك أشباحًا في غرفة نومها..وإنها تخاف الدخول إلى غرفة النوم..وإن الأشباح تحيط بمهد الطفل هابيل..

– ماذا..؟

– علينا أن نذهب إليهما الآن..وفورًا..

قال ذلك وهو ينهض عن سريره ليرتدي بنطاله وقميصه..بينما توجه آدم الشبيبي ليلبس بنطاله أيضًا.

***

لم يكن سهلًا عليهما أن يجدا سيارة في تلك الساعة من الليل، حتى أنهما قررا التوجّه مشيًا على الأقدام.. إذ أنهما قد أوقفا بعض سيارات التاكسي التي رفض سائقها الذهاب إلى تلك المنطقة بحججٍ شتّى..ولم يستطع أحدهم سوى أن يوصلهما إلى ساحة شكري القوتلي..إلى أن وجدا من هناك سائقًا وافق على نقلهما إلى حيث يريدان على طريق بيروت.

حين وصلا قرب البيت بدا لهما وكأنه كوكر للأسرار يختفي في تلك العتمة التي تغطي المنطقة. اقتربا من البيت وضغطا على الجرس..كانت هي بانتظارهما في الصالة.. فتحت لهما الباب خائفة..دخلا إلى الصالون الصغير..أخذت تتحدث بسرعة..تعيد لهما ما روته لآدم أبوالتنك عند اتصالها به. نظرا كلاهما إلى باب غرفة النوم المغلق..كانت دهشتهما كبيرة وممزوجة بخوف مكتوم حينما لمحا ضوءًا قويًا يتلألأ ينبعث من انفراج الفتحة السفلى للباب..شعر الرجلان وكأنهما يستعيدان أحداثًا مشابهة شاهداها في الأفلام الأميركية عن الأرواح والأشباح والبيوت المسكونة.

نظر كل منهما إلى الآخر وفي عينية سؤال: ما العمل..؟. كان كل منهما يستمد شجاعته من وجود الآخر..، بينما أحسّت حواء الفارسي بهدوء غريب وكأن حضور الرجلين منحها شجاعة مفقودة..

لم تمضِ سوى لحظات قليلة حتى وجد آدم أبوالتنك نفسه يتجه نحو الغرفة لا إراديًا.. وبعد لحظات تبعه آدم الشبيبي وخلفهما تحركت حواء الفارسي وكأنها ترى مشهدًا مثيرًا.

حين وصل آدم أبوالتنك إلى الباب ومسك بكفه على مقبضها تملكته شجاعة أقرب إلى التهور، ففتح الباب بقوة مندفعًا إلى داخل الغرفة، حيث صار ومن خلفه آدم الشبيبي في وسطها.

هيمنت عليهما دهشة ممزوجة بصمت بارد..لم ينطق أيّ منهم بأية كلمة..المفاجأة أخرستهم جميعًا.. الأشدّ دهشة وارتباكًا كانت المربية حواء الفارسي..فالغرفة كانت فارغة..والطفل هابيل في مهده نائم ببراءة..بل ولم تكن الغرفة مضيئة بضوءٍ قوي كما كانوا يظنون..على العكس، فقد كانت شبه مُعتمة..لكن ما زاد من دهشتهم وأثار خوفهم أن المهد كان مضيئًا على الرغم من أنه لم يكُن قريبًا من مصدر الضوء الذي كان يأتي من مصباح منضدي قرب السرير الذي تنام عليه المربية.!!.

***

حين جلس الآدمان في غرفة الإستقبال لم يُكذّبا المربية في أنها توهّمت أشياء غير موجودة، لأنهما شاهدا بنفسيهما الضوء القوي المتلألئ من تحت فرجة الباب السفلى، كما شاهدا المهد المضيء، بينما لا يوجد مصدر ضوء

يضيئه بشكل خاص..! وبرغم ذلك كانت حواء الفارسي تشعر وكأنها مُذنبة حيث أيقظتهما من النوم وجاءت بهما في مثل هذا الوقت..!.

أقسمت لهما بأنها رأت خمس نساء في الغرفة، وأوضحت مرة أخرى بأنها رأت ذلك في بيت آدم أبوالتنك في دمشق حينما دخلت إليه في المرة الأولى وتوجهت إلى غرفة الطفل..لكنها لم تخبرهما لأنها ظنّت أن الأمر كان حلم يقظة.

لم يجدوا تفسيرًا لما رأوه لاسيما في ما يخص الطفل هابيل..لكن الرجلين طمأنا المربية بأنّ ما رأوه، حتى وإن بدا غريبًا إلّا أنه لا يخيف، فهو لا يشي بوجود أرواح شريرة أو جن، وإلا لآذوا الطفل هابيل قبل كل شيء.

أكمل الرجلان تلك الليلة في الصالة..وبقيا عندها حتى فترة الغذاءاليوم التالي.. هدّآ من روعها كثيرًا..وغادراها إلى المدينة، حيث كان عليهما متابعة أمر آدم الشبيبي في ما يخص مغادرة سوريا إلى أوروبا عن طريق المهربين.

***

كل شيء تغير في الأسبوع الثالث من الشهر الثاني..وفي نهار أحد الأيام، وبعد مرور ثلاثة أسابيع على إتصال حواء الفارسي الغريب في تلك الليلة الغامضة، وبينما كان الرجلان ينتظران في مقهى «هافانا» ليلتقيا بشخص لديه علاقة بالمهربين الذين يقومون بتهريب من يرغب إلى أوروبا..، رنّ هاتف آدم أبوالتنك..انتبها كلاهما للهاتف ظنًا أنه الشخص الموعود الذي ينتظرانه، إلّا أن اسم حواء الفارسي هو الذي أضاء شاشة الجهاز.

كان صوتها مخنوقًا ، بل كانت تصرخ وتولول..وهي تصيح:

- لقد اختفى الطفل..غاب..سرقوه..لا أعرف..ألحقوني..

صاح آدم أبو التنك بصوت عالٍ لا إراديًا.

- ماذا تقولين..؟ ما معنى غاب..؟ سرقوه..؟ أين غاب..؟ ومن سرقه..؟

كان آدم الشبيبي منفعلًا أيضًا وهو يتابع ملامح آدم أبو التنك وكلامه الذي كان أشبه بالصراخ ..ولم يفهم التفاصيل سوى أن كارثة قد حلّت.

أنهى آدم أبو التنك مكالمته بسرعة وهو يقول لها:

- سآتي حالًا.

التفت إلى آدم الشبيبي قائلًا بإنفعال:

- هذه مجنونة..تقول أن الطفل هابيل قد غاب..أو أنهم سرقوه..وتؤكد بأنه لم يكن أحدًا موجودًا في البيت أو حوله..لكن الطفل غاب..اختفى.. إبق أنت هنا بإنتظار المُهرّب..بينما أذهب أنا إليها لأرى هذه المجنونة التي ستجنني معها..

بهت آدم الشبيبي من الخبر، وسأل بلهفة وذعر:

- ما الذي حصل بالضبط..؟

- تقول إن الطفل هابيل قد اختفى من مهده..غاب..وكأنه صاحب الزمان..بينما تؤكد بأنه لا أحد في البيت..ولم يطرق بابها أحد..ولم تخرج إلى أي مكان..فقد كانت تُعدّ الطعام في المطبخ..وكان الصغير في مهده بالغرفة يلعب ويناغي نفسه..كانت تسمع كل شيء من زاوية المطبخ..ثم هيمن سكون مريب..واختفى الصوت الصادر من مُناغاته ولعبه وحركته..ارتابت في الأمر..وحين دخلت الغرفة لتتأكد من سلامته..لم تجده في المهد..!!.

- هذا غير معقول..

- والله سأجن..علينا اخراجها من ذلك البيت..فالبيت غامض ومليء بالأسرار..سأذهب إليها..وسأرجع إليك.. انتظرني هنا..أو في مقهى الروضة..لكن لا تتفق مع الرجل على الجانب المالي..اترك الأمر لي فأنا أعرف كيف أتعامل معه..

قال ذلك ونهض متوجّها لباب الخروج.

بقي آدم الشبيبي للحظات تائهًا..فجأة راوده خاطر بأن صديقه سينفرد بتلك الفتاة وحدهما في البيت..وشعر بالضيق من ذلك..صحيح أنه يثق بأدب وأخلاق آدم أبوالتنك..لكنه كان محتارًا، وقال لنفسه: من يعرف ماذا سيحصل..؟..فما انفرد رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما، كما يقال..!!..وخلال لحظات راودته مشاهد سريعة وخاطفة للمربية وهي مستلقية على السرير بينما ترفع ثوبها كاشفة عن جزئها الأسفل..وعن عانتها الكثيفة..ولم يستطع أن يسيطر على نفسه وتخيلاته..فنهض بسرعة ليرافق آدم أبوالتنك إلى ذلك البيت الغامض بعد أن دفع عمّا شربا من قهوة وشاي.

فوجئ آدم أبوالتنك الذي لم يكن قد ابتعد أكثر من ثلاثين مترًا عن المقهى..استغرب تصرّفه..لكنه وبسرعة خاطفة أدرك أن صاحبة يغار منه.. فابتسم في داخله، وسأله:

- لماذا لم تنتظر الرجل ..؟

- لا ..سآتي معك..فالأمر يبدو خطيرًا،كيف اختفى الطفل هابيل..؟.

- لا أدري كيف اختفى..لكن كان يجب إنتظار الرجل الذي يمثل المهرب وينظم الأمر معه..فنحن بالكاد رتّبنا موعدًا معه، فهو لا يظهر عادةً في المقاهي..

أحس آدم الشبيبي بأن أبوالتنك مُحق في اعتراضه، لكن غيرته كانت أقوى من شعوره بالتردد، فقال:

- سنذهب مساء إلى بيته..كما جرى في المرة السابقة..؟!

- نعم.. لكن اليوم موعدنا في المقهى..عمومًا..سأتصل به ونؤجّل الموعد إلى المساء..

- نعم..هذا أفضل..

وسارا معا..وكل منهما يفكر بإنطباع الآخر عنه..كان أبوالتنك مستغربًا من غيرة صديقه..؟ لِمَ..؟ ألم يلاحظ أن المربية تميل إليه..؟ أم أنه رأى العكس..!!..أيظن أن المربية تميل لي..؟..ليكن..هذا شأنه..ليأتِ..

وإلى جانبه كان آدم الشبيبي يفكر مع نفسه: هل انتبه لدوافعي بالذهاب معه وعدم انتظار الرجل الذي لقائي به سيحدد مصيري ومستقبلي..؟ هل انتبه أنني أتحرك بدافع الغيرة..؟ لا.لا.لا أعتقد..فهو دائما يحرّضني لإقامة علاقة حب معها..على أي حال..لا أستطيع أن أتركهما وحدهما، مع أني لا أتخيل أي شيء سيء سيحدث بينهما..لا أستطيع..ثم عليّ أن أحسم وضعي معها..آن الأوان لذلك..!

***

حين وصلا إلى المنزل الغامض وجدا المربية حواء الفارسي في حالة ارتباك قصوى، وخجل يثير الشفقة، بينما كانت هي تحمل الطفل هابيل بين ذراعيها..!!. صُدما كلاهما..وهما يريان المشهد!..حتى أنهما من شدة الصدمة لم يسألاها..كانت نظراتهما تكفي لكي تحمل الأسئلة والدهشة

والخوف والصدمة..والبحث عن تفسير..!..ولم يكن أمامها سوى أن تبدأ بالقسم بكل ما يمكن أن يكون مقدسًا في قاموسها..بأنها كانت صادقة في كل كلمة قالتها من خلال الهاتف.!.

وأعادت عليهما القصة من بدايتها بأنها كانت تعد الطعام في المطبخ.. وكانت تستمع للطفل وهو يتحرك في مهده..رافسًا بقدميه الطريتين الجناجل البلاستيكية المدلّاة فوق المهد، والتي كانت تصدر أصواتًا يكركر هو على أثرها..لكنها فجأة انتبهت لحديث أشبه بحديث مجموعة نساء في الغرفة..؛ لم يستمر الحديث سوى لحظات.. فكرت هي في النساء اللاواتي ظهرن لها قبل ذلك..ومن بينهم حواء الكرخي..لكنها لم تجد الوقت للاستمرار في التفكير..فقد عمّ السكون..فارتابت لهذا السكون المفاجئ..وحينما دخلت الغرفة وجدت المهد فارغًا..فما كان منها إلّا أن اتصلت به..لكنها بعد أن بقيت وحدها بعد الاتصال، خرجت من المنزل تفتش كالمجنونة عن أي أثر للطفل في محيط البيت..وحين عادت إلى البيت لم تدخل الغرفة..ظلت تندب حظها وهي في الصالة..لكن فجأة سمعت كركرات الطفل تأتي من الغرفة..وحينما هرعت إلى داخل الغرفة وجدت الطفل في مهده..يتحرك والابتسامة ترتسم على شفتيه.

لم يفكر الرجلان سوى بشيء واحد هو أن على المربية والطفل مغادرة هذا المنزل الغامض والمليء بالأسرار..فطلب آدم أبو التنك منها أن تلملم ما تستطيعه..وتغادر المكان معهما..وكان واضحًا أنه لا مكان لديهم سوى منزل آدم أبوالتنك..!.

***

في الأسبوع الرابع من الشهر الثاني على ذلك اليوم المشؤوم الذي تم فيه اغتيال حواء الكرخي، انتقلت حواء الفارسي ومعها الطفل هابيل للسكن في بيت آدم أبوالتنك..فدبت الحياة الحقيقة في ذلك المنزل..!.

في الأسبوع الرابع من الشهر الثاني على ذلك اليوم المشؤوم التقى آدم أبوالتنك بمعية آدم الشبيبي بالمهرب نفسه، واتفقا معه على تهريب آدم الشبيبي إلى أوروبا عن طريق تركيا، ثم اليونان ومقدونيا وصولًا إلى ايطاليا والنمسا وألمانيا..واتفقا على مبلغ خمسة آلاف دولار..ولم يكن هذا المبلغ متوفرًا لدى آدم الشبيبي، فقام آدم أبوالتنك بمساعدته لاستكماله..وتوفير مبلغ صغير آخر لحاجة الطريق.

خلال الأسبوع الرابع من الشهر الثاني كان صراعًا عميقًا للمشاعر يهيمن على منزل آدم أبوالتنك..فقد كانت حواء الفارسي متأثّرة وتكتم حزنها لقُرب سفر آدم الشبيبي، الذي كتم كل مشاعره أيضًا، بل وألغى أية فكرة تخطر على باله بصددها، حتى أنه تجرأ بالقول المباشر لهما علانية بأنهما يليقان ببعضهما، وعليهما أن يفكرا بوضع حد لحالة العزوبية، لاسيما وكلاهما متفقان على حب الطفل هابيل وتربيته، وأنه يتمنّى أن يسمع وهو في أوروبا أخبار مفرحة عنهما. وكان واضحًا لكليهما بأنه يدعوهما إلى أن يتزوجا.

ولأن مزاج السفر أخذ يهيمن عليه كلما اقترب موعد السفر فأنه لم يتمالك في الليلة الأخيرة قبل فجر يوم السفر سوى أن ينصحهما بالزواج.. وقد أثارت دعوته الصريحة تلك مشاعر متضاربة، فآدم أبوالتنك يعرف بأن حواء الفارسي تكنّ مشاعر عميقة لآدم الشبيبي، وهو نفسه قد أخبره بذلك

وشجعه لكي يقيم علاقة معها..لكن ها هو الآن يتخلى عنها وعن كل ما يكنّه لها من مشاعر ورغبات، ويتركها له، بل ويدعوهما صراحة إلى الزواج.

ولم تكن حواء الفارسي أقلّ إثارة من آدم أبوالتنك..فهي معجبة بآدم الشبيبي حقًا، أكثر من آدم أبوالتنك سواء من ناحية الشكل أو الثقافة أو حتى الطباع الشخصية والمرح..لكنها في الوقت نفسه تحس بأن آدم أبوالتنك أقرب إليها إنسانيًا من آدم الشبيبي، فهو بسيط ومتواضع ولا يدّعي الثقافة.. وهو الذي ينفق عليها حاليًا ويهتم بها وبالطفل هابيل الذي تحبه فعلًا، والذي يعوضها عن خسارات سابقة لا يعرفها سواها..كما أنه أكثر واقعية من آدم الشبيبي المثقف الحالم..الأناني..الذي تخلّى عنها بسهولة من أجل تحقيق أحلامه.

***

مضى شهران على ذلك اليوم المشؤوم.. يوم اغتيال حواء الكرخي.. وفي فجر هذا اليوم الذي كان هو موعد سفر آدم الشبيبي.. استيقظ الجميع فجرًا..كانت حواء الفارسي قلِقة ومنفعلة..وتحاول أن تكتم انفعالها من خلال الحركة السريعة والاستعجال في إعداد الفطور لهما..وإعداد طعام خاص لآدم الشبيبي كي يأخذه معه ليعينه في مسافات الطريق الأولى على الأقل..لكنها لم تستطع أن تسيطر على نفسها عندما حانت لحظة الوداع.. وقد حاول آدم أبوالتنك أن يشغل نفسه ويتوارى عن الموقف ليترك لهما هذه اللحظة التي ربما لكليهما لن تُنسى بسهولة..وفعلًا لم تستطع حواء الفارسي أن تكتم دموعها..على الرغم من أن لسانها لم يكف عن الدعاء له بالموفقية والنجاح والتوفيق والتوصيات بأن يعتني بنفسه وينتبه للغدر من قبل المهرب وأيضًا من الذين يرافقهم الطريق، فالغدر من طبائع البشر..!.

حينما خرج، آدم الشبيبي ومعه آدم ابوالتنك ليوصله إلى مكان اللقاء، خرجت خلفهما ورشت الماء كعادة النساء العراقيات حينما يسافر عزيز عليهن..وقد تأثر الرجلان بهذه الحركة التي تكشف عن طيبة حواء الفارسي.

***

كان موعد اللقاء الساعة الخامسة صباحًا في منطقة السيدة زينب..، وكانا قد اتفقا مع المهرّب على كل التفاصيل..حيث سيتكون سيارة باص بانتظار المسافرين قُرب أحد فروع „شارع التين"؛ وقد أعطاهما رقم السيارة ولونها وماركتها..وقد فهما منه بأن آدم الشبيبي لن يكون وحده.

كانا هناك قبل الخامسة بعشرة دقائق..ولم تكن هناك سيارة..انتظرا في المكان المتفق عليه، وظنا أنهما جاءا مبكرين..لكنهما انتبها إلى توافد بعض الرجال والنساء، أربعة رجال وامرأتان، وقفوا في الجهة المقابلة لهما..وكان واضحًا أنهم يريدون السفر، فبعضهم كان يحمل حقيبة صغيرة بيده..وآخر حقيبة على ظهره..!

مرقت في ذهن آدم الشبيبي خاطرة، بأن يتوجه إليهم..لكن في تلك اللحظات بالذات..في الساعة الخامسة بالضبط..انتبه الآدمان، أبوالتنك والشبيبي، إلى وصول سيارة الباص المعنية. وانتبها إلى المهرّب الذي كان جالسًا على المقعد الأمامي..وما أن همّ آدم الشبيبي بالتحرك نحو الجهة الأخرى المقابلة حيث وقفت السيارة، وبدأ الواقفون بالصعود إليها حتى أحاطت بالسيارة أربعة سيارات مدنية..وسُمع هدير سيارات الشرطة يأتي باتجاههم..وكان واضحًا أن المهرّب..والسيارة..ومن في داخلها قد نُصب لهم كمين مُحكم ومُباغت..فقد تم اعتقالهم فورًا..فأُنزلوا جميعًا دونما

ضجيج كبير، وأُدخلوا إلى سيارات الشرطة التي كانت قد وصلت وأحاطت باص التهريب من كل الجهات.

تجمّدا كلاهما..ابتعدا عن المكان قبل أن تنتبه القوات الأمنية والشرطة لهما..وفي منعطف جانبي أخذا يركضان..ودخلا أزقة أخرى..إلى أن لمحا سيارة تاكسي مُقبلة فأوقفاها..وصعدا إليها..طلبا منه التحرّك...وبعد لحظات أخبر آدم أبوالتنك السائقَ عن وجهتهما.. نزلا على مبعدة من البيت احترازًا..دخلا إلى البيت و الفزع يستبد بهما .

***

حينما فتح آدم أبوالتنك باب المنزل..فزّت حواء الفارسي مرعوبة..بل هي كانت تعتقد بأنها لا تزال تحلم حينما تناهى إلى سمعها صوت حوار غير مفهوم..ومرّت لحظات على استيقاظها إلّا أنها لم تستوعب الموقف..ولم تصدق ما سمعته، وظنت أنها تسمع الأشباح كعادتها...فنهضت من سريرها متجهة بحذر وتوجس إلى الصالة..!وحين خرجت من غرفة النوم بهتت وأخرستها الدهشة حينما رأتهما جالسين بتوتر واضح ..!

***

مر شهران بالضبط على ذلك اليوم المشؤوم..وها هو يوم مشؤوم آخر يأتي.

أنت تائهة.. وأنا تائه.. كلّنا تائهون

خيّم الفزع والتّوتر المكتوم والإحباط على جميع سكّان ذلك المنزل الصّغير في منطقة سوق الميدان. صار الثّلاثة يتصرّفون بغرابة.. وكأنّهم في دوّامة..كان كلّ منهم تائهًا في عالمه.. يحسّون بحرج ممّا تحدّثوا به خلال الأيّام التي سبقت يوم السّفر المشؤوم..عندما دعا آدم الشبيبي حواء الفارسي وآدم أبوالتنك أن يتزوجا..!

حوّاء الفارسي أحسّت بالخيبة من حديث آدم الشّبيبي ليلة السّفر وحماسه لفكرة زواجها من آدم أبوالتّنك..؛ حينها أحسّت أنّه خذلها، وتخلّى عنها، واستهان بمشاعرها الواضحة نحوه..لذلك، بعدما خرجا إلى الموعد المقرّر للسّفر، اتّجهت هي إلى سريرها في تلك السّاعات الأولى من فجر ذلك اليوم المشؤوم..! هناك أخذت تفكّر بكلّ ما جرى بينها وبين هذين الآدمين.. ووجدت نفسها أمام واقعيّة المقترح.. ولاسيّما أنّها شعرت بأنّها وحيدة بعد تاريخ مأساوي في العراق؛ فلماذا لا تتزوّج آدم أبوالتّنك حقًّا..؟..هكذا فكّرت حينها، واقنعت نفسها واقتنعت بالمقترح..!

حين عادا في السّاعات الأولى من الصّباح خائفَين ومحبطَين، وجدت نفسها في حالة من التّيه.. وجدت آدم الشّبيبي وقد تحطّمت أحلامه بالسّفر، وفقد كلّ ما لديه من مال..!! بل وجدته في حالة نفسيّة تثير شفقتها، فمسحت

كلّ ما علق في نفسها من غضب مكتوم، ورغبة في التّحدّي والانتقام منه.. ونسيت مقترح زواجها من آدم أبوالتّنك....! بل وتجدّد الأمل في أعماقها بتجديد التّواصل معه.. فبعد هذه الضّربة القاضية التي خسر فيها ما لديه من مال، واحتمالات اعتقاله واستجوابه، ربّما سوف يجعله جليس البيت وهذا ما سيتوفّر لها الوقت للحديث معه، والبقاء معه تحت سقف واحد لأطول فترة ممكنة.. لكن ماذا عن آدم أبوالتّنك..؟.. هكذا كانت حوّاء الفارسي تحاور نفسها.

***

أحوال آدم أبوالتّنك النّفسيّة كانت مرتبكة.. فمنذ أن اقترح آدم الشّبيبي، في تلك الليلة، بشكل صريح على المربّية، وعليه الزّواج، وهو يعيش حالة شرود، وكتمان، وانفعالات داخليّة تمتزج بشكل فوضوي..؛ فحتّى حينما خرج فجرًا ليوصله إلى المكان الموعود الذي حدّده المهرّب، كانت الخواطر الرّقيقة تنساب في ذهنه، كيف أنّه بعد سفر صديقه، سيرجع إلى البيت ليراها..؛ وأنّ عليه الإسراع بعقد زواجه عليها شرعيًّا..؛ لكن كلّ هذه الخواطر الرقيقة انقلبت إلى وخزات ضمير معذّب حينما فشل مخطّط السّفر.. وعادا إلى البيت معًا..بل إنّه أخذ يحاول في الأيّام التي تلت أن يتركهما، ويغادر البيت، بحجّة أنّه يستطلع الأخبار، ولا يقبل خروج الشّبيبي معه بحجّة الحذر من الجهات الأمنيّة لاحتمال وشاية المهرّب باسمه..!

كانت يجلس النّهار كلّه تقريبًا في مقهى الرّوضة، مع فارق بسيط أنّه كان سابقًا فضوليًّا يتشمّم أخبار العراقيّين الوافدين، ممن يعرفهم أو لا يعرفهم، ويقدّم المساعدة إليهم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. لكنّه الآن صار كئيبًا،

مشوّشًا، لا رغبة لديه في معرفة أيّ شيء، بل كان يرى وجوهًا جديدة من العراقيّين، لكنّه يبقى جالسًا على كرسيّه في زاويته، وكأنّه غير موجود.. يفكّر من دون انقطاع بما قد يدور بين المربّية وآدم الشّبيبي في المنزل..باحثًا عن نهاية أشبه بنهاية الأفلام الهنديّة في التّضحية والإيثار وتقديم الصّداقة على الحب..!..وحين يعود إلى البيت في وقت متأخر، فإنّه يحاول قراءة الوجوه والنّظرات بين الإثنين..!.. كان يتعذّب لأنّه لا يجد تفسيرًا يقنعه بوجود شيء ما..!.

***

حيرة آدم الشّبيبي كانت مختلفة ..كانت إحراجًا أكثر ممّا هي حيرة.. كان محرجًا من تسرّعه في التخلّي عن المربّية، التي كان يعرف أنّها تكنّ له مشاعر واضحة؛ مثلما كان هو يكنّ لها أيضًا مشاعر مشوبة برغبة جنسيّة واضحة. وكان نادمًا لأنّه تسرّع في اقتراح زواج آدم أبوالتّنك منها، وإلحاحه في ذلك حيث صار من غير اللّائق أن يتراجع عن مقترحه.. كان محبطًا ممّا جرى له من كارثة مع المهرّب، حيث انهارت أحلامه في السّفر إلى أوروبا، وتهاوت خططه الغامضة حول مستقبله هناك.. ومع هذا، فقد كان مرتبكًا وخائفًا ممّا قد يحدث له في سوريا، لو صدق ما قاله آدم أبوالتّنك من إمكانيّة اعتراف المهرّب، والوشاية باسمه..!! ولاسيّما هو قد فقد كلّ شيء تقريبًا، وإنّ أيّة محاولة لمغادرة سوريا صارت صعبة جداً..!.

***

كان آدم الشّبيبي، بالأساس، قليل الكلام. لكنّه بعد ما جرى له صار انطوائيًّا. فحتّى حينما يبقى في البيت مع المربّية والطفل هابيل كان يقضي

معظم الوقت في القراءة.. وتصفّح المخطوطات التي حملها آدم أبو التّنك من شقّة صديقتهما المغدورة حوّاء الكرخي.

بينما كانت حواء الفارسي تحاول أن تعيد علاقتها به، لذا كانت تتقرّب منه باستحياء..؛ تأتي بالطفل هابيل إلى الصّالة، وتجلس تداعبه، بينما هو يتصفّح المخطوطات بصمت. وأحيانًا، كانت تقاطعه سائلة إن كان يحتاج شيئًا، أو إن كان يودّ أن تعدّ له القهوة أو الشّاي.. ولأنّها كانت تهابه، وتهاب ثقافته في أعماقها، فقد كانت تحترم صمته ولا تقاطعه كثيرًا.. لكنّها لم تبخل على نفسها بالنّظر إليه.

وبمرور الأيّام، أخذت تستاء من صمته، ولامبالاته نحوها. بل أخذت تشعر بشيء من الغضب المكتوم.. فكانت تحاول افتعال الضّجيج في المطبخ ،الذي هو ليس أكثر من فتحة وفسحة استقطعت من الصّالة، ووضع لها باب.

***

اليوم نهضت مبكرة..أحسّت بأنّها متستنفرة الأعصاب..لكنّها لا تعرف لذلك سببًا واضحًا..ليست هي بالأعراض التي تسبق الدّورة الشّهريّة..وإنّما حالة غريبة عليها، فهي تشعر بالإنزعاج من وضعها بين هذين الرجلين..!

سمعت صوتهما وهما يتحدّثان بهدوء..، أدركت في تلك اللحظة أنّ من أسباب انزعاجها هو وجود آدم الشّبيبي في المنزل طوال الوقت، وعدم تواصله معها..، بل وخروج آدم أبو التّنك المبكر، وغيابه الغريب عن البيت حتّى المساء من كلّ يوم..!..كانت تخمّن بأنّه يتقصّد ذلك.. انزعجت..هي ليست لعبة أو هدية يتنازل كل منهما لصاحبه عنها.

أعدّت لهما الفطور. دعاها آدم أبوالتّنك للفطور معهما، تعذّرت بأنّها يمكن أن تفطر في ما بعد؛ وحين غادر آدم أبوالتّنك البيت، ظلّت هي في غرفتها، بينما بقي آدم الشّبيبي في الصّالة يقلب الحقيبة التي فيها مخطوطات آدم البغدادي.

انشغلت بعد خروج آدم أبوالتّنك بالطّفل هابيل، فبدّلت حفاظاته التي ابتلت، وأطعمته.. ثمّ وضعته في مهده، وغادرت الغرفة إلى المطبخ لإعداد طعام الغذاء.. لكن الوقت كان مبكرًا لإعداد وجبة الغذاء..فوجدت نفسها لا إرادياً تتجه للجلوس في الصّالة على المقعد المقابل. لآدم الشبيبي.

انتبهت إلى أنه قد أفرغ الحقيبة الجلديّة من المخطوطات التي تراكمت على الطاولة التي أمامه.. كانت أكثر من مخطوطة سميكة. راقبته بنظرات تائهة، لكنها تبدو وكأنها نظرات تأمل وتركيز..!

ظلّ هو يقلّب المخطوطات..يقرأ العناوين..لم يستقرّ على مخطوط محدّد كي يقرأه..انتبه لوجودها..نظر إليها.. أثارت نظراتها التائهة انتباهه، لكنّه لم يكن يعرف أنّ نظرات التّأمّل الدّارسة تلك لم تكن سوى نظراتٍ شاردةٍ في اللامكان.. ووجد نفسه يسألها، من دون إرادة منه:

– ما بكِ..؟ هل هناك شيء ما..؟

فزّت حين سمعت صوته، فلم تتوقّع أن يتحدّث معها، بل ولم تكن منتبهة لنفسها ولنظراتها..ارتبكت، وقالت له:

– أبدًا..، ليس هناك أيّ شيء..

صمت للحظات، وهو ينظر إليها بتفحّص، وقال:

- لكن نظراتك تقول شيئًا آخر..

صمتت لثوان، وقالت بصوت منكسر وحزين:

- أحسّ أنّني تائهة..

نظر إليها للحظات..تأمّلها.. فأحسّ بشفقة غامضة لم يعرف من أين نبعت في نفسه، فقال لها:

- كلّنا تائهون.. بل إنّ التّائه الحقيقي هو ذلك الإنسان الذي يظنّ أنّه غير تائه..لأنّ الإنسان حينما يعي وجوده، يدرك معنى التّيه أيضًا..لكنّه من جانب آخر، حين يعرف الإنسان معنى التّيه، فهو لا يتيه..

كانت منتبهة لكلماته، نظرت إليه بحيرة، وقالت:

- أنا لا أفهم شيئًا ممّا تقول.. كلامك غامض.. أنت لا توضح وإنما تزيدني تيهًا..

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجهه.. أسبل جفنيه قليلًا..صمت لثوان، ثم رفع رأسه إليها، وقال:

- أنت تائهة..وأنا تائه..كلّنا تائهون..آدم أبوالتّنك تائه أيضًا..بل حتى الطّفل الرّضيع هابيل هو تائه معنا..وكلّ الذين ترينهم في الشّارع أو المحلات والمقاهي..كلّ هؤلاء تائهون..فنحن كلّنا تائهون في هذه الحياة.. نحاول أن ننسى هذا الأمر من خلال الانغماس في لعبة الحياة..لكن هذا لا يلغي حقيقة أنّنا تائهون..!

كانت مشاعر حوّاء الفارسي قويّة، ومتصارعة..فكّرت مع نفسها بأنّه لم ينسها، فهو على الرّغم من القطيعة التي امتدّت لأيّام، ها هو يحدّثها بنبرة،

سعى إلى أن تبدو حياديّة، إلا أنّها تشي بحنان لا يريد الإفصاح عنه، وفي الوقت نفسه، أزادها تشتّتًا، وتيهًا بكلامه..فكيف يكون هو المثقّف تائهًا.. بل وكيف يكون الطّفل الرّضيع هابيل تائهًا..؟؟..كانت حالتها النفسيّة تثقل على روحها..وكأنّ كائنًا غريبًا مجهولًا يخنقها.. فقالت بنبرة تجاوب، لكن مشككة:

– أنا أعرف أنّني تائهة..لكنّي لا أعرف معنى ذلك..ولا أعرف لماذا..؟.. وربّما أعتقد أنّني تائهة لأنّني جاهلة قياسًا لك.. وغير مثقّفة مثلك..لكن كيف تكون أنت تائهًا، بينما أنت مثقّف..؟ وفوق كلّ هذا، لم أفهم كيف أنّ الإنسان عندما يعرف أنّه تائه سيزداد تيهه، وأنّه إذا عرف معنى التّيه فهو لا يتيه..؟؟ أنا عقلي على مقدار علمي..أنا لا أفهم كلام المثقّفين هذا..!! ثم أنا لا أفهم كيف أنّ الطّفل الرّضيع هابيل تائه مثلي ومثلك أيضًا..هو طفل لا يعرف أيّ شيء من هذه الدنيا فكيف أنّه تائه..!!!..ثمّ.. أنا أعتقد أنّ سبب كلّ هذا التّيه هو الفراغ..؟.

شعر آدم الشّبيبي بشيء من عدم الارتياح. أحسّ أنّه تورّط في نقاش سوف يتعبه..وانتبه إلى أنّها تريد إعادة نسج الخيوط من جديد معه..وهذا ما أغراه للدّخول في لعبة الحبّ ثانية، لذا أراد أن يخرج من صرامته الفكريّة، وجديّته في السلوك، فأراد توجيه دفّة الحديث إلى منطقة أخرى، فقال:

– لا، ليس الفراغ هو السّبب في التّيه..لأنّكِ، حتّى لو كنت مشغولة.. بل وحتّى لو كان لديك أبناء وبنات.. وزوج.. سيذهب كلّ منكم إلى النّوم وحده..بل حتّى بعد اللحظات الحميمة بين الرّجل والمرأة..وبعد الانتهاء من اللّذة..يهدأ كلّ شيء.. ثمّ يذهب كل واحد إلى النوم وحده..لا خيارات

أمامنا..سوى الانغماس في الحياة، لكن بوعي..كي نستطيع أن نتحسّس جمالها.

أحسّت بالارتباك من كلامه..بل أحسّت بقشعريرة خوف تسري في جسدها..انتبه هو لانكماشها، وللقشعريرة التي ارتسمت آثارها على ملامح وجهها.. فسألها:

- ما بك..؟

صمتت للحظات، ثم قالت:

- لا شيء..أحسّ بصداع مفاجئ.. وكأنّ ثمّة شيئاً ما يتلبّسني...صداع قويّ.. مفاجئ..

- صداع ..مفاجئ..!! أكلامي سبّب لك صداعًا مفاجئًا..؟ قال بنبرة فيها استياء مكتوم.

- لا.. ليس من كلامك..وإنّما مما وراء كلامك..أتعرف..إنّني أصارع نفسي..أفكّر مع نفسي..أسأل نفسي، وأجيب على أسئلتي..التّفكير يسبّب لي الصّداع..بل يسبّب لي صداعًا شديدًا..وأحيانًا، أسقط في الفراش نتيجة الصّداع..حينها، كانت أمّي تعتقد بأنّ بردًا مسّني..لكن الحقيقة هي أنّ التّفكير هو سبب صداعي، ومرضي..

نظر إليها للحظات متفكّرًا، وسأل:

- طيّب.. ما الذي سبّب لك الصّداع في كلامي..؟

نظرت إليه.. ثمّ وجّهت نظرها إلى المخطوطات، وقالت من دون أن تبعد نظرها عنها:

- هل تعرف أنّني أقدمت ذات مرة على الانتحار..

فوجئ آدم الشّبيبي عند سماع ذلك، وقال من دون إرادة منه:

- ماذا..؟

- نعم.. قبل سنوات أُصبت بكآبة شديدة.. أقدمت على الانتحار بابتلاعي كمية من الحبوب.. لكنّ أمّي دخلت عليّ في اللحظة الحرجة..وأنقذتني.. ودخلت المستشفى..أمضيت بعض جلسات مع طبيب نفسي.. ثمّ أخذت أتنقل من طبيب إلى آخر.. ولكن كلّ ذلك لم يكن ذا فائدة..لأنّني كنت مع كلّ طبيب أقوم بتمثيل دور ما..وأختلق قصصًا مختلفة، وحوادث متنوّعة.. كنت أكذب على الأطبّاء النفسانيّين..أسخر منهم..أنتقم منهم بطريقتي..إلى أن أحسست بأنّني شبعت من تمثيل كل هذه الأدوار.. أحسست ضرورة أن استيقظ..

انتبه آدم الشّبيبي بأنّ من تجلس أمامه ليست تلك الفتاة البسيطة، وإنّما هي امرأة مرّت بجحيمها الخاصّ.. على الرغم من أنّ ذلك لا يبدو عليها قبل هذه اللحظة.. فجأة سألها:

- أقدمت على الانتحار..؟

- نعم.. لِمَ تستغرب..؟ قالت بنبرة ساخرة مستفزة.

- لم أكن أتصوّرك هكذا..

- ماذا تقصد.. هكذا..؟

- أقصد كنت أظنّك فتاة مسالمة..بسيطة.. أو كما نقول بالعراقي: قطّة مغمضة العينين..نائمة..

– ربما أبدو هكذا..لكنّي لست هكذا.. المظاهر تخدع كثيرًا..قالت بكبرياء.

– هذا ما يبدو لي الآن..

– وهل صدمك هذا..؟ قالت باستفزاز..

– لا.. لماذا يصدمني..لكنّك قلت عن نفسك أنّك استيقظت ممّا كنت فيه..فهل استيقظت حقًّا..؟

نظرت إليه بصمت. وأحسّت أنّ مشاعرها نحوه قد هدأت كثيرًا..صار شخصًا غريبًا..شخصًا تحتاج أن تتحدّث معه.. ابتسمت مع نفسها ابتسامة حزينة.. وقالت:

– لا أدري.. أظنّ ذلك..لكن كلامك قبل قليل ضيّعني..أحسست أنّني لم أستيقظ بعد..أتعرف مثلنا العراقي: كالنّائم الذي رأسه في الظّل، ورجلاه في الشمس..

– كيف ضيّعك كلامي..؟..سأل مستفسر بطريقة مخاتلة.

– لا أعرف..أحسست أنّني واهمة..كنت أظنّ أنّني استيقظت..لكن اتّضح أنّني لم أزل نائمة..أتعرف..سابقًا كنت أتعصّب، قبل الكارثة، لأتفه الأسباب.. وافتعل المشاكل للجميع.. ثمّ ظننت أنّني هدأت.. لكن اتّضح أنّني لم أهدأ بعد..

– ربما لم تتغيّري بعد..وإنّما غيّرت الأسلوب..

– لا أعرف..سابقًا كنت أحسّ أنّ في داخلي بركانًا من الغضب.. وكان هذا البركان يتفجّر على الآخرين..على كلّ شي..

نظر إليها متأمّلاً، وقال:

- وهل يغلي هذا البركان في داخلك وحدك الآن..

- لا.. لقد انطفأ البركان..أو هكذا ظننت.. قالت بانكسار.

- أعتقد أنّ البركان لم ينطفئ.. وإنّما أنت التي تعبتِ من المواجهة مع الآخرين..

- ربّما..

- وأخذت تشعرين بتأنيب الضّمير لأنّك تسبّبين الأذى للآخرين، والقلق لأهلك..لذلك، أخذت تكتمين ألمك داخلك..

- صحيح..

نظر إليها مليًا.. فكر في أن يقترب منها..متناسيًا كلّ ما قاله لآدم أبوالتّنك ولها عن مقترح زواجهما، فقال لها بنبرة فيها حنان واضح، وتعاطف ملموس:

- أنت تحتاجين لمن يفهمك..وأحسّ أنّك أخذت تشعرين بالرّاحة بالحديث عن هذا الشيء، على الرّغم من أنّه يخيفك قليلًا.

- نعم يخيفني... قالت بتردد..

صمتا كلاهما..أحسّا أنّهما وصلا منطقة من المكاشفة بعيدة جدًّا..تركا خلفهما أقنعتهما..فجأة نظرت إليه نظرة ملغزة..وكأنّها تختبر قوّة تحمّله لما ستكشف عنه..وبعد ثوان، حسمت أمرها وقالت:

- سأقول لك كلامًا..لك وحدك..ولا أريد أن يعرفه غيرك..وتعرف أقصد من بكلامي هذا..وربّما ستتفاجأ بالتي تجلس أمامك..

- إنّني أستمع إليكِ..سنرى إن كنتِ ستفاجئينني، أم لا..على الرّغم من أنّك لا تحتاجين لذلك، فلقد حقّقت المفاجأة حقًّا..

- لا..عليك أن تسمع.. قالت بنبرة حاسمة.

- إنّني أسمعك..قال بتردد مستغربًا نبرتها الآمرة.

لم تبدأ حديثها..إذ نهضت فجأة..اتّجهت إلى غرفة النّوم حيث ينام الطّفل هابيل..خرجت منها واتّجهت إلى المطبخ..كان هو يتتّبعها بنظره.. متأكّدًا بأنّه أمام امرأة أخرى بالكامل، وليست تلك الفتاة البريئة التي كان يحلم بأن يضاجعها..وكانت تبدي ميلها العاطفي نحوه بوضوح مربك.

بعد دقائق، جاءت بصينيّة عليها كوبان صغيران مليئان بالقهوة.. وضعت الصّينية إلى جانب المخطوطات.. رفعت أحد الكوبين، وسلّمته له، فشكرها..وأخذت كوبها، فارتشفت منه رشفة..نظرت إليه، فلاحظت أنه يرتشف قهوته برشفات سريعة متتالية..ثمّ وضع كوبه جانبًا، واتّجه إليها بوجهه منتظرًا حديثها.

ارتسمت ابتسامة حزينة خجولة على وجهها..ثمّ فجأة، تجهّمت ملامحها وأخذت تتغير..انتبه إليها وإلى تحوّلاتها، حتى بدت له شخصًا آخر..بل كانت تتحول فيزياويًّا..أغمض عينيه مرّات وفتحهما ليتأكّد بأنّ ما يراه حقيقة.. كانت المرأة التي تجلس أمامه هي حوّاء الفارسي المربّية، وفي الوقت نفسه امرأة أخرى.. وبينما هو منشغل بالتّفكير مع نفسه، قالت:

- مؤخّرًا.. وبعد أن جئت إلى دمشق.. تقرّب منّي صديق عراقي.. تعرفت عليه مصادفة هنا في سوق الحميدية.. ساعدني في البحث عن عمل

في معمل للنّسيج.... توطّدت علاقتنا تدريجيًّا، لكن عندما باح لي بحبّه لي، وإعجابه بي، ضحكت منه كثيرًا، وصددته بقوّة، ورفضت بشدّة أن يحبّني.. لكن، والحق يقال، كنت أتعالى وأتكبّر.. فقد أعجبتني صراحته التّامّة، قصّ عليّ حكايته، و زواجه الفاشل من امرأة زوّجتها له أمّه، لأّنها أعجبتها هي، وأرغمته على الزّواج بها بشتّى الطّرق. فتزوّج منها إرضاء لرغبة أمه. ومن يومها، وهو يعاني.تعطفت معه كثيراً..وزادت زياراته لي، ولقاءاتي المتكرّرة معه.. إلى أن شعرت بتعلّقي الشّديد به،..أحببته..نعم، أحببته على الرغم من أني أعرف أنه متزوج..ربما لأني تعاطفت مع معاناته..لا أدري..

وذات لقاء بيننا، وهو يوصلني إلى شقّتنا أنا والمرأة التي أعيش عندها واسميها أمّي.. وفي المصعد الذي كنا فيه وحدنا.. وعلى غفلة منّي، ضمني إليه بقوّة، فأحسست أنّه يحبّني حقيقة. لكن كنت أشعر دومًا أنّه يخفي سرًّا وراء حزنه الدّائم... وثمّة أشياء لا يريد البوح بها لي، وأنّه متردّد، ويبحث عن فرصة ليتكلّم،.. كنت على يقين بأنّ هناك أمرًا لا أعرفه..وفجأة ضغط على رقم الطابق الأخير في البناية..ولما وصلنا..أخذ يفتش عن الباب المؤدي إلى سطح البناية..ووجده..فتح الباب وأخذني إلى السطح.. كان الوقت غروباً..وهناك، وبلا مقدمات..ضمني إليه..وأخذ يقتحم جسدي..قبلني..وعصر نهدي..فكدت أفقد وعيي من شدة اللذة..وهناك مدني على الأرض..رفع ثوبي..وسحب سروالي..وكالمجنون نزع سرواله..ودخل في بكل قوته..كنت أتأوه من كثافة اللذة...إلى أن انتفض فجأة..وصرخ بي مستنكرًا: أنت لست عذراء..!!؟؟..ولم يترك لي لحظة كيف أفسّر له حكايتي..وأختفى..!..

يمكنك أن تقدر حالي..وبقيت أسابيع خائفة من أني ربما سأحمل ..لكن الحمد لله جاءت الدورة بعد أسبوعين من ذلك المساء الكريه...ثم اكتشفت مصادفة أنه غير متزوج..وأنه أدعى ذلك كي لا يعدني بالزواج..وأنها وسيلة ممتازة لكسب تعاطف أية امرأة..بأن تدعي أنك تعيش مع امرأة أخرى..!!.. صادفته ذات مرة في سوق الحميدية أيضًا..فتصرف وكأنه لا يعرفني أبدًا.. الغبي لم يسمعني.. ولم يعرف أنني كنت متزوجة..وكنت حاملًا..وأسقطّت جنيني ..!.

نظر إليها..أحسّ بأنّ ملامح وجهها تتحرّك، وتتبدّل ثانية، وأنّها كانت تعيش صراعًا داخليًّا عنيفًا.. وشيئًا فشيئًا، عاد وجه الفتاة المربّية البريء ليتشكّل كما هو وجهها الذي يعرفه مرّة أخرى.

مرّت لحظات من الصّمت الثّقيل بينهما..انتبهت إلى أنّه ينظر إليها.. أحسّت وكأنّها لم تكن موجودة..نظرت إلى كوب القهوة باستغراب..نظرت إليه بتساؤل..نظر إليها هو أيضًا، وكأنّ هذه التي تجلس أمامه ليست هي تلك التي كانت تتحدّث قبل قليل.. ولم يجد نفسه إلّا وهو يسألها من دون إرادة منه:

– إذن كنت متزوّجة..!وأسقطت جنينًا..!!

نظرت إليه باستغراب ممزوج بخوف، وقالت باستنكار:

– متزوّجة..وأسقطت جنينًا..؟ أيّ زواج.. وأيّ جنين..؟

ارتبك هو من ردّة فعلها واستنكارها، فقال بنبرة مرتبكة:

– أنت رويت لي قصّتك قبل قليل.. وقلت إنّك كنت متزوجة ..!

– أنا..؟ قالت باستنكار.

- نعم أنت..!..

- أنا..؟ أنا..؟

- نعم أنت.. قال آدم الشّبيبي، مؤكّدًا، ومستغربًا.

نهضت من مكانها مستاءة.. نظرت إليه.. وقالت بارتباك، ورجاء مكتوم، بدا وكأنّه عتاب لنفسها:

- أنا لم أتزوّج.. ولم أسقط جنينًا..ولا أدري إن كنت قد تحدّثت بذلك.. فأحيانًا أنا لا أكون أنا.. تنتابني هكذا حالة.. أعيش أحيانًا وكأنّني في الحلم.. أو كأنّ ثمّة شخصًا آخر يسكنني.. امرأة أخرى تحاول الخروج والحديث.. لكنّه، ليس أنا.. وهذا الأمر يتعبني جدًّا.. أرجوك لا تخبر آدم أبوالتّنك بذلك.. أرجوك.. أحسّ ببعض التّعب.. أودّ الذهاب إلى غرفتي.

قالت ذلك، وغادرت الصّالة إلى غرفتها..بهت آدم الشّبيبي ممّا سمع.. فكّر مع نفسه أتكون هذه الفتاة تعيش ازدواجيّة الشّخصيّة ..؟ أم هي، كما تقول الحكمة الشّعبيّة مسكونة بروح أخرى..؟.. أم هي تحاول أن تتلاعب به.. وتسخر منه..؟.. ظلّ يقلّب الأمر مع نفسه لدقائق.. وحينما لم يصل إلى تفسير مقنع، مدّ يده إلى إحدى المخطوطات.. وقرأ عنوانها: „متاهة العميان»...حين قلب الصفحة الأخرى، وجد عنوانًا آخر للمخطوطة.. «من اعترافات حوّاء الصّايغ».. أحسّ بأنّه يتيه مع هذه المخطوطات التي تتداخل فيها المتاهات.. وقرّر أن يبدأ بهذه المخطوطة.

الكوكب الوحش...كوكب الخراء

دخل آدم أبوالتّنك المنزل في وقت متأخر من مساء ذلك اليوم. انتبه مباشرة للهدوء الذي يهيمن على المكان، فالتلفزيون مغلق، وإضاءة السقف مطفأة، والصّالة شبه معتمة إلّا من مصباح منضدي يلقي بضوئه على رأس آدم الشّبيبي الذي كان مستلقيًا على الصّوفا وهو يقرأ في إحدى المخطوطات التي تكدّس بعضها على الطاولة الصغيرة المجاورة، ولا أثر للمربية..؛ لكنّه لم يتوقف عند ذلك، فقد توجّه عجلًا إلى المرحاض، من دون أن يلقي التحية على آدم الشّبيبي الذي رفع رأسه مع حركة فتح الباب ناظرًا إليه بتساؤل.

ابتسم آدم الشّبيبي مع نفسه، فقد بدا له صديقه مضطربًا ومحصورًا بشكل بائس، فتخيّل معاناته طوال الطّريق إلى البيت، ولا سيّما قد بدأت طرطشات تدفّق الماء تصله.

منذ الصّباح وآدم الشّبيبي منهمك بهذه المخطوطات، لكنّه منذ ساعة تقريبًا بدأ قراءة واحدة منها أثارت فضوله. هو يعرف أنّ هذه المخطوطات تعود إلى الكاتب آدم البغدادي، الذي اغتيل بطريقة غامضة في شقّته ببغداد، وقد قرأ له رواية واحدة هي «متاهة آدم»، لكن هذه المخطوطة التي يتصفّحها الآن تحمل عنوانين: الأوّل «متاهة العميان» وعنوانًا داخليًّا آخر „ اعترافات حوّاء الصّايغ».

تذكّر حينها بأنّ حوّاء الصايغ هي المرأة التي أحبّها بطل رواية „متاهة آدم – المرأة المجهولة»، والتي كتبها آدم التائه بطل الكاتب آدم البغدادي الرئيسي في روايته «متاهة آدم – السقوط إلى الأعلى». تلك المرأة التي اتّهم الكاتب المهندس آدم المطرود بقتلها.. ثمّ تطورت التّهمة، فتحوّلت إلى تهمة سياسية.

لم يكن آدم الشّبيبي قد قرأ كثيرًا من تلك المخطوطة التي استقرّ رأيه على قراءتها، فقد كان لساعاتٍ عديدة يفكّر بما جرى صباحًا مع المربّية حوّاء الفارسي.. وتقلّباتها الغامضة.. وحديثها عن زواجها وحملها..والشخص الذي أخذها إلى سطح البناية. وإنكارها لذلك في ما بعد.!! ثم مغادرتها الصّالة بما يشبه الهرب إلى غرفة النوم، والتي لم تخرج منها إلّا في الواحدة بعد منتصف النهار، حيث دخلت المطبخ وأغلقت بابه على نفسها.. وبقيت هناك لفترة ليست بالقصيرة أعدّت خلالها وجبة الغذاء والعشاء لذلك اليوم.. لكنّه يتذكّر أيضًا أنّها حين خرجت من المطبخ، كانت مرتبكة وخجلة وتنظر إليه بتوسّل وبمودّة مكتومة..! حينها لم تقل له سوى جملة واحدة تؤكّد فيها بأنّ الطعام جاهز إذا أحبّ أن يأكل.. ودخلت غرفتها حيث الطّفل هابيل.. وقد تناهى إلى سمعه في ما بعد صوت كركرة الطّفل الرضيع، وصوتها وهي تداعبه بمحبّة وحنان فائض..

يتذكّر أيضًا أنها خرجت بعد ساعة من ذلك..وقفت عند باب الغرفة.. نظرت نحوه متحاشية أن تلتقي نظراتهما.. وبدا له وكأنها أرادت أن تتأكّد إن كان قد تناول وجبة الغذاء أم لا..فانتبهت إلى عدم وجود أي شيء يشير إلى تناوله الطعام.. لذا مرّت من أمامه وكأنّه غير موجود..دخلت المطبخ..

وسمع قرقعة صحون وأوانٍ..ثمّ بعد ذلك بقليل، خرجت وهي تحمل صينيّة فيها صحن رز، وآخر فيه فاصوليا.. مع قطعة من الصّمون الحجري.. تقدّمت نحوه من دون أن تنظر إليه.. وضعت الصّينيّة أمامه على الجزء الخالي من الطاولة، إلى جانب المخطوطات..ثم مضت ثانية إلى المطبخ.. كان هو يتابعها بنظراته..خرجت بعد قليل وهي تحمل صحنًا فيه شيء من الطعام ومضت إلى غرفتها. ولم تخرج بعدها إلى الآن.

يتذكّر أنه قضى معظم ذلك النّهار، وحتى المساء تقريبًا، منشغلًا مع نفسه وأفكاره. أحسّ بأنّه يحتاجها..لكنّه كمن قُبض عليه من عنقه..هو متأكّد بأنّها مستعدّة للتّواصل معه بأيّ شكل ممكن، لكنّه مخنوق، وغير قادر.. فمن جهة دعوته لها ولآدم أبوالتّنك بالزّواج، ومن جهة أخرى وضعه المرتبك، ومصيره المجهول..لكنّها تريده..هذا واضح من كلّ نظراتها وتصرفاتها..بل هي أكثر جرأة منه في التّعبير عن مشاعرها. ولم ينقذه من اندفاعات تيّارات الخواطر والأفكار سوى مخطوطة „متاهة العميان“.. لحظتها ابتسم مع نفسه لمفارقة العنوان، وتطابقه مع حالته النّفسيّة.. فهو يحسّ نفسه أعمى في متاهة..!.

لم يكن قد تجاوز بضع صفحات حينما دخل آدم أبوالتّنك محصورًا ولائذًا إلى المرحاض. وها هو ينتظر خروجه ليعرف منه بعض الأخبار عن وضعه.

بعد دقائق قليلة خرج صديقه من المرحاض. انتبه إلى نظرات آدم الشبيبي المتسائلة. أحسّ بالخجل، وفكّر مع نفسه بأنّ هذا المثقّف المتحذلق ينظر إليه باستعلاء لا يكشف عنه مباشرة، لكنّه يتلمّسه في نظراته وابتساماته

الماكرة أحيانًا، وربّما استهزأ منه حينما وجده مضطرًا إلى دخول المرحاض بتلك الطريقة المضحكة..

صحيح إنّه يغادر البيت ليترك له فرصة التّواصل مع المربّية، لكن هذا المتحذلق يتعامل مع الجميع باستعلاء متكئًا على ثقافته وعلى كونه كان يعمل صحافيًّا. لكن لا بد من إيجاد حلّ لكلّ هذا الوضع المرتبك.. أيظل يهرب من بيته يوميًّا من الصباح إلى المساء ليمنحه لحظات من الغرام..!! وإلى متى..؟.

***

جلس آدم أبو التّنك على المقعد المقابل للصّوفا التي كان يستلقي عليها آدم الشّبيبي، والذي جلس احترامًا لصديقه. كانت ملامحه تشي وكأنّه كان مرهقًا ومتعبًا، ومرتبكًا من طريقة دخوله المنزل والتوجّه إلى المرحاض من دون أن يلقي التحية، لذلك بادر بطريقته الغريبة واللامتوقعة في الحديث:

- أنا أكره طبيعتي البايولوجية.. أكره أن أبول وأتغوّط، وأكره كوني لا أستطيع أن أرفض أوامر جسدي في هذا الشّأن.

انتبه آدم الشّبيبي إليه، ونظر إليه بتساؤل من دون أن ينطق شيئًا، فواصل أبو التّنك، وكأنّه أدرك بأنّ صديقه لن يقاطعه، منتظرًا منه أن يقول شيئًا مشاكسًا:

- حينما أجلس على قاعدة المرحاض أشعر بتفاهتي كإنسان.. أشعر ببايولوجيتي الحيوانيّة المقيتة.. ؛ ولا سيما حينما تتصاعد تلك الروائح الكريهة من تحتي والخارجة من أحشائي، لذلك لا أطيق ذلك، فأضغط على دواسة الماء كي تدفع الخراء بسرعة.. أحيانا أشعر وأنا في تلك اللحظات

بأنّ هناك في داخلي كائن آخر.. أحسّ بأحشائي وكأنّها مسخ كريه يتحكّم بي...! أفكّر كم نحن البشر تافهون.. وكريهون..ومليئون بالخراء..جيف تمشي.. ولا نتواضع...أتدري بماذا أفكّر في تلك اللحظات..؟

نظر آدم الشّبيبي إليه بانتباه أشدّ وارتباك، فهو متفاجئ بهذه الأفكار المفارقة التي تنطلق من هذا الشخص، الذي يبدو أنه بعيد عن أية أفكار فلسفية ووجودية، لكنّه ظل صامتًا.. لذلك واصل آدم أبو التّنك:

– أحيانا أفكّر بالنّساء الجميلات. بملكات جمال العالم.. بالحسناوات.. الممثّلات الخارقات الجمال .. رموز الأنوثة والشهوة والرغبات المتأجّجة.. بالأميرات.. والملكات.. بالملوك والأباطرة.. وزعماء العالم.. بقادة الثّورات.. بالمفكّرين والفلاسفة.. بجبابرة العالم من الطغاة.. بالرّهبان والقدّيسين.. أفكّر بالأئمة.. والأنبياء.. بآيات الله..هل كانوا يشعرون بتفاهتهم حين كانوا يجلسون للتغوّط.. ألم يشعروا بأنهم بعيدون عن أية قداسة، وأنهم لا يختلفون عن أي حيوان تافه، وفي أحسن التعابير عن أيّ إنسان تافه، وهم يرون الخراء النتن ينزل من جوفهم..؟؟.. أي قداسة لنبي، لإمام، لقديس، لحواري، لفرعون، لآية الله..بابا..وأي جمال يبقى لملكات للجمال في لحظات الخراء تلك..؟؟ بماذا كانوا يفكّرون حينما تحاصرهم أجسادهم من أجل التّخلّص من الخراء...! أكانوا يفكّرون بالله والقوى الخارقة في تلك اللحظات..! أكانت ملكات الجمال مستمرات بغرورهن وشموخهن وعنجهيتهن وهن يتشممن الرائحة الكريهة التي تتصاعد من تحتهن..!!.

صُدم آدم الشبيبي من وقع تلك الأفكار الغريبة التي انطلقت من فم هذا الذي لم يكن يأخذه بمحمل الجد كإنسان ذي أفكار لمّاحة.. فكّر مع نفسه،

ربّما أنّه عانى حقًّا من حصار أحشائه، لذلك حاصرته هذه الأفكار عندما كان في المرّحاض.. نعم بالتّأكيد جاءته هذه الأفكار وهو في المرحاض، فلا أحد يفكر بمثل هذه الأفكار الخرائيّة إلّا في المرحاض.. وابتسم مع نفسه بشكل مكتوم من تعبير (الأفكار الخرائية).. وبعد لحظات من الصّمت..انتبه إلى أن آدم أبوالتّنك ينظر إليه وكأنّه يريد منه أن يقول شيئًا.. أطرق لثوان إلى أرضية الصالون، ثم رفع وجهه، وقال بنبرة فيها مشاركة جادّة:

– أنا تراودني أفكار قريبة من ذلك، لكن مختلفة أيضًا.. فأحيانًا تأتيني أفكار غريبة.. أفكّر في أنّ على الأرض يعيش ما يقارب سبعة مليار إنسان..؛ ولو افترضنا أنّ كل إنسان يتغوط يوميًا بما يعادل نصف الكيلو من الخراء فهذا يعني بأنّ الأرض تستقبل ثلاثة مليارات ونصف المليار كيلو من الخراء يوميًّا..وما يقارب سبع مليارات لترًا من البول.. وكما تعلم أنّ نصف الخراء والبول يذهب إلى البحار مباشرة أو عبر الأنهار..وهذا يعني بجرد حسابي بسيط أنّ الأرض تستقبل أكثر من مائة مليار كيلو من الخراء شهريًّا.. وأكثر من ذلك مليار كيلو سنويًّا.. ولو حسبنا تاريخ البشرية حتى بلوغهم المليارات لعرفنا أن هذا الأرض ليست سوى كوكب تتراكم فيه طبقات الخراء.. وأننا نشرب بولنا..!!..لكني سرعان ما أنفر من هذ الأفكار.. فأنا ترعبني هذه الأفكار الخرائية..أحسّ بتفاهتنا نحن البشر كما قلت أنت أيضًا.. لكنّ الأفكار التي تشدني هي أنّ الأرض ليست سوى كوكب متوحّش..

– كوكب متوحّش..؟

سأل آدم أبوالتّنك مستغربًا، ومشاركًا باهتمام في تلك الأفكار الغريبة عن مليارات الكيلوات من الخراء اليومي التي لم يحسبها هو مثلما حسبها

صديقه، لكن ما قاله في جملته الأخيرة حول كوكب الأرض شدّت انتباهه فعلًا فأراد أن يعرف ما يعنيه صديقه بذلك. بعد ثوان واصل آدم الشّبيبي كلامه ليوضح مقصده:

- الأرض كوكب متوحّش..نعم..هل فكرت بعدد الموتى يوميًّا..كم ميت يدفن في باطن الأرض يوميًّا..؟ مرة قرأت بأنّ هناك ما يقارب أربعمائة ألف شخص يموت يوميًا..وطبعًا، يولدون بعدد مقارب..أقل أو أكثر قليلًا.. يعني أنّ الأرض تلتهم يوميًا مئات الألوف من الجثث البشريّة..ناهيك عن جثث الحيوانات النافقة.. بل هي تشرب الدّماء أيضًا..الدّماء المنهمرة من البشر.. أو من الحيوانات في مسالخ الأرض بمختلف البلدان.. !! لذا أحسّ وكأنّ كوكب الأرض هو وحش حقيقي....! أتعرف أنّني كنت أتردّد في التّعبير عن أفكاري هذه، ولولا صراحتك وحديثك لما تجرّأت في التّوقّف عند أفكاري الغريبة هذه..

صمتا كلاهما. غرق كل منهما في أعماق تفكيره.. فجأة، توجه آدم أبوالتّنك إلى صديقه سائلًا:

- هل تعشيت..؟

استغرب آدم الشّبيبي هذا الانتقال في الحديث، فقبل قليل كان الحديث يدور عن الخراء، بينما يسأل هو الآن عن الطعام، فقال دونما اهتمام:

- لا.. كنت أنتظرك.. لدينا رز وفاصوليا.. لقد طبختْ للغذاء والعشاء..

- وأين هي..؟ سأل آدم أبوالتنك مستغربًا.

- لا أعرف.. لقد قضت النّهار كلّه في غرفتها..

- لماذا..؟ هل هي مريضة..؟ أو الطّفل مريض..؟

- لا..جلست صباحًا هنا ..تحدّثت عن زواجها .. وعن اسقاطها لجنينها..لكنّها سرعان ما أنكرت ما قالت..

- ماذا تقول..!! هي غير متزوّجة..ما هذا الكلام..؟ أنا أعرفها ..منذ أوّل وصولها إلى دمشق مع أمها.. وأعرف أنّها غير متزوّجة..

- هي روت لي قصة ذلك..لكنّها سرعان ما أنكرت ذلك..ربما أنا لم أفهمها بشكل صحيح.. المهم ..هي طبخت لنا.. وذهبت إلى غرفتها..ولم تخرج لحد الآن. ولكني سمعت صوتها وهي تداعب الصّغير بمرح..

- وأنت ماذا فعلت..؟ سأل آدم أبوالتنك مستفسرًا.

- لا شيء.. تصفّحت المخطوطات..وقرّرت أن أقرأ إحدى المخطوطات التي تحمل اسم „متاهة العميان»..

- «متاهة العميان»..؟

- نعم..

أطرق آدم أبوالتّنك برأسه قليلًا..وقال بصوت منكسر، وبنبرة استسلام:

- يبدو أنّنا فعلًا عميان في متاهة..

امتدّت لحظات صمت بينهما. انتظر آدم الشّبيبي أن يواصل الآخر كلامه.. إلّا أنّ آدم أبوالتّنك رفع رأسه بمرح مفاجئ، وقال:

- علينا أن نتعشّى.. نستمتع بما جادت به الطّبيعة علينا من متعة الأكل..

فجأة ، وعلى غير توقّع منهما، أطلّت عليهما حوّاء الفارسي التي بدت وكأنّها خرجت من الغيب، إذ لما ينتبه أحد لحركة خروجها من الغرفة، فقد كانت بالقرب منهما، وهي تقول بجدية:

- سأصبّ لكما العشاء.. أنا أيضًا جائعة.. لحظات ويكون كلّ شيء جاهزًا.. سأحمّي الطّعام.

قالت ذلك، ثمّ اتّجهت إلى المطبخ، بينما نظر الرجلان إلى بعضهما البعض، وعلى ملامحهما علامات الدّهشة والتّساؤل الغامض.

الغيبــة الكــبرى

مرّ أسبوع على تلك الليلة الغريبة التي تناقشا فيها عن كوكب الأرض المتوحش بالنسبة لآدم الشبيبي أو كوكب الخراء بالنسبة لآدم أبو التنك. لم يتغير شيء خلال هذا الأسبوع وكأن الزمن قد توقّف، بل وكأن المشهد هو نفسه لكن بعد أسبوع.. فقد كانوا جالسين في الصالة بعد العشاء، وكانت حواء الفارسي قد فرشت للطفل هابيل بطانية على أرضية الصالة، فهو مُستلق يحرك يديه ورجليه في الهواء ويضحك لأشياء غير مرئية بالنسبة لهم.. وكأنه يرى شيئًا لا يرونه.

كان ثمة استرخاء نفسي لدى آدم الشبيبي، فقد مضى ما يُقارب أسبوعين على حادثة اعتقال المهرّب مع بعض المسافرين من دون أن يحدث له أي شيء..وهذا ما فسّروه جميعًا بأن الأزمة قد مرت، وأن المهرّب لم يأت على ذكره في التحقيق.

كانوا يشربون الشاي وهم يتابعون مسلسلًا سوريًّا من قناة الدراما. كل منهم كان يعيش عالمه. فجأة، سُمعت طرقات على الباب الخارجي الذي يفضي إلى الصالة مباشرة. فزّ الثلاثة في الوقت نفسه.. أخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض..كل منهم كان يسأل السؤال نفسه في داخله: من ترى يطرق الباب.. وفي مثل هذا الوقت من الليل..؟

لم ينطق أحد منهم.. إلا أن آدم أبوالتنك ضغط على الريموت كنترول فكتم صوت التلفزيون. وسأل بصوت أشبه بالهمس:

- هل سمعتم مثلما سمعت..؟ هل سمعتم طرقاً على الباب..؟

لم يجب أي منهما نطقًا، لكنهما هزا رأسيهما بالإيجاب.. فواصل السؤال بالنبرة نفسها:

- ومن تراه يطرق الباب في مثل هذا الوقت..؟

لم يجب أحد منهما لكن الاستسلام الموافق لتساؤل آدم أبوالتنك قد ارتسم على وجهي آدم الشبيبي وحواء الفارسي. بعد لحظات من الصمت الثقيل المشحون بالترقب نهض آدم أبوالتنك واتجه نحو الباب، بينما أخذت حواء الفارسي الطفل هابيل مغادرة الصالة إلى الغرفة، وكأنها تحميه عن عيون مجهولة.

***

- من هناك..

- أخي ممكن تفتح الباب..

حين فتح آدم أبوالتنك الباب قابله وجه خائف ومرتبك لرجل فتي في الثلاثينات من العمر. بدا شاحبًا بسبب الإضاءة الخافتة قرب الباب. لم يخرج آدم أبوالتنك من باب المنزل، بل ظلّ قرب فتحة الباب..لكنه انتبه إلى وجود سيارة على بعد عشرة أمتار تقريبًا، فأدرك أن هناك من ينتظره فيها.

- تفضل أخي..

- أنا أبحث عن بيت آدم الشامي.. هل تعرف أين يسكن..؟.. قيل لنا إنه في هذا الزقاق..

- آدم الشامي..؟ لم اسمع بهذا الإسم قطّ..ولا أعتقد أن لدينا جار بهذا الاسم..!

ارتبك الرجل الذي كان أثناء حديث آدم أبوالتنك ينظر في أعماق المنزل.. انتبه هو إلى اتجاه نظرات السائل التي تجاوزته لأعماق المنزل، فارتاب بالأمر فورًا، لكنه حاول أن يداري الموقف، فنظر في عيني السائل مباشرةً وكأنه ينهي الحوار، فارتبك الآخر وقال له منسحبًا:

- شكرًا لك..أرجو أن لا أكون ضايقتكم..

- لا أبدًا..

استدار الرجل الفتي متّجهًا نحو السيارة، بينما وقف آدم أبوالتنك يتابعه بنظراته. ركب الرجل السيارة التي تحركت إلى الوراء من دون أن يضيء السائق مصابيحها، إلى أن وصلت الشارع العام.. ثم انطلقت مسرعةً مطلقةً هديرًا مزعجًا.

***

أغلق آدم أبوالتنك الباب. وما بين المسافة ما بين باب المنزل والفسحة الصغيرة حيث الصوفا وحيث آدم الشبيبي وحواء الفارسي التي خرجت من الغرفة حاملة الصغير على ذراعها كان هو يفكر بما جرى، محاولًا فهم هذا اللّغز.

كان على قناعة بأن السائل توجّه إليهم بقصدية، وأن سؤاله عن شخص وهمي اسمه آدم الشامي ما هو إلا ذريعة تقليدية للتأكد من أمر ما يخفونه.. لكن ماذا يريدون..؟ وبمن يشكّون..؟ ولماذا لم يقتحموا البيت إذا ما كان الأمر كذلك..؟.

- من كان..؟

سأل آدم الشبيبي ..

- لا أعرف..رجل ما..يبدو لي وكأنه من المخابرات..لكن لهجته فيها لكنة عراقية..كانت هناك سيارة تنتظره على مبعدة.. سألوا عن شخص اسمه آدم الشامي.. لكني أعتقد أن هذا من باب الإيهام.. فربما لا يوجد أصلًا شخص بهذا الاسم..

- ولماذا تعتقد ذلك..؟.

سألت حواء الفارسي وهي تجلس على الصوفا وفي حضنها الطفل هابيل الذي كان ينظر إلى ما حوله مرحًا..؛ بينما ظل آدم أبوالتنك واقفًا وهو يقول:

- لأنني لمحته وهي يجول بنظره في الصالة وهو يتحدث معي.. وكأنه يريد أن يستكشف المكان.

وفي تلك اللحظة بالذات سمع الجميع طرقًا على الباب..كانت طرقات سريعة الإيقاع وكأن الطارق على عجلة من أمره.. سكن الجميع رهبة.. نظروا لبعضهم البعض وكأنهم يستفسرون من بعضهم عن الطارق مرة أخرى..؛ لا سيما آدم أبوالتنك الذي رأى الطارق الأول وهو يغادر مع صديقه بسيارته..!..

توجّه آدم أبوالتنك لا إراديًا نحو الباب..وقبل أن يفتحه نظر إليهما..كانا ينظران إليه بترقب وتساؤل..ولا يعرف كيف أنه نظر إلى الطفل هابيل وهو بين ذراعي المربية، فانتبه إلى أن الطفل هابيل كان ينظر إليه ببراءة ودهشة وقد توقف عن مرحه الطفولي وكأنه مثل البقية ينتظر معرفة من الطارق..!.

عند الباب سأل آدم أبوالتنك بصوت خافت يحاول أن يكتم التردد فيه:

- من هناك..؟

لم يجبه أحد..فكرر السؤال:

- من هناك..؟

لم يجبه أحد أيضًا..فجأة..؛ طُرقت الباب مرة أخرى.. فلم يكن منه سوى أن يفتح الباب بشكل سريع ومفاجئ.

ارتسمت الدهشة الممزوجة بالخوف حينما لم يجد آدم أبوالتنك أي شخص أمام الباب. لم يخرج من البيت وإنما مدّ رأسه متلفتا يمينًا وشِمالًا.. لم يكن هناك أحد في ذلك الزقاق الضيق والذي يتألف من سبعة بيوت يتوسط تقسيمها الثلاثي من كل جانب منزل آدم أبوالتنك.. ظلّ لدقائق يتلفت عسى أن يرى أحدًا.. استغرب من نفسه لأنه قد فتح الباب في اللحظة التي سمع فيها طرقًا على الباب، أي كان عليه أن يُفاجئ الطارق ويواجهه وجهًا لوجه..لكنه الآن لا يرى أحدًا.

فجأة.. وكأنما هناك انبثقت قوى من الغيب أو من العالم اللامرئي.. ظهر أربعة رجال..ملثمون..بملابس سوداء. دفعه الرجل الأول الذي يقودهم دفعة أطاحت به كخرقة إلى أعماق الصالة.. فتعثر وسقطت نظارته الطبية.. فانشغل للحظات باحثًا عنها..؛ فهو لا يرى جيدًا بدونها. بينما اندّفع الرجال الملثمون جميعهم إلى داخل الصالة.

المفاجأة شلّت آدم الشبيبي والمربية حواء الفارسي..حتى الطفل هابيل ارتسمت علامات الذهول على وجهه البريء..لكنه ابتسم لهم بعد

لحظات..!..الشبيبي ظنّ أنهم جاءوا ليأخذوه..شحب وجهه..وأحس بارتعاشة خوف باردة تسري في جسده. المربية كانت تتفرّس فيهم.. وبسرعة خاطفة.. تقدّم رجل ملثّم منها وأخذ الطفل من ذراعيها. وتوجهوا نحو الباب. في تلك اللحظات كان آدم أبوالتنك قد وجد نظاراته.. وكان يضعها على وجهه حينما سمع قائد المجموعة يقول لهم بحزم وهدوء:

- لا تخافوا..لن نؤذيه..سيغيب معنا..هي غيبته الكبرى التي ستطول.. لا نريد منكم أيّة كلمة عمّا جرى هنا ..!وإذا اشتيكتم عند الجهات الأمنية وأجهزة الدولة فستتكون العواقب وخيمة..مفهوم..!

وصفقوا الباب خلفهم. وسُمعت قلقلة خلف الباب وكأنّهم أغلقوه من الخارج..ركض آدم أبوالتنك نحو الباب. فتحه. لم يكن ثمة أحد هناك. وكأنما الليل قد فتح لهم بابه فاختفوا في شقٍ مجهول وغير مرئي من الليل.

حين التفت آدم أبوالتنك إلى الصالة رأى أن حواء الفارسي تكاد تنهار من الرعب.. توجّه آدم الشبيبي نحوه.. بينما قالت حواء الفارسي بكلمات متوترة وتكاد تختنق وهي تتحدث:

- إنهم هم.. أعرفهم..الرجل الملثّم الذي أخذ حبيبي هابيل من ذراعي هو أحد الذين رأيتهم وهم يتجهون لشقة المرحومة حواء الكرخي يوم مقتلها..عرفته من نبرة صوته التي تشبه صوتًا صادرًا من آلة تسجيل..والآخر الذي كان يقف عند الباب أيضًا..عرفته من عينيه..وأقسم لكما أنهم هم الذين قتلوا حواء الكرخي.. والآن جاؤوا لأخذ هابيل..!.

كان آدم أبوالتنك يشعر بالإهانة من جهة وبالذهول، فقال مستغربًا وهو يتمتم وكأنه يتحدث مع نفسه:

- لكن كيف حصل كل هذا بلمح البصر..؟ من أين جاؤوا..وأين اختفوا..؟

كان آدم الشبيبي منفعلًا، بل ولشدة انفعاله كان عاجزًا عن الكلام. حين نظر الآخران إليه منتظرين أن يقول شيئًا.. نظر إليهما متسائلًا، وقال:

- لكن ما معنى إنهم لن يؤذوا الصغير هابيل..وإنه سيختفي. وستكون هذه غيبته الكبرى..!!..ماذا يقصدون بذلك..؟

صمتوا لثوان. كانت النظرات الحائرة والخائفة بينهم أبلغ من الكلمات. أكدّت حواء الفارسي على ما سمعت من آدم الشبيبي قائلة:

- نعم..ما معنى لن نؤذيه..ثم يقولون إن غيبته ستطول..؟ وإنها ستكون غيبته الكبرى..؟ كيف هذا..؟ هل هو صاحب الزمان كي تكون لديه غيبة كبرى..؟.

تمتم آدم أبوالتنك يائسًا وكأنه يكلم نفسه:

- غريب فعلًا..؟ ما معنى ذلك..؟ هذا غير معقول..! إنهم ربما الذين قتلوا المرحومة حواء الكرخي.. وإنهم مرسلون من قِبَل عم الطفل.. ويريدون استرجاعه..وربما..لكن ما العمل..؟ ماذا علينا أن نفعل الآن..؟. لمن نتوجه..؟ هل علينا إبلاغ الشرطة..؟ لكن ماذا سنقول لهم إذا ما سألوا عن الطفل..؟ وهويته..؟ وأمه وأبيه..؟ وكيف دخل إلى سوريا..؟..

صمتوا جميعًا بعد هذا السيل من الأسئلة..إلّا أن آدم الشبيبي قطع هذا الصمت قائلًا:

- اعتقد أن لديه دخولية رسمية إلى سوريا..فهو مُسجّل مع المرحومة حواء الكرخي باعتباره ابنها..ولدينا جواز سفرها وفيه اسمه أيضًا..!

– لكن هؤلاء المختطفين ربما الآن توجهوا به إلى بغداد..؟ قالت المربية بصوت مليء بالجزع.

– ما العمل..؟

سأل آدم أبوالتنك وهو يلقي نظرة مستفسرة إلى آدم الشبيبي الذي أحس بثقل تلك النظرة فارتبك..وفي تلك اللحظة بالذات كررت حواء الفارسي السؤال نفسه موجّهة السؤال لآدم الشبيبي أيضًا:

– ما العمل..؟

فجأة أحس أنه يفقد السيطرة على نفسه، فقال لهما بتوتر مفاجئ وبانكسار مؤثر:

– نظراتكما تحرقني.. إنكما مخطئان إذا كنتما تتصورانني على غير حقيقتي..بالتأكيد أنا لستُ البطل المنقذ الذي استطيع الآن أن أطارد العصابة وأقتلهم لآتيكما بالطفل هابيل..! ولست تلك الشخصية التي يمكن أن تنبثق أفكارها الذهبية لترشدكما إلى السبيل الذي يمكن أن نسلكه.. أنا إنسان عادي..كانت لدي أحلام وتحطمت..وحطمتني معها.. حتى صرت يائسًا من كل شيء.. أنا نكرة.. أنا لاشيء.. أنا الضئيل الذي رأى نفسه..!

استغرب الآخران هذا الانهيار النفسي الذي تجلّى في كلمات آدم الشبيبي.. نظرا لبعضهما البعض بحيرة وتأثر.. التفت إليه حواء الفارسي وقالت بنبرة مليئة بالتعاطف والحنان:

– لماذا تحاول أن تهين نفسك وتقلل من شأنها..؟ لماذا تحاول أن تؤكد بأنك بلا شخصية..ولا هدف..أنت تعرف أنك لست كذلك..وأنك إنسان

طيب وخيّر وشجاع..وأنا متأكدة بأنك تتألم وأنت تتحدث عن نفسك بهذه الطريقة..ثم أننا لا ننتظر منك الخلاص ولا أن تعيد لنا حبيبي هابيل.. وإنما نحن نسأل بعضنا البعض: ما العمل..؟.

أحس آدم الشبيبي بالارتباك والخجل من كلماتها المتعاطفة معه والمشجّعة، لكنه لم يشأ أن يبدي ارتياحه بشكل واضح مما قالته فقال بنبرة أكثر هدوءًا لكنها ظلت منكسرة:

– أنا لا أقول ما أقول لأكسب عطفكما..ولا لأبرر لنفسي ضعفي وعدم حيلتي..لكني فعلًا أجد نفسي عاجزًا عن فعل أي شيء.. فكلاكما تعرفان أنني خسرت كل شيء في مغامرة السفر الفاشلة..وما بقي عندي هي نقودك أنت يا صديقي آدم ..وهي التي أعطيتني إياها كمصرف جيب حين أصل.. ولم أصل إلى أي مكان..لا بل وصلت إلى اللامكان..وقد كنت رابضًا خلال كل هذه الأيام الفائتة هنا خائفًا من أن يقوم المهرّب بالكشف عن اسمي.. لكن يبدو أن الأمور الآن سيّان لدي.. إنني أتألم على نفسي وعليكما وعلى الطفل هابيل.. وأنا بصراحة خائف..خائف على نفسي..وعليكما..فإن كان كلام حواء صحيحًا بأنهم من قتل المرحومة حواء الكرخي فهذا يعني أن حياتنا جميعًا في خطر..فهؤلاء الملتحون الذين يلبسون الثياب السود ليسوا أكثر من قتلة..فهم يقتلون بلا رحمة..وكل شيء عندهم مباح..وإذا ما قتلوا الطفل هابيل فهذا يعني أنه فعلًا سيغيب غيبته الكبرى..!..

– هل تعرفهم..؟ سأله آدم أبوالتنك مقاطعًا.

– لا.. شخصيًّا لا أعرفهم..لكني سمعت، كما أخبرتك في المقهى، عن الحاج هابيل في بغداد.. وهو عمّ الطفل هابيل..وهذا الحاج هو الذي

اختطف صديقي الأستاذ قابيل الفهد..ومعروف أنه قتل العديد من أساتذة الجامعة العلمانيين.. وكما أخبرتني المرحومة حواء الكرخي فهو من قتل أم الطفل هابيل التي كان اسمها حواء الزاهد، وذبح حبيبها آدم المحروم الذي هو والد الطفل هابيل..هم مجموعة من القتلة بيدهم السلطة في بغداد..

- نعم..نعم..أعرف هؤلاء أيضًا..لكن ما العمل الآن..؟ سألت حواء الفارسي خائفة..

- نعم ما العمل..؟ كرر آدم أبوالتنك السؤال نفسه.

كان الثلاثة في أقصى حالات اليأس والذهول..والاستسلام البارد.

فجأة قالت حواء الفارسي لهما محاولة أن تبث فيهما شيئًا من الشجاعة:

- سأعدّ لنا الشاي ونفكر معًا..ماذا علينا أن نفعل وكيف علينا أن نتحرّك.؟.

قالت ذلك، واتجهت إلى المطبخ.

***

كانت ليلة مرعبة..أحس الثلاثة فيها بالفزع والخذلان والانكسار. كانوا عاجزين عن فعل أي شيء..بل كانوا عاجزين عن القيام بأي رد فعل على ماجرى. أدركوا بأنهم مُهدّدون من قوى غامضة ومجهولة..قوى لا يعرفونها..أحسّوا بالهوان والضآلة..كانت هذه المشاعر تصطخب في أعماق كل منهم بعنف مختلف.

بقوا إلى الساعات الأولى من الفجر يتناقشون ويستفسرون في ما بينهم عمّا جرى.. إلى أن نفد الكلام..لم يبق ما لم يُقل في تلك الليلة..ولم يكن

أمام كل منهم سوى أن يلوذ إلى نفسه.. فتوجّهت المربية إلى غرفتها والدمع يترقرق في مآقيها، بينما انكفأ آدم أبوالتنك على الصوفا المقابلة، أما آدم الشبيبي فقد وجد ملاذًا في القراءة، فسحب مخطوط «متاهة العميـــان».. أخذ يقلبها بين يديه ، ثم جلس معتدلًا، وبدأ القراءة.:

متـــاهــــة الـــعـــمـيـــــــان

تألـيـــف

آدم الـــبـغـــــــدادي

(مـــن اعـتــرافـــــات حـــــــواء الـــصـــايغ)

1

....

نوّار أبيض..نوّار أبيض فوق طاولة الليل..الليل الذي هو صديقي في عالمي الحزين..عالمي الحزين الذي يتشكل من خيبات تجر بعضها بعضًا وكأنها تتشبث ببعضها خوفًا من التيه في دروب المتاهة..المتاهة التي وجدت نفسي في دروبها الخانقة..دروبها المليئة بدخان الأكاذيب وروائح الغيرة والنفاق والجريمة وروائح الدم النتنة.

أعذروني فأنا لا أعرف البدايات..البدايات التي هي نهايات لتجارب عنيفة..البدايات التي هي مربكة دائمًا..وغامضة دائمًا.. نعم..البدايات هي هكذا..البدايات هي نهايات غير مرئية.

قد أبدو لكم غامضة..وربما أنا نفسي شخصية غامضة..حتى ملامحي الواضحة مليئة بالغموض..لست كاتبة بالمعنى الاحترافي..أنا هاوية..أكتب

الشعر والخواطر..لكنني قارئة محترفة..أنا لا أكتب كي أنشر أو أشتهر..أنا ببساطة أحب الكتابة..أكتب منذ فترة المراهقة..خواطر هي تقليد لعوالم جبران والمنفلوطي وآخرين..لكني مضيت قدمًا بعد أن دخلت الجامعة ودرست اللغتين الإسبانية والألمانية..لديّ مجموعة من النصوص..فكرت بنشرها في كتاب، غير أن الأرض مزدحمة الآن..انتظر دوري..ربما سأقفز منتحرة باصدار كتاب..

ثمة كتابات تشبه الغيب في غموضها..وتشبه الحياة في تعقيدها ومكرها.. وثمة كتابات تزرع فيك فطرًا سامًا قاتلًا وتُسري في دمك مصلًا خبيثًا لداء قاتل..وشخصيًّا مررت بكل أنواع السموم.. وأخذت مصلًا مضادًا وقاية..! قرأت أشياء مفيدة زلزلت حياتي وقرأت أشياء أنفقت فيها وقتًا من عمري سُدى...!.

***

أحيانًا أسأل نفسي: من أنت يا حواء..؟

لماذا ياحواء كنت تنظرين لحياتك وكأنها ليست حياتك ولا تخصك أنت..؟

تنظرين لنفسك وأنتِ تساقين إلى المسلخ ولا تحتجين..؟

أسأل نفسي ولا أجد جوابًا شافيًا..

بلى.. بلى.. أجد نفسي أجيب على نفسي..

لكن أجوبتي هي شظايا الضياع والتيه..

أتمتم مع نفسي:

أنا الشطح والجنون..

أنا الرعشة الأخيرة المحتضرة لآخر حواء على الأرض..

أنا قشعريرة ليل الشتاء..

أنا الوجع الصامت..

أنا امرأة المرايا ..

أنا مرايا النساء جميعهن..

أنا مرآة المرأة نؤوم الضحى التي تتكاسل عن الصحو من نومها..

أنا مرآة المرأة العاشقة التي تطفو على أمواج بحر صاخب

لكنها تتذكر في تلك اللحظات

قرطها الذي أضاعته في بحيرة نائية بين الجبال..

أنا مرآة المرأة التائهة التي تبحث عن المعنى..

أنا مرآة الذاكرة..

أنا انحناءة الخط المرعب للقدر..

أنا الرمل الذي لا لون له..

أنا عتمة الكلمات الخرساء..

أنا كحل الليالي الذي يمر على عيون السهارى العميان..

أنا الليل الأسود الذي يضيء كنهار أسود..

أنا الخطأ الصحيح..

أنا الأثم البريء..

أنا الخطيئة الطاهرة..

أنا عرّافة العصور الغامضة..

أنا ساحرة الغابة المتوحشة..

قارئة الأقدار الغامضة..

أنا الباب المفتوح على الأبدية..

أنا الباب المغلق على الموت..

أنا الصبر الرحيم..

أنا حواء..أنا الحياة.

***

لقد كرسّت حياتي للغياب..لكن بأيّ معنى....؟

سأجيب ببساطة: أنا أعاني من غيرة زوجي المخيفة..يتظاهر بأنه واثق من نفسه وشهم، وكريم،ويحبني كثيرًا، ويغرقني بالهدايا..لكنه لا يطيق نظرة إعجاب واحدة مني نحو رجل ما..أو نظرة إعجاب من رجل نحوي..! أعتقد أن بعضكم يعرفه..فكل من قرأ رواية «**متاهـة آدم – المرأة المجهولة**» للكاتب آدم التائه سيعرفه..إنه زوجي آدم الولهان..نعم آدم الولهان..التاجر الغامض...!

ما زلت أتذكر آخر حوار جرى بيني وبين صديقي..بل حبيبي المغدور الكاتب آدم المطرود حين سألته عن رأيه في زوجي فقال لي:

– إن شخصية الأستاذ آدم الولهان الخارجية، بالرغم من دخوله في خريف العمر، تشير إلى أنها شخصية جذابة ولطيفة..لكن..بالرغم من

تقاطيعه المتناسقة ونعومة ملامحه، ووسامته، وأناقته الطاغية والتي لا يختلف حولها اثنان، إلّا أن المرء لا يرتاح لرؤيته كل الارتياح.

وأذكر أنه استرسل قائلًا أيضًا:

- أحيانًا أجد أن تعبير وجهه وبعض نظراته تكاد تكون مُنفّرة، مزيفة وغير حقيقية، لأنه يتكلّفها، فهناك ثمة قناع يغطي وجهه الحقيقي. والغريب أن عينيه البنيتين الجميلتين، اللتين تسترعيان الانتباه لكل من ينظر إليه، تتركان انطباعًا للناظر لوجهه بأنهما لا تخضعان لإرادته، فحتى إذا ما أراد أن ينظر نظرة رقيقة ورومانسية فأن ثمة أشعة لا مرئية من القسوة والشراسة والغدر يمكن أن تصدر منهما....أعتقد أنه يتعذب، لأنه لا يرتاح أبدًا، فحياته كلها تمثيل في تمثيل. لقد رسم لنفسه شخصية افتراضية وهو لا ينفك يسعى لأن يكونها من خلال تمثيلها بشكل دائم وفي كل لحظة.. إنه أكثر تعاسة من الممثلين.. فهؤلاء يتحررون من أقنعتهم ومكياجهم وعبء الشخصيات التي يعيشونها على خشبة المسرح حينما يغادرون المسرح إلى غرفهم ليتخلصوا من شخصياتهم..لكنه لا يجد مثل هذا الوقت.. إنه ممثل لا يغادر المسرح أبدًا..حتى في النوم..وأظن أنه حتى في أحلامه يعيش شخصيته الافتراضية.. وربما كوابيسه هي عندما يجد نفسه لا يمثل شخصيته الافتراضية..

وحينها لم أعلق على كلامه، بل كان صمتي مشجعًا له استرسل قائلًا:

- إنه غيور جدًا بالرغم من كل هذا التحرر الذي يبديه، بل إنه يلعب دور المتحرر..، لكنه في أعماقه مُتغطرس ومتعالٍ على الرغم من تجسيده لشخصية النبيل المتواضع التي يجيدها بشكل مُثير للإعجاب، وهو في الجوهر إنسان أناني، وأعتقد أن الحياة، بكل ما فيها، من حب، ومشاعر،

وصداقة، ومتعة، وجمال، بالنسبة إليه لا تتعدى كونها صفقة، فهو لا يهدر شيئًا من مشاعره وماله ووقته إلّا باعتبار ذلك ضمن حسابات الصفقة. كل شيء لديه محسوب، حتى الابتسامات واللّطف الذي يبديه للضيوف والأصدقاء ولكِ محسوب أيضًا، إذًا لم أقل إنك أكبر صفقة رابحة في حياته.

نعم.. هذه هي شخصية زوجي آدم الولهان كما وصفها صديق العائلة وحبيبي السرّي الكاتب المهندس آدم المطرود الذي ساهم زوجي بقتله بتهمة غبية سأحدثكم عنها لاحقًا..لكن أتذكّر أنني في تلك المحادثة سألته عن نفسي.. وعن رأيه فيّ، فصمت ثم قال:

- أنت صاحبة نفس حساسة جدًا، رقيقة، وبرغم ذلك فهناك طبقات من العناد متحجرة في أعماقك. أنت غامضة ومعقّدة. كريمة النفس ونبيلة القلب، لكنك عصبية، علمًا أنك لا تبدين عصبيتك أبدًا، بل تسعين إلى الصفح عن الذين تغضبين منهم، وكأنك تجدين في الصفح تحديًّا لنفسك.. مثلما تجدين فيه لذة مجهولة. أنت حزينة إلى حد التلذذ بالحزن بل والتطهّر الروحي من خلاله.

حينها قاطعته قائلة بارتباك وخجل:

- إنك تبالغ في إطرائي..

فقال بحماس:

- أبدًا. إن مقاطعتك لي هي دليل على سمات الشرف والاستقامة والتواضع لأني أثنيت عليك.. قد أكون على خطأ، لا أدري، لكني سواء كنتُ مُصيبًا أم مخطئًا فإني مخلص في ما أقول..

فقاطعته مرة أخرى بخجل قائلة:

- تقول هذا لأنك تميل إليّ ..

حينها أعلن عن مشاعره تجاهي لأول مرة فقال:

- أميل إليك..؟ هذه كلمة شاحبة وعليلة أمام ما أحس فيه تجاهك من عمق المشاعر والأحاسيس والاحترام..

حينها شعُرتْ باضطراب في خفقان قلبي، وتدفق الدم من ينابيع سريّة إلى كل أرجاء جسدي، شعرت بالاحراج وبخوف مجهول، فقلت:

- أشكرك على هذا الفيض من كلمات الثناء ومن المشاعر التي تشعرني بالسعادة . لكن ألا تخاف من شخصية زوجي..

فانبرى بحماس بل وتهور في الاعتراف والكشف عن مشاعره:

- بلى، لكننا كما يبدو نتجنّب المواجهة. فبرغم قصر علاقتنا، أعتقد أنه لا يحب التواصل معي، إلا لأنك ترغبين بذلك، وهو بهذا يعذب نفسه أيضًا، وكلّما تعمّق تعارفنا يصرّ على أن يقرّب بيننا أكثر، ليتعذب، ومع ذلك يزداد أوار حقده ضدي بهدوء، إنه ممثل تراجيدي بارع .

حينها شعرت بالرعب من زوجي ومن خوفي على حبيبي منه، فسألته:

- ولماذا يفعل كل ذلك برأيك..؟

- لا أدري، ربما لأنه يحبك بطريقة مرضيّة، ربما لأنك أعظم صفقة رابحة في حياته كما قلت، أو لأنه جامع للوحات وأنت أغلى وأجمل لوحاته.

- بدأت أخاف منه.. أنك تؤكد ما أنا أحسّه أيضًا..

أتذكّر ذلك الحوار جيدًا..وأتذكّر كيف أنني شعرت برعشة خوف تسري في جسدي.. فأنا أعرف زوجي ..وأعرف ما فعله بابني.. لذا قلت لآدم المطرود الذي أحسسته أقرب إنسان إليّ بتوسل وخوف ورجاء:

– أود أن تكون صديقي. صديقي الوحيد. موضع أسراري ومرآة روحي وقلقي ومخاوفي، فهل تقبل بذلك..؟

– أنا..

لم يتوقع هو مثل هذا الطلب الذي قدمته بتوسّل ورجاء. لقد فوجئ، وأحس بخوف مجهول وكأن الأمر غير عادي فقال وهو منفعل:

– أنا.. هل تعتقدين باستطاعتي أن أرفض..؟ هل يمكن للمرء أن يرفض نعمة البصر..؟ هل بإمكانه أن يوقف نبض قلبه..؟ أنت لي نور البصر وألق البصيرة، نبض القلب ومعنى الوجود. إن حياتي ووجودي وكياني كله بين يديك.

حينها شكَرته وقُلت وقد غمرتني موجة من الأحاسيس العميقة:

– لا أعرف كيف أشكرك فالكلمات كثيرًا ما تعجز عن تجسيد المشاعر البشرية، ولكونك كشفت عن مشاعرك نحوي بهذا الوضوح فبودي أيضًا أن أقول إنك توأم روحي، إنك قريني، إنك أنا، إنك نصفي الآخر.

وأتذكّر أنه لحظتها سأل بحزن وخوف:

– والسيد آدم الولهان.. ؟

– ما لنا وله. علينا أن نخلق عالمنا الخاص بنا بعيدًا عن صفقاته وتلصص عيونه. أنا لم أصدق أني التقيت إنسانًا مثلك، لقد حلمت بذلك كثيرًا، لقد كنتُ أحلم بإنسان طيب ورقيق وفيه بعض الطفولة والبراءة. وجدتك،

ولا أريد أن أفقدك. ربما تظنني غير طبيعية، ربما تفكر بأني أشعر بالوحدة وبالحاجة الجسدية والحنين لصدر رجل لأن آدم يكبرني في السن كثيرًا، لا أبدًأ ليس هذا، فأنا لا أميل إلى ذلك، واجتنب العلاقات الحميمة معه..وأن حاجتي إلى إنسان مثلك لا توصف ولا يمكن ربطها بعالم الجسد المادي. إنها رغبة في التكامل الإنساني، التكامل الوجودي. لا أدري كيف أوضح ذلك.. هل تفهمني..؟

– أفهمك.. أفهمك جدًا.. أنا أيضا أحتاجك.. أحتاج لحضورك الطاغي في حياتي ووجودي. منذ أن قابلتك صرت لا أستطيع تخيل العالم من دونك، صرت لا أستطيع أن أتخيل حياتي من دون وجودك فيها.. لكن ماذا لو عرف زوجك ..؟

كان السؤال صادمًا.. صمتٌّ لثوان، ثم قلت بهدوء وتفكر:

– من أين له أن يعرف..؟ وما دامت هذه العلاقة صافية وطاهرة وغير ملوثة، فأنها لن تخيف حتى لو تم اكتشافها ، وبالمناسبة إنه معجب بك، بالرغم ممّا قلته عن غيرته منك.

– معجب ..؟

– نعم..

ولم أكن أعرف أن إعجاب زوجي الغيّور يعني أن يبعث به إلى الموت. أن يتآمر عليه وينسب إليه جريمة قتلي.. بل وينسب إليه العمل السياسي والتآمُر ضد رئيس الدولة والحزب الحاكم..!!

2

هل كنت أحب زوجي آدم الولهان..؟

أجيب على ذلك بثقة: لا أدري..!!

كنت أكنّ له احترامًا كبيرًا.. وبطبيعتي وبإرادتي حولته حبًّا زوجيًّا لازمًا ومُلزِمًا...تزوجني وفي أحشائي جنين من علاقة حب مذبوحة.. علاقة لم أعد أذكر ملامحها.. علاقة قصيرة مثل شهاب انطلق ثم انطفأ بلمح البصر.. فتعارفي مع زميلي في الجامعة آدم التاجر وخطوبتي له لم تستغرق سوى شهرين من الزمان..وجرى ذلك في السنة الأخيرة من حياتي الجامعية.. وبعد فترة قليلة من وفاة أبي.

أنا أنتمي إلى عائلة متوسطة الحال، أقرب إلى الفقر..والدي كان مدرّسًا للغة العربية، وكنت وحيدته، حينما وصلت المرحلة المتوسطة ماتت أمي، فكرّس أبي حياته لي. لم يتزوج، بل ظل معتكفًا على نفسه وكتبه وذكرياته الجميلة مع أمي. عاش إلى أن دخلت الجامعة ودرست اللغة الألمانية والإسبانية، وكنت في السنة الأخيرة من الجامعة حينما رحل هو أيضًا عن عالمنا هذا. وقد روى الكاتب آدم التائه في روايته „**متاهة آدم – المرأة المجهولة**» والتي كان يعنيني فيها، عن لساني وأنا أروي لحبيبي آدم المطرود كيف وجدت أبي ميتًا ..كيف ذات يوم دخلتُ عليه في الغرفة التي كانت غرفة نومه ومكتبته أيضًا فوجدته مُسجّى على سريره يغطي كتاب **(المواقف والمخاطبات)** لعبد الجبار النفري وجهه الجامد...حينها حاولت إيقاظه فلم يستيقظ، وحينما رفعت الكتاب عن وجهه، وجدت عينيه مفتوحتين على

اللانهاية....؟ لكنني انتبهت إلى الصفحة التي كان يقرأها في آخر لحظة من حياته، والموقف الذي خط تحت كلماته بقلمه الملون.. كانت تلك الصفحة تضم نصًا لموقفين هما: **موقـف العـــز**.. و**موقف القُـــرب** .. وما زلت أذكر كلمات النص، ففي موقف العـز يقول النفري:

(أوقفني في العز وقال لي: لا يستقل به من دوني شيء، ولا يصلح من دوني لشيء، وأنا العزيز الذي لا يستطاع مجاورته، ولا تُرام مداومته، أظهرت الظاهر وأنا أظهر منه، فما يدركني قربه، ولا يهتدي إلى وجوده، وأخفيت الباطن، وأنا أخفى منه، فما يقوم على دليله، ولا يصلح إلى سبيله. وقال لي: لولاي ما أبصرت العيون مناظرها، ولا رجعت الأسماع بمسامعها. وقال لي: لو نطق ناطق العز لصمتت نواطق كل وصف، ورجعت إلى العدم مبالغ كل حرف. وقال لي: لا أنا التعرف ولا أنا العلم، ولا أنا كالتعرف ولا أنا كالعلم)....

أما في موقف القرب فيقول: **(أوقفني في القرب وقال لي: ما مني شيء أبعد من شيء ولا مني شيء أقرب من شيء إلا حكم إثباتي له في القرب والبعد....وقال لي: البعد تعرفه بالقرب، والقرب تعرفه في بالوجود. وأنا الذي لا يرومه القرب، ولا ينتهي إليه الوجود. وقال لي: لا بعدي عرفت ولا قربي عرفت ولا وصفي كما وصفي عرفت. وقال لي: أنا القـريب لا كقرب الشيء من الشيء، وأنا البعيد لا كبعد البعيد من الشيء. وقال لي: القرب الذي تعرفه مسافة، والبعد الذي تعرفه مسافة، وأنا القريب البعيد بلا مسافة. وقال لي: أنا أقرب اللسان من نطقه إذا نطق، فمن شهدني لم يذكر ومن ذكرني لم يشهد).**

أتذكر كيف كان آدم المطرود مندهشا من حفظي لهذين النصين من **(المواقف)** للنفري، وكيف قال بانبهار حقيقي:

– هذا رائع.. هل تحفظين نص هذين الموقفين فقط، أم تراك تحفظين نصوص المواقف الأخرى.. ؟

كان الحزن والرهبة والخشوع قد غمروني وأنا ألقي نص الموقفين.. فقلت له:

– أحفظ نص هذين الموقفين بالتأكيد لأنهما المواقف الأولى التي ترد في كتاب المواقف، ولأنهما كانا في الصفحة التي كان أبي رحمة الله عليه يقرأهما..

فجأة سألني:

– هل كان الوالد رحمه الله صوفيًّا.. ؟

– لا.. لكنه كان مؤمنًا إيمانًا عميقًا لحد الشك..؟

انتبه لإجابتي وسأل بنبرة في تأمل:

– غريب.. الإيمان لحد الشك..؟

– نعم..

– كيف.. ؟

– كان أبي يضع في مكتبته نصًا مأخوذًا من كتاب هندي هو في الحقيقة همس لبراهما يُعد كصلاة هندية قديمة في سفر اليوبانيشاد، والنص يقول:

إذا ظن القاتل أنه قاتل

والمقتول أنه قتيل

فليسا يدريان ما خفي من أساليبي

حيث أكون الصدر لمن يموت

والسلاح لمن يَقتُل

والجناح لمن يطير

وحيث أكون لمن يشك في وجودي

كل شيء حتى الشك نفسه

وحيث أكون أنا الواحد

وأنا الأشياء

أذكر أنني حينما أنهيت جملتي الأخيرة بدوت وكأني كنت أصلي..إذ كنت ابتهل بخشوع ورهبة..صمت هو لحظات وفكّر مع نفسه باحثًا عن أثر هذا النص على روحه وتفكيره، وأخيرًا علّق قائلًا بنبرة مليئة بالقلق:

- لكن هذا له علاقة بفلسفة وحدة الوجود..

حينها أوضحت له الكثير عن فكر والدي ورؤيته الفكرية قائلة:

- صحيح جدًا.. والدي رحمه الله يؤمن بأن للكون والوجود واجدًا، خالقًا، وهذا الخالق هو الذي يُسمّى في الدين باسم «الله».. وهذا هو اسمه في اللغة العربية، لأنه في اللغات الأخرى يسمى أسماء مختلفة، لكنه في الجوهر هو المقصود. المشكلة التي كان يفكر فيها أبي هي أن الأديان والفلسفة تؤكد بأن الخالق ليس ماديًا، وليس له أي تجسيد مادي، وبالتالي كان أبي يسأل أحيانا، وهذا ما دوّنه في يومياته، بأنه لو كان الخالق خارج الكون ولا علاقة له بالوجود المادي، فهو إذاً ليس خالقاً بالمطلق،

لأن الكون أو الوجود يأخذ حيزًا مكانيًا كبيرًا، والخالق خارج هذا الحيز، بينما فلسفة وحدة الوجود ترى أن الكون هو إحدى تجليات الخالق، وأن الوجود مندمج بالخالق.. أحد أبعاده.. بمعنى آخر لو أن الوجود منفصل عنه.. وهو منفصل عن الوجود.. فهذا يعني هو ليس كاملًا وشاملاً ولانهائيًّا ومطلقًا.. فهو مطلق ناقص حيز الوجود.. وهذا ما ذهب إليه بعض الفلاسفة والمتصوفة المسلمين، كما ذهبت إليه بعض الديانات الشرقية، وأعتقد أن الفيلسوف سبينوزا يؤيّد ذلك..بأن الوجود نفحة الله.. أو كما تؤكد العلوم بأن الوجود إحدى تجسيدات العدم المطلق الروحاني غير المادي..

***

كنت كسيرة الجناح لفقداني أمي.. وحين فقدت أبي الحنون انكسر جناحي الهش والوحيد..كانت محتاجة لأي كان أن يحتويني بحنانه.. كنت محتاجة للحنان..كنت أشعر ببرد الزمان، وكنت محتاجة لدفء الحنان الإنساني.. لذا حينما داومت في الجامعة وأنا أرتدي الثياب السود حِدادًا على أبي، كان آدم التاجر أكثر زملائي اهتمامًا بي.. وملازمةً لي.. وصرت أجد العزاء في مرافقته.. وأقضي معه أكثر وقتي ولاسيما ما بعد المحاضرات..حيث كنا نذهب إلى حديقة الزوراء لنتمشى بين الأشجار وحدائق الزهور.. ثم يوصلني إلى رأس شارعنا كي لا يثير أية شبهة أو قيل وقال أو سؤال من قبل الجيران الفضوليين..

وذات مرة فاتحني بحبه..ومهّد اعترافه لي بأنه يعرف أن الوضع غير ملائم بحكم حدادي على والدي لكنه يريد أن يكون معي بشكل رسمي وعلني كي يستطيع أن يحميني ويكون إلى جانبي، لذا سألني طالبًا يدي للزواج منه..

فوافقت فورًا.. ليس لأني كنت مغرمة به..وإنما لأني تعودت عليه..وأمنّت له..إلى جانب حاجتي لحنانه وحمايته ورقته في التعامل معي وتحطيم سور عزلتي..وربما لسلبيتي. فأنا كنت حينها احتاج لمن يقودني أحيانًا. احتاج لمن يتخذ القرارات بدلاً عني أو يحسم ترددي في اتخاذها.. لكني برغم موافقتي على عرضه لكني لم أوافق على إجراء مراسيم الزواج بسرعة، إذ اشترطت عليه باستحياء أن يكون ذلك بعد الانتهاء من الجامعة..، أن نعلن خطوبتنا رسميًا..كي نكون أكثر حرية في الحركة مع بعضنا البعض..ولم يكن حينها قد بقي على نهاية السنة الدراسية الأخيرة سوى شهر.

في اليوم التالي جاءني فَرِحًا..وقال لي إنه أخبر أحدَ أقرب أصدقائه، فقرر ذلك الصديق دعوتنا للاحتفال بالخطوبة..! وفي بيته الذي يقع في شارع الأميرات..كان ذلك هو لقائي بآدم الولهان.

اتفقت مع خطيبي آدم التاجر على أن نلتقي قرب جامع „حي دراغ" ومن هناك نتمشى إلى بيت صديقه آدم الولهان.. وهناك.. وفي إحدى شقق بناية جديدة جدًا وأنيقة البناء كانت شقته.

كان آدم الولهان يعيش وحده..لا أحد من عائلته..وكأنه شجرة بلا جذور. وضعه المادي جيد جدًا..لم أفهم ماذا كان يعمل بالضبط..كان يعمل في كل شيء..في المقاولات التجارية والعقارية..في تأسيس شركات التصدير والاستيراد..شراء لوحات..بورصة..وكل ما يخطر على البال من صفقات تدرّ ربحًا ماديًّا وتعزّز مكانته أمام المسؤولين في قيادة السلطة، بل كثيرًا ما كان يتنازل عن نسبة من أرباحه عمدًا من أجل استرضاء هؤلاء المسؤولين.. وطبعًا عرفت كل هذا في ما بعد وليس من اللقاء الأول.

كان أنيقًا.. وسيمًا..مرحًا.. وكأنه أمير أرستقراطي مقنع.!..

أعجبتني لباقته وترحيبه الاحتفائي بنا..لكنني وبعد نصف ساعة من الحديث عرفت أنه متصّنع كبير..نصف مثقف..يحفظ أسماء الكتّاب من دون أن يقرأ لهم..ولا أعرف ما الذي كان مشتركًا بينه وبين خطيبي، فهما مختلفان، ناهيك أن خطيبي لا يعمل في أي من مجالات اهتمام صديقه.. إذ أن والده كان تاجرًا في الشورجة وتوفي تاركًا له أموالاً سريعًا ما بددها. وأتذكّر أنني في طريقنا إلى بيت صديقه سألته عن طبيعة علاقته به، فأخبرني بأنه تعرّف عليه مصادفة منذ سنوات في معرض بإحدى قاعات الفن التشكيلي الأهلية حينما كانا يقفان معًا أمام لوحة وتبادلا مفردات الإعجاب بها ثم أخذهما الحوار وتعارفا.. وصارا يلتقيان بشكل مستمر..، وتعمّقت علاقتهما جدًا..بل وصار أقرب صديق له.. إذا لم يكن هو صديقه الوحيد..!.

لكن منذ اللقاء الأول وجدت في تعامل صديق خطيبي الذي صار زوجي في ما بعد دهاءً مريبًا..بيد أن حسن استقباله وضيافته جعلني أشعر بأنه فعلاً صديق مقرب لخطيبي، على الرغم من أنني بحكم غريزتي الأنثوية شعرت بإعجابه الخفي بي ورغبته التي كان ماكرًا جدًا في كتمها وإخفائها.

في ذلك اللقاء كانت هناك مفاجئة..ففي وسط دهشتنا قدم لي آدم الولهان خاتمًا ثمينًا هديةً، مؤكدًا أنه يعود لأمه..وأنه يجد أنه من اللائق أن يقدمه لي إكرامًا لي ولصديقه آدم التاجر خطيبي..والغريب أنه تجرّأ فألبسني إياه وكأنه يفعل ذلك ببراءة وصداقة لكني لمحت في نظرته شيئًا خاصًا جدًا وكأنه هو خطيبي..!!..لحظتها شعرت بقشعريرة ، لكني لم أتوقف عند ذلك حينما رأيت خطيبي متحمسًا لمبادرة صديقه وقد تقبل أمر وضع الخاتم في إصبعي بلامبالاة.

بل ما أثار استغرابي أكثر هو أن خطيبي ومنذ لحظة خروجنا من بيت صديقه آدم الولهان والأيام القليلة التي تلت ذلك اللقاء لم ينفك يسألني عن رأيي بصديقه، ممتدحًا مبادرته بإهدائي خاتم أمه وكأنه حدث جليل، مستذكرًا تفاصيل ما كان في ذلك اللقاء، مستعيدًا ما جرى وكأنه حدث استثنائي.

***

لا أعرف كيف أشرح ما كان يعتمل في نفسي..هل أنا شخصية معقدة..؟ ربما..كنت أرتاب في حديث خطيبي..أزعجني تكراره الحديث المبالغ فيه عن صديقه..كنت أتمنى أن يحدثني عن مستقبلنا..لكني رصدت في الوقت نفسه انجذابًا خفيًّا غير مرغوب فيه بأعماقي نحو صديقه آدم الولهان..ليس انجذابًا إيجابيًّا.. بمعنى أنه صار حاضرًا في تفكيري.. بل وجدت نفسي لا إراديًّا أقارن بينه وبين خطيبي.

خفت من هذا الانجذاب والتفكير..ولاسيما أن آدم الولهان دعانا ثانية للعشاء في مطعمٍ راقٍ ببغداد..فصار حضوره طاغيًا في تفكيري..كيف أفسّر ذلك!..تفكيري فيه لم يكن حبًا ولا رغبة..وإنما هو حاضر بابتسامته الملغزة..وأناقته..ورقته في التعامل والإتيكيت.!.

خلال لقاء المطعم لمح بشكل غير مباشر إلى إعجابه بي، بشكل مديح يمكن أن تفسره المرأة على أنه غزل خفي، لكن الوضع بالطبع لا يحتمل بوجود خطيبي.. خفت من نفسي..ومنه..ومن خطيبي..لذلك اندفعت في علاقتي مع خطيبي..طلبت منه تحديد موعد الزفاف بأسرع وقت..كنت أعرف مع نفسي بأني أريد ذلك خوفًا من آدم الولهان وابتعادًا عنه وليس رغبة في الزواج أو غرامًا في خطيبي..!

لكني بالرغم من ذلك كنت مستعدة أن ألغي الزفاف في أية لحظة، ليس لأني بدأت أميل لآدم الولهان.. أبدًا.. وإنما لأني شعرت أنه دخل حياتي.. وأن موقف خطيبي غريب.. فأما هو طيب القلب إلى حد السذاجة بحيث لا يشعر باهتمام صديقه الخاص بي.. أو أنه يعرف ويرى كل شيء لكنه يتجاهله لغاية في نفسه..! ولكي أمنع نفسي من أي تهور في إلغاء الزفاف فقد توغلت في علاقتي مع خطيبي..بحيث أنني ذهبت معه إلى شقته المستأجرة.. واندفعت معه..وسمحت له أن يضاجعني ويفض بكارتي..! كنت واعية لتصرفي..ليس رغبة مني في الجنس وإنما كي لا أترك لنفسي خط رجعة، لاسيما وأننا قد حددنا موعد الزفاف.

كان ذلك قبل أسبوعين من الموعد المحدد للزفاف.. ولم أكرر التجربة معه.. بل أنا لم أشعر بأي شيء أو متعة أو حتى بالألم.. كان كل شيء يجري في ذهني..وحينما أحسست بأنه أولجه فيّ، شعرت بوخزة قليلة..لكني كمن ألقت بنفسها من جرفٍ عالٍ إلى قاع شاطئ صخري أمواجه متلاطمة. فعلت ذلك لأدرك أنه لا رجعة مهما كان الألم وهول الصدمة.

3

....

أتذكّر أنّني انتهبت لما فعلته بنفسي في تلك الليلة حينما عدت إلى بيتي في الحارثية. كانت لدي مشاعر متضاربة.. صحيح أنني كنت قد حسمت مسألة الزواج، فلم تعد هناك احتمالات لتأجليه أو فسخه.. لكن بدأت تراودني أفكار لست معتادة عليها، أفكار كشفتْ عن لحظات ضعفي..فقد فكرت أن خطيبي ربما سيحتقرني وسينظر إليّ وكأني رخيصة لأنني سلّمت نفسي له طائعة قبل ليلة الزفاف.. بينما كان هو ينظر إليّ كقديسة..! فحينما أمالني على الصوفا التي في صالون شقته غير المرتبة لم أعترض وإنما ملت معه بلين ولا مبالاة.. وحين أخذ يقبلني لم أعترض.. تركته يفعل بي ما يشاء..حتى هو كان مترددًا، إلا أنّي لم أبدِ أية علامة تشي بانزعاجي، ولا تقبّلي.. لكني تذكرت أنني ضممته لي حينما توغّل عميقًا في رحمي.

***

حين قرأت رباعيات الخيّام قبل سنوات بترجمات عدة موجودة في مكتبة أبي، عرفت أنه في بعض رباعياته يؤكد على اليقظة وعدم النوم..! بعد ذلك اليوم في شقة خطيبي عرفت أنّ الخيّام مخطئ.. وتذكرت قولًا لشوبنهاور قرأته في كتاب بمكتبة أبي أيضًا يقول فيه إنّه من النعم وحسن الحظ أن وجودنا ينقسم إلى أيام وليال، بأنه مقطوع بالنوم، فنحن ننهض في الصباح، نقضي النهار، ثم ننام.. فلو لم يكن النوم، فإننا لن نطيق العيش، ولن نتحكّم في حياتنا..!

هكذا صرت أنا..أقطع النهار بالنوم..إلى أن يتصل بي خطيبي آدم التاجر.. ووجدت نفسي أتحجّج كي لا أخرج للقائه، ولاسيما حينما يخبرني بأن صديقه آدم الولهان سيكون موجودًا..ولم يكن أحيانًا بإمكاني تجنّب تلك اللقاءات.. التي لم تتجاوز اللقاءين..

كان خطيبي خائفًا أن أتركه وأفسخ خطوبتي منه، لأنه يظن أنه قام بفعل فاحش معي، وأنني لم أكن أتوقع منه ذلك..وبالرغم من عدم اعتراضي فإنني لربما سأرفضه.. وهذا عكس تصوّراتي ومخاوفي أنا بأنه سينظر لي باحتقار..كل منا كان خائفًا من أوهامه.. لكنني لم أكشف له ذلك..

وهكذا مرت الأيام واقترب موعد الزفاف..وفي اليوم الذي سبق الزفاف كنت مع خطيبي الذي صار بحكم زوجي، كنا في شارع النهر..ويبدو أنه كان قد اتفق مع صديقة آدم الولهان الذي كان قد حجز لنا قاعة في إحدى المطاعم الفاخرة..والتقينا. لا أعرف السبب بالضبط، لكنني لأوّل مرة مرت خاطرة في ذهني تؤنبني بأنني أخطأت في هذا الزواج. لكنني لم أشأ أن أسمّم أفكاري بهذه الخاطرة!

***

من يصدق ذلك..!! كما في الأفلام الهندية المأساوية بالضبط..أو في التراجيديات الملفقة والساذجة..جرت الأحداث..ففي صباح يوم زفافي.. استيقظتُ وبي رغبة في البكاء..لا أعرف لماذا..!!. يحدث أحيانًا أن يستيقظ المرء بمزاج رائق، ومرحًا دونما سببٍ.. ويحدث العكس أيضًا، إذ يستيقظ المرء وهو عكر المزاج، كئيبًا دونما سبب.

ذلك الصباح استيقظت حزينة، وتهيمن عليّ كآبة لا أعرف مصدرهما.. حاولت، مع نفسي، أن أفسّر ذلك فلم أجد إجابة شافية..لكني أقنعت نفسي بأن حالتي تلك ربما هي نتيجة لشعوري اللاواعي برغبتي في تواجد أبي على الأقل في مثل هذا اليوم الاستثنائي في حياة أية امرأة..يوم زفافها.. ولأني وحيدة، لا أهل لي ولا أقرباء، لذا داهمني الحزن والكآبة..!.

كما أن ما عكّر مزاجي أكثر وجعلني متطيرة قليلًا هو أني حين كنت في المطبخ أعد القهوة لنفسي سقط الفنجان من يدي حينما حاولت غسله، فتشاءمت، على الرغم من أني لا أعير هذه الأشياء اهتمامًا.

بقيت انتظر في صالون بيتي الذي ورثته عن أبي في منطقة الحارثية. كنت انتظر أن يمرّ علي خطيبي لأذهب إلى الصالون..ثم نذهب بعد ذلك إلى بيت صديقه آدم الولهان، الذي بدوره قد اتفق مع صديق له يعمل قاضيًا في محكمة شرعية قريبة من منطقتنا بحيث ينجز عقد القرآن من دون تأخير الموعد..وكان عليه أن يقلّنا أيضًا بسيارته ثم نتوجه إلى قاعة الزفاف..!

تأخر الوقت..تجاوزت الساعة العاشرة..ظننت ربما خطيبي مشغولًا بالإعداد لبعض تفاصيل الزفاف..لكن الوقت كان يمضي وعلي الذهاب إلى صالون التجميل..كان لدي هاجس سيّء..فكرّت مع نفسي في أني أحتاج لأكثر من ساعة في الصالون ثم الذهاب إلى بيت آدم الولهان..والانطلاق من هناك إلى المحكمة.. وإذا ما تأخر قليلًا فربما سينتهي الدوام في المحاكم..!

كان توتري يتصاعد مع الدقائق..وحينما بلغت الساعة الحادية عشرة كنت لا أستقر في مكاني، وأدور في البيت بعصبية، من الصالون إلى غرفة النوم، إلى غرفة المرحوم أبي، ومنها إلى غرفة المكتبة..أدخل المطبخ..حتى أني

صعدت إلى السطح وأخذت من هناك أنظر إلى الشارع..ثم نزلت..تداخلت في ذهني مختلف التفسيرات..كنت أحاول ان أهدّئ نفسي.. وبينما كنت في المطبخ أفتح الثلاجة وأغلقها بحركة لا إرادية لا معنى لها سوى التنفيس عن توتري، رن الهاتف....! ركضت.. إلى الصالون حيث الهاتف.. وأثناء حركتي تعثرت..كدت أسقط على وجهي أو أرتطم بالجدار لولا تمسكي وتشبثي بإطار باب الصالون.

حين أخذت سماعة الهاتف صرخت لا إراديًا: وينك..؟؟. كنت على ثقة بأنه خطيبي آدم التاجر هو المتصل..لكن ما له لا يتكلم...؟ ظننت أنني لا أسمع شيئًا بسبب سوء الاتصال.. لكن لا.. أسمع أنفاس شخص ما على الطرف الآخر...! صرت أصيح لا شعوريًا: ألو.. ألو.. من هناك...؟ امتدت لحظات الصمت .. سمعت فحيحًا . ثم جاء صوت عميق النبرة.. هادئًا مع رعشة خفيفة.. فعرفت صاحب الصوت مباشرة.. لم يكن خطيبي آدم التاجر وإنما صديقه آدم الولهان..عرفته على الرغم من أنه لم يقدّم نفسه.. قال لي مباشرة وكأنه يأمرني:

- حواء.. أرجو أن تسمعيني بهدوء.. أرجوك..!

نبرة صوته لم تشي بأنه يهاتفني خلسة من وراء ظهر خطيبي ليقول شيئًا ما يكشف نواياه، وإنما ليقول لي شيئًا مهمًا..وخلال ثانية ظننت أن خطيبي لا يريد الارتباط بي..تراجع في آخر لحظة.. لكنه يخجل أو لا يجرؤ على مواجهتي فترك مهمة إبلاغي لصديقه المقرّب لنا.. إلّا أن آدم الولهان لم يقل ذلك.. وإنما، وبعد لحظات من الصمت الثقيل أدلى بخبرة القاتل، وبنبرة هادئة وحازمة وصارمة وبدون أية عاطفة:

- خطيبك آدم التاجر مات..دهسته سيارة مسرعة اليوم قرب جامع حي دراغ..عند التقاطع.. ليس ببعيد عن بيتي..!

أحسست بالشلل. لساني ارتعش داخل فمي وتشنج..لم أستطع حتى على الصراخ. وأحسست بساقيّ ترتعشان.. كنت أسمعه ينادي: آنسة حواء.. آنسة حواء.. آنسة حواء.

هل يمكن أن يحدث ذلك في يوم زفافي..؟ هذا لا يحدث إلّا في الأفلام الهندية..لكنه حدث معي بالفعل..!

لا أعرف كيف كانت حالتي في تلك اللحظات التي لا أعرف كم طالت.. وكأنني كنت خارج الزمان والمكان..ما أتذكّره أنني سمعت طرقًا على الباب..طرقًا قويًا..أدركت لاشعوريًا أنه آدم الولهان.. استغربت من نفسي.. لم أكن أبكي.. كان ثمة شعور بالضياع يهيمن على روحي..والأغرب من كل هذا شعوري بأنني تحررت من التزام كاد يكون قيدًا.

غريب هو الإنسان..لحظتها وصلت إلى مرحلة استغربت فيها من نفسي.. فالأهداف..والأحلام.. والخطط التي أعدّدت لها.. بدت لي فجأة بأنها ليست فعلًا وحقًّا ما كنت أريد..!!! بل وصلت إلى لحظة الشعور بالانطفاء..الانطفاء الكامل..انطفاء الرغبات وتلاشي الأهداف..أحسست أنني لا أريد أي شيء.. ولا أرغب في أي شيء.. أحسست بالفراغ.. والملل.. الممل المرعب من كل شيء.. الإنسان كائن ملول.

وقمت أجرجر نفسي لأفتح الباب.

4

....

لا أودّ التحدث عن تفاصيل ذلك اليوم البعيد الذي يمرق كالظلال في مرآة ذاكرتي..لكنني أجد نفسي مجبرة على التحديق إلى هذه المرآة.. أرى كيف أني لا إراديًا بعد أن فتحت الباب ألقيت بنفسي في أحضان آدم الولهان.. وربما من المخزي أن أقول هذا، لكني لحظتها شعرت بالأمان.. وكأني تخلصت من عبء أو قيد مُلزِم...!!

لا أدري كم طال وقوفنا عند الباب..لكنه أخذني محتضنًا إلى داخل المنزل..وأجلسني على الصوفا وهو لا يزال يحتضنني. لم أعترض أو أبتعد أو أفكر في أي تفسير.. أذكر أنه بعدها سألني عن غرفة النوم.. فأشرت لاإراديا إليها..أخذني محتضنًا بدفء..قادني إليها.. أرقدني على السرير.. غطاني باللحاف الخفيف. وسمعته يقول لي بأن أرقد وألّا أتحرك.. وطلب مفتاح المنزل..فأشرت إلى حزمة المفاتيح على الطاولة.. قال لي إنه سيقوم بالواجب.. وسيعود..!

***

مرّ كل شيء وكأن شيئًا لم يكن.. ربما لأني لم أر الجثة..ولم أقم مراسيم عزاء ولم أستقبل أحداً لقراءة الفاتحة..ولم أذهب إلى المقبرة عند الدفن.. بل حتى أني لم أعرف كيف دهسته السيارة..؟ ومن كان سائقها..؟ وهل أعتقل أم فرّ..؟ وهل كان الدهس مقصود أم مصادفة وقضاء وقدر...؟ لم أشارك بأي شيء لأني لا أعرف أحدًا..وهو بدوره لا أحد لديه يسأل عنه

سوى آدم الولهان..! لكن بعد تدبير المؤامرة ضد حبيبي آدم المطرود بدأت أشك في أنه قد دبر أمر دهس خطيبي آدم التاجر في يوم زفافنا..فهو لديه علاقات متشعبة وغامضة وقوية مع أجهزة الأمن والمخابرات..!.

***

البعض يرى المنفى الحقيقي للإنسان هو العزلة، فقد يكون الإنسان منفيًا وهو في وطنه، بل وهو في بيته وبين أفراد عائلته..لكني أرى العكس.. إن العزلة ليست منفى..العزلة وطن..وشخصيًا وطني هو ذاكرتي.. وذاكرتي هي منفاي وعزلتي ووطني.. ليس لي من وطن سوى ذكريات لوجوه وأزقة ولقطات مستقطعة عن سياقها وزمنها..وأنا طفلة وصبية ومراهقة..وطالبة جامعية..مشاهد ولقطات مع أبي..معظمها في منزلنا..في المطبخ أو الصالة أو المكتبة..ولقطات باهتة تمرق كالظلال لخطيبي آدم التاجر..ولما جرى في تلك الأيام.. ولآدم الولهان..! وما جرى بعد ذلك..نعم.. فما جرى بعد ذلك ليس لقطات سريعة وإنما فيلم طويل..فيلم ممل طويل...!

***

بعد أسابيع قليلة أدركت أنني حامل.. ولم يكن أمامي سوى آدم الولهان الذي صار الإنسان المهم في حياتي..ليس لأني أميل إليه أو أحبه..وإنما لأني تعودت عليه..فقد صرت أنزعج إذا ما تأخر عن مروره الصباحي لشرب القهوة معي ومشاركتي فطوري مجاملة ..وفي الوقت نفسه إذا أطال بقاءه أطول مما يجب أحس بالملل واستثقل وجوده وأتمنى لو غادر فورًا. صار جزءًا من ديكورات حياتي اليومية. صرت اعتمد عليه في كل شيء.. لكن ماذا يعني كل شيء..؟ ليس لدي شيء أصلًا..! سوى المشتريات من

الخضار والفواكه وحاجات البيت التي كان يوفرها لي بشكل كبير، كما كان يجبرني على الخروج معه أحيانًا للتفسح بسيارته في بعض أحياء بغداد.

كيف أفسّر ذلك..؟

حين أدركت كارثتي بالحمل شعرت بأن الحياة لا قيمة لها..وأدركت فداحة الغلطة التي اقترفتها بحق نفسي..لا أدري لماذا كنت أظن نفسي حرة، وأنني بموت خطيبي صرت بمنأى عن هيمنة أية سلطة فردية وبمنأى عن أية قيود اجتماعية أو حتى نفسية.. لم أكن أتوقع أن أجد نفسي محاطة بأسوار غير مرئية وقيود غير منظورة.....! وهكذا..وجدت نفسي محاطة بسور بشري وبقيد غير منظور ألمسه..اسمه آدم الولهان..! كيف جرى كل ذلك وخلال أسابيع ..؟

كان آدم الولهان حاضرًا معنا من يوم خطوبتنا الأول، ودخل ذاكرتي وحياتي منذ دعوته لنا للاحتفال بتلك الخطوبة..! وبالرغم من عدم ميلي العاطفي له..وخوفي من سطوته الواضحة وقوة شخصيته الطاغية، إلا أنه كان رقيقًا ومهذبًا معي..!ثم توالت الأحداث ..فقد وقف معي منذ يوم الكارثة الذي كان يفترض أن يكون يوم زفافي..وحينما أدركتُ أنني حامل..من خلال انقطاع دورتي الشهرية، طلبت منه أن يأخذني إلى أية عيادة للنسائية..وهناك تأكدت بما لا يقبل الشك بحملي..وحين خرجت من العيادة طلبت منه أن أرجع إلى البيت بالرغم من إصراره أن يأخذني في نزهة..لكن إصراري في العودة إلى البيت كان أشبه بالعناد أو التحدي الطفولي أشعره بأن ثمة شيئًا ما يدفعني إلى هذا..وفي المنزل..في الصالون الذي هو مكان اجتماعي المعتاد به، صارحته بالكارثة التي أمر بها...!!

***

في الثوان الأولى من سماع الخبر ارتعش وجهه..وشحب للحظات.. لكنه سرعان ما تمالك نفسه وأبدى قوة عجيبة...فبعد الصدمة التي لم تكن أكثر من ثوان بدا لي وجهه لامباليًا وهو يستمع للحديث الحزين والكارثي عن حملي. بدا وكأنه يستمع إلى شيء لا أهمية له..!! بل لم أصدق أذني حينما سمعته، بعد أن أخبرته بكل التفاصيل الحزينة، يكاشفني بحبه العميق لي، وكيف أنه كتم مشاعره نحوي لأني كنت أحب خطيبي آدم التاجر.. صديقه..وبما أنه قد مات.. فإنه يريد أن يتزوجني.. وسيربي طفلي القادم..!!

لم أكن حينها قد فكرت بمصير الجنين الذي في رحمي..ولا أدري لم شعرت لحظتها بمشاعر لم أعرفها في نفسي أبدًا..أبدًا.. أحسست برعشة تسري بقوة في أنحاء جسدي..وسيل مشاعر دافئة وخفية تروي عطش أعماقي..! وأدركت بلحظة خارقة معنى الأمومة..! الأمومة التي نبهني هو إليها بطريقة عابرة عبر جملة ربما لم يقصدها.. بأنه سيربي طفلي المقبل..«طفلي...!».

أعتقد أنّ الأمهات مثل الأشجار التي تنتمي إلى الأرض ولا تنتمي للفلاح أو البستاني..أو مثل حبة القمح والبذور الأخرى.. تنتمي للأرض والحقول وليس لناثر الحب..! كذا البشر ينتمون للمرأة ولرحمها الحقل.. وليس للرجل الباذر..الفلّاح.

لحظتها كنت غير مُصدّقة.. ومن دون وعي مني بالزواج من آدم الولهان..وإنما كنت متوهجة بمشاعر دافئة..وافقت...! وأذكر لحظتها أنه أخذ كفي وطبع عليها قبلة رومانسية كما يفعل العشاق في الروايات والأفلام الرومانسية في القرون السابقة.

***

لا أعرف كيف مضت الأيام..كنت أعيش في عالمين..في شخصيتين.. فحين أكون وحدي لا أجد في عالمي غير الجنين الذي في رحمي، وحينما يحضر هو أكون امرأة صامتة..تستمتع بتفاصيل التحضيرات للزفاف.. وتتقبل الهدايا الثمينة بلباقة واستلطاف، وأحيانًا التظاهر بالفرح.

لم تجر مراسم الزواج كما هو متوقع..الأمر لا يتعدى انتقالًا مكانيًّا.. من منزل أبي في «الحارثية» إلى شقته في «شارع الأميرات». وهناك أتى بمساعدة منزل كانت تقوم بخدمته وبإعداد الطعام.. مساعدة يعرفها منذ سنوات.. وكانت في شقته حينما دعانا أنا وخطيبي أول مرة..

كيف جرى ذلك..؟ لا أعرف...! الآن، حين أنظر لتلك التي كنتها آنذاك استغرب..! منذ الأيام الأولى أحسست أن تلك المرأة هي عينه السريّة في المنزل. عينه على كل كبيرة وصغيرة في البيت بما في ذلك أنا..!!.

كنت معها..ومعه أتصنع الفرح..ذلك الفرح الذي نخفي وراءه خيبات قاسية.. الفرح الذي نذهب إليه من دون عدّة.. نخفيه وراء ابتسامة ترسمها الروح مغصوبة وفي صمت..

المهم..عرفانًا مني بالجميل لحمايته ورعايته لي ورقته في التعامل معي، ولفهمي الأخلاقي، أجبرت نفسي على حبه...!! وهكذا دفنت نفسي في تلك الشقة الكبيرة الفارهة.. واصطنعت شخصية جديدة.

كان هو يسعى بكل السبل إلى أن يؤكد لي حبه..فسافر بي إلى أوروبا.. زرت معه معظم الدول الأوربية. ولاسيما ألمانيا وإسبانيا التي درست لغتيهما..وبقيت فيهما طويلًا..بل، منذ الشهر الثالث للحمل..سافرت لأشهر طويلة إلى جنوب ألمانيا حيث هناك ولدت ابني.. ابني الذي سميته

آدم على اسم أبيه.. ولم يعد الأمر مثيرًا فكلاهما اسمه آدم.. والد طفلي الحقيقي وزوجي الحالي.

لا أعرف كيف أقنعني بأن يبقيني فترة طويلة امتدت لأكثر من سنة ونصف متنقلة ما بين ألمانيا والنمسا وسويسرا..بدعوى أنني يجب أن أبقى في الخارج فترة..حتى حين أرجع لبغداد..لا تشك مساعدة المنزل بولادة الطفل لأنه سينقل لها أنني حامل وأنني ولدت في الخارج....!! والحق يقال..نجحت خطته. فبعد ما يقارب السنتين في بلدان أوروبا، رجعت ومعي ابني آدم الرضيع.. وبالمناسبة.. استحصل له من السفارة العراقية في ألمانيا، بحكم علاقاته الوثيقة بالسلطة، تأكيدًا لشهادة ميلاده.. آدم آدم.. وأدخله في جواز سفري أيضًا.

لكن ذلك لم يستمر طويلًا.. فمع نمو طفلي الذي منح وجودي معنى.. تصاعدت غيرته منه..لم يكن يكنّ لابني مشاعر الأبوة.. بل، حتى لم يكن يستطيع التظاهر بها..حتى أني صرت أخاف على ابني منه..!

ليس هذا فحسب، فبالرغم من تهذيبه في التعامل اليومي معي سواء كنا بمفردنا أو أمام الناس، إلّا أنه كان غيورًا بشكل مرعب.. يغار من نظرة اعجاب أي رجل نحوي..بل كان يغار حتى من نظرات النساء..!!. وفي تلك اللحظات كان يكتم غيرته، لكن حينما نصل البيت..أو حتى في طريق عودتنا إلى البيت ، كان يفقد السيطرة على نفسه وينسى تهذيبه غير الأصيل.. فكان يخطئ بحقي..ويكون غير مهذب معي.. يغلط في الكلام و أنا أسامح..ثم، بعدها يعتذر بشدة..ويقسم أنه يحاول إسعادي بكل السبل.. وينسب غلطه إلى غيرته التي يبررها بأنه يحبني كثيرًا.. وأنه من خوفه عليّ من الآخرين يفقد السيطرة على مشاعره...!

الآن أنظر إلى تلك السنوات بعين محايدة، فأرى أن مشكلتي كانت قد بدأت مع أمومتي.. فالأمومة متاهة إلهية باهظة الألم.. لا أحد يفهم الأمومة غير الخالق نفسه..!لا أحد يفهم الأمومة غير الحياة في جبروتها..!الطبيعة بكل هيلمانها وعنفها ورقتها..!الرجل فلاح..والمرأة حقل خصب..!وشتان ما بينهما...!

الإهانات التي مست أمومتي دفعتني إلى أن أحب أن أرى الذل في هذا الرجل..أحب أن أهينه..أن أكسر تعاليه.. وغروره الفارغ.. أريد أن أصرخ في العالم كله: إن الرجل شيء.. والمرأة أشياء...!! أكره ذلك التبجيل الذي منحته الأديان باسم الله للرجل.. أكره غروره الذكوري....!

***

في البداية أشعرني بأنني أميرة تنتظر خلف الباب ليفتحه..لكن كل آمالي كانت قواقع فارغة..فقدري كان كاذبًا..مخادعًا..قدري كان مثل نحّات فاشل يحطم ما تصنعه يداه حينما لا يتمكن من استنطاق الحجر، أو تدوير الطين.

المكان ضيّق..والزمن قليل..وأنا مثل زهرة برية مكابرة نبتت بين الصخور..سأعترف بما لم أكشفه لأحد قط..كم مرة أعجبني رجل رأيته مارًّا في الطريق..أو اشتهيت ممثلًا قبّل البطلة في الفيلم..كم مرة حلمت أن أكون امرأة لفارس مقنّع.. وأن أكون مع حبيبي الكاتب آدم المطرود..كنت أريد لكل امرأة داخلي حياتها..خربشاتي الأدبية المرتبكة..والأم التي ضيّعت ابنها..والزوجة المخلصة المبجلة بشكل كاذب، والمهانة بصدق.!!

في داخلي رعب كافر من أي شيء..مررت بحرائق كثيرة..غيرة زوجي هي جحيمي..تمنيت أن أكون شجرة من تلك الأشجار التي لم تتشرف أو

لم تُبتلَ برؤية إنسان..! تلك الأشجار الوحيدة في فيافي الغياب..!! أشجار العزلة والليل..آه لو أنني شجرة.

يبدو أنني فوضوية حتى في كتابتي..لكن عليّ أن أوضح سبب بوحي هذا.. أريد أن أكتب عن ابني آدم آدم.. وعن حبيبي الذي لم أقل له أحبك.. حبيبي الكاتب آدم المطرود.. أريد أن أكشف القناع عن وجه زوجي الأعمى..أعمى الغيرة..وأعمى القلب..!

أنا حواء الصايغ..المرأة المجهولة..أريد أن أتمرد على الكاتب آدم التائه الذي كتب عني رواية „**متاهة آدم – المرأة المجهولة**»!!.. فقد ألقى بي في الغياب، وتركني قتيلة في سجلّات الشرطة ليلقى القبض على حبيبي الذي لم أقل له كلمة أحبك..حبيبي الكاتب آدم المطرود، وليعتقل على أثر تلك التهمة الحقيرة التي خطط لها زوجي، وليُغيب في أقبية السجون، ثم يُعدم بعدها ذات فجر بغدادي حزين .

سأروي كل شيء.. وأبوح حتى بخطاياي وآثامي..!

***

آدم البغدادي: صحيح أنا تركت بطل روايتي (متاهة آدم، الدكتور آدم التائه، أن يكتب روايته متاهة آدم – المرأة المجهولة" ليتطهّر من نفسه ومن شكوكه في زوجته حواء المؤمن ومن حكايته مع حواء الغريب زوجة الضابط، التي قتلت بطريقة غامضة في الشقة التي استأجراها ليعيشا فيها حياتهما السرية..! لكنني منحته حريته أن يروي قصة آدم المطرود وحواء الصايغ وآدم الولهان حسب وضعه النفسي وخياراته هو..!

آدم التائه يعرف أن قصة حواء الصايغ ليست كما ذكرها إلى النهاية.. لكنه كيّفها وفق مقاصده الجمالية وأفكاره وقلقه النفسي. وها أنا أحاول أن أروي القصة الحقيقة لتلك المرأة.

الآن لدي ما كتبته حواء الصايغ.. ولن أتدخل في صياغته..! هي ليست شخصية روائية خلقها الكاتب آدم التائه، وإنما امرأة حقيقة.. امرأة من هذا الزمان.

سأتركها تروي وقائع جحيمها هي.. إنّ «متاهة العميـان» هي روايتها وليست روايتي..!!

****

عند تعليق المدعو آدم البغدادي توقف آدم الشبيبي عن القراءة.. لم يفهم ما علاقة آدم البغدادي بهذه الحكاية...!

لم يكن آدم الشبيبي قد قرأ شيئًا للكاتب آدم البغدادي على الرغم من أنّه سمع عن مقتله الغامض في شقته، وأنه حين بدأ يقرأ في هذه المخطوطة..لم يكن يعرف أن ثمة حكاية أخرى سبقتها...!

الديـمومـة..يجب ذوبان السكّر في الشاي

تلك الليلة كانت مرعبة..لم يستطيعوا النوم..ظلوا إلى ساعات الفجر الأولى يقظين يحاولون أن يجدوا تفسيرًا لما جرى..! من تُرى هم هؤلاء الذين اختطفوا الطفل هابيل..! ولماذا..؟ ولِمَ طمأنوهم على حياته..واكتفوا بذلك.. قائلين إنها ستكون غيبة كبرى..!!

الآن..فـي مثل هذه الساعة من الفجر لم يبق يقظًا منهم سوى آدم الشبيبي...فها هو آدم أبوالتّنك قد أنهكه التعب..وها هو يتقلّب على الصوفا المقابلة..بل إنه بدأ يشخر..كما ذهبت المربية حواء الفارسي قبل ساعة تقريبًا إلى غرفتها التي كانت تقطنها مع الطفل هابيل..! „ هل ستغادرنا..؟ ماذا ستفعل هنا من دون الطفل الذي كان ذريعة لها للسكن معنا...! وها إن الطفل قد اختفى..جاء وغاب غيبته الكبرى فهل ستذهب هي أيضًا..؟".. هكذا راودت الأفكار ذهنه المتعب..!.

فجأة سمع صوت أنين وبكاء مكتوم يأتي من غرفة المربية..نظر إلى آدم أبوالتنك فوجده يتقلب في نومه غير المريح على الصوفا ويشخر بطريقة مزعجة..! هل يذهب إليها..؟ كيف..هذا محرج في مثل هذه الساعة من الفجر..؟ وماذا لو استيقظ آدم أبوالتنك ورآه قرب بابها..؟ ماذا سيظن...؟ فكّر آدم الشبيبي مع نفسه.

صوت البكاء المليء بالمرارة والقهر تسلل إليه وقبض عليه أنفاسه.. أحس بتعاطف مفاجئ معها..أكانت تحب الطفل هابيل إلى هذا الدرجة حقا بحيث تبكيه وتفتقده هكذا..أم تبكي حالها..وجنينها الذي أسقطته..وأنكرت أنها اعترفت به ..أم تندب مصيرها المجهول..؟ سأل نفسه.

كان في حيرة من أمره..ما بين أن يقوم أو يستمر في قراءة هذه المخطوطة الغريبة...! تنقل بنظراته ما بين آدم أبوالتنك وباب غرفة المربية.. وضع المخطوطة جانبًا.. ونهض بهدوء وحذر شديد وكأنه مقدم على فعل شيء محرم.. متّجهًا نحو غرفة المربية.

فتح آدم الشّبيبي باب غرفة المربيّة..انتبه إلى توقّف صوت البكاء الذي كان يسمعه وهو في الصالة، وكأنّ حواء الفارسي انتبهت لفتح الباب، لكن لم يبدر منها أيّ رد فعل، ولم تسأل عن الداخل، وماذا يريد، أو من هو أصلًا من بين الرجلين اللذين ينامان في الصالة..!؟.

كانت الغرفة غارقة في ظلمة غير عادية..أحس أنّ هناك ما يشبه البرق أو المصابيح الكاشفة السريعة الإضاءة جرت في الغرفة. ومن خلل البرق أو الضوء الكاشف السريع رأى المربية نائمة وهي في قميص نوم شفاف جدًا يكشف عن عريها أكثر مما يستر.. وكانت ممددة في الهواء.. على ارتفاع مترين تقريبا، لكنها بدت مستقرة وثابتة وكأنها تستلقي على سرير غير مرئي.

شعر آدم الشبيبي بالخوف الممزوج بالدهشة. غمر الظلام الغرفة من جديد. وعمّ سكون بارد وكثيف..شعر بالرهبة. ما هذا الذي رآه..؟ هل عليه

أن يرجع..؟ ولماذا كفت عن البكاء فجأة..؟ هل هي نائمة أم يقظة..؟ هل يضغط على الزر الكهربائي ليرى ما بها أم يناديها في الظلمة..؟ لكن إذا ما ناداها فربما سيستيقظ آدم أبوالتنك..؟ ماذا عليه أن يفعل..؟..كانت الأسئلة تتلاحق في ذهنه.

كان قد صار داخل الغرفة لكن عند العتبة. فجأة شعر بيد تمسك بكفه. قفز من شدة الرعب والمفاجأة إلى خارج الغرفة..ومن هناك قفز المسافة القصيرة التي تبعد باب الغرفة عن الصالة حيث كان يقرأ. ألقى بنفسه على الصوفا وهو يتنقل بنظراته بين باب الغرفة متوقعًا من سيخرج منها وبين آدم أبوالتنك الذي كان يشخر في نومه. كان قلبه يخفق بشدة، بل كان يسمع دقات قلبه في صدره، حتى أن الصوت بدا له مسموعًا، ويتردد صداه في أرجاء الصّالة.

انكمش على نفسه. كان يسأل نفسه عن الذي مسك بكفّه عند العتبة الداخلية..؟ فكّر للحظات بأنه من غير المعقول أنّ حوّاء الفارسي كانت تنام قرب الباب..لا..لقد لمحها نائمة في الهواء..والسرير يبعد عن الباب مسافة..!!؟ ثم إنّ الكف التي أمسكت بكفّه كانت ممتدة من الأمام.. وهذا يعني أنّ الشخص الذي مسكه كان يقف أمامه..!! كيف ذلك..؟ لم يجد تفسيرًا لما جرى.

ظلّ على حالته تلك دقائق عديدة، إلّا أن حالته هدأت شيئًا فشيئًا. كان الوقت متأخّرًا جدًّا، ولم يكن من السهل عليه أن ينام مباشرة. ولم يكن أمامه سوى أن يأخذ مخطوطة «متاهة العميان» ليواصل القراءة:

هناك بعض النّاس مَن يستمتع بالذّل، ويتلذّذ التمرغ فيه، مثلما يتمرغ الكلب أو القط بالتراب ليحك جلده. هذا البعض لا يحترم إلا من يهينه، وهو لا يحسب الحساب إلا لمن يستخف به ويسخر منه، بل ولا يخفي احتقاره له.

وزوجي آدم الولهان كان واحدًا من هؤلاء. كان قميئًا وضئيلًا أمام المسؤولين الكبار في الدولة، الذين كان يغدق عليهم الأموال والهدايا، بالرغم من عدم حاجتهم إليها، ويقيم لهم المآدب الفاخرة المتميزة باللهو والأبهة، بل وينجز لهم أعمالهم التجارية السرية التي كان هو واجهة لها، مستمتعًا بشكل صادق بما يقوم به، مستمدًا من ذلك وجاهة وهمية، وثقة بالنفس أقرب إلى الوقاحة، مضفيًا على نفسه أهميّة استثنائية في تعامله مع الآخرين المحيطين به ممن دونه في درجة التذلل والمهانة ، بل وكان يتعامل مع هؤلاء بتعالٍ مفضوح وبتسلّط فج، لكن بنبرة باردة حقودة.. وكان يتقبل مظاهر التكرم والتبجيل من قبلهم.. بل ومن الآخرين بشكل عام.. وكأنهم مُلزمون بذلك...!

لاحظت ذلك مرات عديدة، حينما كنا نخرج لقضاء أمر ما، كالتجول في أسواق المنصور، أو للعشاء في أحد المطاعم المعروفة.. وكان يحدث أن يطلب مني أن نعطف بدربنا على إحدى فروع الشركات التابعة له. كنت انتبه لطريقة تعامله مع الآخرين..مرة كنت معه في أحد المكاتب الهندسية التابعة لشركة المقاولات التابعة له..قام بتأنيب، بل وزجر كبير المهندسين، أمام بقيّة

موظفيه.. وكان هذا الرجل الكبير المسنّ يشبه في ملامحه أبي.. رقَّ قلبي من أول نظرة لي إليه.. وحينما خرجنا قلت له معاتبة بأنه كان قاسيًا ومبالغًا في قساوته على كبير المهندسين...! في تلك اللحظة رمقني بنظرة حادة، وكأني اقترفت جريمة.. نظرة كلها غضب مكتوم..! وبعد دقائق من الصمت، قال لي بنبرة باردة وصارمة: صحيح إنّك زوجتي.. وأحبك.. لكنّي لن أسمح لك مرة أخرى أن تتدخلي في شؤوني.. لن أسمح لك بذلك أبدًا.. مفهوم...!

لحظتها أحسست بدوار خفيف..وكأنني أُلقيت من حافة جبل في الفراغ.. في اللاشيء.. أحسست بأن لساني قد شُلّ..لم أستطع الردّ بأية كلمة..حتى ولو بالاعتذار عن تدخلي في شؤون عمله..لكني لم أستطع أن أمنع الدموع من التجمع في مقلتي..!

صمتُّ للحظات. كان ينظر إلى وجهي، وكأنه محقّق ينظر في وجه شخص مشبوه محاولاً أن يقرأ أسراره..ويبدو أنّ ارتباكي وضياعي في تلك اللحظات ملأه بنشوة غامرة.. إذ شعر بأنه قد حقق انتصاره عليّ...!

في تلك اللحظات طفرت دمعة من إحدى مقلتي رغمًا عني، وانسابت على خدي الأيسر..كنت لا أريد أن أبدو خرقاء وضعيفة أمامه.. لكني لم أستطع السيطرة على تلك الدمعة..حين رأى دمعتي، ابتسم.. وقال لي بمرح: لا عليك..لم أعرف إنك حساسة إلى هذه الدرجة..!! ولأني لا أريد أن أرى الدموع في عينيك..فهي لآلىء ثمينة بالنسبة إليّ، لذا سأهديك شيئًا ثمينًا..تعويضًا عن هذه الدمعة التي سالت على خدك.

حينها عرفت أنّني أمام وحش آدمي..ناعم المظهر، وأنيق. لكني تناسيت الأمر في ما بعد، وقلت لنفسي ربما هو مُحق..! فهو أدرى بعمله..وربما

لو تساهل معهم لما أنجزوا عملهم كما يجب....!! لكنّ سلوكه الحقود المتعالي في التعامل مع موظفيه تكرّر مرّات أخرى.. وكنت أشعر بالحزن على هؤلاء الموظفين، لكنّي كنت أتجنب مواجهة أخرى معه..!

وحصل أيضًا أنّني كنت معه في بعض المرّات أمام المسؤولين في الدولة..سواء من قيادات الحزب الحاكم أو من الوزراء أو وكلائهم.. أو من أقارب رئيس الدولة أو من عشيرته أو حتى مدينته.. وكنت أرى تذلّل زوجي أمامهم..إلى درجة دفعتني مباشرة إلى استذكار مواقفه وتعامله مع موظفيه.

لم يكن هو هكذا في المدّة الأولى من زواجنا، وربما كان هو دائمًا هكذا لكني أنا التي لم أنتبه إليه .!!؟ لا أعرف.. لكني بدأت أشعر بالخوف منه ومن نظراته الغامضة التي كانت تربكني وتدفعني إلى التوقع داخل نفسي.

كانت نظراته باردة.. باردة جدًا. نظرات زجاجية، جامدة، تخفي وراءها ألغازًا غامضة، لكنها كانت نظرات سريعة مثل البرق، نظرات كانت كافية لتبث الرعب في نفسي. ولم أستطع أن أفسّر طلاسم تلك النظرات إلا بعد سنوات طويلة.

***

محظوظ ذلك الذي لا يخاف شيئًا، ولا يأمل في شيءٍ..!..كم كان كازانزاكيس محظوظًا، فقد قال عن نفسه: لا أخاف شيئًا.. لا آمل في شيء.. أنا حر....!

منذ سنوات، وأنا أعيش في خوف داخلي من زوجي آدم الولهان..أخاف من كمية الحقد وكثافته في أعماقه الآسنة..لا أحد يستطيع اكتشاف ذلك

الحقد سواي.. لأنّي كنت أراه بكل أقنعته..واقتنصته مرات عند نزعه للأقنعة فرأيت المسخ الذي تحتها....! كنت أخافه، لكنني كنت أتظاهر بالشجاعة.. ليس الشجاعة في مواجهته..وإ نما الشجاعة في الصمت أمام حضرته..! حتى صار هو يهاب صمتي.

مشكلة آدم الولهان معي أنّه لا يحبني بشكل حقيقي.. ولكثرة ما قال وعبّر عن حبه لي، فقد صار هذا الادّعاء بالحب قيدًا له.. فكان عليه أن يعبّر عن حبّه لي باستمرار، كأيّ واجب من واجباته اللازمة..!! ومنذ لحظة اكتشافي لخوفه وتهيّبه من صمتي، شعرت بفرح خفي مكتوم لم أستطع التعبير عنه، لأنني أيضًا كنت أمارس شجاعة مزيّفة من خلال صمتي.. فأنا بالأساس أخافه هو...!كنا نخاف بعضنا.. أنا أخافه، بل أرتعب منه، لكنّه كان يخاف صمتي.. نعم يخاف صمتي ولا يخاف مني...!

لكن، أيّة حياة زوجيّة هذه حينما يعيش الزوجان في خوف ورعب وتهيّب من بعضهما..! ولم يكن أمامي أي خيار في الانفصال .. فابني بعد أن بلغ السّادسة من عمره، كنّا قد وضعناه في مدرسة داخلية في جنوب ألمانيا..ولم أكن أتخيّل أنّ تلك الخطوة ستكون سببًا لفقداني لابني..!

***

ذات يوم، قبل تسع عشرة سنة..وبعد يوم من وصوله عائدًا من أوروبا لرحلة عمل سريعة..وبعد أن قدّم لي هداياه..مع هدية لابني، وأخرى لمديرة المنزل..وجلسنا أنا وهو وحدنا نواصل سهرتنا في الصالة..قال لي بأنّ هناك موضوعًا يود أن يحدثني فيه..وقبل أن أجيب، أخبرني أنه موضوع يخص

مستقبل ابني آدم..!. خفق قلبي .. ولأني أعرف غيرته من ابني، فقد توجسّت شيئًا مخيفًا..!

لكنّه أخذ يحدّثني بأنه التقى خلال سفرته بأصدقائه من التجار في ألمانيا..وعرف منهم أنهم وضعوا أبناءهم في مدارس داخلية" انترنات".. مدارس خاصة ومحترمة تابعة للكنائس الألمانية..مقابل مبلغ شهري مرتفع نوعًا ما..لا يقدر عليه إلّا أبناء الطبقات الغنية والمتوسّطة أحيانًا، والذين يريدون ضمان مستقبل أبنائهم من ناحية القبول في الجامعات..!

كما أخبرني بأنه فاتحهم بصدد إدخال ابني آدم إلى هذه المدارس، فأكّدوا له بأنهم يعرفون إدارة المدرسة التي فيها أبناؤهم.. وسيضمنون قبول آدم فيها..! وأخذ يشرح لي فوائد أن يكون في مدرسة داخلية في ألمانيا حيث سيحصل على أحسن تعليم، وسيجيد أكثر من لغة، وبشكل سليم..! وأخذ يضرب على وتر تضحية الأم وتحملها آلام الفراق والبعد من أجل ضمان مستقبل ابنها...! وطبعًا، أنا حينها لم أكن أفكر بجدوى مثل هذه الدراسة فحسب، وإنّما أيضًا كنت أفكّر في إنقاذ ابني من لهيب غيرته المدمّر...!

الآن لا أعرف نفسي، نفسي التي كنتها قبل تسع عشرة سنة..لا أعرف نفسي تلك التي وافقت على إرسال ابنها ذي السنوات الست إلى أوروبا بعيدًا عنها ليعيش في مدرسة داخلية..كيف جرى ذلك..؟..حينها لم أفكّر في نفسيّة ابني وقدرته على تحمّل بعده عني..!! فأحيانًا، نحن البشر، نتخذ قرارات خرقاء نعتقد في حينها أنّها أفضل القرارات.. بل فرصة منحتنا إيّاها الحياة..!.

***

لم أتحدّث سابقًا عن ابني كثيرًا..لأنّ مجرّد التفكير فيه يمزّقني..كان ابني آدم صبيًّا ذكياً ذا عينين بنيتين تتقدان بضوء غامض يبعث على الخدر والانجذاب اللطيف.. وكان نحيلًا على الرّغم من التغذية الجيّدة المتوفّرة له.. وكان صموتًا بحضور زوجي، لكنه، ما إن يحس بغيابه حتى يتحوّل إلى شيطان مرح.

ربما كانت الحياة رحيمة بي في جانب ما، وهو أنني لم أحمل من زوجي آدم الولهان..وقد كان هو يسعى إلى ذلك بإلحاح. لكن اتضح بعد مراجعاتنا للأطباء في العراق، وفي مختلف الدول الأوربية التي كنا نزورها أن السبب يكمن فيه هو، وفي عقمه الجنسي.. فانطوى سؤال الانجاب بيننا في طي النسيان، واتفقنا على عدم إثارته. بل وانعكس على طبيعة علاقتنا الجسدية التي انقطعت بشكل كامل تقريبًا..!وكان هذا ربما أحد أسباب غيرته من ابني.. ومن خطيبي، والد ابني الميت، صديقه..!

الغريب أن ابني آدم كان يحسّ بشكل غامض بأن آدم الولهان ليس والده..على الرغم من أنه لم ير أي رجل آخر في البيت سواه..! كما أننا لم نلمح لهذا الأمر بيننا..وعمليًا كان يرى آدم الولهان ينام في غرفتي..! أي ليس هناك ما يدعم إحساسه ذاك..إلّا أنه لم يتعامل مع زوجي آدم الولهان كأب قطّ..وربما منبع ذاك الإحساس لدى ابني هو أنه بإحساسه ووعيه الطفولي انتبه إلى غياب مشاعر الأبوة الدافئة والحنان الحقيقي الأصيل التي تنبع لا إراديًا من الأم والأب تجاه أبنائهم..على العكس انتبه إلى الأحاسيس الباردة، وذلك البخل في الكلمات الدافئة، بل والصّرامة والجديّة في التعامل معه.. فقد انبثقت في نفسية ابني مشاعر لا أعرف كنهها، لكنّها تشي بأنه لا يحب زوجي بل ويخشاه ويتوجّس منه أثناء حضوره.

ما كان آدم الولهان، زوجي، ينادي ابني آدم، سوى باسمه: آدم..يا آدم تعال هنا..يا آدم اسكت..! يا آدم اذهب إلى غرفتك..!! يا آدم اخفض صوتك..! وهكذا..لم يتوجّه إليه إلّا بأمر صارم.. ومن جهته، لم ينطق ابني آدم بكلمة „بابا" قط..فقد ألغى هذه الكلمة من قاموسه اللغوي البسيط آنذاك، ولاسيّما إنّه قالها مرّة حينما كان في الخامسة.. عندما جاء زوجي له بهدية، بمناسبة العيد.. فقال ابني بعفوية..: شكراً بابا... إلّا أنّ زوجي لم يقل شيئًا..بل تجهّم وجهه، وكأنه لم يسمعه..فارتبك الطفل الصغير، وهرول منكسرًا إلى غرفته..وكم أحزنني هذا الموقف..وربما ما ساعد إحساسه بأن زوجي ليس والده الحقيقي هو تعاملي المضاد معه ..فأنا اغمره بكل ما أملك من حنان.. وأعوضه عن كل فقدان.....!

كنت أشفق على ابني..وأحيانًا كنت أبكي مع نفسي على هذه الطفولة القاسية التي يعيشها، ولاسيما من ناحية احتياجه لمشاعر الأب..! وكانت أسعد الليالي حينما يسافر زوجي وحده إلى خارج البلاد، فأخذ ابني الى غرفتي لينام إلى جانبي.. وكنت أناغيه، وأحكي له عن جدّه.. والدي.. حتى صار أبي هو بمثابة أبيه..!

***

أحيانًا أفكّر بأنّه ليس هناك حاضر..، وإنّما هناك ذكريات حيّة..هناك ماض يصرخ في الذاكرة..وهناك مستقبل يتحوّل إلى ماضٍ في كل ثانية.. ولحظة التحوّل هذه هي التي نسمّيها الحاضر..! ليس هناك إذن سوى الذكريات..سوى الماضي..البشر هم ماض يتحرّك وينبض بالحياة...!!

وهنا أجد كلّ ما مرّ بي ينبض ويتوهّج لأنه يسكنني ويتلبسني.. فأنا الآن لست سوى ذكرياتي الحية..! أنا الماضي المستمر...!

***

سافرنا إلى ألمانيا جميعًا..وكان زوجي آدم الولهان صبورًا..وكريمًا.. ومرحًا..بل وصار ليّنا مع ابني..فأدركت بأن هذه التصرّفات ربّما لأنه سعيد بالتخلص من ابني من خلال إبعاده في المدرسة الداخلية..!

أجّر لنا بيتًا قرب المدرسة الداخلية التي سيستقر فيها ابني..! في مدينة صغيرة جدًا، لا هي قرية، ولا هي مدينة..وربما هي تشبه „الناحية" حسب تسمياتنا الإدارية...! بقى هو معي أسابيع، ثم سافر غاضبًا نوعًا ما ..لأني طلبت منه بأن أدفع القسط السنوي بنفسي من المال الذي ورثته عن أبي...!

في الأسبوع الأول، كنت آخذ ابني بنفسي إلى المدرسة، وآتي به عصرًا.. يوميًّا..ومنذ الأسبوع الثاني..وحسب توجيه إدارة المدرسة الداخلية، أخذت أبقيه هناك، وأذهب لأخذه نهاية كل يوم جمعة.. وأذهب به صباح كل يوم اثنين..! في الشهر الأول كان يعاني من مبيته هناك..وفي الشهر الثاني صار يحدثني بشيء من الرضا الطفولي عن أصدقائه هناك..وشركائه في الغرفة.. ولاسيّما صديقه المقرب الذي كان يكبر ابني بأربع سنوات، والذي اسمه قد رسخ في ذاكرتي.. آدم زاباتو، من أمريكا اللاتينية.. فلقبه يذكرني بالثائر المكسيكي الذي كنت قد شاهدت فيلما يحمل اسمه...!

كان زوجي يزورنا كلما سنحت له الفرصة.. يبقى معي أسبوعًا أو أسبوعين نقضيه بالسفر إلى المدن الكبيرة القريبة..لنعود في نهاية دوام كل يوم جمعة لأخذ ابني كي يكون معي في عطلة نهاية الأسبوع.. وقد لاحظت

أنه أخذ يميل إلى عدم المجيء إلى البيت عند تواجد زوجي معي..! فقد كان يأتي عصر الجمعة ليرجع في عصر يوم السبت..، آخذًا معه الفواكة والمعجّنات لصديقه الذي يبقى في المدرسة الداخلية لأنه ليس لديه من يذهب إليهم.. فأهله في أمريكا اللاتينية...!

بعد ثلاثة أشهر صار يبقى هناك في نهاية الأسبوع أيضًا.. وكنت أذهب إليهما محمّلة بالفواكه والأطعمة.. وهناك انتبهت إلى أن بعض الصبيان قادمون من مدن بعيدة..ولا يذهبون إلى أهاليهم إلّا نادرًا..بل إنّ الكثير من الأهالي كانوا يأتون نهاية دوام يوم الجمعة ليقابلوا أبناءهم لساعات، ثم يرجعون..! وهكذا اطمئن قلبي إلى أنّ ابني آدم سيكون مرتاحًا هنا في هذه المدرسة الداخلية.. ولاسيّما أنه أخذ يرطن ببعض الكلمات والجمل الألمانية..!

بعد ثلاثة أشهر تركته هناك في المدرسة الداخلية ورجعت إلى بغداد.. لكن في نهاية الأسبوع الأخير الذي سبق سفرنا..كان عندي في البيت.. وحين أوصلناه إلى المدرسة الداخلية صباحًا قبل أن نتوجّه إلى مطار المدينة الكبيرة التي تبعد عنّا ثلاث ساعات تقريبًا بالقطار.. وفي لحظة الوداع لم يشأ أن يمد يده إلى زوجي مودّعًا.. إلّا أنّه نظر إليّ ورأى الخوف في نظراتي، فمدّ يده ببرود، على عكس زوجي الذي أبدى كرمًا في عواطفه...! وحين جاء دوري احتضنني..ودفن وجهه في حجري..من دون أن يقول شيئًا..إلّا أنني أحسست ارتعاش جسده النحيل..

ترقرقت الدموع لحظتها في مقلتي..وكانت لدي رغبة كبيرة في البكاء.. لكني لم أشأ أن أحطّم معنويات صغيري..فتماسكتُ، وأخذت أودعه..

وأتشمّمه..لكنّه لم يشأ أن يتركني.. ولم يكن أمامي وأنا أتعرض إلى نظرات زوجي الحارقة، والتي تقول لي بأن أنهي هذا الموقف العاطفي بين أم وابنها، إلّا أن أضغط على ذراعيه المتشبثة بي..وكأنه كان يريد أن يعود إلى داخلي لأحميه من برد هذا العالم ووحشته..وحين شعر بأني أفكّ ذراعيه عني بشيء من القوة..تركني فجأة، وركض إلى داخل المدرسة..! من دون أن يلتفت.. وكنت متأكدة بأنه راح يبكي هناك..خلف جدران المدرسة الداخلية....!

كنت شبه منهارة. أردت ان أركض خلفه..لكنّ زوجي قال لي بصوت صارم بأن علي أن أكون قوية..وأن أتماسك..وإني إذا ما أردت له أن يكون رجلًا فعليّ أن لا أبدي العواطف النسوية الرخوة...!

بعد تسعة عشر عامًا لا تزال لحظة الوداع هذه حيّة مثل شريط سينمائي تمرق أمام ذاكرتي وعيني الداخلية..!

***

كنت أزور ابني ثلاث إلى أربع مرات في السنة...وكنت أقضي معه العطلة الصيفية هناك في ألمانيا..وأحيانا كنا نسافر إلى النمسا وفرنسا..لكن آخر مرة رأيته فيها كان حينما بلغ الرابعة عشرة من العمر..بعدها فقدته..!! حدث ذلك بعد ثمانية أعوام من دخوله المدرسة الداخلية..أي قبل أحد عشر عامًا..! أي أنه لو كان حيًا يرزق كما يقولون لي فهو في الخامسة والعشرين من العمر..!

نعم.. لقد فقدت ابني الحبيب.. لقد اختفى..لا أحد يعرف كيف.. ولا أين..؟

كان ذلك اليوم يومًا مشؤومًا. ذلك اليوم الذي جاءني فيه زوجي آدم الولهان بذلك الخبر المشؤوم. فذات نهار دخل زوجي على غير عادته ولا في موعده المعتاد. كان محتقن الوجه..علامات الحيرة والمرارة والغضب المكتوم ترتسم على محياه، وتنبئ بحدوث أمر جلل. لم يلق التحية كالمعتاد. اتجه الى الصالون مباشرة. جلس من دون أن يقول شيئًا.

كنت حين سمعت انفتاح الباب الخارجي للشقة، خرجت من غرفة المكتبة فرأيت مديرة المنزل قد سبقتني إلى استقباله. وما إن جلس على الصوفا، حتى أشار بيده لمديرة المنزل بالانصراف من دون أن يقول شيئًا.. وأشار لي في الوقت نفسه بالجلوس قربه، فجلست. صمت للحظات. ثم قال لي بهدوء، لا ينسجم مع ملامح الجدية والحالة التي دخل فيها إلى الشقة، وكأنه كان يلبس قناعًا فنزعه، أو لبس قناعًا جديدًا:

- أرجو أن تسمعيني جيدًا يا حواء..لا أريد أية ردود فعل مبالغ فيها..! لنسيطر على مشاعرنا، ونفكر بحكمة..!

لم يكن قد قال شيئًا بعد، لكن هذه المقدمة شلّتني، فأحسست أن الأمر يمس ابني، فقلت لا إراديًا:

- ما به ابني آدم..؟ هل حصل له شيء..؟

أذكر علامات الذهول التي ارتسمت على وجهه، وقال:

- هل اتصل بك أحد..؟

- من الذي اتصل أو يفترض أن يتصل بي..؟

حينها ارتخت ملامح وجهه قليلًا وقال:

- لقد اتصلت بي إدارة المدرسة الداخلية التي يدرس فيها آدم.. وأخبروني أنه هرب مع صديق له من المدرسة الداخلية..

- ماذا..؟ ماذا يعني هرب؟ وإلى أين يهرب وهو بهذا العمر.. ولماذا..؟

لا أذكر كيف كنت لحظتها. لكني أذكر شيئًا واحدًا هو أنني أحسست بالضياع الكامل.. بجمود الأشياء حولي.. وطبعًا كعادته في إيجاد الحلول السريعة لكل شيء..، إذ كان قد رتّب كل شيء منذ سماعه للخبر، بحيث قطع لنا تذاكر السفر أولا إلى استنبول، عن الطريق البري ، ومنها إلى ميونخ. بالطائرة.

سافرنا في مساء ذلك اليوم نفسه..ولا أريد هنا أن أتحدث عن حالتي.. لكني أتذكر أنني حمّلت زوجي آدم الولهان مسؤولية ذلك..بل وصل الأمر بي بأني شككت في أنه وراء إختفاء ابني فهو لا يتورع عن تدبير أي شيء يقف في طريقه..وأعرف أنه كان يغار من حبي لابني..!.

***

قصّة هروب ابني غريبة نوعًا ما. حدثتنا إدارة المدرسة، أولا بالإنكليزية، ثم استفسرت منهم أكثر بالألمانية التي أجيدها بحكم دراستي، ففهمت بأن ابني وصديقه، الذي تذكرت اسمه آدم زاباتو، الصبي الذي كان من أمريكا اللاتينية، كانا مشاكسين نوعًا ما.. وكان يهربان أحيانًا من المدرسة ليناما في الغابة، بل وحرضّا مجموعة أخرى من الطلبة لتجربة النوم في العراء تحت السماء المليئة بالنجوم، وقد تم استدعاؤهما مرارًا من قبل الإدارة.. وتم توبيخهما، لكن من دون فائدة..! وإنّ الفتى آدم زباتو هو في الأساس قد تم تبنّيه من قبل رجل ألماني، إلا أن الرجل الألماني قد مات، ولم يعد هناك من يتحمل نفقات دراسته، لذلك تعتقد إدارة المدرسة بأن ابني هرب مع

صديقه الذي فقد راعيه، ربما من باب التضامن..!. وطبعًا لم تقصر إدارة المدرسة من الناحية الرسمية بتبليغ الجهات الرسمية، حيث خرجت فرق البحث عنهما في الغابات المحيطة، فربما كانا قد تعرضا لحادث أو لخطف أو أي شيء من هذا القبيل، لكن من دون جدوى..! لذلك رجّحوا من أن الهروب كان مقصودًا.. ومتفقًا عليه بين الصبيين الصديقيين..!

كان ذلك بعد سنة من لقائي وتعرفي على حبيبي الكاتب والمهندس آدم المطرود...!

حبيبي الذي راح ضحية غيرة زوجي آدم الولهان..!

***

أفاق آدم أبو التنك من رقدته. تلفّت في ما حوله، فرأى آدم الشبيبي مستغرقًا في القراءة. أحس بغيظٍ خفي من أنه لم ينفق الوقت في النوم، وإنما في القراءة، ولاسيّما أنه لم يقرأ شيئا من هذه المخطوطات سوى ما استطاعه عند تصفحها في شقة صديقته القتيلة حواء الكرخي.

انتبه آدم الشبيبي له. نظرا إلى بعضهما نظرات مستفسرة، لكن كل منهما يستفسر عن شيء ما يخصه. كان آدم الشبيبي تحت تأثير ما قرأ من اعترافات حواء الصايغ في „متاهة العميان“.. وكان في شوق لمواصلة القراءة، فهو يحس حاله في عالم حواء الصايغ.. وفكّر في قولها بأنه ليس هناك حاضر.. وإنما ماضٍ مستمر.. لكنه فكّر مع نفسه بأنه هناك أزمنة متوازية دائمًا.. فقولها هي صحيح بأنّنا ماض حي.. ولكننا أيضا نعيش سيل الزمن الحاضر الذي يتحول إلى ماضٍ في كل ثانية.. فهو الآن يعيش زمن الرواية. وزمنه الشخصي وماضيه الحاضر.. وأيضًا الزمن الطبيعي الفيزياوي الذي يعيشه

في هذا المكان.. في الصالة، إلّا أن آدم أبو التنك فاجأه بالسؤال، وآثار النعاس تلون نبرته:

- كم مضى علي من الوقت وأنا نائم..؟

- لا أعرف.. ساعة أو ساعتين.. لماذا..؟

- لا شيء.. أريد أن أعرف الزمن فقط.. أنا أنام وأنت مستمر في القراءة!....

انتبه إلى أن آدم أبو التنك جلس بشكل مستقيم على الصوفا، وكأنه قد فقد النوم.. فبادره بسؤال غريب وهو تحت هيمنة عالم „متاهة العميان"، وما يضج في ذهنه من أفكار:

- هل سمعت بالديمومة يا آدم..؟

رفع آدم أبو التنك رأسه ونظر إليه للحظات، ثم أجاب مستفسرًا:

- لم أفهم..؟ ماذا تقصد بالديمومة..؟ يعني أن يدوم الشيء..!

شعر آدم الشبيبي بشيء من الإحراج، فمثل هذا النقاش لا يمكن أن يتم في مثل هذا الوقت، لكنه كان قد تورط في طرح السؤال، لذلك أجاب موضحًا بارتباك:

- كيف أوضح لك..! هل سمعت أحد الفلاسفة يقول: (يجب انتظار أن يذوب السكر في الشاي)...

نظر آدم أبو التنك إليه ساخرًا، وآثار النعاس واضحة على ملامحه، وقال بنبرة فيها سخرية مبطنة:

- وماذا في ذلك.. أنا يمكنني أن أقول ذلك أيضًا.. بل يا ما رددت هذا القول.. هل يحتاج الأمر أن يكون فيلسوفًا كي يقول هذه الجملة البسيطة..؟

- لا طبعا.. لكنني أقصد إننا حين نقول ذلك، فإننا نتخيل أن الذوبان قد حصل..لكن في ذلك المكان وفي تلك اللحظة ننتظر أن يذوب السكر في الشاي..!

نظر آدم أبو التنك إليه للحظات من دون أن يقول شيئا، لكنّه في أعماقه كان يسخر من هذا المتثاقف الذي يتحدث في الفلسفة عند ساعات الفجر الأولى، لكنه لم يتمالك نفسه، فقال له بنبرة واضحة السخرية:

- ما بك يا آدم..؟ يا الشبيبي..؟ هل أنت طبيعي..؟

أحس آدم الشبيبي بالارتباك.. لكنه كان متلبسًا بأفكاره وعالمه الداخلي، فقال:

- الذي أردت قوله إننا نعيش في اللحظة الواحدة..الماضي وأقصد الذكريات الحيّة..والحاضر..والحدس أو التوقع أو ما نسميه المستقبل..! وهنا تكمن انسيابية الزمن.. الديمومة..لا وجود للزمن.. الزمن هو حركة الديمومة في المكان.. لا وجود للزمن.. ليس هناك سوى الديمومة.. وحركة الوعي..

نظر آدم أبوالتنك إليه وكأنه ينظر إلى أبله أو معتوه.. وفي الوقت نفسه، انتبه إلى عمق الأفكار التي سمعها منه، فقال له بلا مبالاة:

- أنت واحد من اثنين..أما أنت فيلسوف، وأنا لم انتبه لذلك، كما أنا لا أعطيك قدرك..أو أنت مجنون يريد أن يزيد من جنوني في هذه الساعة من الفجر..ولكي أقرّر أيًّا منهما أنت، عليّ أن أنام الآن..وإلّا ستنتهي هذه الليلة بمجزرة في هذه المخطوطات التي تزيدك جنونًا...!

ابتسم آدم الشبيبي من كلام صديقه الذي لم ينتظر تعقيبه، وإنما استلقى على السرير ليغط في نومه المفاجئ. نظر آدم الشبيبي إليه بطيبة.. أراد أن يستلقي هو أيضًا..فالوقت متأخّر بعد تلك الليلة العاصفة بأحداثها الغامضة..لكنه كان منجذبًا بقوّة لمواصلة القراءة.. لكن عليه أن ينام ولو لساعات قليلة.

الفصـل العـاشـر

السّأم..وأشياء أخرى

بعد أن تناولوا فطور الصباح خرجوا من البيت. واجهوا نور النهار الذي منحهم بعض الحيوية وطرد الكثير من وساوسهم وأثّر على مزاجهم..كانت الليلة الفائتة لهم كابوسًا.

أشار آدم أبوالتنك إلى سيارة تاكسي كانت قادمة من مسافة ليست بعيدة.. أثناء ذلك، وقبل أن تتوقف السيارة أمامهم، سأل نفسه: أيّهما سيجلس في المقعد الخلفي مع حواء الفارسي، هو أم آدم الشبيبي...؟

في تلك اللحظات نفسها كان آدم الشبيبي مرتبكًا. راوده السؤال نفسه، لكنه كان يمنّي نفسه بأن يجلس هو في المقعد الخلفي. المربية كانت تعرف أنها ستجلس في المقعد الخلفي لم تسأل نفسها أي سؤال، لكنها تمنت أن يجلس آدم الشبيبي إلى جانبها.

توقفت السيارة أمامهم. فتح آدم أبوالتنك الباب الأمامي ودخل لا إراديًا. شعر آدم الشبيبي ببهجة غامضة. فتح الباب الخلفي. سمح لحواء الفارسي بالدخول. في تلك اللحظات بالذات خطرت في ذهنه أحداث الليلة الفائتة، وأحسّ وكأنّ الكف التي قبضت على ذراعه حينما دخل غرفة المربية فجرًا تقبض عليه الآن أيضًا. شعر بقشعريرة باردة تسري في جسده.

***

دخل آدم الشبيبي إلى مقهى الروضة خلف آدم أبوالتنك مرتبكًا. بقيت حواء الفارسي عند باب المقهى واقفة، مرتبكة ووجلة. لم تدخل، فهي لم تتعود دخول المقاهي قط.

لم ينتبه آدم أبوالتنك إلى أن المربية لم تدخل خلفهما. دخل إلى الصالة الداخلية وخلفه آدم الشبيبي مستطلعًا الجالسين.. فجأة، التقت عيناه بعيني الدكتور آدم كارثة الذي كان يجلس وأمامه على الطاولة كتاب وكأس ماء وفنجان قهوة. لوّح لهما بذراعه. اندهشا كلاهما عندد رؤيته لعدم مغادرته دمشق إلى البلد الذي يدّرس في إحدى جامعاته بالرغم من مرور شهرين على آخر لقاء بينهما. لم يكن أمامهما سوى أن يستجيبا لدعوته.

فكّر آدم أبوالتنك مع نفسه في أنّ الدكتور آدم كارثة سيدخل في نقاش مع آدم الشبيبي مما يتيح له الوقت للحديث مع حواء الفارسي. في تلك الحظة فقط، انتبه إلى أنّها غير موجودة، فدار ببصره في أرجاء المقهى إلى أن لمحها في الشارع قرب الباب الخارجي. فأشار إلى الدكتور آدم كارثة بكفه تعبيرًا عن التريّث، وخرج مسرعًا، بينما توجّه آدم الشبيبي نحو الدكتور آدم كارثة.

***

– من تُرى قتل حواء الكرخي..؟ سأل الدكتور آدم كارثة.

– لا أحد يعرف..نحن فوجئنا باغتيالها..ولا أحد يعرف إلى أي شيء توصلت الجهات السورية..نحن نخاف أن نسأل ونتابع الموضوع كي لا نتورط بالسؤال والجواب والتحقيق في علاقتنا بالاغتيال..فكما تعرف نحن هنا وضعنا قلق أيضًا! أجابه آدم الشبيبي...

- شيء مرعب..الموت البشع يطاردنا أنّى اتّجهنا..اعتقدنا أنّنا قد دفنّا مع النظام المقبور كل الرعب وكل الكوابيس التي كانت تلاحقنا، لكن يبدو أنّ الرعب صار عنوانًا لحياتنا أنىّ اتجهنا..لم نعرف أنّ القتلة الجُدد ظهروا لنا أكثر بشاعة من السابقين..خرجوا إلينا كالسومبي من مقابرهم السريّة..أين كانوا..؟ من أين جاؤوا..؟ أتراهم هم أنفسهم القتلة سابقًا وقد صاروا أبناء السلطة الجديدة وقتلتها الجُدد..؟

- لا أحد يعرف يا دكتور من هم القتلة..هناك تخمينات..لكن حتى لو عرفناهم..وكانوا من كانوا..فالسؤال، لماذا اغتالوا حواء الكرخي بالذات..؟

- نعم هذا هو السؤال..! أكّد الدكتور آدم كارثة على مقاله آدم الشبيبي.

صمتا كلاهما. غرق كل منهما في أعماقه للحظات. وبدا التوجس على وجهيهما وكأنما كل منهما كان يفكر بالمكان والزمان والطريقة التي سيتم اغتياله فيها...!

فجأة.. أفاق آدم الشبيبي من شروده حينما لمح فتاة شقراء برونزية البشرة ذات ملامح شرقية تجلس وحيدة في القسم الأمامي من المقهى. كانت تبدو ساهمة النظرات ومتوجسة، وكأنها تبحث عن شيء ما أو تنتظر أحدًا ما. كانت الفتاة تقلّب كتابًا من بين بضعة كتب أمامها وتقطع نظراتها نحو الكتاب برشفات قصيرة من فنجان قهوتها . أحس بانجذاب خفيّ نحوها.

في تلك اللحظات أيضًا دبّت الحيوية في الدكتور آدم كارثة، وأفاق من تفكيره بكوابيس الاغتيال. نظر نحو جهة باب الدخول حيث لمح آدم أبوالتنك مقبلًا وخلفه تمشي فتاة جميلة، أثارت انتباهه وجذبته أُنوثتها. تصافحا. تبادلا التحية. بينما ظلت المربيّة بعيدة نوعًا ما مما جعل الدكتور

آدم كارثة يحجم عن مصافحتها، ولاسيما حينما رأى أنّها تشد ربطة حول رأسها.

جلس آدم أبوالتنك والمربية حول الطاولة نفسها. كانت هي مرتبكة جدًا وتنظر بقلق مشوب بخوف داخلي، بينما كان الدكتور آدم كارثة ينظر إليها بطريقة مواربة ويتصنع العفوية في نظراته وكأنه ينظر إلى شيء آخر، لكنه كان في الحقيقة ينظر إليها متفحصًا، وتتأجج في أعماقه رغبة واضحة في التعرف إليها، مستغربًا مع نفسه من تصرف آدم أبوالتنك بعدم تقديمها إليه للتعارف.

آدم الشبيبي كان منشغلًا في تلك اللحظات بالنظر إلى الفتاة البرونزية اللون في الجزء الأمامي من المقهى، لكنه بالرغم من ذلك انتبه إلى نظرات الدكتور آدم كارثة نحو حواء الفارسي المليئة بالرغبة، فاغتاظ منه، وأراد أن يشتت انتباهه المتركز عليها، فسأله، بينما كان آدم أبو التنك يطلب لنفسه شايًا وللفتاة كأس شوكولاته بالحليب:

- ما هذا الكتاب دكتور..؟

أدرك الدكتور آدم كارثة إلى أنّ سؤال آدم الشبيبي لم يكن بريئًا، لكنّه وجد السؤال مناسبة لكي يستعرض معارفه أمامها، فقال:

- إنها رواية „السّأم" لإلبرتو مورافيا.. هل قرأتها..؟

أحسّ آدم الشبيبي بفرح خفي لأنّه شتّت تركيز محدّثه، فقال بحماس:

- لا.. قرأت له أربع روايات هي: «الاحتقار» و«أنا وهو» ورواية ثالثة اسمها „الانتباه" وأخرى كتبها في بداياته اسمها „ اغسطينو" عن فتى مراهق وتحولاته النفسية والجنسية..كما سمعت عن هذه الرواية أيضًا.

كان آدم أبوالتنك متضايقًا في جلسته، قلقًا، لكنّه هدأ قليلًا حينما بدأ النقاش بين هذين المثقفين..«فئران الكتب» كما كان يسمّي المثقفين. فقد كان هو مشتّت التفكير..والأحاسيس.. أخذ يستعيد ما جرى ليلة البارحة، وودّ لو ينفرد بحواء الفارسي جانبًا، فهي قد عرفت الخاطفين، وقد شاهدتهم سابقًا، إلّا أنّه وجد نفسه يستمع إلى الحوار بين الإثنين الآخرين، إذ سمع الدكتور آدم كارثة يسأل آدم الشبيبي:

– هذا الكتاب يطرح وجهة نظر غريبة حول المشاعر البشرية.. أتعرف ما هي أسمى المشاعر الإنسانية وأكثرها عظمة..؟

نظر آدم الشبيبي إليه، ثم قال بصوت خافت، وكأنّه غير واثق مما يقول:

– الحب..

– لا.. ليس الحب..الجميع يظنّ أنّ الحب هو أسمى المشاعر الإنسانية.. لا..ليس الحبّ وإنّما السّأم.. نعم السّأم.. فكل المشاعر البشرية يمكن أن ترتوي وتهدأ، وترضى بسهولة إلّا السّأم،.. إذ لا يمكن أن تروي عطش السّأم ولا أن تطفئ لهيبه بسهولة..السأم موقف..الإنسان المسؤوم أو السأمان أو الذي أصابه السأم، لا أوهام لديه ولا أحلام.. وأنا هنا لا أتحدّث عن السّأم أو الضّجر من شيء ما فحسب، وإنما السّأم والضّجر من التكرار..من الإشباع، من اللذّات الطويلة الأمد، والتي تفقد قيمتها كلما امتدت. الضجر والتكرار.. نعم..التكرار يقتلنا، ويخنق أرواحنا..كل اللّذّات تصبح مملّة ومضجرة من خلال التكرار..! التّكرار هو لغز السّأم وسرّه الخفيّ..ومن المفيد أن الإنسان لا يلاحظ كلّ شيء..لأننا لو تأملنا تكرار الليل والنهار..وتكرار الفصول.. وتكرار دورة الحياة اليومية..النوم ليلًا والاستيقاظ صباحًا..الذهاب إلى

المدرسة أو العمل.. العودة من العمل..السّير في الطريق نفسه إلى العمل أو الجامعة لسنوات..الالتزام بالفطور والغذاء والعشاء..ممارسة الجنس مع الشخص نفسه طول العمر.. وبالنسبة إلى المتدينين تكرار الصلاة يوميًا وأسبوعيًا..وأشياء أخرى..لوتأملناها بوعي وبعيون مفتوحه وذهن متّقد، لوجدنا أنّ الحياة مرعبة..نعم مرعبة..وبلا معنى..فمن خلال التكرار تصير الحياة دورة لعينة ومملة..وجحيمًا لا يُطاق! وبالرغم من كل ذلك فالحياة جميلة.. والنسيان والتجاهل نعمة كبرى.. وإلّا لانتحرنا جميعًا..!

كان الدكتور آدم كارثة يتحدّث، وينقل بنظراته بين جملة وأخرى ليرى انطباع كلامه على وجه حواء الفارسي..كان همّه من كل هذه الأفكار الغريبة والمشاكسة هو أن يثير أعجابها بالرغم من انتباهه إلى أن الرجلين اللذين معها لا يريدان ذلك. وقبل أن يفتح آدم الشبيبي فمه ليرد عليه، وجد آدم أبوالتنك نفسه مندفعًا وبشكل لاإرادي للمشاركة في الحديث قائلًا بنبرة مستفزة:

– جميع البشر مندفعون لإرضاء رغباتهم وتحقيق المتعة واللذة حتى لو منيت كل محاولاتهم بالفشل..هم لا يسأمون..بل يحاولون تكرار محاولاتهم..ولو كان التكرار سرّ السّأم كما تقول لما حاول الناس أن يعيدوا محاولاتهم الفاشلة من دون ملل.. ثم.. ألم تسمع مقولة إن التاريخ يعيد نفسه...؟!

انتبه الدكتور آدم كارثة إلى النبرة المستفزة في صوت آدم أبوالتنك، ولم يشأ أن يصطدم به أمام الفتاة الجميلة التي أعجبته.. فحافظ على نبرته الهادئة بالرغم من انفعاله الداخلي، فقال:

- أعتقد أنك لم تفهم مغزى كلامي..يا أستاذ آدم..ثم ما علاقة التاريخ بتصرفات الإنسان وأعماقه..وعلى العكس فإن مقولتك تعني أن التاريخ نفسه يكرر نفسه وقد ملّ من هذا التكرار..!!

ثم التفت نحو حواء الفارسي وسألها:

- وما رأيك أنت أستاذة...

كان ينتظر أن تقول اسمها، إلّا أنها لم تنطق بأية كلمة، وإنما ازداد ارتباكها، فتدخل آدم أبوالتنك مباشرة قائلًا:

- دعنا من كل هذا.. الآن.. وأخبرنا لماذا لم تسافر إلى جامعتك في تونس..؟

أدرك الدكتور آدم كارثة إلى أن آدم أبوالتنك لا يريد له أن يتواصل مع الفتاة، فأحس بالحرج للحظة.. ثم قال:

- لم أسافر لأسباب عديدة..أولًا لأنني عندما حجزت بطاقة سفري.. وجهّزت نفسي، وصلني اتصال من أخي الكبير في العراق..قال إنّ أمي تريد رؤيتي وأنهما سيأتيان معها..فأجّلت سفري من أجلهما..وبقيت أمي هنا شهرًا..اضطررت أن أدفع رشوة من أجل استحصال تقرير طبي أرسلته إلى الجامعة بريديًا وبرقيًا، يفيد بإصابتي بانزلاق غضروفي يمنعني من الحركة لستة أسابيع.. وبعد يومين من رجوعهما إلى العراق، التقيت هنا في هذه المقهى صديقًا عزيزًا يعمل أستاذًا مساعدًا في إحدى الجامعات في أغادير في المغرب.. وأخبرني بإمكانية العمل هناك.. وبمرتب لا بأس به.. أعلى من مرتبي الحالي قليلًا..فأعطيته وثائقي كلّها.. وقبل عشرة أيام، اتصل بي، وأخبرني بموافقة الجامعة على تعييني، وقد أرسلوا لي الدعوة.. وذهبت بها

إلى سفارة المغرب.. وخلال اليومين المقبلين موعد استلام التأشيرة من السفارة.. ربما خلال أيام سأغادر..سأذهب إلى جامعتي الحالية أولًا..لتقديم استقالتي وسحب ما لدي من البنك هناك..ومن ثم السفر إلى المغرب..

كان آدم الشبيبي صامتًا يتأمل صراع الديكة بين الدكتور الكارثة وأبوالتنك، شاردًا في أعماقه..مفكرًا برحلته المجهضة. أحس بشعور خفيف من الغيرة نحو الدكتور آدم كارثة. انتبه لشعوره هذا واستغرب من نفسه أن يصل إلى هذا الشعور غير المنصف.!. فهو لم ينه من التعليم سوى الجامعة..بينما هذا رجل أنفق سنوات من عمره كي يحصل على هذه الدرجة الأكاديمية..!.. فجأة.. وقف آدم أبوالتنك أمامهم.. وقال للدكتور آدم كارثة:

– لو تسمح لنا قليلًا..لدي موضوع مهمّ يخص الآنسة..وعليّ أن أبحث معها فيه..ابقيا أنتما تتحدثان عن السّأم..فنحن كما تريان لا نسأم..السأم داء المثقّفين..

فوجئ آدم الشبيبي بمبادرة آدم أبوالتنك بالتنحي جانبًا لينفرد مع حواء الفارسي..لم يقُل شيئًا. شعر بالارتياح، إذ فكّر هو أيضًا بالذهاب إلى الجهة الثانية من المقهى رغبةً في التعرف على الفتاة الشقراء.

***

– هل هذا دكتور حقيقي..؟ سألت حواء الفارسي.

– ماذا تقصدين بدكتور حقيقي..!؟

ارتبكت حواء الفارسي وهي تلقي نظرة من بعيد على الدكتور آدم كارثة الذي في تلك اللحظة رفع رأسه نحوها أيضا فالتقتْ نظراتهما فاحمرّ وجهها

وكأنّما قبض عليها متلبّسة بجُرم.. لقد أعجبها، وإن لم تفهم حديثه كله، لكنها فهمت جيدًا جملته: «التكرار يقتلنا ويخنق أرواحنا..»..كما أعجبها جدًا اهتمامه بها حينما توجه إليها بكلمة «أستاذة» سائلًا عن رأيها..لكنها انتبهت بأنّ آدم أبوالتنك لا يطيقه، ولم تعرف سبب هذا الموقف منه.

لم يدرك آدم أبوالتنك ما كان يدور في نفسها. ظنّ ارتباكها هو انتباهها لسذاجة سؤالها.. فأراد أن يخفّف عنها، فقال:

- هذا اسمه الدكتور آدم كارثة.. وهو كارثة حقيقة بالفعل..أستاذ يدرّس في إحدى الجامعات العربية.. وجاء إلى هنا في زيارة خلال العطلة الصيفية..

استيقظ فيها فضول غريب نحو الدكتور آدم كارثة، لكنها لم تستطع أن تفصح عنه فعبّرت عن فضولها بطريقة ملتوية، وسألته:

- لكنك تعامله بخشونة واستفزاز...!!

ارتبك آدم أبوالتنك من ملاحظتها. أحسّ أنّ عدم ارتياحه للدكتور آدم كارثة واستفزازه له، صار مفضوحًا، بحيث هذه الفتاة الساذجة قد انتبهت له، فقال بمزاح مصطنع:

- بيننا معرفة قديمة..هو لا يزعل مني..إنني أستفزّه أحيانًا لأوقفه عند حدود الحوار..أتدرين لو لم أقاطعه باستفزاز لألقى علينا محاضرة تمتدّ ساعات..! إنه واحد من هؤلاء الذين يجيدون الكلام..بل ويتباهون بمعرفتهم..حتى لكأني به يتقصّد بحمل كتاب معه على الدوام.. لكي تكون فرصة وحجة لإلقاء محاضرة عن الكتاب والكاتب.. إنه كارثة.. اسم على مسمى...!

صمتت حواء الفارسي للحظة، ثم قالت على استحياء:

- لكن كلامه عن التكرار في الحياة والذي يجعل الحياة مملّة..صحيح..

نظر آدم أبوالتنك إليها للحظات بتركيز، وكأنه يريد أن يسبر غور هذه الفتاة المثيرة التي تبدو أمامه ساذجة لا خبرة لها في الحياة.. لكنها أبدت الآن وجهًا آخر لها، فأحس بغيرة من اهتمامها بالدكتور آدم كارثة وبإعجابها الخفي به، فقال لها باستفزاز لكن بنبرة مزاح:

- ماذا..؟ يبدو أن هذا الدكتور الكارثة قد نال إعجابك من جلسة قصيرة واحدة..وبقليل من الكلام المرصوف جيدًا والذي يجيده المثقفون..؟!

ارتبكت، وتضرج وجهها بحمرة خفيفة، ووجدت نفسها تقول بخجل:

- أبدًا...أنا لا أعرفه أصلًا..لكنّي كثيرًا ما أحسّ بالضّجر وتكرار الأيام والليالي..والقيام بالأفعال والأعمال نفسها..لا شيء أكثر مرارة من الضّجر..أو السّأم.. كما قال هو..أنا أحسّ بنفسي أسأم من نفسي، ومن كل شيء..لذلك وجدت كلامه صحيحًا..

أحس آدم أبوالتنك بتأنيب ضمير خفيّ لأنه أحرجها وأربكها، لكنه لم يخفّف من غضبه المكتوم وغيرته من الدكتور آدم كارثة فقال:

- لا تثقي بأية كلمة يقولها..بالنسبة لي كلامه مثل السمّ في أذني..لا تثقي به وبكلامه حتى وإن كان صحيحًا.. هذا يتحدث ويتحدث ويتحدث.. ماكينة كلام..لا أكثر..إنه لا يسمع أحًدا..يتحدّث فقط.. بينما كما قال أحد الفلاسفة..: «إنّ لنا لسانًا واحدًا.. وأذنين..، لنعلم أننا ينبغي أن ننصت أكثر مما نتكلم..»...وهو يتكلم فقط ولا ينصت لأحد...!

***

اقترب آدم الشبيبي من طاولة الفتاة البرونزية البشرة بطريقة لا تثير الانتباه. نظرت إليه. ابتسمت له بنظرتها. كان ثمة شعاع من اللطف ينطلق من عينيها نحوه. أحس أن في أغوار عينيها يستقر سلام وحنان وطيبة يدعونه إليها.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على محياها. ارتبك. أراد أن يجتاز طاولتها لكنه تسمّر حينما رأى كتاب «منطق الطير» لفريد الدين العطار النيسابوري أمامها. انتبهت إلى نظرته إلى الكتاب. فبادرته بعفوية أدهشته قائلة:

- هل تعرف هذا الكتاب..؟

انتبه إلى نفسه وإلى سؤالها وإلى نبرتها التي ذكرته بإحدى اللهجات المغاربية لكنها لم يستطع تحديدها. لم يصدق أنها هي التي بادرت بالحديث معه. أحس بالحرج لأن ثمة أشخاصًا على طاولات أخرى ينظرون إليه.. ولكي لا يفهم موقفه كتحرش بهذه المرأة.. بادرها قائلًا:

- هل تسمحين لي بالجلوس..؟

- طبعًا.. طبعًا..

قالت الفتاة بعفوية وصداقة. جلس بالمقابل منها. تلفّت فيما حوله ليتأكد أن تصرفه لم يُثر انتباه أحد.نظر إليها للحظات نظرات متمعنة ومكثّفة لكن سريعة.. استغرب مع نفسه أن يكون لهذه الفتاة الجميلة وبهذا العمر مثل هذا الاهتمام بالتصوّف وفلسفة الإشراق. لم يكن يعرف كيف يبدأ حواره معها..لكنه أحس بدفء غريب يجتاحه وشجاعة لم يكن يعرفها في نفسه تنبثق من أعماقه.

نظرت إليه بعفوية ومن دون حرج أو تخوّف. انتظرت أن يقدّم نفسه أولًا، إلّا أنه بادرها بسؤال:

- هل قرأت الكتاب..؟

ابتسمت. لم تقل شيئًا. انتبه إلى تصرّفه الغريب، فاستدرك نفسه قائلًا:

- عفوًا.. أعتذر عن عدم لباقتي.. فربما قطعت عليك خلوتك..؟ وربما أنت تنتظرين أحدًا ما..؟

ابتسمت له وكأنها أدركت أنه يريد أن يعرف إن كانت تنتظر أحدًا، فأجابت بعفوية وهي تبتسم:

- لا ..لا أنتظر أحدًا..أما خلوتي..فهذه ليست خلوة في وسط كل هذا الضجيج..

أحس آدم الشبيبي أنه أمام امرأة ليست سهلة، فهي واضحة وسريعة البديهة، فقال:

- لقد شدني الكتاب..

فسألته بعفوية لكن بانتباه:

- هل قرأته..؟

لم يكن آدم الشبيبي قد قرأ الكتاب لكنه يعرف فريد الدين العطار وقصة مقتله..ولا شعوريًا أجاب بارتباك:

- نعم..

- في أي وادٍ أنت إذن..؟

ارتبك آدم الشبيبي، وبان على وجهه عدم الفهم، لكنه أراد تدارك الوضع، فسأل:

- ماذا تقصدين..؟

ابتسمت له وقالت موضحة:

– في هذا الكتاب «منطق الطير» لفريد الدين العطار ثمة حديث عن وديانٍ سبعة على المريد وسالك الطريق أن يجتازها حتى يصل، وهي: وادي الطلب، وادي العشق، وادي المعرفة، وادي الاستغناء، وادي التوحيد، وادي الحيرة، ووادي الفقر والفناء..! فبأي وادٍ أنت..؟

أحس بالحرج فلم يكن متهيئًا لمثل هذا الحوار الصوفي، فقال وهو ينظر إلى وجهها بجرأة:

– بصراحة.. لقد قرأت الكتاب خلال فترة مراهقتي ولم أستوعبه حينها.. لذلك حينما رأيت الكتاب، شدّني إليه.. وحسب ما ذكرتِ أنت من الوديان.. فأنا في وادي العشق..!

ابتسمت. فهمت كلامه مزاحًا وتقربًا عاطفيًّا منها.لم تستأ، ولم تعلّق عليه. أخذت الكتاب ووضعته في حقيبتها، وبدا وكأنها تتأهّب للانصراف. أدرك أنّه تهّور بمزاحه، لم يودّ أن تغادر المقهى فسألها من دون أن يفكر:

– هل أنت تونسية..؟

ابتسمت بطيبة، وقالت:

– لا.. أنا جزائرية.. مغربية..

– جزائرية مغربية..؟ كيف هذا؟ قال آدم الشبيبي بحيوية.

– يعني أنا جزائرية.. لكنني أعيش في المغرب..

– وماذا تفعلين في دمشق..؟ سياحة.. زيارة عمل..؟

تركت حقيبتها وانتبهت إليه قائلة بتركيز:

- جئت لزيارة ضريح شيخ الإشـراق شهاب الدين السهروردي.. المقتول..!

- ماذا..هنا في دمشق..؟

نظرت إليه باستفهام مشوب باستغراب:

- لا .. طبعا ليس في دمشق.. وإنما في حلب..! ألم تكن تعرف أن ضريح السهروردي موجود في حلب..في زاوية جامع يُسمى باسمه..

أدرك آدم الشبيبي أنه أمام فتاة مثقفة .. فقال:

- أعرف أنّه قُتل في بلاد الشام.. لكن أين بالضبط لا أذكر..

- في دمشق يوجد ضريح الشيخ الأكبر.. الكبريت الأحمر..محي الدين ابن عربي..

- نعم ..أعرف ابن عربي صاحب ترجمان الأشواق..

نظرت إليه للحظات صامتة ثم سألته:

- هل أنت سوري..؟

- لا .. أنا عراقي..

- عراقي..! يا أهلًا وسهلًا بسليل الحضارات..من أين من العراق..؟

- من بغداد..

- من بغداد..من بغداد الحلاج.. وبشر الحافي.. والشبلي.. والجنيد.. أقطاب التصوف..

شعر آدم الشبيبي بالاسترخاء من تواصله معها، ولاسيما وأنّها أبدت ترحابًا وسـرورًا حينما عرفت أنّه عراقي.. استغرب معرفتها بأقطاب التصوف.. فأراد استثمار الموقف فمد يده مصافحًا.. معرّفًا بنفسه:

- آدم الشبيبي

- حواء الزياني..

مدّت يدها مصافحة.

***

فجأة، غار الدم من وجهها، بل وشحب حينما حانت منها التفاتة نحو مدخل المقهى الذي كان بمواجهتها. انتبه آدم أبوالتنك إليها.. ولاإراديًّا، التفتَ إلى الخلف.. لكنّه سمعها تقول:

- إنّهم هم.. الخاطفون..

أربعة رجال ملتحون قليلًا..كلهم يرتدون قمصانًا سود.كانوا يتطلعون في القاعة الأمامية وكأنهم يبحثون عن أحد ما. ارتبكوا حين لمحوا آدم الشبيبي مع حواء الفارسي.. تهامسوا في ما بينهم، ثم غادروا المقهى. أحسّا كلاهما بالخوف والرهبة.. التفت إليها قائلًا:

- لنتبعهم.. لنعرف مكانهم.. فربما سنصل للصغير هابيل..

قال ذلك وهو ينهض متّجهًا نحو طاولة الدكتور آدم كارثة الذي انتبه لمجيء آدم ابوالتنك فأشار له بذراعه وكأنه يدلّه على آدم الشبيبي. التفت آدم أبوالتنك وفوجئ حينما رآه يجالس فتاة غريبة.

توجّه ومعه حواء الفارسي خائفة نحو القسم الأمامي من المقهى. ارتبك آدم الشبيبي حينما رآهما مقبلين نحوه.

- أقدم لك صديقي الأستاذ آدم أبوالتنك و الآنسة حواء الفارسي.

- الآنسة حواء الزياني من الجزائر..

ابتسمت حواء الزياني لهما. وبالرغم من انتباهها لتوترهما، إلّا أنها مدّت يدها مصافحة بمودة. ارتبكا كلاهما، لكنهما صافحاها أيضًا.

- علينا أن نذهب..

- لماذا..؟ سأل آدم الشبيبي بارتباك .

لم يجب آدم أبوالتنك. فهم آدم الشبيبي بأنّ ثمة خطب.

- لحظة وسآتي خلفكما...استدرك قالا

- نحن ننتظرك عند الباب. رد آدم أبوالتنك.

***

تلفت آدم أبوالتنك يمينًا وشمالًا فلم يعثر على أثر للرجال في القمصان السود.

- أين هم..؟ سأل آدم أبوالتنك غاضبًا.

- ماذا هناك..؟ هل جرى شيء ما..؟

سأل آدم الشبيبي.

- لاشيء أيها الدون جوان..الخاطفون كانوا هنا في المقهى..وخرجوا سريعًا.

- ماذا تقول..؟ سأل آدم الشبيبي بانفعال واضح.

- لقد شاهدناهم بأعيننا..

- أنا خائفة.. قالت حواء الفارسي.

- علينا الذهاب إلى البيت.. قال آدم أبوالتنك.

- هل أستطيع أن أبقى هنا.. وآتي إلى البيت لاحقًا.

نظر آدم أبو التنك إليه مستفهمًا، بينما شعرت حواء الفارسي بالغيرة تجتاحها.

- مثلما تحب.. المهم انتبه..

في تلك اللحظة سمعوا صوتًا قادمًا من الجهة المقابلة:

- يا أهلين وسهلين بالشباب العراقيين..

التفتوا جميعًا بشرود. انتبه الآدمان الشبيبي وأبوالتنك إلى المهرّب الذي أُلقي القبض عليه.

للحظة مسّهما الخوف، لكنّهما حين انتبها إلى مرحه وثقته بنفسه وملابسه الجديدة زال خوفهما. أقبل عليهما مصافحًا وآخذًا بالأحضان، ثم التفت إلى حواء الفارسي هازًّا رأسه بإنحناءة خفيفة تعبيرًا عن التحية.

- كيف خرجت..؟

سأله أبوالتنك باستغراب. ابتسم المهرّب له وقال:

- طلعت منها كالشعرة من العجين..أنا بخدمتكما..الآن اتّفقت مع شركات نقليات وسياحة..إلى البلدان العربية. رحلات سياحية إلى المغرب وتونس والإمارات والهند..وجورجيا..وروسيا..وإلى أين تشتهي النفس..لكن ليس أوروبا، لأنّ الحصول على الفيزا إليها صعب جدًا..الدول العربية مبلغها ليس كثيرًا..الإمارات فقط غالية.. تعالوا.. تعالوا.. لندخل.. أنا سأدعوكم على شرب أي شيء مع النرجلية أيضًا.. يا أهلين بالشباب ويا مرحبتين..!

لم يكن أمامهم سوى الموافقة..فآفاق السفر فُتحت ثانية، كما أنهم يريدون أن يعرفوا منه تفاصيل ما حدث..! فكّرت حواء الفارسي مع نفسها متمنية أن يجلسوا بحيث لا يمكن لآدم الشبيبي أن يجالس الفتاة الجزائرية.

***

استغربت حواء الزياني حين رأتهم يرجعون داخلين المقهى مجددًا، ومعهم شخص آخر. أشار آدم الشبيبي لها بأنه سيأتي إليها، على الرغم من أنه أخذ عنوانها ورقم هاتفها واتفق معها على اللقاء.

منطق الطير

بعد شهرين على ذلك اليوم المشؤوم الذي تم اغتيال حواء الكرخي فيه.. وفي تلك الليلة التي عقبت لقاءهم بالدكتور آدم كارثة وبالمهرب والجزائرية المغربية حواء الزياني..؛ كان الآدمان الشبيبي وأبوالتنك وحواء الفارسي قد انتهوا من عشائهم.. كانت علامات الارتياح بادية على الجميع ..وفي غمرة لملمة الصحون قال آدم أبوالتنك:

- بعد هذا العشاء الطيب لابد لنا من استكانات الشاي العراقي المطعّم بالهيّل والمعَد على الطريقة العراقية..

تهلل وجه حواء الفارسي..؛ فنهضت وهي تقول لهما بأنّها ستعدّ لهم أطيب شاي..حملت صحون الطعام الفارغة ثم توجهت إلى زاوية المطبخ الصغير، وانشغلت هناك.

كان الآدمان في مكانيهما المعهودين في الصالة..كل منهما يفكر بطريقته، لكن في الموضوع ذاته:

- ألا تعتقد أنه صار وكيلًا للأمن..؟ إذ كيف له أن يتصرّف بهذه الحرية وينفق بهذه الطريقة ويتحدث عن السفر والتهريب بهذه الجرأة..؟ قال آدم الشبيبي.

- ربما ربما أنت محق.. فهؤلاء بعد القبض عليهم يتعاونون مع الأجهزة السرية من أجل إنقّاذ أنفسهم.. ردّ عليه آدم أبوالتنك مباشرة، وكأنه على يقين من ذلك.

- طبع هذا مفهوم.. ومعقول جدًا...هذا يحدث في كل دول العالم.. كل السلطات هي أخطبوطات هائلة ومرعبة بمئات الألوف من العيون البصّاصة. لكن دعنا من كل هذا.. أنا أخاف من هذا الرجل.. لدي حدس بأنه وكيل أمن.. وربما يريد توريطي..!

صمت آدم أبوالتنك للحظات.. وكأنه يفكر بما دار من حديث، ثم عقب بنبرة مؤيدة:

- ربما نعم.. وربما لا.. فقد صار رجال السلطة هم الذين يديرون شبكات التهريب وينظمونها.. ويسهلون مهمتها.. صار تهريب البشر وترحيلهم إلى أماكن أخرى تجارة مربحة..للأفراد وللدول..المهم..بماذا تفكر أنت الآن..؟

- لا أدري..

- لا تدري..؟ أنت محظوظ.. وتقول: لا أدري..!!

نظر كل منهما إلى الآخر للحظات. قال آدم الشبيبي مستفهمًا:

- ماذا تقصد..؟

- الجزائرية المغربية التي تعرفت إليها اليوم يمكن أن تنقذك من هذه الورطة.. وبالمناسبة..هل هي جزائرية أم مغربية..؟

- هي جزائرية لكنها تزوجت مغربيًا وعاشت معه في المغرب..في تطوان..كما روت لي هي بنفسها حينما جلست معها بعد أن انصرفت عنكم حينما كنت تتحدث مع المهرب..

- يعني أنها متزوجة..؟

- لا ..هي مطلقة..

- إذن..!

- إذن ماذا..؟

- حاول أن تجد معها حلًا.. فيمكنها أن تأخذك إلى المغرب بشكل رسمي..!

- ماذا تقول..؟

في تلك اللحظة بالذات أقبلت حواء الفارسي حاملة صينية الشاي الذي عبقت في المكان رائحته الطيبة.. وقالت بمرح:

- هذا هو الشاي على طريقتنا العراقية..لأطيب الناس..لكن من هي هذه المطلقة..عمن تتكلمان..؟

ارتبك آدم الشبيبي وارتسمت ابتسامة غامضة خبيثة على شفتي آدم أبوالتنك الذي قال بما يشبه اللامبالاة:

- لا أحد.. هي هذه الجزائرية المغربية التي تعرف عليها آدم في مقهى الروضة..

وقفت حواء الفارسي من دون إرادة منها لثوان متفاجئة قبل أن تضع الصينية على الطاولة التي تتوسط المسافة بين الإثنين. ثم قالت بغيرة غريزية أنثوية مبطنة:

- وماذا تريد هذه المطلقة..؟ تركت أقاصي الدنيا وجاءت تبحث عن رجل في سوريا..!

ابتسم آدم أبوالتنك لهذا التعليق. ارتبك آدم الشبيبي، وكأنه اقترف ذنبًا وقال مدافعًا باستسلام وبصوت خافت:

- هي لم تأت إلى هنا بحثًا عن رجل..وإنما جاءت لزيارة ضريح شهاب الدين السهرودري..!

- ضـريـح مَن..؟

صرخ آدم أبوالتنك وحواء الفارسي معًا . وجد آدم الشبيبي في دهشتهما فرصة للابتعاد عن موضوع حواء الفارسي فقال:

- شهاب الدين السهروردي..عالم..مفكر..عرفاني عظيم..شيخ الإشراق..يقال إن صلاح الدين الأيوبي قد أمر بقتله..

- خطية.. قالت حواء الفارسي بإشفاق على السهروردي

وجد آدم الشبيبي في إشفاق المربية وصمت آدم أبوالتنك فرصة للحديث فقال موضحًا:

- هذه امرأة مثقفة جدًا..غريبة الأطوار..مهووسة بالتصوف والعرفان.. جاءت لزيارة ضريح شهاب الدين السهروردي في حلب، وزارت أيضا ضريح محي الدين ابن عربي. أتعرفون „ منطق الطير „ لفريد الدين العطار ..؟

بهتا كلاهما. صمتتْ حواء الفارسي بعد أن جلست..وأحست أنها كشفت عن نفسها فأخذت تصب الشاي في الاستكانات، بينما أحس آدم أبوالتنك بالحرج والفضول للمعرفة فقال:

- ومن هو هذا العطار..؟

- هو شاعر إيراني..لديه كتب عديدة.. منها كتاب اسمه „ منطق الطير ‟..

- ثم ماذا..؟ قال آدم أبوالتنك معلقًا.

- أتعرف بأن البشر مثل الطيور.. والطيور مثل البشر..!

ابتسم آدم أبوالتنك وقال مشاكسًا بمرح:

- هل هذه حزورة..؟

- لا أبدًا.. سأوضح لك ذلك.

نظرت حواء الفارسي إليهما، وكأنها ترى شبحين، فقد كانت تشعر بتشوّش كبير في أعماقها لا تستطيع سبر غوره ولا تعرف كنهه، لكنها كانت على يقين من شيء واحد هو أنها فقدت آدم الشبيبي.

وضعت أمام كل منهما استكان الشاي..وصّبت لنفسها أيضًا.. وأخذت تتنصّت من دون أن تفقه شيئًا..كان صوت آدم الشبيبي يأتيها، إلى أن شعرت أنها تعود إلى الواقع، فسمعت الشبيبي يشرح قائلًا:

- أتعرف البلبل الذي يتغنى به الشعراء والعشاق..! هذا البلبل اللعين أول من اعتذر عن الرحلة إلى السيمرغ متحججًا بأنه عاشق للوردة ولا يستطيع هجرها والسفر.. والببغاء الغبية تعتقد أنها من الجمال بحيث لا يمكنها مغادرة قفصها خوفًا.. فهي أسيرة القفص. والطاووس البهي أدّعى الخجل والتواضع.. حتى البطة ادّعت أنها لا يمكنها الابتعاد عن الماء..أما الحجل الجبلي فحجته كانت أنه لا يفارق الجبال والوديان.. وكذلك البومة الحكيمة.. ادّعت أنها لا تستطيع مغادرة الخرائب.. بل الصقر ظننته سيقول أنه ربما لا يريد مغادرة القمة، لكنه قال إنّه لا يريد مغادرة مكانه المميّز. مكانه الذي هو الجلوس على أكُف الملوك والأمراء..!...الهدهد وحده قاد المسيرة.. عابرًا الوديان السبعة وصولًا إلى السيمرغ..!

انتبه آدم الشبيبي الذي كان يتحدّث بحماس وتماهٍ كامل مع حكايته إلى أن الآخرَين ينظران إليه باستغراب. توقف فجأة. نظر إليهما باستغراب. وبعد ثوانٍ من الصمت سمع آدم أبوالتنك يسأله:

- هل أنت في كامل قواك العقلية..؟

- نعم.. لماذا تسأل..؟ لم أفهم ما تريد أن تقوله..

قال آدم أبو التنك وهو يرتشف ما تبقّى في استكانه من شاي:

- الذي أريد أن أقوله إن الناس كالأعشاب..هناك أعشاب سامة تقتلك.. وهناك أعشاب يستخرج منها الدواء، فتشفيك..وأنت ياصديقي، قد تعاطيت عشبة لا أعرف سرّها..هل ستسمّمك أم تشفيك؟..لكنك لم تعد أنت..لم تعد كما كنت أعرفك..هذه المرأة قد أصابتك بلوثة الدراويش والشعوذة والتصوف..ربما ستنقذك وتخلق منك إنسانًا جديدًا..أو ربما تقودك إلى الهلاك.. لكن في كلا الحالتين هي مفتاح لوضعك الحالي..!

ارتبك آدم الشبيبي، لاسيما وأن الحديث صار مكشوفًا أمام حواء الفارسي، لكنه ومنذ جلسته الثانية مع حواء الزياني أحس فعلًا أنه بدأ يتغيّر، وأنّ هذه المرأة فتحت أمامه أفقًا روحيًا جديدًا..لكنّ الآن، نبّهه آدم أبوالتنك إلى قضية أخرى هي إمكانية الارتباط بهذه المرأة المطلقة، بحيث يمكنه الخلاص من ورطته الحالية.

في تلك اللحظة، انطلق صوت بكاء طفل من الغرفة التي تنام فيها المربيّة..قفز الجميع بدهشة وخوف. ذهبوا متراكضين إلى الغرفة. أشعل أبوالتنك الضوء، فذهلوا جميعًا لما رأوا.

كان الطفل هابيل في سريره محلول الثياب، رافعًا قدميه ويديه، وهو يبكي. ثم فجأة، توقف عن البكاء. نظر إلى الوجوه المحدقة فيه بدهشة وغرابة، وأخذ يبتسم ويكركر فرحًا، محرّكًا يديه ورجليه تعبيرًا عن الفرح. تلقّفته حواء الفارسي، وأخذته إلى حضنها وهي تقبله وتتشممه بحب ولهفة. كان الجميع في حالة ذهول بارد.

***

خرجوا إلى الصالة. وضعته المربية على الصوفا، وأخذت تتفحّص جسده اللدن، باحثة عن أي شيء غير طبيعي ربما قد جرى له.. لم تجد أي شيء غير طبيعي. كانوا مندهشين ومصدومين.. لم يجدوا تفسيرًا لما يجري.

- هل لك أن تفسّر لي ما جرى..؟ سأل آدم أبوالتنك.

- لا أعرف..لا أجد أيّ تفسير منطقي لما يجري..كيف جاء..؟ ومتى..؟ ومن أين لهم المفتاح..؟ وكيف تركوه وحده..؟ ولمّا أخذوه.. فلماذا يا تُرى أرجعوه..؟ لا أعرف..

- وأنت.. ماذا تقولين..؟ وجّه آدم أبوالتنك سؤاله إلى المربيّة.

- أنا لايهمّني كيف ولماذا..! المهم هو الآن بين أحضاني..أترك التفسير لكما.

صمتوا للحظات..لم يجدوا تفسيرًا معقولًا لما جرى. فجأة، قال آدم الشبيبي، وكأنه يردّد حكمة ملهمة تفسّر اللغز:

- إن الحقيقةَ شمسٌ واحدةٌ لا تتعدّد بتعدّد مظاهرها في البروج..المدينة واحدة والدروب كثيرة.. والطرقات غير يسيرة.

– بماذا تهذي يا آدم..أية شمس..وأية حقيقة وأية بروج..أية مدينة وأية دروب وطرقات..يبدو أنّ هذه المشعوذة قد أكلت لبّك..هناك قتلة يبحثون عن شيء لا ندركه..يعرفون كلّ شيء عنا..يعرفون مكاننا..واتّضح أنّ لديهم مفتاح البيت أيضًا..وإلّا كيف دخلوا ووضعوا الطفل في مهده. بينما أنت تحدثني بكلام أشبه بكلام المشعوذين والدراويش..!

أحسّ آدم الشبيبي بالاستياء من كلامه، فقال بنبرة معاتبة:

– هذا ليس كلامي..هي من أقوال شهاب الدين السهروردي..لكن لا عليك..فدائمًا، من السّهل جدًا أن تسفه أي فكر عميق أو منطق متماسك، بل وحتى الهزأ وتأليف النكات حول كل القيم والأفكار العميقة والتجلّيات الروحية بحيث تبدو مثيرة للشفقة والسخرية وكأنها خارج الزمان والمكان.. بينما لو تأملت هذه الأقوال لوجدتها صائبة..

– أنا لا أهزأ منك...ولا من صاحبك السهروردي..وإنّما..أهزأ من قصور عقلي عن فهم ما يجري..!

لم يكمل آدم أبوالتنك جملته حينما سمعوا طرقًا خفيفًا، وقلقة مفتاح في قفل الباب..لكن الباب لم يُفتح..! وأستمر بعدها الطرق على الباب.. بدا خفيفًا ثم تصاعد..في تلك اللحظة بالذات تبادل الثلاثة في ما بينهم نظرات مليئة بالتساؤل والخوف..فجأة..؛ تحركت حواء الفارسي بسرعة إلى الغرفة..وضعت الطفل هابيل في مهده وقفلت باب غرفة النوم.. رجعت إليهما..بينما كان الطرق يتصاعد..كانوا على يقين من أنّ الرجال الذين شاهدوهم اليوم في المقهى قد جاءوا مرة أخرى..وبحذر شديد

توجه آدم أبوالتنك إلى الباب بينما هيمن التوجّس والخوف والترقب على الأثنين الآخرين..!

ومع آخر طرقة على الباب فتح آدم أبوالتنك الباب..لكنه لم يجد أحدًا.. توجّس هجومًا كاسحًا مثل المرة السابقة..لكن لا أحد هنا فعلًا..تشجّع ..مدّ رأسه خارج الباب متلفتًا يمينًا ويسارًا..لا يوجد أحد ..!.. أغلق الباب من الداخل.. وقف عند الباب للحظات يحاول أن يفسّر الأمر مع نفسه..وأيضًا ربما سيسمع الطرق على الباب مرة أخرى..لكن لا أحد يطرق على الباب..!.

كان الآخران ينظران إليه بترقب وتوتر واضح..استغربا وقوفه عند الباب..وبعد لحظات..تحرك إليهما صامتًا..وقف أمامهما.كانت عيونهما متعلقة بوجهه..ينتظران أن يقول شيئًا ويوضح لهما سر مَنْ طَرق!!.

نظر إليهما بارتباك..كان يعرف أنهما ينتظران اجابته بلهفة، فقال بتردد وانكسار:

- لا أحـد هناك..لم أرَ أحدًا يطرق الباب..

- ماذا..؟ قالا في الوقت نفسه.

- نعم..فتحت الباب في اللحظة التي يفترض أن تكون كف الطارق على الباب تقريبًا..لكني لم أجد أحدًا..

- ماذا يعني هذا..؟ سأل آدم الشبيبي.

- لاشيء..أقصد لا أعرف..أنا مثلكما لا أفهم ما يجري هنا..مثلكما سمعت الطرق المتواصل على الباب..ومثلكما توقعت أن يكون الخاطفون هم من جاءوا..لكني لم أرَ أحدًا..

– هل تلفت جيدًا..؟ ربما كانوا مختبئين في مكان ما..؟ قالت حواء الفارسي.

– تلفّتُ وحدقّت إلى كل الجوانب..لم أجد أثرًا لمخلوق..!

– لكن الطارق كان لديه المفتاح..! فلماذا لم يتمكن من فتح الباب..؟ سأل آدم الشبيبي.

– لا أعرف..فعلًا ..لقد كان يدير المفتاح في قفل الباب ، لكن الباب لم يُفتح..!!

مرت لحظات صمت بينهم..صمت وتوتر بدأ يخف شيئًا فشيئًا ليتحول إلى مجرد حيرة وتساؤل غامض..جلس الرجلان..وقالت حواء الفارسي لهما:

– سأحمل حبيبي هابيل..لقد أغلقت الباب عليه خوفًا من الخاطفين الذين توقعت أنهم يقرعون الباب..!

مضت حواء الفارسي..بقيّ الآدمان جالسين بشكل متقابل..نظر آدم أبوالتنك إلى آدم الشبيبي نظرة متفحصة وسأله فجأة:

– وأنت كيف تفسر ذلك..؟

صمت آدم الشبيبي للحظات..نظر إلى وجه آدم أبوالتنك..وركز نظره في عينيه قال:

– ليس لديّ أي تفسير..! سوى أننا توهمنا سماعنا للصوت..!..لكن هذا مستحيل..فلا يمكن أن نكون نحن الثلاثة قد توهمنا ذلك في الوقت نفسه وبنفس الدهشة والغرابة والخوف..!!؟.

وقبل أن ينطق آدم أبوالتنك تعالت صرخة حواء الفارسي قادمة من غرفة الوحيدة في المنزل..قفز الإثنان إليها..ولم تكن المسافة طويلة..حينما دخلا الغرفة صُدموا..؛ فقد كان المهد فارغًا..ولا أثر للطفل هابيل في الغرفة..! بينما تجلس حواء الفارسي مقرفصة قرب المهد.

التفتت إليهما ووجهها يعبّر عن أقصى درجات الألم..والخيبة والخوف.. والتساؤل..وقالت:

- الحقوني..لقد اختفى حبيبي هابيل مرة أخرى..! أنا سأجن..!

- كيف اختفى..؟..سأل آدم أبوالتنك.

- لقد دخلت ووجدت المهد فارغًا..!

هيمن صمت كثيف على الجميع..فجأة سأل آدم الشبيبي على غير توقع منهما:

- هل كان الطفل هابيل موجودًا أصلًا..؟ ألم يخطفه الرجال الملثمون..؟

نظر الآخران إليه باستغراب. سأله آدم أبوالتنك بنبرة فيها غضب مبطن:

- ماذا تقصد..؟ ألم يكن بين ذراعيّ حواء حينما سمعنا طرقات الباب..!!؟..

فقال آدم الشبيبي بلهفة وكأنه يريد إثبات شيء يجول في ذهنه:

- هذا ما أقصده..كلنا سمعنا طرقات على الباب..وأنت كما قلت فتحت الباب في اللحظات التي طرق فيها الطارق اللغز الباب..أليس كذلك..؟

- صحيح..لكن ماذا تريد ان تقول..؟..سأل آدم أبوالتنك.

- أقول ربما نحن توهمنا كل شيء..ربما توهمنا عودة الطفل هابيل إلينا..مثلما توهمنا الطرق على الباب ..!

في تلك اللحظة قالت حواء الفارسي بحماس متحفزة كاللبوة التي تدافع عن شبلها:

- ماذا تريد أن تقول..؟ أنا احتضنته وشممته وبدلت حفاظاته..وأنت تريد أن تقول لي إنني واهمة..؟

فجأة نهضت مسرعة وغادرت الغرفة..لم يفهم الآدمان لماذا غادرت الغرفة وإلى أين فتبعاها..وعرفا من صوت الحركة في المطبخ بأنها هناك.. حين صارا في الباحة عند المقاعد والصوفا انتبها لها وهي تخرج من المطبخ حاملة حفاظة طفل ملوثة بالبول..ففهما أنها تريد إثبات حقيقة وجود الطفل وحقيقة اختفائه..صُدم آدم الشبيبي حين رأى الحفاظة بيدها..أما آدم أبوالتنك فلم يشك بلا وجود الطفل هابيل..حين اقتربت منهما مدّت الحفاظة نحو آدم الشبيبي قائلة بحزم:

- خذ وانظر وتشمم ..هذه الحفاظة لا تزال مبللة..وأنت تقول لي إن وجود حبيبي هابيل كان وهمًا..!!

أحس آدم الشبيبي بالارتباك..لم يأخذ الحفاظة من يدها..كانت الخواطر والأفكار الغامضة والمخيفة قد تلبّست الجميع.

جلس الآدمان على المقاعد الموجودة هناك بينما توجهت حواء الفارسي إلى المطبخ لترمي الحفاظ في سلة القمامة هناك.

كان الليل قد هبط على دمـشق.

الفصل الثاني عشر

الدوّامة

نام آدم أبوالتنك مع شكوكه..ورقدت حواء الفارسي مع كوابيسها ورعبها..كان آدم الشبيبي يقظًا كعادته..!..على الطاولة القريبة مخطوطة «متاهة العميان» التي جذبته إلى دروبها الغريبة..لكنه قبل أن يواصل القراءة فيها مجددًا استعاد كل ما مرّ به من أحداث.. لاسيما تلك الليلة نفسها..!..ووجد نفسه مقتنعًا بالحل الذي اقترحه عليه آدم أبوالتنك مازحًا بأن يعمّق علاقته بهذه المرأة المغربية الجزائرية..فربما ستنقذه هي من متاهته الدمشقية..!..كما راودته مجددًا فكرة تشجيع صديقه بالزواج من حواء الفارسي.. وترسخت هذه الفكرة في ذهنه بقوة، وقرر أن يرتب هذا الأمر..ويبث الحياة في هذه الفكرة في الصباح الباكر..ولا يعرف كيف حينها ابتسم مع نفسه وهو مستلق على الصوفا..ومد يده إلى المخطوطة التي بهرته لدقة تفاصيل هذه الاعترافات التي دونتها حواء الصايغ في « متاهة العميان»..وبدأ يقرأ:

لو تخيلنا الحياة نهرًا..صاخبًا..جارفًا..وتأملنا اندفاع تياره..عندها لا يمكننا أن نحصي عدد الأمواج التي تتداخل في هذا الجريان السريع والهائل..لكن برغم ذلك يحدث لكل منا أن ينتبه لموجة ما، أو لبعض موجات في نهر الحياة هذا..!

قد تكون بعض هذه الأمواج رقيقة..عذبة..تحضر في الذاكرة بإنسابية.. لكنها سرعان ما تتلاشى..!..بيد أن موجة واحدة تبقى صورتها في الذاكرة.. موجة يتكثف فيها كل اندفاع النهر وصخبه وعنفوانه..!..موجة واحدة تؤكد أننا عرفنا دفق الحياة بامتياز.. بكل توهجها..وأحيانًا بكل قساوتها وعنفها.. وإذلالها لنا..وسخريتها المهينة منّا.. !

لكن..لماذا هذه الموجة بالذات..!؟؟ لا أحد يمكنه أن يجيب على ذلك.. فلكّل منّا موجته الخاصة التي تتصاعد أثناء جريان نهر الحياة.. موجته التي وحدها تبقى مصطخبة وهادرة ومتلاطمة في أعماق الروح والذاكرة..!.

لا أحد يدرك سر هذه الموجة..ولماذا هي تنساب أو تتلاطم وحدها في الذاكرة بعيدًا عن اندفاع النهر وجريانه..موجة تستعصي على الفهم..لا تهتدي لتفسير حضورها الصاخب في أعماقنا أية حكمة..!!؟.

وفي حياتي مويجات عديدة رقيقة..مويجات قليلة..لكنها بالنسبة لي هي التي تمنح حياتي معنى..وتؤكد لي بأني أيضًا قد عشت..! لكن بينها ثمة

موجة صاخبة..عنيفة..لطمتني بدون رحمة..جرّتني إلى الأعماق المظلمة.. إلى أعماق الدوامة..!..نعم إنها الموجة الملتفة..الموجة الدوامة..الخانقة.. والمظلمة..!.

هذا ما جرى لي قبل عام من اختفاء ابني..!؟

***

قبل أن يختفي ابني بعام واحد..كنا في مدينة تركية ساحلية..هناك التقيت في الفندق لأول مرة بحبيبي الكاتب والمهندس آدم المطرود.. ربما لحظة لقائي به هي من تلك الأمواج اللطيفة والرقيقة التي أذكرها من نهر حياتي..كان لقاؤنا الأول في المصعد..لا أعرف كيف أصف تلك الثواني القليلة التي التقتْ فيها عيني بعينه لأول مرة..!!..لكني انتبهت لنظرة الذهول البهيج في عينيه..

حين توقف المصعد في الطابق الأرضي كنت أنا وحدي في كابينة المصعد..ظل واقفًا للحظات منتظرًا خروجي..لكني لم أكن أريد الخروج.. كنت في الطابق الأول بمحلٍ للتحفيات..وحينما دخلت غرفة المصعد أريد الذهاب إلى جناحنا في الطابق التاسع انسحب المصعد هابطًا..لم يكن في كابينة المصعد أحد غيري..انتظر هو أن أغادر الكابينة لكنني لم أتحرك.. انتبهت لتردده وتساؤله الممزوج بذهول..فهم أنني لا أريد الخروج..وإنما أريد الصعود.. وكنت قد ضغطت على زر الطابق التاسع..فدخل هو وسلّم باللغة الإنكليزية..أجبته بابتسامة وبإيماءة من رأسي..لا أدري كيف أصف تلك اللحظات..؛ فقد خفق قلبي حينها وكأنني وجدت وجهًا أعرفه من غابر الزمان..لكني في الوقت نفسه أعرف أني التقيه لأول مرة..! أغلق المصعد بابه وصعد إلى الأعلى.

انتبهت إلى أنه لم يضغط على زر الطابق الذي يشير إلى وجهته، والمصعد كان قد اجتاز الطابق الأول صاعدًا.. حينها ضغط على الرقم واحد (1)..أحس بالارتباك..لكن دفقًا من الفرح غمرني..أحببت أنه سيرافقني إلى الأعلى..ابتسمت مع نفسي ابتسامة خفيفة..انتبهت إلى أنه كان يتأملني بتركيز..ارتبكت..لا أعرف لماذا..فشغلت نفسي بالنظر إلى لوحة الأرقام المضيئة التي تشير إلى الطوابق.

حين وصل المصعد إلى الطابق التاسع وتوقف..وفُتح بابه..ابتسمت مع نفسي لا إراديًا..انتبه هو إلى أنني أسكن في هذا الطابق..وحين خرجت أحسست أنه يتأملني من الخلف..إلى أن أغلق المصعد ليهبط.. لا أعرف لماذا كان قلبي يخفق بشدة..ثمة حالة انخطاف كامل كانت تهيمن عليّ.

***

كانت الفرقة الموسيقية قد بدأت تأخذ موضعها بالقرب من ساحة الرقص استعدادًا لتقديم برنامج السهرة حينما دخلتُ أنا وزوجي إلى قاعة الطعام الكبرى.

كانت القاعة مزدحمة..اجتزنا الصالة بحثًا عن طاولة فارغة، ولا أدري إن كانت المصادفة قد تقصّدت في ذلك حيث وجدنا طاولة فارغة..لكن ما أن استدرت لأجلس حتى شعرت برعشة كهربائية تجتاحني..فقد كان رجل المصعد جالسًا مع شخص آخر حول الطاولة القريبة المجارة لطاولتنا، بل إنه كان جالسًا مقابلي بالضبط .

انتبهت إلى أنه لم يحوّل عينيه عني قط، حتى أنه من شدة تركيزه عليّ أثار انتباه صديقه فاتجه هو أيضا بعينيه تلقائيًا نحوي، وانتبهت إلى علامات

الإعجاب الشديد والرغبة الفاضحة التي ارتسمت على وجهه..ورأيته ينحني قليلًا إلى رجل المصعد ويهمس له..وأدركت فورًا أنه قال له شيئًا ما عنّي..!

انتبهت إلى أن رجل المصعد لم يرد على ملاحظة صديقه، لكنه ظل يواصل نظرات الدهشة والإعجاب والذهول نحوي..وفجأة التقت نظراتنا فشعرت بارتباك شديد لم أعرف سرّه في لحظتها.

في تلك اللحظات جاء موظف الخدمة في المطعم ليسجل طلبات الطعام فانشغلنا معه، حاولت أن أتفاهم معه بالانكليزية، لكني طلبت من زوجي أن يختار لنا العشاء.

فجأة..حدثت ضجة في أقصى القاعة إذ سقطت الصينية من يد العامل الذي يحمل الطعام على بعض الجالسين، بعد أن تعثر.. صمتت القاعة لثوان..التفت الجميع نحو جهة الصوت..وبعد لحظات عادت الضوضاء إلى القاعة.

***

بدأت الفرقة الموسيقية برنامجها بقطعة موسيقية راقصة. أخذ بعض رواد المطعم من الأجانب التوجه إلى ساحة الرقص، كما توجه بعض الرجال إلى بعض السيدات الجالسات إلى طاولات أخرى لدعوتهن إلى الرقص .

ظل رجل المصعد جالسًا بارتباك، لاسيّما وأن جليسه قام متوجهًا نحو امرأة شقراء تجالس رجلا كهلًا حول طاولة ليست بعيدة..كنت أحس رجل المصعد محرجًا..فكأنه يصارع نفسه أن يقوم ليدعوني إلى الرقص أم لا.. ولم يترك له زوجي فرصة الحسم إذ قام معي طالبًا مني أن أراقصه..!.. وكم كنت أود لو أن رجل المصعد بادر بدعوتي..وأنا على ثقة بأن زوجي برغم

غيرته إلا أن حبه للمظاهر كان سيطغى على ذلك..ولأبدى شهامة وتصرّفًا حضاريًا بلا ممانعته في ذلك..!

عدت مع زوجي إلى طاولتنا..وعاد صديقه إلى طاولته..لكن لم تمض إلا لحظات حتى بدأت الموسيقى داعية الحاضرين لجولة رقص جديدة، وبدأت الفرقة تعزف موسيقى بطيئة وناعمة. كان زوجي متعبًا..ومزاجه ليس على ما يرام..ويبدو أنه كان مشغولًا بصفقة ما..فمال نحوي قائلًا بأنه سيذهب ليجري اتصالًا..وأنه سيعود..وحينما أردت مغادرة الصالة أيضًا أصرّ بأن أبقى إلى أن يعود..! والحقيقة كنت محرجة من الجلوس وحدي..لكن ثمة فرحًا خفيًا غمرني حين فكرت أني سأكون وحدي.. وأن رجل المصعد الذي ينظر إليّ بحب وشغف واضحين ربما سيدعوني للرقص..!

كنت منتبهة إليه..لكني كنت مرتبكة أيضًا..فلم أشجعه على دعوتي للرقص بشكل صريح..وانتبهت إلى أنه مرتبك وخجول مثلي.. ثم أخذ وصديقه يتحدثان..ولم يكن الأمر يحتاج لفطنة خاصة كي أعرف أنهما يتحدثان عني..لاسيما وهما كما تناهى إلى سمعي يتحدثان باللهجة العراقية..وهذا ما زاد من ارتباكي..لكني لم أسمع كل ما قيل.. بيد أني فهمت بشكل مشوش بأن صديقه كان يشجعه على دعوتي للرقص..إلّا أنه لم يستجب لصديقه..واستغربت من نفسي حينما شعرت بخيبة الأمل لتردده..بل وشعرت بالغضب حينما رأيت صديقه مقبلًا نحوي وليس هو.. قائلًا بأدب ولطف وباللغة الإنكليزية:

– هل تسمحين سيدتي؟

أردت أن أعتذر لكن لا أعرف لماذا راودتني خاطرة في أن أعاقبه.. وأغيظه.. فقمت للرقص مع صديقه، فما كان منه إلّا أن نهض مغادرًا القاعة وعلى وجهه ملامح غضب من نفسه وربما مني أيضًا!..

***

في صباح اليوم التالي جلسنا حول الطاولة نفسها..كان صديق رجل المصعد موجودًا..حيّاني بإيماءة من رأسه..كان وحده.. حاولت أن اتباطأ في فطوري عسى أن يأتي..لكنه لم يأت..وكان الفندق قد أعلن عن سفرة إلى قلعة إغريقية أثرية ليست ببعيدة عن الفندق..وكانوا قد وفّروا لنا باصات لنقلنا إلى هناك..ولم يكن أمامنا سوى مغادرة صالة الطعام والاستعداد للرحلة، لاسيما وأنهم أعلنوا أن الباصات تنتظرنا في الساحة أمام باب الفندق..لكن ..وأنا أسير مع زوجي التقيته عند باب المطعم..لاحظت أن علامات الخيبة ارتسمت على وجهه، ولا أعرف لماذا شعرت بالارتياح مجددًا عند رؤيته..!.

***

في الساحة العريضة لوقوف السيارات السياحية بالقرب من الفندق كانت هناك حافلتان سياحيتان إحداهما قد امتلأت بالركاب ومستعدة للحركة، أما السيارة الأخرى فلا تزال أبوابها مفتوحة تستقبل بقية الراغبين في زيارة القلعة.

صعدنا..زوجي وأنا إلى الباص الأول..كم كنت حينها أتمنى أن يصل هو..لكنه لم يصل..! لكن حين تحركت السيارة لمحته قادمًا..فراودتني مشاعر غضب لتأخره.

بعد انتهاء الرحلة ورجوعنا وقت طعام الظهيرة حدث معي مثلما حدث معه صباحًا...فلقد صعدت إلى جناحي.. وهناك استبدلت ثيابي..ويبدو أنه كان في المطعم خلال ذلك الوقت..لأنني التقيته عند باب المطعم عند دخولنا إليه..!.

يبدو أن كل تلك المصادفات زادت من انتباه أحدنا إلى الآخر..وقد توّجت تلك المصادفات باللقاء والتعارف على ظهر سفينة سياحية مستأجرة من قبل الفندق للتنزه في عرض البحر عصرًا وذلك ضمن البرنامج الترفيهي للفندق..!..فقد لمحته مع صديقه يصعدان إلى السفينة..لكني كنت مع زوجي جالسين حول طاولة بعيدة نسبيًا.. وقد كانت المفاجأة حينما ذهب زوجي ليأتي بفنجان قهوة لكل منا..عاد ومعه رجل المصعد..وما أن وصلا قربي حتى قال لي زوجي بمرح:

- اسمحي لي أن أقدم لك المهندس آدم المطرود ..

فوجئت..حاولت السيطرة على فرحتي..لبست قناع اللا إهتمام أو بدقة أكبر أبديت الحياد، وقلت..:

- أهلًا وسهلًا..

- زوجتي حواء الصايغ..

أحسست أنه ارتجف حينما سمع اسمي وقال:

- تشرفنا..

وتصافحنا..لم أصدق أنني تعارفت معه رسميًا بل وصافحته أيضًا. أحسست بالحرج.. إلّا أن زوجي أراد أن يخلق جوًا أليفا فقال لي:

– المهندس آدم المطرود يتحدث التركية، وكذلك الإنكليزية طبعًا..

أسعدني ما سمعت..بل كنت متشوقة لسماع أي شيء خاص به..ارتبك هو وقال موضحًا:

– القصة وما فيها ياسيدتي أنني درست الهندسة في استنبول، وأعمل في بغداد طبعًا، لدي مكتب هندسي هناك..لكني عملت صحافيًا لسنوات عديدة..لاسيّما أثناء دراستي الجامعية..

لم يهمني كونه مهندسًا كثيرًا لكن شعرت بالحماس حينما قال إنه صحافي..أي مثقف وله علاقة بالكتابة والقراءة ..هكذا فهمت الأمر فقلت:

– يعني أنت مهندس..و صحافي..

ارتبك هو وقال:

– كنتُ..صحافيًا..ومترجمًا أحيانًا..

نظرتُ إليه مستفسرة وسألت:

– وكنتَ مترجمًا أيضًا....والآن..؟.

شعر هو بالفرح يغمره لاهتمامي الواضح وغير المجامل به، فقال:

– تركت الصحافة والترجمة منذ سنوات، لكني لم أترك الكتابة..

– كيف ذلك..؟ ماذا تقصد..؟.

كان زوجي آدم الولهان ينظر بسعادة إلى هذا الحوار بيني وبين المهندس آدم المطرود، فكثيرًا ما كان لا يجد ما يتحدث فيه معي كي يثير اهتمامي، وها هو يرى الحيوية تسري في روحي، وربما فكر مع نفسه بأن حضور المهندس

آدم المطرود في هذه الرحلة سيكسر روتين الحوار بيننا..واستمعنا كلانا له وهو يشرح لنا:

- أقصد أنني على الرغم من أن مهنتي الهندسة المدنية إلا أني كاتب. ولست صحافيًا..

- كاتب..؟ تقصد أديب..؟ تؤلف الكتب..؟

قلت ذلك بانبهار وفرح لا إرادي، فأجاب منتشيًا بالسعادة لدهشتي:

- نعم.. لقد نشرت رواية واحدة، وحاليًا أخطط لكتابة رواية أخرى..

- لديك رواية منشورة.. ؟ ما اسمها..؟

ارتبك لكنه واصل:

- أوه.. رواية يتيمة بعنوان (البرزخ) أو (الأقنعة الزجاجية)..

ارتبكت للحظة، ثم عقبت:

- مع الأسف لم أقرأ هذه الرواية، فكما يبدو أن موضوعها حساس جدًا، لكن لماذا تحمل عنوانين.. أذكر أنك ذكرت البرزخ وعنوانًا آخر..

فأكّد هو:

- الأقنعة الزجاجية..

وهنا سأله زوجي بمكر خفي أعرفه أنا، لكنه هنا بدا وكأنه يريد المشاركة أيضًا في النّقاش، ليؤكد لهما أنه أيضًا موجود وأنه مثقف ولديه اهتمام بالأدب أيضًا:

- ولماذا جعلت الأقنعة زجاجية..؟

أحس رجل المصعد بالارتياح قليلاً لابتعاد الحديث عن حبكة الرواية، فقال بحماس:

- لأن الأقنعة الزجاجية حينما تنكسر فأنها ستجرح الوجه ..

ابتسمت لطريقة إجابته التي لم يستطع زوجها التعليق عليها، لكن زوجي قال بمرح مصطنع، لكنه مكشوف:

- هذا كلام صحيح..

فجأة راودتني رغبة في أن أعرفه أكثر فسألته عن كاتبه المفضل..فتلوي في الجواب وقال بأن لديه عددًا من الكتّاب المفضلين..فألححت عليه لمعرفتهم..ربما لرغبة لا واعية في أعماقي لأبني الجسور بيني وبينه، فذكر لي أسماء كتابه المفضلين وأذكر من بينهم كان دستويفسكي..تشيخوف.. كونديرا..هنري ميللر..موباسان..أميل زولا..نجيب محفوظ.. وغيرهم.. حينها شعرتُ بأن ثمة نقاط ضوء بدأت تتقد في المسافة بيننا، فقلت بمودة بأن هؤلاء يشكلون سلسلة من الكتّاب، فمن هو الأقرب بين هؤلاء..؟ فأجابني بأنهم جميعهم قريبون..

وساد الصمت بيننا للحظات..لكني أحسست أننا قطعنا شوطًا نفسيًا بعيدًا بيننا .. وتوغل إلى مساحات كبيرة في نسج العلاقة الروحية التي تشكلت بشكل غامض بيننا..ويبدو أنه أراد أن يقوم هو بالخطوة المماثلة، فسألني دون أن يعير الإهتمام لوجود زوجي عن الكتّاب المفضلين لديّ..؟.. لحظتها ارتبكتُ وقلت بحياء:أنا قارئة..ولست كاتبة..فألحّ في السؤال فوضّحت له.. وهكذا تشكل بيننا عالم من المشاعر الغامضة والتفاهم المبهم..وحينما تيقّنا من ذلك..انتبه هو إلى وجود زوجي فسأله عن كاتبه

المفضل..وهكذا دار الحوار بيننا نحن الثلاثة..لكنه التفت نحوي...انتبهت إلى تغير في ملامحه لثوان..أدركتُ بشكل غامض إلى أنه تنبه إلى شيء ما يخصني إذ سألني فجأة:

- هل تحبين السينما.. ؟

استغربت سؤاله، لكنه أخذ يحدثني عن المخرج الايطالي فيسكونتي وعن ممثلة ما..ثم سألني عن لوحة (اللوج) للرسام الفرنسي رينوار..؟ وبعد أن أخذ زوجي يحاول أن يثبت سعة معرفته بالفن ..تحدث هو عن علاقته بالفن التشكيلي..وفجأة قدم نفسه بطريقة غريبة إذ قال:

- أحب جميع الألوان، حتى أشدّها تناقضًا. عمري خمسة وثلاثون عامًا. مؤمن بالله الواحد الأحد، لكني لستُ على وفاق مع الأديان. ثم ماذا بعد.. ها.. ليس لدي أي ضمان على الحياة، سوى ضمان سيارتي.

ضحكنا جميعًا من تقديمه لنفسه بهذه الطريقة. نظرت إليه نظرة متعاطفة يغمرها الحنان، إذ أحسست بأنه قريب مني وأنا قريبة منه، فقلت له:

- إن لديك طريقة غريبة في الكلام. لقد قلت كل شيء عن نفسك تقريبًا، لكنك أيضاً لم تقل شيئا قط..

فتدخل زوجي مازحًا:

- وأنا أتفق معها. فمثلًا أنت لم تقل لنا هل أنت متزوج أم لا..؟.

وبرغم أنني نظرت إلى زوجي نظرة لوم على سؤاله، لكنني بصراحة كنت سعيدة لمعرفة الجواب:

- لا لستُ متزوجًا، كما ..

وقبل أن يسترسل في كلامه تقدّم صديقه ومعه امرأة شقراء يبدو أنها صديقته فقدمه لنا أيضًا..ولأكُن صريحة فقد استأت لحظتها لحضور صديقه مع هذه المرأة..فقلت لزوجي وكأنما أريد إنهاء الموقف:

– لقد بدأت الشمس تميل للغروب، ويبدو أن الشمس ستذهب للنوم في أعماق البحر..

فجأة علّق هو بمبالغة واضحة:

– يا له من تعبير شاعري.

فبادر زوجي قائلًا:

– إنها تكتب الشعر والخواطر أحيانًا..

فارتسمت علامات الدهشة الحقيقة على وجهه الذي كان يتوهج بالمشاعر الجيّاشة وقال:

– هذا شيء رائع، وتقولين إنك قارئة فقط..؟ اتضح أنك كاتبة وشاعرة أيضًا، فهل يمكننا سماع أي شيء من كتاباتك..؟..

ارتبكت ونظرت إلى زوجي بحياء وعتاب، وقلت:

– لا. لا. لا أحفظ أي شيء مما أكتب..

فقال زوجي بمرح مشاكس:

– هيا.. هيا .. لنسمع ما كتبته ليلة أمس..

نظرت إليه مؤنبه..ولحسن الحظ عند هذه اللحظة انسحب صديقه مع المرأة التي معه..لكن فضول زوجي وتشممه الكلبي الاستخباراتي لم يغب عنه ونحن في عرض البحر، إذ أراد ان يعرف كل شيء عن حبيبي آدم

المطرود..ولماذا هو في تركيا بينما الأوضاع في البلاد غير مستقرة..ولا يتاح السفر بسهولة إلا للخاصّة.. فأوضح أنه هنا للمشاركة في مؤتمر هندسي عالمي وقد جاء إلى هنا مع صديقه لأنهما كلاهما من خريجي الجامعات التركية وتعاملا مع الشركات الهندسية التركية..

حينها..كان الظلام قد خيم على البحر.. والأمواج بدأت تتلاطم بشكل خفيف تمهيدا لحركة المـد والجزر.. كانت أضواء المركب ترقص على صفحات الموج الخفيف الذي تحدثه حركة المركب، وكان الساحل بعيدًا تقريبًا، وأضواء الفنادق على الساحل تبدو مثل نجوم على الأفق. كانت تلك الأمسية بداية لحياة جديدة لكل منّا. حياة وسط ظلام البحر وتلاطم الأمـواج.. ولم أكن أعرف أن هذا اللقاء سيكون كارثة على حبيبي آدم المطرود.

***

في ذلك المساء نفسه..وعلى مائدة العشاء انتبهت إلى أن زوجي كان متوترًا..إذ فجأة حدثني بضرورة السفر في اليوم التالي..لم أناقشه ..فوجئت..أدركت أنه ربما انتبه للخيط الروحي والنفسي من الإنجذاب الذي تشكل بيني وبين الكاتب آدم المطرود..أحسست بالخوف..لا على نفسي..وإنما عليه..لكني سرعان ما أبعدت هذه المخاوف..فنحن هنا في سفرة خاطفة قبل الذهاب إلى زيارة ابني في جنوب ألمانيا..حزنت.. لكني سيطرت على حزني..فلم أصدق أن أجد إنسانًا قريبًا إلى روحي حتى استيقظ الوحش الغيور في أعماق زوجي ليهددني..لكن زوجي ممثل بارع.. فسرعان ما أبدى كرمه المزيّف في أنه سيدعو المهندس الكاتب آدم المطرود

ليستمع إلى نصوصي..! لم أستطع أن أقول شيئًا..فكل كلمة أو حركة أو تعليق سيكشف ما في داخلي..وفعلًا بعد ساعة ونصف تقريبًا اتصل به على رقم الغرفة فالتيقنا في لوبي الفندق.

***

حين فُتح باب المصعد..وجدناه جالسًا في اللوبي..منتظرًا.. وقف في استقبالنا مُرحّبًا..ثم أشار للنادل في زاوية البهو كي يأتينا. ما أن جلسنا حتى كان النادل قُربنا.. زوجي طلب كأسًا من الويسكي بينما طلبت أنا كأسًا من عصير الجزر، أما هو فطلب قهوة اكسبريس.

كان ثمة شيء من الارتباك في بداية الجلسة.. أنا توسطت المقعد بينه وبين زوجي، فكان عطره الرجالي الزكي يصلني..ولثوان فكرت مع نفسي عن اسم هذا العطر الذي لم يكن من بين العطور التي يستخدمها زوجي..إلّا أن زوجي أعادني إلى الجلسة حينما سمعته يبادر معتذرًا وهو يقول بلطف:

- نحن نعتذر، لقد أقلقناك في هذه الساعة من الليل..!

ونظر لي بلطف لأؤكد قوله لكني سكت، فواصل كلامه متحدثًا عني بتمثيل ورقة ومرح:

- لكنها أصرّت على أن تقرأ نصوصها بنفسها، وأنا شخصيًا ضعيف أمامها، لا أستطيع أن أرفض لها طلبًا، لذا اتصلت بك.

وبينما زوجي يتحدث كنت أنا أتأمل وجهه وهيئته بارتياح..بنيته وإن كانت غير رياضية إلآ أنها تُوحي بشخصية مهيبة، كما أن ملامحه تُوحي بشخصية مهذبة ومثقفة..فجأة، رمقني بنظرة مُستفسِرة سريعة، وكأنه

يحاول أن يتأكد من صدق ما قاله زوجي..لكنه لم يطِل النظر وإنما أجاب زوجي بمودة:

- لا تعتذر يا استاذ آدم..فأنا شخصيًا كنت في شوق لقراءة نصوصها، وها هي تريد أن تقرأها بنفسها، فيا للسعادة.

شعرت بسعادة غامرة تسري في أنحاء روحي وجسدي.. كنت لا أعرف هل أنا سعيدة لرؤيته مجددًا أم أنني حقًا أريد أن يسمعني وأنا أقرأ ما كتبت..؟..لا..لا..أنا أعرف الجواب..: أنا سعيدة لأني رأيته..أنا متأكدة من نفسي..ومن مشاعري.

جاء النادل يحمل صينية فيها ما طلبنا ووضعها على الطاولة وذهب.. بعد لحظات صمت متوتر فتحت الملف الذي أمامي وأخذت بعض الأوراق...صمتّ لحظة. كانا ينتظران أن أقرأ. أخذ زوجي رشفة من الويسكي بينما ظلّ آدم المطرود صامتًا ومتأملًا ومنتظرًا عما ستكشفه نصوصي من أحلام وطريقة رؤية للعالم. كنت مرتبكة، فقلت والكلمات تكاد تختنق في حنجرتي:

- أحس بالارتباك..

ابتسم هو وقال بتعاطف وحنان:

- كلنا نرتبك حينما نقرأ نصوصنا أمام الآخرين الذين لا نضمن ردود أفعالهم إزاء ما نقرأه لهم.

نظرت إليه بمودة ..أخذت إحدى الأوراق وقرأت بصوت هادئ وحزين، كان في البداية مرتعشًا لكنه صار فيما بعد واثقًا:

نظرت إليهما مرة أخرى. لم يجبني أحد. زوجي كان قد أنهى كأسه وأشار من بعيد للنادل رافعًا كأسه بأنه يريد كأسًا أخرى. لم يستطع آدم المطرود أن يقول شيئًا ..كان وجهه يكشف عن أفكار وكلام صامت، لذا أشار إلي بأن أستمر. نظرت إليه وكأني أقول له أنا أقرأ من أجلك أنت وحدك.

قرأت مجموعة من شخبطاتي الشعرية..نظرت إليه بتساؤل ممزوج بتوسل خفي، فكأنني كنت أنتظر النطق بحكم قضائي..شخصيًا سبق لي أن قرأت نصوصي على زوجي، لكنه لم يتحمس لها قطّ.. كان يتجنب أن يفصح عن رأيه السلبي بها لذا كان يعتذر بأن هذا الأمر ليس من اختصاصه ولا يستطيع أن يقول شيئًا، لكنه يرى أنها نصوص كئيبة.

الآن أنا أنتظر أن يقول هذا الرجل الذي اختارته روحي، شيئًا. ولم يكن أمامه إلا أن يبدي رأيه، وكنت أتمنى لو أننا كنّا وحدنا..من غير وجود زوجي.. وأخيرًا نطق..كان حديثة يهطل كالمطر الناعم على روحي..لقد أدرك عُمق حزني..لكنه فجأة سألني:

– ألم تنشري من كتاباتك شيئًا.. ؟

فقلت على استحياء:

– لا..لم أنشر شيئًا .. أنا أكتب لنفسي.. لا أريد أن أنشر شيئا مما أكتب..

وهنا تدخّل زوجي آدم الولهان موجها كلامه إليه مازحًا:

– سيد آدم . الله يخليك لا تورّطنا بالنّشر..حواء تكتب لنفسها..تشعر بالحزن لأسباب كثيرة، فهي حساسة جدًا. لا تستطيع أن تتحمل الأخطاء والمآسي حولها، بينما عالمنا مليء بالأخطاء والمآسي. هذا هو سر حزنها، وسر كل هذه الكتابات.

لم أجد ما أقول..فزوجي يكذب..وهو يعرف أنني أعرف بأنه يكذب. لكن لا يعنيه رأيي في مثل هذه المواقف.. أخفضت رأسي وأخذت أنظر إلى الطاولة والنصوص التي أمامي شاردة الفكر..ولم أصدّق أذنيّ حينما سمعته يقول لزوجي:

- يسرني أن أقرأ أو أسمع لها نصوصًا أخرى..

رفعت رأسها للحظة، وكأنني أفقت من شرود ذهني، صمتّ لثوان ثم ابتسمت بحزن وقلت لا إراديًا:

- إن شاء الله، ربما في بغداد..

في تلك اللحظة راود آدم المطرود سؤال مفاجئ لم أعرف كيف فكر به فقال:

- بالمناسبة، إلى أي وقت أنتم باقون هنا..؟.

وجد زوجي السؤال فرصة للانتقال بالحديث عن شيء آخر غير الكتابة والشعر ووحشتي الروحية وخواء عالمي، فقال بمرح:

- غدا صباحًا نسافر إلى استنبول، ومنها إلى ميونخ، ومن هناك نمر بباريس، ومن باريس نعود إلى بغداد إن شاء الله. يعني خلال أسبوعين سنكون في بغـداد. وأنت، كم ستبقى هنا..؟

انتبهت إلى الكآبة التي انتابته حين عرف بمغادرتنا في اليوم التالي لكنه كتم ما في نفسه، فقال بهدوء:

- غـدًا سيبدأ المؤتمـر، وسيستمر ليومين، ربما سأبقى لبضعة أيام أخرى بعدها.. سأحاول السفر إلى استنبول لأبقى فيها بضعة أيام ثم أعود إلى بغداد..

فقال زوجي بمرح:

- سنلتقي في بغداد إذن، لأننا ربما لن نلتقي في استنبول حيث سنبقى يومين فقط، بعدها سنطير إلى جنيف.

تمنّى لنا سفرة سعيدة، بعد أن استعلم عن عنوان مكتب زوجي وعنوان البيت في بغداد..أنا كنت في عالم بعيد..فقد فوجئت من تسارع الأحداث وقرب النهاية. داهمني حزن شديد، بينما وقف هو مودّعًا. مضى نحو النادل وتحدث معه ثم وقع على قائمة المشروبات التي وضعها على حساب غرفته.

7

التقيت ابني بعد مغادرتنا استنبول إلى ميونخ..أخذته معي في رحلة إلى باريس برغم عدم رضا زوجي غير المعلن..لاسيّما وأن ابني صار في الثالثة عشرة من عمره..لكني انتبهت إلى تغييرات طرأت على ملامحه وعلى سلوكه..لا أعرف كيف أحدّد التغيير الذي طرأ على ملامحه..أحسست أن أنفه قد صار أكبر، كما خيّل إلي بأن استدارة وجهه قد تغيرت..!! كما صار أكثر ميلًا إلى الصمت..وأكثر حساسية ونفورًا من زوجي..بل انتبهت إلى أنه صار أقل تعلقًا بي..وصار في علاقته معي باردًا..وكأنه يكتم بركانًا تحت كثبان الثلج..حتى راودتني لحظات كالبرق بأنه صار يكرهني..استغربت لذلك ..لكني فسّرت ذلك بتحول العمر البيولوجي ودخوله فترة المراهقة..!

حين كنت انتظره عند باب المدرسة الداخلية كان زوجي آدم الولهان ينتظر عند السيارة التي استأجرناها لتنقلاتنا في أوروبا..وكنت مرتاحة لهذا القرار الذي بدا مريحًا لكلينا..فهو لا يتحمل لحظات انفجار محبتي الأمومية نحو ابني..غيرةً منه ومن والده المتوفي الذي كان صديقه..وأيضًا كان مريحًا لي ذلك لأني بحضورهِ أكبّت دفق مشاعري احترامًا له وخوفًا على ابني من غيرته..! أية أمومة هذه..وأي زواج مرعب..!!؟؟

طوال فترة بقائي معه لأكثر من شهر ما أُتيح لي تبادل الحديث معه إلا بعض كلمات..! كان صامتًا..وكأنه كان يريد تعذيبي بصمته..! كان يعاقبني لا أعرف عن أي شيء بالضبط..! لكني لم انتبه لذلك أو أتأثر كما يجب، لأني كنت حينها تحت سحر لقائي بحبيبي آدم المطرود..!..وكنت استعجل

العودة إلى بغداد لألتقيه..لكن كيف..؟ هو لم يترك عنوانه لدى زوجي وإنما أخذ عنوان زوجي..أي سأكون بإنتظار أن يبادر هو..ومهما يكُن فأن وجودي في بغداد يحسسني بقربه مني..!

***

ذات نهار بغدادي..وبعد عودتنا من أوروبا والتي امتدت لأسابيع..؛ اتصل زوجي من المكتب وأخبرني بأن المهندس الكاتب آدم المطرود الذي التقيناه في تركيا قد زاره في المكتب، وقد دعاه إلى العشاء في السابعة..كما دعا صديقنا اللبناني الفرنسي آدم السمعان أيضاً..!!.

ما أن قال لي زوجي ذلك حتى انقلب حالي..لم أكن على طبيعتي... كنت مثل سمكة في حوض زجاجي تحلم بالبحر الكبير..تسعى بهمة إلى البحر فيصطدم أنفها بالجدار الزجاجي للحوض..!

قضيت ساعات في غرفة نومي أمام خزانة الملابس..أخرجت معظم ثيابي..كنت في حالة انفعالية مثل مراهقة..أو فتاة تنتظر خطيبها القادم لخطبتها.. كان القلق البهيج داخلي يتصاعد..انتبهت لنفسي..طالبت نفسي بالهدوء..والرزانة..! ولكي لا أكشف عن حالتي وابتهاجي وقلقي أمام مساعدة المنزل التي تقدم لزوجي تقريرًا يوميًا..فأني بقيت في غرفتي متهيّئة حلول الساعة الثامنة..على الرغم من أن زوجي قال في البداية بأننا سنلتقي الساعة السابعة لكنه اتصل وأخبرني بـأن الموعد تأجّل إلى الثامنة مساءً. وهكذا..كنت لا أخرج من غرفتي إلّا لإلقاء نظرة على التحضيرات في المطبخ..لأعود إلى غرفتي مرة أخرى ألهي نفسي بالقراءة أو التيه في ذكرياتي..أو مواجهة مشاعري المتدفقة والمتهيجة كأني مراهقة..حتى أني

انتبهت إلى أني لأول مرة أعرف مثل هذه المشاعر إزاء رجل ما..أهذا هو الحب..!؟.

***

كنت على الصوفا التي تحتل جانبًا من غرفة نومنا الواسعة كصالون.. كنت أقرأ في كتاب مختارات من الشعر الإسباني..سمعت جرس الباب الخارجي..نظرت إلى الساعة المنضدية فعرفت أنها السابعة مساء..لم أشغل نفسي..فمساعدتي في إدارة المنزل موجودة..وربما هي طلبت شيئًا من حارس البناية لشرائه من الدكاكين القريبة وحمله لها..لم أفكر كثيرًا في الأمر..!..ولم أتوقع أن يكون حبيبي آدم المطرود هو الطارق.

بعد لحظات..طرقت المساعدة عليّ باب غرفتي وأخبرتني بأن رجلًا ما من أصدقائنا جاء وينتظر في الصالون..!!. لحظتها انخطف قلبي.. وأحسست بشكل غامض أنه هو..!!.

تأخرت في غرفتي..ارتديت أفضل فساتيني..رتبت نفسي..رششت عطرًا زكيًا خفيفًا..وخرجت إليه..!. نظر كلٌ منّا إلى الآخر بلهفة..كنت مرتبكة..لكن ما أن اقتربنا من بعض حتى رمقني بنظرة شوق وعشق بثت الخدر المغناطيسي في نفسي، فزال عني كل شعور بالارتباك. أردنا من لهفتنا لبعضنا أن نحضن بعضنا..لكننا ترددنا رهبة من بعضنا وخوفًا من عين مساعدة المنزل..فصافحنا بعضنا بحرارة ولهفة كانت تشع من كياننا.. اقترب مني جدًا بحيث لم يفصل بين وجهينا وجسدينا إلا باقة الورد..!!.. نظرتُ إليه بشوق وأخذت باقة الورد وقلت بحرارة ودفء وتلقائية:

– يا لها من باقة جميلة، يا لتنوع الألوان، شكرًا جزيلًا..

كان يشع من عينيه حنان مخدر..عذب..ساحر..ولكي أخفف من فضح تأثّري بسحر وجوده.. أخذت أتلفتُ مفتشة في أرجاء الصالة عن مكان لأضع فيه باقة الورد، فوجدت طاولة جانبية فاتجهت إليها ووضعت باقة الورد فيها، فبدت وكأنها لوحة فنية في إناء كريستالي هناك، ثم توجهت إليه وجلست على مقعد وثير بالقرب منه. نظرت إليه بحنان وقلت دون إرادة مني:

- اعذرني لأني تأخرت في استقبالك، زوجي سيتأخر ساعة أخرى، وظننت أنه أخبرك، وأنك ستأتي في الثامنة أيضًا. الحمد لله أنك جئت مبكرًا..

تأملت وجهه القريب ..كان وجهه دقيق الملامح..فيه لمسة أنثوية ممزوجة بملامح رجولية مثيرة..امتد بيننا صمت صاخب للحظات..ثم قال بلباقة أصيلة وبتواضع من غير تكلّف..وبجرأة مبهرة:

- لقد كنت أعد الأيام منتظرًا عودتكم..

ارتبكت..كان التوجس والريبة من سماع مساعدة المنزل لهذه الجملة أكثر من فضولي لسماع المزيد من الإفصاح فقلت بمودة صادقة:

- لم أصدق أذني حينما قال لي آدم إنك مررت عليه في مكتبه بالشركة وإنه دعاك إلى العشاء.

- وأنا أيضًا..

حينها دخلت المرأة وهي تحمل صينية فيها كأس من الماء..تقدمت منه..انحنت لتقدمه، فأخذ الكأس، وما أن انتهى من شرب الماء حتى بادرته:

- هنيئا.. ماذا تشرب.. عصير فواكه، شاي ، قهوة..؟

- شكرا . لا أريد شيئًا.. فأنا غير مصدق لوجودي هنا في بيتكم..

انتبهت إلى أن مساعدة المنزل رمقته بنظرة مستفسرة وخاصة..وارتسمت على وجهها ابتسامة غامضة..دون أن ينتبه هو لها..!

- لا..لا.. يجب أن تشرب شيئًا لأن العشاء سيتأخر قليلًا..

- طيب.. فنجان قهوة.. إذا أمكن.. وسط..

- طبعًا..

التفتت إلى مساعدة المنزل التي كانت تنتظر وقلت لها:

- اثنان قهوة وسط..

غادرت المرأة..كنا كلانا لا نعرف كيف نبدأ الحديث..وبما أنه في بيتي وضيفي لذا أردت أن أبدّد الارتباك الذي هيمن علينا فسألته عن أموره الشخصية..متى رجع..وكيف كان المؤتمر..إلى أن سألته:

- كيف هي الكتابة معك..؟

ارتبك للحظات..ثم قال بعد لحظات وفي صوته نبرة خيبة أمل مكتومة:

- لم أكتب شيئًا منذ مدة طويلة، فقد انشغلت بالمؤتمر لأكثر من أسبوع ، ومذ عودتي وأنا أحاول أن أواصل روايتي لكن بلا فائدة..أحس بالتشتت.

كنت أستمع إليه بانتباه شديد..شعرت بخيبة لا أعرف مصدرها لذا سألته:

- التشتت..؟ هذا الشعور يمكن تحمله وفهمه..بينما أنا أحس بشعور أكثر إيلامًا ..أحس بأنني في متاهة كبيرة لا منفذ لها أبدًا..

نظر إليّ متسائلًا وقال وكأنه لم يفهمني..

- تعيشين وسط كل هذا العز والأبّهة والهيلمان وتشعرين بأنك في متاهة لا منفذ لها..؟ لو يسمعك عامة الناس لقالوا إن هذا بطر، بطر حقيقي..!.

فقلت بحزن:

– أعرف.. هذه المرأة التي تعمل عندنا في البيت قالت لي مرة كلامًا مشابهًا تقريبًا في المضمون، لكنها فسّرت الأمر بأن سبب ذلك كوننا أنا وآدم لا أطفال لدينا، وهي لا تدري بأن عزائي أحيانًا هو أننا بلا أطفال..

فتمتم بهدوء قائلًا:

– ربما هي مُحقّة..!.

كان سوء الفهم يشكل السمة البارزة في علاقتي بالأشياء وبمحيطي.. ربما لأني صامتة ولا أتحدث كثيرًا للتعبير عن نفسي أو لتبرير سلوكي أو تبيان موقفي بالتفصيل من الأشياء..! لذا نظرت إليه بعتاب وقلت:

– حتى أنت..؟

أحس هو بالحرج، فأراد توضيح وجهة نظره، فقال:

– أسمحي لي إذا ما قلت إنك ربما لا تدركين جيدًا كيف يعيش عامة الناس العراقيين..!.

نظرت إليه بتعاطف وقلت له بنبرة مشوبة بالحزن:

– أستاذ آدم..هل تعتقد إنني ولدتُ وفي فمي ملعقة من الذهب..أنا أنتمي لعائلة متوسطة الحال، أقرب إلى الفقر.. والدي كان مدرّسًا للغة العربية، وكنت وحيدته، حينما وصلت المرحلة المتوسطة ماتت أمي، فكرّس أبي حياته لي. لم يتزوج، بل ظلّ معتكفاً على نفسه وكتبه وذكرياته الجميلة مع أمي. عاش إلى أن دخلت الجامعة ودرست اللغة الألمانية والأسبانية، وكنت في السنة الأخيرة من الجامعة حينما رحل هو أيضًا عن عالمنا هذا..ربما تستغرب ما قلته لك..أبي علمني التفكير..لكن التفكير يولد الحزن..

ثم حدثته عن موت أبي..وعن كتاب „المواقف والمخاطبات” الذي كان مفتوحًا على صفحتين تتضمنان موقفين من المواقف..وكنت قد حفظت نصهما فقرأتهما له..ارتسمت ابتسامة حزينة على وجهه وقال:

– الآن فهمت لماذا أنت حزينة رغم أنك وسط كل هذا الترف المادي..

– ألم تقرأ لأحد الشعراء القُدامى حين يقول: ذو العقل يشقى في النعيم بعقله..

– بلى.. بعض الفلاسفة يتحدثون عن الوعي الشقي..

– صحيح.. بالمناسبة.. أبي أراد أن يدون طفولته وحياته السياسية والفكرية بشكل روائي فكتب رواية..لكنها ظلت ناقصة...

– هل هي موجودة لديك..

– نعم..وفكرت في أن استكملها لكن هذا مستحيل، لأنها تتوقف عند أحداث هو وحده يعرف تفاصيلها..وبذلك لا أكون أمينة له..

– هل يمكنني أن أقرأها..

– ممكن.. لكن خطه غير مقروء تمامًا..

في هذه اللحظة بالذات..فُتح الباب..فاجأنا زوجي آدم الولهان بدخوله إلى الصالة..لحظتها كنت على يقين بأنه كان واقفًا خلف الباب من الخارج يتنصت لحديثنا.. نهض المهندس آدم المطرود مرحّبًا ومرتبكًا أيضًا، فتقدم زوجي بمرح أعرف أنه مصطنع مصافحًا ومعتذرًا:

– أهلا وسهلا أستاذ آدم، أنا آسف حقًا لعدم تمكني من أن أخبرك بتأجيل العشاء إلى الثامنة..ولم أتمكن من الاتصال بك..أعذرني.

فارتبك هو وقال:

- صحيح، أنا لم أعطك حينها رقم تليفون المكتب، مكتبي في الحارثية، بالقرب من ساحة النسور، مقابل بوابة معرض بغداد الدولي..

وأخرج من جيبه بطاقة تعريفية له وفيها عنوان المكتب وأرقام التليفونات فأخذ زوجي البطاقة ووضعها في جيب سترته الأعلى، وقال له:

- أرجو أن تكونوا قد استمتعتم بالنقاش، فقد كان حضورك أجمل مفاجأة بالنسبة لحواء..

فقال هو بمودة وحرارة:

- لا.. أنا اكتشفت في السيدة حواء، ليس الشاعرة فقط وإنما الفيلسوفة أيضًا..

ارتبكت وقلت:

- شكرًا جزيلًا ، أنا لا استحق هذا الإطّراء.. ربما كان أبي هو الفيلسوف..

فعلّق زوجي بمرح وبخبث خفي:

- أوه.. لقد تحدثتم عن الوالد رحمه الله. يبدو أنني قاطعتكم..

- لقد جئت في السابعة، وأخبرَتني السيدة حواء بتأجيل الموعد إلى الثامنة، فأخذنا نقطع الوقت بالحديث..

فعلق زوجي مرددًا حكمة شائعة ومبتذلة من كثرة استخدامها قائلًا:

- الوقت كالسيف إذا لم تقطعه يقطعك..

طبعًا..أنا أعرف الغيرة الخفية التي تكمن في أعمق أعماق زوجي من كل ما يثير إعجابي، لذلك حاولت أن أدير الحديث نحو اتجاه آخر فسألته:

- لكن أين ضيفنا الآخر..؟

نظر زوجي إلى ساعته التي كانت تشير إلى دقائق قبل الثامنة وقال:

- أنت تعرفين آدم الشماس، ليس من عادته أن يكون دقيقًا في المواعيد..

ثم التفت إلى آدم المطرود قائلًا:

- آدم جورج الشمّاس صديقنا، لبناني - فرنسي، تعرفنا عليه في باريس قبل سنتين، شخص غريب الأطوار، يعيش متنقلًا بين البلدان الأوربية، إنه مزيج ما بين الفنان والتاجر، لكنه لا هو بالفنان ولا بالتاجر، إنه يتاجر بالفن ويتفنن بالتجارة.. إنه صديقنا..

فعلقت موضحة بمرح:

- إنه صديقك أنت.. فهو بالنسبة لي إنسان متعب..!.

في هذه اللحظة بالذات رن جرس الباب، نظر زوجي إلى ساعته اليدوية فرأى أنها تشير إلى الثامنة بالضبط فعلق مبتسمًا:

- لا أعتقد أنه هو.. فهو يتأخر عشر دقائق دائمًا عن أي موعد مهما كان مهمًا..حتى لو كان يقف عند الباب في الوقت المحدد فيظل يتمشى عند الباب لعشر دقائق ثم يطرق الباب..

فتح زوجي الباب بنفسه فدخل ضيفنا الآخر..وهو رجل قد تجاوز الخمسين من العمر، أبيض الشعر، حيوي، قلق النظرات. وسيم المظهر. فاستقبله زوجي ضاحكًا وهو يقول له:

- الشمّاس..مش معقول.. ها أنت تصل في الموعد المحدّد بالضبط.. ما الذي جرى..؟

ودون أن يجيب تقدّم الرجل ضيفنا نحو المهندس آدم المطرود ونحوي.. قبّل يدي بصورة احتفالية بحيث ارتبكت لاسيّما أمام آدم المطرود، ثم التفت نحو ضيفي مادًّا كفه للمصافحة:

- إذن، أنت المهندس الأديب الذي اقتحم عالم آدم الولهان وزوجته الساحرة حواء الصايغ.. أنا آدم جورج الشماس.

- أهلا وسهلا .. أنا المهندس آدم المطرود..

مدّ آدم المطرود كفه مصافحًا أيضًا دون أن يبدي عليه أي أثر لرد الفعل على طريقة آدم الشماس الاحتفالية..وفي تلك اللحظة ألقى آدم المطرود نظرة خاطفة إليّ فالتقتْ نظراتنا وابتسم كل منّا للآخر بلطف.. زوجي انتبه لذلك..! شعرت برعب حقيقي..!

جلسنا جميعًا على المقاعد الوثيرة في الصالة، وقبل أن يبدأ أحد بالحديث بادر آدم الشماس مخاطبًا آدم المطرود قائلًا:

- حينما سألت آدم وحواء عندما وصلا باريس عن أهم الأشياء التي شاهداها أو تعرفا عليها في سفرتهما، أجابني كل منهما بأن تعرفهما على المهندس والكاتب آدم المطرود كان من أبرز تلك الأشياء..

ارتبك آدم المطرود لثوان..ارتبكت أيضًا، لاسيما زوجي الذي كان يركز نظراته عليّ..فقال آدم المطرود مرتبكًا .. وبخجل واضح:

- هذا من فيض لطفهما لا أكثر، وشعور جميل أبادلهما أنا فيه أيضًا.

كان آدم الشماس جريئًا، مقتحمًا بكلامه، لا يعير اهتمامًا للشكليات، فاستمر في حديثه:

– حديثهما عنك، وبالتحديد المدام حواء أثار اهتمامي، فوددتُ أن أراك، فأنا عشت معظم حياتي في أوروبا، حتى لبنان بلدي الذي أحبه جدًا نادرًا ما كنتُ فيه، وما أثارني حقًا أن مدام حواء الصايغ تحدثت عن مسيو آدم المطرود حديثًا مليئًا بالتبجيل، وأنا أعرف مدام حواء الصايغ جيدًا؛ فهي دقيقة جدًا في استخدام المفردات، بل وهي بخيلة في الإطراء والمديح، لاسيما للرجل الشرقي..وبالتالي انتابني الفضول في أن أتعرف على الشخص الذي تمتدحه مدام حواء..

لم أود أن يطول الحديث في هذا الأمر..فأنا أعرف فضول الشماس ومراميه المستفزة أحيانًا..لذا لم أود الاسترسال في هذا الموضوع، الذي يثير مكامن الغيرة في أعماق زوجي، إلاّ أن آدم المطرود أدار الحوار بشكل آخر، وبطريقة لم أتوقعها، حينما سأل بهدوء:

– عفوًا أستاذ آدم جورج..لا أفهم ما المقصود بالرجل الشرقي..؟ فهي كلمة واسعة جدًا..الصيني والفيتنامي، والهندي، والإيراني، والتركي والكردي والعربي كلهم شرقيون. والشرق يعني التوراة والإنجيل والقرآن..والأنبياء كلهم شرقيون..والأديان كلها شرقية..فإنْ كنت أنا سليل كل هذا التاريخ، فأنا أفتخر.. وأتعجب كيف أن السيدة حواء الصايغ تنتقد الإنسان الشرقي..!..

بهت آدم الشماس من إجابته فقال معلقًا على سؤاله، مبديًا أيضا عدم رغبته الواضحة في مواصلة الحديث، وكأن سؤال آدم المطرود كان بمثابة هزيمة له، ففقد شيئًا من حيويته ومرحه الذي رافقه عند الدخول، مستدركًا بنبرة فيها مزاح وتراجع:

- لا.. لا.. يبدو أن عليّ أن أكون دقيقًا في انتقاء كلماتي عند الحديث معك، ومع ذلك أعتقد أن الحديث معك سيكون ممتعًا.

زوجي يعرف حالة صديقه آدم جورج الشماس، فهو دائمًا يسعى لإثارة إعجابي بالنقاش المتميز والأفكار الغريبة والجريئة..لكنني حاولت أن أخفف من الأجواء التنافسية الغريبة.. فنظرت إلى آدم الشماس بمرح، لأني بغريزتي أحسست أنه لن يغفر لآدم المطرود هذا الموقف، وأنه سوف يستفزه طوال هذه الأمسية، وربما سيحقد عليه لاحقًا، ولكي أنهي هذا الجو الذي توتر للحظات، وقفت داعية الجميع إلى المائدة.

***

منذ لقائي مع حبيبي آدم المطرود..وأسميّه «حبيبي» دون أن نكون قد تبادلنا الحب بشكل مباشر بيننا أو يعبر كل منا نحو الآخر مباشرة بكلمة „ أحبك"..وإنما كنا واضحين في أن نكون ملجأ أسرار بعضنا البعض وملاذًا روحيًا...لكن كل منا كان على يقين أنه يحب الآخر بعمق وصفاء وقوة وجودية...ومنذ ليلة قراءة النصوص في الفندق بتركيا أيقنت بشكل حاسم أنه حبيبي ورجل حياتي وقدري..وصرت أخاف عليه من نفسي ومن غيرة زوجي..وصرت أخاف على اثنين فقط في حياتي..ابني وحبيبي.

ومن خوفي عليه من غيرة زوجي جعلت علاقتي به تتسم ببعض الوضوح..بمعنى ليعلم زوجي أن علاقتي به علاقة صداقة واستلطاف بحكم ميولنا الأدبية لا أكثر وليس فيها أي شيء غامض وعميق..لذا لم أتردد في أن أمنح تصرفاتي معه بعض التلقائية أمام زوجي..ولذا عندما ودعنّاه عند نهاية السهرة طلبت منه أن يمرّ صباحًا ليشرب القهوة معنا..!.

وفعلًا..لبّى هو دعوتي لمشاركتنا القهوة الصباحية..لكنه جاء بعد دقائق قليلة من انصراف زوجي إلى مكتبه..وقد ارتبك هو حينما عرف ذلك وأراد الانصراف..إلّا أني طلبت منه يجلس ليشرب معي فنجانًا من القهوة.. فقبل الدعوة مرتبكًا وسعيدًا في الوقت نفسه، وجلس بالقرب منّي في الصالة، حيث كان دورق القهوة وأكوابها موجودة في صينية فضية على إحدى الطاولات.

كان مرتبكًا..أردت أن أزيل عنه ارتباكه..كنت سعيدة بوجوده.. بوجودنا وحدنا..وفي الوقت نفسه كنت خائفة..خائفة من نفسي..ومن زوجي..ومن عين وأذن المساعدة وما ستنقله لزوجي وما تؤوله وتزيد عليه..!!..كان لدي إحساس أن عليه أن ينصرف بعد شرب القهوة بسرعة برغم رغبتي في أن يبقى معي لساعات وساعات..؛ وإلّا فربما سينتهي الأمر بكارثة، لاسيما وأنه برغم صفاء ونقاء وعمق مشاعره وصدقها لي إلّا أنه كان يشع رغبة جنسية أيضًا، وهذا ما أخافني قليلًا، لذا كان عليّ أن أدير الشراع نحو اتجاه آخر..

فحدثته كيف أن زوجي في جنيف التقى ببعض رجال الأعمال الأوربيين..وقلت: كان بينهم أحد المهندسين، فأراد زوجي أن يبين معارفه في فن العمارة، وأخذ يردد المعلومات التي سمعها منك وكأنها معارفه، ولكونه ليس صاحب المعلومات أساسًا، ولأن الهندسة وفن العمارة ليس حقله، فأنه أفسد المعلومات لأنه وضعها في غير موضعها، فحصلت بلبلة في النقاش، ولم يستطع زوجي أن يدافع عن رأيه ولا أن يواصل النقاش، مما عكر عليه مزاجه ذلك اليوم كله وظل غاضبًا من المهندس الآخر. والغريب أنه كان غاضبًا منك أيضًا، وكأنك السبب في هزيمته في النقاش،

نعم هزيمته، لأن كل شيء لديه هو معركة، أنت أسميتها ذات مرة صفقة، فهو لا بد أن يخرج منها رابحا أو منتصرا مليئا بالزهو..

حينها صمت حبيبي وارتبك وقال بهدوء وكأنه يفكر بأشياء بعيدة:

- بدأت أخاف منه.. لم انتبه لهذا الأمر فيه..

حينها لم أعر تلك الجملة اهتمامًا خاصًا..لكنه أدرك أنه وقع في كماشة رجل مخيف..! ..وفي تلك الجلسة التي امتدت لساعة تقريبًا على الرغم من إحساس كل منا بأن كل دقيقة تمتد هي خطر محدق علينا..!

***

كان زوجي يدعوه إلينا..لشرب القهوة أو العشاء معنا. لكني كنت أعرف غيرته المخيفة..إذ أحسست وكأننا بالنسبة له فأران في قفص لإجراء التجارب السلوكية عليهما ومتابعتهما لرصد تطور مشاعرهما...!..انتبهت لذلك من خلال الحديث عنه بمناسبة أو غير مناسبة..صباحًا عند الفطور أو مساءً عند العشاء..يسأل وكأن الأمر مجرد سؤال بريء.. يسألني ماذا يكتب؟..وما هو رأيي به؟..وما شابه من أسئلة..أرعبني ذلك..لاسيما وأنه أخذ يختلق المناسبات لدعوته عمدًا..فأخذت أتحجج بعدم رغبتي في أي لقاء.أو دعوة لضيوف..وألغي أي مناسبة يختلقها ليجمع بيننا..متحججة بالصداع الشديد..لكني من جهة أخرى كنت أتصل به ما استطعت إلى ذلك سبيلا. لكن لم يكن أمامي مثلًا إلّا أن أقبل مجيئة في مناسبة عيد ميلادي..!! في ذلك المساء الذي قرأ فيه قصيدة للشاعر التركي ناظم حكمت باللغة التركية ثم ترجمها إلى العربية..!.

إلى الآن أتذكر تلك الأمسية..أتذكرها بحنين وحسرة وألم مكثف برغم السنين الممتدة..لأن تلك الأمسية كانت آخر مرة أراه فيها.. بعدها لم أعرف عنه شيئًا..اختفى وكأنه لم يكن هناك شخص بهذا الاسم..وكأنه حلم أفقت منه على كوابيس حياتي...فقد اختفى حبيبي آدم المطرود كظل في الظلام..!

لكن آخر حديث معه كان ذلك بعد أمسية عيد ميلادي بيومين..أتذكر ذلك جيدًا.. اتصلت بمكان عمله في حدود الساعة الرابعة، وكان هو وحده في المكتب. أذكر بالدقّة ما دار بيننا من حوار..حيث سخرت مازحة من استعارات اللغة العربية..حينما قال لي إنه ينتظر اتصالي على أحرّ من الجمر!! فوضحت مازحة كيف أننا نستخدم هذه التعابير في عصر التكنولوجيا.. فهناك ما هو أشدّ من الجمر مثل أفران الحديد والصلب..مثلًا..بل وهناك معلومات عن درجة حرارة البراكين وما شابه بينما نحن نستخدم تعبير أشدّ من الجمر..! حينها ضحكنا..والحقيقة كان دافع اتصالي هو ترجمتي عن الإسبانية قصيدة للشاعر لوركا..وقال لي إنه كله آذان ضاغية..فسخرت مازحة مرة أخرى من هذا التعبير..وسوريالية هذه الصورة حينما يكون الجسد البشري كله في هيئة أذن كبير هائلة..!!..وعلقت على أغانينا المليئة بالسهام والرماح وكأننا في العصر الحجري..!...ثم قرأت له قصيدتي..لكنه فاجأني بدعوتي إلى اللقاء من خلال زيارته في مكتبه..!!!أذكر كل كلمة جرت بيننا في هذا اللقاء..لاسيّما بعد دعوته تلك.. وبعد أن أجبته بأن ذلك صعب..!! إذ سألني بشكل هادئ لكن بإستفزاز خفي:

- هل تخافين أن تكوني وحدك معي..؟

صمتّ لحظات ، ثم أجبت:

- نعم..

- أتخافين مني أم من نفسك..؟. سألني.

- لا أدري.. ربما منك أكثر مما أخاف من نفسي.. أجبتُ.

- مني..؟..سأل بدهشة مصطنعة لكن محببة..

- نعم.. منك.. أحس أنك تريدني.. تريد أن تمتلكني جسديًا..!. قلت بخفر.

تردد لحظات في الجواب، لكنه وعلى طريقته قال:

- ربما.. أحس أن المحب يصل غايته بالذوبان في المحبوب..

- الذوبان في المحبوب ليس بالضرورة يكون في جسد المحبوب يا سيد آدم، ولأكن صريحة معك..أنا لا أخفيك ربما لدي رغبة خفية في أعمق أعماقي نحو هذا الشيء، لكني أعتقد أن الجنس هو التعبير الأمثل عن عدم كمال الإنسان..

فأجابني بحرارة متعجبًا:

- عدم كمال الإنسان..؟ أليس الالتحام والاتحاد الجسدي هو غاية الكمال..؟

- لا..صحيح أن الجنس يعني في الظاهر بلوغ الكمال عن طريق الاتحاد، إلا أنه يعني الخروج من الذات للاتحاد بالآخر.. !..ثم بعد الإشباع يتم الانفصال ليعود الإنسان إلى ذاته، وتستمر دوامة الاتحاد والانفصال إلى ما لا نهاية، بينما الحب الحقيقي يتغلب على الانفصال، فالجنس أكبر شاهد على طبيعة الانسان الناقصة وعدم اكتماله، بينما يبقى الإنسان في اتحاد متواصل مع الآخر من خلال الارتقاء بالدافع الجنسي، من خلال الاكتمال والتماهي الروحي..

صمتَ للحظات ثم قال:

- هذه فلسفة غريبة..؟!.

- لا إنها ليست غريبة.. دافع عنها الكثير من الفلاسفة والشعراء أيضًا.. هل خاب ظنك فيّ.

فقال مرتبكًا، دون أن يستطيع إخفاء نبرة الإحباط في صوته:

- لا أبدا..لكني أختلف معك في هذه النظرة..أنا أعتقد أن الجسد الإنساني قارة للمتعة واللذة التي في حضورها يرتقي الإنسان إلى ملكوت السماء، ولم توجد أو تخلق هذه المناطق الجغرافية في الجسد البشري عبثًا، لأنه حسب رأيك مهمة الجسد تكون للتناسل فقط، أو لإشباع الغريزة فقط، أي أن العلاقة الجسدية بين الرجل والمرأة لا تحتاج إلى أية مشاعر وحب بينهما، لأنها غريزية فقط، بينما الحب شيء مختلف في رأيك..!..أليس كذلك..؟

- لا..لا أقصد هذا..أنا معك في أن تكون العلاقة الجسدية بين الرجل والمرأة قائمة على الحب، وإلا فهي حركات حيوانية مقيتة. ..ذئاب ينهش بعضها بعضًا في حالة الحب..وذئب وشاة في حالة عدم الحب والقيام بالواجب.

- هي كذلك في كل الأحوال..! قال.

لم أجبه ..امتدت بيننا لحظات صمت..ثم جاء صوته هادئًا مشبوبًا بتوتر مكتوم:

- هل لي أن أسألك سؤالًا قد يبدو محرجًا..؟

- اسأل..فما دام الجواب عبر التليفون فلا إحراج..ربما وجها لوجه سيكون ثمة إحراج.. اسأل..

– هل علاقتك بزوجك.. أقصد علاقتك الجسدية معه قائمة على الحب والمشاعر، أو أنها لإشباع الغريزة فقط..؟ ولا أضيف التناسل هنا لأنكما بدون أبناء..عذرًا لجرأتي..

صمتّ للحظات..فوجئت..ارتبكت..لكني في الوقت نفسه ارتحت.. لأن ذلك السؤال أتاح لي أن أتحدث عن معاناتي الحقيقية، فقلت:

– من الصعب الإجابة على هذا السؤال، فأنا لم أفكر فيه طويلًا..ربما علاقتي معه أخلاقية، أقصد أنني ألتزم بأخلاقيتي التي تؤكد على منح الزوج حقه في الاستمتاع الجسدي ما دامت هي جزءًا من مقومات الزواج..لكن، وربما أقول ذلك بخجل، يتم ذلك دون أية مشاعر مني، أنا جسد للمتعة، لمتعة زوجي، وأنا راضية بذلك، لكني لا أحس بأن هذه العملية ممتعة أساسًا..

– ربما لأن زوجك لم يستطع أن يفجر فيك ينابيع اللذة..؟.

– لا أعرف.. قلت بخجل.

فقال بجرأة أعجبتني:

– من هنا أجد أنك تفصلين بين الحب الجسدي والحب بمعناه العام..أو الحب الحقيقي كما تقولين، علمًا أن الحب الحقيقي هو حينما يتوحّد جسد الرجل بجسد المرأة ملفوفًا بخيوط خفيّة من مشاعر الحب، أي العودة إلى حالة الكمال حينما كانت جزءًا من جسد آدم..أي أن التحامهما هو الكمال الحقيقي..!!..ثم لماذا هذه الطهرانية..؟ هذه الطهرانية التي ربما تكشف عن جوهرها بالعجز عن اكتشاف منابع اللذة في الجسد البشري..

فقاطعته بمرح محاولة التملص والتوقف من التوغّل في المضي أكثر بوديان الرغبة الغامضة:

– ما هذا يا سيد آدم..هل تريد غوايتي..من خلال الحديث عن منابع اللذة التي أجهلها..؟

– ربما..!.قال مازحًا.

– وتقول ربما..؟..قلت مازحة أيضًا.

– نعم.. أنت فيّاضة باللذة والحنين..بينما أراك حزينة..تألّقي واحترقي بنار الحب..!.

سكتَ للحظة..لم أجد كيف أجيبه مباشرة، لكني سألته:

– ولا يكون ذلك إلا من خلال الجنس..؟.

– نعم.. قال بثقة.

– الحديث معك ممتع..وخطير أيضًا..سنتواصل أكثر..ربما ستقنعني.. وربما سأقنعك..؟

– سأقنعك.. قال مازحًا وبثقة.

– أنت واثق من نفسك كثيرًا..!!.. هل ثقتك متأتية من كثرة علاقاتك بالنساء أم من ماذا..؟

– لا.. من خلال فهمي للنفس البشرية والجسد البشري..

صمتُّ للحظة ثم قلت:

– سنتواصل أكثر..

فقال ببهدوء وبنبرة ماكرة:

– أنت تعرفين أن مثل هذا النقاش لا يمكننا أن نمضي فيه أمام السيد زوجك أو تحت مسامع مساعدتك في البيت. يمكنك أن تزوريني في

مكتبي..ويمكننا الحديث..وأعدك أن أكون عادلًا في جدل الأفكار بيننا.. إما أن أقنعك أو تقنعيني..

جرأته ودعوته الصريحة فاجئتني.. أعجبتني..وأربكتني..فقلت هاربة من الجواب:

- سنرى. عليّ الآن أن انهي الاتصال..

- متى ستتصلين.. غدًا..؟.

- ربما..!.

كانت كلمة **(ربما)** هي التي بقيت تطن في أُذني منذ سنوات**!**

بعد تلك المحادثة وبشكل غريب جاءني زوجي ليفاجئني بضرورة السفر إلى باريس..لنبقى هناك ثلاثة أسابيع غامضة وغريبة..إذ لم يكن لدى زوجي حينها أي عمل مهم هناك.. برغم الإدّعاء بأنه جاء لعمل ضروري..حتى أنه لم يدعني أن أزور ابني.!!

بعد عشر سنوات..عرفت أنه في اليوم التالي من سفرنا تم اعتقال حبيبي آدم المطرود بتهمة قتلي..ثم تحولت التهمة إلى تهمة سياسية تم إعدامه على إثرها..ودُفن في مقبرة جماعية..! ..لكني خلال سنوات طويلة لم أعرف أين اختفى..!..كيف جرى ذلك..؟ وكيف عرفت..؟ سأتحدث عنه لاحقًا..لأن الضربة القاصمة كانت بعد عام حين اختفى ابني..!.

***

أحس آدم الشبيبي بكآبة بعد أن قرأ حكاية حواء الصائغ مع حبيبها آدم المطرود..**!**وتذكر أنه قرأ رواية „ **متاهة آدم - السقوط إلى الأعلى**» لآدم

البغدادي التي تتضمن حكايته عن الكاتب آدم التائه الذي كتب رواية « **متاهة آدم – المرأة المجهولة**» عن آدم المطرود وحبيبته حواء الصايغ..بينما الآن يقرأ « **متاهة العميان**» لآدم البغدادي أيضًا والتي تتضمن في جزء منها حكاية حواء الصايغ مع حبيبها آدم المطرود..لكن من وجهة نظرها هي..! واستغرب من هذه الأمر..وفكر مع نفسه: حين كتب آدم البغدادي روايته « **متاهة آدم – السقوط إلى الأعلى**» عن الكاتب آدم التائه..وترك آدم التائه يكتب روايته « **متاهة آدم – المرأة المجهولة**» ألم يكن هو أيضًا كاتبها ..وأنه اتخذ من الكاتب آدم التائه قناعًا لسرد روايته..أي روى رواية أخرى من خلال سارد آخر..!!؟؟ فلماذا يعود الآن مرة أخرى ليكتب اعترافات حواء الصايغ من قبله هو مباشرة مدّعيًا بأن آدم التائه لم يرو الحقيقة..؟؟؟

فجأة.. انتبه آدم الشبيبي في عتمة الصالة التي ليس فيها من مصدر للنور سوى المصباح المنضدي القريب منه إلى وجود شبح يقف في المسافة الممتدة بين الصالة وغرفة نوم حواء الفارسي..اهتز من الخوف..وحينما حدّق في العتمة جيدًا..رأى المربية تقف هناك جامدة..استعدل في جلسته.. فقد ارتبك من وجودها بهذه الطريقة...تلفت ناحية آدم أبوالتنك...وفكر أنه لو استيقظ لواجه سوء فهم صديقه..وحين التفت مرة أخرى نحو المربية لم يجد أحدًا..استغرب..ثم أقنع نفسه بأن ما رآه ربما هو نتيجة لإرهاق القراءة..ومع ذلك قال لنفسه..لكني رأيتها بالفعل واقفة..!. أطفأ المصباح المنضدي قرب رأسه..فغرقت الصالة في الظلام.

المدينة واحدة والدروب كثيرة.. والطرقات مسدودة..

استيقظ آدم الشبيبي على حركة في المطبخ..وبعد تثاؤب للحظات رفع رأسه ووجه نظراته نحو المطبخ فرأى حواء الفارسي وآدم أبوالتنك واقفين وهما يعدان صينية الفطور.!.

وضعت حواء دورق الشاي والإستكانات وقندون السكر في الصينية الصغيرة..ثم وضعت بضعة أرغفة خبز بينما كان آدم أبوالتنك منشغلًا بتقشير البيض المسلوق ووضع صحن القشطة والعسل في الصينية الكبيرة أيضًا.

كان هو يراقبهما بتمعّن. أحس أن بينهما انسجامًا إنسانيًا. توهّجت في ذهنه فكرة أن يرتب زواجهما بنفسه. وشعر بدبيب الحيوية في جسده. جلس على الصوفا التي كان مستلقيًا عليها. ألقى نظرة على مخطوطة „ متاهة العميان" وتذكر اعترافات حواء الصايغ..قام عن الصوفا متجها إلى غرفة الحمام.. انتبها له..التفتا إليه..ألقى عليهما تحية الصباح وواصل طريقه إلى الحمام والمغسلة.

***

حين جلسوا معا حول مائدة الفطور تبادل آدم الشبيبي معهما النظرات.. لم يقل شيئا..كانت ملامح التفكير واضحة على وجهه.. وكانت تلك اللحظات من الصمت المشحون بالقلق كافية لتفضحه وتشي بما يفكر فيه..

أدرك بأنهما انتبها له، وأنهما لاحظا التوتر الذي يعانيه ويحاول كتمانه، فوجد نفسه يستعجل أفكاره والكلام الصامت داخله كي يخرج، لذلك قال لهما بشكل مفاجئ، وبنبرة شبه آمرة:

– أريد أنا أقول لكما شيئا..سبق لي إن قلته..أنتما..آدم وحواء..يجب أن تتزوجا بأسرع وقت..اليوم قبل الغد..! قبل سفري الفاشل الأول قلت لكما ذلك..والآن وأنا مُقبل على السفر مرة أخرى أقول لكما إنني لا أستطيع السفر ولا أن أخطو أية خطوة قبل أن أتأكد من زواجكما واستقراركما معا..!.

بهت آدم أبوالتنك عند سماع ما قاله صديقه..كانت لقمة القشطة المغمسة بالعسل في يده ليمدها إلى فمه، لكنه توقف وجمدت اللقمة في يده. جمد للحظات مبحلقًا في وجه آدم الشبيبي، بينما ارتبكت حواء الفارسي..؛ فنهضت بسرعة متجهة إلى المطبخ لتشغل نفسها هناك ولتهرب من المشاركة في النقاش.

– ماذا بك؟ هل رأيت رؤيا..؟ أم ماذا..؟ ما الذي جرى لك..وعن أي سفر تتحدث الآن..

قال آدم أبوالتنك بنبرة في تساؤل وعتاب.. نظر آدم الشبيبي إليه مركّزًا على عينيه..وقال بهدوء:

– لقد فكرت بما قلته أنت عن الخلاص من خلال هذه المرأة المغربية.. فلو عمّقت علاقتي بها فربما ستنقذني من متاهتي هذه..!..لكني لن أغادر دمشق ولن أقدم على هذه الخطوة دون أن أراكما متزوجين..فحواء بنت ممتازة وطيبة..وأنت إنسان طيب..وأنتما تحتاجان لبعضكما البعض.. لذلك لا بد أن تتزوجا..واليوم قبل الغد..بل يمكنكما الآن أن تتوجها

إلى المحكمة مع وثائقكما ..جواز السفر والإقامة..مع شاهدين أنا واحد منهما..وتتصل بالمهرّب كذلك باعتباره سوريًّا..وننهي الأمر..تتزوجا في المحاكم السورية..!..

امتد بينهما صمت مليء بالكلام..كان آدم الشبيبي ينتظر رد آدم أبوالتنك بقلق مكتوم..كان الارتباك والحيرة يشعان من عينيه ونظراته..تردد قليلًا ثم قال:

– لا أريد أن أقترف أي خطأ..وأعتقد أن الزواج من هذه البنت حواء سيكون خطأ..أنا أكاد أكون بعمر أبيها..ولا أريد أن أقضي ما تبقى لي من العمر ندمًا على خطأ فادح غير مبرر.. أنت تعرف أن الأخطاء الفادحة ثمنها عال بحجم الخطأ..

صمت آدم الشبيبي للحظات..أحس أن في كلام صديقة بعض المنطق العقلاني..لكنه كان قد صمم بأن يزوجهما حتى لو كان ذلك خطأ سيقترفه آدم أبوالتنك، وكأن هذا الزواج هو تصفية حساب مع نفسه ومشاعره..فقال محاولًا لجم ارتباك آدم أبوالتنك..ودفعه مكتوف الذراعين والعينين إلى هذا الزواج:

– برغم أن كلامك يبدو منطقيًا لمن يسمعه..لكنه في الحقيقة غير منطقي..! فما تقوله هو حكم منطقي عام لكنه لا ينطبق عليك..فليس هناك من خطأ في زواجك من حواء الفارسي ..فهي أيضًا لا أحد لديها في هذه الحياة..ولا خبرة لها..وأنها فتاة طيبة..يمكن لأي شاب أن يتلاعب بمشاعرها..فتتيه في دنياها..صحيح أنت أكبر منها في العمر.. لكن هذا الأمر سيكون في صالحها.لأنك ستحميها بخبرتك وفهمك للحياة..وعلاقتك بها ستكون علاقة هادئة..ناهيك أنك تحتاج للمسة حنان ولمسة أنثى كي ترتب لك حياتك..!..تحتاج لشيء من السعادة..

كان آدم أبوالتنك يلتقط الكلمات من فم آدم الشبيبي وكأنه يتوسله بأن يُبطل حججه ويرد عليه بحجج جديدة صارمة وقوية تحقق هذا الزواج، فقال بريبة:

- السعادة..السعادة..ليست هناك سعادة مجانية..حتى السعادة يجب أن ندفع ثمنها من حياتنا وأعصابنا وعمرنا..وأنا بصراحة تعودت على هذا الإيقاع.. أخاف أية خطوة..؛ حتى لو كانت خطوة جيدة..؛ أن تربك إيقاع حياتي..!

نظر آدم أبوالتنك متسائلًا وكأنه عرف موافقته الصامتة غير المعلنة على الزواج..فالتفت إلى جهة المطبخ فوجد أن حواء الفارسي برغم محاولتها الإيحاء بأنها منشغلة بشؤون المطبخ لكن هيئتها وميل رأسها يوحي بأنها تتنصّت للكلام الذي يدور بينهما..ابتسم مع نفسه..ثم التفت إلى صديقه قائلًا:

- ما تقوله صحيح جدًا..يعني أنت حتى لو شعرت بالسعادة لكونك تعيش وحدك فأنك تدفع ثمنها أيضًا...لكن الأمر سيكون مقبولًا والخسائر أقل وطأة على النفس حينما تشعر بأنك تمنح السعادة لشخص آخر أيضًا..

وبرغم أن آدم أبوالتنك أراد أن يحاججه، لكنه وجد نفسه لا يريد ذلك، بل وجد في نفسه رغبة في الإذعان والإستسلام الإرادي.. لذلك قال بهدوء وهو يحرك رأسه نحو المطبخ في إشارة لحواء الفارسي، وكأنه يتمتم كي لا تسمعه:

- وتلك..لا نعرف رأيها في الموضوع..!؟

نظر مركزا في عينيه وقال له بنبرة تشي بتواطؤ بينهما:

- اترك الأمر لي..أنا سأفاتحها..وأقنعها..ولا أعتقد أنها سترفض.. فمعك ستشعر بالأمان..المهم ..هل أنت جاهز..

صمت آدم أبوالتنك للحظات وقال بهدوء وعلى وجهه ملامح جدية وكأنه يخوض نزالًا حربيًا.

- أنا جاهز..

- إذن حضّر جواز سفرك وإقامتك وصورًا شخصية قد تحتاجها في المحكمة..وسأحدثها الآن..

ثم التفت إلى حواء الفارسي التي كانت وكأنها تنتظر النداء، فناداها برقة لكن بحزم:

- حواء..أيمكن أن تتفضلي إلى هنا قليلًا..

ارتبكت حواء الفارسي، فقد كانت تعرف بأنه سيفاتحها بما دار بينه وبين آدم أبوالتنك، ولا تدري لِمَ خطر في بالها وهي تخطو تلك المسافة القلقلة بين المطبخ والصالة بأن عليها أن تعاقبه لإهماله لها..ولامبالاته لمشاعرها وكيانها..

جلست مرتبكة من الموقف ومن الحديث المنتظر، لاسيما وآدم ابوالتنك جالس أيضًا. إلّا أن آدم الشبيبي لم ينتبه للوضع النفسي الذي وجد الآخرين نفسيهما فيه، وإنما كان محمومًا بفكرته وقرار بتزويجهما والذي بدأ ، فسألها مباشرة دون مقدمات:

- أعتقد ياحواء أنك قد سمعت حوارنا..وما اقترحته أنا على أخينا الكبير آدم أبوالتنك..سبق لي وأن اقترحت ذلك قبل محاولتي الفاشلة التي تعرفان تفاصيلها..لكن فشل محاولتي وما رافقها من ملابسات حول وضع الطفل هابيل عقد الأمر وربما أجلّه..لكنني الآن نويت الهجرة بطريقة أخرى..ولن أقوم بذلك قبل أن أحقق ما طلبته منكما سابقًا..و..

وقبل أن يواصل حديثه قاطعته قائلة بحزم وبنبرة في غضب مكتوم:

- أنا موافقة..

صُدم آدم الشبيبي من جوابها القاطع وموافقتها السريعة حتى قبل أن يفاتحها ويطلب رأيها، وأحس بغضب داخلي لموافقتها السريعة بهذا الشكل..أحس بأنها تهينه بموافقتها السريعة هكذا لأنها لم تحترم مشاعره التي يكنّها لها..فعلى الأقل كان يمكنها أن تبدي ارباكًا وخجلًا ..وممانعة شكلية..لكنها ها هي توافق وبشكل حازم وكأنها ألغته من حياتها..!.

غمرت آدم أبوالتنك أمواج متدفقة من الفرح الداخلي، لا لأن حواء الفارسي وافقت على الزواج منه، بل لأنها ألغت آدم الشبيبي من حياتها بكلمة واحدة.

ارتبك آدم الشبيبي..هيمن صمت ثقيل للحظات..لم يبد على آدم الشبيبي أية ملامح أو تباشير فرح على وجهه، وإنما قال بجدية وبارتباك واستسلام:

- إذن..على بركة الله..جهزّا الجوازات..وإذا كانت لديكما صور شخصية فسيكون أفضل..وإلّا ستضطران إلى التصوير قرب المحكمة.. وخير البر عاجله..لنذهب الآن وننه الموضوع..!

أخذ الثلاثة ينظرون لبعضهما البعض دونما أي كلام..فجأة..نهضت حواء الفارسي وهي تحمل صينية الفطور..واتجهت إلى المطبخ ناهية الحوار في هذا الموضوع بشكل نهائي، وبعد لحظات توجهت إلى غرفتها.. بينما كان الآدمان يتابعان حركتها بصمت مستفسرين عن رد فعلها وموافقتها السريعة..وحين دخلت غرفتها سأل آدم أبوالتنك صديقه بارتباك حقيقي:

- هل فهمت شيئًا..؟ هل هي وافقت فعلًا..؟

- طبعا وافقت..ألم تسمعها حين قالت إنها موافقة..

- وماذا عن الزفاف..والتحضيرات..وإعداد غرفة نوم لائقة..و.

فقاطعه آدم الشبيبي بنبرة فيها شيء من الغضب المكتوم أكثر مما فيها من فرح أو رضى:

- هذه أشياء شكلية..يمكنكما أن تقوما بذلك شيئًا فشيئًا وحسب طاقتكما..!

- وماذا عن أمها..؟

- هي إنسانة بالغة ..وتملك أهليتها القانونية..يمكنكما أن تخبراها في ما بعد..ولا أعتقد أنها ستعترض..كل أم تريد لابنتها أن تستقر في كنف رجل..

كان آدم أبوالتنك مرتبكًا مثل طفل..وكان يسأل بعض الأسئلة التي هو عادة يجيب الآخرين عنها..كان في حالة ارتباك طفولي واضح.

***

لم يتوقع أي منهم أن يتم الزواج بهذه الطريقة السلسة. فقد اتصل آدم أبوالتنك بصديق له، يعرفه منذ سنوات، ويعمل محاميًا يعرفه منذ سنوات.. وقد قابلهما في المحكمة..وبطريقته الخاصة استطاع أن يختصر الكثير من الإجراءات..فقد دفع بعض النقود للموظف الذي يحدد مواعيد عقد القرآن بحيث صار الموعد في اليوم نفسه..كما دفع من أجل أن لا يطلبوا منه ورقة المركز الصحي..ووجد له شاهدًا ثانيًا كان متواجدًا عند باب المحكمة ليقوم بدور الشاهد لكل خطيبين يريدان عقد قرانهما مقابل مكافأة نقدية..!!.

لكن ما أن خرجوا من بناية المحكمة حتى وجدوا أنفسهم في وضع مختلف جدًا..! لم يكن أحد منهم يصدق بأن دخول غرفة القاضي والخروج

منها يمكن أن يُحدث هذا الإنقلاب في طبيعة العلاقات بينهم..!.. مجرد توقيع على ورقة..؛ ورقة واحدة..؛ حددت مصير هؤلاء الأصدقاء المقربين الذين شدّتهم المشاعر والأفكار والأحداث والذكريات..!..كل منهم في أعماقه واجه هذه الحقيقة..إنه عالم من ورق. ورقة وتوقيع ربطت مصير حواء الفارسي بآدم أبوالتنك..! ورقة حددت شكلًا خفيًا من أشكال الملكية المعنوية والمادية بينهما..هكذا فكر آدم الشبيبي وهو يرى أن حواء الفارسي أخذت تنظر لآدم أبوالتنك باستحياء وخفر.

كانوا مرتبكين..لكن آدم الشبيبي كان أكثرهم ارتباكًا..بيد أنه بالغ في إبداء فرحه وبهجته بهذا الزواج كي لا يبدو على ملامحه أو تصرفاته ما يشي بارتباكه.

في تلك اللحظات فكّر آدم الشبيبي سريعًا جدًا بأن عليه أن يقيم لهما احتفالًا بهذه المناسبة.. وفي الوقت نفسه فكّر بأن مقامه عندهم صار صعبًا..وعليه أن يبحث عن مسكن جديد..فربما سيرجع للفندق الذي كان يقيم فيه سابقًا في منطقة جرمانا.. ولا إراديًا قال لهما بأن الاحتفال بهذه المناسبة صار لازمًا، لكنه صمت فجأة ولم يواصل لأنه تذكّر بأنه لا مال فائضًا لديه كي ينفقه.

انتبه آدم أبوالتنك لتدفقه اللغوي الذي انقطع مباشرة وأدرك الحرج الذي فيه صديقه فتدارك الموقف وقال بنبرة فيها مرح مفاجئ:

– سنحتفل..سأدعوكم اليوم إلى مطعم راقٍ..ثم ..

فقاطعه آدم الشبيبي بنبرة هادئة:

- أعتقد أنه لا داعي للانفاق والتبذير.أنتما الآن تحتاجان لكل ليرة من أجل تجديد الأثاث وغير ذلك..كما أن علي الآن أن أبحث عن مسكنٍ لي.. ربما سأرجع إلى الفندق نفسه في جرمانا..

- ماذا تقول..؟

أحسّت حواء الفارسي بوخزة وانقباض في صدرها. أرادت أن تقول شيئا لكنها وجدت نفسها عاجزة..، كما أحس آدم أبوالتنك بخجل غامض لا يعرف سره..كلاهما عجزا للحظات أن يقول شيئًا..وفي تلك اللحظة قال آدم الشبيبي:

- سأذهب أنا الآن إلى الفندق...سأحجز غرفة فيه مما تبقى لي من المال..وسنلتقي بعد ساعة في مقهى الروضة..

بهتا كلاهما من تحول آدم الشبيبي في علاقته بهما..وفي تلك اللحظة فكّر آدم أبوالتنك مع نفسه سائلًا إياها: أليس هو الذي أصرّ على زواجنا.. وأقنعنا به..ودفعنا إليه دفعًا..فلماذا يتصرف هكذا..؟ ما الذي سيتغير..!! ليس هناك سوى الانتقال من النوم في الصالة إلى النوم في الغرفة الكبيرة التي كانت غرفة نومي أصلًا..!!؟..ثم من أين له المال كي يستأجر غرفة في فندق..كل ما لديه هو من مساعدتنا له خلال محاولته الفاشلة للهجرة..!.

حواء الفارسي كانت في حالة من التيه ..فقد غمرتها حالة نفسية جديدة كونها انتقلت إلى مرحلة جديدة في حياتها..فهي الآن متزوجة..وفي الوقت نفسه تحس أنها غير فرحانة بمثل هذا الزواج..شعرت وكأنها تؤدي خدمة طيبة لصديقين عزيزين على نفسها..تحب أحدهما الذي هو ليس زوجها..!.

وفي غمرة تلك المشاعر ولحظات الصمت الكليم الذي تجاوز الزمان والمكان انتبها إلى آدم الشبيبي الذي أوقف سيارة تاكسي ودخلها بسرعة وكأنه يهرب من مكان خطر..التفت إليهما قائلًا وهو يجلس في مقدمة سيارة التاكسي:

– سألتقيكما بعد ساعة في مقهى الروضة.

انطلقت سيارة التاكسي..بقيّ آدم أبوالتنك وزوجته حواء الفارسي ينظران إلى السيارة التي بدأت تبتعدا وتختفي من مدى البصر..وكأنهما كانا يداريان حرجهما الذي وجدا نفسيهما فيه حيث عليهما أن يتصرفا كزوج وزوجة..!.

***

حين وصل آدم الشبيبي إلى فندقه السابق في منطقة جرمانا لم يجد غرفة شاغرة..كان في حيرة من أمره..وسأل نفسه: إلى أين أذهب..؟..ولم يكن أمامه إلّا أن يتوجه إلى آدم أبوالتنك، العارف بأحوال دمشق وفنادقها الرخيصة بحكم السنين الطوال التي عاشها في هذه المدينة العريقة..فتوجه لا إراديًا إلى مقهى الروضة حيث موعده مع آدم أبوالتنك وزوجته حواء الفارسي..!

***

مرت أكثر من ساعة وآدم الشبيبي ينتظر وحده في مقهى الروضة. كان يظن أنه سيلتقي آدم أبوالتنك وحواء الفارسي وهما بانتظاره..هذا الوقت الذي قضاه في المقهى وحيدًا أشعره بأنه كائن أعزل.. عاجز..ووحيد.

كان الندم ينهشه..أخذ يؤنب نفسه لأنه هو الذي قاد نفسه إلى هذا الوضع الذي هو فيه..فقد كان يعيش تحت سقف آمن..يأكل ويشرب دون أن يدفع

شيئًا..وكان آدم أبوالتنك بكل غرابة تصرفاته يحترمه، وكذا حواء الفارسي فقد كانت تهابه وفي الوقت نفسه تكن له مودة تفيض من نظراتها..، بينما هو تهور بالضغط عليهما كي يتزوجا!!.. وها هو يجلس وحيدًا معزولًا..لا يدري إلى أين يذهب..!.

- مرحبا..!

فزّ آدم الشبيبي على صوت نسوي أدرك من لكنته المحببة بأنه صوت المغربية - الجزائرية حواء الزياني التي كانت تقف أمامه.. وخلال ثوان مرقت في ذهنة أسئلة عديدة: من أين ظهرت وكيف؟ لِمَ لم أرها وهي داخلة بينما أنا أجلس في مكاني وعيني على الداخلين والخارجين..!

- مرحبا..وأهلًا وسهلًا بك..تفضلي.. قال لها لا إراديًا.

ابتسمت له بطيبة..وجلست على الكرسي المقابل له..وضعت حقيبتها على جانب من الطاولة..ولحظتها وصل عامل المقهى.. وقبل أن يفتح آدم الشبيبي فمه ليضيفها طلبت هي من عامل المقهى نارجيلة وقهوة تركية.

نظرت إليه بعمق فأدركت اضطرابه وتوتره. وبهدوء ولطف سألته:

- ما بك أراك متوترًا..!!؟

حاول آدم الشبيبي أن يكتم توتره فقال لها:

- لا شيء بي..كل ما هناك أنا انتظر صديقي وزوجته..لقد تزوجا اليوم.. واتفقنا على اللقاء هنا..لكنهما لم يصلا بعد ويفترض أن يكونا هنا قبلي..!

صمتت لحظة وكأنها تريد أن تفهم جوابه، فسألته:

- هل تقصد صديقك والفتاة التي كانت معه أمس..!

- نعم..هما..

- أكيد ذهبا كي يحتفلا فهذا يوم عرسهما..!

نظر إليها وكأنه فطن لكلامها توا، فقال:

- صحيح..لكني اتفقت معهما أن نلتقي هنا وذهبت إلى فندقي كي استأجر غرفة فيه..فلم أجد غرفة فارغة..صديقي يعيش منذ عقود في دمشق..وبالتالي يمكنه أن يساعدني في ايجاد مسكن لي هنا في الفنادق الرخيصة التي يعرفها..

نظرت إليه مستفسرة وقالت:

- هل تبحث عن سكن..؟

انتبه إلى سؤالها وقال بحيوية:

- نعم..ذهبت إلى الفندق الذي كنت أسكن فيه قبل انتقالي للعيش مع صديقي في بيته..تركت فندقي منذ فترة وعشت عنده في بيته..لكنه تزوج اليوم..وهذا يعني أن عليّ أن أغادر البيت..فمن الصعب أن أبقى عنده..وفي الفندق لم أجد أية غرفة..!

جاء عامل المقهى إليها بالنرجيلة..وعمرّها بالجمر المتوهج..وطوى الخرطوم باتقان وذهب..أخذت هي الخرطوم..ومدته لفمها.. وأخذت تسحب أنفاسًا قصيرة متلاحقة يرافقها توهج واتقاد للجمر فوق كأس التبغ الفخارية المغطاة بالسليفون..استغرقت للحظات منشغلة بتوهج الجمر واحتراق التبغ وسحب الدخان..ثم قالت بتعاطف:

- أليس لديك مكان تأوي إليه..؟

- لا..إلى الآن لا..سأنتظر صديقي آدم أبوالتنك فهو سيحل لي الأمر..

نظرت إليه بتمعن وكأنها تدرس شخصيته للحظات، وقالت بعفوية وهدوء:

- يمكنك أن تأتي معي..أنا وصديقتي أجرنّا بيتا صغيرًا جدًا في حارة اليهود القريبة من شارع المستقيم المقابل لباب توما.. صديقتي فتاة دنماركية من أصل عربي.. يعني دنماركية عربية ..يمكنك أن تبقى عندنا..توجد صالة صغيرة جدًا..وفيها أريكة يمكنك استخدامها كسرير..ولن يكلفك ذلك شيئًا..

لم يصدق آدم الشبيبي ما سمعه منها..وفي ثوان استوعب الموقف.. بيت صغير..فيه بوابتان للخلاص.. مغربية..ودنماركية من أصل عربي.. وكلاهما ستنقذانه من ورطته..! لكنه وجد نفسه يفكر بالدنماركية.. برغم أنه لم يرها بعد..!

أخرجه من تخيلاته السريعة صوت حواء الزياني وهي تقول بنبرة خاشعة وكأنها تحدث نفسها:

- المدينة واحدة والدروب كثيرة.. والطرقات غير يسيرة..

- ماذا تقولين..؟ ما هذا..؟

نظرت إليه وعلى وجهها ارتسمت ابتسامة حزينة وقالت:

- هذا قول لشيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي..

لم يعلق على كلامها..أراد أن يرجع بالحديث إلى مسألة السكن، فقال:

- لكن ربما صاحبتك الدنماركية لا تقبل أن أبيت عندكم بعض الوقت إلى حين ترتيب وضعي..؟

نظرت إليه وأدركت توتره والوضع الذي هو فيه..فقالت بنبرة مهدئة:

- بلى..ستوافق..إنها إنسانة طيبة جدًا..ثم هي عربية الأم والأب..مولودة في كوبنهاكن..وتتكلم العربية بطلاقة..ستأتي بعد قليل..لقد خرجتْ لشراء بعض الهدايا لأنها ستغادر بعد أسبوع....لكننا اتفقنا أن نلتقي هنا.. ستأتي بعد قليل..

ارتسمت ملامح الشرود والحيرة على وجه آدم الشبيبي..بينما انشغلت هي بسحب أنفاس عميقة من الدخان..ونفثها في الهواء..

كل منهما كما يبدو كان منشغلًا بعالمه..كان هو يفكر بلغز الحياة والأقـدار ويناقش نفسه بصوت جهوري صامت..لكنه كصوت قاض يستعرض قضية في محكمة الأعماق: لم أكن أفكر بملاقاة هذه المرأة حتى وأنا في تيه انتظاري لصديقي آدم أبوالتنك وحواء الفارسي..لكن هل هما صديقاي حقا..!!؟ أم أني وجدت عندهما ملاذًا عند الحاجة فقط..!!؟ ثم أني طوال ليلة أمس كنت أفكر بهذه المرأة الغامضة المهووسة بالسهروردي والتصوف..كنت أنظر إليها كخلاص لي لتخرجني من محنتي..كنت أعدّها مشروع حياتي اللاحقة..!!..لكن ها هي أمامي..وتدعوني بكل طيبة للسكن معها ومع صديقتها الدنماركية العربية التي لم أرها بعد..بينما أنا الآن أفكر في صديقتها..!!؟؟ أي نذل أنا..!!.

في تلك اللحظة توجهت عيناه لا إراديا نحو مدخل المقهى..ارتسمت الدهشة على ملامحة..رأى أمامه امرأة بثوب أسود صيفي طويل وهي تدخل..امرأة في منتصف الثلاثين..امرأة تخترق بؤبؤ العين متجهة إلى تلافيف الدماغ بسرعة الضوء..وهناك تنشر عطرها المثير..امرأة معتدلة

القامة..تميل إلى السمرة..بصدر بارز دون مبالغة.. وقوام مشدود..وامتلاء محبب وارتفاع خفيف ومثير فوق منطقة البطن السفلى..استطاع بلحظة أن يستوعب كل هيئتها المثيرة..وخلال تلك اللحظات برقت في ذهنه الاستعارة التراثية: مهرة أصيلة..! وخلال ثوان عرف من ملامحها الشرقية العربية وأناقتها الواضحة أنها الصديقة الدنماركية...!.

للحظة وقفت المرأة في الثوب الأسود عند مدخل المقهى واستعرضت بنظرة بونارامية جميع أنحاء المقهى إلى أن استقرت نظراتها عليه وعلى ظهر صديقتها حواء الزياني التي كانت تنفث الدخان بمتعة..فتقدمت نحو طاولتهما.

حين صارت عند الطاولة..وضعت حواء الزياني خرطوم النارجيلة على موضعه..ووقف هو من هيبة حضورها الأنثوي الطاغي لا إراديًا.. قبّلت المرأة في الثوب الأسود صديقتها..وظلت واقفة تتبادل النظرات بين صديقتها وآدم الشبيبي..ولم تترك حواء الزياني الصمت يمتد إذ قدمتها لآدم الشبيبي قائلة بلطف واحتفاء:

- هذه هي صديقتي حواء الساري..أوفيليا الدنمارك العربية....!

نظرت المرأة في الثوب الأسود إلى صديقتها بتساؤل وغرابة من هذا التقديم الإحتفائي.

- أهلًا وسهلًا..تفضلي ..

تمتم آدم الشبيبي مرتبكًا بينما توهجت نظراته بالإعجاب والفضول المشوب بالرغبة..ومدّ كفه مصافحًا وهو يقدم نفسه:

- آدم الشبيبي..عراقي..

- أهلًا بيك..تشرفنا..

استدارت المرأة في الثوب الأسود لتجلس على كرسي إلى جانب صديقتها..وخلال ذلك كان هو يستقرئ جسدها واستداراته ويتفحص مؤخرتها. ويفكر مع نفسه بأنه الآن أمام المغارة المليئة بالكنوز وعليه أن يجد الكلمة السحرية: افتح ياسمسم.. لكن صوتًا في داخله همس له بأن هذه المرأة مهيبة وليست سهلة..وعليه أن يفكر جيدًا بكيفية اقتحام عالمها..!.ليس أمامه سوى أن يستحضر كل ألاعيبه وأقنعته..فهذه هي فرصته الذهبية لكي يخرج من متاهة وجوده في دمشق..فقال بمرح مصطنع:

- يا أهلًا وسهلًا بأوفيليا الدنمارك العربية.

- أهلا بك ...وبالعراق

في تلك اللحظات استغلت المغربية حواء الزياني مشاعر الدفء الذي سرى بين الجميع، فأخذت خرطوم النارجيلة ثانية، وقالت لصديقتها بمرح:

- الأستاذ آدم الشبيبي صحفي..كنا أنا وهو نتناقش قبل مجيئك عن التصوف والسهروردي..

- تشرفنا..

- هو في دمشق منذ فترة قصيرة..والآن يمر بفترة عصيبة..كان يعيش مع صديقه الذي تزوج اليوم..وليس بمقدوره العودة الى المنزل..والحقيقة أنا دعوته ليقضي الليل عندنا على الصوفا في الصالون..

صمتت حواء الزياني بعد أن أعلنت عن وضع آدم الشبيبي..بينما ظلت حواء الساري صامتة لثوان، فهي بطبيعتها الأوربية لم تستوعب لِمَ لا يذهب

إلى فندق..!! وأيضًا لم تفهم لِمَ دعته صديقتها لكي يسكن عندهم..!! لكنها أجابت على تساؤلها بنفسها بأن الشرقيين يبقون شرقيين..!.. فابتسمت بطيبة وقالت:

- لا مشكلة أهلًا وسهلًا..

فقالت حواء الزياني بمرح وبنبرة فيها تأكيد وهي تتوجه إلى آدم الشبيبي:

- ألم أقل لك إنها ستوافق..! إنها ملاك..

تدفقت مشاعر الفرح في أعماق آدم الشبيبي وتألق وجهه وقال بارتباك وخجل:

- أنا لا أعرف كيف أشكركما..وأتمنى أن لا أكون ضيفًا ثقيلًا عليكما..

- أبدًا..سيكون شيئا ممتعًا أن نتحاور فيما بيننا..

في تلك اللحظات وصل عامل المقهى وهو يحمل صينية فيها فنجان القهوة وكأس ماء ووضعهما على الطاولة...فقال له آدم الشبيبي:

- اسأل السيدة ماذا تود أن تشرب..!

فقالت لعامل المقهى:

- إذا ممكن نارجيلة معسل التفاح..وفنجان قهوة..

- حاضر

وما أن غادر عامل المقهى حتى قالت حواء الزياني وهي تنظر إلى حواء الساري وإلى آدم الشبيبي وقالت بابتسامة حزينة:

- أنا تعبت من حوارات شيوخ التصوف والدين والدروس الدينية.. فقد خنقتني وحولت طفولتي ومراهقتي إلى كوابيس طويلة مليئة بالعقاب

والأبالسة والخوف من الأشياء..لذلك سأدعكما تتناقشان إلى ما لا نهاية.. أما أنا فأبحث عن أسئلة تقودني إلى سلامي الروحي..تحررني من الدين وكوابيسه المرعبة..أو تصالحني معه..

انتبه آدم الشبيبي إلى كل كلمة نطقت بها وأدرك أنها إنسانة مختلفة..ذات تجربة مختلفة..!.والتفت إلى صديقتها المغربية وقال:

- لست ميالًا للتصوف..والمتصوفة..لكني أجد أحيانًا عند بعضهم تجاوزًا للدين بأحكامه اللاعقلانية الصارمة..أجد بعضهم قد ذهب إلى الجوهر الإنساني والروح الكوني..لذلك تم تكفير العديد منهم وقتلهم وصلبهم..أما الدين بجحيمه وناره وفردوسه فهو كابوس طويل..فهو كما فهمه ماركس في نص حفظته واستشهدت به في مقالات لي كتبتها في العراق: بأنه زفرة الكائن المضطهد..إنه القلب لعالم لا قلب له..هو الروح لأوضاع لا روح لها..إنه أفيون الشعوب....طبعا هذا يعني بأن الأفيون قد لا يكون حلا لآلام الإنسان..لكنه قد يكون ضرورة لتخفيف الألم..!

فقاطعته حواء الساري بهدوء وحزم:

- بالنسبة لي لم يكن زفرة ولا أفيونًا لتخفيف الألم وإنما كابوسًا مرعبًا.. كابوس خنّاق يقبض على روحي طوال حياتي..!

جاء عامل المقهى بالنارجيلة وهي متوهجة ووضعها أمام حواء الساري التي أخذت خرطوم النارجيلة إلى فمها وبدأت بأخذ أنفاس قصيرة متلاحقة..أدرك آدم الشبيبي بأنها مدخنة غير متمرسة..كانت حواء الزياني قد انتبهت لتأمله لها فقالت له:

- هل تصدق أن هذه المرأة الفاتنة التي تجلس أمامك هي أم لطفلين.. فتاة في الرابعة عشرة وصبي في الثامنة..!

أبدى آدم الشبيبي دهشة مصطنعة وقال بتملق واضح:

- ما شاء الله..

- شكرًا..

قالت حواء الساري باقتضاب. وكان واضحًا عليها بأنها لا تود أن تكون موضوعًا للحديث..لذلك أبدت عدم اهتمام واضح إذ أخذت تجول بنظرها في أقصى المقهى حيث أخذت تركز على إحدى الطاولات حيث تجلس حولها خمس نساء، اثنتان منهمن ترتديان زي الراهبات وامرأة بالحجاب وأخريان غير محجبتين.. الراهبتان كانتا تجلسان في الجهة المقابلة لها بينما المرأة المحجبة تجلس جانبًا ولم ترَ وجهي الأخريين .

- هل أنت تعيشين منذ سنوات في الدنمارك..

فوجئت حواء الساري حين سمعت صوت آدم الشبيبي يسألها:

- عفوا..نعم..لقد ولدت هناك..جدي وصل أولًا.. ثم التحق به أبي وأمي..وأنا وأخوتي ولدنا هناك..

- لكنك تتحدثين العربية بطلاقة..علّق هو متملقًا.

- لسبب بسيط..فأنا ولدت في عائلة دينية..كان الاستماع للقرآن هو الصوت البشري الوحيد الذي يأتينا من المذياع[1] وحتى التلفزيون..كان والدي يبرمجه على القنوات القرآنية الكثيرة ويحذف أية قناة تسلية أو أغان.. برغم أن والدي مثقف..وقارئ جيد..لكنه كان متعصب دينيًا لدرجة مخيفة..

كانت لديه مكتبة مليئة بكتب اللغة والتفسير والأحكام والتاريخ والأدب..في روضة الأطفال والمدرسة تعلمت الدنماركية لكن في البيت كنت أتحدث العربية فقط..حياتي كانت منشطرة إلى قسمين..البيت وخارج البيت.. الدنمارك كانت خارج البيت..وعليّ أن انساها وأنا أدخل إلى البيت..، أما داخل البيت فالعالم الإسلامي المتشدد.. لذلك لغتي العربية جيدة.

كانت حواء الساري تتحدث بحيادية وكأنها تتحدث عن شخص آخر.. فجأة..انتبهت لنفسها أنها تتحدث لشخص تراه لأول مرة، فقطعت حديثها.

كانت صديقتها حواء الزياني تستمع لها بتعاطف وحزن، فقد سمعت بعض تفاصيل حياتها من خلال محادثتهما عن طريق الفيسبوك والاتصالات الهاتفية، لكنها تتأثر كلما تستمع لها حتى لو أعادت صديقتها قصتها، وكأنها تستمع لها لأول مرة.

لم يعرف آدم الشبيبي كيف يواصل حديثه معهما. كان محرجًا لأنه وجد نفسه أمامهما معا..فكر مع نفسه بأنه لو كان وحده لعرف كيف يتصرف مع كل منهما..لكنهما الآن معًا..فجأة لمح آدم أبوالتنك وحواء الفارسي يدخلان..في تلك اللحظة انتبه إلى أنه لم يعرف عنوان البيت الذي تسكنه المرأتان بعد..فقال بشكل مفاجئ..:

– لقد وصل العروسان..

التفتت المرأتان نحو جهة المدخل. حواء الزياني عرفتهما فورًا بينما استغربت حواء الساري أن يكونا عروسين.

ظلت المرأتان جالستين عند وصولهما إلى حيث يجلسون، بينما نهض آدم الشبيبي عن كرسيه، وقدمهما بطريقة احتفائية:

- أقدم لكما صديقيّ المقربيّن العريسين..آدم أبوالتنك وزوجته حواء الفارسي.

ثم التفت إلى العريسين قائلًا:

- أنتما تعرفان صديقتنا حواء الزياني..وهذه صديقتها الدنماركية العربية ..أوفيليا الدنمارك العربية..حواء الساري..

ابتسمت حواء الساري لهما ابتسامة مجاملة ونظرت إلى آدم الشبيبي وقالت له بلطف وهي تتنقل بنظراتها بينه بين العريسبن:

- أهلًا وسهلًا بكما..لكن صديقكما يبالغ قليلًا..لست أوفيليا الدنمارك أبدًا ..هذه من مبالغات صديقتي حواء الزياني المحببة..أوفيليا كانت رمزًا للحب قد انتحرت...أنا جبانة..لا قدرة لي على الانتحار..

ابتسمت حواء الزياني وقالت بمرح وترحيب:

- قبل كل شيء..مبروك لكما على الزواج..أتمنى أن تنضمّا إلينا.. لنحتفل بكما..

كانت مشاعر الغيرة قد أخذت تتأجج في أعماق حواء الفارسي منذ أن لمحت حواء الساري..لكنها كانت صامتة كتمثال.. انتبهت إلى صوت زوجها يقول:

- نحن نريد أن ندعوكما للاحتفال معنا بهذه المناسبة..

التفتت حواء الزياني بسرعة نحو صديقتها ففهمت عدم رغبتها فورًا.. فالتفتت بسرعة إلى العروسين وقالت بمرح:

- ألف شكر لدعوتك..لدينا موعد مهم بعد نصف ساعة..شكرًا جزيلًا.. كان بودنا ذلك..لكنه موعد مهم ولا يمكننا تأجيله..ألف شكر لكما من القلب..

التفت آدم أبوالتنك نحو صديقه وقال له:

– إذن..ليس أمامك سوى أن تأتي معنا..فأنت لا مواعيد لديك..

– نعم..نعم..سنحتفل معًا..قال آدم الشبيبي بنبرة احتفائية.

– لنذهب إذن.. قال آدم أبوالتنك.

ثم التفت نحو المرأتين قائلًا بحفاوة:

– كان بودنا أن تحتفلا معنا وتشرفانا على مائدة بسيطة في مطعم قريب من هنا في شارع 29 آيار..لكن كما أرى أن للمواعيد أحكامًا..تشرفنا بكما..

التفت آدم الشبيبي إلى المرأتين وعلى ملامح ما يشي بعدم رغبته في مغادرتهما، وقال متجنبًا أن ينتبه آدم أبوالتنك إلى عدم رغبته في مرافقتهما، فقال بنبرة محايدة:

– من المؤسف أنكما لا تستطيعان المجيء معنا..سنلتقي بلا شك..

في تلك اللحظة قالت له حواء الزياني:

– انتظر لحظة..

أخذت تفتش في حقيبتها الجلدية..وأخرجت منه دفترًا استقطعت منه ورقة وكتبت عليها شيئًا وهي تقول:

– هذا هو عنوان البيت الذي نسكنه..حارة اليهود..شارع تلة الحجارة.. وتجد رقم المنزل..نحن بعد موعدنا سنكون هناك.. ربما بعد ساعتين..لا تتردد بالمجيء..

كانت حواء الساري تنظر إلى المشهد بكامله وكأنها غير موجودة ومشاركة فيه. رأت العروسين وهما في حالة دهشة وارتباك..الحيرة

والتفكير الممزوج بفرح مصطنع على وجه آدم أبوالتنك..والجمود الذي يشي بانفعالات لم تستطع أن تفسرها في تلك اللحظة.. هل هي عدم رضا من هذا الزواج أم عدم رضا من مجيء آدم الشبيبي معهما..وأعجبتها طيبة صديقتها حينما لم تنس أن تكتب له العنوان..!!..وسألت نفسها..: من أنا..؟ لماذا أرى الأشياء وكأنني لست أنا..!!؟؟.

معرفتك بالبلاء بلاء

في شارع 29 آيار، الذي يمتد من ساحة السبع بحرات وينتهي بساحة يوسف العظمة، ثمة مطعم أنيق يقع في الجهة المقابلة للمركز الثقافي الروسي. وهناك جلس الأصدقاء الثلاثة حول مائدة في أعماق المطعم ليحتفلوا بعقد القران. كانت المقبّلات السورية الشهية تملأ الطاولة..لكن لم يكن هناك ما يشي بأية علامات فرح أو احتفال بزواج، بل على العكس كان هناك الارتباك باديًا عليهم جميعًا.

ظلّت حواء الفارسي صامتة، لكن نظراتها وملامحها تشي بأنها مليئة بالأسئلة التي لا تستطيع الإفصحاح عنها، لذا أخذت تداري صمتها بصب التبولة في صحني الرجلين اللذين كانا يجاملان بعضهما دون أن يعبّرا عما يجول في ذهن كل منهما. إلّا أن وصول صينية المشويات التي كانت رائحتها تفتح الشهية وتبعث على الحيوية شغلتهما عما كان كل منهما يفكر فيه، فانهمكوا في الأكل بهمة جعلت تواصلهم أكثر حيوية.

في تلك اللحظة قال آدم الشبيبي بنبرة فيها تأثر وحزن لكنه سعى ألّا يعكر جو المناسبة التي هم فيها:

- أتذكر أننا جلسنا هنا قبل أكثر من شهرين..وكانت معنا المرحومة حواء الكرخي والدكتور آدم كارثة..!!؟..

صمت آدم أبوالتنك..وتطلعت إليهما حـواء الفارسي بنظرات مستفسرة..! لم يجب آدم أبوالتنك مباشرة، لكنه صمت وقال بنبرة واطئة وزفر معها زفرةً حزينة:

- لولاها..أو لولا اغتيالها الغامض لما جلسنا نحن الآن هنا..!

فجأة لمح آدم الشبيبي الدكتور آدم كارثة يدخل ومعه فتاة شابة محجبة ترتدي لباسًا إسلاميًا، فتمتم قائلًا بصوت خافت:

- يحضر إبليس حينما يذكر اسمه..!

- ماذا تقصد..؟

- دخل الكارثة ومعه امرأة..

حانت من آدم أبوالتنك التفاتة نحو مدخل المطعم فوجد الدكتور آدم كارثة ومعه امرأة شابة، مثيرة الوجه والجسد، طويلة القامة..تميل إلى الشقرة..لا تشي ملامحها بأنها عربية..أنيقة..، ترتدي ثوبًا أحمر اللون بتفصيل يميل إلى الطابع الكلاسيكي.. وهما يدخلان إلى صالة المطعم..استقبلهما عامل المطعم وأخذ يحدثهما.. ويقودهما إلى طاولة منفردة لإثنين..!

لا يعرف آدم أبوالتنك من أين انبعثت في نفسه رغبة في أن يدعو الدكتور آدم كارثة والمرأة التي معه إلى مائدتهما ويعلمه بزواجه من حواء الفارسي.. بل هو لم يعرف لماذا يريد أن يعلمه بذلك..؟..لم يحاول الإجابة على هذه التساؤلات التي راودته..إذ نهض من كرسيه واتجه نحو المائدة التي يجلس حولها الدكتور آدم كارثة ورفيقته.

نظرت حواء الفارسي متتبعة زوجها ثم التفتت إلى آدم الشبيبي سائلة:

- لماذا يفعل ذلك وهو لا يطيقه ..بل ويكرهه..!

صمت آدم الشبيبي للحظات وأحس بالحرج لأنه أيضًا يتحسس من الدكتور آدم كارثة، فقال بنبرة فيها شيء من الحرج:

- لا أدري..فعلًا.. أمرٌ غريب..!

بعد لحظات عاد آدم أبوالتنك وحيدًا وعلى وجهه علامات غضب مكتوم، لكنه حينما اقترب من طاولته سعى إلى أن يرسم على وجهه ابتسامة مصطنعة..جلس على كرسيه وأخذ منشفة الطعام وهو يقول:

- دعونا نأكل..دعوته لكنه أعتذر..لا يريد أن يلتحق بنا..يبدو أنه لم يصدق بأنه يجلس الآن مع امرأة قدّمها لي..وسماّها حواء البوسني..لكنها تحدثت بلغة عربية خالصة....يدّعي أنها كاتبة..من المؤكّد أنه أكل مخها بأكاذيبه..وادّعاءاته ومبالغاته.. المهم..أعلمته بأننا تزوجنا..!

تبادل آدم الشبيبي وحواء الفارسي نظرة خاطفة سريعة..وانهمكا في الأكل دون رغبة واضحة مصطنعين الجوع والتلذذ الفائق بالطعام.

***

بعد أن غادر آدم الشبيبي مع العروسين مقهى الروضة بقيت المرأتان وحدهما. كانت حواء الزياني تنتظر تساؤلات وربما عتابًا من صديقتها، إذ هي انتبهت إلى تقبلها البارد والحذر لمسألة دعوته للمبيت عندهما، إلاّ أن حواء الساري لم تسألها سوى سؤال واحد:

- هل أنت واثقة منه..؟

لم يكن أمام حواء الزياني أن تبدي معرفتها السطحية به ولا أن تبدي ميلها اللاواعي له وانجذابها له، ولم تكن تدرك ذلك إلآ بعد مواجهتها لهذا السؤال، ففي تلك اللحظة انزعجت من تخيلها بأنها تتراجع عن وعد قطعته له، فقالت:

– كل الثقة..

صمتت حواء الساري للحظات..أخذت أنفاسًا قصيرة من النارجيلة.. نفثت الدخان فتصاعد دوائر..أخذت تنظر إليها باستغرب وتتابع تلاشيها في الهواء..كررت جرّ الأنفاس ونفث الدخان وكأنها تمارس لعبة طفولية..ثم التفتت إلى صديقتها التي كانت تجر أنفاسًا عميقة من النارجيلة التي أمامها أيضًا وقالت:

– تعرفين ياصديقتي حواء..صحيح نحن على تواصل عن طريق الفيسبوك منذ ثلاثة أشهر تقريبًا..تحدثنا كثيرًا وعلّقنا على بعض ما تنشره كل منا على صفحتها..وتهاتفنا أكثر من مرة..لكننا لم نتحدث عن خصوصياتنا العميقة..وإنما تحدثنا عن أوضاعنا الاجتماعية العامة..هل تعرفين عن حياتي الشخصية شيئًا..؟

نظرت حواء الزياني إليها بتساؤل..واسترجعت خلال ثوان ما قالته وأدركت أن صديقتها محقة فهي لا تعرف عنها الكثير إلا ما هو سطحي وعام جدًا..نظرت حواء الساري إليها وكأنها تنتظر جوابًا..وبعد لحظات واصلت:

– هل تعرفين أنني امرأة مطلقة ولدي ابنة وولد وأنت مطلقة ولديك ولد.. بل إن ابنتي في عمر الرابعة عشرة..وابني في الثامنة..بينما ابنك في السادسة من العمر ، ونحن في عمر واحد تقريبًا..وحتى حين التقينا قبل أسبوع هنا

في الشام..واستأجرنا معًا ذلك المشتمل الصغير في حارة اليهود.. فأننا لم نتحدث عن خصوصياتنا..على الأقل من طرفي..وربما لو تعرفين حياتي لفهمت لِمَ سألت عن صديقك..إن كان أهلًا للثقة أم لا..؟.

انتبهت حواء الزياني إلى أن صديقتها تحمل في داخلها أسرارًا لم تعد تطيق تحملها..وتسعى بطريقة ما للبوح بها، لكنها لا تريد أن تضغط عليها وتستدرجها للبوح، وإنما تتركها تنتظر أن تفضي هي بما في أعماقها، بيد أنها أحست بالتعاطف معها فحاولت أن تمنحها بعض السلام النفسي فقالت لها:

– خلق الله الكلمات..والإنسان كلمة من كلمات الله..الإنسان كلمة السر واللغز..وفي أعماق كل كلمة بحار النور ومحيطات الظلام.. في أعماقنا النور والظلام..كلنا هكذا..كلنا كلمات الله..

ارتسمت ابتسامة غامضة تمتزج فيها الخيبة بالسخرية على وجه حواء الساري، وقالت:

– أنا كلمة خرساء..كلمة مظلمة..ولو كُتبتُ على ورقة أو لوح لكانت حروفي بالحبر الأسود..!..أنا إنسانة بسيطة.. لست مثلك..أنا اكتفيت بالتعليم الثانوي..لكن لو مُنِحتْ المعاناة بالدرجات العلمية والشهادات لحصلت على أعلى الشهادات.

– ياه..أنت تتحدثين وكأنك تحت جناح جبريل..!

– لم أفهم..ماذا تقصدين..؟

– يقول السهروردي بأن الليل هو ظلام جناح جبريل حين ينطبق..بينما حين يرتفع جناحه يكون عالم الأنوار..ويبدو لي أنك مكثت طويلًا تحت جناح جبريل..في أعماقك ليل..وآن الأوان لكي تخرجي إلى عالم النور..

انفثي ظلامك ياصديقتي كما تنفثين الدخان..كما تفعلين الآن مع دخان النارجيلة..

كانت حواء الساري تستمع لصديقتها بانتباه شديد، وكان وجهها يوحي بأنها تفكر بكل ما سمعته، وتناقشه في أعماقها. بعد لحظات قالت لصديقتها:

– لا أعرف السهروردي الذي أنت مهووسة به..لكن كلامه جميل..وفي الوقت نفسه أرى أنه مجرد كلام غير علمي..فقد درسنا كيف يحدث الليل والنهار..ما علاقة جناح جبريل بحدوث الليل والنهار..لكن ربما أنت محقة في جانب واحد..هو أني أشعر بالليل..بالظلام في أعماقي..وربما علي البوح كما تقولين كي أرتاح..

ابتسمت حواء الزياني لصديقتها وقالت بطيبة:

– لا تفهمي كلمات السهروردي حرفيًا..فهي استعارات صوفية.. وروحانية..المهم الآن عليك أن تنفثي ظلامك كالدخان.

– هنا..؟

– مثلما تشاءين..وكيفما تشاءين..خذي راحتك بالكلام..لا أحد هنا يتنصت للآخر..فكل طاولة هي عالم بحد ذاته..ربما هم أيضا ينفثون مع دخان نارجيلاتهم الظلام الممتد في أعماقهم..فللناس حكايات..

– لا أعرف..ربما هم ليسوا مثلي..ربما هم يتحدثون عن عالم النور الذي هم فيه..

– ربما..لكنك ياصديقتي تتحدثين وكأنك تحملين هم الدنيا كلها على أكتافك وتخبئين غمَّ العالم كله في أعماقك..!

نظرت حواء الساري إلى الأمام حيث تجلس النساء الخمس..تأملت وجه الراهبة الشابة التي في تلك اللحظة رفعت رأسها نحوها وابتسمت لها ابتسامة غامضة وكأنها تعرفها. فوجئت حواء الساري..فالتفتت إلى صديقتها مرتبكة وكأنها تهرب من تلك الابتسامة الغامضة..وقالت:

- هل تعرفين أنني ربُيت تربية اسلامية صارمة..وأني إلى جانب دراستي في المدارس الدنماركية المتحررة كنت أدرس في المسجد الذي يأمه والـدي..آدم حسب الله..وأنني وأختي كنا مواظبتين بشكل يومي على ذلك...وأنني حين كبرت وصرت في سن المراهقة كنت أقوم بتنظيم تلك الحلقات الدراسية لبنات الجالية العربية في المسجد...وأنني كنت أقوم بذلك بقناعة..لكن ثمة شكًا غامضًا ومجهولًا كان يراودني حول صدق وجدوى كل تلك الدروس والطقوس..!!..فقد كنت أحس بأن هناك خطأ ما في تلك الممارسات..لكني كنت لا أجرؤ على التوغل والتعمق في شكوكي خوفًا من أبالسة الجحيم ونار السعير التي كان أبي يحدثني عنها دون انقطاع وبشكل يومي تقريبًا. أتعرفين أن والدي كان مثالي الأعلى وخيبتي الكبرى في الحياة..خيبتي التي حطمتني...!.

نظرت حواء الزياني إليها دون أن تعلق، وكأنها تنتظر منها أن تواصل بوحها الذي كانت تتجنبه قبل قليل..وبعد ثوانٍ واصلت حواء الساري بوحها:

- كان أبي يخاف عليّ وعلى أختي بشكل مبالغ فيه..كان أحيانًا من شدة خوفه عليّ بالذات أنه يتخيل أني اخطأت ويحاسبني على أخطاء وهمية لم أرتكبها..ملأني بالخوف من الرجال..كان يتحدث عن الرجال وكأنهم مجموعة من الأنذال والفاسقين الذين ليس لديهم من هم سوى غواية الفتيات والنساء عمومًا..

وكان يروي لي سيناريوهات الغواية..سيناريوهات التقرب والكلام اللطيف المعسول إلى أن يصلوا إلى استمالة المرأة..وحينما يحصلون على جسدها يرمونها كأية قطعة من الجوارب الوسخة..كان يمنحني الثقة بيد ويأخذها مني باليد الأخرى.. كان يرفض أي شخص يتقدم للزواج مني..وكان يبحث فيه عن الأخطاء..وكأنه يبحث لي عن شخص كامل.. في رأيه يجب أن تكون أهم صفاته التدين والزهد في الحياة..كان يتشدد على أن الدين يحرّم العلاقات خارج الزواج..خوفه من خطيئتي دفعه إلى محاصرتي منذ أن بدأت أنوثتي تعبر عن نفسها من خلال جسدي.. ومنذ أول تفتح رحمي وتكرار الدورة الشهرية أخذ يحدثني عن الزواج..وأذكر أنه كان يسعى لإقناعي بالزواج وأنا في الثانية عشرة..بل إنه رشح لي عريسًا وأنا في ذلك العمر..!

– ماذا؟ ماذا سألت حواء الزياني بدهشة تشي بالاستنكار..

انتبهت حواء الساري لنبرة الاستنكار التي كان فيها تعاطف واضح معها، فواصلت:

– نعم..أبي من الأخوان المسلمين المتشددين..لا أعرف إن كان منتميًا ومنتظمًا معهم لكنه كان يحدثني عن أقطابهم وأفكارهم ويملأني بالحماس لهم..وكان يرى أن أتزوج زواجًا اسلاميًا وأنا في الثانية عشرة إلى أن أتم الثامنة عشرة..عندها يمكنني توثيق زواجي في المحاكم الدنماركية..!!..أتدرين..أبي كان لديه مكتبة كبيرة جدًا في شقتنا المتواضعة المؤلفة من ثلاث غرف نوم وصالة كبيرة.. أما والدتي فكانت امرأة جميلة..جمال شرقي طبيعي..وكانت „ست بيت“ كما يقال..كانت

تنهمك يوميًا بإعداد الوجبات الثلاث..بل وكانت تخبز لنا في البيت بحيث لا نشتري شيئًا من السوق..

بيتنا كان مليئًا بأجواء الإيمان والصلاة وقراءة القرآن والصيام..لكنه أيضًا كان مضغوطًا ومهيئًا للإنفجار مثل مرجل يغلي..بل كان يمكن له أن ينفجر في أية لحظة..كان ثمة بركان من الغضب ينتهي دائمًا بالعنف المبرح.. حيث كان أبي يضرب أمي أمامنا..وبعنف..لقد تفتحت أعيننا أنا وأخوتي على مشاهد ضرب أبي لأمي..وبرغم ذلك كانت مشاعري حينها متناقضة بين الإحساس بالأمان والجو الإيماني ووجود أمي قريبة مني وبين إحساسي بالخوف والقلق المستمر من أية لحظة يغضب فيها والدي ويضرب أمي.. مشاهد العنف خلال طفولتي راسخة كالنقش في الحجر..بل كشريط سينمائي متحرك لا يُمحى..لكن لما وصلت سن المراهقة كان عنفه موجّه نحوي..ونحو أختي التي تصغرني بسنة ..

أحسّت حواء الزياني بالانقباض في نفسها وبشعور مخيف لا تعرف كهنه من سماع هذه التفاصيل ..وكأن حديث صديقتها يعيدها إلى تجربتها الشخصية..لذلك حاولت تأجيل هذه الاعترافات التي انطلقت وكأنها أفاعٍ تهرب من نار اشتعلت في وكرها..فقالت لها مقاطعة:

– هذا شيء مخيف.واعذريني إذا ما قاطعتك..لكن ألا تريدين أن نذهب إلى مطعم ما لنأكل شيئًا ..أو نذهب إلى البيت لنطبخ ..أيهما تفضلين..!

كانت حواء الزياني تعرف أن صديقتها التي بدت لها غريبة الآن تنوء تحت صخرة ثقيلة من الهموم والشكوك..وكانت تحاول أن تجنبها معاناة البوح..إلّا أن حواء الساري كانت قد زحزحت الصخرة..فواصلت وكأنها لم تسمع اقتراح صديقتها:

- بعض الناس..رجالًا ونساء..من المثقفين والناس العاديين..يقفون أحيانًا أمام المرايا..ينظرون إلى وجوههم..يرتعبون من قبحهم..ووساختهم الداخلية..ويشمئزون من الروائح الكريهة المنبعثة من مستنقع أعماقهم.. يبصقون على المرآة التي أمامهم .. وكأنهم يريدون التخلص من عبء هذا القبح والدناءة والحقد الذي يحملون...لحظتها يشعرون بالراحة عند بصاقهم على أنفسهم..مثل قاتل تائب لحظة الاعتراف.. لكنهم بعد ذلك يستديرون للمرايا..متوجهن إلى الحياة..حاملين القبح وتلك النتانة في أعماقهم..!!وهم في غاية الراحة..متخففين من الشعور بدنائتهم ودونيتهم.. ربما إلى حين مواجهة مرايا أنفسهم مرة أخرى..! ..لكني لستُ كذلك..!

- ياه..يالمعاناتك الجليلة ياصديقتي..هوني عليك.. قالت حواء الزياني بتعاطف صادق.

أدركت حواء الساري بأن صديقتها تحاول أن تخفف عنها معاناتها الداخلية، لكنها كانت تريد أن تنفث الليل الذي في أعماقها حسب تعبير صديقتها، فواصلت دون أن تعلق على صديقتها:

- أنا تائهة يا صديقتي..لا أعرف حتى من أين أبدأ في الحديث عن نفسي.. أنا لم أكمل التعليم الجامعي واكتفيت بالثانوية.. لأني تزوجت مبكرًا..في عمر التاسعة عشرة..وهذا ما شكلّ عندي شعورًا بالنقص والدونية أمام الآخرين.. لاسيما الذين لديهم شهادات ووصلوا إلى مكانة ما..

- ولِمَ لم تكملي تعليمك..؟ سألت حواء الزياني ببراءة.

صمتت حواء الساري للحظات..ثم قالت وهي تنظر إلى نقطة بعيدة في أعماق المقهى:

- أتعرفين..أحيانًا أحس نفسي في دوامة..أحس نفسي ضائعة..تلتف على روحي عقدة من الأفاعي..أحس أنه لا معنى للحياة والوجود..ولا ثمة منطق يبررها..وأنا كائن لا هدف له..أحس أن هناك الكثير من الأحداث والخطايا والآثام المتكررة في حياتي..هي الأحداث نفسها لكن الأشخاص يختلفون..هي دائرة لا مخرج منها..متاهة..وأنا العمياء أرى اختلاف الوجوه..ولا أرى تكرار الأحداث والمواقف..!..

- لِمَ لم تكملي تعليمك..!كررت حواء الزياني سؤالها.

انتبهت حواء الساري للسؤال..صمتت للحظات.. أخذت نفسًا من الدخان..نفثته في الهواء..ثم واصلت:

- كان أبي يضرب أمي بشدة..ثم يعقب ذلك صلح بينهما..يستمر لفترة إلى أن تبدأ أمي باستفزازه من جديد..فيضربها مرة أخرى..ثم يصالحها.. وهكذا قضيت سنوات عمري في بيتنا..أذكر أن أمي كانت تغار من علاقتي بأبي..فقد كنت المقربة إليه..وكان يحدثني عن التاريخ والسياسة..والدين.. وكنت أقضي معظم وقتي معه في غرفة المكتبة..ولم يكن لأمي أية علاقة بعالم الكتب ولا بالأحاديث في التاريخ والسياسة..إلى أن وصل التوتر بينهما حدًا طلبت فيه الطلاق..

وأذكر جيدًا أن أبي كان مرجعًا للأمور الدينية في المسجد..وكان يتحدث عن تعدد الزوجات..وحق المرأة في الخلع..وتسامح الإسلام..وما شابه.. لكنه مع أمي كان يرفض أن يطلقها..! أذكر أنني سألته أكثر من مرة: لماذا لا تمنحها الطلاق..فكان يبتسم لي ويقول: أنت لا تعرفين شيئًا..أمك لا تريد الطلاق..إنها تريد الضرب والصلح بعد ذلك..! لم أفهم ذلك..لكني

بعد سنوات من تجربتي في الهبوط إلى القاع أدركت ماذا يعني ذلك..فقد كانت أمي تتحرش بأبي وتستفزه لإهماله لها..وبعد أن يضربها يسعى إلى الصلح معها..وليلة الصلح تكون ليلة حامية تعوضها عن أيام من الاهمال لها..لذلك متعتها ارتبطت بالضرب..!.

حاولت حواء الزياني الابتسام ..فهي تعرف هذه المشاعر أيضًا..لكنها أعادت عليها السؤال قائلة بلطف:

- إنك لحد الآن لم تجيبي عن سؤالي: لماذا لم تكملي تعليمك..؟

نظرت حواء الساري إليها بارتباك مفاجئ ..ثم واصلت:

- الذي حدث أن أبي كان بحكم نشاطاته السياسة ذات القناع الديني، لكنه الأخواني من الناحية السياسية، قد تعرف على امرأة سويدية ..وأدخلها بطريقة ما إلى الإسلام..إلى أن جاءت اللحظة التي كان فيها طلب أمي للطلاق نعمة له..وكانت الفضيحة..كنت حينها في الثامنة عشرة..حينما أخذ الناس يسخرون من تناقضات أبي الذي تزوج من امرأة أوربية على أمي..وبالمناسبة فأن الأوربيين والأوربيات حين يدخلون دينًا جديدًا يبالغون فيه أكثر من أبنائه الأصليين..وكأن الدين الجديدة موضة.. المهم..هذه المرأة السويدية التي تربت على مبادئ العلمانية قبلت الزواج من أبي كزوجة ثانية..

أما أبي فصار رمزًا للإزدواجية..ولإستغلال الدين لتلبية لرغباته الجنسية.. فأين هو أبي الذي كان يرشد العالم ويبين حق المرأة في الخلع..بينما هو لم يطلق أمي برغم طلبها وإلحاحها..!!..ولم يكتف بذلك وإنما تزوج عليها امرأة أوربية..وكأن المسلمين لديهم عقدة اللحم الأبيض..والنساء

الشقراوات..! ..شخصيا سمعت خبر زواجه من الآخرين..في المسجد..
أذكر أن أمي قالت لي: أنت قريبة من والدك جداً..وهو يسرّك بكل شيء..
وأنا أحس أن والدك سيتزوج امرأة أخرى..فهل أخبرك بشيء..؟ فنفيت
علمي بذلك..وحقًا أنه لم يخبرني بشيء..لكن إحساسها وحدسها كان
صحيحًا..فكانت خيبتي كبيرة ..أولًا لأنه لم يخبرني بذلك وثانيًا حزنت
على أمي..فقد طعنها في أنوثتها..!..كان زواج أبي..وإنكسار أمي أكبر
طعنة تلقيتها في حياتي لحد ذلك العمر..لأن الطعنات توالت..لقد سقط
مثلي الأعلى في الوحل والوساخة..كشف عن شخص لا يختلف عن أي
رجل آخر يلهث وراء نزواته..وكشف عن ازدواجيته ووجهه الحقيقي
الذي كان يغطيه بقناع الدين والشريعة السمحاء التي تجيز له الزواج من
أربع نساء في آن واحد بينما يحاسب ابنته ويعاقبها ويسمعها محاضرات
عن الجحيم وأبالسة جهنم حين تقع نظراته مصادفة على صدرها الناهد أو
استدارات جسدها..!!!..

نعم..كان يغضب ويتوتر حينما يراني بكامل أنوثتي حيث يتحول إلى
واعظ متشدد..علمًا أني لا أفعل شيئًا يسيء لعقيدته..!! الغريب أن أبي بعد
زواجه من الأوروبية دعاني وأختي إلى مطعم راق في كوبنهاكن..طوال
عمري لم يدعنا أبي إلى تناول الطعام خارج البيت..ولم يحصل أن خرج
معنا ومع أمي إلى مطعم..لكنه الآن دعانا إلى مطعم راق ومكلف..الآن
هنا هو يتعامل مع أوروبية..برغم أن هذه الأوروبية قد تحجّبت وبالغت في
حجابها أكثر من أمي..!! المهم..ما حيرني في أمي هي طبيعة غيرتها ..فبعد
اللقاء في المطعم والذي كان بارداً سألتني أمي بفضول عن زوجة أبي إن

كانت جميلة..فقلت لها بصدق بأنها أجمل من الأوربية..وكنت صادقة..فقد كانت الأوربية امرأة ضئيلة..وقبيحة قياسًا لأمي المثيرة والفيّاضة بالأنوثة.. فأحسست أن أمي شعرت بالرضا وكأن تفوقها في جمالها على الأوربية فيه عزاء لها..!!! ...

خلال تلك الفترة أقمنا نحن في الرابطة الإسلامية مخيما للجالية المسلمة..وكان بين الموجودين شاب أسمر..والده من تشيلي وأمه دنماركية..لكنه ذهب إلى دمشق لدراسة اللغة العربية..وهناك أسلم..وعاد أخوانيًا..وحينما التقاني طلب أن نتعارف لغرض الزواج..شخصيًا كت منجذبة له..ربما جنسيًا.. المهم..قلت له لأخبر أهلي..أمي وافقت أن التقيه في مقهى عام..أما أبي فقد ابدى امتعاضًا إذ كان يفضل أن أتزوج عربيًا..لكنه لم يعترض على اللقاء.. المهم..حين التقينا أحسست بانجذاب جنسي.. وبدأت الخيالات تتسرب إلى مخيلتي..لاسيما أننا كنا ندرس الجنس في المدارس الدنماركية..

وفي عمر التاسعة عشرة تزوجت..! أتصدقين أنني تزوجت مجانًا.. أبي رفض أن يكون لي مقدم أو مؤخر..وحين طلبت من والدي أن يضمن حقوقي الشرعية ويكون لي مؤخر صداق كما هي العادة.. قال لي: « خيرهن أقلهن مهورًا»..ثم حاصرني بسؤال: «ألست واثقة من اختيارك ومن الرجل الذي سترتبطين به..؟»..قلت له واثقة لكن لا أحد يضمن ما تخبئه الأيام.. وبما أنك تزوجني بهذه البساطة..بدون حفل..ولا تجهيز..ولا سكن ثابت.. فعلى الأقل يمكنك أن تضمن لي شيئًا للمستقبل فيما إذا حصل خلاف بيننا كما حصل لك مع أمي..!! فقال لي: نحن في الدنمارك..وكل شيء مضمون

من قبل الدولة..!..وهذا ما جرى..وتعاقبت الأمور..فبعد الزواج حملت مباشرة..وانتظرت شهور الحمل والولادة..بينما أخذ زوجي يتقدم وظيفيًا.. فصار ليس من السهل أن أواصل دراستي الجامعية..!

كانت ملامح الحزن قد ارتسمت على وجه حواء الزياني وهي تستمع لبوح صديقتها، فسألتها بغضب مكتوم:

– ولماذا استعجلت الزواج..كان بإمكانك أن تبدأي دراستك الجامعية.. ثم تتزوجي..؟

صمتت حواء الساري للحظات..وضعت خرطوم النارجيلة على موضعه في الصينية الصغيرة وقالت:

– في فترة الخطوبة القصيرة جدًا كانت أمي تضايقني كثيرًا..كنت إذا تحدثت مع خطيبي هاتفيًا فأنها تناديني صارخة.. وتحرجني أثناء مكالمتي.. أو حينما أتفق معه على موعد..فأنها تقف لي عند الباب لتمنعني من الخروج.. وهكذا..ولكي أتخلص من سيطرة أهلي وتحكمهم في حياتي.. أسرعت بالزواج..المهم..كان ثمة سبب آخر على موافقة أهلي بزواجي وزواج أختي بهذه الطريقة هو أن أبي كان منهمكًا بجسد زوجته الجديدة.. وأمي كانت منهمكة بجسدها أيضًا..حيث أخذت تبحث لنفسها عن زوج.. وكانت تريد أن تتخلص منّا كي لا يُقال أنها تفكر بنفسها وتزوجت وبناتها لم يتزوجن بعد..!..وهكذا وجدت نفسي بعد سنة متزوجة ولدي ابنة وأنا في العشرين من العمر..!

فجأة شحب وجه حواء الساري وارتبكت..وقطعت حديثها..وفقدت هدوئها وسيطرتها على وضعها وقالت لصديقتها:

- علينا أن نخرج حالًا..

تلفتت حواء الزياني حولها..لم تفهم سبب ارتباكها الشديد..فسألتها:

- ما بك..ما الذي حصل..؟

- إنه هو..كيف جاء..؟ ألم يقل لي إنه معارض للنظام..كيف هو هنا إذن..؟ قالت حواء الساري بتوتر.

- من..؟ ما بك يا حواء..؟..سألت حواء الزياني مستغربة.

فقالت دون ان ترفع رأسها:

- ذاك الرجل الطويل..والنحيل.الأنيق..الذي يخالط شعره البياض.. أعرفه..قابلته مرات عدة في كوبنهاكن..الذي اسمه آدم الحمصي..قال لي إنه معارض للنظام..لكنه الآن هنا..في مقهى الروضة بدمشق..؟ كيف هو معارض..وكيف هو هنا..؟..لا أحب أن يراني..

تلفتت حواء الزياني..رأت رجلًا أنيقًا ووسيمًا..على مشارف الخمسين من العمر..وربما أكثر لكنه يبدو أكثر شبابًا من عمره.. كان ينظر في القاعة الكبيرة..ثم توجّه إلى القسم الآخر منها..وبسرعة أشارت حواء الزياني للنادل إشارة إلى الرغبة في دفع الحساب والمغادرة..ولم تمض سوى دقائق حتى كانت الصديقتان في الشارع متجهتين من جهة السبع بحرات..!

***

كانت حواء الساري تسير في الشارع بسرعة متقدمة بخطوات على صديقتها، بينما صديقتها لم تستوعب سر خوفها من ذلك الرجل ومشيها السريع وكأنها تهرب من شبح يلحق بها..كانت تمشي خلف حواء الساري

وهي تسأل نفسها: هذا الرجل الذي سمّته بآدم الحمصي دخل إلى أعماق المقهى ولم يخرج خلفهما، بل ولم ينتبه لوجدهما..أترى لديها من الأسباب ما يجعلها لا تريد أن يراها..!؟ أين قابلته وتعرفت عليه ؟ هي هنا منذ أيام لا أكثر..وهي تزور دمشق لأول مرة..! لا أدري..ربما ستروي بنفسها قصتها مع هذا الرجل..!»..

انعطفت حواء الساري نحو شارع 29 آيار..التحقت بها حواء الزياني وصارتا تمشيان بهدوء. كانت حواء الساري محرجة من تصرفها المتوتر، وكانت تدرك بأن عليها تقديم توضيح لتصرفها الغريب، إلّا انها لم تشأ أن توضح طبيعة علاقتها بهذا الشخص الذي أثار ارتباكها بهذه الطريقة..لذا سارتا لبضع خطوات صامتتين.

حين صارتا أمام المطعم الذي دخله قبلهما آدم الشبيبي وآدم أبوالتنك وزوجته، وجدت حواء الزياني تناول وجبة الغذاء فرصة للحديث وإعادة الأجواء إلى طبيعتها بينهما فقالت لها وكأن أي توتر لم يحصل:

– تعالي نتناول طعامنا في هذا المطعم.. إنه يقدم مقابلات مذهلة.. لديهم „متبل" و" حمص" لن تجدي أطيب منهما في أي مطعم هنا..أما المشاوي فلن تُنسى..ستتذكرينها في الدنمارك بالتأكيد..!

ابتسمت حواء الساري رغمًا عنها..ودخلتا إلى المطعم..ولأن آدم الشبيبي يجلس على كرسي مقابل للمدخل فقد لمحهما مباشرة.. وتقابلت نظراته بنظرات المرأتين اللتين رأتاه أيضًا..فرفع يده مشيرًا لهما وكأنه يدعوهما إلى الجلوس معهم حول المائدة.. التفت آدم أبوالتنك لا إراديًا فرآهما..نظر إلى وجه آدم الشبيبي الذي تهلل بهجة برغم محاولته السيطرة

على تدفق مشاعره..والتفت إلى المرأتين مرة أخرى ..دفع كرسيه..ووقف بمواجهتما..ودعاهما بشكل صريح قائلًا:

- خيرًا ما فعلتما بحضوركما..نحن بدأنا للتو..تفضلا إلى مائدتنا..!

ارتبكت حواء الساري لكنها وجدت في الالتحاق بالمائدة المشتركة إنقاذًا لها من شرح ليست مستعدة له الآن..ولم تمانع حواء الزياني، لاسيما وقد أحسّت بعدم اعتراض صديقتها..فتوجهتا نحو مائدتهم.

***

شعرت حواء الساري بالإحراج من هذه الدعوة برغم موافقتها على الجلوس مع الآخرين..وبعد دقائق انسجمت معهم..لاسيما وأن آدم الشبيبي توهج بالأفكار التي أثارتها، بعد أن سألها عن مشاهداتها لدمشق، فقالت له إنها زارت قلعة صلاح الدين..فقال لها:

- تقصدين قلعة المجرم الذي تحول إلى بطل المبجل..!

ابتسمت له..فهذا تقويم جديد لهذه الشخصية التي أثارت الإعجاب في كل العالم الإسلامي والمسيحي..كانت هي وصديقتها تجلسان إلى جهته بمواجهة آدم أبوالتنك وزوجته حواء الفارسي..وكان أبوالتنك قد تحدّث مع عامل المطعم، خلال انهماك المرأتين بالجلوس حول المائدة، بأن يأتي لهما بصحنين من المشويات والمقبلات..ولم تمض سوى دقائق حتى كان الجميع مندمجين في الأكل والحوار..الحوار الذي بدأ بسؤال آدم الشبيبي وتعليقه على جواب حواء الساري.

ابتسمت حواء الزياني لتعليق آدم الشبيبي وقالت:

- نعم..إنه قاتل شيخ الإشراق السهروردي..

- ومشعل محارق الكتب في مصر بعد اندثار حكم الفاطميين بانقلابه على ملكها الذي كان قد عينه نائبًا له..! ..علق آدم الشبيبي..

- وكأنه ماكبث..! قالت حواء الساري

- لا..ماكبث هو البطل الذي صار مجرمًا..وهذا مجرم صار بطلًا..قال آدم الشبيبي

- أعتقد لو سمعك البعض لأنقضّ عليك..فأنت تمس شخصية شبه مقدسة..انتبه لنفسك يا صديقي..فليس كل ما يُعرف يقال..كما أن الوضع في الشام متوتر جدًا..سمعت أن الخليجيين هنا يمولون بشكل سري شخصيات وتنظيمات إسلامية متطرفة ويمدونهم بالأموال من أجل خلق مشاكل هنا..حتى قيل إنهم بدأوا بشراء الفلل والشقق والأراضي بحجج شتى..وكأنهم ينوون تغيرات في تركيبة السكان..

كان آدم أبوالتنك يتحدث وكأنه يعرف أسرارًا لا يعرفها غيره..ارتسمت الغرابة المشوبة بالخوف على وجوه النساء الثلاث..بينما قال آدم الشبيبي مؤيدًا وبنبرة فيها خشية:

- اليوم..حينما كنت في منطقة جرمانا لاحظت الكثير من الفلسطينيين والخليجيين أيضًا..وفي الفندق كان صاحب الفندق واضحًا..قال بغضب: الإسلاميون يريدون تخريب بيوتنا..هججوا الكثير من الفلسطينيين من مخيم اليرموك..جرمانا المعروفة تاريخيًا بأن أغلبيتها من الدروز والمسيحيين صارت اليوم مرتعًا للخليجيين..وللفلسطينيين الهاربين من مخيماتهم نتيجة لسيطرة الإسلاميين المتطرفين..

– ما سيحدث سيكون مرعبًا...تمتم آدم أبوالتنك.

انهى آدم أبوالتنك هذا الحوار السياسي الطارئ على مائدة الاحتفال بزواجه..كان حذرًا جدًا فهو يعرف الطبيعة البوليسية للنظام المخابراتي الذي يتنصت لهفيف جناح الذبابة كما يعتقد من خلال خبرته وإقامته الطويلة في دمشق..، لكنه في الوقت نفسه أحس بأن ثمة ضعفًا وخللًا واختراقًا تسرَّب في النظام، وإلا ما استطاع المتطرفون أن يتنشروا ويتمددوا بهذا الشكل..!! لذلك لم يشأ أن يتطور النقاش إلى أبعد من ذلك، لاسيما وأنه لا يعرف المرأتين الجالستين معهم جيدًا..وكانت المفاجأة حينما نطقت حواء الفارسي وكأنها تذكرهم بوجودها أيضًا حول المائدة، وأنهم يحتفلون بزواجها إذ قالت بخوف:

– يا ساتر ..الله يلعن كل من يحاول أن يخرب هذا البلد..!

لم تبد أي من المرأتين رأيًا في الحوار، تحفظًا.. إلّا أن حواء الساري ارتبكت فجأة..خفضت رأسها بطريقة أثارت انتباه الجالسين معها وكأنها تتخفى من رؤية أحد ما لها..بل واصطنعت حركة ما أرجعت من خلالها الكرسي إلى الوراء وكأنها تفتش عن شيء ما سقط منها.وبقيت منحنية لأكثر من دقيقة...بينما كان صوت صديقتها يصلها سائلًا:

– هل سقط شيء منك..؟

– لا شيء مهم..واصلوا الأكل..

ثم عادت إلى وضعها الطبيعي. لم يشأ أحد من الجالسين أن يحرجها بالسؤال..لأنها كانت مرتبكة..فجأة همست لصديقتها بصوت بالكاد يمكن التقاطه:

– آدم الحمصي و شخص آخر دخلا ومعهما حقيبة جلدية سوداء..إنهما هناك..الحمد لله أنه أدار ظهره لي..

أخذت حواء الزياني تنظر مُفتّشة في القاعة بطريقة لا تثير أحد وكأنها تستطلع عفويًا..ولمحته..عرفته من ملابسه وهيكله وتسريحة شعرة من الخلف..وهو يجلس مع رجل آخر على طاولة ليست بعيدة..وكان الرجلان قد اقتربا بجذعيهما من بعضهما وكأنهما كانا يتحدثان بشيء لم يودا برغم خصوصية الجلسات حول الطاولات أن يسمع أحد ما يتهامسان به.

انتبه آدم الشبيبي للمرأتين وحدّس بأن المرأة العربية الدنماركية قد رأت شخصًا ما فارتبكت..لكنه لم يكن متيقنًا من حدسه..ولا إراديًا ساقته نظراته إلى حيث يجلس الدكتور آدم كارثة وصديقته المثيرة..فظلت نظراته عالقة بالسيدة المثيرة الشقراء التي كانت تجلس على كرسي في الجهة المقابلة له..تخيلها وهي في ثوبها الأحمر وكأنها خرجت من إحدى اللوحات الفنية الكلاسيكية.. فجأة..التقت نظراتهما..استمرت لثوان بانتباه متبادل..انتهى بالتفاتة من جليسها آدم كارثة نحوه..فخفض بصره مرتبكًا..انتبه آدم أبوالتنك لارتباكه المفاجئ فالتفت..فرأى الدكتور آدم كارثة ينظر إلى حيث يجلسون..ابتسم له ابتسامة هادئة وعاد ليواصل الأكل وهو يقول لآدم الشبيبي:

– مسكينة تلك المرأة التي تجلس معه..سيصدع رأسها بحديثه عن الملل..والضجر..و.و.

فقالت حواء الفارسي معقبة..:

– السّأم..

نظر الآدمان كلاهما إليها بدهشة..إذ لم يتوقعا أنها تتذكر كلام آدم كارثة في لقائهم الأخير..حيث كانت صامتة ولم تنطق بأية كلمة حينها..فقال آدم الشبيبي مؤيدًا.

- أحسنت..نعم..السّأم..وهو عنوان رواية البرتومورافيا أيضًا..وحدثنا هو عن الشعور بالسأم..ذاكرتك بلورية حواء..

- كنت حاضرة معكم حين تحدث عن ذلك..

- صحيح..

- يبدو أنك أيضًا من المعجبات بحديثه..

علّق آدم أبوالتنك بنبرة فيها سخرية ومبطنة وبغضب مكتوم. انزعجت حواء الفارسي من تعليقه الذي أحرجها أمام المرأتين، فصحيح أنها صارت زوجته لكنها لا تقبل منه إذلالها والسخرية منها علنًا.. فقالت بإصرار:

- لا..لكني أذكر كلامه عن التكرار والملل في حياتنا..حيث تتكرر الأشياء التي تملأ النفس بالضجر..وأخبرتك بأنني أجد ذلك صحيحًا..ليس إعجابًا..لكنه قال شيئًا أجده صحيحًا..

أحست المرأتان بأن ثمة توترًا سرى في جو الجلسة لاسيّما من خلال هذه الحوارية عن رجل يثير غيرة الزوج..فقالت حواء الساري مؤيدة:

- أنت مُحقة..أحيانًا الملل يقودنا إلى أن نقوم بتصرفات حمقاء.. ويضطرنا لاختيارات سيئة نندم عليها فيما بعد..أو كما قلت أنت „السّأم" يدفعنا لتكرار الأخطاء..نحن لا ولم ولن نتعلم..نظن أننا بعد كل حماقة وخطأ كارثي بأننا تعلمنا الدرس..لكننا سرعان ما نعيد الخطأ ذاته..ونلقي

بأنفسنا في ورطة جديدة..دون أن نعي ذلك..نكرر الخطأ لكن مع وجه جديد.. وهكذا هي الحياة..سلسلة من الأخطاء..

كان الجميع ينصتون لها..بدهشة..واستغراب..وتعاطف..فقد كانت صامتة وغامضة بالنسبة لهم..وحواء الفارسي أحست نحوها في اللقاء الأول بغيرة وحسد ممزوج باعجاب كونها دنماركية..لكن الآن أحست أنها مثلها امرأة هشة..لكنها شجاعة بحيث تعترف بأخطائها..وتكرارها للأخطاء..فأحست بانجذاب خفي نحوها..ونظرت إليها نظرة طيبة مليئة بالحنان..وقالت لها:

- ظننتك لا تخطئين مثلنا..ولا تسأمين..وتضجرين.. فحياتكم في أوروبا مليئة بأشياء كثيرة وحرية بحيث لا يجد الإنسان نفسه مُجبرًا على اختيار شيء مفروض عليه..!

- الأمر ليس مثلما تتصورين نحن بشر أيضًا..والإنسان كائن ناقص.. مليء بالأخطاء..لكن الحكيم من يتعلم من الأخطاء..ومع الأسف البشر بشكل عام ليسوا حكماء..والحكمة تأتي في الوقت الضائع دومًا..

كان الآدمان يتبادلان طوال الحديث النظرات بينهما..كان آدم الشبيبي مسرورًا بالحديث.فكلا المرأتين أثارتا إعجابه..بينما شعر آدم أبو التنك بالحرج من تعليقه على زوجته بتلك الجملة الحقودة..والتي أثارت هذا الحوار..بيد أن حواء الزياني أحست بأن عليها أن تساهم بمثل هذا الحوار فقالت بتأمل:

- معرفتك للبلاء بلاء ..

- وقال لي..معرفتك بالبلاء بلاء..وإنكارك للبلاء بلاء...هذا ما قاله النفري في موقف الاختيار..أليس كذلك..؟

أحست حواء الزياني بالحرج..فقد شعرت وكأنها سرقت مقولة النفري.. لكن في الوقت نفسه أسعدها ذلك لأنه كشف لها عن معرفة آدم الشبيبي بالعالم الصوفي..ومقولاته.فقالت:

- نعم..أنت محق..هو موقف الاختيار.. أوقفني في الاختيار وقال لي كلهم مرضى.

- نعم..كلهم مرضى..

أحس الجميع بأن آدم الشبيبي وحواء الزياني أخذا يتباريان بالمقولات واستعراض المعرفة، ولم يعجب ذلك آدم أبوالتنك الذي قال:

- حديثكما كالشكولاته في عذوبته..أو كالآيس في يوم قائض..لكننا الآن في مطعم نأكل التبولة والمشاوي..مثل هذا الحديث يحتاج لجلسة خاصة جدًا..ما رأيكم أن تتفضلوا عندنا جميعًا إلى البيت..نأخذ المكسرات السورية اللذيذة.. وقالب من الكيك والتورتة.. وقنينة من النبيذ والعرق السوري الطيب..ونذهب نكمل حفلتنا في البيت..!!

شعت عينا حواء الفارسي وكذا أحس آدم الشبيبي بدفق من فرح مفاجئ.. إلّا أن حواء الفارسي سبقته بالتوجه للمرأتين..لاسيما حواء الساري قائلة بنبرة مليئة بالرجاء:

- أرجوكما..وافقا..ستكون جلسة البيت أجمل وأكثر أمانًا..ستأخذان راحتكما أيضًا..

نظرت المرأتان لبعضهما البعض وابتسمتا..ابتسمت حواء الساري لها وقالت:

- لا مانع..

في تلك اللحظة بادر آدم أبوالتنك بالإشارة إلى عامل المطعم بما يشير إلى تسديد الحساب.

حينما استعدوا للخروج..همست حواء الساري لصديقتها بأن تحتجب بجانبها بحيث لا ينتبه آدم الحمصي لها..بينما حاول آدم الشبيبي أن يتصرف كجنتلمان مع المرأتين بحيث فسح لهما المجال كي تسيرا أمامه بخطوة.. ولم تشأ المرأتان أن تكونا مستقلتين عن مجموعهم..لاسيما عند المرور بالقرب من طاولة الرجلين التي كان آدم الحمصي أحدهما..إلّا أن حركة مفاجئة من آدم أبوالتنك أنقذتها حينما تحركا للخروج فأنه توجه إلى القرب من طاولة الرجلين التي بان الارتياب والارتباك على ملامحهما..وقال مخاطبا الدكتور آدم كارثة وجليسته قائلًا بمودة:

- حسابكم واصل دكتور..!

التفت الرجلان إلى طاولة الدكتور آدم كارثة الذي شعر بالفرح..وأبدى علامات التشكر بوضع يده على صدره وهو يقول له:

- ألف مبروك..إن شاء الله بالرفاه والبنين..!

في تلك الأثناء مرقت المرأتان وبجانبهما آدم الشبيبي خارجين ملتفين على الجهة البعيدة عن الأنظار، بينما ظلت حواء الفارسي تنتظر خروج زوجها .

غيرة وتحدٍ

كانت المائدة عامرة..وكان آدم أبوالتنك كريمًا في الإعداد لهذه الجلسة البيتية، فقد كانت الطاولة غير الكبيرة تتوسط الصالة وبجانبها اصطفت الطاولات الصغيرة وعليها الصحون المليئة بالمقبلات التي ابتاعها من المطعم الذي كانوا فيه..تبولة..متبّل..حمص بالطحينية..والخس والفجل الأحمر..وثلاث قنانٍ من النبيذ الأحمر وقنينة من عرق „الريان” السوري.. إلى جانب صينية من المشاوي المشكّلة..وكانت هذه الحفاوة موضوع تقدير المرأتين.

انتبهت المرأتان إلى أن حواء الفارسي منذ أن دخلوا البيت صارت أكثر حيوية وكأنها ليست تلك المرأة المترددة والصامتة وعديمة الشخصية كما كان الانطباع الأول عنها.. إذ أنها رحبّت بهما وكأنهما الآن في ضيافتها هي.. وكانت قد قضت وقتًا في المطبخ يساعدها آدم أبوالتنك حيث أحضرت مقبلات أخرى كالخيار باللبن مع الثوم، وفتحت علب الحمص المسلوق حيث أضافت له قطع صغيرة من الفلفل الحار والليمون..!

المرأتان وآدم الشبيبي بل وحتى زوجها لم يدركوا ما كان يجول في أعماقها خلال ذلك الوقت..إذ بدت أنها مشغولة بإعداد مقبلات أخرى ضرورية لتناولها مع العرق..بيد أنها كانت تفكر بنعمة وجود الضيوف

حاليًا في بيتها إذ جنبها ذلك ضرورة التواصل الجنسي المحتوم مع آدم أبوالتنك، لاسيما وأنها لم تستوعب كل الذي جرى من زواج وعقد شرعي في المحكمة بعد.. كما راودها شعور التشفي من آدم الشبيبي لأنها أدركت أنه حائر بين المرأتين ولم ينجح بعد بإقامة علاقة واضحة مع أية منهما.. فهو كما يبدو من تصرفاته ونظراته المحايدة لم يعد ميالًا للمغربية، ولم يكن قد أثار اهتمام المرأة الدنماركية مثلما تشي نظراتها نحوه.. وانتبهت له وهو يحاول تملقها من خلال تفضيلها في الخدمة حول الطاولة..

جلس الجميع حول المائدة..رحب آدم أبوالتنك بهم مرة أخرى..نظر إلى آدم الشبيبي نظرة استفهام..وانتقده بمزاح عن تأخره في فتح القناني..سأل المرأتين إن كانتا تفضلان النبيذ على العرق..ولم يعر زوجته أي اهتمام.. وكأنها غير موجودة..المرأتان اختارتا شرب النبيذ بينما قرر الرجلان أن يشربا العرق...اعتذر آدم الشبيبي لتماهله..فتح إحدى قناني النبيذ وقنينة العرق..صب النبيذ في قدحي المرأتين..ثم أعدّ كأسيّ الخمر لهما..وقبل أن يرفعا الأنخاب..وفي تلك اللحظة بالذات قالت حواء الفارسي بشكل مفاجئ أذهلتهم جميعًا وبنبرة في حزم وغضب مكتوم:

- أريد أيضًا أن أشرب النبيذ..صب لي يا آدم..أنا عادة لا أشرب..لكن احتفاءً بهذه المناسبة..وعلى شرف تواجد السيدتين حواء الزياني وحواء... الدنماركية العربية..

ابتسمت لها حواء الساري ونطقت بلقبها صحيحًا:

- الساري...اسمي حواء الساري..

- نعم..وعلى شرف حواء الساري..سأشرب كأسًا معكم..!

صُدم أدم أبوالتنك..لم يكن يعرف هذا الجانب المشاكس والعنيد في شخصيتها..وفسّر ذلك كتحدٍ له وليس رغبة منها في الشرب أو حتى الإحتفاء بالمرأتين..فلو كان قد سألها أيضا فلربما اختارت أن تشرب عصيرا أو أيًا من المشروبات الغازية..وأحس أنه ضعيف أمام هذا الجانب في شخصيتها ولن يستطيع مواجهته. شعر بالحرج أمام الجميع، فحاول أن يداري الموقف.. فابتسم قائلًا بمبالغة في التساهل لم يرغب بها حقًا.

- يمكن أن تشربي كأسًا من عرق الريان إذ أحببت..إنه لذيذ جدًا.. ومريح.

- لا..لأجرب النبيذ أولًا مع ضيفتينا أولًا..وربما فيما بعد سأجربه.. ردّت بحزم.

أعـدّ آدم الشبيبي لها كأسًا من النبيذ منتبها إلى التوتر الخفي في هذا الحوار فأراد أن يعود بالجميع إلى جو الاحتفال، فرفع كأسه قائلًا:

- في صحة الزوجين..بالرفاء والبنين..

ورفعوا الانخاب التقليدية في صحة الزوجين.

ترددت حواء الفارسي في ارتشاف ما في كأسها فهي تشرب النبيذ لأول مرة في حياتها لكنها رفضت أن تُعامل كنكرة ومهملة ولا وجود لها لاسيما أمام هاتين المرأتين المثقفتين..وبما أنها تحدّت زوجها في أن تشرب النبيذ، إذن عليها الإقدام على ذلك..تأخرت لثوانٍ عن ارتشاف النبيذ.. لمحت تكشيرة غريبة ارتسمت على وجه آدم الشبيبي وزوجها بعد أن عبّا ما في كأسيهما من خمرة دفعة واحدة..ولا إراديا عبّت ما في كأسها من نبيذ إلى آخره.

أحسّت حواء الفارسي بالطعم اللاذع للنبيذ..لم يعجبها طعمه..إلا أنها أحست بدبيب دافئ يسري في جسدها. وكانت تشعر بالدم يرتقي ويصعد إلى وجهها وثمة ما يشبه الهواء الساخن أخذ يتجمع داخل جمجمتها..خدر لذيذ.

لم يترك آدم الشبيبي فرصة للجميع إذ أنه ملأ الكؤوس الفارغة مباشرة، وحين وصل إلى كأس حواء الفارسي الفارغة نظر إليها ..التقت نظراتهما.. وأومأت له برأسها ايجابًا..فملأ كأسها الفارغة..كانت غايته من هذه العجالة في الشرب هو أن يؤثر النبيذ في حواء الساري أكثر من أي شيء آخر..يريدها أن تسترخي وتكشف عن وجهها الحقيقي بعيدًا عن هذه الرزانة والسكون الذي يخفي خلفه أسرارًا ومشاعر جياشة..لذا لم يمهلهم وقتًا مناسبًا إذ رفع كأسه..ولا إراديًا رفع الجميع كؤسهم..ثم استقام واقفًا ناهضًا وأنشد:

- يا لائِمي في هَواهُ وَالهَوى قَدَرٌ.. لَو شَفَّكَ الوَجدُ لَم تَعذِل وَلَم تَلُمِ

لَقَد أَنَلتُكَ أُذنًا غَيرَ واعِيَةٍ.. وَرُبَّ مُنتَصِتٍ وَالقَلبُ في صَمَمِ

تألقت العيون والوجوه بالإعجاب..بيد أن كل واحدٍ منهم فسّر معنى البيتين الشعريين حسب تصوراته، لاسيما أنه أنشد الشعر وهو يوزع نظراته بين الجميع..حواء الفارسي ظنت أنها هي المقصودة بهذا البوح..آدم أبوالتنك ظن أنه يقصده..المرأتان لم تفهما الأمر سوى أنه في حالة نشوة خلقتها الخمرة وأن قراءة الشعر هي جزء من طقوس مثل هذه الجلسات الشرقية الحميمة..!

ارتشفت المرأتان بعضا مما في كأسيهما..بينما عبّت حواء الفارسي الكأس كله..نظر الآدمان إليها بريبة مستغربين من جرأتها.. حتى ظن آدم

أبوالتنك بأن لديها تجربة كبيرة في الشرب..!..لكن المفاجأة كانت حينما أنشدت حواء الزياني مسترسلة ردًا على ما أنشده آدم الشبيبي من شعر:

-لقد صار قلبي قابلًا كل صورة فمرعى لغزلان، ودير لرهبان

وبيت لأوثـــان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه..فالحب ديني وإيماني

– واووو...رائع.. صرخت حواء الساري بإنبهار..

أحس آدم أبوالتنك بالحرج..كان الكأسان اللذان عبّهما قد سريا في دمه..فأحس بالاسترخاء.. فقال بما يشبه العتاب المرح:

– ستحولان الجلسة إلى مباراة شعرية..

– أنا أحب الشعر جدًا..

قالت حواء الفارسي وهي تنظر لأول مرة بلطف إلى زوجها..ارتبك آدم أبوالتنك من لطف نظرتها..فلأول مرة تنظر إليه بهذه الرقة والاسترخاء..فكّر مع نفسه بأن ذلك ربما بتأثير النبيذ..نظرت حواء الساري إليها وقالت مؤيدة:

– وأنا أيضًا أحبه..لكني لا أستطيع أن أعبّر عن نفسي بشكل صحيح..

– على أية حال..لنأكل الآن..ونشرب..والحوار سيكون أجمل فيما بعد..!

ابتسموا لبعضهم..وأيّدت حواء الفارسي زوجها وأخذت تضع المشاوي وأنواع السلطة في صحنين وقدمتهما للمرأتين الضيفتين.. وقالت للرجلين ضاحكة بأن عليهما أن يخدما نفسيهما..كان مزاجها رائقًا..وأحسّت بأنها تخرج من طبيعتها الخجولة المقيدة.. وبرغبة في أن تحتسي كأسًا آخر من النبيذ.

أكلوا.. وشربوا.. وتكررت الأنخاب والأمنيات الجميلة.. وسرى جذوة النار التي تكمن في النبيذ والعرق في عروقهم. فاسترخوا جميعًا.. وضحكوا.. وصاروا أكثر ألفة في ما بينهم.

• وبرغم الجو الأليف الذي هيمن على جلستهم..إلّا أن آدم الشبيبي ظل يرغب في أن يعلّق على الأبيات الشهيرة لابن عربي التي أنشدتها حواء الزياني..إلّا أن صوت رسالة هاتفية سرقت انتباههم جميعًا..ارتبكت حواء الساري وفتشت في حقيبتها عن جهازها الهاتفي..أخرجته..قرأت الرسالة التي وصلتها..ثم وضعت الجهاز في حقيبتها الجلدية ثانية.

• راود آدم الشبيبي حدس بأن المرسل هو رجل ما..فتسربت في نفسه مشاعر غيرة..لكن رغبته في التعليق كانت أقوى من غيرته العابرة.. فقال موجّهًا كلامه إلى حواء الزياني:

- أتعرفين يا حواء..أنت قرأت أشعارًا لابن عربي..تجاوز فيها عنصرية الأديان..فهو يتحدث عن الدين الطبيعي للإنسان.. وهو موقف تجاوز فيه عصره ..فأنا أرى الإنسان مخلوقًا بائسًا شوّهته الأديان..لاسيما تلك التي تسمي نفسها «السماوية».. والمشكلة ليس إدّعاء كل دين بأنه أفضل الأديان وأكثرها أصالة وأن الأديان الأخرى محرفة فحسب، وإنما هي شوهت الإنسان حينما زيفت حقيقة الكون ووضعت الإنسان في مركز الكون.. وأوهمته بأن الخالق الذي نسميه «الله» قد خلق الإنسان من أجل أن يعبده..!

- « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ »...هذا ما جاء في القرآن.. علّق آدم أبوالتنك.

نظر آدم الشبيبي إليه بضيق خفي، فقد كان ينتظر أن تحاوره إحدى المرأتين..لكنه وجد نفسه يجيب:

– أنا أستغرب ذلك..أعرف هذا النص..لكن أعتقد أن من يحتاج للإعتراف والعبادة فأنه يسعى إلى طلبها ممن هم أقوى منه أو على الأقل في مستواه..لا أن يطلبها ويتوسلها من مخلوقات ضعيفة وبائسة خلقها هو بنفسه..مخلوقات لا ترى بالعين المجردة إذا ما ارتفعنا بضعة كيلومترات بالطائرة في الفضاء في الفضاء..!.

– الكون لم يخلق من أجل الإنسان..وليس غاية الكون أن يعبد الإنسان الخالق..علّقت حواء الزياني.

– بالضبط..فالأرض ليست سوى حبة رمل في هذا الكون الرحيب.. وليس من المعقول أن الخالق خلق كل هذه الكون والمجرات الهائلة من أجل الإنسان..ليس للكون غاية كما نفهمها نحن البشر..أو كما أكدت الأديان ...

– انتبه لكلامك..إنك تجدف..هذه أفكار خطيرة.. علّق آدم أبوالتنك

– لا خطيرة ولا بطيخ...أنا أحب الله حبا عقليًا..مثلما كانت أمي البسيطة تصلي له لا خوفًا منه ولا طمعًا فيه وإنما تجد فيه واهبًا عظيمًا وأبًا رحيمًا يحتضن همومها الحياتية البسيطة..قال آدم الشبيبي بنبرة فيها غضب مكتوم.

– يا صديقي أنت في متاهة.. علق آدم أبوالتنك بهدوء.

– ومن منّا ليس في متاهة..كلنا تائهون..وعميان.. رد آدم الشبيبي.

– أنت الآن تنتقد الأديان وتتحدث بنور العلم..وتقول إنك أعمى..! علقت حواء الفارسي.

لم يتوقع آدم الشبيبي بأن حواء الفارسي ستعارضه وبشكل منطقي..فرد برفق وكأنه يعتمد إفهامها أكثر مما يرد عليها فقال:

– نعم..فضيلة العلم أنه يعترف بأخطائه ومعلوماته حسب كشوفاته.. بينما الأديان خارج الزمان والمكان..فهي تهددنا و تنذرنا: إياك أن تخطئ في حرف مكتوب!!

– لا أفهمك... علق آدم أبوالتنك..!

– ولن تفهمني..!رد آدم الشبيبي.

كانت المرأتان تستمعان بصمت..فجأة، قالت حواء الفارسي موجهة كلامها لآدم الشبيبي:

– أنت تخيفني بهذه الأفكار..!.. لماذا وجدنا إذن..!

فقاطعتها حواء الزياني قائلة:

– كل مشهد لا يريك الكثرة في العين الواحدة لا يعوّل عليه..كما قال ابن عربي.

لم تفهم حواء الفارسي معنى ما قالته حواء الزياني، لكنها أحسّت بالغيرة منها..فكلامها فيه عمق لا تدركه هي..ومن المؤكد أن هذا الكلام سيعجب آدم الشبيبي..هكذا فكرت مع نفسها..!..لكنها لا تدري لماذا انبثقت صورة الدكتور آدم كارثة في ذهنها..فأرادت أن تشاكس الرجلين فقالت بخبث:

– مع الأسف أننا ما دعينا الدكتور آدم كارثة وصديقته..لكان النقاش الآن أحلى..

انزعج كلا الرجلين من ذكر الدكتور آدم كارثة..

– من هو الدكتور آدم كارثة..؟ يا له من اسم غريب.. سألت حواء الزياني.

ارتبك آدم أبوالتنك لكنه وجد نفسه مضطرًا للقول:

– إنه أستاذ جامعي عراقي..كان اليوم موجودًا في المطعم بمعية امرأة شقراء..دعوته لكنه كان منشغلًا مع المرأة..

لم يشارك آدم الشبيبي في التعليق، لكنه برغم ذلك تذكّر المرأة الأنيقة التي كانت تجلس مع الدكتور آدم كارثة، والتي التقت عيناه بعينيها للحظات بقيت راسخة في ذاكرته..وتمنى فعلًا لو أنها كانت موجودة الآن.

ولا إراديا وجد نظره يقع على صحن حواء الساري فانتبه أنه لم يمس.. كما انتبه إلى أنها لم تشارك بالحديث.، فمنذ أن قرأت الرسالة الهاتفية وهي في مزاج قلق..نظراتها شاردة..وكأنها ليست معهم..برغم حالة الاسترخاء القريبة من حالة الثمالة الخفيفة.. فسألها بهدوء وبصوت خافت:

– هل هناك شيء ما قد حصل..؟

هزت رأسها نافية..انتبهت لنفسها إلى أنها ليست معهم..اصطنعت ابتسامة وحاولت أن تبدي اهتمامًا خجولًا..تأمّل آدم الشبيبي وجهها المثير.. راوده إحساس مفاجئ بأن هذه المرأة لن تمر في حياته مرورًا عابرًا..انتبهت حواء الفارسي لنظراته..ارتبك هو..أدرك أنها قرأت أفكاره عن هذه المرأة.. وكرد فعل لا إرادي وجّه نظراته إلى آدم أبوالتنك وكأنه بذلك يريد أن يعبّر لها عن عدم اهتمامه الخاص بحواء الساري..لكنه في الوقت نفسه كان منزعجًا من تصرفه هذا في استرضاء حواء الفارسي وحرمان نفسه من تأمّل جمال هذه المرأة الغامضة.

فجأة وعلى غير توقع نهضت حواء الساري، وهي في حالة استرخاء، حتى دون أن تستشير صديقتها وقالت بصوت خجول:

- أنا أعتذر منكم يا جماعة..لا بد لي أن اغادركم..وصلتني رسائل مهمة ويجب أن أجيب عليها..! شكرا لكم على هذه الأمسية..متمنية لكم حياة سعيدة..!

تفاجأ الجميع..نظرت حواء الزياني لصديقتها باستغراب من تصرفها.. شعر آدم أبوالتنك بالحرج بينما أحست حواء الفارسي بالضيق من قرار المغادرة حيث ستبقى وحيدة مع زوجها..كما أنها تعرف أن آدم الشبيبي سيذهب معهن..!!

بعد ثوان نهضت حواء الزياني مستسلمة لقرار صديقتها، لكنها أثناء ذلك أحست أن السكر قد تمكن منها إذ أنها كانت تعب النبيذ ولا تشعر بتأثيره سوى الآن..وقام آدم الشبيبي معهما. بدا أن الأمر لا يحتمل الإقناع..إذ قال آدم أبوالتنك للمرأتين:

-وددنا أن تستمر السهرة أكثر..فوجودكما أضفى على احتفالنا بهجة خاصة..

وفي غمرة الاستعداد للخروج طلب آدم الشبيبي من صديقه أن يعيره مخطوطة «متاهة العميان» لأنه بدأها ولم ينته منها..تردد آدم أبوالتنك للحظات لكنه أعاره إياها مرة أخرى مؤكدًا على العناية بها وحفظها من التلف والضياع.

وغادر الجميع البيت..بمن فيهم آدم ابوالتنك وزوجته لتوديع الضيوف حتى سيارة التاكسي.

***

حين عادا إلى بيتهما بعد أن ودعّا ضيوفهما شعرا بشيء من الحرج فهما يعرفان ماذا ينتظرهما الليلة..انهمكا بلملمة المائدة ورفع الصحون والكؤوس..وعملوا ذلك ببطء شديد..كانا كلاهما يحسّان باسترخاء جسدي ونفسي بفعل الخمرة والنبيذ..قال لها محاولًا أن يكسر الصمت الذي طال بينهما:

- إنهما لطيفتان..

- نعم..لطيفتان..لاسيما الدنماركية...أحببتها أكثر..ويبدو أن صديقنا آدم الشبيبي متعلق بها..

- ربما..لكنه يريد مغادرة الشام بأي طريقة..لذا سيكون مع التي ستخلصه من محنته..

- لكن كان هو سكرانًا..وهن كن أيضا منتعشات..كان بإمكانه المبيت هنا..

- كيف..؟

أحست أنها برغم الاسترخاء والنشوة التي هي فيها إلا أنها ربما كشفت عن رغبتها أكثر من اللازم..فقالت ملتفة قليلًا حول ما كشفت عنه:

- أقصد أننا أقرب إليه من هاتين المرأتين..ثم أنه كان تعبانًا وسكرانًا.. يعني كان يمكن أن ينام هنا..

- أنا أردت أن أقول له ذلك..لكني خفت أن تفهميني بشكل خاطئ..

- ولماذا أفهمك بشكل خاطئ..

قالت ذلك وخرجت من المطبخ متجهة نحو غرفة النوم..تأخر هو قليلًا..كان محرجًا أن يتبعها..فكر مع نفسه: أأبقى أشغل نفسي في المطبخ..

أم أذهب لأتابع الأخبار في الصالة..لكن في كل الأحوال لا بد وان أكون معها في الغرفة..!.. ووجد نفسه يجر نفسه لا إراديًا عن نحو غرفة النوم.

***

ما أن خطت حواء الفارسي غرفة النوم حتى أحست بقشعريرة تسري في جسدها..ورغبة خفية غامضة في شيء مجهول تتوقع أن يحدث بعد قليل.. فكرت مع نفسها وهي في نشوة الاسترخاء الدافئ بأن الأمر قد حُسم..هي الآن زوجته وفق الشريعة والقانون.. وعليها أن تستسلم لهذه الحقيقة..لم تكن في بدلة عرس..ولم تقام لها زفة وموسيقى ورقص..مجرد غذاء في مطعم..تبعه جلسة أصدقاء في البيت..لا أكثر..لكن عليها الآن أن تستعد لليلتها الأولى كزوجة لآدم أبوالتنك..وأن تسمح له بالإقتراب منها..لكن كيف ستواجهه.. وتكشف له الحقيقة..؟ وكيف سيستقبل الأمر..؟ تمنت لو أن آدم الشبيبي هنا الآن قربها في البيت..ولا تعرف لماذا راودتها هذه الرغبة..!

لا شعوريًا توجهت إلى السرير..رتبته قليلًا..وقفت عن حافة السرير.. راودتها فكرة أن تنزع ثيابها وتتعرى..بقيت لثوان تفكر في الأمر..لم تنزع سوى سروالها الداخلي..بقيت بثوبها..توجهت إلى زر النور وضغطته فغرقت الغرفة في الظلام..وبخطوات سريعة مشت نحو السرير..ألقت بنفسها عليه..سحبت البطانية الخفيفة على جسدها وظلت تنتظر وصول آدم أبوالتنك..!

***

وقف آدم أبوالتنك أمام باب غرفة النوم مترددًا..ومرتبكًا..وبرغم حالة الاسترخاء التي هو فيها من أثر الشرب..إلا أنه كان قلقًا.. فجأة تراجع عائدًا

إلى الصالة الصغيرة وجلس على الصوفا هناك..جلس حائرًا..مترددًا.. منكسرًا..وخائفًا.. يقلّب النظر بين باب الغرفة..وأنحاء البيت..نهض وكأنه يهم بمغادرة المكان..لكنه ظل واقفًا لا يتحرك..بقيّ لدقائق واقفًا وهو يركز عينيه على باب الغرفة..وأخيرًا جلس في مكانه دون أن يخطو خطوة واحدة.

***

انتظرت حواء الفارسي في سريرها..فجأة سمعت صوت وقع خطواته ووصولها الى عتبة الباب..توقف الصوت..لكن لا أحد يدخل..كانت هي مرتبكة..انتبهت أيضًا إلى تراجع الخطوات وابتعادها عن عتبة الباب..لم تفهم لماذا لم يدخل..!.

ظلت مستلقية على السرير وهي تترقب دخوله..فجأة سمعت وقع الخطوات تقترب ثانية..غطت وجهها بالبطانية برغم أن الغرفة مظلمة.. اقتربت الخطوات..سمعت صوت الباب وهو يُفتح..لم ترفع البطانية عن وجهها..ظلت تنتظر أن يقترب..وجدت نفسها تفكر في نفسها..هي لا تريد التفكير بما سيجري بعد قليل..هي لا ترغب فيه شخصيًا كرجل.. وإنما ترغب الآن في أن ينتهي كل شيء..أن تواجه سرّها..! لقد تنازلت عن الفستان الأبيض.. والزفة..والأثاث الجديد..ولم يكن ذلك تواضعًا منها أو زهدًا وإنما هو استسلام أمام حقيقة تعرفها هي وحدها..مرتبط بكارثة تنتظرها ربما بعد قليل..لا.لا..آدم أبوالتنك إنسان تقدمي..يؤمن بحرية المرأة..ويتعاطف مع النساء المضطهدات..ولن يتوقف عند ما سترويه له من حكايتها التي هو لا يعرف عنها شيئًا..لكنها الآن لا تريد أن تفكر بهذا الأمر..تريد أن يأتي ..ليكتشف بنفسه..ولتنتهي من هذه المعاناة والتفكير المرهق بما سيأتي..!

لم يحدث أي شيء..ولم تسمع أية نأمة..!..هل كانت هي متأكدة من دخوله إلى الغرفة..! سألت نفسها.. فجأة..سمعت صوت انطباق الباب.. وصوت الخطوات وهي تبتعد..!.

ظلت مستلقية على السرير لدقائق..أخذت تسأل نفسها عن سبب خروجه..وبرغم شعور الخوف المتأهب للمواجهة فإن هاجسًا غامضًا راودها لمعرف السبب، فقامت عن السرير..ولا إراديًا لبستْ سروالها الداخلي..اقتربت من الباب..ضغطت على الزر الكهربائي فأُضيئت الغرفة. فتحت الباب وخرجت إليه.

كان آدم أبوالتنك جالسًا على الصوفا التي كان ينام عليها عادة..كان يشاهد التلفاز بانتباه وتوتر..لكن ما أن رآها وانتبه إلى نظراتها المتسائلة حتى زاد ارتباكه. اقتربت منه..صارت على بعد متر منه..انتبه إلى أنها ستسأله عن عدم التحاقه بها..! وقبل أن تسأله قال لها محاولًا تشتيت انتباهها:

- هل علمت ماذا حدث..؟

بوغتت هي بسؤاله، فقالت لا إراديًا:

- لا..ماذا حدث..؟

- المطعم الذي كنا فيه..

- ما به؟

- تم تفجيره بقنبلة وضعت في حقيبة جلدية سوداء..بعد خروجنا بقليل..

- ماذا تقول..؟ قالت مرعوبة.

- هذا ما قالوه في النشرة الإخبارية ..

- أوووف..وهل عرفوا من هو الفاعل؟

- لا طبعًا..لحد الآن لم يعلنوا شيئًا..لكن أكيد هناك كاميرا في المطعم قد سجّلت دخول وخروج كل رواد المطعم..

- هذا إذا لم تكن قد تضررت بفعل الانفجار..!

- نعم..نتمنى ذلك..

جلست على الصوفا المقابلة والتي كانت سريرًا لآدم الشبيبي..وبرغم أن الخبر هزّها من الأعماق وشتت انتباهها للحظات..، إلّا أنها نظرت إليه بتركيز وسألته:

- لماذا دخلت الغرفة..ثم خرجت..؟

صُدم آدم أبوالتنك بالسؤال. نظر إليها نظرة بلهاء..لم يعرف كيف يجيبها..! وبِمَ يجيبها..!..لكنه وجد نفسه يقول لها لاإراديًا:

- لم أشأ أن أزعجك..أحسست بالتعب الشديد من أثر الشرب..لذلك فضّلت أن أشاهد الأخبار..وأنام في الصالة..

راودها هاجس بأنه يخفي شيئًا..لكنها برغم ذلك صدقّته..وأحسّت بالراحة ..فقالت له:

- لماذا تنام في الصالة..؟ تعال تمدد على السرير..

- لا.لا. هنا أفضل..فأنا أشخر في النوم..!

- هل اتصلت بآدم..هل وصلوا إلى البيت..لقد كانوا كلهم سكارى تقريبًا..! سألت ونبرة يمتزج فيها السؤال بالأمر.

- اتصلت به..لا أحد يرد..لا بد أنه مشغول أو لم يسمع رنين الهاتف.. أجاب آدم أبو التنك باستسلام.

- أكيد مشغول بهذه المرأة الدنماركية أو تلك المغربية..

- سيجيب فيما بعد..

انتبه إلى توتر ملامحها والقلق الممتزج بالغضب على وجهها..وفجأة قالت:

- أحس بصداع غريب..

ارتسمت ملامح الكآبة على وجهها. توحهت إلى غرفة النوم دون أن تقول له شيئًا. ومن مكانه سمع صوت اغلاق غرفة النوم بعنف. ظل هو ساهمًا في جلسته. مفكرًا بضرورة تواجد آدم الشبيبي في البيت.فهو لن يكون قادرًا على تحمل غضبها المفاجئ والذي يفضح غيرتها على صديقه.

عميان في ليل مظلم

لم تنطق حواء الساري في سيارة التاكسي أية كلمة..وإنما كانت تقرأ في رسائلها التي وصلتها على هاتفها النّقال..بينما كانت حواء الزياني في حالة نشوة من النبيذ، وكانت مُتجلية بمشاعر صوفية هيمنت عليها بشكل مفاجئ..كان آدم الشبيبي في مقدمة السيارة يجلس وبيده مخطوطة „متاهة العميان"..وكان بين لحظة وأخرى يتلفّت إليهما..مختلسًا النظر إلى حواء الساري المشغولة بهاتفها.

السائق كان ينظر إليهم بريبة..فقد خمّن أنهم سواح أجانب..لكنه أطمئن لأشكالهم المهذبة، لاسيما بعد أن سمع حواء الزياني وهي تتحدث في حالة نشوة صوفية مخاطبة آدم الشبيبي بما لا يتناسب مع الوقت أو المكان:

- أتعرف يا آدم أننا البشر نعيش في الظلمات..؟

وجد آدم الشبيبي نفسه مضطرًا للمشاركة في الحديث وهو ينظر إلى السائق والابتسامة التي ارتسمت على وجهه:

- ماذا تقصدين..؟ ما معنى أننا نعيش في الظلمات..؟

وعلى الرغم من أنها وجهت الحديث له بالاسم إلا أن حواء الزياني واصلت الحديث وهي تنظر من خلال النافذة إلى الشارع المظلم..:

- السهروردي في إحدى رسائله التي تحمل اسمًا فارسيًا غريبًا..«عقل أحمر» يقول سألت الرجل قائلا: أيها العجوز أين هي عين ماء الحياة. فقال

لي: في الظلمات..فإن كنت طالبًا لها فالبس في رجليك نعالًا خاصة، والزم طريق التوكل لتصل إلى الظلمات..! قلت: الطريق من أي جانب؟ قال: من كل جهة تذهب ..إن تسرِ تعرف الطريق..قلت: وما هي علامات الظلمات..؟ قال: السواد..وأنت نفسك في الظلمات لكنك لا تعلم..!

اندهش آدم الشبيبي من قوة ذاكرتها وحفظها لنصوص المتصوفة، لاسيما وهي في هذه الحالة من نشوة النبيذ. وقبل أن يعقب على كلامها قال السائق مؤيدًا:

- سلمت يا أستاذة..كلامك من ذهب..نحن في الظلمات دون أن نعلم.

لم تعلّق على كلام السائق، وإنما استمرت تتأمل الشارع.. انتبهت إلى مجاميع وفُرادى من العميان يسيرون في الطرقات..بعضهم يسترشد بعصاه وبعضهم يمد ذراعه إلى الأمام كي تمنعه من الاصطدام بشيء ما.. استغربت..لكنها ظنت أنها تتخيل ذلك.. لاسيما وهي تتحدث بأن الإنسان أساسًا في الظلمات..!.

سكت آدم الشبيبي ولم يعلق على كلامها حينما رأى أنها استمرت في التأمل والنظر من النافذة..ففهم أنها ربما قد ثملت بالنبيذ. أما حواء الساري فقد كانت منشغلة بكتابة رسالة هاتفية..وكأنها كانت في عالم آخر. صمت.. وغرق في عالمه. مفكرًا مع نفسه بأن الانزلاق يبدأ بخطوة على المنحدر، فهو الذي يقود إلى القاع..وعليه أن يوصلها إلى المنحدر..لكن كيف..عليه أن يبحث عن وسيلة ما.

***

نزلوا من التاكسي عند منعطف الشارع الذي يقود إلى الحارة..فلم يكن البيت كما فهم من حواء الزياني بعيدًا عن الشارع الرئيسي..!

كانت حواء الزياني ثملة..إذ كان تأثير النبيذ واضحًا عليها..بينما كان تأثيره أقل على حواء الساري..وحين وصلوا إلى المنزل قامت حواء الساري بفتح الباب.

وجد آدم الشبيبي نفسه وسط صالة صغيرة أنيقة فيها تلفزيون وطاقم كامل يتألف من صوفتين متقابلتين وبعض المقاعد المكملة.. ثمة غرفتان متداخلتان الواحدة تقود إلى الأخرى. وفي الجانب الآخر غرفة ضيقة بدا أنها المطبخ، وإلى جوارها غرفة الحمام.

ما أن دخلوا المنزل حتى قالت حواء الزياني له بصوت ثمل:

- أنت ستنام هنا يا آدم..على هذه الصوفا..ستأتيك حواء بالأغطية والوسادة.. تصبحون على خير..أنا سأذهب إلى النوم..أحس برغبة عميقة في النوم..

ولم تنتظر أي جواب أو تعليق إذ مضت إلى أعماق الغرفة..بينما رد الأثنان على تحيتها بتحية أخرى..ظلا واقفين..لم يعرفا ماذا يفعلان..فجأة قالت حواء الساري له:

- سآتيك بالوسادة والبطانية..لحظة..

ودخلت إلى الغرفة. جلس هو على الصوفا. أعجبه المكان..سأل نفسه: كيف لي أن أبقيها معي..يجب أن أشغلها عن الذهاب إلى النوم..هذه هي الخطوة الأولى..!..ولم يستمر بالأسئلة، إذ أقبلت وهي تحمل وسادة وبطانية..ألقت بهما على الصوفا المقابلة.. لكن كان واضحًا أنها لا تريد النوم..فتجرأ وقال لها:

- هل حدث شيء لا سمح الله..؟ رأيتك مرتبكة منذ أن استلمت رسالة على هاتفك النقال..!

لم يكن يتوقع أن لهذه الجملة العفوية البسيطة تأثيرًا عليها..وكأنه فتح لها الباب لكي تخفف عن قلقها، فقالت بنبرة فيها استياء واضح:

– هذا صديقي الإغريقي..خنقتني رسائله..يوميًا يرسل لي عشرات الرسائل الهاتفية..غيرته دمرت أعصابي..هو إنسان طيب ويحبني..ويهتم بي..ويساعدني ماديًا..لكني لا أعرف كيف أتصرف معه..

– وأنت ..؟ هل تحبينه.. سأل بتوجس.

– لا ....أنا في حيرة..فمن جانب نفسي شخصي لا أشعر بالراحة الكاملة من هذه العلاقة..لكن من جانب آخر مرتاحة من وجوده إلى جانبي ومساعدته لي..وحبه لي..هذا يريحني لكن لا أستطيع القول يسعدني.. مشكلتي معه أنه غيور جدًا.. ومتسلط..حتى في الجنس لا أشعر معه بالراحة..فحين أكون معه أجد نفسي استحضر رجالًا آخرين عشت معهم هذه اللحظات..لكني أحيانًا استجيب وأجبر نفسي على الاستجابة إشفاقًا عليه..

– أعتقد أنك لا تحبينه..وإنما تحبين حبه لك واهتمامه بك..لأنك تشعرين بالعزلة..والخيبة..والوحدة.. قال آدم الشبيبي بهدوء.

– صحيح..لذلك رفضت أن أسافر معه إلى اليونان..وجئت دمشق..

– لماذا لا تكوني واضحة معه..وتخبريه بمشاعرك الحقيقية..سأل آدم الشبيبي بهدوء حذر.

ابتسمت قليلًا وقالت بنبرة يائسة:

– أخبرته..لكن بدون فائدة..يبكي.. ويقول لي إنه سينتحر لو تركته..

– ربما يجد فيك أمه.. علّق آدم الشبيبي مبتسمًا.

– بالضبط..فأنا أتعامل معه أحيانًا كأم..أكثر مما أتعامل معه كعشيقة..

فجأة..انتبه إلى أنهما يتناقشان وهما واقفان..فوجد نفسه يقول لها:

– اجلسي..بالمناسبة..هل لديكم نبيذ أو عرق أو أي مشروب في البيت كي نواصل سهرتنا ..ونتحدث..!؟

نظرت إليه لثوان وكأنها تستبطن مغزى السؤال..ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهها وقالت:

– أعتقد أن لدينا قنينة نبيذٍ لم نفتحها بعد..أردنا أن نحتفل ليلة وصولي.. لكننا خرجنا إلى المدينة..فكرة لطيفة أن نفتحها الآن ونواصل الحديث..فأنا أحس بالضيق من هذا الحصار والغيرة التي يصلني شعاعها الكئيب عن بعد آلاف من الكيلومترت..! سأرى في المطبخ..

همت أن تمضي نحو المطبخ فقال لها بحيوية وجرأة وكأنهما تجاوزا البرود في علاقتهما:

– سأساعدك في تحضير المقبلات..

ابتسمت وقالت:

– فكرة جيدة.

توجها إلى المطبخ..ولأن المطبخ ضيق ولا يسع لحركة شخصين بحرية فقد تعمد هو إلى أن يمس ذراعها العاري أثناء محاولته مساعدتها سحب القنينة من جارور الدولاب من الأعلى..ومرة أخرى أثناء وقوفهما جنبًا إلى جنب خلال تقطيعه لليمون في صحن بينما كانت هي تقطّع الجبن وتضع الزيتون في صحن آخر..واصطدم بكامل قامتها بشكل متعمد لكنه حاول

أن يبدي الأمر وكأنه جرى بشكل عفوي أثناء حملهما للصحون والقنينة والتوجّه إلى الصالة..

خلال الوقت الذي قضاه آدم الشبيبي في المطبخ كانت الرغبة في أعماقه تتأجج.. وكان ثمة قرار داخلي في أعماقه بأن عليه أن ينام معها الليلة..فالوقت مناسب جدًا..هي منتشية بما شربته من نبيذ في بيت آدم أبوالتنك..وهما سيشربان القنينة الجديدة أيضًا.. وفكر بأنه سيدعها تشرب أكبر كمية من النبيذ..!

***

– وكما أخبرتك..فقد احترمت قرارات والديّ وعشت كما كانا يريدان لي أن أعيش..لكني كنت أدرك أنه لا مفر لي نحو حياة الحرية إلا بالزواج.. لذا ومنذ سن التاسعة عشرة قررت الزواج..وسعيت إليه..لكن يبدو أني كنت واهمة بأفق حريتي.. لقد كنت مدركة لمحاسن الحياة الأوربية لذا كنت أعتقد أن زواجي من رجل مسلم أوروبي سيضمن لي حياة فيها ميزات وتوافق بين المعاملة الراقية وبين المودة والرحمة والتعامل الأخلاقي الإسلامي وبطريقة أوربية..وبرغم ذلك.. فقد اعتبر والدي زواجي من شخص مسلم أوروبي خطيئة..لأنه كان يريدني أن أتزوج من جنسية بلدي أو في أقصى الأحوال من عربي..المشكلة أن أبي كان يمنحني حرية الاختيار والثقة بيد لكنه كان يسلبني إياهما باليد الأخرى.

***

كانا قد شربا أكثر من نصف القنينة..وكانت هي تشرب أثناء الكلام دون أن تنتبه إلى أنه لم يمس كأسه الأول..وكانت تداعياتها قد ساهمت في أن تثمل أكثر..

كان آدم الشبيبي يستمع لها، لكن الرغبة فيه كانت تتأجج أكثر فأكثر..بل فكر بأن ينتقل من مكانه ليجلس معها على الصوفا نفسها..لكنها كانت تسرد حكايتها بطريقة مؤثرة فكان يود فعلًا أن يستمع لها أيضًا، فقال لها معقبًا على كلامها:

– ربما كانت لدى والدك مشاعر التملك..فبعدما صرت امرأة تملأ العين صار يغار عليك بطريقة لا واعية..كان لا يريد أن يملكك رجل آخر..

– ربما..فقد كان يرفض كل شخص يتقدم لخطبتي..وكان يبحث فيه عن الأخطاء..وكأنه كان يسعى لتزويجي لرجل كامل الخلق..لكن الجنس كان لدي مرتبط بالخطيئة..أتعرف..لقد تعرضت لحالة تحرش جنسي من صديق لأبي وللعائلة.. متدين مثله..كان مجيئه إلى البيت عاديًا..وكان أحيانا يحتضنني برفق ويجلسني في حجره..وكنت أحس بعضوه منتعظًا..لكني لم أكن أفهم ذلك.. كان يلمسني من فوق الثياب.وذات مرة مسكني وقبلني من شفتي قبلة حارة..

– كم كان عمرك..؟ سأل آدم الشبيبي وفي نبرة صوته شبق مكتوم.

– كنت قد دخلت العاشرة حينها..

– ألم تنتبهي وأنت في هذا العمر إلى تلك الحركات..؟

– لا..كان صديق والدي..فتحت عيني على محيطي وهو موجود..منذ كنت طفلة كان يمازحني.. ويقبلني...بل أذكر أنه كان يقول لي حين تكبرين سأتزوجك..عمومًا..في تلك اللحظة دخلت أمي.. فانتبهت..لم تقل شيئًا.. لكنها منعتني من الإقتراب منه مرة أخرى..

انتبه آدم الشبيبي إلى بريق عينيها..وأدرك أنه جرّها إلى الخطوة الأولى على المنحدر..وعليه أن يتحكم سريعًا في دفعها كي تهبط أسرع..وأدرك أن لديها أشباحها الخاصة التي تدفعها نحو القاع..عليه فقط أن لا يتركها تعود أدراجها إلى الجهة الأخرى.. فسألها بجرأة:

- وكيف كان شعورك حينها وهو يقبلك من فمك..وأنت في بداية سني المراهقة..؟..قال بهدوء.

نظرت إليه..وانتبه أنها لأول مرة تنظر إليه هو..كرجل أمامها..وليس مجرد شخص ما صادفته بشكل عابر..برقت عيناها وقالت:

- كان عندي فضول أن أتعرف على عالم الجنس لكن ليس مع صديق والدي..ناهيك أني كنت بحكم تربيتي الصارمة أنظر للجنس بأنه مرتبط بالزواج..بالزواج الشرعي فقط..!

- والآن..؟ سأل آدم الشبيبي بنبرة مخاتلة.

- دعني أكمل..المرأة التي تجلس أمامك هي ليست تلك التي أتحدث عنها..المرأة التي أمامك صار جسدها جسرًا لعبور عربات الرجال المظلمة..

- ماذا..؟..قال مندهشًا وباستنكار.

- تعرفت على زوجي..وهو من أم دنماركية وأب من أمريكا اللاتينية.. في المسجد..وخلال الدروس الدينية..وبالمناسبة..هو مسلم..لأنه اعتنق الإسلام حينما كان يدرس اللغات..وتخصصه كان في اللغة العربية..فقضى فترة في دمشق وهناك تعرف على بعض السوريين المنتمين للتنظيمات الإسلامية..لذلك كان يجيد العربية أيضًا..وفي إحدى التجمعات الإسلامية.. قال لي إنه أعجب بي ويريد أن يتزوجني..فقلت له يجب أن أفاتح أهلي..

- ألم تتزوجيه عن حب..عن قناعة..؟ سأل.

- لا..لم يكن حبًا..ربما قناعة..لأني أردت أن أعيش حياتي وحريتي.. إلى جانب أن انجذابي إليه كان انجذابًا جنسيًا.. فاتحت أهلي..أبي غضب..

لكنه كتم غضبه في أعماقه..ترك الأمر لي..أمي وافقت مباشرة..طلبت مني أن ألتقيه في مقهى.. التقيته..أعجبتني هيئته..وطلبت منه أن يتقدم لأهلي.. لكن غضب أبي انفجر بطريقة غريبة..

- كيف..؟ هل رفضه..؟ طرده من البيت؟..سأل آدم الشبيبي.

- على العكس..رحب به حسب الأصول..لكنه وجّه غضبه المكتوم والبارد نحوي..!

- كيف..؟ سأل بنبرة متعاطفة.

- لم يطلب منه مقدمًا ولا مؤخرًا لي..لا صداقًا ولا أي ضمان لمستقبلي.. وحينما قلت له يا أبي لِمَ تفعل ذلك..؟.. فما دام الزواج يتم شرعًا وحسب الطريقة الإسلامية قبل تسجيله في المحاكم الدنماركية فلِمَ لا تضمن حقوقي التي ضمنها الشرع في حال وقع الطلاق بيننا..؟..نظر إليّ حينها شزرًا وقال لي: لِمَ أنت خائفة..؟ ألست واثقة من اختيارك..؟ ألم تختاري أنت الزواج من هذا الرجل..؟ لحظتها سكت..قبلت أن أتحداه لتخلّيه عني وعدم حمايتي وانتقامه مني بهذه الطريقة..! أتعرف..! أنا لا أجيد التحدث عن نفسي..

- على العكس..أنت تتحدثين بطريقة ممتعة ومثيرة.. في أعماقي فضول أن أعرف تجربتك في الزواج..

نظرت إليه لثوان..لم يفهم ما وراء تلك النظرة فقد كان منشغلًا بتأجج الرغبة في أعماقه وحسابات ذهنه في جرها إلى البوح أكثر:

- زوجي مع الأسف لم يترك لي فرصة أن أحبه..لم يقل لي أية كلمة رقيقة ولم يبد حنانًا...كان يمارس دور الأب أو المرشد الروحي..يعاملني وكأني طفلة صغيرة..لا تفهم شيئًا.. والغريب أنه ومنذ أول يوم لزواجنا

ولمدة ثلاثة أسابيع تقريبًا كان يمارس الجنس معي عدة مرات في اليوم..
لكن في الشهر الثاني بدأت تقل ممارساته..كنت مستمتعة بتجربة الجنس..
صار يقترب مني مرة في الأسبوع..ثم مرة في الشهر..أو مرة كل شهرين..
ثم انقطعت..شخصيًا..وكأنما تفجر بركان في جسدي بعد الزواج..كنت
أريد أن يمارس معي كل يوم..كنت أنتظر أن يكون مزاجه رائقًا كي يلمسني
ويخترقني..وكنت أهيئ كل ما يلزم من أجواء في البيت..لكن دون فائدة..
كان بخيلًا ماديًا وعاطفيًا..وجنسيًا..إلى أن أكتشفت، مصادفة، أنه مولع
بأفلام البورنو..كان يسهر الليل كله في المكتب يشاهد أفلام جنسية..بورنو..
كان يمارس العادة السرية على الأفلام في المكتب بينما أنا كنت أصل إلى
حد البكاء أحيانًا بسبب هجره لجسدي الذي تفجّر بالرغبة دون إرادة مني..
لكني كنت في صراع بين رغبتي الجسدية وتربيتي الدينية المحافظة..وبرغم
ذلك حملت من إحدى هذه الممارسات النادرة بطفلي الأول..ابنتي..لكن
القطيعة الجنسية كانت مستمرة..فبعد سنتين تركته..وأخبرت أمي التي
أخبرت أبي..فقابله في المسجد وفاتحه بالأمر.. وعدت إليه..وضاجعني من
باب جبر الخواطر..وفي هذه المرة حملت بطفلي الثاني.. بابني.. وطبعًا ما
أن يعرف بالحمل حتى يهجرني بحجة أن الممارسة قد تضر الحنين..وهكذا
استمرت حياتي..استمرت القطيعة لسنتين أخريين..فقررت الطلاق..كنت
قد بذلت كل المحاولات كي أحبه وأعيش حياة زوجية سعيدة..لم أخنه
برغم أني كنت أتعرض للإغراء من كل الرجال حولي..وأعترف أني فشلت
في زواجي..ومع هذا الفشل سقطت كل الإدعاءات الأخلاقية والأقنعة
المسلمة والفاضلة أمامي..وتطلقت..لكني مع طلاقي سقطت أنا..

نظر آدم الشبيبي لها بتركيز..وفكر مع نفسه بأنها انزلقت..فليتجرأ إذن بالحديث معها..فسألها:

- ماذا تعنين بأنك سقطت..؟ هل أحببت شخصًا آخر..أم ألقيت بنفسك في النهر ليجرفك..؟

- أحببت..لكني في الوقت نفسه..لم ألق بنفسي في النهر..وإنما ألقيت بنفسي من عمارة عالية على أرض اسمنتية..!

- يا إلهي..قال آدم الشبيبي متعاطفًا.

كان آدم الشبيبي يسكب النبيذ في كأسها..وكانت هي ترتشف رشافات كبيرة منه دون أن تنتبه إلى أنها تكاد وحدها قد شربت القنينة التي لم يبق منها إلا القليل..وبدت له وكأنها تستحضر مشاهد جنسية في ذهنها..انتبه لذلك من نظراتها الشاردة والبريق الذي يومض احيانًا في عينيها وهي تقص عليه حكايتها:

- بعد طلاقي عشت وحدي..كان تصلني أقوال تعبر عن تشمّت أهلي بي.. وإلقاء اللوم عليّ..لكني رفضت كل ما قالوه لي وما تربيت عليه من مفاهيم الصبر واحترام الزوج وتحمل الحرمان الجنسي..وفي تلك الفترة بالذات.. كان ثمة شاب لبناني تعرفت عليه في بعض المناسبات الدينية..كان يطاردني بعينيه..كنت أشعر به يعريني من ثيابي بنظراته..وحين لاحظ ارتباكي تجرأ فأخذ يعبر لي عن حبه..وإعجابه بجمالي وأنوثتي..كنت برغم طلاقي من زوجي ما أزال متحفظة في سلوكي..لكنه لم يملّ..أخبرته أني متزوجة ولدي طفلان..إلا أن هذا لم يمنعه من مواصلة تغزله بي..وأنا أيضًا كنت أعرف أنني أحتاج لكلامه في الحب وفي وصف جمالي..وأخذت أشعر بدوران رأسي وتقلصات في أسفلي كلما اقترب مني ليحدثني.. وشعرت بدبيب المشاعر

في أعماقي نحوه..ومع ولادة مشاعري نحوه بدأت أضعف..إلى أن تمكن مني بعد ستة أشهر..بل صرت أنا التي تسعى إليه..

– وأين كنتما تلتقيان..؟ سأل بنبرة مستدرجة بريئة.

– في البداية كان لقاؤنا في محطات المترو..ثم تطور إلى اللقاء في المقاهي..ولأن المحكمة حكمت بأن الأولاد نتقاسمهم.. بمعنى يعيشون عندي أسبوعًا وعند والدهم أسبوعًا..لذلك أقدمت على الخطوة الجريئة المرعبة.. إذ دعوته إلى شقتي..وفي غرفة نومي.. وعلى سريري تعريت لأول مرة في حياتي أمام رجل غريب..وبالمناسبة كنت محجبة في ذلك الوقت.. ومعه لأول مرة عشت إحساس الحب والشهوة والإشباع الجنسي..إحساس السعادة وتأنيب الضمير معًا....وبعد تكرار الممارسات..جاءت التعاسة بدون مقدمات..فقد أحسست بندم وحشي أخذ ينهش روحي.. أحسست أني اتبعّت شهوتي..وراودني شعور بأن اللعنة ستحل عليّ وعلى أطفالي بسبب ذلك..لكن هذا الندم اختفى..وهذا الشعور الديني والأخلاقي اختفى حينما انتبهت إلى أن عشيقي أخذ يتهرب من لقائي به بعد شهر ونصف من الممارسات شبه اليومية..وحينما ألححت عليه باللقاء..جاءني..وجلس في صالون شقتي الصغيرة..وأخبرني بنبرة المؤمن الورع بأنه نادم على اقتراف الخطيئة والزنا معي..!! صُدمت..قلت له إنه استمر لستة أشهر يطاردني.. ألم يفكر طوال تلك الأشهر بأنه ينوي اقتراف الخطيئة..؟ فصدمني جوابه أكثر من قبل إذ قال لي: إنك مطلقة وعندك أولاد..ثم أنني شيعي وأنت سنية..فحتى لو حاولت أن أصحح غلطتي فأن أهلي لن يرضوا بك وربما أهلك أيضًا لن يرضوا بي..!..

وطبعا كان يكذب كذبًا فاضحًا..لأني منذ أن بدأ يغازلني، كنت أصدّه.. وحينها كنت أريد أن أبعده فصارحته بأنني امرأة لدي عائلة مؤلفة من ولد وبنت..وطبعًا هو يعرف والدي وبالتالي يعرف مذهبي..لكن العجيب.. أنه بعد هذا الإعتراف والتبريرات الكاذبة جرّني من يدي وقادني إلى غرفة النوم..رفع ثوبي وأولجه فيّ بقوة وعنف ثور وكأنه يودع جسدي.. بيد أني لحظتها لم أشعر بنفس النشوة التي كنت أصل إليها معه سابقًا..لا أنكر.. أنا امرأة جنسية..لحظتها فكرت وأنا معه بأنني ربما سأستعيده من خلال منحه جسدي ليستمتع به..! بعدما انتهى ذهب صافقًا الباب خلفه، بينما أنا كنت مستلقية على السرير ملوثة بمنيه..وبعد شهر أو شهرين جاءني أيضًا.. وكنت حينها وحدي في شقتي، فقد كان يعرف بتواجد أولادي..دخل علي..ظننته عاد لي..لكنه جلس في الصالة ..اعتذر عن انتهاء علاقتنا.. لكنه أخذني من يدي إلى غرفة النوم، وهناك ضاجعني بصمت..وخرج..ثم اختفى.. وهكذا..عشت أشهرًا من الصدمة التي سقطت فيها كل المفاهيم الأخلاقية..ومما زاد من معاناتي أن أهلي عرفوا من خلال زوجي الذي كان يتجسس عليّ بأنني مشيت في طريق الخطيئة والفجور..فتبرأوا مني..

انتبه آدم الشبيبي إلى لغتها المحافظة..فبرغم هذا البوح الذي يفوح بعطر جنسي إلا أن لغتها ظلت مهذبة..أراد أن يدخلها في التفاصيل والعالم الجنسي..فسألها بنبرة لو انتبهت هي لها لسمعت فيها فحيحًا جنسيًا.

- وهل أقمت علاقات أخرى مع آخرين..؟..كم رجلاً مرّ على جسدك.. واخترقك..؟

- كثيرون..لكن العلاقة التي تلت علاقتي باللبناني هي التي زلزلت حياتي.. ودفعتني إلى التخلي عن الحجاب والابتعاد عن الدين..فقد تعرفت

على شخص سوري..كتلة من العضلات..تقدم إليّ..وتودد لي..وقال لي بأنه يريد أن يتزوجني.. فقلت لنفسي يمكنني أن أحافظ على نفسي من السقوط بأن أتزوجه.. كانت علاقتي به سطحية..لذلك أردت أن أخرج معه كي أتعرف عليه أكثر..وذات يوم اتفقت معه على أن نخرج إلى مطعم ما.. فوافق وقال لي إنه سيمّر ليأخذني.. لكنه حين وصل..جلس في الصالة..كنت حتى ذلك الوقت أرتدي حجاب الرأس..الغريب..ما أن قال لي بأنه سيأتي ليأخذني..حتى شعرت بأن كارثة ستحل..لدرجة أني كنت أرتعش..وأخذت أبرر لنفسي وأهدئها بأني أعيش في بلد يحكمه القانون..ومطمئنة إلى أنه يريد الزواج.. علمًا أنني لم أدعه إلى شقتي برغم علاقتنا..هل تصدق أنني قرأت القرآن قبل مجيئه كي أقنع نفسي بأنه لن يحصل أي شيء يؤذيني..!!.

انتبه آدم الشبيبي بأن هذه المرأة التي تجلس أمامه هي امرأة هشة..مثارة.. لذا عليه أن يكون حذرًا معها..ويعرف كيف يدخل إلى عالمها كي تسمح له بمشاركته لأحاسيسها، فقال لها بنبرة ودودة ودافئة:

– بصراحة يا عزيزتي حواء أحسك تائهة.. قال بنبرة دافئة تشي بجنين ورغبة.

شعرت بدفء نبرته فقالت وكأنما تستدعي حنانة وتعاطفه أكثر:

– أنا فعلا تائهة..أبحث عن نفسي..عن معنى لوجودي..أنا عمياء..!

– إكملي حكايتك..ماذا حصل..؟

– اغتصبني..

– ماذا..؟

– نعم اغتصبني..

صمت آدم الشبيبي مصدومًا، وبعد ثوان قال لها:

– هل كنت تتوقعين بأنه سيغتصبك..قبل وصوله..؟ ألا يمكن أن نفهم ذلك بأنه ربما كان لديك رغبة في اللاوعي بأن تُغتصبي..!!؟ ربما انتقامًا من نفسك ونتيجة للصراع الذي في أعماقك..وتصوراتك عن الرجال..!!؟.

صمتت هي للحظات ثم قالت:

– لا أظن.. تجربتي مع اللبناني جعلتني متأكدة من أن الرجل السوري اذا ما ضاجعني قبل الزواج فلن يتزوجني..لذلك ما كنت أقابله عندي في شقتي...لكني أخطأت هذه المرة أيضًا لأني أعتقدت بأنه ما أن يصل حتى أخرج معه مباشرة..لكنه حين وصل..وجلس في الصالة استشعرت الخطر..وأحسست أن الواقعة آتية لا ريب..!..في بداية الأمر كان لطيفًا ويلقي بالنكات ويمزح..ثم أخذ يتحدث عن شغله..ثم انحدر إلى ماضيه.. لم استعجله على الخروج لأني كنت محتاجة أن أعرف عنه أكثر برغم شعوري بأن وجوده في البيت خطر عليّ من الناحية الجنسية..ثم أخبرني بأنه سُجن بتهمة السرقة..فجأة تعالى غضب من هذه الذكريات التي رواها بنفسه..ونظر إلي نظرة مليئة بالشر..وقال لي: لو أردت شيئًا فسأحصل عليه بالقوة أو بالرضا..حينها فهمت أنه يريد أن يحصل علي بالقوة أو برضاي.. لأول مرة اكتشفت أنني أخطأت باختياري لهذا الرجل خطأً كارثياً..

– وكيف حدث الاغتصاب..؟ سأل بنبرة وكأنه يستمع لشيء لا يعنيه أو شيء طبيعي.

– مسكني بقوة..كنا حينها جالسين في الصالون..كان وكأنه يمزح معي.. حاولت بطريقة لبقة أن أسحب يدي..فأرخى يده وابتسم..أنا غصبت نفسي

على الابتسام والضحك لكي أجعل الأمر مزاحًا..ولا أثيره أكثر..لكن الغريب أنه طلب منّي الذهاب إلى غرفة النوم..رفضت طبعًا..وقلت له بأننا اتفقنا على الخروج..لكنه بدا وكأنه لم يسمع ما قلت..فقام..وحملني إلى غرفة النوم بالقوة..كان رجلًا قويًا ملفوف الجسم بالعضلات..وكان بطلًا للملاكمة..لذلك لم أستطع الافلات من ذراعية..ألقاني على السرير..ورفع ثوبي وسحب سروالي..قاومت..حاولت ما بين أن أوقظ ضميره لكن بلا فائدة..وأخيرًا صرخت به بأن علينا أن ننتظر إلى أن نتزوج..لكنه لم يكن يسمعني..تحول إلى وحش آدمي..لم يرَ إلّا جسدي العاري أمامه..لا أذكر باقي التفاصيل جيدًا.. العجيب كنت أشعر وكأني لست أنا التي تغتصب.. بل كإنما أرى حواء أخرى..كان يصيح بي بأن أستجيب له..فهززت رأسي رافضة..وقلت له لا أستطيع لأني لا أريد..فأطبق على فمي بكفه وأولجه فيّ..كان كالوحش المحروم جنسيًا..كل ما أذكره الآن أن رائحته كانت مقرفة..وبعد ما انتهى..انتبهت لنفسي وذلي وضعفي وسقوطي وابتذالي من قبل الرجال..جلست أصرخ وأعيط..أحسست أنني ضائعة..كنت عارية الجسد..ومحجبة الرأس..

تأثر آدم الشبيبي قليلًا لحكايتها، فقال بتعاطف حقيقي:

– ألم يكن بإمكانك أن تشتكي وتطلبي الشرطة..؟

– وأنا محجبة..؟..لا..ستكون فضيحتي مجلجلة أمام أهلي.. الاغتصاب تم في شقتي وعلى سريري..فكيف تستطيع أن تقنع المجتمع المسلم في الدنمارك بأنه اغتصبني..!! كيف جاء..وكيف دخل..وأين هي آثار الاغتصاب بالقوة..!!؟ هذه أسئلة منطقية ترد في ذهن الناس..برغم

أن الدنماركيين ممكن أن يصدقوا ذلك ويتحققوا من تفاصيله.. لكن الأمر جرى كما رويته لك..كنت منهارة..ولم يتوقف الأمر عند ذلك..فقد ذهب هو إلى الصالة..بقيت أنا على السرير أبكي..لكنه جاء مرة أخرى..فسحبني.. وألقاني على السرير..واغتصبني مرة أخرى..!بالنسبة لي كنت مستسلمة لذلي وسقوطي.. ولحد الآن لا أعرف لِمَ كنت مستسلمة له..ثم ذهب إلى الصالة..جلس هناك..وعاد ليغتصبني للمرة الثالثة..وقبل أن يخرج طلب مني أن ألتزم بالإسلام وأقرأ القرآن وأن أكون متدينة مثل أهلي..أحسست بأن كراهية العالم كلها تجمعت في داخلي ضده وضد الدين والمتدينيين ..

- كان ينصحك باعتبارك عاهرة..؟ قال باستنكار.

- بالضبط..

- وماذا جرى بعد ذلك..؟

وقبل أن تجيب نهضت هي إلى الحمام..وقالت:

- سأحكي لك..لحظة..وسأعود..

حين نهضت لم تكن متزنة عند الوقوف..كانت ثملة إلى حد ما..وما أن دخلت الحمام حتى سكب هو في كأسها ما تبقى من نبيذ في القنينة..شعر بالخجل من تصرفه..أحس أنه لا يختلف عن ذلك السوري المسلم المفتول العضلات الذي اغتصبها..ذاك بعضلاته..وهو بمكره وحيلته..بعد لحظات عادت..كانت تتمايل قليلًا ..وحين وصلت إلى الصوفا حيث كانت تجلس تمايلت ..فمسك بيدها فوجدت نفسها تسقط جالسة على الصوفا بالقرب منه..بقيت جالسة باسترخاء..نظرت إليه نظرة فيها رغبة مكتومة وسألته:

- ماذا سألتني قبل أن أذهب إلى الحمام؟

انتبه إلى أنها مثارة لكنها بحكم تحفظها لن تبادر..أجابها قائلًا:

– سألتك ماذا جرى لك بعد الاغتصاب..

– ماذا يمكن أن يجري..شعرت أنني قد سقطت..وضعت..لاسيما بعد أن فهمت فيما بعد بأن هذا السوري قد سمع عن علاقتي باللبناني..وربما كان اللبناني قد حكى لآخرين عن مغامرته معي..المهم أردت أن أنتقم من نفسي ومن أبي وأهلي وطليقي.. وصديقي اللبناني الذي أحببته حقًا.. فأخذت أتطرف في حريتي..ربما خلال سبع سنوات منذ طلاقي كان لدي ما بين عشرين إلى خمسة وعشرين رجلًا..بينهم دنماركيون وعرب وأجانب..

– من عشرين إلى خمسة وعشرين رجلًا في سبع سنوات..؟

سأل آدم الشبيبي محاولًا أن يكبت دهشته..وهو يفكر بأن هذه امرأة لا تتوقف عند أي حاجز أخلاقي..ربما يمكن أن يقال عنها بأنها عاهرة..لكنها لا تبدو كذلك..فهي تمضي في طريقها كالعمياء مُقادة من قِبَل قدر غامض.. نظرت إليه بلا مبالاة وواصلت:

– نعم..من عشرين إلى خمس وعشرين رجلًا..لكن كلها كانت تجارب فاشلة..بل فاشلة جدًا...أنا امرأة أحس بشرقيتي من الناحية الأنثوية..أرغب بالرجل الطويل العريض..المفتول العضلات..مفهوم الرجولة يتجسد عندي كأية امرأة شهوانية بالقوة الجسدية..لكن من خلال تجاربي تأكدت أن القوة الجنسية ليست لها علاقة بالقوة الجسدية والعضلات المفتولة أبدًا...فغالبا ما كنت أذهب مع رجال دنماركيين وسيمين..أجسادهم مثيرة ومفتولي العضلات..لكن في السرير كانوا يعانون من مشكلة في الانتصاب..!!..لذا كنت أتهرب من هؤلاء الرجال بعد ممارسة واحدة دون أن أجرح مشاعرهم...

في تلك اللحظات كان آدم الشبيبي يفكر في نفسه، فجسده اعتيادي..هو معتدل الطول لكنه ليس مفتول العضلات..لذا فكر مع نفسه بأنها ربما لهذا السبب لم تنجذب إليه مباشرة..انتبه لنفسه وسمعها وهي تواصل:

– لكن الذي أعرفه عن نفسي أني إنسانة تعيش تناقضات كثيرة..برغم أن الخير في داخلي يتقدم قليلًا على الشر..أعيش صراعًا بين الواقع واللا واقع، بين الإيمان والشك، بين الشرق والغرب بين الشهوة والقيم الدينية.. أسعى لأن أكون صادقة مع نفسي قبل كل شيء..لا أخاف من التغيّر..ولا أهاب نظرة الناس لي...أحيانًا أسأل نفسي..أن أهلي برغم إيمانهم بأن الله غفور رحيم..لكنهم هم أنفسهم قساة..لا رحموني ولا غفروا لي أخطائي.. مرة اتصلت بأمي وسألتها: كيف يمكن لكل هذه القساوة أن تسكن قلوبكم بينما تعتقدون بأنكم مؤمنون..؟..

انتبه آدم الشبيبي إليها..كانت شبه منهارة..وكانت تبدو بأنها في أشد الحاجة إلى الحنان..وبشكل لا إرادي مد يده فمسك بكفها وضغط عليها.. كانت قريبة منه..نظرت إليه نظرة غامضة..وكأنها قرأت ما يدور في ذهنه.. استجابت لكفه وضغطت هي عليها أيضًا..تجرأ هو فحضنها ووضع رأسها على كتفه وجسدها إلى صدره..فاستجابت برقة وكأنها كانت تحتاج إلى أن يحتضنها رجل ما بحنان..ظل للحظات وهو يشم عطر رأسها..ولا شعوريًا قبّل رأسها..فرفعت وجهها إليه..كان وجهها قريبًا منه..وفي اللحظة نفسها قرب كل منهما شفتيه من الآخر والتحما بقبلة حارة..شهوانية..فاحتضنها بينما كفه تعبث بصدرها وتعصره وتهبط إلى ما بين فخذيها..فأخذت تلهث..فمد يده تحت ثوبها الأسود..كانت هي تلهث شبقًا..

اقتربت منه..ووشوشت في أذنه بكلمات مثيرة..أشعلت شبقه أكثر.. فتنحى جانبًا..فصارت مستلقية على الصوفا..وصار هو من الجهة المقابلة لها..وبشكل غير متوقع.. وبهيجان مد كلتا يديه إلى سروالها الداخلي..سحبه بحركة سريعة ساعدته هي برفع جذعها كي يسهل نزعه..ورفع ثوبها الأسود إلى الأعلى، بحيث صار يغطي رقبتها وأعلى ترقوتها..وبسرعة فك حزام بنطاله..وسحب سرواله..دفعها إلى الخلف فاستلقت.. وفتحها..جلس بين فخذيها وأولجه فيها..كانت ضيقة..شهقت بشبق شهقة عاليه أقرب للصراخ..فحاول أن يكتم صوتها..أطبق بكفه على فمها..وظل يدخل فيها بقوة..وللحظة تراخت يده عنها فانطلقت شهقتها الشبقية عالية..صرخت.. ومع الصرخة فتحت حواء الساري عينيها برعب وهي تنظر جانبًا وتدفع بآدم الشبيبي محاولة ابعاده عنها..لاحظ هو ذلك وهو منهمك بالإيلاج القوي فيها..وحين التفت إلى الجهة التي كانت تنظر هي إليها قفز هو عن حواء الساري مبتعدًا بارتباك شديد..فقد كانت صديقتهما المغربية حواء الزياني واقفة قرب الصوفا الأخرى تراقبهما بعينين مليئتين بالخوف والدهشة.. ولأن حواء الساري انتبهت لخروجها من الغرفة في اللحظة التي شهقت فيها فقد أخذت تدفع آدم الشبيبي عنها..وحين اقتربت حواء الزياني كانت ترى محاولات حواء الساري وهي تدفع آدم الشبيبي عنها..لذا تصورت أن آدم الشبيبي كان يغتصب حواء الساري..

لملمت حواء الساري ثوبها على نفسها بارتباك وخجل من صديقتها، بينما حاولت حواء الزياني أن تقول شيئًا لكن الكلمات ماتت على شفتيها.. وبارتباك شديد لبس آدم الشبيبي بنطاله..وشد حزامه..وتناول مخطوطة „

متاهة العميان"..نكس رأسه..وقال لهما: أنا آسف..وغادر المنزل كالأعمى الذي يتعثر بخطاه..

***

كانت الساعة تقارب منتصف الليل حينما طرق آدم الشبيبي منزل صديقه. كان مُحرجًا جدًا. سمع صوت آدم أبوالتنك يسأل عن الطارق بنبرة خائفة.. فعرّف بنفسه.

حين جلسا في الصالة روى آدم الشبيبي بايجاز ما جرى له في تلك الليلة..لكنه انتبه إلى أن صاحبه العريس قد فرش على الصوفا كالعادة.. فسأله باستغراب:

- لماذا تنام هنا ياعريس..؟

ارتبك آدم أبوالتنك وقال له:

- إنها تشعر بصداع شديد..يبدو أنها لا تتحمل الشرب..لاسيما أنها تشرب لأول مرة.. لقد تقيأت..لذلك تركتها تنام وترتاح الليلة..

- أنا آسف أنني اضطررت إلى المجيء إليكم مرة أخرى.. قال آدم الشبيبي.

- لا تتأسف..البيت بيتك..

فجأة قال آدم الشبيبي وكأنه يسره بشيء غريب:

- أتعرف..حينما جئت قبل قليل..ما أن دخلت هذا المنعطف حيث نسكن..خرج من الباب الأول رجل أعمى يستدل على طريقه في هذه العتمة بعصاه..ثم وكأنما ثمة اتفاق بينهم..خرجت من المنازل المجاورة والمقابلة لها نساء ورجال كلهم عميان.. تجد رب العائلة يستدل على

الطريق بالعصا وخلفه العائلة واحد يمسك يد الآخر..تعجبت..هل نحن في حارة العميان..!

استمع آدم أبوالتنك بانتباه شديد..أحس بالخوف..وقال:

- أنا لا أعرف جيراني..لكن حتى لو كانوا عميان..فإلى أين يذهب العميان في الليل المظلم ..!؟.

متاهة العميان

للكاتبة حواء البوسني

1

عنيدة مثل الجدي ..ومحبطة مثل قمر آفل

«أنا حواء الجدي..هذا لقبي الحقيقي وليس قناعا أدبيًا أتخفى خلفه.. عمري ثلاثون عامًا وسبعة شهور ..مطلقة، ولي ابنتان، توأم ، 5 سنين.. طولي 168، وزني 62.. كنت أنحف وأكثر رشاقة قبل سنة من الآن، بل يمكن القول إنني كنت هزيلةً فعليًا ولست رشيقة..خلال هذه السنة استمتعت بالأكل لأقصى حد لدرجة أنني زدت 10 كيلو..شعري بني بدرجاته، فمنذ سن الثامنة عشرة من عمري وأنا مولعة بصبغ شعري.. إذ تنقلت بين الأشقر الفاتح إلى البني الغامق..بل حتى أنني صبغته بالأحمر..!! طوله يكون حسب مزاجي أيضًا.. إذ أقصّه أحيانًا أو أتركه يطول..عيناي بنيّتان..بشرتي بيضاء جدًا، أتهرّب من نور الشمس الساطع..

أنا مزاجية جدًا، متطرفة في مشاعري إلى درجة البكاء أو الضحك.. عصبية وحادة الطباع نوعًا ما..أحب أن تكون كلمتي هي الأخيرة في

السجالات والنقاشات أنىّ كانت..أحب الجدل والمشاكسات والعناد.. كان أبي يقول لي إنك عنيدة مثل التيس..منتبهة لطبيعتي هذه، لذلك أحاول أن أسيطر على نفسي من خلال التفلسف على الآخرين..وبصراحة غالبًا ما أنجح في ذلك..لكنني لست امرأة مزعجة..فأنا بشكل عام أحب الناس من أعماق قلبي..وأعتقد أنهم يحبونني أيضًا..إذ لم أفكر يومًا بأن أسبب أذى لشخص ما..

وقبل أن يسألني أحد على طريقة الأطباء النفسانيين أقول إن ألواني المفضلة، وهي ليست أسرارًا تخص الأمن القومي، هي الألوان الغامقة، بل والزاهية أيضًا..وأحب أن تكون لونًا واحدًا ..لآ أميل إلى تعدد الألوان.. لكن يمكن التشديد على اللونين الأسود والبني لمعظم ثيابي..أما عالمي الذي يحيطيني فأحب أن يكون زاهيًا ومزينًا بالنقوش الوردية وبمختلف أشكالها وألوانها..!..بالمناسبة أنا أحب الخشب، والمرايا، وأحب الأثاث الأرابيسك..!.

طبيعتي مشاكسة..لذا عادة أسلك الطريق الأصعب لإتمام أية مهمة كان يمكن انجازها بطريقة أسهل..أضحك بصوت عال.. وكثيرا ما طُردت من قاعات المحاضرات في الجامعة بسبب ضحكة انطلقت مني ولم أستطع كتمانها..أما إذا بكيت فأنني أتوجع في بكائي مثل طفل مكسور القلب.. صريحة أنا لدرجة بعيدة..لكني صراحتي لا تصل إلى درجة الوقاحة..لطيفة المعشر في تعاملي.. وعادة أردد مع نفسي وأمام الآخرين حينما أتحدث عن نفسي بأنني أحتفظ „بمساحتي الخاصة" ولا أسمح لأحد أن يخترق حدودها..لكن بصراحة شديدة أنا نفسي لا أعرف ما هي هذه «المساحة

الخاصة»، ومن أين تبدأ أو إلى أين تنتهي..؟ ربما نسيت أن أضيف إلى أني أحب الصوت المرتفع للأغاني..وأحب الموسيقى تكون صاخبة حولي باستمرار..هل هذا يكفي..؟

خضت تجارب شخصية في موضوع التدين، كنت محجبة لثلاث سنوات، زوجـي، طليقي على وجه الدقة، تحوّل للتدين المتطرف المخيف،وفرض عليّ التحجب..وكان ذلك ضد إرادتي..فلم أكن متدينة.. بل أنا مليئة بالشكوك ضد الدين ونصوصه المقدسة.. وغير مقتنعة بها..!

في مراهقتي كنت أسأل أسئلة مخيفة..ولم أجد لها جوابًا حتى بعد أن كبرت ودخلت الجامعة..وصرت أمًا..وقرأت مئات بل آلاف الكتب.. كنت أسأل ببساطة: لماذا خلق الله الأعضاء الجنسية لآدم وحواء..؟؟ فإذا كان لا يريد له أن يمارس الجنس ويتناسل فلماذا خلقها..؟؟ ما وظيفتها في جنة الفردوس التي كان آدم يعيش فيها؟؟ هل كان لحواء رحم..؟ ما سر وجود رحم لحواء بالجنة..؟ أكان الله يعلم أنهما سيتناسلان وستنجب؟؟ إذا كان كذلك فهو كان يعلم بأنهما سيمارسان الجنس؟ فلماذا اعتبر ذلك خطيئة..؟؟ وطردهما..ألم يخلق هو لهما الأعضاء وهما في الجنة..؟ ثم.. هل كان آدم يتغوط ويتبول في الجنة؟؟ وإذا لم يكن كذلك فلماذا خلق الله له البطن والمعدة والأمعاء الدقيقة والغليظة..والكليتين والأثني عشري.. وفتحة الدبر؟؟

ثم أن الجنة التي كان فيها آدم وحواء كانا فيها وحدهما..وكان عليهما أن لا يتناسلا..بينما الجنة التي يتحدث عنها القرآن مليئة بالحوريات الباكرات... ووحدها كلمة «باكر» تحيل إلى الممارسة الجنسية؟؟؟ طيب

بمعنى أن آدم لن يعود لجنته وإنما للجنة التي فيها نسله..؟ وإذا ما كان مضاجعة آدم لحواء خطيئة استحق عليها الطرد من الجنة فلماذا يغري الله البشر بالجنس في الجنة؟؟؟ لماذا يسمح الله للخطايا الأرضية في الجنة من جنس وخمر ..هل انقلبت مفاهيم الله..؟؟؟ هذه الأسئلة وغيرها الكثير كانت ترعبني حينما أفكر فيها ..فأسهر الليل استغفر الله في سريري حتى يغلبني النوم.. لكن هذه الأسئلة ظلت ترافقني دون أن أجد لها إجابة شافية.. فالكل يبرّر..وصرت حذرة في التجرؤ على إعادة التفكير فيها..لكن سخرية الحياة المصادفة العجيبة خلتني أتزوجت رجلاً متزمتًا..!

تزمته المتطرف المبالغ فيه كان سببًا أساسيًا لانفصالنا..بحيث تحولت حياتي إلى جحيم..وخفت على ابنتي منه..فخلعته..ولم أطلب منه شيئًا.. تركت له كل شيء من أجل حريتي فقط..! بعد طلاقي خلعت الحجاب..لكنني لم أعرف كيف أتصرف بحريتي.. فدخلت في تجربة خاسرة بعد طلاقي..

ربما تقديمي لنفسي يعطي انطباعًا بأنني أتعامل مع حياتي بخفة..! لكن أسلوبي في تقديم نفسي أو التعامل مع شخصيتي بهذه الطريقة ربما يمنحني بعض العزاء النفسي..فقصتي حزينة كقصص النساء جميعًا..ولا أريد هنا أن أرويها لأنها مقرفة.. موجعة.. قاسية..لكني سأوجزها بأسطر..وبلقطات.. ومشاهد من حياة زوجية بائسة..!

معظم الفتيات يعشن علاقتهن العاطفية ويتعرفن على الحب في الجامعة..أنا عشت علاقة صداقة..وليس حبًا..وحتى هذه العلاقة يمكن التعليق عليها بأنها كانت عابرة..!..صداقة انتهت بهجرة هذا الصديق العراقي إلى السويد..ولم يكن هناك بيننا أية مكاشفات بالحب..

لم أعرف زوجي أو أحببته ثم تزوجته..كان حين تزوجته يكبرني بإثنتي عشرة سنة..كنتُ حينها طالبة جامعية..ولم تكن لدي علاقات نهائيًا..كنت أنظر لزملائي كزملاء وأصدقاء وليس كرجال..كأولاد أغبياء لا أكثر..! لذلك كنت أعتبر زوجي الذي تعرفت عليه بطريقة عائلية رسمية، إذ كانت أمي وأمه صديقتين حيث نقلت إليّ أمي عن طريق والدته إعجابه بي..وهو يريد أن يراني بشكل عائلي ورسمي..ولا أخفي هنا حقيقة إعجابي بجرأته لهذا الطلب..وحين التقيته ترك انطباعًا جيدًا لديّ..اعتبرته رجلًا ناضجًا.. لطيفًا..حنونًا..فوافقت على الزواج منه مباشرة.

ليلة الزفاف اكتشفت مشكلة لم أتوقعها قط..وعشت مع هذه المشكلة خمس سنوات..خمس سنوات مع رجل شبه عاجز جنسيًا.. يقذف سريعًا مباشرة خلال أقل من دقيقة..لم يتمكن من إزالة بكارتي إلا بعد أربع ليال وبعد محاولات عديدة..وبصعوبة بالغة..!.

كنت قد انهيت الجامعة..وبدأت بوظيفتي التي كانت تستنزف جهدًا كبيرًا من طاقتي ووقتي..وانشغلت بالدعوات ومآدب العشاء للعائلة والأصدقاء.. لم أتوقف عند مسألة حرماني الجنسي..كنت أقول لنفسي إنه أمر هامشي وليس من المعقول أن أخرب بيتي من أجل أمر لا يأخذ سوى دقائق تافهة.. لاسيما أن تجربتي كانت مؤلمة وغير ممتعة أبدًا..! لكن الغريب أنني انتبهت إلى نفسي، فقد كنت امرأة بلا رغبات..!.

لم أكن قد اكتشف اللذة الجنسية برغم قراءتي عنها..كانت شيئًا مجهولًا وغامضًا بالنسبة لي..ولم أعِ جسدي قط..كنت أخاف من جسدي.. وأخجل من عريي.. فخلال خمس سنوات لم أتعرَ أمام زوجي..بل كنت حين أغيّر

ثيابي أذهب إلى غرفة أخرى كي لا يراني..! كنا نمارس في الظلام..لم أرَ جسده عاريًا قط..ولا أعرف إن كان قد رآني..؟..يبدو المضاجعة في الظلام قدر النساء الشرقيات..!

لكن حتى زوجي الذي كنت أعدّه رجلًا ناضجًا كشف عن وجهه الحقيقي..فهو يبدو رزينًا ومتزنًا من خلال الانطباع الأول عنه، لكنه سرعان ما يكشف عن شخصية متعصبة بشكل صادم لحد العمى..فهو لا يقبل أن يعارضه أحد..وحده الذي يعرف الحقيقة ويمتلكها لذا على الآخرين أن يستمعوا له..وإذا ما تجاسر أحد وناقشه فسيجد الاتهامات جاهزة..!

كان أنانيًا وبخيلًا..كان يحدّث نفسه كثيرًا ويحاورها..لا.. لا يحاورها كأفكار..وإنما كوسواس..كان مليئًا بالوسواس..لكنه برغم ذلك لا يقبل بنصف المكافأة..!..فوساوسه هي أوجه للحقيقية..!

لم أعرف النشوة ولم أصل إلى الذروة خلال حياتي الزوجية قط.. سذاجتي الأنثوية دفعتني إلى الاعتقاد بأن عجزه الجنسي من صالحي لأنه لن يفكر بامرأة أخرى..!.لكن الغريب أن زوجي لم يعترف بعجزه قط..!.

لم أعرف لذة الجنس إلا بعد طلاقي ومغامرتي مع صديقي العراقي القديم أيام الجامعة..حيث سافرت إلى ستوكهولم بعد طلاقي لألتقيه..!!

لست غبية أو ساذجة أو جاهلة..فأنا خريجة كلية الآداب قسم اللغة الإنكليزية..لكني كنت عاجزة أن أجد توصيفًا حقيقيًا لحياتي..قبل زواجي عملت مترجمة من وإلى اللغة الإنكليزية في دائرة حكومية..وخلال سنوات زواجي كنت أسمع من زميلاتي في الوظيفة حكايات عن علاقاتهن بأزواجهن..وحينما أستعدتها بعد زواجي كنت وكأنما استعيد قصص ألف

ليلة وليلة..شموع.. وليالي سهر لطيفة مع عشاءات في المطاعم.. وبعضهن كن يتحدثن عن رقص حميم.. وقبلات حتى الصباح.. وعن تفاصيل جنسية كانت تنفرني في البداية لكني حينما كنت أختلي لنفسي كنت أتمنى أن أجربّها..لكني خلال سنوات زواجي لم أعرفها..بيد أني جربتها مع صديقي العراقي بعد الطلاق..!.

زوجي كان ينام الساعة التاسعة مساءً.. وكأنه روبوت مبرمج..يشذ عن هذه القاعدة عندما تكون هناك مباريات لكرة القدم.. !.. وكان لا يتكلم ..صموت إلا عند الشجار..بل..حتى المضاجعة كانت تجري بصمت.. وكنت أتوجع.. لأني أساسًا ضيقة..ربما لندرة الممارسة التي كانت متباعدة بين مرة وأخرى ..!! بل حتى بعد ولادة طفلتيّ بقيت ضيقة..لأن الولادة كانت قيصرية.. فكان يضع على المكان زيتًا..ويولجه غصبًا عني..خمس دقائق وينتهي كل شي..وهذا الأمر يكون مرة في الشهر، وتحت تأثير الابر الهرمونية التي كان يأخدها..يأخذها ليس من أجل أن يمتّعني وإنما من أجل الحمل.. كي يكون له أطفال..!. علمًا بأنه طوال شهور الحمل التسعة لم يقترب مني..وحتى بعد الولادة بثمان أشهر كنت أنام مع طفلتيّ في غرفة منفصلة..لأنه لا يريد أن تزعجاه وتوقظاه من النوم..!.

كان هاجس الأمومة شاغلي الأكبر..كنت أحس بالعجز..كنت أحس بالخيبة..واليأس..لم أكن زوجةً..ولا أماّ..كنت أبكي كلما جاءتني الدورة الشهرية..بينما هو ينقّ على رأسي برغم عجزه المقرف..ويريد أن يصير أبًا..!!..بعد أربع سنوات من الفشل فاتحته بأننا يجب أن نختصر الأمر ونذهب إلى المراكز الصحية التي تهتم بتلقيح البويضات الأنثوية مختبريًا..

كان يعارض..لأن ذلك سيفضحه عائليًا ويُظهر ضعفه الرجولي..وعقمه.. وعادة مرتبط هذا الأمر في عقل الناس بالضعف الجنسي..ولأنه كان يريد أن يكون أبًا ليفك هذه العقدة..فقد ذهبنا بسرية تامة إلى أحد المراكز الطبية المختصة..وأجرينا العملية اللازمة..وربما لن أكشف سرًا أنني لم يكن يهمني كيف سيلقحون بويضتي..!! المهم..أن تتلقح..

بعد فترة وجيزة..اتصل بي الطبيب المختص..وأخبرني بأن تلقيح البويضة قد نجح وتمّ الإخصاب..حينها كنت في سيارتي على الطريق.. أوقفت سيارتي جانبًا..وأخذت أبكي..وأبكي.. وأبكي .. ربما لن يفهمني إلّا النساء المحرومات من الإنجاب..كدّت سأجن من الفرح..سأكون أمًّا أخيرًا..وكان لدي إحساس غامض بأنهما ستكونان بنتين..!..لا أعرف لماذا كان لديّ إحساس بأني لن أنجب أبناء..!؟..

أذكر أنني في اليوم الذي كان على الطبيب إرجاع الأجنة الملقحة إلى رحمي، قابلت في المركز الصحي امرأة ..امرأة أنيقة يفوح العطر بحيث يشم المرء أريجه على بعد مترين منها..وأتذكر جيدًا أن عينيها السوداوين قد جذبتاني بقوة سحرية استغربت لها حينها..وتجاذبنا الحديث..وصارت صديقتي خلال تواجدها في مدينتي..وكان سبب مراجعتها أنها كانت تريد اجراء عملية اجهاض..فقد كانت مطلقة..وحملت من علاقة مع صديق لها..ولوضعها العائلي الحساس في مدينتها جاءت إلى هنا لإجراء عملية الإجهاض.....!

والغريب أن زوجي برغم أنه كان يريد أن يكون أبًا فقد كان يكره بكاء طفلتيه..ويكره حتى أن ينظر إليهما..ربما لأنه كان يحلم بولدين..!!؟ وربما هو يشك بأن تقليح بويضتي لم يكن منه..!!؟..لا أعرف.

***

مشكلتي هي أني لم أكن راضية بحياتي..برغم أن لي بيتًا ووظيفة.. وحظوة اجتماعية..وأفق أدبي..إذ كنت قد بدأت أخربش بكتابة نصوص نثرية وشعرية..وأنشرها في مواقع ألكترونية عربية..وأخذت أنشئ لنفسي مكتبة بيتية..لكن زوجي كان يكره الكتب..ويغار من أي كاتب أقرأ له..!.. بل إنه، بينما كنت ذات مرة أقرأ رواية لكاتب جريء لحد الفضيحة..دخل غرفتي التي أنام فيها مع ابنتيّ..تصفح الرواية التي كانت على الطاولة الصغيرة قرب سريري..وكما تترتب المصادفات في الأفلام الهندية حدث عندما فتح الكتاب فواجهه مشهد جنسي فضائحي يجري بين شخصيات الرواية..وتصفحه مرة أخرى فواجهه مشهد أشدّ من ذاك حيث الألفاظ المكشوفة بشكل فاقع...فأخذ يصرخ بي..ويسب الكاتب ويتهمه بالفسق والفجور..وطلب مني حرق هذا الكتاب.. وأمرني مهددًا بألا أقرأ له مرة أخرى..ولما رآني شاحبة لا أرد عليه فقد أخذ الكتاب ومزقه أمامي..!!

وكما قلت سابقًا لم أكن راضية بحياتي..لكني لم أمتلك الشجاعة بأن أرفس هذه الحياة التعيسة وأتخلى عنها أو أتعامل بلامبالاة مع كل ما يجري معي!..لكن بمرور الأشهر وإشباع غريزة الأمومة أخذت انتبه لنفسي.. فبدأت الرغبات تضغط على جسدي.. وبدأت جذوة الحياة تتقد في نفسي..!

قد يبدو حديثي غير مترابط..لكني أعود لنفسي ثانية..فقد كنت أريد أن أعيش حياتي فعلًا..كنت أمسك نفسي وجسدي.. ربما لم أتحدث عن جسدي..أنا برغم موهبتي في السرد والكتابة كما عرفت من خلال التعليقات على ما أنشره أحيانًا..لكني لا أعرف كيف أصف نفسي..!..سأحاول.. ويمكنني القول..وليس هذا غرورًا مني..بأني امرأة جميلة وجذابة في عيون

الآخرين.. لاسيما الرجال..جسدي يتعرج بإنحناءات أنثوية محببة جلبت لي المشاكل منذ أيام المراهقة..صدري صغير نسبيًا..عنقي مغر للرجال ..بعد الولادة القيصرية صار لي كرش صغير من معالمه خط هو أثر من العملية القيصرية..لكنني أحبه وأفتخر به..

أفخاذي مستديرة وشبه ممتلئة ومغرية..أمشي في البيت فترات طويلة على أصابعي لأن هذه الحركة تحافظ على استدارة الساقين والأفخاذ.. أعرف أنني جذابة لكني أحافظ جيدًا على الشعرة الفاصلة بين الثقة والغرور.. وبرغم أن من يراني يظنني امرأة ساخنة لكني في الحقيقة لست كذلك..!.. كما أني وللأمانة فاشلة في الحب والجنس..!! برغم تجربتي مع صديقي العراقي بعد الطلاق والتي سأرويها لاحقًا.

سأواصل وصف جسدي..مؤخرتي سببت لي المشاكل دائمًا، منذ فترة مراهقتي كان الشبان في شارعنا يركضون خلفها..! ليس ورائي وإنما وراء مؤخرتي..وبالمناسبة..إن أحد أسباب إعجابي بطليقي هو أنه لم يشر لجسدي حين تعارفنا..ولم يبد أي إهتمام به..اعتقدت أنه أعجب بعقلي.. لكن اتضح أنه لا عقلي ولا مؤخرتي قد أعجباه..!!!.

حين أتأمل حياتي..تجتاحني أمواج الحزن مثلما يجتاح المد الشواطئ حين اكتمال القمر..!..حزينة أنا على سنوات عمري التي ضاعت مني وتسربت كالرمل الناعم في قارورة الساعة الرملية..! وأدرك أن سنواتي الباقية ستضيع وتتسرب في الفراغ أيضًا..حزينة على قلبي الغبي الذي دفعني للصبر والاستسلام خلال كل هذه السنوات..!!.

لقد مسكت نفسي وجسدي.. وكبتت رغباتي لأسباب عديدة بالتأكيد ليست دينية.. أولها بسبب ابنتيّ..فهما..وإن كانتا صغيرتين إلا أنه من

المستحيل أن أقدم على شيء تخجلان منه لاحقًا.. هما حياتي كلها.. لا أستطيع أن أشوّش أو ألقي بالظلال على حياتهما ومستقبلهما..هذا كان السبب الأساسي..ليس لأني امرأة فاضلة..فعلى الأغلب أني لست امرأة فاضلة..ومهما يكن فالفضيلة مفهوم أخلاقي نسبي..!.

قلت إن جسدي وحضوري الإنثوي يجذب الرجال..وهذا ما كنت أعيشه يوميًا..وربما نظرات الإعجاب والشهوة في عيون الرجال تؤكدان نظرتي لنفسي وأنوثتي..وتوقظ رغباتي من سباتها أحيانًا..لكني كنت أقول لنفسي: الجنس أمر هامشي ياحواء الجدي..! ..لكن علاقتي به التي وصلت إلى طريق مسدود لم تتمحور في الجنس فقط..!..بيد أن الحرمان الجنسي كان عمودها الفقري..! ..كان تشدده الديني المتطرف والمريب..ومحاولته فرض معتقداته الدينية المتزمتة عليّ..وخوفي على مستقبل ابنتيّ دفعتني إلى مواجهته..مواجهة انتهت بالطلاق.

الكتب أصدقائي الحقيقون..بينما هو يغار من الكتب..بل تطورت غيرته حتى صار في غيرة، وشك، واستبداد رجولي دائم.. وكان يسعى سعيًا محمومًا إلى السيطرة على حركاتي وسكناتي..!.

كان يملؤه شعور بالنقص لم أعرف مصدره ..لأني لا أعرف عنه شيئًا كثيرًا..ولم يحدثني قط عن طفولته ومراهقته..كي يمكنني أن أجد مفاتيح شخصيته..لكن الشكوك كانت تراودني..ربما من عجزه الجنسي..أو شكّه في الحيامن التي لقحوني بها..أو غيرته من توجهاتي الأدبية وانتشار اسمي في حلقات المواقع من خلال كتاباتي أو من خلال تعليقاتي..والتي كنت أكرس لها وقتي الفائض بينما هو يشاهد كرة القدم..! .

حياتي كانت كوميديا سوداء بكل معنى الكلمة..فقد تطورت غيرته من الكتب إلى أشيائي..منعني من لبس نعال الصندل بحجة أن أصبع رجلي ممكن يكون سببًا للفتنة ولإثارة الرجال..!!.. وبرغم ذلك كنت أتحداه.. كنت ألبس حذاء الصندل بعد أن يذهب إلى العمل..وكنت أصل قبله إلى البيت فأخبئ الحذاء..هذا أقصى ما كنت أستطيعه حينها..!.

كنت أتعذب حين أخرج معه لمكان ما.. عيناه تكونان مثل عينا الصقر تراقبان كل شي..وأية التفاتة أو نظرة من رجل إليّ معناها ستتفجر مشكلة في البيت حينما نعود..وبالمناسبة..بعد الزواج أجبرني على تغيير وظيفتي.. من مترجمة في دائرة حكومية إلى مدّرسة للغة الإنكليزية في إحدى ثانويات البنات...لأن التدريس في ثانوية للبنات تعني بالنسبة إليه لا اختلاط بين الجنسين..أي بعيدة عن الفتنة والخطيئة..والخطر.. ولم يكتف بذلك ..إذ دفعني للعزلة..عزلني عن أغلب أصدقائي..عن عائلتي..وفي المناسبات كان يخترع أي سبب كي لا نذهب إلى أهلي..بل إنه احتال عليّ..ودفعني إلى سحب ما تراكم لي من مبالغ عند الضمان الاجتماعي ..وبرغم وضعه المالي الممتاز كان يجعلني أدفع تكاليف سفري إذا ما رحلنا إلى أي مكان..، بحجة أنه يود تنمية روح المشاركة بيننا..وكنت أشارك بطيب خاطر وحماس وسذاجة..وحين جاء يوم الطلاق وجدت نفسي مفلسة..!.

ربما لا أحد يصدّق أنني كنت أخاف أن أضيء مصابيح الغرف في الشقة..لأن كبسة زر الكهرباء قد تزعجه..حتى لو كان هو في غرفته وأنا في غرفة الطفلتين..! كان يغضب..ويدّعي بأن كبسة زر الكهرباء تسرق النوم من عينيه.. وسيتعب في اليوم التالي..كما وضع ميزانَ للحرارة في كل

غرفة..وكان يطلب مني أن أراقب درجة الحرارة باستمرار.. وكان يغضب إذا ما ارتفعت درجة الحرارة في إحدى الغرف برقم واحد..بل وصل الأمر لبخله ومضايقته لي أنه كان يراقب علب الشامبو ويتأكد من أغطيتها..ليعرف هل تحممت أم لا..؟.كما كان يراقب المغسلة إن كانت مبللة أم لا..!! وكان لديه هوس بالنظافة ورعب من الجراثيم..لذا كنت أقوم بتعقيم أزار الكهرباء..والريموت كونترول الخاص بالتلفزيون، وسحابات البنطلونات، وأقوم بغسل البلاط وفركه كل يوم بشدة.. وفعليا كنت أفرغ كل غلّي وقهري في البلاط فأفركه بعنف وهياج.. وكنت حينما آخذ أنفاسي أقول لنفسي: «ليه كل ده» كما تقول الأغنية الشهيرة!!.

***

في بداية علاقتنا كنت أظن أنه أحب عقلي واتزاني وجديتي..وتحفظي.. إلّا أني اكتشفت أنه بلا عقل..إنسان مريض..ليس في عالمه البيتي سوى مباريات كرة القدم..ولم تكن أمامي أية خيارات..كنت أراهن على إمكانية تغييره..ظننت نفسي المرأة الخارقة التي يمكنها تغييره..ولم يكن انتظاري سوى ضرب من العبث والعناد الشخصي لنفسي..أنا هكذا..ولربما سأعيش وحيدة وسأموت وحيدة ..! لا..لا..لا أعتقد ذلك..أو آمل أن لا يكون الأمر كذلك..فأنا امرأة متفائلة ومرحة بطبيعتي وأستطيع مواجهة المشاكل، لكن يحدث أن تمر بي حالات كآبة ولو مرة في الأسبوع..

***

القراءة تساعدنا على الاستمرار في الحياة..بل بعض القراءات تعيد صياغة معتقداتنا..تفتّت جدران الجليد المتراكمة في الأعماق.. لذا كان

للقراءة دورها في صياغة حواء أخرى في داخلي..حواء الجدي لكن أكثر جرأة وحساسية..فقد قرأت للوجوديين وللحركات النسوية وقرأت الأدب العالمي..تعمقّت بحكم إجادتي للغة الإنكليزية في الأدب الإنكليزي.. والأميركي..أحببت الأخوات برونتي.. شكسبير.. دي.اتش.لورنس.. وليسنغ..وسكوت فيتزجيرالد..ت.إس.إليوت..وفرجينيا وولف..وآه من فرجيينا وولف..لقد وجدت نفسي فيها..وهي التي منحتني الثقة والجرأة على الدخول إلى عالم السرد والكتابة..لكني فكرت مع نفسي وسألتها: كيف يا حواء ستكتبين وأنت لا تملكين الشجاعة لقول ما تشعرين به نحو زوجك..وهو شيء يخص حياتك؟؟..

لكني بعد خمس سنوات من الزواج..تجرأت وقلت لزوجي: «أنا لست مرتاحة معك في السرير»..فتح عينيه بغضب وتساؤل على آخرهما وسألني بحدة: «كيف عرفتِ أنك لست مرتاحة..؟»..صُدمت من جوابه – السؤال.. وتعالى صوته بالصراخ..وصب جام غضبه على الكتب الفاسقة التي أقرأها..!!..أذكر أنني حينها كنت واقفة عند الشباك..وفكرت لحظتها بأنه يمكنني الخلاص من هذه التعاسة بأن ألقي بنفسي من الطابق السابع الذي نعيش فيه..لم أفعل..ليس خوفًا على نفسي وإنما خوفًا على ابنتيّ..!

بعد هذه المواجهة صار يحبسني بالبيت إذا ما خرج..يأخذ مفتاح سيارتي ومفاتيح البيت التي تخصني بحجة أنه أخذها خطأ..فكنت اتصل بإدارة المدرسة مدّعية مرض ابنتيّ حجة..برغم أني آخذهما صباحًا إلى أمي..!..لكني قررت المواجهة أو الانتحار..وواجهته..وتنازلت عن كل شيء..وخلعته..! تطلقت.

كنت سعيدة وخائفة من طلاقي..كيف سأواجه الناس..؟ ماذا سأقول.. وأية تبريرات سأقدمها لو سئلت..؟ لكن سعادتي بحريتي كانت أكبر من خوفي..كنت أريد أن أعيش..أعيش ذاتي وأنوثتي الضائعة..ولم يكن أمامي سوى إلقاء نفسي في علاقتي الرومانسية بصديقي العراقي آدم أبوالذهب في الجامعة..الصديق الوحيد الذي كان يهمني وتربطني به علاقة صداقة قبل زواجي..!..كان صديق سنوات البراءة..فتواصلت معه عبر الإيميل والفيسبوك وبشكل يومي..!

بعد طلاقي لم أعد أقاوم فكرة أن لا أكون قريبة منه، لاسيما وأنا الآن امرأة حرة..وكانت كلماته التي يكتبها لي يوميًا مليئة بالحنان..فمست قلبي.. وقربته مني..وصيرّته حبيبي..!..لكنه في الواقع خذلني..وخيبة أملي فيه كسرتني أكثر من فشل علاقتي به..!!..

مرة قرأت لأحد المحللين النفسانيين بما معناه أن تكون محبوبًا فأن ذلك يمنحك إشباعًا لكونك صرت موضوعًا لحنان ومشاعر شخص آخر.. وهذا يرضي الأنا ويحسس الإنسان بقيمته..لكن أن تحبّ أنت شخصًا آخر فإن هذا الشعور هو شعور بالتبعية والذل السعيد..! وأنا جربّت هذا الشعور..فرغبتي الجنسية وكبتي لها وتحفظي الأخلاقي خلال سنوات الزواج أيقظت في نفسي مشاعر الصداقة لصديقي في الجامعة..واحتفيت به في أعماقي برغم الغياب..! إلا أن هذا الغياب كان أشّد وأقوى تأثيرًا في حياتي من حضوره الفعلي كما أذكر في تلك السنوات..وحينما صرت حرة وتواصلت معه كنت مهيئة للسقوط في الحب..وكانت سقطتي بحجم الكبت والحرمان الذي عشته..!.

بعد طلاقي تواصلت معه أكثر..كاشفني بمشاعره وكاشفته بما أكنه له من مشاعر وحاجة..كنت متأكدة من مشاعره..لم أكن أتوقع أن بعض الناس يكونون في كذبهم صادقين جدًا إلى هذه الدرجة..!.

2

وهــم الحـــب

«وأخيرًا أنا في ستكهولم..؟"..حين نزلت من الطائرة تتبعت المسافرين الذين كانوا معي في الطائرة..دخلنا ممرات إلى أن وصلنا قاعة استلام الحقائب..انتظرت هناك لبعض الوقت إلى أن بدأ الحزام المتحرك بعرض حقائبنا..حاولت الاتصال به فكان رقمه مغلقًا.. حين ظهرت حقيبتي البنية اللون على الحزام المتحرك أخذتها وانطلقت إلى بوابة الخروج حيث قاعة استقبال المسافرين..!.

ما أن صرت في القاعة حتى واجهتني وجوه مستبشرة يحمل أصحابها باقات ورد لأحبابهم ومعارفهم..ورأيت بعض مندوبي الشركات يحملون لافتات بأسماء ضيوف لا يعرفون أشكالهم..توقفت للحظات باحثة عنه..انتبهت إلى أنني أقف في منتصف الطريق.. تنحيت جانبًا..لم أجده بين جمع المستقبلين.. اجتاحتني مشاعر صعبة..أين هو؟ ألم يقل لي بأنه سيكون في استقبالي..؟

تفرق المستقبلون..وبقيت وحدي واقفة جانبًا أنظر بترقّب إلى جهة الخروج والدخول..!..حاولت الاتصال به عبر هاتفي النّقال لكن هاتفه كان مغلقًا..ولا عنوان لديّ يدلني على بيته..! ماذا عليّ أن أفعل..!!؟.

مرت ساعتان ثقيلتان من الانتظار..كنت استبعد أنه قد نسي..لكنني فكرت بأنه ربما تعرض في الطريق لحادث آخّره ..! وأخيرًا حسمت أمري وتوجهت

إلى موقف سيارات التاكسي..صعدت واحدة وطلبت من السائق الذي كان يتحدث الانكليزية بطلاقة بأن يوصلني إلى أي فندق في المدينة..فندق مناسب..فسألني عن طبيعة الفندق وعدد نجومه..فقررت أن أنزل فندقًا من أربع نجوم..فأخذ السائق يعطي المعلومات لجهاز أمامه..وأخيرًا انطلق بي.

كنت مصدومة..وأحسست أن فرحة السفر واللقاء بصديقي الذي صار حبيبي قد ماتت..لكني حاولت أن أمنح نفسي شيئًا من الأمل والقوة.. فشغلت نفسي بتأمل جانبي الطريق والتعرف السياحي العابر على نواحي المدينة..!انتبهت لمبنى كبير على الطريق يشير إلى مكتبة كبرى في „تنسته".. وأذكر أنه أخبرني بأنه يعيش في هذا القسم من ضاحية ستكهولم..لكني لا أعرف عنوانه فتركت السائق يدلني على فندق مناسب..! وفعلًا بعد حوالي أربعين دقيقة وقفت سيارة التاكسي أمام منعطف ضيق فارغ من السابلة..قرأت عليه عنوانًا بسيطًا بأنه „ فندق الفردوس..هوتيل برادايس"..نظرت إلى العداد فهالني المبلغ المطلوب..دفعته مع بخشيش قليل.شكرني جدًا وسألني إن كنت أحتاج لوصل بالحساب فقلت له لا أحتاج..فساعدني بإدخال حقيبتي إلى استعلامات الفندق وتحدث مع موظفة الاستعلامات بالسويدية.

بعد أن أخذت جواز سفري وعملت عنه نسخة فوتوكوبي..رافقتني في ممر أرضي يوازي مكتب الاستعلامات..ووقفت أمام الغرفة التي تحمل الرقم 7..وفتحتها..فدخلناها..أرتني تفاصيل الغرفة المعتادة في كل الفنادق..أحسست بالأمان..والوحشة..! ألهذا جئت أنا..؟؟ إلا أن استقبال موظفة الاستعلامات اللطيف وترحيبها وتمنياتها لي بالراحة منحني شعورًا بإنسانيتي..!..وقبل أن تخرج قالت لي بأن الفندق قرب ساحة ومتحف الفريد نوبل الشهير صاحب الجائزة..!

لا أعرف كم من الوقت مرّ علي وأنا جالسة على السرير..كنت حزينة.. أريد البكاء لكني لا أستطيع..حاولت الاتصال بالرجل الذي جئت من أجله لكن لا فائدة..!.

حاولت الاتصال به عبر النت..خرجت إلى موظفة الاستعلامات وسألتها عن النت..فأعطتني المفتاح السري للدخول إلى الشبكة الخاصة بالفندق.. ورقة صغيرة فيها الرقم 7 مكررًا سبع مرات..فاستغربت تكرار الرقم سبعة.. فغرفتي رقمها سبعة..وكلمة السر أيضًا.. إلّا أن موظفة الاستعلامات أرشدتني إلى زاوية في اللوبي وقالت يمكنني التواصل عبر الحاسوب مجانًا..أدخلت الرقم السري إلى هاتفي..لكني فضلت أن أتواصل معه عبر المسنجر من خلال حاسوب الفندق..شكرت الموظفة..وتوجهت إلى الزاوية حيث الحاسوب.

لا أدري..كم تمنيت أنني لم أفتح الحاسوب..كانت صدمتي كبيرة ومؤلمة..فقد رأيته من خلال المسنجر موجودًا أمام النت..فكتبت له كلمة واحدة: مرحبًا..وإذا بإشارة النقاط المتحركة الدالة على استجابته وكتابته الجواب تظهر على الشاشة..

- مرحبًا..

- أين أنتِ..؟ كتب لي.

- أنا في الفندق..؟

- أي فندق..؟ سأل.

- فندق اسمه الفردوس..هوتيل برادايس..قرب ساحة ومتحف ألفريد نوبل..

- آها..أعرف المتحف والساحة..إنها المدينة القديمة..Gamla Stan..سأكون عندك خلال ساعة..وبالمناسبة..أنا أعتذر أنني لم أستطع

استقبالك في المطار.. لقد استيقظت قبل نصف ساعة فقط..وخمنت أنك قد وصلت..وأنك ستتصلين بي بلا شك..سأكون عندك خلال ساعة..!

لم أجبه.. انطفأت زرقة حضوره الإفتراضي ..عرفت أنه غادر النت.. كانت صدمتي كبيرة..وسقطتي موجعة جدًا..قرأت الحوار مرات..أمن المعقول ما يحدث لي؟؟ أهذا هو الرجل الذي أحببته؟ أين كل تلك الكلمات المشحونة بالمشاعر والرغبة..؟ أمن المعقول أنني جئته لأسكن في فندق على حسابي الشخصي..!أمن المعقول أنه ينسى موعد وصولي فينام براحته دونما تكليف نفسه باستقبالي؟؟ هل هذا الأمر مقبول هنا؟ لا.لا. لقد رأيت السويديين وهم يحملون باقات الورد في استقبال أحبابهم..!! ولم أستطع البقاء أكثر أمام الحاسوب..!.. ذهبت إلى غرفتي..!.

لا أعرف كيف اجتزت المسافة بين اللوبي الصغير وغرفتي التي تقع في نهاية الممر..!..دخلت غرفتي..نزعت عني ثوبي الأسود.. نزعت سروالي الأحمر..كنت أنا ولست أنا..كنت أتحرك كإنسانة آلية بلا مشاعر..هول الصدمة كما يبدو ضربني ضربة قاضية..دخلت غرفة الحمام..لم أغلق بابه.. أبقيته مفتوحًا..أخذت أنظر إلى وجهي..إلى أنفي الذي فيه ملمحًا أفريقيًّا برغم أني بيضاء وأميل إلى الشقرة..إلى شفتي اللتين تشبهان فم السمكة.. ونهدي الصغيرين اللذين يشبهان كمثريتين ناضجتين..وفجأة نزلت دموعي.. لم أكن أبكي..لكن دموعي نزلت..دخلت إلى زاوية الدش..وفتحت الماء على جسدي علنّي أحس بنفسي وبجسدي..علّني أعود لنفسي..! بقيت مغمضة العينين والماء يبللني..يهطل بقوة على جسدي وكانه يخاطبني.. يدعوني أن انتبه لنفسي..! ..نعم...أحسست أن الماء الهاطل من الدش يحدثني..!..

مرّ وقت ليس بالقصير وأنا تحت دش الماء..فجأة أفقت..أفقت على حواء الجدي التي هي أنا..لكني أفقت على امرأة أخرى أيضًا..كنت باردة..لا مبالية..ساخرة برغم الخيبة..أوقفت تدفق الماء من الدش..بقيت للحظات ساكنة في مكاني..خرجت من تحت الدش.أخذت منشفة كبيرة.. نشفت بها جسدي وللففتها حول وسطي..ثم أخذت المنشفة الصغيرة فنشفت بها رأسي.

خرجت إلى غرفتي..فتحت حقيبتي البنية فأخرجت سروالًا أسود.. لبسته..كنت قد لبست السروال الأحمر لأنني كنت أحب أن أكون من الداخل أنيقة أيضًا..وكنت أتخيل لقائي الجسدي به..حيث يراني بسروالي الأحمر الذي ربما سيزيد من شبقه.. لكن الآن لا يهمني أي شيء..وأعدت لبس ثوبي الأسود..ولم أمسس شيئًا من ثيابي التي حملتها خصيصًا معي لهذه الرحلة..!

دخلت الحمام ثانية لأنشف شعري بجهاز التجفيف الهوائي..حين سمعت هاتف الغرفة يرن..وحين أجبت أخبرتني موظفة الاستعلامات بأن هناك من يسأل عني..! سألتها من..فقالت آدم أبوالذهب..وإنه قادم إليّ ..ولم ألحق أن أقول لها بأن توقفه عندها في اللوبي وأني قادمة..إذ وضعت السماعة.

غريبة هي نفسية المرأة..فبرغم احباطي وصدمتي منه فأنني أخذت انتبه لشكلي إن كان مقبولًا..ولم ألحق أن اضع شيئا على وجهي حينما سمعت باب الغرفة يطرق..!.

أسرعتُ إلى حقيبتي اليدوية..أخرجت حقيبة المكياج الصغيرة..مررت بقلم الكحل على حواف عينيّ ..وبسرعة مررت قلم أحمر الشفاه على شفتي..وخرجت أفتح الباب.

من الصعب عليّ أن أصف تلك اللحظة التي قابلني وجهه فيها عند فتحي الباب..الآن..وبعد مرور ما يقارب السنتين على تلك الرحلة الغريبة أتذكر بيقين صارم بأنَّ اللقاء كانَ باهتًا..باهتًا جدًا..! ..لا أعرف..ربما هو أيضًا خاب ظنه فيّ..فبعد هذه السنين ربما تغيرت..!.لا أدري..فمنذ لحظة رؤيتي له ولابتسامته الفاترة المغتصبة ونظراته الميتة الباردة أحسست أن كل ما كان بيننا ليس سوى ضبابٍ انقشع في هذه اللحظة الحاسمة..! كم كانت تلك اللحظة قاسية..!

في تلك اللحظات هيمن عليّ شعور غامض بأني أحمل عبء ذنب مجهول..بأنني ارتكبت خطأ عظيمًا..وكان هذا الشعور يرهقني ..! ..ماذا عليّ أن أفعل..؟..لست في محطة مترو كي أستدير لأركب أي قطار قادم لأهرب من عبء هذا الشعور..! أنا هنا على بعد آلاف الكيلومترات عن مدينتي وبيتي وأمي وطفلتيّ..!!..لذا وجدت نفسي أنطلق هاربة من نفسي.. خائفة من الصوت الذي يصرخ صامتًا بشماتة في أعماقي بأني أخطأت..وأن هذا الرجل ليس هو الذي أحببته..!..لكني استسلمت للخيبة وما تحملها لي من مفاجئات..!وكرد فعل على خيبتي حاولت أن أقنع نفسي بأن شعوري بالخيبة مزيف وأنه ربما نتيجة لإرهاقي ونتيجة لتوتري من الرحلة..فلأمنح نفسي فرصةً كي أفهم ما جرى ويجري معي..لكني كنت على يقين لا يقبل النقاش بأنه ليس معي..!

لم يترك لي فرصة للكلام..ربما هو انتبه للخيبة التي ارتسمت على وجهي أيضًا..دخل الغرفة قبل أن أدعوه لذلك..صرنا وحدنا قريبين من بعضنا قرب الباب من الداخل..ها أنا وحيدةً معه وقربنا سرير عريض..!..

وبرغم خيبتي وإحباطي وإنكساري وشعوري البارد والمتحفظ الممتزج بخيبة واضحة، انتبهت إلى أن مجرد تواجدنا معًا، وحدنا، أيقظ رغباتي من سباتها دون إرادة مني..لا..لا..ليس حقيقة تواجدنا معًا وإنما فكرتي وتخيلي مشهد تواجدنا معًا في شقة فارغة أثارني وأيقظ رغبتي..فتدفقت الدماءِ في براري جسدي المتوتر..!..إلّا أني انتبهت إلى ارتباكه وحيرته من تواجده معي أيضًا..وكأنه كان يخاف شيئًا ما..أو يتوجس من أن شخصًا قد يقتحم علينا الغرفة..وربما لم يجد ما يقوله لي فوجد في العناق خلاصًا من هذا الحرج الذي هو فيه..!.

اقترب مني..لمحت القلق والتوتر في عينيه الباردتين..ضمني ببطء.. وبرود..وكأنما كان يريد من خلال الاحتضان أن لا يدعني انتبه لارتباكه ولما يرتسم على وجهه من تعابير..!! لم أمدّ ذراعي لعناقه..لم أكن أعرف ماذا عليّ أن أفعل ..؟ انتظرت مبادراته باستسلام..!.

كنت لحظتها وأنا بين ذراعيه أفكر مع نفسي وأسألها: «هل أنا قطعت آلاف الكيلومترات من أجل هذه اللحظة الباردة.. !!»..لكني قاومت نفسي وتركتها تستقبل كل الاحتمالات..!..انتبهت إلى أنه يأخذني دافعًا إياي للوراء مثل راقص بارع..بخطوات متقنة نحو السرير في غرفة النوم المجاورة والمفتوحة..ألقاني على السرير..وبلمسات الخبير نزع عني ثوبي..وسروالي الداخلي الأسود..كنت عارية تمامًا..لأول مرة في حياتي أكون عارية مع رجل بشكل مرئي وليس في الظلام..ورأيته كيف أخذ يقبّل جسدي..دون أن ينظر لوجهي وعينيّ..وكأنه يهرب مني في جسدي..وانتبهت إلى أنه يفتح فخذي ويلحسني من هناك.. حاولت أن أمنعه..لم أكن أعرف ماذا أفعل..

فلأول مرة أجد نفسي مع رجل يضع رأسه هناك ويلحسني..حتى زوجي كان لا ينظر إلى ما بين فخذي..كان يفعل كل شيء في الظلمة..

فجأة تحول إلى رجل من لحم ودم..نزع بنطاله..وسحبني إلى حافة السرير..فتح فخذي إلى مدى اتساعهما..واخترقني بقوة.. أحسست برحمي يتشنج ويرتعش..!..وتدفق ماؤه ساخنًا في رحمي..!

تركني مستلقية على السرير بعد أن غمرني بمائه الفضي الذي أخذ يخرج مني بينما تصاعدت منه رائحة ذكرتني برائحة السمك..!!..كنت أراقب هذا الرجل وهو يدخل الحمام ليغسل قضيبه المقدس..هذا الرجل الذي ضاجعني دون أن يقول لي كلمة واحدة..أفرغ منيه في رحمي وكأنه يتصدق عليّ ويمنحني عطاياه المقدسة..!

لأول مرة انتبهت إلى أنني برغم اكتشافي لشهوتي من خلال هذا الاختراق الجسدي العنيف من قبل هذا الرجل الذي اسميّه حبيبي إلا أنه رجل غريب بالنسبة لي..فله عالمه ولي عالمي..!

انتبهت إلى عريي والقذارة بين فخذي..ارتعبت..خفت فجأة من الحمل برغم أني قد أخذت احتياطاتي ..وسألت نفسي عن معنى السقوط..أليس هذا سقوطًا..؟ وواجهتني أسئلتي: «ماذا أفعل في هذه الغرفة التي تبعد آلاف الكيلومترات عن بيتي..؟ ولماذ أنا هنا معه..؟ بل..من هو؟ ومن أنا؟ نحن كما هو واضح غريبان..!أمن أجل أن يخترقني كامرأة محرومة متسولة للنشوة جئت من أقاصي العالم إليه..؟»..أحسست بالضيق من نفسي.. ومنه..تمنيت أن أكون وحدي..وحدي..!.

حاولت أن أخفف من ثقل خيبتي..أقنعت نفسي بأن هذه الرحلة مهما كانت محبطة فأنها ستكون تجربة إنسانية ربما سأكتبها ذات يوم قصة أو رواية..! كنت أبحث عن أي تعويض خاسر لمغامرتي البائسة..!

حين خرج من غرفة الحمام وقف قرب السرير وقال لي بأنه سينتظرني في اللوبي..واستدار مغادرًا الغرفة... وما أن صفق الباب خلفة حتى لطمت وجهي لهذه الخيبة التي أنا فيها..بقيت مستلقية لدقائق..ثم نهضت من السرير..وأسرعت إلى الحمام لأنظف رحمي من قذراته..!

لا أعرف من أيـن..؟ وكيف هطلت دموعي مع الماء المتدفق من الدش..؟..بكيت وأنا أكتم صوتي..!..بكيت بحرقة إلى أن تعبت.. فأحسست براحة كبيرة..وبشعور غريب من اللامبالاة لكل ما سيأتي..فهي أيام قليلة وسينتهي كل شيء..! .

خرجت من غرفة الحمام..لبست ثوبي الأسود..وسروالي الأسود.. أخذت حقيبتي اليدوية وخرجت إلى اللوبي حيث ينتظر.. ولم أكن أعرف ما يمكن أن يكون بيننا فأنا منذ لحظة دخوله الغرفة وخروجه منها لم أنطق بكلمة واحدة..ولا أدري إن كان هو انتبه لذلك..؟

حين وصلت اللوبي رأيته جالسًا أمام الحاسوب المجاني هناك..جلست على الأريكة الجلدية السوداء..إلا أنه ظل جالسًا على كرسيه أمام الحاسوب يواصل الكتابة والحوار عبر المسنجر مع أصدقائه دون أن يعبّر عن بعض اللياقة في الانتباه لحضوري..بل التفت مرة نحوي وسألني عن رحلتي إن كانت مريحة..!!! .

كنت أنظر إليه من الخلف وهو على كرسيه وأسأل نفسي: أين هي كلماته الرقيقة الجيّاشة بالمشاعر..؟ وأين هي جمله وأحاديثه التي تتوهج بالأفكار

اللمّاحة..؟ وإذا لم يكن راغبًا في مجيئي ومُحرجًا من وجودي معه هنا في مدينته فلماذا لم يقل لي ذلك..؟ ربما لم يكن يتوقع جنون امرأة تعيسة، محرومة، بأن تترك ابنتيها وتجيئه متلهفة..؟ أهناك امرأة أخرى..؟ وخفت من نفسي ومن أسئلتي.

وأخيرًا أنهى حواراته الفيسبوكية..ثم التفت إليّ وكأنه انتبه لإهماله لي.. فحاول أن يكون أريحيًا معي..فقال لي:

- تعالي أريك ستكهولم..نحن الآن بالقرب من ساحة ومتحف نوبل.. لنذهب إليه..!

لم أقل شيئًا وإنما نهضت واقفة. كانت موظفة الاستعلامات وهي امرأة أربعينية تلقي علينا بين الفينة والأخرى نظرة مستقرئة.. وكانت تنظر إليه باعجاب أنثوي وكأنها تحسدني عليه..!.

لم أر شيئا مهمًا من المدينة..كان الفندق يقع في منعطف ضيق..يقود إلى شارع يصعد من جهة إلى ساحة ومتحف نوبل ومن جهة أخرى ينحدر إلى الشارع العام الذي كان يبدو مزدحمًا بالسابلة..فصعدنا باتجاه المتحف.. كان هو وحده يتكلم..اعتذر مرة أخرى من عدم مجيئه لإستقبالي..وأخذ يروي لي قصة سهره ليلة البارحة مع صديق عراقي..واخذا يشربان الخمر.. وحينما انتهت القنينة واصلا شرب النبيذ..قنينة خمر وثلاث قناني من النبيذ..فتعبتهما السّكر..ولم يستطع النهوض..!.

كنا قد وصلنا الساحة..مئات من السائحين وأبناء البلاد يجلسون في المقاهي والمطاعم التي تتواجد في الساحة..وهناك في وسطها ثمة رجل يضع أمامه آلة موسيقية ويعزف عليها قطعًا موسيقية كلاسيكية.. بينما هناك

من يزور المتحف الذي واجهته مغطاة بلافتات تصور ألفريد نوبل وميدالية جائزته الشهيرة..وكان الناس يجلسون على قاعدة خشبية تحيط بالعازف.. وعلى مقربة منه..!

دعاني للجلوس إلى مقهى قريب..لم أتحدث..لكني كنت مستجيبة ومستمعة جيدة دون امتعاض لأحاديثه..والغريب أنه لم يحدثني عن نفسه.. وعن سبب وجودي أو أفق وجودي هنا في ستكهولم معه..وكأنني ساكنة في ستكهولم وقد تواعدنا على اللقاء !! .

طلب لي وله صحنين من الآيس كريم..لم يسألني وإنما تبرع هو بالشرح بأن هذه المقهى شهيرة بتقديم الآيس..وإنه يأتي بين فترة وأخرى إلى هنا ليتذوق من الآيس كريم.. ثم أخذ يتحدث عن الأجانب الذين يتحايلون على الحكومة السويدية من أجل الحصول على مساعدات أكثر..! كل هذا وأنا صامتة..لكن دون أية علامة على الامتعاض..!

لا أعرف ما الذي كان يفكر فيه..فما أن انتبه إلى أنني أنهيت صحني حتى قال لي فجأة..لنذهب إلى الفندق كي نكون وحدنا وتتاح لنا أمكانية أن نتحدث!! ولا أعرف ماذا كان يقصد بذلك..فمن تراه يمنعه من الكلام..!.لكننا قبل أن نغادر قام متجهًا إلى التواليت..قائلًا لي سيأتي بعد لحظات..وأثناء ذلك جاء نادل المقهى ليحمل الصحنين الفارغين..فسألني إن كان الآيس لذيذًا فشكرته..وفجأة جاءتني فكرة أن لا أدعه ينفق عليّ كرونًا أو دولارًا واحدًا..فطلبت فاتورة الحساب..فقال لي النادل بسرعة عن المبلغ فسألته إن كانوا يأخذون الدولار..سكت لحظة ثم وافق..فنقدته خمسة عشر دولارًا..وفي تلك اللحظات جاء هو..ورأى أنني قد دفعت..لم يعلق شيئًا..فنهضت أيضًا وغادرنا المقهى راجعين إلى الفندق..!

كنت أظن أننا سنجلس في اللوبي لنتحدث..لكنه لم يشأ الجلوس هناك..وإنما قال لي لنذهب إلى غرفتك.. لم أقل شيئًا..مشيت إلى الغرفة فتبعني..وما أن دخلنا الغرفة حتى احتضنني من الخلف..!ومد يده من فتحة ثوبي.. ثم أخذت كفه تجول في أنحائي..كان شبقًا ومثارًا..وأحسست بقضيبه منتعظًا ..أخذني إلى السرير وهو يمسك بي محتضنًا من الظهر.. وحين وصلنا إلى السرير ألقاني عليه..صرت مستلقية على بطني..أخذ يداعبني بكفيه..يتحسس جسدي..ثم أخذ يقبّلني خلف عنقي..أحسست بالإثارة.. لكني لم أكن قد جئت لهذا إلى ستكهولم..!.

وتكرر ما حدث في أول لقاء قبل ساعة من الوقت ..رفع ثوبي من الخلف وسحب سروالي إلى قدميّ..وبيديه فتح آليتي وأولجه فيّ..كان هائجًا مثل ثور..ثم أدارني على ظهري..وسحب سروالي من قدمي..ونزع عني ثوبي الأسود..ودخل فيّ بكل ثقله.. وأخذ يدخلني بجنون..وهو يقول لي: كسك كبير وبظرك بارز وهذا يعني أنك شهوانية .. لقد أخذت حبة فياغرا خصيصًا من أجلك..من أجل هذا الكس العجيب!! يااااه..يا لكرمه الرجولي..أكرمني بحبة فياغرا ليثبت لي رجولته..أي مستنقع انزلقت إليه يا حواء..!! أيتها المثقفة الحالمة بالخلاص..بالحب..والأفكار الكبيرة..! ما هذه التفاهة اللغوية..أهذا هو كلام الحب التي كنت تنتظرين أن تسمعيه منه وهو ينطقه..!!؟.

لكن الغريب في كل هذا أنني لحظتها كنت أراقب نفسي وأراقب استجابة جسدي وتمتعي بما يجري وكأنما هذا الجسد ليس جسدي..وفكرت لحظتها ربما أنني امرأة باردة جنسيًا..!.. كنت أسعى إلى أن أستمتع.. لكني لا أعرف

لماذا تنطفئ شهوتي وأنا في الطريق إليها..ربما لأني محبطة أساسًا.. أترى أنا امرأة غريبة أم هناك نساء يعشن مثلي!!؟؟. لكني واسيت نفسي بأن السبب ربما يعود إلى أني لم أتعود بعد على حريتي الجنسية..لأنتظر وأرى ماذا سيحصل.. ولم يحصل أي شيء غير الجنس..! أنهى فحولته بأن صعد إلى صدري جالسًا على بطني وقذف منيه على صدري..

يبدو لي أنه كان ينظر إليّ كامرأة محرومة جنسيًا وإلا ما تركت بلدي وإبنتيّ وأمي ووظيفتي وأنفقت المال الكثير إلا من أجل أن ينيكني..!.. وسألت نفسي..ألم يقل إننا سنتحدث..؟؟

حين انتهى مني غادر السرير إلى الحمام..بقيت أنا مستلقية..رائحة المني النفاذة تغمر أنفي..وعيناي مثبّتتان على سقف الغرفة أسخر من نفسي.. مسحت المني عن صدري ووجهي وفمي بالمناديل الورقية الشفافة التي كانت على الطاولة القريبة مني..! وسألت نفسي: أتراني جئت إلى السويد قاطعة آلاف الكيلومترات لآخذ دروسًا في طرائق النيك...!!..استغربت من نفسي كيف كانت كلمة غزل صادقة منه عبر الفيسبوك أو الإيميل تهز جسدي برعشة جنسية وتغمرني براحة واسترخاء سماوي..بينما هو الآن معي عاريًا ويخترقني بعنف لكنني باردة..!

وصلني صوت الماء المتدفق في الحمام..ولا أعرف لماذا ارتجفتُ من البرد..فالجو ليس باردًا..سحبت البطانية فوق وجهي..انتبهت إلى أنه قد وضع هاتفه النّقال على الطاولة المجاورة للسرير..وعلى الرغم من أنه وضع هاتفه على وضع الصامت فأن الجهاز يصدر صوتًا عند وصول أية رسالة.. الرسائل تضيء شاشة الهاتف لثوان..راودني الفضول..ترددت قليلًا..

ليس من اللائق أن أرى هاتفه..لكن خيبتي وغيظي مما أنا فيه دفعني إلى ذلك..مددتُ رأسي وجسدي..نظرت إلى شاشة الهاتف النّقال..رسالة من واحدة اسمها حواء الساري تخبره بأنها ستصل إلى ستوكهولم غدًا عصرًا.. فلينتظرها في المطار...إذن هناك امرأة أخرى..؟.

أحسستُ بقشعريرية تسري في جسدي..وتشنجات في صدري وظهري وفخذيّ..خفت أن أصاب بالشلل..خلال ذلك سمعتُ صوتَ خطواته بالقربِ مني..كانت نظراتي فارغة..فارغة من الحقد أو الغضب أو الكراهية أو العتاب..كان ثمة يأس يجتاحني..لم أصرخ ولم أفعل شيئاً..وإنما ببساطة قلت له: من هي حواء الساري..؟.. لماذا ورطتني بالمجيء إليك إذا كنت مشغولًا..؟.

صُدم..عرف أني قرأت ما موجود على شاشة هاتفه من رسائل..وكرد فعل يعبّر عن موقفه من وجودي أصلًا..بدأ بالصراخ..لكني استوعبت جملة مما قال بأنه قبل تواصله معي تعرف على حواء الساري العربية الدنماركية..وهي مطلقة.. وتزوره بين فترة وأخرى..لكن ليس بينهما أي اتفاق على زواج أو أي شيء من هذا القبيل.. وأنه لا يزالُ على إتصال بها لأنه لا يحبُّ العداوات ببساطة!..ونطق كلمته في وجهي: أنت حقًّا مجنونة..!!..ثم واصل كلامه مهاجمًا إياي لأني تجرأت وقرأت رسائله الخاصة..لم يكن أمامي سوى أن أغطّي رأسي بالبطانية مجددًا..وأصم أذنيّ عن كلماته الجارحة..!!..فجأة سمعتُ صوتًا حاسمًا صدر من أعماقي.. يقول لي غادري.ارجعي فورًا إلى بيتك..!

ولا أعرف من أين جاءتني القوة الهائلة بحيث رفعت البطانية عن وجهي وقلت له: اخرج من الغرفة.. غادر حالًا..!

صُدم هو..كتم غيظه..نظر إليّ بحقد..عيناه الباردتان لم تتوهجا سوى بحقد ساخن..وكأني أهنته..لم يقل لحظتها شيئًا..، لكنه حين غادر الغرفة قال لي: أوكي..!. وصفق الباب بقوة..وكأنه أغلق على كابوس من كوابيس حياتي..!.

« أوكي..!"..هكذا ببساطة ولا مبالاة وكأن ما قلته كان فوزًا بجائزة يانصيب كبيرة لم ينتظرها.. كانت فرصة ذهبية للتخلص مني..!..ولم يكن أمامي سوى أن أكتم غيظي..فذهبت إلى الحمام..أغلقت الباب عليّ وأخذت أبكي بصمت عجزًا وخذلانًا وخيبة ..

حين خرجت من الحمام كنت محطمة.. قررت بشكل حازم العودة إلى بيتي فورًا ..لكن الوقت لم يكن مناسبًا..فالمساء قد هبط.. وعلي أن أبحث عن الخطوط التي وصلت عبرها إلى ستكهولم واكتب لهم وأتصل بهم عسى يمكنني الرجوع غدًا..ارتديت ملابسي وأخذت حقيبتي..وخرجت إلى اللوبي.

****

كنت أعرف تعريفًا مدرسيًا منذ طفولتي عن الإنسان بأنه: حيوان ناطق.. نعم نحن البشر نتكلم كثيرًا..نتكلم ونتكلم ونتكلم..لكن ماذا بعد..!!؟ سيكون هناك بعد الكلام صمت..صمت أكثر بلاغة من الكلام..بل وأشد ضراوة.!

معه لم يكن الأمر كذلك.. كم كنت غاضبة من نفسي لهذا الشلل الذي أصاب لساني لأني لم أقل له بكل ما يجول في نفسي! أهذا هو الرجل الذي تركت من أجله الدنيا وما فيها..؟ كم كنت عمياء..! أي وهم كنت أعيشه..!

حين صرت في اللوبي واجهتني ابتسامة موظفة الاستقبال..وقالت لي بلطف بأن موعد العشاء قد حان..وأشارت إلى قاعة جانبية بأنه مطعم الفندق..وبرغم أني لم أكن جائعة لكني توجهت إلى المطعم..ففوجئت بأنه مزدحم بالنزلاء..!

لم أكن أعتقد أن كل هؤلاء الناس ينزلون معي هذا الفندق..فقد راودني إحساس بأني الوحيدة في هذا الفندق..إذ لم أر في اللوبي غيري..من أين أتى كل هؤلاء..؟ وأين كانوا..؟

حين دخلت توجهت العيون كلها نحوي..ارتبكت..نسيت ما جرى لي هذا اليوم منذ لحظة وصولي إلى المطار والآن لحظة دخولي المطعم تلك.. لكن المرارة كانت تسمم روحي..كانت جميع الطاولات مشغولة..وفي زاوية بعيدة عن البوفيه كان طاولة لأثنين.. ذهبت إلى هناك ووضعت حقيبتي..ثم توجهت مثل بقية النزلاء لأصطف في الطابور حيث يأخذ كل منهم صحنة ليملأه بما يشتهي..! حين عدت إلى طاولتي جاءني النادل وسألني إن كنت أحب النبيذ الأحمر أو الأبيض..فقلت له أحب النبيذ الأحمر..!

ما أن بدأت بتناول طعامي حتى اكتشفت أنني جائعة حقًا..فلم أمسس من الطعام سوى ما تناولته في الطائرة..! ولم آكله كله لأنه لم يعجبني..كنت قد اخترت لنفسي قطعة من صدر الدجاج المشوي مع البطاطا والسلطة.. ثم جاءني النادل بكأس النبيذ.. فارتشفت منه بضع رشفات..وكل ذهني أن أنتهي من العشاء وأتوجه للحاسوب لأبحث عن امكانية تغيير الحجز.. وقررت مع نفسي أن أذهب صباحًا إلى المطار في كل الأحوال..!.

فجأة سمعت صوتًا يالإنكليزية يقول لي:

- ممكن..الأماكن كلها محجوزة ..وأنا وحدي..

رفعت رأسي فرأيت رجلًا طويل القامة..نحيلًا..أنيقًا..شعره كثيف تتخلله شعيرات بيض..وسيمًا..له هيبة خاصة..تركت انطباعًا طيبًا لدي.. فقلت بحيادية:

- تفضل..

نظر للحظة إليّ وقال:

- أأنت متأكدة بأن ذلك لا يضايقك..إذ يمكنني الانتظار حتى تفرغ أية من الطاولات..

- لا أبدًا..تفضّل..

سحب الكرسي قليلًا وجلس وهو يتأملني..كنت لا أنظر إليه لكني كنت أراه بعيني الداخلية بأنه كان ينظر إليّ..ويتأملني..وكأنه يستقرئني ليعرف أي نوع من النساء أنا..!

جاء النادل ثانية فطلب منه قنينة من نبيذ «شيراز الاسترالي»..ثم نظر للحظات..ونهض متجهًا إلى البوفيه..أردت أن أنهي طعامي بسرعة وأغادر الطاولة..لكني وجدته قد عاد وبيده صحن فيه الطعام الذي تناولته نفسه.. وقال مبتسمًا:

- أخذت الطعام الذي تناولته حضرتك ..فأنا على يقين بأنه لذيذ..

لم تكن لدي رغبة في الكلام.. فأنا اليوم تحدثت بما يكفي وصرخت بما يكفي وأنا صامتة..لكني وجدت نفسي أسأله بتحفظ:

- ومن أين جاء كل هذا اليقين بأنه لذيذ..!؟

ابتسم..وقال لي:

- يقول باسكال..إنه من الممكن الوصول إلى النتائج من نظرة واحدة.. لأن هناك نوعين من المعرفة..معرفة منطقية عقلية..وهناك معرفة حدسية.. والمعرفة الحدسية هي التي تحتوي اليقين من نظرة واحدة..!..وأنا أعتمد في حياتي على الحدس..!

أحسست وكأنما ثمة مشاعر جياشة تصطخب وتدور في نفسي. فأين هذا الحديث الفكري الباهر من تلك التفاهات التي تفوه بها من اسميته حبيبي..!..ووجدت نفسي أزيح الستارة عن وجه حواء الجدي التي عاشت تفاصيل هذا اليوم الكابوسي..فنظرت إليه لأتامل هذا الرجل الباهر..وقلت:

- أعتقد أن سبينوزا أيضًا تحدث عن عن المعرفة الحدسية..ولا أذكر جيدًا إن كان قد أطلق عليها أيضًا الحدس الصوفي..

ارتسمت علامات الدهشة المحببة على وجهه وقال:

- أووه..امرأة شابة تتحدث في فندق الفردوس بستوكهولم عن سبينوزا.. ياللروعة.

في تلك اللحظة جاء النادل بقنينة النبيذ..فأخذها منه دون أن يواصل الأتيكيت بتذوق رشفة منه..إذ قال له بلطف:

- لا حاجة للأتيكيت..أعرف هذا النوع من النبيذ..شكرًا لك.

وضع النادل القنينة على الطاولة ..وحين ابتعد أخذ جليسي القنينة وقبل أن يصب في كأسي الذي كانت فيه بقايا سألني:

- هل تسمحين بأن نشرب نخب سبينوزا..!

لا أعرف كيف أصف حالتي في تلك اللحظة..أحسست وكأنني أحلم.. واستيقظت في نفسي رغبة في المغامرة وفي اللامبالاة مما سيأتي ..فوجدت نفسي أقول له:

- لحظة..

وارتشفت ما كان في كأسي حتى آخره. وأعدت الكأس فارغًا فصبّ فيه كمية كبيرة..ثم صبّ لنفسه..ورفع كأسه..فرفعت كأسي .. وقال:

- نخب باروخ سبينوزا..النبي الأعزل..!

وارتشفت جرعة كبيرة من النبيذ..وانتبهت إلى أنه ارتشف معظم ما في كأسه..أحسست بحرارة في خدي..وما يشبه الخدر يزحف على ذهني.. ووجدت نفسي أسأله:

- لماذا اطلقت عليه لقب النبي الأعزل..!!؟

ابتسم ..أخذ يقطّع ما أمامه من لحم الدجاج..توقف لحظة..وضع السكين والشوكة في الصحن وقال لي مبتسمًا:

- أتعرفين سيدتي..أننا لم نتعارف بعد.!!

ومدّ كفه لي بثقة وهو يقدم نفسه:

- آدم الحمل..

حين سمعت اسمه ولقبه ابتسمت ومددت كفي لا إراديًا وأنا أقول مبتسمة:

- حواء الجدي..

ابتسم وقال بطريقة احتفالية:

– ما هذا..الحمل والجدي..!! يبدو أننا لوسألنا الجالسين هنا عن ألقابهم لأكتشفنا أننا في حديقة للحيوانات.. !!.

ولا إراديا انطلقت مني ضحكة لم أفكر أكن أتصور أنها ستنطلق مني بعد أحداث هذا اليوم..فجأة سألني بالعربية:

– هل أنت عربية..؟

فهززت رأسي بالإيجاب..فمدّ يده لي مرة أخرى وقال:

– أهلًا وسهلًا بك مدام حواء..الجدي.

– أهلا بك آدم..الحمل..

وضحكنا مجددًا ..فعدت أسأله:

– لماذ أطلقت لقب النبي الأعزل على سبينوزا..!

صمت للحظات..أحسسّت أنه مزدحم بالأفكار..رفع رأسه وقال:

– هذا لقب أخذته من اسحاق دويتشر حينما كتب عن تروتسكي ثلاثة مجلدات..فأحد هذه المجلدات يحمل عنوان „النبي الأعزل"..وأعتقد أن تأريخ البشرية عرف الكثير من المفكرين – الأنبياء الذين هم في الجوهر أفضل من الكثير من الأنبياء الذين تتحدث عنهم الأديان..سبينوزا قدم للإنسانية وللفكر البشري ما لم يقدمه الأنبياء..ويمكن أن نقول هذا عن هيغل..وكانت ..وماركس..وجيفارا..وغاندي.. ويمكننا الحديث عن دوستويفسكي ..وتولستوي.!.

أعجبتني وجهة نظره..فسألته بجرأة:

– هل اسمك آدم الحمل حقًا..فأنا لم اسمع بهذا الاسم بين الكتاب والمفكرين..وما تتحدث به يكشف عن شخصية لها باع في الفكر والسياسة..

ابتسم بمرارة وقال:

- يشرفني أن التاريخ سوف ينساني.. ولا أحد سيذكرني..!

وجدت نفسي أخرج من ممري الضيق الذي وجدت نفسي هذا اليوم.. لأخرج إلى فضاء آخر..ووجدته يصب النبيذ في كأسي ليملأه تقريبا..ويصب لنفسه أيضًا..ولم يكن يتصرف على أساس وسامته وحضوره الرجولي الطاغي..وإنما كانت شخصيته تتجسد بحضورها من خلال ذكائه ووهج الأفكار المضيئة والدافئة التي يدلي بها..وانتبهت لنفسي وتحولاتها..فقبل أكثر من ساعة كنت أحتقر نفسي وأحس بسقوطي الفكري والأخلاقي المدوي.. وها أنا أجلس مع رجل متميز أناقشه بقضايا منحت وتمنح جياتي معناها وقيمتها..! وأحسست بدفق من الفرح والشغف يسري في حنايا روحي..!

فجأة..رفع كأسه..وقال لي:

- في صحتك..

وعب الكأس حتى آخره..حاولت أن أجاريه لكني لم أستطع..فقد شربت نصف الكأس تقريبا..نظر إليّ بلطف وأخذ يحدثني عن نفسه.

- الحمل الذي يجلس أمامك..ليس حملًا..وإنما ذئب رمادي.. يجري..ويجري..ليس لديه سوى الجري.. إلى أين..؟ لا يعرف..ولا يفكر في ذلك..المهم الجري في براري الحياة وسهوب الزمن..!

وانتبهت لنفسي المنجذبة مغناطيسيًا لهذا الرجل الذي لم أتعرف عليه سوى قبل نصف ساعة..كان قد أثار دهشتي حين تحدث عن باسكال.. والمعرفة الحدسية..لكنه الآن يثير اهتمامي بجاذبيته الفكرية..هناك قوة مغناطيسية لا أستطيع مقاومتها..قوة رجولية تجذبني بخدر لذيذ..!.

فجأة انقلب الموقف..وأخذ يسألني عن نفسي وعن سبب مجيئي إلى ستوكهولم..فانطلقت بالحديث وكأنني انفجرت..أخذت أتحدث وأتحدث واتحدث..تحدثت عن نفسي..زواجي البائس..وحبي الإفتراضي.. ورحلتي الكابوسية التعيسة..وقراري بالسفر والمغادرة غدًا..

كان يستمع لي بصمت..واهتمام..لكن لا أدري بماذا كان يفكر حينها..!.. الشيء الوحيد الذي كنت متأكدة منه ولاحظته بانتباه هو ذكاؤه.. طريقته المتحفظة في ابداء اهتمامه بي كامرأة..بينما كنت أسعى أن أتعرى أمامه..أن أكشف عن شخصيتي وموهبتي..وفي أعمق أعماقي عن نفسي كامرأة.. وأردته أن يعاملني كرجل..

انتبهت لنظرته وكأنه قرأ ما في ذهني وما يفور في أعماقي من رغبات.. فقال لي بهدوء ..وكنا قد انهينا العشاء..وقنينة النبيذ:

- لا تفكري فيما أريده وما أفكر فيه..ولا تفكري فيما تريدينه وتفكرين فيه..!

- لم أفهم..!

- أحسن..

- لكن..

فقال وكأنه يؤنبني بلطف:

- الحب لا يعني الزواج..الزواج بحد ذاته بدون حب كارثة..الحب قد يساعد في تجنب وقوع الكارثة إلى أبعد حد زمني ممكن..لا أكثر..لكن هذا لا يعفي أن يكون الزواج كارثة. وفي هذا لا عزاء لآدم ولا لحواء..برغم الأقنعة

العاطفية والتبريرات الأخلاقية..والمكياج اللغوي الشاعري..لا.لا.لا. ربما العزاء الوحيد هم الآبناء..الأبناء وحدهم هم عزاء حواء..وربما آدم أيضًا!..

- لكني لم أفكر أن أتـزوج منه..! قلت بعصبية مكتومة.

- ربما هو فكر بأنه تورّط معك بعلاقة قد تجره إلى الزواج..! قال بنبرة هي مزيج من المزاج والجد.

- لكنه لم يحدثني قط..!

فجأة..وبطريقة لم أتوقعها..وبجرأة لم أشهدها في حياتي قال لي:

- أتريدين أن نتحدث في مكان آخر..؟

- أين..؟

- في غرفتي..؟

لا أدري من كنت أنا في تلك اللحظة..وجدت نفسي أومئ برأسي موافقة دون أن أنطق بأية كلمة..نهض وتبعته..وفي الطريق إلى مغادرة قاعة الطعام جاء النادل حاملًا دفترين جلديين وفيهما قائمتا الغرف..فوقع هو أحدها ووضع ورقة نقدية طي الدفتر الجلدي ووقعت أنا أيضًا. وخرجنا.

كنت أمشي خلفه طائعة..منجذبة..راغبة..قال لي بأنه في الطابق الأول.. في الغرفة رقم 7..استغربت.. قلت له أنا أيضًا في غرفة تحمل الرقم سبعة.. فقال لي بأن الطوابق كلها تحمل الأرقام من الواحد وحسب التسلسل..وقال لي بأننا يمكن أن نصعد الدرج ولا ننتظر المصعد..فوافقته..كنت لأول مرة في حياتي أشعر برغبة شبقة في رجل..وددت لو يولجه فيّ ونحن نصعد الدرج..كنت كالمسحورة..كالسائرة في النوم..كنت أمشي في الممر الذي

فيه غرفتي والذي يقود إلى الدرج الصاعد إلى الطوابق العليا..كنت خلفه وهو أمامي.. وبيننا تتباعد الخطوات..وحين وصلت غرفتي في الممر..وجدت نفسي أفتح الباب.. حين سمع صوت المفتاح في القفل التفت إليّ وهو ينظر إليّ مستغربًا.. أدرك أنني خائفة من الذهاب معه..ثم ارتسمت ابتسامة طيبة على وجهه..وحرك كفه بإشارة يائسة..دخلت غرفتي...وأقفلتها من الداخل.. ألقيت حقيبتي على السرير..ونزعت ثوبي..ودخلت الحمام.. مددت يدي داخل سروالي وأخذت أداعب نفسي..اجتاحتني دفقات من التيارات الكهربائية اللذيذة التي لم أعرفها في حياتي قط.. تعرقت.. ووجدت نفسي منهكة.. فرجي يرتعش وينزل سائلًا أبيض..وجلست منهكة على أرضية الحمام.

***

حين صحوت صباحًا..وجدت نفسي عارية إلا من سروالي الأسود.. دخلت الحمام..ونشطت جسدي تحت ماء الدش الدافئ ..لبست ثوبي الأسود ثانية..وأخرجت سروالي الأحمر..رتبت حقيبتي..وخرجت.. دعتني موظفة الاستعلامات إلى تناول الفطور.. فقلت لها أريد المغادرة.. لقد وصلني اتصال مقلق من والدتي وعلي مغادرة السويد..تفهمت الموقف..وأثناء حديثي مع موظفة الاستعلامات دخل صديقي العراقي آدم أبو الذهب..الذي لم يعد حبيبي ولا صديقي..وحين رآني ومعي حقيبتي.. لم يقل شيئًا.. أخذ الحقيبة ووضعها في سيارته..!.

طوال الطريق إلى المطار لم نتحدث..كان يتصرف بهدوء دونما توتر.. وكأنه لم يحدث بيننا أي توتر أو شجار..! كنت مغتاظة جدًا لكن كبريائي

كانت أقوى من أبدو له منكسرة..وذليلة.. وكان آدم الحمل هو الذي يرقص مرحًا في براري ذاكرتي القصيرة.

حين وصلنا موقف السيارات في المطار نزلت وأخذت حقيبتي.. قال لي بأن الموقف هنا بالساعات وغال جدًا لذا سيبحث عن موقف قريب ويأتيني.. لم أرد عليه..أخذت حقيبتي ومشيت إلى بوابة المغادرين..وهناك في صالة المطار توجهت إلى الخطوط الجوية التركية التي ستكون رحلتي على طائراتها..من السويد إلى استنبول ومن هناك إلى عاصمة بلدي..حدثتهم بالإنكليزية.. وكذبت بأني تلقيت خبرًا بوضع أمي الخطر وعلي أن أقطع سفرتي..لاحظت الموظفة بأن تاريخ وصولي هو أمس..وبتاريخ مغادرتي بعد أسبوع فصدقتني وتعاطفت معي..وسعت بكل إخلاص لمساعدتي.. وفعلًا وجدتْ لي مقعدًا على الطائرة التي ستقلع بعد ساعتين..فدفعت بدلًا لما يعادل المائة يورو كتعويض عن تغيير الحجز.

قمت بكل هذا وهو لم يأت بعد..حتى ظننت أنه لن يأتي ليودعني ..وكنت من شدة غيظي أود أن لا أراه..وفي الوقت نفسه كنت أود أن يأتي لأتامل مشهد الوداع كيف سيكون..! كنت أحس برغبة في تعذيب ذاتي وإذلالها أكثر حتى أكون على يقين من وهمي..!

كان غيظي يحرقني..ذهبت مباشرة إلى مكتب الإشراف على الرحلة وحجز المقاعد..وبعد ربع ساعة تقريبًا استلمت تذكرتيّ دخول الطائرة إلى استنبول ومن هناك إلى بلدي بعد أن سلّمت حقيبتي.

تلفّت حولي فلم أجده..توجهت إلى حيث تفتيش الجوازات..وحينما اصطففت في طابور المسافرين المتوجهين نحو تفتيش الجوازات رأيته

يدخل القاعة..تشاغلت وكأني لا أراه..لكنه لمحني..لم أستطع الاستمرار في اللامبالاة فالتفت إليه.. أشار لي بأن أخرج من الطابور..ضعفت لثوان.. لكن خيبتي وخذلاني وذلي وكبريائي المسحوقة منعتني من أن أذهب إليه.. أشرت إليه ملوحة بالوداع..لثوان لم يبدر منه أي رد فعل..وقبل أن يصل دوري أشار لي بيده ملوحًا كمن يلوح لشخص عابر..ثم مضى عائدًا إلى حياته وكأنني لم أكن موجودة على الاطلاق..تتبعته بنظراتي للحظات وهو يمشي طليقًا ومسترخيًا..ولا أعرف لماذا في تلك اللحظات بالذات وأنا أقدم جوازي لشرطي الحدود تذكرت المشهد وهو يقذف منيه على وجهي..!

***

انتظرت ثلاث ساعات في مطار استنبول..تجوّلت في السوق الحرة.. اشتريت هدايا لطفلتيّ..ولأمي.. ذهبت إلى أحد مطاعم المطار فأكلت قطعتين من اللحم بالعجين الحار والشهي..كما دخلت مكتبة اشتريت منها رواية باللغة الإنكليزية لكاتب لم أقرأ له سابقًا..لكن عنوان الرواية كان قد لفت نظري..بعد ذلك جلست في إحدى المقاهي هناك..طلبت كابتشينو وأخذت أتصفح الرواية..لكن ضجة المطار دفعتني إلى تأمل المسافرين.. وجنسياتهم..مشهد غريب..وفكرت بأن عليّ أن ألتقط كل تفاصيل هذه الرحلة مهما كانت تافهة..إذ راودتني رغبة في كتابة كل تفاصيل هذه الرحلة البائسة التي شكّلت منعطفا في حياتي..!

لم أكن حينها قد جربت كتابة الرواية..كنت أكتب نصوصًا..البعض يسميها شعرًا..وكذلك أكتب قصصًا قصيرة..وقصيرة جدًا..لكن لا أعرف لِمَ راودتني فكرة أن أكتب رواية بينما أنا أجلس في مقهى بمطار استنبول..!..

شعرت أن لديّ الكثير كي أقوله..لكن كيف..؟ عن أي شيء أكتب..؟ وعمّن أكتب..؟ بالتأكيد أنا لا أريد أن أكتب سيرة ذاتية، ولا أن أكتب تفاصيل قصتي وتجربتي..لكني أريد أن أكتب عن شخصية امرأة ما قد مرت بمثل ما مررت به..!..وأخذت أستحضر وجوها وتجارب وحيوات لصديقات أو نساء عرفتهن..ووجدتها..!.. إنها حواء الكتبي..الصديقة اليمنية التي تعرفّت عليها في المركز الصحي والتي حياتها تتشابه في بعض تفاصيلها الخارجية مع حياتي..!

***

لكل منا نحن البشر عالمه السري..ووجهه الحقيقي المخفي..وكلما توغلنا في التجارب الحياتية والفكرية والجنسية صرنا أكثر تفننًا في لبس الأقنعة..!..لكننا برغم أقنعتنا نضع أقنعة أخرى في الكرنفالات..ومن أقنعتنا الجميلة التي نخرج فيها إلى الكرنفال هي الروايات.. الرواية قناع جمالي لحياة الكاتب أو الكاتبة..! قناع فوق قناع..

الحياة حفلة للمُقنّعين..في يومياتنا نضع الأقنعة المختلفة..حسب الأشخاص الذين نتواصل معهم..حتى اللغة التي نتحدث بها هي قناع يغطي ما في أعماقنا أكثر مما هي كشف عنه..الرواية قناع أيضًا..قناع فوق جميع الأقنعة...بل هي القناع الأكثر مصداقية حتى من التاريخ..ق قناع..!وروايتي هذه هي قناعي.

المهم..حين رجعت إلى مدينتي استقبلتني أمي..واحتضنت ابنتيّ وأنا أبكي..لقد اكتشفت أنهما عالمي الحقيقي ومعنى وجودي النافل في هذه الحياة..!..لكن ثمة رجل دخل حياتي بقوة..آدم الحمل.

وعلى الرغم من احتياطاتي الخاصة بأخذ حبوب منع الحمل..إلا أني عشت أسابيع من القلق والخوف ..فللقدر منطق غامض يخرج عن كل قوانين العلم والطب والكيمياء.. لكن كل شي مرّ بسلام.

وعدت لعالمي..لأيامي الرمادية..اجترّ خيبتي وذلي..وغضبي المنكسر لأني ما زلت أعيش لحظات ضعف وحنين لذلك الشخص الذي أدمنت الحديث معه لشهور وبشكل يومي ولساعات طويلة..!..ليس حنينًا له وإنما لحواري الجميل معه..أما آدم الحمل.. فكان جبلًا راسخا..حلمًا..بل كثيرًا ما فكرت بأنه ربما من نسج أوهامي..فأنا ربما لم ألتق به قط..!..لكنه موجود برغم ذلك في حياتي..دخلها بقوة الفاتح الساحر..وبرغبتي.

شغفي بكتابة رواية عن تجربتي دفعني إلى انشغالات وقراءات وحوارات كثيرة ومكثفة..قضيت عامًا من البحث والقراءات والتواصل مع صديقتي حواء الكتبي للتوغل في عالمها المسكوت عنه..لتكشفه لي بعد أن اخبرتها بأني أود أن أكتب عنها رواية..وحقيقة فأن كل هذا البحث إلى جانب الكتابة ساعدني على الشفاء من كآبتي و تجاوز خيبتي..وهكذا كتبت روايتي « متاهة العميان»..!.

لم أنشر روايتي بعد..أحس أنها لن تفهم على أنها عمل إبداعي وإنما ستُفسّر على أنها تجربة شخصية..لاسيما أن حياة صديقتي شبيهة بحياتي تقريبًا..وأقصد أنها مطلّقة ولديها ابنتان..! ناهيك أن من كتبها امرأة..!.. ومما عزز هذا الرأي أني أعطيت المخطوطة لصديقة شاعرة لي..أعرتها لها لأسبوع..جاءتني في اليوم الثاني منبهرة وهي تحملها..فقد قرأتها دون توقف..وحثتني على نشرها لكنها كانت صريحة معي..إذ قالت لي بأني

سأتعرض لسوء فهم كبير وردود أفعال متشنجة ومستفزة..! وعليّ أن أفكر ألف مرة قبل الإقدام على نشرها..!.

ترددت أكثر في نشرها..فلست في حاجة لكل هذا..أنا أخاف..ليس لأني أخاف على نفسي من الأذى ومن ردود الأفعال وسوء الفهم.، وإنما أخاف المستقبل.. لا أريد لإبنتيّ أن تتعرضا لأية كلمة تمس أمهما مستقبلًا.. ربما أنا أبالغ..فحين تكبران ربما يكون الناس قد تغيروا فعلًا..!..لذا سأترك المخطوطة التي كتبتها ضمن بوحي هذا.. وتكون ضمن حكايتي عن نفسي.

***

سمع الدكتور آدم كارثة النداء للمسافرين إلى تونس بالتوجه إلى البوابة رقم 7 استعدادًا لصعود الطائرة..فطوى الرواية التي تحمل اسم «متاهة العميان» التي أهدتها له الأستاذة حواء البوسني ليلة أمس حينما كانا معا..نظر إلى البوابة التي تحمل الرقم 7 فرأى أن هناك طابورًا تشكل خلال لحظات.. تمنى أن يواصل القراءة في المخطوطة المرفقة من قبل الكاتبة والتي تحمل أيضًا «متاهة العميان» لكن الوقت لا يساعده الآن لذا فكر مع نفسه بأنه سيواصل القراءة في الطائرة..فالرواية في كل الأحوال ليست طويلة..!

وبينما هو ينهض عن كرسيه في المقهى المقابلة للبوابة..طرأت في ذهنه بأن الأستاذة حواء البوسني ربما كانت تتحدث عن نفسها من خلال شخصية حواء الجدي..!

***

استقر الدكتور آدم كارثة في مقعده داخل الطائرة..واستغرب أن مقعده في صف المقاعد التي تحمل الرقم 7 أيضًا..وضع الرواية داخل الشبكة

المشدودة على ظهر الكرسي الذي أمامه..ثم أخذ يراقب المسافرين وهم يفتشون عن مقاعدهم.

كان مقعده قرب النافذة..فجأة وقف فتى في بداية العشرين عند صف المقاعد التي هو يجلس على أحدها..نظر الشاب إليه نظرة متسائلة ومستفسرة وقال:

- السلام عليكم..

- وعليكم السلام..رد الكتور آدم كارثة.

جلس الشاب الذي خمن آدم كارثة أنه تونسي..؛ ومنذ اللحظات الأولى تشكل انطباع صامت غير مريح لدى كل منهما نحو الآخر..!

كانت هناك الكثير من المقاعد الفارغة في الطائرة..تمنى الدكتور آدم كارثة لو أن هذا الشاب ينتقل إلى الصف الموازي والفارغ.. لكنه لم يفعل.. وفكّر مع نفسه: لو لم يكن مقعدي عند النافذة لانتقلت إلى الجهة المقابلة.. لأكون وحدي.!.

استقر الجميع في مقاعدهم..وأغلقت الباب..وأعلنت اجراءات السلامة حيث اصطف مضيفو الطائرة ليؤدوا حركات روتينية لإرشادات السلامة.. وانتبه إلى أن معظم الركاب لا ينظرون إليهم..فمعظمهم تعود على هذا الفصل من الحركات عند السفر على متن الطائرات.

تحركت الطائرة..لحظتها راودته أفكار فلسفية عن القدرة الكونية..كلما تعالت الطائرة في الفضاء كلما توغل هو أكثر في أفكاره الفلسفية عن الكون والخالق ووجود الوجود من رحم العدم..!..وهي غابت معالم المدن من

النظر وبدت الأرض مسطحة مثل خريطة على جدار..ثم جاء البحر بزرقته.. أدرك تفاهة البشر والأديان والحروب والأمجاد الأرضية..فهو الآن على بعد كيلو مترات في الفضاء ولا يرى أي أثر للبشر..وكأنهم عدم غير موجود.. بينما هم بتفاهتهم يعتقدون أنهم أصل الأشياء ومركز الكون..!.

انتبه إلى أن الشاب التونسي كان يسترق النظر إلى كتابه الذي في الشبكة.. ربما ليعرف عنوانه..فجأة قام الشاب عن كرسيه..فتح الصندوق الذي فوق رأسه..وفتح حقيبة له هناك وأخرج كتابًا..ثم جلس ثانية..ويبدو أنه تعمد أن يعرف الدكتور آدم كارثة عنوان الكتاب..وفعلًا التفت آدم كارثة ليقرأ عنوان الكتاب «أحكام ابن تيمية..فقه الجهاد».. فأدرك للفور هوية جاره الفكرية..! ولا إراديًا مد يده إلى كتابه..وأخرجه من الشبكة..تصفحه قليلًا..ثم أعاده إلى مكانه لكن على الجهة التي فيها العنوان..! توقف الشاب المجاور عن القراءة.. نظر بتمعن مقصود إلى عنوان الكتاب..قرأ «متاهة العميان – رواية – للكاتبة حواء البوسني»..ولا إراديًا تعوذ بالله..ونهض عن كرسيه منتقلًا إلى الصف المجاور جالسًا على المقعد المجاور للنافذة الموازية.

ابتسم آدم كارثة مع نفسه..وفكر مع نفسه ربما أن هذا الشاب من العرب الذين يجيئون إلى سوريا ويتدربون في معسكراتها بحجة محاربة الأمريكان في العراق..بينما هم يعدّون لإشعال الحروب في بلدانهم وأي بلد آخر بحجة الجهاد..!.

أخذ الرواية ثانية..تصفحها..كان في شوق ليقرأ الكتاب الذي أهدته له حواء البوسني..وجد نفسه يفكر في لقائه القصير معها..!

***

وانهمر سيل الصور والمشاهد التي كانت لها علاقة بحواء البوسني.. وكيفية تعارفهما..مرّ أمام عينه الداخلية شريط جولته النهارية الاعتيادية أيام تواجده في دمشق والتي كانت تبدأ بتناول الفطور في مطعم مجاور للسكن الرخيص في النزل الذي استأجر غرفة فيه بمنطقة ساروجة التي انتقل إليها بعد أن كان في فندق بمنطقة جرمانا.. ثم الذهاب إلى شارع الصالحية حين التوقف عند بائعي الكتب المفروشة على الأرض وعند المكتبات الصغيرة هناك..ومن هناك يتوجه راجعًا ليقضي وقتًا في «مكتبة ميسلون».. ثم ليرجع عبر شارع 29 آيار ليستقر في مقهى الروضة..وأحيانًا يتوسع في رقعة جولته.. حيث يغادر „مكتبة ميسلون" ليقطع شارع البرازيل وشكري القوتلي متجهًا إلى شارع الحلبوني الذي يذكّره بشارع المتنبي في بغداد..!.

أمس صباحًا..كان يريد القيام بآخر جولة في المكتبات..وهناك رآها بثوبها الأحمر وشعرها الذي يميل إلى الشقرة..فظنها روسية.. فهيئتها.. وجمالها ولون بشرتها لا يدل على أنها عربية..!..لكنها كانت تتوقف عند بائعي الكتب في الصالحية..وانتبه إلى أنها تقلب الكتب العربية..لحظتها فكر بها كأنثى..وفكر بالطريقة التي يمكنه أن يبدأ الحديث معها..ويتعرف عليها.. ويضاجعها..!! لكنها اختفت فجأة وكأنها شبح غير مرئي..لم يصدق أنها غادرت دون أن ينتبه.. تلفت مستغربًا..لكنها لن تكن موجودة..!.

سار متجها نحو الساحة التي منها يمتد الشارع حيث مكتبة ميسلون.. وما أن دخلها حتى رآها هناك أمام قسم الروايات.. ! ..اقترب منها وكأنه يفتش في قسم الروايات أيضًا..نظرت إليه وفيها عينيها تعجب..وكأنها انتبهت لحضوره المتكرر.. يتذكر الآن أنه تصرف بجرأة..فلم يلق لنظرتها

المتعجبة اهتمامًا..انتبه لها وهي تمدّ يدها لتأخذ كتابًا متوسط الحجم..قرأ عنوانه على عجل «متاهة العميان»..لم يستطع قراءة اسم المؤلف إذ أنها سحبت رواية أخرى.. «دلتا فينوس» لأناييس نن..!!..يتذكر أنه قرأ هذا الكتاب الإيروتيكي في الصيف الماضي..أخذتْ تقلب الرواية بين يديها.. تقرأ المعلومات الداخلية عنها..اقترب منها أكثر وقال بعفوية وبنبرة هادئة:

- لو تجدين لها روايتها الأخرى «بيت المحرمات»..هي جميلة أيضًا..

فوجئت بتوجيه الكلام لها..نظرت إليه باستغراب لثوان وكأنها كانت شاردة البال..ابتسمت له وهي تقول:

- هل ترجمت House of Incent إلى العربية..جميل جدًا..لقد قرأتها بالإنكليزية..والآن فوجئت بترجمة كتابها هذا Delta of Venus إلى العربية أيضًا..نحتاج إلى مثل جرأتها في الكتابة..شكرًا لك..!

قالت ذلك دونما ارتباك ثم مضت إلى رفوف أخرى..لم يبد عليها الارتباك الأنثوي التي تتصف به النساء الشرقيات حينما يخاطبهن رجل لا يعرفنه..أدرك أنه أثار فضولها..ولمحها تنظر نحوه مصطنعة اللامبالاة، لكنها بدت وكأنها تدرس شخصيته.. تحرك هو ببطء مصطنعًا الجدية في البحث والاهتمام بها..صار على مقربة منها..انتبه إلى أنها تسحب كتابًا لفرجينيا وولف «غرفة تخص المرء وحده»..أثارت اهتمامه أكثر..فكما يبدو أنها مثقفة من طراز خاص..وجد نفسه يسحب رواية «العمى» لجوزيه ساراماغو..نظرت هي إلى الرواية في يده وقالت بلطف ودونما أي ارتباك:

- لقد شاهدت الفيلم المأخوذ عن هذه الرواية..ساراماغو رائع حقًا.. والرواية أجمل من الفيلم..

لم يصدق أنها بادرت بالحديث..اقترب إلى جوارها وقال لها:

- اختياراتك غير عادية..

ابتسمت بطيبة وسألت:

- كيف عرفت..؟

- من فرجينيا وولف..والكتاب الآخر..!

تألق وجهها بابتسامة عريضة وقدمت الكتاب الذي اختارته في المرة الأولى وسألت:

- هل قرأت هذ الرواية..؟

نظر هو إلى الكتاب الذي سبق وأن قرأ عنوانه وقال:

- «متاهة العميان»..؟ لا لم أقرأه للأسف ..لمن هو...؟

- لحواء البوسني..هي روايتها الأولى كما أعرف..

أحس بالحرج..فهو متابع جيد للأدب العربي والعالمي لكنه لم يسمع بهذه الكاتبة فعلًا.. فقال:

- لم أسمع بها سابقًا..

ابتسمت له بدفء وقالت:

- مع الأسف لا توجد إلا نسخة واحدة..

قالت ذلك واتجهت نحو الزاوية حيث الدفع..أحس بالإحباط لأنها ستخرج..فتأخر للحظات..ثم أخذ رواية «العمى» وتوجه إلى حيث الدفع أيضًا..كانت هي تحاسب الرجل صاحب المكتبة الذي يعرفه من رواد المكتبة..وسأله:

– ألا توجد نسخ أخرى من هذه الرواية..أقصد „متاهة العميان" للكاتبة حواء البوسني..

اعتذر صاحب المكتبة بأن الرواية قد نفدت..ولم يبق كما يبدو سوى هذه النسخة..فالتفتت هي نحوه وعلى وجهها ابتسامة مشرقة ..وكانت قد دفعت مبلغ الكتابين.. وقالت:

– إن كان يهمك فعلًا قراءة الرواية فسيسعدني أن أهديك إياها..

كان هو منشغل بدفع مبلغ الكتاب الذي اشتراه لحظتها..ووجد في عرضها فرصة للحديث..فلم يجبها مباشرة وإنما دفع المبلغ..ثم أخذ كتابه ثم التفت إليها مبتسمًا وشاكرًا..وهو أقول:

– لا أدري كيف اشكرك..لكن كما يبدو كنت أنت تبحثين عنها..فكيف آخذها منك..؟

كانا قد صارا في الشارع المؤدي إلى ساحة يوسف العظمة..وقفت فجأة..وأخرجت الرواية من الكيس النايلوني وقدمتها له بلطف وهي تقول:

– صحيح أنني كنت أبحث عن نسخة من هذه الرواية..لكن يسرني أن أهديها إليك..

– وأنتِ..؟

– أنا لا أحتاج إلى قرائتها..

– كيف..فلماذا اشتريتها إذن..؟

– لأني أنا حواء البوسني..كاتبة الرواية..!

هكذا كانت المفاجأة..وهكذا تم التعارف..

ابتسم آدم كارثة مع نفسه وهو ينظر من نافذة الطائرة فرأى أنها فوق براري الغيم.. الشمس مشرقة والسماء صافية..وليس في الأسفل سوى الغيم الأبيض..

ولا إراديًا استرسل في تداعيات لقائه بحواء البوسني..تذكر أنهما ضحكا لحظة التعارف على هذا التعارف الدرامي بينهما.. ودعاها إلى مقهى قريب يرتاده في منطقة ساروجه..تحدثا طويلاً عن طبيعة عملها فقد وجدا نفسيهما يمارسان المهنة نفسها..فهي استاذة في كلية الآداب قسم اللغة الإنكليزية بجامعة دمشق.. متخصصة في الرواية الإنكليزية النسوية..جورج إليوت.. الأخوات برونتي..جين أوستن..فرجينيا وولف..دوريس ليسنغ..ايريس مردوخ..وغيرهن..!..لكنها توقفت خصيصًا عند فرجينيا وولف وتأثير حياتها الشخصية وعقدها على إبداعها..تحدثت طويلًا عنها وكان حديثًا ممتعًا..ثم دعاها إلى مطعم في شارع 20 آيار..«مطعم الكمال»..لكنه ارتبك حينما وجد هناك بعض العراقيين الذين تعرف عليهم هنا في مقهى الروضة وشاركهم المائدة هنا في هذا المطعم نفسه..لكنه تجنبهم ببراعة !

بعد الانتهاء من وجبة الغذاء التي دفع حسابها أحد هؤلاء الأصدقاء العراقيين بمناسبة زواجه..ذهبا إلى مقهى الروضة..شربا الشاي..وتحدثا طويلاً..صار بينهما إلفة وصداقة قرّبها الفكر والحوار العميق والاهتمامات الجمالية المتقاربة..بعد ذلك ذهبت هي إلى حيث تسكن في منطقة البرزة.. وذهب هو إلى غرفته في المنزل القريب في منطقة ساروجة..بعد أن اتفقا على اللقاء مساء..وفعلًا التقيا عند مقهى الروضة..وذهبا إلى مطعم في المدينة القديمة..بالقرب من باب توما..شربا النبيذ..ثم انتقلا مرة أخرى

إلى مطعم في المنطقة التي يسكنها هو..وهنا شربا معًا عرق الريّان..وامتدت سهرتهما..إلى أن شعرا أنهما يفقدان رزانتهما شيئًا فشيئًا..وذهبت معه إلى غرفته.. كان مرتبكًا من طريقة إدخالها كي لا ينتبه جيرانه العزاب في الغرف الأخرى..وبهدوء دخلا إلى غرفته..وأغلق بابها بالمفتاح من الداخل..ألقت هي من بعيد حقيبتها اليدوية إلى السرير العريض.. وفي تلك الغرفة كانت الجدران ترى ذلك المشهد وتتنصت إلى الاعترافات المحيرة..!

***

هو الآن فوق الغيوم يستعيد كل تفاصيل ليلة البارحة الغريبة، والغامضة، والعذبة..يتذكر الآن ان تقاربهما الشخصي وحالة الانتشاء والسكر قد أفقدتهما تحفظهما إزاء بعضهما..وقفا قرب باب الغرفة من الداخل مرتبكين..وفي لحظة واحة ألقى كل منهما نفسه في أحضان الآخر..كانت هي متهيجة..مد يده إلى ما بين فخذيها فانكسرت بكامل جسدها وهي تتأوه شبقًا..أحس بنفسه يتأجج..بيد أنه حاول أن يتملص منها بطريقة لا تثير انتباهها..فهو يعرف أن لديه رغبة بمضاجعة كل نساء العالم لكنه ضعيف جنسيًا..وسريع القذف بشكل يسبب له حرجًا كبيرًا مع النساء..فأحيانا يقذف أثناء المداعبة والتقبيل..لذا عليه أن يتعامل معها بروية..ليتعريا أولًا.. ويذهبان إلى السرير قبل أن تنطفئ رغبته وهو عند الباب..!.

لكن حدث أن انقلب الموقف..فمع انكسار جسدها من الشبق ابتعدت عنه..وذهبت إلى حيث سريره..جلست هناك وبدأت تنزع ثوبها..تعرت من ثوبها..وألقت به على كرسي قريب منها..بقيت بسروالها الأحمر.. لكن فجأة انكمشت على نفسها وكأنها تستحي منه ولا تريد أن يراها عارية

بالكامل.. استلقت على السرير ودخلت تحت الشراشف..وبعد لحظات رمت سروالها الأحمر على ثوبها المرمي قربها على الكرسي..!.

يتذكر الآن حيرته في تلك اللحظات..كيف عليه أن يتصرف..أينزع ملابسه ويستلقي معها على السرير أم ماذا..؟ واقترب ليجلس على حافة السرير..نظرت إليه وكأنها تسأله ماذا عليهما أن يفعلا..نزع هو قميصه.. وبنطاله وبقيّ بالسروال الداخلي ودخل تحت الشراشف..وهناك مد يده ونزع سرواله أيضًا..ألقى به عند رأسه قرب نهاية الوسادة الطويلة.مد يده يداعب جسدها ..كانت هي تتأوه.. لكنها في الوقت نفسه بدت له وكأنها تصارع نفسها..مد يده إلى ما بين فخذيها..كان حليقة وملساء في ذلك المكان.. ورطبة..لكنها فجأة مسكت كفه..وقالت له..:

- لا تزعل مني..أنا بلا تجربة مشجعة في الجنس..برغم أني تزوجت وتطلقت مرتين..!..كما لدي رغبة أتمنى تلبيها..لكني أخجل من ذكرها..

كان كلامها بالنسبة له مريحًا..فهي امرأة بلا تجارب ولن تستطيع الحكم عليه وعلى رجولته..ووجد نفسه في موضع أكثر ثقة مما كان عليه، وقال لها:

- قولي..واطلبي ما تشائين..

ارتبكت..وقالت له:

- أولًا أريد أن تعرف حكايتي.. وبعد ذلك سأخبرك برغبتي..

- لك ذلك..

سحب يده واستدار نحوها مستلقيًا على جنبه..بقيت هي مستلقية على ظهرها تنظر للسقف..فجأة أخذت تتحدث وكأنها ليست في السرير عارية مع رجل عار:

- ولدتُ في دمشق..لعائلة أرستقراطية`ذات أصول عشائرية نبيلة.. لكنني عشت في علاقات عائلية فوضوية..حيث يختلط الأبناء أنصاف الأخوة بشكل غريب..فقد تزوج أبي زوجته الأولى..ابنة عمه..وأنجب منها ابنًا وبنتًا..لكنها ماتت أثناء الولادة.. وكانت لزوجته صديقة مطلقة لديها ثلاثة أطفال..وكانت امرأة باهرة الجمال..فلم يجد أبي أي مانع من أن يتزوجها.. فصار عليه أن يرعى خمسة أبناء..هذه الزوجة الثانية هي أمي..فقد أنجبت له ثلاثة أطفال أيضًا..ولأن العائلة كانت ميسورة الحال فقد وفر لنا والدي كل المستلزمات الحياتية والترفيهية والتعليمية..فكان المعلمون يأتوننا إلى البيت الكبير ونجلس في غرفتين..إحداهما لنا نحن الصغار وأخرى لمن أكبر منا من الأبناء لاسيما ابناؤه من زوجته الأولى وأبناء أمي..وكنت أنا الأصغر بين الجميع..قيل لي إنني بقيت خرساء إلى أن صار عمري ثلاث سنوات..في الخامسة من عمري توفيت والدتي بمرض لم يمهلها شهرًا واحدًا كما روي لي فيما بعد..وفاة أمي كانت ضربة قاصمة بالنسبة لي أنا الطفلة الصغيرة مدللتها الأثيرة..فتعرضت لأنهيارات نفسية روي لي عنها.. بأنني كنت لا أنام ..أبكي الليل كله إلى أن أتعب من البكاء فأنام..وقيل لي بأني بقيت أشهرًا على هذه الحال..بحيث أن عماتي كن يبكبن معي لأنهن يعجزن عن تعويضي عن فقداني لأمي..!.....

صمتت حواء البوسني وكأنها تتنصت لبكاء تلك الطفلة التي كانتها.. وبعد لحظات واصلت:

- حينما كنت في السابعة من عمري دعاني أخي الكبير من أمي ومن زوجها الأول..وكـان أكبر مني بخمس عشرة سنة..أي أنه كان في

الثانية والعشرين..أخذني إلى غرفته..أغلق الباب..وهددني إن صرخت فسيقتلني..وعراني من ثيابي..أخذني إلى سريره..ألقاني هناك..وتعر هو كليا..وأخذ يداعب فرجي بقضيبه..دون أن يدخله في..وأخيرًا قذف عليّ.. كنت أظنه حينها أنه بال عليّ...بعدها قام هو بمسح السائل مني وألبسني ثيابي..وهددني مرة أخرى بأنني إذا نطقت بكلمة فأنه سيقتلني..!.

فجأة غطت حواء البوسني وجهها بيديها..وكانت شهوته هو قد انطفأت كليًا عند سماع هذا البوح..نظرت إليه والدمع يملأ عينيها وقالت له:

– أرجوك أعذرني..أنا أتمزق وأنا أروي لك ذلك..لكني أشعر في الوقت نفسه بالراحة.. وهكذا.. استمرت الحال لسنوات ..كان يمارس معي بشكل شبه يومي..وحينما صرت في العاشرة..وبدأت رمانتا صدري تبدوان للعيان..والزعب ينمو على فرجي تطورت ممارساته معي..فأخذ يعصر صدري.. ويمص حلمتي...في البداية كنت أتوجع حينما يعصر صدري..لكني أخذت أشعر بخدر لذيذ فيما بعد..وأخذ يحاول أن يولج قضيبه فيّ..لكنه كان حذرًا من أن يزيل بكارتي ..لذلك أخذ يقلب جسدي ويدخله فيّ من الخلف..كنت أتوجع لكنه كان يكتم أنفاسي بكفه..ثم أخذ يستخدم الدهون والزيوت..فصار الإيلاج سهلًا..وصار شبه دائم..وكان ينهي شهوته في..لكن هذه العلاقة دمرتني..!..لاسيما أن أختي الأكبر مني مباشرة فاجئتنا في مكان هو لم يأخذ تدابيره فيه بشكل آمن..ولم يحترس.. ولم نكن حينها في غرفته وإنما في قاعة الدرس الفارغة..وكان قد حصرني على طاولة الدرس..على وجهي..بينما جاءني من الدبر..وكان يدفعه فيّ حينما لمحت أختي مقبلة نحونا..صحت به أختي قادمة.. فانسحب عني

وأدار ظهره للباب ليصلح فتحة بنطاله..أختي وصلت..ووجدتنا مرتبكين.. شحب لونها وسألت ماذا كنتم تفعلون..؟ ..أذكر أنه رد عليها بلا شيء.. لكنها كانت جريئة فقالت أنا رأيتكما..غضب هو وقال لها أنت لم تفهمي شيئًا..ودعاها أن تذهب معه إلى غرفته ليوضح لها ملابسات ما رأته بيننا.

تذكر آدم كارثة وهو في تداعياته بأنه كان متوترًا وهو يستمع لهذه الاعترافات الجارحة..فسألها:

- وماذا قال لها..؟

- لا شيء..

- لا شيء..؟

صمتت للحظات ثم واصلت:

- بعد سنوات..وحينما تزوجنا تكاشفنا..فمنذ ذلك اليوم التي دعاها أخونا لغرفته صرنا نتجنب واحدتنا الأخرى..لست وحدي من كانت تتهرب من لقائها وإنما هي أيضًا كانت تتجنب أن تلتقي عينها بعيني..وبعد أكثر من عقد من الزمان تكاشفنا.. وأخبرتني بأنه تحرش بها وهددها..!

- تحرش بها أيضا..؟

- نعم..ليضمن صمتها..!..المهم..سافر أخونا هذا إلى بيروت..وهناك تعرف على امرأة مطلقة ولديها طفلة..وتزوجها.. واستقر في بيروت..!

- وانتما..؟

- أختي تزوجت حينما صارت في السادسة عشرة..أنا واصلت دراستي الجامعية..وحينما بدأت دراسة الماجستير تقدم لي رجل يكبرني بحدود

العشرين عامًا..وافقت بشرط أكمل دراستي العليا..ووافق على الشرط.. أبي لم يعارض لأنه كبر في السن وكان همه أن يتخلص منّا ومن مسؤوليتنا الأخلاقية..وهكذا انتقلت إلى حياة جديدة..وبرغم أن أختي التي تزوجت قبلي كانت قد طلبت من زوجها أن يستعلم عن الرجل الذي تقدم ليتزوجني والذي أكد لها من أن هذا الرجل محترم من كل النواحي لكنه سمعته كزير للنساء تسبقه..وتطغي على كل محاسنه..إلا أني وجدته عاجزًا جنسيًا.. وحتى في ليلة الزفاف حاول لكنه لم يستطع..كان يتفنن في إثارتي لكن لم يستطع أن يزيل بكارتي إلا بعد أسبوع ..وبأصبعه أولًا..ثم أولجه..! لكنه كان يعوض ضعفه وعدم تمكنه من تلبية رغباتي باحترامه لي واهتمامه وتوفير الظروف الملائمة لإنهاء دراستي الماجستير والتسجيل على الدكتوراه..لكنه لم يعمر طويلًا..ففي إحدى محاولات اليائسة بمضاجعتي مات..مات وهو على صدري..!

- وماذا فعلت..؟

يتذكر آدم كارثة ليلة البارحة التي لن ينساها..إذ كان يريد أن يعرف تفاصيل حكايتها وطلبها الذي أجلته إلى حين الانتهاء من حكايتها..وسمعها تواصل:

- ذكرياتي وجع مزمن..وروحي مظلمة.. بعد ترملي صار وضعي أفضل..لم أشأ الرجوع إلى بيت أبي برغم إلحاحه الكبير..عرفت أن أخي الذي كان يتحرش بي لسنوات قد جاء بزوجته ليعيش في بيت أبي.. ولا أخفيك..فقد خفت..بعد ذلك بفترة قصيرة توفي أبي..واستولى أخوتي على كل ممتلكاته تقريبًا..ولم يبق لنا سوى إرثنا في بيت العائلة.. بينما القسم

الأكبر من العائلة لا يزال يعيش فيه..ولكي أتجنب القيل والقال سواء من الأهل أم المجتمع..فقد تزوجت زميلًا كان يدرس معي الدكتوراه أيضًا.. لكني لم أوفق في هذا الزواج أيضًا..إذ اتضح لي أنه شاذ جنسيًا..وقد اعترف لي باكيًا ليلة الزفاف بأنه مخنث..وأنه منذ الصغر قد تحطمت شخصيته وحياته الجنسية..فقد كان زوج أمه اغتصبه منذ أن كان في السابعة من عمره.. وصار يغتصبه كلما سنحت له الفرصة بغياب الأم.. حتى بعد أن بلغ الثامنة عشرة..وهذا الأمر جعله يتجنب عالم النساء ولا يقترب من الفتيات..بل وحين صار في الجامعة ثم في الوظيفة فأن مديره انتبه إلى سلوكه الأنثوي.. واتخذه عشيقًا..وساعده في الارتقاء الوظيفي وفي التفرغ للدراسات العليا على حساب الدولة..وهو يحبني فعلًا..لكن كأخت..لكنه كان مضطرًا ألا يخبرني لأني بالتأكيد كنت سأرفضه.. وهو يريد أن يمنح نفسه غطاءً اجتماعيًا أمام الناس وأمام زملائه في دائرته الذين أخذوا يسمعونه كلامًا مهينًا عن علاقته بالمدير..وهو يعرف أنه ظلمني بهذا الزواج لذا يقترح علي بأن يأتي لي بين فترة وأخرى برجل يضاجعني أمامه..!...ولو أردت أن أجهر بالحقيقة لقلت لك بأنني ارتحت لهذا الأمر لأنني تخلصت من الممارسة الجنسية وخيباتها..كما منحني حرية مطلقة في الذهاب والخروج مع من أشاء..وأغيب عن البيت متى أشاء دون سؤال أو جواب..والأهم من هذا انهيت دراستي بكل هدوء..وتم تعييني محاضرة في الجامعة..كما تفرغت لكتابة روايتي..«متاهة العميان» التي نشرتها على نفقتي في بيروت..

– هل هذا يعني أنك حاليًا متزوجة..!؟.

– نعم..

- طيب وما هي الرغبة التي تمنيت أن أحققها لك..!

نظرت له بحنان..وقالت بارتباك وخجل:

- أنا أنام بحضنك عارية..لا أريد شيئًا سوى أن تحضنني بحنان ورفق كما تحتضن طفلة صغيرة..!..

يذكر الآن جيدًا أنه تأثر جدًا بصدقها وعفويتها وطيبتها..وأيضًا خلصته من حرج كان سيقع فيه..فقد انطفأت شهوته وهو يستمع لهذه المأساة الشخصية ...ولم يمسسها وإنما قال لها:

- ستنامين بحضني..بهدوء وأمان..كما تنام الطفلة الصغيرة..!

ضغط على زر الكهرباء القريب منه..غرقت الغرفة في الظلام..احتضنها ..أحس بحرارة جسدها..انتبه إلى أنها بعد دقائق قليلة دخلت إلى غابة النوم..ظل هو ساهرًا مفكرًا بهذه الحكاية الغريبة..!

يذكر أنه حينما أفاق صباحًا..لم يجدها..وكأنها كانت حلمًا..لكنه انتبه إلى وجود رواية «متاهة العميان» مع رواية «العمى»..فكر مع نفسه بأنها لو لم تكن امرأة حقيقية فمن أين جاءت هذه الرواية..؟ أيعقل أنه اشتراها دون أن ينتبه؟.

أفاق الدكتور آدم كارثة من تداعياته على صوت المضيفة تسأله:

- ماذا تشرب سيدي..؟

طلب منها قهوة مع كأس ماء..وفتح الطاولة الصغيرة التي أمامه. ناولته ما أراد. وحينما انتهى من شرب القهوة والماء..وضع الكوبين البلاستيكيين جانبا على طاولة المقعد الفارغ المجاور..وأخذ رواية „متاهة العميان”

لحواء البوسني ليواصل قراءة الرواية الداخلية التي تحمل اسم «متاهة العميان» أيضًا والتي كتبتها حواء الجـدي بطلة حواء البوسني عن بطلة اسمها حواء الكتبي..!.

متاهـــة الـعـمـيـــــان

للكاتبـــة حـــواء الــجــدي

1

....

المهنة: فيلســـوف

الجو هذه الليلة حار جدًا..الرطوبة في الخارج عالية جدًا..لا صوت في غرفتي سوى أزيز خفيف يأتي من جهاز التكييف المثبّت في أعلى الجدار.. الفندق مريح..يتوسط شارع الحمرا..وبيروت التي وصلتها منذ يومين مدينة جميلة..لكن ليس من السهل أن أتمشى في مثل هذا الحر المفاجئ..فهذا المساء بالتحديد يختلف عن بقية المساءات التي عشتها منذ ليال..صحيح أنني متعودة على الحر بحكم أن بلدان الشرق الأوسط حارة في مثل هذا الفصل من السنة..لكن الحر يبقى حرًا.!..أنا لا أطيق فصل الصيف.. !

قبل ساعة اتصلت بأختي..تحدثت معها قليلًا..ثم تحدثت مع ابنتيّ.. سألتني أختي عن حبيبي آدم أبو الهيل إن كان قد وصل من مدينته السويدية.. فأجبتها أنه سيصل في الساعات الأولى من فجر هذا اليوم على خطوط الشرق الأوسط من كوبنهاكن.. وأني حجزت سيارة تاكسي عبر استعلامات الفندق لتوصلني إلى المطار ثم لتقلنا بعدها إلى الفندق.

لا أحد من أهلي يعرف سر سفري إلى بيروت..أختي وحدها تعرف كل تفاصيل علاقتي بحبيبي آدم أبو الهيل منذ أيام الجامعة.. لقد أخبرت أخوتي

وعمي بأن الشركة التي أعمل فيها قد أرسلتني إلى بيروت إيفادًا للمشاركة في دورة تدريبية لأسبوع..وهذا صحيح..لكني سبقت بدء الدورة بخمسة أيام.. ونزلت في الفندق نفسه..طبعًا أخواي وعمي يعرفون حبيبي آدم أبو الهيل.. يعرفونه حينما تقدم لطلب يدي قبل أكثر من خمس عشرة سنة..حينها رفضه والديّ رحمهما الله..رفضته أمي لأنه من عائلة فقيرة..ورفضه أبي لأنه لم يكن يريدني أن أتزوج..بحجة أنني لم أنه الدراسة الجامعية بعد..!.

***

الكثير من الناس يتخلى عن مبادئه التي ناضل وتعذب وتشرد من أجلها في بداية حياته، لاسيما بعد أن يصل إلى مناصب إدارية أو سياسية مرموقة.. وربما أجد في عائلتي المثال على ذلك..فأنا ولدت لعائلة ميسورة الحال.. كان أبي رحمه الله في موقع إداري كبير..ينحاز للأفكار االمتحررة..درس في أوروبا، في فرنسا بالتحديد،..وحين عاد تزوج أمي التي كانت ناشطة نسوية في منظمات المجتمع المدني..!.

نحن أربعة أخوة..أختان وأخوان..أنا كنت المحببة والمقربة إلى والدي من بينهم..وكان هذا مثار غيرة ومشاكسات بيننا..! كنت مدللته الصغيرة.. وكلما تقدمت في العمر ازداد تعلقه بي وازددتُ قربًا منه..كان أبي مثلي الأعلى..مبدئاً كان..حازمًا في قراراته.. لكنه يقبل المناقشة والحوار حول قراراته..كان منضبطًا جدًا لكنه كان يستمع إلينا جميعًا ويتساهل معنا في حدود معقولة..وكان يحب أمي..متواضعًا مع الأقرباء والجيران..محبوبًا.. لكنه كان لا يحب المظاهر ولا استغلال المنصب..فكان يرفض الوساطات مما أزعج أقربائي..!.وبرغم كل هذه الصفات الحميدة فقد رفض حبيبي آدم

أبو الهيل حين تقدم لخطبتي بحجة أنني لم أنه دراستي بعد..وحتى بعد أن وعده حبيبي بأنه لن يتزوجني إلا بعد إنهاء دراستي الجامعية فقد رفضه أبي قائلًا له إذا كنت تحبها ولا تريد الزواج منها إلا بعد تخرجها من الجامعة فتعال إذن بعد التخرج!!

في الجامعة كان تصنيفي وفق ما حصلت عليه من معدل أن أكون في كلية الإدارة والاقتصاد..بينما كان حبيبي في السنة الثالثة من كلية الآداب قسم الفلسفة..!.. وكان هذا أحد أسباب رفضه من قبل أهلي..إذ كانت أمي تسخر مني وتقول ماذا سيقدم لك لتأكلي..نظريات فلسفية..!! وما هي مهنته: فيلسوف..!!.

***

أنا الآن في بداية الثلاثين..متوسطة القامة..متناسقة الجسد بل أميل للإمتلاء قليلًا....يقال إن لي عينين جميلتين..وأمتلك من الإثارة ما يجذب الآخرين نحوي..لاسيما الرجال!..لكني ببساطة إنسانة حنونة.. طيبة..أبدو رزنة وذات شخصية قوية من الخارج لكني من الداخل هشة وضعيفة جدًا، لأني ببساطة رومانسية أكثر من اللزوم!..بل ربما يمكنني القول عن نفسي بأن في أعماقي طفلة صغيرة..، وهذا واضح في علاقتي بأبنتيّ..فحين أكون معهما أتحول إلى طفلة حقيقية دونما تصنّع..كما أن دمعتي تستجيب لأي مشاعر رومانسية أو حزينة..أتأثر بكلمة رقيقة أو مستفزة..طيبة لدرجة أن الكثيرين ممن حولي يستغلون طيبتي بوقاحة..!

الشتاء فصلي المفضل..ووقتي المحبب هو الليل..أنا عاشقة الليل.. والمطر صديقي..حينما يهطل المطر أحس أنه دموع السماء الحزينة..

أحس به ينهمر في أعماقي..وأنا من الهشاشة والرقة بحيث تترقرق الدموع في مقلتيّ حين أتأمله من شرفة شقتي أو نوافذها وهو يهطل على البيوت والشوارع..أجد المطر رومانسيًا جدًا..سواء كان ناعمًا أم هاطلًا بشدة ترافقة الرعود والبروق والرياح العاصفة..!.

***

لم أعش طفولتي كما عاشها بقية أخوتي..فاهتمام أبي بي وتقريبه لي فرض علي التخلي عن المرح الطفولي وشيطنة الأطفال في ألعابهم ومقالبهم..كنت أتحلى بجدية لا تناسب عمري..فدخلت مرحلة المراهقة وأنا أتصرف مثل فتاة على وشك البلوغ..!

كنت أفضل طالبة في المدرسة الابتدائية والثانوية..وكان هذا مبعث افتخار أبي بي..وهكذا كبرت وأنا أتصرف بما يزيد عن عمري بسنوات..ولم يكن لدي حينها أصدقاء سوى أختي..أخواي كانا كالعادة مدللين من قبل أمي أكثر مني ومن أختي..بل حتى أبي كان يعاملهما بطريقة مميزة أخرى..!

لم أعرف حياة المراهقات وقصص الحب..على الرغم من أن روحي كانت تحلق في عالم الأحلام والخيالات..فقد كنت أذوب في كتب جبران خليل جبران..وأبكي مع أبطال روايات مصطفى لطفي المنفلوطي المعرّبة..وأغرق في أقاصيص ألف ليلة وليلة..لكني لم أتلق رسالة حب واحدة من شاب بعمري..!

أختي التي تصغرني بسنتين تقريبًا كانت أكثر خبرة مني في شؤون الحب..حتى أنها حين كانت في العاشرة ضبطتها أمي مع ابن الجيران فوق السطح في ظهيرة صيف ساخن..فكما روت أمي لأبي، وأنا أتنصت دون أن ينتبها

لي، بأن أختي كانت نائمة بثيابها على أرضية السطح الطينية بينما ابن جيراننا، الذي قفز من سطح دارهم المجاور، ينام فوقها بثيابه ويقبل خدها..!. وطبعا كلاهما نالا الضرب بالنعال من أمي..لكن الحصة الأكثر من الضرب كان من نصيب أختي..لأن ابن الجيران الذي كان في الثانية عشرة قد هرب قافزًا إلى سطح دارهم..!.

***

كنا نعيش في مدينة جنوبية..مدينة هادئة برغم صخب الحياة فيها..إلا أن أمرًا إداريًا صدر بنقل أبي إلى منصب أعلى في العاصمة مما اضطرنا إلى الانتقال من مدينتنا..ومرّت الأيام والشهور والسنوات..كانت كلها مليئة بالأحداث الصغيرة لكن السرية والمؤثرة في تكوين كل منا.

أختي الشبقة المشاكسة صارت متدينة..بل لم تكتف بالحجاب وإنما بالنقاب..!!..بينما أنا المحافظة والتي كنت مثالًا للرزانة صرت أعيش عالما مليئًا بأحلام اليقظة..!

أبي صار يائسًا من اصلاح العالم..وتعب كثيرًا من عبء الضمير والنزاهة..فاضطر إلى أن يتنازل عن مبادئه..بأن يتوسط لأخوته وأبنائهم.. ولأقربائنا..بل صار يتقبل الهدايا التي هو يعرف أنها مسمى آخر للرشوة وذلك تحت نق أمي اليومي ومحاولاتها اقناعه بأن العالم هو هكذا..! فلماذا يحاول هو مثل دون كيخوته الوقوف ضد منطق الحياة..!.

حينما قرأت رواية «دون كيخوته».. لسرفانتس عرفت أن أمي كان محقة حينما شبهته بـــ«دون كيخوتة ..لكن الفرق بينهما أن «دون كيخوته» ظل مخلصًا لضميره وأفكاره ومبادئه..ولم يساوم عليها..وإنما وعى

رومانسيتها..واستحالة تحقيقها! بينما أبي لم يصمد..حبه لأمي كان سببًا في تخلّيه عن مبادئه..فهي امرأة تسمي نفسها عملية وواقعية..وهي التي كانت تضغط عليه بأن يقبل الهدايا ويتبادل الخدمات فيتوسل لفلان وفلان كي هي تستفيد من هذه الخدمات إما في الإفادة منها لمصلحة أخوتي أو لأقربائها وصديقاتها فهي تحب الهيمنة وتحب أن تبدو ذات سلطة ..!.

تحولات أبي..وسقوط مثلي الأعلى.. وتشوّه صورة الأم التي كانت مدافعة عن حقوق المرأة إلى امرأة أخذت تحاسبنا على ضحكتنا إذا ما ارتفعت قليلاً..أو تطالبنا بالتحشُّم إذا ما خرجنا لزيارة أقاربنا ملأتني بالتناقض..فأخذت أبحث عن أب جديد..ووجدته في صديقي وحبيبي آدم أبو الهيل الذي كان يكبرني بخمس سنوات..!.

***

لو وصفت نفسي وفق توصيفات علم التحليل النفسي لقلت عن نفسي بلا تردد إنني فتاة معقدة..معقدة جدًا..فأنا أعيش صراعًا نفسيًا بين رغباتي المتأجّجة وشبقي الصارخ والمكتوم في الوقت نفسه وبين تحفّظي المبالغ فيه..أتلصص على الصور الجنسية وأحيانًا أدخل مواقع إباحية وأمارس العادة السرية بشكل مرهق،بينما أبدي امتعاضًا واستياءً حد الغضب لو ذكروا أمامي كلمة جنسية مباشرة تلفظ بالتعبير الشعبي..!. هل أنا منافقة أيضًا..!! ربما..فأنا امرأة مقنعة..بل امرأة تعبت من الأقنعة..!.. امرأة مرّت بتجارب سرية مرعبة في فترة مراهقتها، لكنها تحاول أن تتعالى على ذلك.. امرأة انهارت مُثلُها بإصلاح العالم وإيمانها بنقاء البشر وطيبتهم..!..امرأة تنظر إلى أعماق نفسها فترتعش خوفًا ممّا يدور هناك من دوامات الشهوة والغضب والخيبة..والأقنعة الأخلاقية الضرورية كمكياج لشخصيتها!.

ربما أنا في بحث محموم عن أبي في الرجال الآخرين..!!..لكن حبيبي ليس كبيرًا في السن..فهو شاب لا يمكنني أن أصفه بالوسامة..لكنه يفيض بإشعاع رجولي يثيرني..حبيبي الذي لم أدعه يقترب مني..! وقد حدث أن تجرأ مرة فانزوى بي في ركن هادئ ومخفي بعيد عن أنظار الطلبة..وحاول أن يقبلني..ضاغطًا جسده على جسدي المتكئ على الجدار..فأبعدته بقوة وصفعته تاركة إياه في دهشة وغضب..بل وتماديت في ردة فعلي بأن قاطعته لأكثر من أسبوع..إلى أن جاء معتذرًا عمّا بدر منه..مُطلِقًا عبارات أشبه بقصيدة رائعة عن عفتي ونقائي..بينما أنا كنت في تلك اللحظة التي ضغط جسده على جسدي أتأجج شبقًا..وبقيت أتخيل ذلك المشهد في أحلام يقظتي لأيام وليالٍ ..!!..وكم انتقدت نفسي على ردة فعلي المنافقة والمبالغ فيها..فقد أغلقت بذلك على أية محاولة منه للتقرب الجسدي مني..حتى لو كانت قبلة على خدي..!.

***

أحبّني آدم أبو الهيل بإخلاص..ربما وجد فيّ حلمه بالمرأة المثقفة والمثيرة والعفيفة..! وربما العفة هي غيرة وعجز وعدم ثقة بالنفس وشعور مكثقف بالملكية والتملك..!..فأنا لم ألتق بامرأة عفيفة أبدًا..فحتى العفيفات اللاتي لا يقمن علاقات و«يحافظن على فروجهن» مثلي..هن في أعماقهن لسن بعفيفات..على الأقل في أحلام يقظتهن ورغباتهن السرية..!. وأنا من هذه الناحية ربما مومس أو قحبة ساقطة..على الرغم من أني كنت حينها طاهرة وباكرًا لم يمسسني بشر ولا جان..!.

ربما يجدر القول بأن حبيبي آدم أبو الهيل يعاني من مشكلة الصمم نتيجة لتعرضة إلى الضرب والصفعات القوية أثناء تعذيبه في أجهزة المخابرات

لموقفه السياسي وأفكاره اليسارية..!وربما هذا الأمر ساهم في تعقيد موقف أهلي منه..فقد كان على أبي أن يتكلم بما يشبه الصراخ كي يسمعه حبيبي حينما جاء ليفاتح أبي بخطبتي قبل أن يأتي مع أهله رسميًا.!..

أختي المشاكسة أخذت من هذا الأمر سببًا للمزاح والنكتة..فأخذت تمثل دور الصمّاء..وتضع كفها على أذنها طالبة مني ومن بقية أفراد عائلتي أن نتكلم بصوت عال وكأنها لا تسمعنا..!.. كنت لا أبالي من هذا المزاح الساخر، وكنت أتحداهم في الدفاع عن حبيبي بأن ما أصابه كان نتيجة لمواقفه الفكرية النبيلة وليس كمن باع مبادئه بعد أن تسلّق من خلالها أعلى المناصب..فكان الجو العائلي يتوتر..فكفوا حينها عن المزاح..واعتبروني قاسية وجافة..! وبرغم كل ذلك فقد تم رفضه وانطوت مسألة خطوبتي..!.

***

حين يئس حبيبي آدم أبو الهيل..،وكان قد تخرج قبلي، من امكانية قبول أهلي لزواجه مني اعتكف في حجرته التي كان يعيش فيها حين كان طالبًا جامعيًا..فهو أيضًا من مدينة في وسط البلاد..حاولت بأية وسيلة أن ألتقيه.. لكن دون جدوى..كنت حينها في السنة الثالثة بينما هو قد تخرج..! .

وذات يوم وأنا خارجة من الجامعة وجدته يقف على الرصيف المقابل.. تلفّت جانبًا محاولة أن أفلت عن بصر سائق سيارتنا التي يقلّني من الجامعة.. عبرت الرصيف متلهفة..لم استطع أن أقول شيئًا..مددت يدي له مصافحة.. فأخذها بارتباك..فالمصافحة صارت في عرف الناس شيئا جرئيًا محملًا بالجنس والخطيئة..!..اقتربت منه كي يسمعني بشكل أوضح.. لكننا لم نجد ما نقوله..كانت مشاعرنا مصطخبة.. وقبل أن أفتح فمي معاتبة صعقني بجملته حين قال لي:

- جئت لأودعك..!

شحب وجهي..قلت متسائلة بنبرة بالكاد تُسمع:

- تودعني..؟ لماذا..؟

- لأني مسافر..

- مسافر إلى أين..؟

- إلى أوروبا..

- أين أوروبا..إنها كبيرة..إلى أي بلد..؟

- لا أعرف لحد الآن..حصلت على فيزا اليونان..وربما منها سأطلب اللجوء السياسي لإحدى بلدان أوروبا..السويد.. ألمانيا..لا أعرف..

- وأنا...

- سأتواصل معك..أهلك رفضوني..قمت بما يمليه عليّ ضميري وتقدمت إليك حسب الأصول..لكن والدك المناضل وأمك المناضلة ذوي المبادئ تحولا إلى طبقة جديدة..صارا ينظران للناس من خلال منصبيهما وما يملكان من ثروة..

- أعرف..

- وما فائدة المعرفة إذا كانت المعرفة عاجزة عن التغيير..!

فجأة قال لي:

- انتبهي..سائقك يبحث عنك..وقد رآك الآن..

- كيف سأتواصل معك..!سألت بحزن ويأس.

- ستعرفين أخباري عن طريق صديقي آدم باذنجان..تعرفينه..وسأترك لديه تليفوني وعنواني أينما استقر!..انتبهي أنه رآك.. ويريد عبور الشارع ليأتي إليك..أوكي..سأراك..

قال ذلك وغادر مكانه تاركًا إيايَ في مكاني.. فوجئت لهذا الوداع البائس..ووجدت نفسي أرجع إلى حيث تقف السيارة..فتوقف السائق عن المجيء نحوي حينما رآني راجعة.

***

مرّت أشهر..دون أن أسمع عنه أي خبر..كنت أسأل صديقه آدم باذنجان كلما أراه في كافتيريا الجامعة..فكنت أعرف من ملامحه وقبل أن يجيب بأنه لا أخبار لديه.

ذات مرة كنت في الكافتيريا حينما أقبل آدم باذنجان إليّ..كنت أصطف على طابور للحصول على كوب من الكاكاو الحار الذي أحبه كثيرًا..حين صار خلفي وقال لي:

- لدي أخبار طيبة..

عرفت أنه يقصد حبيبي آدم أبو الهيل..أحسست بالدم يتدفق في رأسي.. ولم يتأخر هو بالحديث إذ قال لي:

- إنه الآن في السويد..وصل إلى مدينة مالمو..ووضعه جيد..وسيحتاج لبضعة أشهر كي يحصل على الأوراق الرسمية..!وهو يبلغك السلام.. وسيزودني بأخباره إذا ما استجد جديد..

ثم انسحب تاركًا إياي في تيه جديد.. عمياء في متاهتي..!

***

لم أجلس عاطلة عن العمل في البيت..فما أن تخرجت حتى كانت الوظيفة جاهزة لي بحكم علاقات والديّ..بينما أختي التي كانت قد دخلت معهدًا فنيًا..تركَت الدراسة فيه لتقبل أول خطيب تقدّم لها من أبناء عمومتنا..!..وحينما حدثتها لأقنعها بأن تنهي دراستها قالت لي بأنها تكره الدراسة..وإنها تريد أن تعيش حياتها..خاصةً الجنسية..وأن تتحرر من سلطة العائلة ويكون لديها بيتها المستقل..لاسيما وأن خطيبها شاب متحرر ويميل إلى المرح والفرفشة..! ولم تكن تعرف أن ذلك كان لفترة قصيرة.. فبعد الزواج بشهرين طلب زوجها منها أن تتحجب..برغم أنها كانت تعد له مائدة الخمر في البيت..وبعد ولادة ابنتها المعاقة..تحول زوجها إلى الدين معتبرًا أن الله يعاقبه من خلال ابنته المعاقة..مما دفعها هي إلى النقاب..!.. لكنني كما أسرّت لي بعد سنة من ذلك بأنها ستجن..وأنها بدأت تراجع رجلًا متدينًا يمارس السحر..حتى أنها دعتني لمراجعته عساه أن يفك عقدتي..!!.

***

علاقتي بأبي تعقدت كثيرًا..لم يرفض حبيبي فحسب وإنما كان يرفض كل من تقدم لطلب يدي..!..علاقتي معه سرى إليها التوتر الخفي المكتوم.. ليس لأني أريد الزواج..وإنما وجدته غير منصف معي..فقد تزوجت أختي.. وأخواي..ولم يبق سواي..!.

أدركُ أنني مريضة نفسيًا..وأعيش منذ الرابعة عشرة من عمري ازدواجية لا فكاك منها برغم زواجي وطلاقي مرتين..وبرغم انجابي لطفلتين رائعتين..!.. وكما قلت أنا مقنّعة.. لكنني هنا أسعى إلى أن أكشف عن وجهي وأفضح قناعي..!

قيل لي كثيرًا إنني امرأة جذابة ومثيرة..مشعّة..أنيقة..يفوح مني عطر زكي من أرقى العطور الفرنسية المخلوطة بالعطور الشرقية..! وبصراحة دونما غرور قلَّ من لا ينتبه لي ، سواء من الرجال أم النساء..! لي حضور شخصي ومهابة دون أن أصطنع المهابة.. أمشي بثقة دونما خوف..الخوف الذي تجاوزته من خلال الخيبات..ليست شجاعة مني بقدر ما هي لامبالاة راسخة..!

أنظر إلى الأشياء وإلى الآخرين بوضوح ومباشرة..وتركيز..بحيث يظن البعض أني متكبرة ومتعالية..لكني في أعماقي بسيطة.. وهشة.. ومتواضعة.. ولا أنكر أني أمثل دور المتعالية أو المتواضعة..حسب الموقف..!.

من خلال ما روته لي أختي وأمي قبل أن ترحل عن عالمنا..فأن سمعتي محاطة بهالة من الفضيلة الصارمة، بحيث صار الجميع يهابني ويجلني.. ويتملقني خوفًا واتّقاءَ أحكامي الأخلاقية، بل صرت رمزاً للفضيلة بحيث أخذ كبار السن في العائلة..والأقرباء.. والعشيرة..يتقربون مني ويسعون إليّ والاستئناس برأيي في الحكم على سلوك الآخرين، أو لحلّ مشاكلهم.. وكأنهم يستمدون مصداقية آرائهم من خلال اتفاقي معهم ودعمي لآرائهم.. وحين كنت أمرّ بمزاج سيء فأعارضهم وأبدي عدم ميلي لآرائهم فأراهم يرتبكون ويتراجعون عن آرائهم ..

كانوا يضعونني بمقام سيدة شفيعة أو قديسة..لكنهم لم يكونوا يعرفون جيدًا تاريخي السري..هذا التاريخ الذي شهوده غادروا الحياة بطريقة بشعة..! تاريخ حولني من الداخل إلى ذئبة شبقة..! ولا أنكر أنني كنت استمتع بهذه الهيمنة الأخلاقية على الناس حولي وكأنه تعويض عن حقيقتي التي لا يعرفها غيري..! لذلك أحيانا كنت أعيش حالات من الانهيار النفسي

فاستغل هذه السلطة الأخلاقية والمكانة التي أملكها في عائلتي لأمارس سلطة الفضيلة بشكل جريء وصارم..من خلال صراحتي وجرأتي في انتقادي سلوك الآخرين..وكنت أثير حيرة محيطي العائلي وأقربائي وحتى محيط الأصدقاء لغرابة أحكامي..فقد كنت أُبرّئ فتيات ونساء مشبوهات من ذوات السمعة السيئة والعلاقات المفضوحة..بينما كان الغضب الحقود ينتابني ضد نساء من ذوات الحضور الأنثوي الطاغي ومن اللاتي لا يأبهن لي فألوث سمعتهن..وأجرحهن بطريقة هادئة.. أو كما يقال أذبحهن بخيط من حرير..!

لا أحد يعرفني على حقيقتي سواي..! أنا متناقضة..فمن جهة أنا طيبة القلب لحد السذاجة..رومانسية أحب فصل الشتاء.. وأعشق المطر.. وأبكي من شدة الحزن حين يهطل المطر..ومن جهة أخرى أنا امرأة شبقة.. لامبالية..لكن لا أحد يعرف ذلك عني .. ذلك الوجهة المخفي..أو القناع الذي ارتديته لفترة من حياتي رغما عني..!!؟

2

كابوس الأرملة

لا أريد أن أدّعي البراءة..فأنا برغم رومانسيتي وهدوئي قد مررت بتجربة أشّد عمقًا وأكثر فضائحية مما مرت به أختي..وقد ظلّت تلك التجربة طي الكتمان ولم يعرف بها أحد إلى الآن..! تجربة هزت كياني وخربّت حياتي النفسية منذ عقود..!

كانت لدينا جارة أرملة..امرأة مسكينة..تجاوزت الأربعين بقليل.. ممتلئة الجسم قوية القامة..جميلة الوجه..لكنها كانت تحمل حزن الدنيا كله على عاتقها..وقد يفهم المرء ذلك حينما يعرف أن لديها ابنا وحيدًا في العشرين من العمر..لكنه أعمى...فقدانه للبصر دفع بأمه أن تعزله عن الآخرين..فلم يكن يخرج للشارع إلا نادرًا..لكنه كان قوي البنيان..يقترب من عالم الرجولة لكنه منعزل عن الآخرين بحكم وضعه فكان أشبه بطفل كبير ساذج..!..

كانت الأرملة صديقة لوالدتي..وكانت أمي تساعدها بين فترة وأخرى.. إلا أن الأرملة كانت تنفق على نفسها وابنها من العمل كخبازة.. حيث كان معظم أهالي المحلة يشترون منها الخبز من باب الدعم لها، فقد كانت ذات كبرياء وأنفة فلم تقبل أية مساعدة كشفقة أو إحسانًا سوى من والدتي بحكم الصداقة والصحبة..لكني لا أعرف لماذا لم أكن أرتاح لصداقة أمي

لها..وكنت أجدها تنافق أمي بمديح مبالغ فيه..لكن أمي ترتاح لهذا النفاق والتملّق لها لذلك كانت تساعدها لتديم هذه المدائح المنافقة..!..وكثيرًا ما سمعت والدتي تقول عنها إنها امرأة غامضة..وتصفها بأنها قلعة مظلمة ليس من السهل اقتحامها وسبر غورها..وهذا ما جعلني أفكر أحيانًا بأن أحاول أنا الولوج إلى عالمها ومعرفة سرّها، مما يزيدني حظوة وتكريمًا عند أهلي.. لذا كنت أتحيّن الفرصة كي أتعرف على عالمها..!..وحين صرت في الرابعة عشرة من عمري حدث معي ما وفر لي إمكانية التعرف على تلك القلعة المظلمة..لكن من خلال تجربة مرعبة..!.

أتذكر الآن أنها كانت ظهيرة صيف تموزي ساخن..والأهل كلهم يرقدون القيلولة بعد فترة الغذاء..وحدي كنت أقرأ في ممر المنزل الي يقود إلى باحة البيت..كان باب منزلنا مفتوحًا..فرأيت جارتنا الأرملة تدخل..حين رأتني فوجئت..ارتبكت..نظرت إلى الباحة..وصمتت وكأنها كانت تتنصت على أهل الدار إن كان أحدًا منهم لم ينم بعد..

استغربت زيارتها..كانت خائفة..ونظراتها مريبة..ومتوترة..وبصوت خافت سألتني إن كانت أمي تأخذ القيلولة أم لا..!؟ أخبرتها بأن الكل نيام..صمتت للحظات.. استرخت ملامحها ثم سألتني وهي تبتسم برقة وقالت بطريقة ملغزة..مريبة..إن كان بإمكاني أن أساعدها في كتابة رسالة إلى أختها في مدينة بعيدة..ترددت قليلًا..خفت..لكني لم أستطع الرفض.. فقلت لها يمكنني ذلك.. ابتسمت ثم قالت لي بصوت خافت وكأنها تسرني شيئًا:يفضل أن تأتي معي إلى بيتي فهناك يمكن أن ألقنك ما يمكنك أن تصوغيه كتابة..ترددت للحظات..كان ثمة هاجس مريب في داخلي..لكن فضولي إلى معرفة عالمها كان أقوى من ترددي وخوفي.

حين دخلت بيتها شعرت برهبة وخوف يداهمني وبقشعريرة تسري في جسدي لاسيما حينما لاحظتها تغلق الباب الخارجي بالرتاج .. ثم قادتني إلى غرفة جانبية..وأدخلتني إلى هناك ثم دخلت خلفي..!

كانت الغرفة معتمة..أو لأني كنت في الضوء الباهر ودخلت مكانًا مظلمًا لذا لم أستطع أن أتبيّن ملامح الغرفة..فجأة ضغطت هي على زر الكهرباء فأنارت المكان..وفي تلك اللحظة أغلقت باب الغرفة أيضاً..!

حين اتضحت معالم الغرفة وجدت ثمة سريرًا عريضًا..وثمة أفرشة على الأرض مرتبة بطريقة شرقية..وعندما دقّقت النظر هزتني المفاجأة.. وجفلت..! فقد كان ابنها الشاب العشريني يجلس متربعا على سجادة قديمة رثة تتمدد على طرف الغرفة من الناحية المقابلة للأفرشة.. كانت عيناه بيضاوان.لا أثر للسواد فيهما.

ظلت الأرملة واقفة عند الباب الموصود وهي تتنقل بنظراتها بيني وبين ابنها..!. ولم أكن أعرف ماذا عليّ أن أفعل..لكني حدست بأن ثمة أمرًا غامضًا ينتظرني ليس له علاقة بكتابة أية رسالة..!. وفعلًا..طلبت الأرملة مني، بنبرة حازمة، أن أجلس على الأفرشة الموجودة على الأرض.. وبارتباك شديدة وخوف جلست صاغرة..! كان الخوف يشلني..!.

نظرت الأرملة إليّ وسألتني بصوت جاد:

- ما رأيك بابني..؟ هل يعجبك..؟

لم أعرف بماذا أجيبها..ووجدت بأن أسلم طريق للنجاة والسلامة أن أتجاوب معها..وأن لا أثير غضبها..فقلت لها بصوت مرتبك وخافت:

- نعم.. يعجبني..

نظرت إليّ نظرة شلتني..كانت تستقرئ ما يدور في ذهني..ثم التفتت إلى ابنها وقالت له بنبرة يمتزج فيها المزاح بالسخرية:

- هل سمعتها يا حبيبي..تقول إنك تعجبها..هل سمعت..؟ سنرى إن كانت صادقة أم كاذبة في كلامها..!

لم ينطق ابنها بأية كلمة ..!..ولم تنتظر الأم ما يمكن أن يكون جواب ابنها وإنما التفتت إليّ وقالت:

- سنرى إن كنت صادقة...بأن ابني يعجبك..!

ومن دون أن تترك لي فرصة للتفكير في الرد أو التوضيح قالت لي:

- قفي الآن..وانزعي ثوبك..وتجردي من سروالك الداخلي أيضًا.. لنرى صدقك من كذبك..!

صُدمت بما قالت..لم أعرف ماذا يمكن أن أقول..شعرت بجسدي كله يرتعش من الخوف والخجل..مفكرة بالخلاص من هذا الموقف.. وحين لاحظت ترددي قالت بنبرة واضحة فيها الكثير من التهديد والوعيد، وكأنها حدست ما يجول في ذهني:

- قلت لك قفي..لا أحد هنا يمكنه أن يسمعك حتى لو صرخت بأعلى صوتك..باب الغرفة مقفل..وباب البيت مقفل..وما عليك إلا طاعتي في كل ما آمرك به..وإذا ما أطعتني فيما أطلبه منك ستخرجين بهدوء وأمان دون أن يعرف احد ما جرى وسيجري في هذه الغرفة..لا أحد..فلا تخافي..هل فهمتني أم تريديني أن أفهمك بالقوة..!

وقفت وأنا أرتعد..وبشفاه مرتعشة وبوجه على وشك البكاء قلت لها بنبرة مرتعشة ومتوسلة:

– فهمت..لكن ليحمي الله ابنك أرجو أن تتركيني أذهب..أنت صديقة أمي..أنت مثل خالتي..فأرجوك يا خالة أن تتركيني أذهب..!

نظرت إليّ للحظات صامتة..ثم قالت:

– لا يمكنني الآن أن أتركك تذهبين هكذا..إلا بعد أن تنفذي ما أطلبه منك..!..والآن..انزعي ثيابك..ولا تغضبيني.. ولننته من كل هذا بسرعة قبل ان ينتبه أهلك لغيابك..!!..

ابنها كان يطلق أصواتًا حيوانية هائجة ملأتني خوفًا مما سيحدث معي.. كنت لا أفكر إلا بمغادرة هذه الغرفة..وهذا المنزل..مهما كان الثمن..المهم أن أغادر المكان بأسرع ما يمكن..!!..لم أكن أفهم بعد ماذا تريد مني هذه الأرملة..نظرت إليها فرأيتها تنظر إليّ نظرة مخيفة كلها وعيد وتهديد.. فنزعت ثوبي..وبقيت في سروالي..وأخذت أغطي نهدي الكاعبين الصغيرين بذراعيّ.. فتقدمت مني وأسبلت ذراعيّ من صدري بقوة..وبيدها سحبت سروالي الداخلي إلى الأسفل..فتبين العشب الأسود الخفيف الذي كان يغطي فرجي الصغير..وقفت تتأملني..وركزت بصرها على الشامة الكبيرة قرب فرجي..وقالت:

– أنت جميلة..ما شاء الله..لكن اسمعيني جيدًا..ابني هذا بلغ العشرين من العمر ولم يمس امرأة..وأريده أن يجرب معك شهوته..فإذا أرحته ومتعته سأدعك تذهبين معزّزة مكرّمة..وإلا ستكون عاقبتك وخيمة..ولن تخرجي من هذه الغرفة..فلا أحد قد رآك في هذه الظهيرة وأنت تدخلين

منزلي..وإذا ما قتلتك ودفنتك هنا في هذه الغرفة فلا أحد سيعرف..لذلك عليك اطاعتي..هل فهمت..!!؟.

كنت ارتعش..كنت أغطي صدري بيد وباليد الأخرى أغطي فرجي.. لم أكن في حالة نفسية سليمة وسوية..لم أكن أعرف ماذا عليّ أن أفعل.. الصراخ لا يجدي نفعًا..وقوتي الجسدية لا توازيها..فقلت لها وأنا أتوسل لها بصوت مرتعش أقرب للبكاء والتوسل:

- الله يخليك يا خالة..قولي لي ماذا أفعل..أريد الذهاب إلى البيت.. سيصحوا أهلي ولا يجدونني ..سيسألون عني.. وستحصل لي مشكلة..

ابتسمت ابتسامة المنتصر وقالت:

- إذن أطيعيني..ونفذي ما أقوله وسأدعك تذهبين..

- أنفذ..أنفذ..لكن ماذا علي أن أفعل..؟

- دعيه يلمسك..يضاجعك..ريحيه..بأية طريقة..!وسأدعك تذهبين بعدها فورًا..وكلّما نفذت ما أطلبه منك بسرعة كان خلاصك أسرع..هل فهمت..!!؟

- فهمت..فقط قولي لي ماذا أفعل..

لا أعرف الآن في أية حالة نفسية كنت حينها..لكني أذكر أنني وافقت أن أنفذ ما تطلبه مني بسرعة..إذ سمعتها تقول لي:

- تمددي على بطنك بجذعك الأعلى علي السرير..وليأتك هو من الخلف..!

ارتعبت أنا وصرخت:

- يا خالة أنا بنت باكر..!

ابتسمت بخبث وقالت:

- لا تخافي..سيدخله فيك من الخلف..

ما زالت تفاصيل ذلك اليوم الصيفي وأنا في الرابعة عشرة لم تفارقني.. بل رافقتني في كل علاقاتي مع الرجال..وفي كل ممارسة لي فيما بعد من سنوات عمري.

ربما لا يصدقني أحد إذا ما قلت بأن الأم فتحت ساقيّ وأنا مستلقية على بطني..وفتحت آليتي مؤخرتي ودهّنت دبري بالزيت..ثم نزعت ثوب ابنها الذي صار عاريًا..داعبت عضوه ماسحة إياه بالزيت أيضًا فانتعظ.. خفت حينما رأيت قضيبه المنتصب..كان كبيرًا..وفكرت أنه سيؤذيني بهذا الحجم..قربته مني..ومسكت هي بقضيبه..ووضعته على فتحة دبري.. وأمرته أن يدفعه فيّ..!.. لحظتها أحسست بأن شيئاً ما يخترقني..شيئًا ساخنًا..وحادًا كنصل حاد..دخل بسرعة ربما بمساعدة الزيت..شعرت بالاختناق..صرخت بها: أنا أختنق..فكانت تصرخ بي بأن أتحمل إلى أن ينتهي..كنت أبكي من الألم..فكانت تصرخ بي بأن أصمت وإلا ستدعه يزيل بكارتي..!! فوضعت أصابعي بفمي وعضضت عليها..وبعد هز.. إيلاج وإخراج ..أحسست بشيء دافئ يغمر داخلي..بينما كنت أسمع لهاثه الغريب.. وابتعد عني.. وسمعتها تقول لي: إلبسي بسرعة..

واستدارت لتفتح الباب..ولم أكن أصدق أنها أوفت بوعدها وفتحت الباب..فارتديت ثوبي على عجل..وتعثرت وأنا ألبس سروالي..وهربت من الغرفة..فرافقتني إلى الباب الخارجي وهي تهددني قائلة:

- لا تخبري أحـدًا..لأن الفضيحة ستلحق والدك المحترم وأمك المعروفة..وأريدك أن تطيعيني كلما طلبتك..وإلا سأفضحك .. وسأشهر

بك بأن ابني ناكك..وأعطي أوصاف جسمك..بدليل الشامة فوق فرجك.. هل فهمت..؟

لم أجبها..وإنما فتحت الباب وهربت وأنا شبه مجنونة من الخوف والأمان بأني الآن خارج بيتها..!.

***

بعد مرور ما يقارب الربع قرن على هذه الواقعة أتذكرها وكأنها حدثت قبل لحظات..وكانت أسوأ تجربة في حياتي..أتذكر الآن أنني حين دخلت بيتنا بعد خلاصي من كابوس بيت الأرملة كنت أرتجف..بل الآن أحس بالإرتعاش لتذكري هذه التفاصيل..حمدت الله أن الكل لا يزالون نيامًا..كنت أحس بالسائل الدافئ اللزج ينزل من دبري..اجتاحني خوف هائل من نوع آخر.. خفت من الحمل..!!..كنت أعرف من خلال قرائتي ومتابعتي لمجلة «طبيبك» كيفية الحمل وبعض التفاصيل الجنسية..إلا أني خفت من الحمل!!؟..

بسرعة ملأت إبريقًا،كنا نستخدمة تكريمًا للضيوف ليغسلوا أيديهم قبل وبعد الأكل، بالماء..وذهبت إلى غرفة منزوية كنا نستخدمها للإستحمام و كمخزن لحفظ ما لا يستخدم بشكل يومي..وبدأت بتنظيف نفسي. حين خرجت واجهتني أختي ..نظرت إليّ متفرسة وكأنها تريد أن تسألني ما أفعل في هذه الغرفة عند الظهيرة..لاسيما وأنا قد فاجأتها ذات ظهيرة هناك وهي تداعب نفسها وتضع كفها بين فخذيها وتعصر جسدها بتوتر..لكني لم أخبر أحدًا..!..وربما هي ظنت أنني أداعب نفسي مثلما هي كانت تفعل..فلم تقل لي شيئًا وإنما ارتسمت ابتسامة شيطانية على وجهها.

***

كنت في غرفة أبي المليئة بالكتب عصر ذلك اليوم حينما سمعت صوت جارتنا الأرملة وهي تلقي التحية على أمي بحرارة وتملق مثلما تفعل كل مرّة..بدا لي أنها جاءت لتتأكد من صمتي..وفوجئت أنها طلبت من أمي أن أساعدها في كتابة رسالة لأختها البعيدة..!.. كنت أسمع الحوار بينهما وقلبي يخفق بشدة..بل كنت خائفة منها بأن تشي لأمي بما جرى وتتشمت بها أو تهددها ثم تطلبني زوجة لابنها من أجل إخفاء الفضيحة....!..لكن مخاوفي كانت صبيانية..لم يحدث شيء من هذا.. وإنما سمعت أمي تناديني..ولم أكن استطيع أن لا أجيبها..ومن بعيد أخبرتني أمي بأن أذهب مع جارتنا لكتابة رسالة لأختها..فقلت لها من بعيد وأنا في غرفة أبي بأنني أعاني من صداع الآن..فسمعت جارتنا تقول لأمي بأنها غير مستعجلة..يمكن أن يكون ذلك في المرة المقبلة..ودعت لي بالسلامة..وأخذت تمدحني أمام أمي.

لم ألتق في حياتي كلها بامرأة ماكرة وجريئة مثل تلك الأرملة..!

***

عندما استكانت الأرملة لصمتي عمّا حدث أدركت أنها سيطرت علي وقيدتني بتهديداتها..ولم يمض يومان وإذا بها تدخل إلى بيتنا.. كنت حينها كالعادة في غرفة أبي التي أقضي فيها معظم وقتي لأنها مرتبة وفيها رفوف الكتب..ولم تمض إلا دقائق حتى سمعتها تعيد رجاءها بأن أذهب معها لكتابة رسالتها لأختها..وسمعت نداء أمي لي..

سلّمت الأرملة عليّ بلطف وذكرتني بأنها تود أن أذهب معها..قلت لها ممكن أن أكتب لك الرسالة هنا..فتعذرت بأن لا تستطيع أن تترك ابنها آدم الأعمى وحيدًا في البيت..! فأمرتني أمي بأن أذهب معها..امتعضت..

حاولت أن أبدي عدم رغبتي..إلّا أن أمي التي لم تعرف شيئًا مما جرى لي.. أمرتني بشكل حازم أن أمضي مع جارتنا الأرملة.

***

صرت في الشارع تمنيت أن أفرّ..استجمعت كل إرادتي لأهرب..ولا أذهب معها..لكنني لم أستطع..كنت أحس بأنني مقيدة بسلاسل غير مرئية بهذه الأرملة الماكرة.

التفت هي إليّ لتتأكد من وجودي..ووقفتْ للحظات كي أصلَ إليها وتكون جنبي..نظرت إليّ نظرة شيطانية مليئة بالوعيد والحفاوة والاغراء وقالت وهي تبتسم:

- ابني تعلق بك..صار يلح عليّ بأن يلتقيك...لقد عشقك هذا المجنون..!

لا أعرف كيف أصف مشاعري في تلك اللحظات..كنا قد صرنا داخل البيت..أحسست بنفسي مثل لبوة في قفص..كرهت نفسي لعجزي..كنت لحظتها أعيش احتجاجي داخلي بصمت..بل كنت أتخيل نفسي أنني أدخل المطبخ الذي قرب الباب وآخذ سكينة وأغرسها في ظهرها..لكنني أنتبه لنفسي العاجزة.. الهشة ..الجبانة.

أدخلتني الغرفة نفسها..لكن هذه المرة كان ابنها مستلقيًا على السرير.. كان متمددًا بدشداشته البيضاء..حين دخلنا الغرفة التفت نحو الباب فاتحًا عينية البيضاوين..جفلت من الخوف..!..ابتسمت الأرملة وهي تدفعني قليلًا إلى الأمام وكأنها استشعرت خوفي..! وقالت وهي تخاطبه:

- جئت إليك بحبيبتك..أترى كيف تحبك أمك..تتنازل عنك قليلًا.. فقط كي تجعلك سعيدًا..! لا يوجد من تحبك أكثر مني ياحبيببي..

ثم التفتت إليّ وقالت بنبرة آمرة:

- افعلي ما يطلبه منك..أي شيء يطلبه منك..مهما كان..وإلا ستكون نهايتك بيدي ولن تخرجي من هنا أبدًا..

لا أعرف لِمَ كنت حينها أنا في ذلك العمر مشلولة وعاجزة عن فعل أي شيء..ولم أفهم معنى كلمتها (افعلي ما يطلبه منك..أي شيء يطلبه منك.. مهما كان)..ماذا لو أراد إزالة غشاء بكارتي.!!.

غادرت هي الغرفة وأغلقت الباب..وسمعت صوت ضجة في المطبخ ..عرفت أنها ابتعدت عن الغرفة ولا تتنصت لنا كما كنت أتوقع ..كنت خائفة من مغادرة الغرفة للتأكد من ذلك..!..ألقيت نظرة على ابنها المستلقي على على السرير..أحسست أنه إنسان مسكين..عاجز مثلي..تقرّبت من السرير.. كنت خائفة..وحائرة ..ماذا أفعل له..وهو لا يتكلم..يفهم كل شيء لكنه لا يتكلم..وإنما يطلق أصواتًا أشبه بحشرجة حيوان..مرقت في ذهني خاطرة بأن أفتح الباب وأهرب..ترددت..كان هو صامتًا.. مترقبًا..وكما يبدو أنه كان يشعر بوجودي..وربما أدرك حيرتي..!! لأنه رفع دشداشته إلى الأعلى صدره..وكشف عن جزئه الأسفل..كان بلا سروال..وقضيبه منتصبًا..ولا أعرف كيف راودتني رغبة في تأمله..لم أره إلا في الصور الموجودة في المجلات الطبية..وها هو ينتصب أمامي..تجرأت على التركيز عليه لأني كنت مطمئنة إلى أنه أعمى ولا يراني..فجأة أشار بيده إلى فمه.. وأشار بيده إليّ وإلى قضيبه..كانت إشاراته واضحة بأن أخذه في فمي..!!..اقتربت من

السرير وصرت ملاصقة له..كنت خائفة ومشمئزة..مع رغبة غامضة بأن أمسكه بيدي..وبيد مرتجفة..خجولة..ومتوترة..أمسكت به..وربما سأكون كاذبة إذا أنكرت بأنني شعرت بلحظة خارج الزمان والمكان والحالة التي كنت فيها..أحسست أنني أمسك شيئًا نابضًا بالحياة.. شيئًا مختلفًا ومنفصلًا عن الكائن الذي يتمدد أمامي..وسمعت همهمته وحشرجته ففهمت أنه يريد أن أمصه..لكني كنت مترددة من هذا الأمر..لحظتها فكرت..ماذا لو بال داخل فمي..!..لكن حشرجته وهمهمته التي تعالت دفعتني لا شعوريًا بأن أولجه داخل فمي..أحسست بنبضة الحار ..وبمذاق ليس سيئًا ومقرفًا كما توقعت..وفجأة أمسك هو برأسي وأخذ يضغطه ويرفعه بحركة رتيبه.. وأخذت على إيقاع حركته أمصه..! في اللحظات الأولى شعرت بالإختناق لأنه وصل إلى بلعومي..لكني تمكنت من ضبط الإيقاع..وفجأة امتلأ فمي بدفقات من قذفه الساخن..أحسست برغبة في التقيؤ..قفزت وأنا أبصق كل هذه القذارة التي ملأت فمي..فتلوث السرير وأرضية الغرفة بمنيه..!.. لحظتها شعرت برغبة في أن أقتله.. وأتخلص من هذا الذّل الذي أنا فيه..!.. وحين نظرت إليه وجدته ساكناً مثل طفل وديع..لكن رغبة الانتقام منه ومن أمه الأرملة كانت تتأجج في أعماقي..وفجأة..فجأة..تلبستني فكرة شيطانية في الإنتقام..لا أعرف من أين جاءتني الفكرة..لكنها فكرة انطلقت من أعماق الجحيم الذي في داخلي..!

أحسست أنني متلبسة بشخصية أخرى ليس مني..لكني كنت أحسها داخلي..اقتربت من السرير..وقلت له:

- هل ارتحت الآن..

فهز رأسه..مع ابتسامة بلهاء ارتسمت على شفتيه..!..اقتربت أكثر.. ومددت يدي إلى رأسه وأخذت أمسح على شعره وأقول:

- أنت تعرف أنا أحبك..وأعرف أنت تحبني أيضًا..

فأخذ يهز رأسه بالموافقة وارتسمت على وجهه ابتسامة مشوهة.. فواصلت القول:

- أنا أستطيع أن أريحك..وأعيش معك وحدنا..لكني لا أستطيع ذلك وأمك موجودة..هي مثل الحائط بيننا..لو كنت وحدك بدون أمك لتزوجتك..أنا لا أستطيع ذلك وأمك موجودة..!

لا أعرف الآن حقًا من نطق بتلك الكلمات..!!؟ لم أكن أنا..بلى كنت أنا..فلم يكن غيرنا موجودًا في الغرفة..!..فأخذ هو يشير بيديه بحركات حاولت أن أفهمها بكل ما أملك من فطنة..كرّرها أكثر من مرة..وفهمت منها أنها تعيش معه حياة جنسية..وتفعل له مثلما فعلت..لكنه أخذ يشير بأنه لا يريدها..وأنه يريدني أنا..!لم أكن أصدّق ما أراه وما فهمته من إشارات..!.. لكنه هدأ قليلًا..لم أكن أعرف ذلك الكائن الذي تلبّسني في تلك اللحظات.. كان الحقد المتأجج في داخلي يتوهج كما تتوهج الحمم البركانية التي تسيل على السفوح..فقلت له:

- إذا أردت أن أكون معك للأبد..أن أتزوجك وأعيش معك فعليك التخلص من منها..!

كان ينصت إليّ بانتباه..وبرغم محجريه الأبيضين إلا أن ملامحمه كانت تشير بأنه يستوعب ويفكر بما قلته له..!..

وبروح ذلك الكائن الذي في داخلي..فتحت الباب..خرجت إلى الباحة ..ذهبت إلى المطبخ.. فتشت هناك كالمجنونة..وجدت صفائح مختلفة الحجم من البنزين..وغالونات بلاستيكية مختلفة الحجم مليئة أيضًا..أخذت أحد الغالونات المتوسطة الحجم وغير الثقيلة..دخلت الغرفة وأخذت أرش البنزين على الأفرشة والبسط الأرضية..كان هو لا يعي ما أفعل..لكنه ربمّا شمّ الرائحة..أشار بيده وكأنه يسأل ماذا أفعل..لم أجبه..انحنيت ورششت تحت السرير..حيث كانت هناك شدّات مكوّرة من الثياب القديمة.. رجعت كالمجنونة إلى المطبخ وأخذت الغالونات الأخرى..وعدت إلى الغرفة مرة أخرى..رشتت البنزين كله على السرير وحتى عليه..ارتعب.. وانكمش إلى أقصى السرير من الجهة الأخرى الملتصقة بالحائط.. ورشتت البيت كله.. أخذت بساطًا ونقعته بالبنزين ووضعته قرب الباب..ثم عدت إلى المطبخ.. فتّشت هناك..أخذت علبة الثقاب كلها ووضعتها في جيب ثوبي..وانتظرت.

في تلك اللحظات حدث وكأنها الأرملة كانت قد خمنت ما يمكن أن أقوم به..فسمعت باب البيت يفتح..كان وجهها مريبًا.. متوترًا..وخائفًا.. حتى أنها نسيت المفتاح في قفل الباب..هرعت إلى الغرفة.. ذهلت حينما وجدت أرضية الغرفة مبتلة والأفرشة كلها مبتلة بالنزنين..صرخت بي وهي تقفز إلى السرير لترى ابنها المنكمش على نفسه..وبلمسة شيطانية خارقة.. أخذت علبة الثقاب واشعلتها ..وقذفت على الأفرشة المنقوعة بالنزين على الأرض فاشتعلت خلال ثوان لتسد الطريق عليها ..وبلحظة خاطفة صرت خارج الغرفة غالقة باب الغرفة الحديدي بالرتاج الخارجي..ووضعت البساط المنقوع بالبنزين قرب الباب الحديدي من الخارج..وهربت بخفة

من البيت..غالقة الباب الخارجي بالرتاج..بينما كان أوار النار يتعالي عند باب الغرفة ومن المؤكد داخلها..!.

****

في اللحظة التي خرجت فيها من غرفة المكتبة فوجئت بوجود الأرملة وهي تدخل..كانت تنظر إليّ نظرات مليئة بأسئلة غامضة ووعيد مكتوم.. وقبل أن تستقبلها أمي بالترحاب دخل أبي مستبشرًا وعلى وجهه ابتسامة وفرح كبيرين..ذهبت مسرعة لأحتضن أبي الذي لم يتعود هذه الحركة مني.. لكنه لم يفهم دوافعها..احتضنني بمودة وقال لأمي:..لملمي أشياءكِ..علينا الانتقال إلى العاصمة..!

لم تصدّق أمي الخبر المفرح من شدّة المفاجأة.. لم تقل شيئًا..كانت نظراتها مستبشرة لكنها متسائلة..لكنها أدركت أن هذا يعني ارتقاء أبي لمنصب أعلى..ارتبكت الأرملة..سحبت أبي من عنقه برقة وفهم بأني أريد أن أسرّه شيئًا..وكنت من وراء كتف أبي أنظر إلى الأرملة التي كانت تراقبني..شحب وجهها..بينما أنا لم أقل لأبي سوى أنني أحبه..وأني لا أحب هذه الأرملة وأتشاءم من وجودها..فقبلني أبي برقة محتضنا إياي.. وألقى نظرة غير مريحة على الأرملة..وهو يقول لي:

- تعالي معي إلى المكتبة وحدثيني بما لديك..!

كنت أُحدّق إلى الأرملة وأنظر إليها نظرات كلها تهديد ..وكأني أقول لها سأخبر أبي عنك..نظرت إلي بارتباك وخوف ثم استدارت وقالت لأمي:

- ألف مبروك..

وغادرت منزلنا وكأنها تهرب..

***

لا أحد يعرف بما جرى..الحريق كله كان في أعماقي..انتقمت منهما انتقام العاجز..وحمدت الله على أن كل ما كان ليس سوى تخيلات وغضب متأجج..وليس جريمة حقيقية..!.

لقد حطّمت تلك الأرملة حياتي..لم أستطع أن أعيش حياة جنسية سليمة حتى مع زوجين..انتهت علاقتي بهما بالطلاق..!..

3

آدم... رحمة الله..

أشعر بالبرد..علمًا أن الفصل هو الصيف..! أشعر وكأني في مغارة داخل جبل ثلجي..حياتي ترتجف وترعش خوفًا من الوحشة..!

لست وحيدة..فبعد أن رفض أبي حبيبي آدم أبو الهيل..ورفض كل من تقدم لطلب يدي..وبعد أن تزوجت أختي وأخواي لم يبق في العائلة سواى.. أمي أخذت تتشاجر مع أبي وكذلك عمي..كنت اسمعهم وهم يؤنبونه على تمسكه بي لدرجة أني سأظل عانسًا..

أنا نفسي ضقت بحالي..ليس لأني أريد رجلاً..فأنا معقدة من هذه الناحية نتيجة تجربتي التي رويتها سابقًا مع الأرملة وابنها الأعمى..! وإنما لأني مللت حياتي..مللت التكرار..حياتي مليئة بالخيبات..والتفاهات التي نحن البشر نحتفي بها من أجل أن نتحمل ثقل الزمن..الزيارات العائلية.. المآدب المفتعلة وغير والمفتعلة..افتعال أية مناسبة لفرح عابر..كنت أحس بالتفاهات والتكرار حولي مثل رمال متحركة تسحبك إلى الأسفل..إلى القاع..دون أن تقوى على أن تنقذ نفسك..!.

كانت أفكاري الشخصية عن الحياة قد تغيّرت..لاسيما بعد هجرة حبيبي آدم أبو الهيل..نعم..تغيرت..نحن نتغير دون أن ننتبه إلى أننا نتغير.. حتى أحاسيسنا ومشاعرنا وذائقتنا تتغير..وحتى أخلاقنا الصارمة ومبادؤنا

تتعرض للرخاوة والضعف..بل حتى حبنا لأنواع الطعام يتغير..فأنا كنت أكره البامية في طفولتي ومراهقتي..صرت أحبها جدًا حينما تزوجت..وكذا مع الباذنجان..!

حتى حبي لحبيبي آدم أبو الهيل تعرّض للتغيير..لم أنسه..أو أكُف عن حبه..وإنما هذا الحب تعرّض كما الجبال لعوامل التعرية.. فتآكل بعضه.. لكني بقيت أمنح نفسي لقب العاشقة الوفية..لكنه في الحقيقة وفاء مزيف.. هو تكلّف أخلاقي أكثر مما هو وفاء..أنانية في أن أمنح نفسي خصوصية أكثر مما هي مشاعر حقيقية ..!..

علاقتي بأبي صارت غريبة..فبرغم تعلقنا ببعضنا..وبرغم أننا نتواجد بالقرب من بعضنا غالب الأوقات، حيث أكاد أعيش في المكتبة..حتى تناولي للطعام فيها..إلا أننا صرنا لا نتبادل سوى تحية النهار..كنّا نعرف ما يدور من كلام صامت في ذهن كلّ منا..كنا نتحاور بصمت..ونتعاتب بصمت..ونعبر عن استيائنا بصمت.. الصمت لغة مرعبة..!.

***

بعد سنتين تعرض أبي لجلطة دماغية..مفاجئة..شلته عن الحركة تقريبًا.. وأثّرت على قدرته في الكلام..وظلّ حبيس غرفته..!.. وذات يوم جاءنا عمي..طلب أن يحدثني أمام أمي..وفاتحني بأن هناك شخصًا يعرفه..يريد الزواج مني..!..صحيح أن الرجل يكبرني بثلاثة عشر عامًا إلا أنه مُقتدر ومهذب ووسيم الطلعة..ويحتل موقعًا ممتازًا في إحدى الوزارات..والأهم من كل هذا فهو متدين ولا يفّوت فرضًا دون أن يؤديه في وقته حتى لو كان لديه اجتماع مهم..!..وهو ينتظر رأيي..وحينما سألته عن موقف أبي..قال

لي لا تهتمي سأكون وكيلك شرعًا..فهو أخي..وهو مريض..وعاجز.. ويفتقد إلى التركيز..! وأيدّته أمي..أتذكر بوضوح أن مشاعري لحظتها كانت متداخلة ومعقّدة..كنت قد مللت روتين حياتي..كانت حياتي مملة..مللت حتى من الملل نفسه..!

كنت أحس بأن حياتي المهملة..والمملة مثل شجرة تغطي جذعها الطحالب التي تسلقت إليها على غفلة..وتحيطها الأعشاب الطفيلية..و فجأة أحسست أن حب أبي واهتمامه بي وتفضيله لي عن بقية أخوتي كان اضطهادًا لي..إذ اكتشفت أنني لم أعش طفولتي..ولا مراهقتي..وحتى مشاعر الحب التي تبرعمت في روحي نحو إنسان نبيل أحببته فقد جزّها بمنجل حبه الأناني لي..!.

كنت أعيش مللًا خانقًا..أريد أن أغيّر حياتي ولا أعرف كيف..!!؟ وبلامبالاة ويأس أبديت اقتناعي بفكرة الزواج على أن أقابل ذلك الشخص الذي سأتزوجه..وهكذا جرى الأمر..التقيته في مطعم مع عمي وأمي!.. ولا أخفي أنه كان رجلًا وسيمًا..مهذبًا إلى حد التحفظ..رقيقًا..لا يتحدث بصوت عال..وأعلنت فيما بعد عن موافقتي الزواج منه..وتم ذلك..!

كان أبي لا يفقه ما يدور حوله..وقد حاولوا أن يخفوا الأمر عنه لكنني رفضت..وقلت لهم بدون معرفته لن أتزوج..صحيح أنني لم أشترط موافقته، لكنني أوضحت بما لا يقبل التأويل بأنه يجب أن يعرف.. واحتاروا..من تُرى سيتجرأ على مفاتحته بزواجي..وأن كل ذلك جرى من ورائه..فأقترح عمي بأن نسجل العقد رسميًا حتى لا نتعرض لاعتراضات يمكن أن تلغي الزواج..فقلت لهم أنا من سيخبره..!..

وفعلًا ذهبت إلى غرفته التي وضعوا له سريرًا فيها ليستريح عليه هناك.. وبهدوء اقتربت منه..نظر إليّ وكأنه خمّن أنني أريد أن أقول له شيئًا..نظر إليّ دون أن يسألني..كانت نظراته هي التي تسأل..وأخبرته بكلام هادئ..بأن هناك من تقدم طالبًا يدي..وأنه إنسان مهذب جدًا..ووسيم..ويحتل منصبًا ممتازًا في إحدى الوزارات..وقد قابلته..وأعجبني..وأنني وافقت على الزواج منه..كان وجهه مليئًا بالترقّب..وكان وكأنه ينظر إلى شفتي ليفهم ما أقول..وحينما توقفت عن الكلام رأيت عينيه مليئتين بالدموع..لم أتمالك نفسي فألقيت برأسي على صدره...لم يقل شيئًا سوى أنه مسّد شعري بكفه.. فعرفت أنه استسلم لرغبتي رغما عنه..وربما وجد في موافقتي الزواج خيانة له..! لا أعرف..!.

امتلأ البيت بالضجيج..وبالحركة..والاستعدادات للزواج..وكانت أمي وأختي وعمي فرحين جدًا..بينما أنا العروسة كنت لا أبدي أي اهتمام استثنائي..فحتى حينما كانوا يأتون لي بالأقمشة أو صور الأثاث فأني كنت أرى بكل برود ولامبالاة..وكانوا يستاؤون مني.. وأتعرض حينها لتهكمات أختي وسخريتها وإلى تأنيب أمي..كنت منطوية على ذاتي..أفكر أكثر مما أحس..أعي أنوثتي لكني لا أشعر بها..كنت على يقين من أني امرأة باردة.. فلم أشعر بجسدي يضج بالرغبات..سوى مشاهد ما جرى مع الأرملة وابنها!.

وتزوجت..

***

في غرفتنا في الفندق قبل أن ننتقل إلى الشقة التي يملكها زوجي واجهت أولى صدماتي..لم يكن زوجي خجولًا..كان كمّن يؤدي مهمة إدارية..لبس دشداشته البيضاء..توضأ وصلى ركعتين..! كنت بدوري قد لبست ثوبًا شفيفًا ليغطي عريي الكامل تحته..لم يخلع ثوبه إلا بعد أن أطفأ الضوء.. لم يداعبني ولم يقبلني..وإنما كشف عن منطقتي السفلى رافعًا ثوبي إلى صدري..وانهمك هو هناك..كنت أراقب ما يحدث لي وكأني لست أنا.. أستحضر في ذهني ما قرأته وما شاهدته من صور وأفلام فيديو..كنت متشنجة..فلم أنتظر أن يكون ذلك في الظلام..ولم أكن أنتظر أن يتم التعامل مع جسدي بهذه الطريقة..! كنت أحس بعضوه يداعبني..لكنه لم يستطع أن يجعلني امرأة..! استلقى إلى جنبي وقال إنه تعبان الليلة..!..

وبقينا في الفندق..كنت على يقين بأن ثمة شيئًا غير طبيعي في زوجي.. لكني لم أفاتحه بذلك قط..ولم أشر إلى محاولاته الليلية الفاشلة..ولم أُبدِ أي امتعاض أو إشارة لما يجرى معي لأهلي عند زيارتهم لنا في الفندق أو عندما نذهب للمطاعم الليلية.. وفي كل الأحوال والأماكن كان مهذبًا في تعامله معي..ويتصرف باحترام.. لكن بثقة غريبة دونما أي شعور بانكسار رجولي من عجزه الجنسي وعدم تمكنه من إزالة غشاء بكارتي..!.

وفي الليلة الرابعة دخل إلى الحمام قبل أن يأتي إلى السرير..تأخر هناك ما يقارب نصف الساعة..ثم خرج حاملًا قنينة من دهان سائل نوعا ما.. أطفأ الضوء كالعادة..وسحبني إلى أطراف السرير.. مسح فرجي بالزيت.. وأخترقني بدون أية مقدمات..ولم تمض سوى أقل من دقيقة حينما قذف بي

وهو يلهث..! ..وكان بالقرب مني منديل أبيض..أخذته لألوثه بالدم الذي انساب مني قليلًا وأقدم دليل طهري وبراءتي..!

بعد ذلك انتقلنا إلى الشقة..كان فيها غرفة كبيرة مخصصة للكتب.. فرحت بأن تكون لدينا مكتبة في البيت..لكن فرحتي انطفأت حينما أخذت أستطلع العناوين والمجلدات الجلدية الأنيقة..فقد كانت مجلدات ضخمة في التراث..ويا ليتها كانت كتبًا تراثية أدبية، إنما كلها كانت كتبًا في الفقه وأحكام الجنابة..وتاريخ ابن كثير وتفسير الطبري..! .

والغريب أنه في الأسبوع الأول اقترب مني مرتين..وفي كلتا المرتين كان بالكاد يحقق مراده وبأقل من دقيقة ينتهي..وفي الأسبوع الثاني اقترب مرة وبعد أسبوعين مرة أخرى..وهكذا..لكن الأغرب من كل هذا أنني وبعد شهرين عرفت أنني حامل..!..واستبشرت العائلة..!..إلا هو فقد قال بأن الوقت مبكر على مجيء الأطفال..!

حين زرت أبي بعد أسبوعين من زواجي..كان في وضع دمرني وأثار شفقتي..كان حزينًا باستسلام وسلام..حزن يجبرك أن تحترمه..وتتقبله أيضاً..لكني لم أشأ أن أرى أبي في هذه الحالة..!..وانتبهت إلى الإهمال الذي يعانيه من والدتي التي كانت مشغولة بنفسها وبحميّتها وتخفيفها للوزن..وما شابه..! ..وأخذت ألومها على إهمالها لأبي فتشاجرت معي.. وأخذ تتشكى من سوء طباعه وعناده..!..

حين عدت إلى شقتي..فاتحت زوجي الذي نادرًا ما أتحدث معه بأني أود أن آتي بوالدي إلينا كي أهتم به..وليتني لم أقل ذلك.. فقد انقلب هذا الشخص المهذب والمتدين والهادئ إلى شخص عدواني شرس.. واكتشفت أن كل

شيء في زوجي مزيف..هدوءه مزيف..احترامه لي وللآخرين مزيف..فهو في أعماقه يحتقر الجميع..تديّنه مزيف..لأنه جزء من التزامات وظيفته من أجل الحفاظ على منصبه..معارفه مزيفة وغير أصيلة..حتى المكتبة بكل كتبها هي زيف في زيف لأنه كان يبغي من وراء ذلك أن يقال إنه متبحّر في العلم والفقه والتاريخ..!..حتى حضوره الشخصي الذي انتبهت له في لقائنا الأول اتضح لي أنه لم يكن حضورًا وإنما هي مشاعري المتهيبة من اللقاء قد أضفت عليه هذه الصفة..فهو من هؤلاء الأشخاص الذين تشعر بحضورهم عندما يتواجدون لكنهم ما أن يديروا ظهورهم حتى يسقطوا في الغياب والنسيان وكأنك لم تلتقِهم قط..!.

صار بيني وبين زوجي ما يشبه القطيعة..ما أن علم بحملي حتى طلب من باب الحفاظ عليّ أن أنام في غرفة أخرى..ولم يقترب مني طوال الأشهر التي تلت إعلان حملي وإلى ما بعد ولادتي لابنتي لأكثر من ثمانية أشهر ..!..

لا أكشف سرًا إذا ما قلت بأني لم أحس، برغم مرور ما يقارب السنتين على زواجي، بأية متعة في حياتي الجنسية ..! وحينما أفكر في نفسي وجسدي..فأني لا أستحضر شيئًا سوى المشهدين اللذين عشتهما في بيت الأرملة وابنها الأعمى..وربما ما يثير غرابتي أنني صرت استمتع باستحضارهما..!!.

***

وذات نهار، بعد عام من ولادة ابنتي، اتصلت أمي وهي تصرخ ..وقالت كلمتها المرعبة: أبوك مات يا حواء ..!..لا أعرف كيف أصف مشاعري في

تلك اللحظة..لا لم تكن لدي مشاعر..أحسست وكأنني أُلقيت في الفراغ.. ثمة ما يشبه الأزيز في أذني..وكأنني خارج الزمان والمكان..لا مشاعر و أحاسيس..ولا وعي بالأشياء..تلاشى كل شيء..ولم يمتد الأمر سوى لدقائق معدودة.. أحسست بعدها كمّن كان تحت الماء مختنقاً وأتيح له أن يخرج رأسه من الماء ليتنفس..!

بعد موت أبي شعرت باليُتم الحقيقي..عدت لتلك الطفلة التي وجود والدها في حياتها كان تجسيدًا للأمان والاطمئنان..لكنه الآن غير موجود.. لا شيء سوى مشاعري وحنيني وذكرياتي!..وراودني شعور بتأنيب الضمير لأني تزوجت وتركته وحده في مكتبته يعاني من جفاء الزوجة وعقوق الأبناء..!

حياتي انزلقت متدحرجة في الفوضى بعد موت أبي..صار القلق يداهمني..لا أستطيع النوم..ولست يقظة..أعرف أنني في حالة نوم..لكنني أعرف أنني لست نائمة..!.. وصرت أنتظر..لكن ماذا أنتظر؟ أنا شخصيًا لا أعرف ماذا انتظر..لكني أدرك بأنني أنتظر حدثًا ما..نهاية ما تقترب.. والمشاعر التي تصاحب الانتظار ثقيلة..فلا هي بالخسائر المحزنة..ولا بالانتصارات..موقف الانتظار ثقيل جدًا..فهو موقف لا قرار فيه..!.

وزاد من تعقيد الوضع أن زوجي أخذ يهينني، ليس طبعًا بالكلام الجارح المهين وإنما من خلال الإهمال..فقد ألغاني من الوجود أنا وابنتي وكأننا غير موجودتين أبدًا..ثم صار يتغيب عن البيت..وأحيانًا ينام خارج الشقة..وإذا ما جاء فهو يدخل غرفة المكتبة أو يحضر ألعاب كرة القدم في التلفزيون.. كنا كالغرباء..نزلاء في فندق من ثلاثة أشخاص..!..

واستمر الوضع على هذا التوتر لسنة كاملة..أحيانا كان الشهر يمر ونحن لم نتبادل كلمة واحدة..فحتى تحية الصباح لم تتح لنا أن نلقيها على بعضنا.. وكنت صموتة لا أشكي حالي لأحد..لا لأمي ولا لأختي..! ولم يكن خلاصي سوى في القراءة..ربما أنني لم أذكر هنا بأني منذ اقتراب ولادتي أخذت إجازة وظيفية طويلة من عملي..وهذا ما وفّر لي الوقت للقراءة.. وللاهتمام بطفلتي..!.

قرأت معظم روائع الأدب الروسي والفرنسي والإنكليزي وآداب العالم الأخرى.. وتوغلت في عالم التحليل النفسي والتصوف.. قرأت الروايات النسوية..وحين قرأت رواية „ عشيق الليدي شاترلي" د. اتش.لورنس ذهلت لوصفه مشاعر البطلة حينما كانت هي وعشيقها حارس الغابة في كوخه عاريين..وكيف مسكت بقضيه وتغنت به وكأنه أكتشاف خاص بها.. حينها تذكرت نفسي حينما مسكت قضيب الأعمى ابن الأرملة..وكنت كلما أتوغل في عالم النفس البشرية أشعر وكأنني أتغير..وأن الجدران الجليدية لجسدي تأخذ بالتشقق..وصرت أنام قلقة..لا لم أكن أستطيع النوم..أعرف أنني لست نائمة..لكني أيضًا لست يقظة..!.

راودتني أحلام بالكتابة..أنا أصير كاتبة..وتلبستني هذه الفكرة..لكني خفت منها..بيد أن هذه الفكرة ساعدتني في أن أمسك حياتي بيدي.. وأعيد صياغتها بنفسي..بدءًا من علاقتي بزوجي..فاتصلت بعمي وأمي وطلبتهما للحضور..وجاءاني إلى بيتي.. وأخبرتهما بأنني أريد الطلاق.. صُدما..شرحت لهما طبيعة حياتي..وأن زوجي لم يقترب مني منذ أشهر، بل نحن في الحقيقة لا نتكلم مع بعضنا..غضبا من تصرفات زوجي طبعًا..

وعاتباني لأني لم أخبرهما منذ البداية..لكنهما اتفقا ضدي ووقفا ضد فكرة الطلاق.. كنت أريد الطلاق بأية طريقة..ولم يكن أمامي سوى أن أمسك الحجة الأساس وهي أنه لايقوم بواجباته الزوجية معي!! ووعدني عمي بأنه سيصلح الأمر ويجد له حلاً..ولم يكن الحل عنده سوى أن يستدعي زوجي..ويلتقيه..ويفاتحه صراحة بحاجتي للجنس..!!.. ولم يشأ زوجي أن يطلقني..أرعبته فكرة الطلاق..!

مباشرة..وبعد لقائه مع عمي جاء إلى الشقة عند الظهيرة..دعاني إلى غرفته..سألني إن كانت الطفلة نائمة..فأجبته بأني حممتها وأرضعتها..وهي نائمة..فطلب مني إغلاق الباب..ثم أطفأ النور..بعد ذلك فتح جاورًا في الطاولة الصغيرة المجاورة لسريره..ولا أعرف ماذا أخذ منها..ربما حبوب الفياغرا..لا أعرف..اتجه إلى غرفة الحمام الملحقة بغرفة النوم الواسعة التي غادرتها منذ حملي.. لكنه قبل أن يختفي فيها التفت إليّ وقال: حضّري حالك..!.

ولم يتغير أي شيء..كل شيء تم في الظلام..وبسرعة مقيتة..!.

حينما انتهى مني بعد دقيقة من الإيلاج..وابتعد عني وكأنه منحني بركاته وعطاياه المقدسة شعرت برغبة في التقيؤ..شعرت بالذل.. والاحتقار لنفسي..!..وراودني إحساس بان الرجال كلهم ليسوا سوى حيوانات سافلة..مكابرة بغباء..ونتنة..مهما تعطرت وتأنّقت ..!.. إنهم مخلوقات مغفلة..الشرفاء منهم ضعفاء..عاجزين..والأقوياء أنذال لا أكثر..!.

***

من يصدّق أن تلك اللحظة القصيرة ستضيء رحمي ثانية..!

بعد أسابيع أدركت أنني حامل ثانية..وطبعًا لم يكن هناك تواصل جديد.. وجاء حملي إنقاذًا له ولإلتزاماته الشرعية..ودليلاً على تواصله الزوجي معي..!..وبعد أشهر ولدت ابنتي الثانية..وبدأت رحلتي معها.. وعدت إلى عزلتي وانفصالي الزوجي الصامت..!.

من خلال تجربتي أدركت أن الحقد يمكن أن يُنثر كبذور ناعمة أو مثل طلع مجهول تحمل الريح من أماكن غامضة..لذا أحيانًا لا يجد الظروف الملائمة فتجف تلك البذور في مهدها وتندثر..وأحيانا تتهيأ لها الظروف المواتية فتزدهر عن شجرة للحقد والإنتقام..!..وهكذا حملت لنا الأيام بذور الحقد..ووجد التربة المناسبة..!..وقد أثمرت شجرة الحقد حينما رأيت ما كشف لغز سر تعامل زوجي بهذا الطريقة الغريبة..!

فقد كنت مع ابنتي في زيارة لأمي التي تدهورت صحتها جدًا بعد موت أبي..وكنت قد أبلغت زوجي بأني سأبيت الليل هناك..لكن حدث أن جاءت أختي مع أطفالها..وجاء أحد أخوتي مع زوجته لزيارة أمي أيضا..وقرروا المبيت لذا آثرت العودة لمنزلي..وحينها أوصلني أخي إلى شقتي..لم يمكث عندي سوى دقائق قرب الباب وغادرني راجعًا إلى بيت العائلة..

وضعت ابنتي في غرفتهما..ولكني سمعت همهمة وهمسًا ولهاثًا شبقًا يأتي من غرفة المكتبة..خفت قليلاً..فأنا أحيانًا أحس بأن الغرف تسكنها الأشباح..اقتربت بخطى هادئة..مشيت على أطراف أصابعي..كاتمة أي صوت يصدر مني..ووضعت أذني عند الباب اتنصّت.. فسمعت صوت زوجي يقول وهو يلهث: خلصني..تعبت..ريحني..وسمعت صوت رجل أكثر فتوة من زوجي..كان الآخر يذله ويهينه بالكلام ويعامله كعاهرة..

كمنيوك..!.. لحظتها تكشف المشهد أمامي..لم أتحمل..وإنما فتحت الباب على مصراعية..قفزا مرعوبين.. ولم يعرفا كيف يلملما ملابسهما..!.. لم أستطع تحمل المشهد..فخرجت..تكشفت الأمور أمامي وكأنني أزحت الستارة عن النافذة..!.

سمعت باب الشقة وهو يطبق..لم تمض إلا دقائق حتى كان في غرفتي.. لم يقل شيئًا..ولم يبرر فعلته.. وإنما قال لي بهدوء..بهدوء شديد:

- ما تأمرين به أنا موافق عليه..مهما كان الطلب..فقط أغلقي فمك ولا تبوحي بما شاهدت..أنا هكذا منذ طفولتي..!

ووجدت في نفسي الشجاعة في مواجهته فقلت بنبرة مشحونة بغضب مكتوم:

- لماذا تزوجتني إذن..؟

- لأنني ظننت سأتخلص من هذا الأمر عند الزواج..ولأني أردت أن أستر على نفسي من القيل والقال الذي يُثار حولي..!

- ماذا..هل هناك من يعرف..بأنك..بأنك..بأنك شاذ..!!؟

لم يجبني مباشرة..صمت للحظات..ثم قال بإنكسار:

- البعض يعرف..ممن يفعلون بي..

ووجدت نفسي أقول له وكأنني أنطق حُكمًا..

- طلقني..

- حسنًا..لك ما تريدين..

- الآن..طلقني..أرم عليّ يمين الطلاق بالثلاث..حالاً..

صمت قليلاً..ثم رفع رأسه إليّ وقال:

- يا حواء الكتبي..أنت طالق بالثلاث..طالق..طالق..طالق.. وغدًا يصلك كتابك من المحكمة..

قال ذلك وخرج..!

لم يعُد تلك الليلة إلى المنزل..كنت أحس بمشاعر متناقضة..من جهة كنت أحس بالذل والخسران والخديعة..ومن جهة أخرى كنت أحس بأنني تحررت من كابوس مقيت..لكن الآن مطلقة مع طفلتين..!..وصدق وعده..فقبل أن ينتصف النهار جاءني وبيده ظرف داخله ورقة الطلاق كاملة ومختومة ومصدّقة..!..هكذا إذن..حياتي كلها كانت ورقة بيده!.

لملمّت أشيائي..وملابس طفلتيّ..واتصلت بأحد أخوتي..فجاءني وأخذني مع حقائبي وطفلتيّ إلى بيت العائلة..!.

***

لم أخبر أي من أفراد العائلة بما رأيته..وهذا الصمت عن كشف الأسرار صار يُستخدم ضدي حيث أخذت أسمع التهكّمات بأني لم أعرف كيف أحافظ على بيتي وعلى زوجي..!..لم يفكر أحد منهم بي وبحالتي النفسية، بل كل ما كان يضايقهم هو ما سيقوله الناس عن طلاقي..!

وبدأت معاناتي مع حريتي..التي ابتدأت مع طلاقي..وعدّت إلى عملي بعد وساطات تدخّل فيها عمي وأخوتي..لكن الأمر لم يكن سهلاً..فالرجال ينظرون إلى المطلقة كفاكهة للخطيئة..أفعى للغواية..مشروعًا لمغامرة جنسية عابرة..وعشيقة شبه مضمونة..!.

وكنت أحس ذلك في كل نظرة من الزملاء في العمل..من مديري.. ومدير قسمي..وحتى الرجال الذين يعملون في درجات تحدّ من أحلامهم وطموحاتهم كالمراسلين وسُعاة البريد والمنظفين..فقد كانوا ينظرون لي برغبية واضحة..رغبة تدركها الأنثى ولو من خلال ألف حجاب..!...

وكثيرا ما كنت أرى ابتساماتهم حين يُصادف أن أمرّ من أمامهم..أرى ابتسامات لا معنى لها..لا يعرف سرها ومعناها ومنبعها سوى الذي ترتسم على شفتيه..ابتسامات غامضة..مريبة..!.

4

جحيم المُطلّقة

ومرت سنتان على طلاقي..لم تكن هناك أية مشاكل مع طليقي..لم يضايقني في حضانة البنتين..ولم يلح على رؤيتهن كثيرًا..بل خصص لهن شخصيًا مبلغًا جيدًا..ثم فجأة قرر السفر والهجرة..مغادرًا البلاد إلى بلد أوروبي حيث حوّل الكثير من أمواله إلى هناك..وطلب رؤيتي..!

جاءني مساءً إلى حيث أهلي..كل يحمل حقيبة جلدية سوداء معه.. وانتبهت إلى أنه يحيط مقبض الحقيبة بمنديل أبيض..لم يصافحني..وجلس بعيدًا على المقعد المقابل لي الذي يبعد لأكثر من مترين بيننا..جلس بهدوء.. واضعًا المنديل في جيبه..!

بعد مراسيم التحية التقليدية توجه إلى أمي بالرجاء لأنه يود أن يحدثني على انفراد..ترددت أمي في أن تغادر الصالون وتتركنا وحدنا..لكني طلبت منها أن تتركنا على انفراد..وبعد انصراف والدتي إلى غرفتها..قال لي بتهذيب شديد:

– أنا شاكر لك احترامك لكلمتك..والتزامك بها..وأنت تعرفين ما أقصد..وأنا على ثقة بأنك إنسانة رائعة..لكني لا أستحقك..لأنني كما تعلمين لست سويًا..وأنا جئت إليك لأودعك..وأودع الطفلتين لأني مسافر..ربما لا أعود إلى هذه البلاد..إذا ما بقيت فربما سأسيئ إلى مستقبل

ابنتيّ..وأنت تعرفين ما أقصد..أنا لن أستطيع أن ألتزم بتحويل مبلغ الطفلتين الشهري..لذا حملت معي مبلغا لا بأس به..مائتي ألف دولار..ولك أيضًا حملت مبلغ قدره مائتي ألف دولار، كما سجّلت في دائرة العقارات الشقة باسمك.. وبهذا أكون مرتاح البال على مستقبلك ومستقبل الطفلتين..!..في هذه الحقيبة الجلدية ستجدين أربعمائة ألف دولار.. وورقة تمليك الشقة.. كما ستجدين وصية بتركي كل ما أملك لك وللطفلتين إذا ما تعرضت لأي قدر لا سمح الله..ومرة أخرى أعتذر عن كل ما سببته لك من معاناة نفسية.. لا تعتقدي أنني لا أعاني مما أنا فيه..لكني لم أستطيع التوقف عنه..أشكرك مرة أخرى..من كل قلبي.

فوجئت بهذا البوح..وكل هذا الكلام المشحون بالمشاعر الشفيفة والنوايا الطيبة..والكرم النبيل..فقد عشت معه سنوات من الصمت..كان صموتا دائمًا..متزنًا..متماسكًا..بينما الآن انطلق بحديث سلسل إنساني.. هيمنت الحيرة على ذهني..لم أكُن أعرف ماذا أقول وكيف أرد على كل هذا الكلام الطيب والكرم الأبوي والزوجي..لكني وجدت نفسي أسأله:

- إلى أين ستسافر..؟

- لا أعرف..ربما إلى ألمانيا..أو النمسا..أحتاج إلى أن أعالج نفسي.. وروحي.. وجسدي..وهناك لا يعرفني أحد..!

- ومتى تسافر..!؟

- فجرًا..بعد ساعات..

- هل أستطيع أن أقدم لك شيئًا..قلت بعفوية وتعاطف صادق.

- لا..جئت لأودعك..

- هل تريد أن ترى البنتين..

- نعم..

ونهضت إلى غرفتي..إبنتي الكبيرة كان بإمكانها المشي...وحملت الصغيرة على ذراعي..وقبل أن أسلمه الصغيرة كي يحملها مد كفه بالإشارة أن أتوقف وقال بخجل:

- لا أريد أن ألمسهما..ابقيهما بعيدتين..

فوجئت..نظر إلي والمعاناة تتقد في عينيه وقال خجلًا:

- أنا مريض.. ولا أعرف إن كان لمسي سيعديهما..

ارتعبت..لم أعرف بالضبط ما يقصد..وبأي مرض مصاب هو..لكنني خفت على ابنتي..فقلت لا إراديًا:

- في هذه الحالة من الأفضل أن لا تلمسهما..

وشعرت بالندم بعد أن نطقت هذه الجملة..كانت جملة قاسية..قاسية جدًا. فما كان منه إلا أن نهض مغادرًا..وعند الباب التفت إليّ وقال:

- شكرًا لك..أعتذر عن كل تصرفاتي معك..!

ما أن أطبق الباب حتى اتضحت لي الأمور بشكل أفضل..وفهمت لماذا كان يحيط مقبض الحقيبة بمنديل أخذه معه..وذلك كي لا يمس مقبض الحقيبة..وفجأة أدركت المرض الذي يعنيه..إنه الإيدز..!! وشعرت بالرعب..أكان مريضًا حينما كان معي..!!؟ لا..لا.مضت سنتان على طلاقي

منه..وهو الآن كما يبدو في صحة جيدة..هذا يعني أنه أصيب مؤخرًا..لكني برغم ذلك بقيت مرعوبة..!

أخذت ابنتي إلى غرفتي..وجئت بمنديل حملت فيه الحقيبة ووضعتها في خزانة بغرفتي..وقررت مع نفسي بأن أجري فحصًا للدم في المستشفى.. لكني كنت أخاف من الأقاويل..ففحص الدم للتأكد من فايروس نقص المناعة يستغرق وقتًا..كما أن أي تسرب عن قيامي بهذا الفحص سيدمرني اجتماعيًا..لذا قررت أن آخذ إجازة للسفر إلى بلد عربي كي أجرى الفحوصات هناك..وهذا ما قمت به..!

لم أخبر أمي عن مضمون حواري مع طليقي..ولا عن المبالغ التي تركها لنا ولا عن تسجيل الشقة..وقررت أن أقوم بذلك بعد إجراء الفحوصات..!

***

في مركز طبي لأمراض النساء وتلقيح الأجنة وفحوصات الدم في بلد عربي أجريت فحصًا للدم لغرض معرفة خلوّي من مرض نقص المناعة..!.. وعملية الفحص بحد ذاتها تستغرق وقتًا..وهناك في المركز الطبي التقيت بامرأة كانت متلهفة لتقليح بويضتها..ولا أعرف ما الذي جذبنا لبعضنا.. كانت تبدو وكأنها أجنبية..جميلة..ظننتها روسية أول الأمر..لكني سمعتها تتحدث مع إحدى الممرضات بالعربية الأصيلة..وكانت هي تنتظر إيضًا.. ودفعتنا حاجتنا النفسية للهرب من ثقل الانتظار إلى أن نتبادل الحديث الذي يتطور إلى معرفة عميقة بيننا..ارتحت لها ..حدثتها عن نفسي..لكني لم أقل لها إنني جئت لفحص دمي للتأكد من عدم إصابتي بمرض نقص المناعة..

وإنما أخبرتها بأني تعرضت لنزف على الرغم من أني مطلقة..كان اسمها حواء الجدي..!

بقيت ما يقارب الشهر في تلك العاصمة العربية.. إلى أن جاءت البشارة من الطبيب المختص بأن دمي سليم جدًا..ولا أثر لفايروس نقص المناعة بتاتًا.

***

في بهو الفندق الذي كنت أعيش فيه التقيت امرأة فتية..أمًا لطفلتين أيضًا..ذكرّتني بنفسي..كانت قادمة من مدينة بعيدة نوعًا ما..لتلتحق بزوجها في امستردام..انتبهت هي لي وأنا أنظر لطفلتيها برقّة وهما تلعبان هناك.. فسألتني ببساطة إن كان لديّ أطفال..هي أول الأمر ظنتني أنني عاقر..وأحلم بالحصول على أطفال..فلم تتوقع أنني أم لكني سافرت بدون طفلتيّ..هكذا أخبرتني بعد أن تعارفنا..!

لم أكن أعرف أنني بتعرفي على تلك المرأة التي اسمها حواء المعلم.. فتحت بوابة من بوابات الجحيم..!.. لقد لازمت هذه المرأة يومين كاملين إلى أن سافرت راجعة لبلادي..بعد سنوات كتبت عنها روايتي الأولى..التي سألحقها هنا أيضًا..حكايتها حكاية العمى البشري..والمصائر الغامضة والأقدار المرعبة للبشر..وفيها رأيت بعض مرايا نفسي..!..عن حواء المعلم وأخواتها كتبت أول رواية لي والتي اسميتها „ متاهة العميان».

***

من الفندق اتصلت بأمي وأخوتي فَرِحة ومستبشرة..وطلبت منهم أن يستقبلوني في المطار..حملت ما استطعته من الهدايا.. للجميع..لم أنس أحدًا منهم صغارًا وكبارًا.. كنت فَرِحة بأنني لست مصابة بذلك المرض القاتل..المرض الفضيحة..!..ولأول مرة فرحت بما تركه لي من مبالغ وشقة..ووصية.

بعد أيام أخبرت أمي بما تركه طليقي لي ولطفلتي..بما في ذلك الشقة..!..وطلبت مني إيداع المبلغ في البنك قبل أن يعرف به أخوتي فيبدأون بالشكوى والطلب..برغم أن وضعنا المالي جيد جدًا ..!..وفعلًا قمت بذلك..!

وحين عرف عمي برحيل طليقي.. ثم عرف بتسجيله الشقة باسمي حتى أخذ يحوم حولي لكي أتزوج من جديد..!..وظل يلّح على أمي..وأخوتي.. وقام بطريقة خبيثة بزيارتنا مع ابن أخته..أي ابن خالتي..ويبدو أن ثمة اتفاقًا كان بينهما للإيقاع بي..فقد أخذ ابن خالتي يصطنع المواقف ليكون في دائرتي..أو يدعونا مع عمي وأمي ..وهكذا..!

ابن خالتي رجل وسيم جدًا..يفيض رجولة..جريء..فبعد شهر من التواصل واللقاء العائلية..جاءني في يوم من الأيام عند نهاية الدوام..ودعاني إلى مطعم فاخر..وحاولت الاعتذار..فأكد لي بأنه أخبر أمي بأنه سيدعوني إلى الغداء..وأسقط في يدي..وعلى مائدة الطعام كاشفني بحبه..!

غريبة هي النفس البشرية..والأغرب هي نفسية المرأة..فأنا المرأة المثقّفة العقلانية..الباردة..صرت مثل المراهقة..تذكرت حياتي الجامعية وحبي المجهض..وأخذت من خلال بوح ابن خالتي الذي كان يعبق بالجنس

أحس بدبيب الرغبة في نفسي وجسدي..ولم يمض شهر آخر بعد بوحه لي بحبه حتى وجدتني أوافق على الزواج به..!!

ومع ابن خالتي..زوجي الجديد أحسست أنني صرت امرأة حقيقية.. فقد كان عنيفًا في الجنس..ووجدتني أعشق ذلك..وكان يحب الممارسة من الخلف فكنت أستعيد كل أحلامي الجنسية..بل لأول مرة أشعر بالذروة معه.. وكان إباحيًا بشكل فاسق..فكان يطلب مني أن أمص قضيبه..وصرت أتفنن في ذلك..وأخذ يشتمني أثناء الممارسة وينعتني بالقحبة والعاهرة.. ويطلب مني أن أعترف له بذلك...فوجدتني استمتع بذل نفسي له..وأردد طواعية بأني قحبته..وعبدته..وخادمته..وأسيرته..وما أعرف من سلسلة التوصيفات المذلّة.!..

إلى أن جاء ذات يوم مكفهرًا حزينًا..ليعلن نهايته..واحتمال دخوله السجن..لأنه كان قد بدأ مشروعًا لتحسين وضعه..ولم يخبرني به..فقد أراد أن يُفاجأني بنجاحه..لكن الأمور سارت بطرق أخرى..!..وأنه اقترض من البنك مبلغًا كبيرًا وكتب سندات رسمية.. مؤرّخة..وأنه الآن قد أفلس.. وحينما سألته عن المبلغ فوجئت بذلك..فقد كان قد اقترض ثلثمائة ألف دولار..!!..كنت مصدومة ..هل أصمت عما لدي من مال..ولا أعتقد انه غافل عنه..أم أتركه يدخل السجن..بينما صرت لا أستطيع ان أتخيل نفسي بدون توغله العنيف في جسدي..!!..وفي تلك الليلة..قلت له بأني سأدفع له المبلغ..وفي تلك اللحظة أبدى اعتراضه ورفضه..لكني أخذت أتوسله بأن يقبل ذلك مني..ووافق..على أن أحوّل المبلغ على حسابه كي لا يبدو أمام

الناس بأنه يتصرف بمال زوجته..!! ووافقت..وليلتها ضاجعني بطريقة لم أعرفها حتى في خيالي..!..

ومضت الأشهر..ولم تمض سنة حتى أخذ يبدي حاجته لأموال أخرى.. وانتبهت لنفسي..أنني صرت عبدة له حقًا..لا..صرت عبدة لقضيبه..صرت مهووسة بالجنس..!..ويبدو أنه أدرك جوعي الجنسي..وهكذا لعب لعبته.. فسحب مني كل ما أملك..بل ودفعني لبيع الشقة..!..ولم تمض سنة أخرى حتى صرت مُفلسة..وحينها كشف عن وجهه الحقيقي..فهجرني..لم يعد يقترب مني..وصار يأتي البيت سكرانًا.. وبعض الليالي يأتي مُتعبًا بحيث لا يستطيع أن يقترب مني..وذات مرة تفجرت رغبتي..فأخذت أقترب منه وهو مستلق على السرير وأخذت أخفض رأسي إلى أسفله كي أقوم بما أقوم به عادة..فوجدته يغضب.. ويدفعني عنه وعن السرير فوقعت على الأرض.. وحينما غضبت وواجهته ضربني..صفعني عدة صفعات..وأنا بين الذهول والشلل في التفكير..وأخذ يشتمني ويصفني بكلمات العهر والفجور..صحيح أنني كنت أتلفظ تلك الكلمات طواعية وبشبق وبمحبة أثناء علاقتنا..لكني الآن شعرت بمدى الذل والإهانة وأنا أسمعها منه.. وطلبت منه أن يطلقني..فلم يتردد للحظة..وأطلق عليّ يمين الطلاق..بل وطلب مني مغادرة البيت..فورًا..!!؟؟

***

ومرت سنة أخرى من الإنكسارات والخيبات..كنت محطّمة..تركت أمي وعائلتي وعمي..وأعلنت براءتي منهم جميعًا..وماتت أمي بعد ذلك بشهرين..لم أذهب لأعزي أخوتي بها..لكني زرت قبرها مرارًا..

لم تنقذني من وضعي سوى الكتابة..حيث بدأت أروي قصة تلك المرأة التي التقيتها في بهو الفندق..حواء بياع الخواتم..!

ووجدت نفسي أتطهّر من آلامي وانا أروي حكايتها وحكاية أخواتها الفاجعة..! وأطلقت على ماكتبته اسم „متاهة العميان" ..علمًا لا توجد أية شخصية عمياء بالمعنى الجسدي..!

وذات يوم جاءني أخي الصغير الذي احتفظت معه بعلاقة طيبة برسالة رسمية قد وصلت إلى عنوان بيت العائلة..كانت الرسالة موقّعة من محام اسمه آدم آدم..قدم نفسه في الرسالة بأنه محامي طليقي في فيينا..ثم راح يوضح مضمون الرسالة بأن طليقي آدم رحمة الله مات بمرض نقص المناعة..وأنه ترك لي مبلغًا يعادل نصف المليون يورو..وفيلا في ضواحي فيينا..تقدر بمليون يورو.. وأن علي المجيء لترتيب الأمور القانونية..!.. وفيه كل أرقام الهواتف والآيميلات للتواصل..فوجئت..فلم أكن أعرف بأن زوجي الأول آدم رحمة الله غني إلى هذه الدرجة..وتساءلت مع نفسي: كيف اتضح بأن لديه فيلا بمليون يورو بينما كان هنا يعيش في شقة..؟ ..صحيح أن الشقة كانت ملكه..إلا أنه لم يتحدث عن أمواله التي في البنوك ..!! لكني أعرف أنه كان قبل زواجي به قد تعامل مع رجال السلطة الجديدة..وكون لنفسه ثروة لم يكشف عنها..إلا أنني عرفت أنها كبيرة حينما حمل أربعمائة ألف دولار نقدًا في حقيبة جلدية ومنحني إياها حينما جاء يودعني.!!.

تأثرت جدًا لموته..أحزنني أنه مات في بلاد الغربة وحيدًا لا قريب له ولا صديق..وحزنت من كل قلبي لأنه منذ لحظة دخولي عليه وهو في وضع مشين أبدى سلوكًا هادئًا ونبيلًا معي..وما تركه لمبلغ الدولارات في الحقيبة

وتسجيل الشقة بإسمي إلا تعبير عن نبله..وها هو يؤكد لي حرصه عليّ وعلى ابنتيه من خلال تسجيل وصيته لي ولابنتيّ..!..

رتبت أموري..وأخذت الرسالة إلى سفارة النمسا..واستحصلت تأشيرة لي..وتركت طفلتيّ عند أختي..بعد أن شرحت لها بأن طليقي والد بناتي آدم رحمة الله قد مات..ويجب أن أسافر لأحضر مراسيم دفنه..!! وطلبت منها أن لا تخبر أحدًا بمضمون رسالتي سوى أنني سافرت لأن طليقي مريض وعلى فراش الموت..وسافرت..

5

....

آدم آدمز

حين وصلت مطار فيينا..وخرجت من بوابة الواصلين حاملة حقيبتي الجلدية السوداء الصغيرة..كان هناك فتىً أشقر، وسيمًا جدًا، يحمل لافتة باسمي يقف منتظرًا عند باب الخروج..!

توقفت قليلاً قبل أن أتوجّه إليه..لم أكن أصدق أن هذا الرجل الوسيم هو المحامي الذي كتب لي بالمجيء..وقفت للحظات أتأمله..لم أكن منتبهة إلى أنني وقفت في وسط بوابة الخروج..حتى صدمني أحدهم.. وأخذ يهمهم بالألمانية..فتنحيت جانبًا..ويبدو أنه انتبه لي..وخمّن أنني من ينتظرها..إذ التقت نظراتنا بشكل خاطف..في تلك اللحظة أحسست بارتعاشة لذيذة تجتاحني.. ارتعاشة تشبه الذروة..وخفت من نفسي ومن هذا الرجل..لكن عليّ التوجّه إليه..!

ما أن رآني مُقبلة نحوه، حتى مدّ يده ليصافحني..ويقول مبتسمًا:

– مدام حواء رحمة الله..! أنا آدم آدمز..سكرتير المحامي السيد آدم آدم الذي كتب إليك..وهو ينتظرك في المكتب..هل تسمحين..!.

وأخذ الحقيبة الصغيرة التي كنت أسحبها بخفة..وقال بعض جمل المجاملة:

– آمل أن السفرة كانت هادئة ومريحة..!

- نعم..مريحة جدًا..شكرًا.

- هل هذه هي أول مرة تزورين فيها فيينا..؟ سألني بلطف.

- نعم..

- أوه..إذن عليك أن تشاهديها جيدًا..كم ستبقين هنا..قال بمرح.

- لا أعرف..حسب الظروف..

كنا قد خرجنا من المطار..وكان قد أوقف سيارته المرسيدس السوداء في موقف قريب. ظننت أنني سأجلس في المقدمة قربه..وكنت أود ذلك حقًا..لكنه فتح الباب الخلفي لي..فهمت ذلك بأنه من باب الإحترام.

في عمارة من طراز أثري وفي الطابق السابع منها يقع مكتب المحامي السيد آدم آدم..مكتب مهيب وكل ما فيه يوحي بإنتماء ارستقراطي..وهناك استقبلني بحفاوة أيقظت الأمان والثقة في نفسي..وأفهمني بكل ما جرى..بأن طليقي آدم رحمة الله نقل كل أملاكه إلى النمسا، وأنه دخل مستشفى للعلاج من مرض نقص المناعة (الإيدز).. لكن العلاج لم ينقذه وإنما أطال في أمده بضعة أشهر..وأنه كتب وصيته التي تضمنت تركه الفيلا وما له من مبالغ في حسابه البنكي لي..وأنه من أجل التعجيل بالأمور والتحضير لها لحين وصولي فقد فاتح البنك وكشف لهم عن الوصية وأعدَّ لي كل الأوراق الخاصة بفتح حساب بنكي لي، ولم يبق سوى مقابلتهم شخصيًا وتقديم جوازي والتوقيع على الأوراق الخاصة بفتح الحساب كي يتم تحويل المبلغ من حساب زوجي إلى حسابي..وأكّد لي بأننا سنذهب إلى هناك بعد إجراءات الدفن..!

بعد ذلك توجهنا إلى المستشفى..وفي قاعة حفظ الجثث رأيت جثمانه المسجى على سرير متحرك في جدار يضم عشرات الجثث المحفوظة..

ثم طلب المحامي من موظفيه الاتصال بالجهات الرسمية كي يتم استلام الجثة..وكذلك الاتصال بإدارة إحدى المقابر لشراء بضعة أمتار من الأرض كي تكون قبرًا..كما تولوا حجز جناح لي في أحد الفنادق التي لا تبعد كثيرًا عن المكتب..كل شيء كان منظمًا وسهلًا وبلا أية تعقيدات..كنت غير مصدقة أن كل هذه المهمات قد تمت بسهولة..وصار الاتفاق بأن يتم الدفن في صباح اليوم الثاني..!

أوصلني مدير مكتبه، الشاب الأشقر الوسيم الذي استقبلني في المطار، إلى فندقي „ستي سنترال" في تابور شتراسه..وكان أثناء الطريق قد اقترح بأن يمرّ عليّ مساءً ليريني بعض معالم المدينة..! وافقت على ذلك برغم تعبي..فالمدينة أذهلتني بجمالها..وبأصالة مبانيها وبخضرتها..وهدوء حركة الناس وانتظامهم..!..كنت مأخوذة بكل شيء حصل معي منذ هبوط الطائرة، فهذه المرة الأولى التي أسافر فيها إلى أوروبا..!..ولم أكن أعرف كم سيلزمني من وقت للبقاء فيها..لذا وافقت على أن أتمتع بمشاهدة المدينة برفقة هذا الفتى الوسيم الذي أدركت بأنني أعجبته..!

كان جناحي في الطابق السابع..ورقم غرفتي سبعة أيضًا فاستغربت لهذا التوافق..شعرت بالإنبهار حينما دخلت إليه..وكأنما في الأحلام والأفلام.. جناح ارستقراطي جميل..! صالون للراحة يقود إلى غرفة نوم عريضة جدًا.. سرير عريض لشخصين مع وسائد عديدة..وتلفزيون عريض الشاشة على الجدار المقابل للسرير..وزاوية فيها طاولة عريضة مستديرة وثلاثة مقاعد وثيرة حولها..وطاولة مكتب من خشب الصندل عليها مصباح منضدي على شكل امرأة عارية تفرد ذراعيها وكأنها تهمّ بالتحليق..وتفاصيل أخرى

وملحقات كاملة كالمطبخ المؤثث بكل شيء والحمّام الذي يوازي بمساحته غرفة من غرف شقتي في بلادي!

في المساء كان ينتظرني حسب الموعد الذي اتفقنا عليه..كنت قد أخذت قسطًا من الراحة وتحممت ثم لبست ثوبًا أنيقًا يكشف عن التواءات جسدي دون ابتذال..وحين رأيته في الصالة لمحت تأثيري عليه من خلال بريق الدهشة والإنجذاب الرجولي في نظراته.

تجولت معه في المدينة..ولأن المساء كان قد حل فقد قضينا معظم الأمسية في „شتيفان بلاتز" حيث المحلات والمقاهي ومحطة مترو الأنفاق والكتدرائية المسمّاة باسم القديس شتيفان..كما أخذني للشارع التجاري الشهير „كارنتر شتراسه"، وزرت محلات „سواروفسكي" الشهيرة بمنتجاتها الرائعة من الكريستال..! ..وكم تمنيت لو أن الليل لا ينتهي.. ولا يحتّم علينا الافتراق والنوم..وكنّا خلال هذه الجولة قد ألفنا بعضنا.. وتركنا التحفظات الإدارية جانبًا..فأخذ يحدثني عن المدينة..والناس.. وعمله..لكنه لم يحدثني عن نفسه..!..وأنا أيضًا لم أحدثه كثيرًا عن نفسي لأنه يعرف معظم التفاصيل..اسمي واسم طليقي..وأن لدي ابنتين..ولدي نصف مليون يورو في بنك سويسري لم يتم تحويله بإسمي بعد..وفيلا تقدر بمليون يورو..!..هل أحدثه عن زواجي الثاني وأخبره أنني مطلقة..!؟ لا.. ما الداعي إلى ذلك..! ماذا أريد أنا منه!!؟.

بكل أدب أوصلني إلى الفندق..نظر إليّ منتظرًا..صامتًا..ربما كان يتوقع أن أدعوه إلى جناحي..والحقيقة قد راودتني مثل هذه الرغبة الحارقة لكني ترددت..فكرت فيما بعد كيف ستكون نظرته لي..!..برغم رغبتي أن لا

تنتهي هذه الليلة..وأن لا يبعد هو عن عينيّ..لكني كنت مترددة..جبانة.. فمددت كفي مصافحة..فمدّ يده منكسفًا وعلى وجهه ابتسامة منكسرة.

***

استيقظت مبكرة..تحممت..كنت سعيدة ومبتهجة النفس برغم علمي أنني ساذهب لأدفن زوجي السابق..طليقي..لم أكن أعرف سببًا لتلك البهـجـة..استغربت نفسي لتناقضها مع الموقف الذي أنا فيه..! ربما لأني صرت مليونيرة فجأة..ربما لأني قابلت آدم آدمز الأشقر الوسيم..!..ربما لأني بعيدة عن العيون البصّاصة المستنكرة للبسي ومكياجي..وعطوري الباذخة..! ربما لأني وحدي..وحدي..!

لبست ثوبًا أسود طويلًا يصل إلى أعلى ركبتي، بلا أكمام ويكشف عن ذراعيّ..وأخذت حقيبة يدوية سوداء..ولبست حذائي الأسود ذا الكعب العالي..فبدوت أنيقة مثل أرملة حقيقية..وقبل أن أغادر جناحي رششت شيئًا من العطر الفرنسي الممزوج بعطور شرقية على رقبتي وصدري وتحت أذني وبين إبطيّ ..ونزلت إلى البوفيه الذي يتم تناول الفطور فيه..! يا للأبّهة..ويا للمائدة الشهية.. ويا لأصالة المكان الإرستقراطي..!.

لم أكن قد انهيت فطوري حين لمحت الأشقر الوسيم يدخل قاعة الطعام..ابتسمت له.. اقترب مني وألقى تحية الصباح..وقال لي إنه سينتظرني في الصالون..قلت له: حسنًا..لكنه حين ذهب لعنت نفسي على ترددي..وخجلي..فلماذا لم أطلب منه أن يجلس ليشاركني الفطور.. أو مجرد أن يجلس لأتمعّن في وجهه الجميل..!.

أسرعت بإنهاء فطوري كي أكون معه..وذهبت إليه متلهفة..كان ينتظرني.. قال لي: إن لدينا بعض الوقت..هل تريدين أن ترتاحي قليلًا في غرفتك..قبل

أن نذهب إلى المقبرة أم تريدين أن آخذك في جولة سريعة لتري بعض معالم المدينة..! فقلت له مبتهجة: نعم ..خذني..لنذهب في جولة..ثم انتبهت لنفسي بأن عليّ أن أكون أكثر رزانة..فأنا أرملة جاءت لتدفن جثمان زوجها.. كما انتبهت لكلمتي التي قلتها منفردة وببطء..(خذني)..التي وكأنما أدعوه ليأخذني كلي..هل كانت سقطة لسان مني ورغبة لا واعية في أن يأخذني كلي حقًا..!!.. لا أدري.

قال لي ونحن في السيارة: أتدرين أن مدينة فيينا تسمى مدينة الأحلام..! قلت بأن لدينا أغنية عربية شهيرة تتحدث عن ليالي الأنس في فيينا..ابتسم وقال إنها سُميت كذلك لأنها مدينة «سيغموند فرويد» مؤسس علم التحليل النفسي ومؤلف كتاب «تفسير الأحلام»..!..فقلت له إنني أعرف أيضًا أنها مدينة الكاتب الذي أحبه ستيفان تسفايغ أيضًا..ومدينة موتسارت..فأكمل هو: ومدينة شوبيرت وبيتهوفن وشتراوس.. وشيللر.. وعشرات الموسيقيين.. وأيضًا هي مدينة الإمبراطورة الجميلة سيسي..!.. ثم سألني إن كنت شاهدت الأفلام التي قدمت عن هذه الإمبراطورة الجميلة..والتي مثلتها الممثلة الفرنسية الألمانية رومي شنايدر..فتأسفت بأنني لم أشاهدها..! وحين مررنا بالسيارة من بعيد على جانب أكاديمية الفنون الجميلة أشار إلى تمثال بعيد أمام مدخل المبنى قال إنه للشاعر فريدريك شيللر..صاحب مسرحية «اللصوص» و «وليم تيل»..الشاعر الذي كان رفيق غوته..والذي كتب «نشيد المسرة».. الذي استخدمه بيتهوفن في سيمفونيته التاسعة..! وكنت أعرف هذه المعلومة الأخيرة..وأعجبتني ثقافته العالية..ومعرفته بالفنون..!..فسألته: يبدو لي أن لك اهتمامات أدبية وفنية..فكيف جئت إلى المحاماة..والقانون..!..ابتسم

بتواضع وخجل..وقال إن معلوماته عامة..وليست معلومات متخصص.. وإن ما قاله هي معلومات تُدّرس لديهم في الثانوية..ثم أن الفن والأدب مهنة من لا مهنة له فهما لا يجلبان الخير لأصحابها..فمعظم هؤلاء الذين نجد تماثيلهم في الحدائق العامة والمتنزهات ووسط المدينة والساحات عاشوا فقراء..فشيللر عاش مراحل طويلة من حياته بائسًا..وكذلك بيتهوفن..!.. ثم ألقى نظرة على مؤشر الوقت..وقال علينا التوجه للمقبرة..نحتاج لبعض الوقت..ثم أخبرني بأنهم احترامًا منهم لزوجي المتوفي فأنهم اتفقوا مع إدارة مقبرة المسلمين التي افتتحت العام 2008 في فيينا على أن يدفنوه هناك.. فشكرتهم على جهودهم.. وسرنا الطريق بصمت..أحسست أن للموت هيبة يفرضها علينا جميعًا.

حين دخلنا المقبرة أعجبت بها..وأذكر أنني قرأت مرة لكاتب عراقي تحدث عن لسان امرأة أن زوجها كان يمر بمقبرة تفصل بين ضاحيتهم ومركز المدينة..ودائمًا كان يردد بأنه يتمنى أن يموت ويدفن فيها حيث القبور مُحاطة بالورد والمقبرة مُسيجة بالأشجار الوارفة الدائمة الخضرة..! وبعد أشهر تشاجر مع أخيه فقتله الأخ ودُفن فعلًا في تلك المقبرة التي كان يحلم بقبر فيها..!

لم أتحمّل مراسيم الدفن العادية..وددت أن أهرب من هذا المشهد الذي يقبض على النفس! لكني حزنت على زوجي بأن يدفن غريبًا وبعيدًا عن وطنه..!

بعد الإنتهاء من مراسيم الدفن..أخذني المحامي الكبير السيد آدم آدم بسيارته وتوجّهنا إلى البنك..ويبدو أنه كان شخصية معروفة لديهم..إذ

استقبلوه بحفاوة..وأخذونا إلى مكتب مدير البنك..وعرفني عليه بالإنكليزية لكنهم واصلوا حديثهم بالألمانية..ثم اتصل المدير بمكتب سكرتيرته وتحدث معها..فدخلت حاملة ملفًا كبيرًا..قدّموه لي من أجل التوقيع.. وشرحوا لي بعض الإمتيازات الخاصة بالعملاء..ووقعت على طلبات تخص الحصول على بطاقات السحب الخارجي والعالمي..«فيزا كارت» و«ماستر كارت» ..ولأني على سفر فقد أضافوا مبلغًا إضافيًا للحصول عليها خلال أيام قليلة..!..وأجرينا التوقيع على تحويل المبلغ من حساب زوجي إلى حسابي وتم إغلاق حساب زوجي..!.كما صار الإتفاق معهم على بيع الفيلا..وشراء شقة وسط المدينة في عمارة بالقرب من «شتيفان بلاتز».. المنطقة الحيوية في المدينة..وكان المحامي قد شرح لي ضرورة ذلك.. وأعّدوا لي الأوراق الخاص بالبيع والملكية.. ووقعتها.. وأخذ المحامي نسخة منها ليحصل لي على الإقامة الدائمة في فيينا.

حين خرجنا من البنك أحسست أنني قد ولدت من جديد..وأدركت أن البنوك هي السلطة الحقيقية في العالم..منها تتم الهيمنة بشكل ناعم على كل شيء.. حيث أن بضع أوراق صادرة من هنا ستجعل السلطة الإدارية في المدينة تمنحني الإقامة..!..نعم إنها سلطة المال..وتذكرت حبيبي آدم أبو الهيل حين كان يتحدث عن «رأس المال» لكارل ماركس..!.

***

توجهنا إلى مكتب المحامي ثانية..وطلب من سكرتيره أن يذهب معي إلى بلدية المدينة..إلى قسم الإقامات لإنجاز المطلوب..وطلب منه أن يمرّ على أي مكان للتصوير السريع لأخذ كمية من الصورة الرسمية التي

سيحتاجونها لإنهاء معاملاتي..وقال لي بأنه سيدعونني على العشاء بعد أن ينجز أموري كلها.

إنجاز معاملاتي فرضت على الشاب الأشقر الوسيم أن يصاحبني النهار والمساء كله تقريبًا..أخذت الصور المطلوبة..واستنسخت جواز سفري.. وسلّمته لدائرة الإقامة..ثم رجعت إلى الفندق لأرتاح.. ودعّت الشاب الأشقر الوسيم عند مدخل الفندق..وصعدت إلى جناحي..كنت قد تجرأت بدعوته على الغذاء لكنه اعتذر بأن عليه أن يكون في المكتب..وعد بأن نتعشى معًا على ظهر سفينة سياحية تجوب الدانوب.. ملتفة حول جزيرة اصطناعية للمدينة في وسط نهر الدانوب.. أسعدني ذلك.

***

لم أكن منتبهة للتحوّلات التي كانت تتفاعل في داخلي..كان كل شيء يجري بسرعة ويُسر وكأنما أنا في حلم..صعدت لغرفتي.. غيرت ثيابي.. ارتديت ثوبًا أصفر خفيفًا وفضفاضًا لكنه يشفّ عمّا تحته من جسد فتي متناسق..ولبست نعالًا صندلًا.. وأخذت حقيبة جلدية لماعة باللون الأصفر الكركمي..ونزلت إلى المطعم كي أتناول الغذاء..كانت البوفيه مفتوحة على أنواع الطعام والمشاوي..حيث يمكن أن يجد المرء ما لذّ من مطابخ العالم..!.وضعت حقيبتي على طاولة لأثنين منفردة في أعماق القاعة..في زاوية هادئة وبعيدة نوعًا ما عن الصخب..

عاداتنا الشرقية بغياب الأمكان وانتشار السرقة والخديعة دفعني لا إراديًا إلى أن أتلفت بين هنيهة وأخرى إلى حقيبتي الصفراء الكركمية..لأتأكد من وجودها على موضعها ولم تُسرق من قِبَل أحد ما..!!. فجأة حانت مني إلتفاتة

قبل أن أملأ صحني بالطعام..لم أصدق عينيّ..رأيت الشاب الأشقر الوسيم جالسًا على الكرسي المقابل لكرسييّ وكأنه ينتظرني..حاولت أن أضع شيئًا من المشاوي في صحني وأتجه إليه..لكن ما أن استدرت حتى رأيت الطاولة فارغة..لا أحد يجلس حولها..!!؟ تلفت مفتشة عنه في القاعة..فالطاولة بعيدة عن باب المطعم..وهذا يعني إذا كان قد غادر فيمكنني رؤيته لأنه لن يستطيع المغادرة بلمح البصر ويختفي وكأنه لم يكن موجودًا..لكنه فعلا لم يكن موجودًا..

شعرت بإنزعاج حقيقي..وأدركت أنه شبّه لي..فليس من المعقول أنني رأيته ثم اختفى كالشبح..! وفكرت بأنني صرت مهووسة به ..وإلا ما معنى هذا التخيّل..!؟..ولم أشأ أن أجد نفسي متعلقة به إلى هذا الحد فأنا أعرف أنه ليس لي ولا يمكننا أن نكون معًا..فلِمَ كل هذا العذاب..!

وبرغم جوعي..وبرغم تنوع الطعام الشهي فقد أكلت بدون لذة.. وربما استطعت أن أرفع من معنوياتي بعد أن أكلت الحلويات النمساوية الشهيرة..!. ولم أطل بقائي في المطعم..فغادرته عائدة إلى غرفتي.

حين خرجت من المصعد رأيته..!..نعم هو نفسه..الآن هو يطرق باب الغرفة التي تواجه المصعد في أقصى الممر من الجهة المقابلة ..والتي هي ضمن الغرف التي تقع في الممر بأقصى الجهة المقابلة..أشرت إليه لكنه لم يلتفت إليّ..وكانت الصدمة أكبر حينما انتبهت للرجل الذي فتح الباب له مبتسمًا..!! لقد كان زوجي أو طليقي آدم رحمة الله الذي دفنته صباحًا في مقبرة المسلمين التي تقع في شارع السوق الكبير..(غروس ماركت شتراسه)..نعم أنه زوجي وأعرفه..!! ارتعبت..وقفت للحظة مصدومة..

كنت قريبة من باب جناحي..فجأة سمعت هديرًا خلفي..التفتُّ خائفة لأعرف سبب هذا الهدير القوي فلم أجد سوى أن أبواب المصعد تغلق.. استغربت هذا الهدير يصدر عن انطبّاق باب المصعد..لكن الأكثر غرابة أنني لمـّا التفّت ثانية إلى الإمام لم أجد أية غرفة أمامي..كان هناك حائط يمتد بين غرفتين لا يمكن رؤيتهما من الممر..!!؟..أين باب الغرفة التي كانت تقع بالمقابل من المصعد تمامًا..ويمكن رؤيتها منذ لحظة انفتاح باب المصعد..! ..اقشعر جسدي لا إراديًا..

كان باب جناحي على بعد خطوات مني فدخلته مرتعبة مما رأيت..!..ما الذي يجري معي..! ما هذا الذي أراه..!..كيف أن زوجي الذي دفنته صباحًا ورأيت جثته في قسم حفظ الجثث بمشرحة المستشفى..أراه حيًا أمامي وهو يستقبل سكرتير المحامي الذي أخبرني بموته..وهذا الشاب الأشقر الوسيم كان معي طوال الوقت وهو الذي كان معي من أجل استحصال الإقامة..وهو الذي اتفق مع إدارة المقبرة على الحصول على قطعة أرض ليقبر فيه جثمان زوجي..فما الذي أراه..وأين اختفت الباب..وكيف صارت جدارًا..!!؟؟

***

حين صرت في غرفتي أغلقت الباب من الداخل بالمفتاح..انتبهت إلى جسدي مبتل بالعرق البارد..ولأول مرة انتبهت إلى أن هناك شيئًا مريبًا في كل هذه القصة..! بدءًا من رسالة المحامي آدم آدم التي وصلتني وأنا في بلدي..!..مرورًا بكل هذه التفاصيل..لكن كيف؟ كيف حصلت على التأشيرة..ولمن الجثة التي رأيتها..!! ومن هو هذا الرجل الأشقر الوسيم.. ومن هو آدم آدم..!..وكيف أن زوجي حي..!؟ ومن دفنّاه صباحًا..!؟..

وكيف اختفت الغرفة وبابها من مكانها لينتصب الجدار..! لا.لا..يجب أن أغادر هذه المدينة..! لا.لا. ربما أنا لم أسافر أصلًا وأن كل ما يجري لي هو حلم أو كابوس..وأنني ربما الآن نائمة في فراشي في شقتي بمدينتي!!؟؟

لم أعرف ماذا أفعل..كنت أتعرق برغم أن جو الغرفة ليس حارًا..ولا إراديًا نزعت نعالي الصندل ورميت حقيبتي الصفراء على السرير من بعيد.. ونزعت ثوبي..وذهبت إلى الحمام فاتحة الماء البارد عبر الدش ليطفئ هذه السخونة التي اجتاحتني..!

وأنا تحت الماء البارد فكرت بمغادرة هذه المدينة حتى لو كنت أحلم بكل هذه التفاصيل..!!..وقررت مع نفسي بأن أتأكد من حقيقة ما رأيت !!..فجأة أحسست بجسدي يرتعش..ورجفة قوية تجتاحني..فخرجت من تحت الدش.. أخذت المنشفة الكبيرة وجففت جسدي..وارتديت البرنس الموجود في الحمام..نزعت سروالي..وذهبت إلى السرير..ألقيت نفسي عليه..ولم أعد أذكر شيئًا..

كيف نمت..ما الذي جرى لي..لا أعرف..!!؟ما أعرفه أنني قد نمت ما يقارب ثلاث ساعات..!.وحين فتحت عينيّ كانت الغرفة معتمة..!.. وجسدي ساخن..وشعري مبتل..ليس لأنني نسيت تجفيفه وإنما من التعرق اثناء النوم..وكذا جسدي المبتل بالعرق مرة أخرى..! هل مرضت!؟ كيف حدث ذلك..؟.

بهدوء تحركت من سريري..نهضت بإنكسار..أضئت الغرفة..انتبهت لوجود دورق لتسخين الماء وصينية فيها أكواب وأكياس صغيرة لأنواع الشاي ومسحوق النسكافيه مع مسحوق الحليب..!..فتحت الثلاجة

الصغيرة بتمهّل..أخرجت قنينة كبيرة من الماء.. وضعت أكثر من نصفها داخل الدورق..وشربت البقية..!

أعددت لنفسي كوبًا من القهوة..وبعد بضع رشفات أخذت استوعب وضعي وأعي جسدي..وأستعيد نشاطي.. فجأة رن هاتف الغرفة القريب مني..فأخذت السماعة ..فبادرتني فتاة الاستعلامات بالسؤال عن هاتفي إن كان يرن أم لا، فقد اتصلت بي أكثر من مرة لكن لم يجبها أحد..فقلت إنني لم أسمع رنينًا سوى هذه المرة..فأخبرتني بأن السيد آدم آدمز كان قد اتصل بي ولما لم أجبه، اتصل بالاستعلامات وترك رسالة اعتذار عن المجيء هذا المساء لأنه مشغول جدًا في أمر طارئ بالمكتب، وأنه سيمّر صباحًا في حدود التاسعة..وسينتظرني في بهو الانتظار..فشكرتها..وفي الوقت نفسه طلبت منها بأن يرسلوا لي وجبة العشاء على الغرفة..!.

وبعد نصف ساعة طُرق الباب..وحين فتحته رأيت عامل الخدمة وهو يدفع بعربة عليها صينية العشاء..وضع الصينية على الطاولة التي حولها كرسيان..وقعت الفاتورة..وغادر الغرفة مع عربته..أقفلت على نفسي من الداخل..فشعرت لحظتها بالأمان..! عدت إلى حيث صينية الطعام..أخذت الريموت كونترول..ضغطت عليه..كان هناك برنامج للتلفزيون النمساوي.. ضغطت على قائمة الاختيارات..وذهبت إلى القائمة العربية..واخترت قناة عربية معروفة تبث من دبي..وعلى الشاشة شاهدت لقاءً تلفزيونيًا مع الكاتبة حواء البوسني وهي تتحدث عن روايتها „متاهة العميان" التي كتبتها عن حياة امرأة كاتبة أيضًا اسمها حواء الجدي، التي بدورها كتبت رواية اسمها „متاهة العميان" أيضًا، عن امرأة اسمها حواء الكتبي..التي هي كاتبة أيضًا..

وأنها ايضًا كتبت رواية اسمها „ متاهة العميان"..أي كتبت رواية عني أنا..؟؟؟ أتراني شخصية وهمية في رواية؟؟ وقالت إنني بدوري كتبت رواية عن امرأة اسمها حواء المعلم..!!؟.

ذهلت مما شاهدت وسمعت..حواء البوسني لا أعرفها شخصيًا..لكن اسمها معروف..أما حواء الجدي فهي المرأة التي تعرّفت عليها في المركز الطبي..لكني لم أعرف أنها روائية وأنها كتبت رواية عني..!! وماذا تراها كتبت..! صحيح أنني أخبرتها الكثير من تفاصيل حياتي..لكن لم أتصور أنها ستكتب عني رواية..!! وأنا شخصيًا لم أعرف أنها روائية أصلًا..!! أما أني قد كتبت رواية عن امرأة اسمها حواء المعلم..فأنا لم أكتب أية رواية بعد..!!؟ فمن أين جاءت الكاتبة حواء البوسني بهذا الكلام..!.

ضغطت على زر الإغلاق..ظننت أني سأجن لو واصلت مشاهدة هذا اللقاء..والغريب أنني أحسست بجوع مفاجئ..فتوجهت إلى صينية الطعام بنهم وكأني أهرب من أفكاري المضطربة إليها.!

***

فكرت في ابنتيّ..طفلتيّ هما نقطة ضعفي المميتة في هذا الحياة وهما منبع سعادتي وسر وجودي..!..لولاهما لم أكن أعرف ماذا أفعل بحياتي..!تأتيني لحظات أتخيل فيها حياتي من دونهما..فأكاد أجن..!.. ويحدث أحيانًا حينما أسمع بحوادث راح ضحيتها الأطفال وأتخيل لو أن ذلك جرى لإبنتيّ..لحظتها تنزل الدموع من عينيّ ويرتعش قلبي وينقبض على تشنجات الحزن، وأحس لحظتها أنني أتعس امرأة في الدنيا..لكن سرعان ما أحمد الله بأن تلك الخواطر ليست سوى تخيّلات كئيبة، ومشاركة

وجدانية مني مع الأمهات الحقيقيات اللاتي تعرضن لفقدان بناتهن.. لا أعرف لغز الأمومة..هي ليست سمة بشرية أبدًا، وإنما سمة كونية.. فقد بحثت في عالم الانترنيت والمجلات العلمية وتتبعت الأمومة عند مختلف الحيوانات..شيء لا يفهم سره أبدًا..نجده في عالم أضعف وأصغر المخلوقات ونجده في عالم أكبر المخلوقات والحيوانات..حتى الأشجار.. ترعى فسائلها..! ويبدو أن الخالق يحب الأنوثة والأمومة ففيها جسّد الكثير من حنانه ورحمته..الأمومة تجلّي لرحمة الخالق وحنانه المطلق!..

وأعتقد أن المرأة بأمومتها يكتمل كيانها..ويمتلئ وجودها بالمعنى.. ارتباطها يكون بالأبناء وليس بالرجل - الفلاح الذي زرع البذرة..حتى أنها لا تُعير وجوده ذلك الاهتمام الذي سبق الأمومة..الأبناء هم مركز اتزان عالم المرأة..مهما كانت الظروف التي تعيشها المرأة..! هل أنا مخطئة..لا أعرف..فهذا ما أعيشه من أعماق روحي..!.

وما أن مرقت في ذهني هذه الخواطر حتى وجدتني متلهفة..فاتصلت بأختي..وما أن سمعت صوتها حتى قلت لها مباشرة بأني أريد سماع صوت ابنتيّ..! استغربت أختي لأني لم أحدثها عن سفرتي بل ولم أسألها عن حالها..لكنها أم أيضًا..إذ أدركت بأني مشتاقة لهما أو أنني رأيت حلمًا مزعجًا يخصمها فأخذت تطمئنني عنهما بأنهما بخير..ونادت عليهما كي أتحدث معهما..!.

استعدت توازني بعد سماع صوت ابنتيّ والحديث مع أختي عن وجودي هنا..وتأكدت من شيء واحد هو أني موجودة فعلًا في فيينا ولست في حلم..!..ووجدت في نفسي الرغبة في أن أخرج وحدي لأكتشف المدينة وابتاع ما أحبه لنفسي وابنتيّ وأختي..!.

لم اشغل نفسي كثيرًا بارتداء ثيابي..إذ لبست ثوبي الأصفر..ونعالي الصندل..وارتديت سروالًا داخليًا كان يبدو بشكل موحٍ من تحت الثوب وأخذت حقيبتي الجلدية الكركمية اللون وخرجت.

خرجت من الفندق وأنا أحس برغبة في الحياة..برؤية الأشياء الجميلة.. بالبهجة..بالمغامرة..بشراء فساتين جديدة..وفكرت بأن أشتري ثيابًا باللون الأبيض..والأصفر فهما أحب الألوان إلى نفسي بعد الأسود..! ..أحب شراء نظرات شمسية من ماركات شهيرة..أحب شراء العطور الفرنسية والإيطالية..!

دخلت محلات «ماريوناود» الشهيرة للعطور والتجميل في «شتيفان بلاتز»..وبينما أنا أتشمم بعض العطور من القناني الموضوعة للتجريب.. لمحت في الجهة المقابلة لي..في محلات «زارا» الشاب الأشقر الوسيم وهو في بدلة سوداء ومعه المرحوم طليقي في بدلة بيضاء..وهما يدخلان المحل الشهير للملابس في أوروبا كلها. ولم تكن المسافة بعيدة بحيث أشك في رؤيتي..هما.. تركت ما بيدي..وخرجت مسرعة..متجهة إلى محل الملابس الشهير..أفتش بنظري عنهما..صعدت الطوابق التي تخص المحل كلها..لكني لم أعثر على أثر لهما..!..أخذت أشك في نفسي..وأسألها: „ما معنى كل هذا؟ ألم تتصل موظفة الاستعلامات لتخبرني بأن آدم آدمز يعتذر لأمر طارئ في المكتب..فكيف هو هنا..!؟ وكيف هو مع المرحوم زوجي السابق..!؟هل هناك مؤامرة تحاك ضدي!؟ هل أن زوجي لم يمت وأنهم اختلقوا قصة موته..!!؟“..ولم أجد جوابًا.

كانت الشوارع برغم الوقت المتأخر نسبيًا لا تزال مزدحمة بالناس.. وكنت قد اشتريت لنفسي ولأختي وطفلتي بعض الهدايا..توجّهت لموضع سيارات الأجرة..صعدت تاكسيًا..وتوجّهت إلى الفندق.

وحين دخلت بهو الفندق انتبهت لي موظفة الاستعلامات وأخذت من جانبها باقة ورد وهي تقول لي:

– مدام حواء الكتبي..لقد مرّ السيد آدم آدمز حاملًا لك باقة الورد هذه..

– متى كان هنا..؟ سألت باستغراب.

– قبل نصف ساعة تقريبًا.. قالت الموظفة بهدوء.

– قبل نصف ساعة..!؟

– نعم..

– شكرا لك..

– عفوًا..على الرحب.

وأخذت باقة الورد وأنا في ذهول..فقبل نصف ساعة تقريبًا رأيته مع المرحوم زوجي السابق وهما يدخلان محل الملابس الشهير في شتيفان بلاتز..!!.؟

ما أن دخلت المصعد وأنا محمّلة اليدين بالأكياس الكبير لكن الخفيفة وبباقة الورد حتى شعرت بأن كابينة المصعد أخذت تضوع بعطر طيب وزكي..ويشرح النفس..استغربت لنوع باقة الورد التي كانت تضم سبع وردات..لسبعة أنواع من الزهور..!..وما أن دخلت جناحي حتى وجدت نفسي مشدودة لباقة الورد أكثر مما للأشياء التي اشتريتها..!..ألقيت الأكياس كلها على السرير.. وأخذت أبحث عن مزهرية كي أضع فيها باقة الورد..ووجدت ما يشبه المزهرية قرب التلفزيون..أخذتها إلى الحمام.. غسلتها..وسكبت فيها بعض الماء..ثم وضعت باقة الورد فيها.. ووضعت المزهرية المحملة بالزهور على الطاولة أمامي..!

كانت الغرفة قد امتلأت بأريج الزهور..أريج فواح..مخدر..ولا أعرف ما الذي جرى..!..فقد فتحت عينيّ فوجدتني عارية بالكامل ..مستلقية على سريري تحت الشرشف الأبيض..!..كنت عارية تمامًا..التفت فرأيت ثوبي وسروالي ونعالي قرب السرير..! .. استغربت حالي..ما الذي جرى لي في الفترة ما بين وضعي للمزهرية على الطاولة وإلى أن أفقت!!؟؟. شككت بأن ثمة أمرًا ما جرى لي..وبحس أنثوي مددت يدي إلى ما بين فخذي فوجدتني رطبة جدًا..!..

نهضت بمنتصف جسدي لأرى ما في الغرفة فذهلت حينما لم أجد المزهرية بباقة الورد موجودة..بل كانت المزهرية فارغة قرب التلفزيون..!!.

نهضت بسرعة..دخلت الحمام..أخذت دوشًا من الماء البارد بشكل سريع..ارتديت ثيابي وأنا أصل إلى قرار ثابت بمغادرة هذه المدينة..وتأكيدًا للقرار أعددت حقيبتي فلم أترك شيئًا..ونزلت كي أتناول فطوري..!

ما أن انفتح باب المصعد حتى قابلني وجه موظفة الاستعلامات الجميل والبشوش كأنه وجه إحدى مادونات دافنشي..واستغربت من نفسي سائلة: أليس هناك من يعمل هنا غير هذه المرأة الشابة..!. فلم أقابل منذ مجيئي سوى هذه المرأة في الاستعلامات..!

حين مررت قربها..وقبل أن ألقي عليها التحية بادرتني هي بالتحية... رددت عليها التحية وسألتها إن كانت أمس قد أعطتني باقة ورد من قبل السيد آدم آدمز..فقالت: نعم..باقة ذات رائحة ساحرة..!..لم أعرف ماذا أقول لها.. ولم أخبرها بأن باقة الورد ذات الزهور السبع المختلفة قد اختفت..!.. لذا شكرتها وتوجهت للبوفيه لتناول الفطور..!.

وجدت طاولة مقابلة للباب وقريبة منها..كان هناك قليل من النزلاء يفطرون..لم تكن لدي شهية منفتحة..أخذت قطعة من الخبز الذي حمصته على الآلة الموضوعة لهذا الأمر..وأخذت علبتين صغيرتين من شكولاتة النوتيلا..وكوبًا من القهوة وعدت لطاولتي..! وكنت على وشك الانتهاء من فطوري حين لمحت آدم آدمز من فتحة الباب وهو يتجه نحو الاستعلامات. ارتشفت ما تبقى في كوبي وخرجت إليه.!

حين رآني أقبل عليّ فرحًا..ومد يده لي مصافحًا..فصافحته برغم الحذر والشكوك التي في داخلي.. وأخبرني بأنه اتصل بدائرة الإقامة..وكأنها مختومة وجاهزة داخل جواز السفر..إقامة لمدة سنة..لكن عليها أن تذهب معه لاستلام الجواز..وبعد ذلك المرور على البنك لاستلام بطاقات الإئتمان البنكي..واستلام الشقة..!..لا أخفي أنني فرحت بكل هذه التفاصيل..لكن لا إراديًا قلت له بإنني أريد الرجوع بأقرب وقت ممكن..ربما اليوم أو غدًا في أقصى الأحوال..صمت مندهشًا للحظات..وقال بأن لدي بعض الشؤون التي يجب إنجازها ما دمت موجودة..لكنه سيحاول حل كل الأمور بأسرع وقت..وغادرنا الفندق..!.

وإلى أن صارت فترة الغداء وبدأت الدوائر فترة الاستراحة كان كل شيء قد أُنجز..استلمت البطاقات البنكية العالمية ودفترًا للشيكات التي لا تحتاج سوى ذكر المبلغ وتوقيعي الذي احتفظوا لديهم بصورة منه...وأخذت جواز سفري وفيه إقامتي الرسمية في النمسا لمدة سنة..واستلمت الأوراق الرسمية لاستلام الشقة وملكيتها..وبقي مسألة تسجيلها في دائرة العقاري التي تأخذ بعض الوقت لكن آدم آدمز وعد بانجاز كل شيء..!..واتفقنا على

مشاهدة الشقة التي كما فهمت منهم أنها مؤثثة من ناحية تجهيزات المطبخ والأثاث المبني ضمن بناء الغرف..وليس أمامي سوى شراء الأفرشة وأدوات المطبخ..حتى التلفزيون في الصالة موجود وكذا في عرفة النوم..!

ولأن في فترة الغداء تتعطل الدوائر الرسمية لساعة أو ساعتين فقد دعاني آدم آدمز لإحياء دعوته التي لم يحققها وهو الذهاب إلى تناول الغداء في السفينة التي ستبحر في نهر الدانوب حول الجزيرة الاصطناعية ..!..فذهبنا إلى هناك.!.

لا أستطيع أن أجد الكلمات لوصف جمال الطبيعة وروعة التنظيم والإحساس بكرامة الإنسان ورُقيّه الحضاري..حتى أن نفسي هدأت.. وتلاشت مخاوفي من الرجل الأشقر الوسيم..بل تلبستني رغبة في أن أكون معه..لكن خفت من نتائج هذه الرغبة..إذ لا أدري كيف راودتني ذكرى قصة قرأتها عن امرأة تزور فيينا في زيارة رسمية..لا أذكر سببها بالتفصيل.. لكنها كانت غير سعيدة في حياتها الجنسية..فتقرر أن تجرب في آخر ليلة بالذهاب مع رجل..لاسيما أن أحدهم كان يراقبها في بهو الفندق..وبعد تردد ومفارقات تقرر الذهاب معه..لكنها لم تستمتع بتلك المغامرة..إذ أن الرجل الغريب ظنّها عاهرة..فبعد أن انتهى من جسدها ألقى عليها ببعض الأوراق النقدية..! وعادت إلى بلدها منكسرة..وطبعًا لن يحدث هذا معي.. فهو يعرف من أنا..لكن الرغبة في أن ينام معي راودتني..!.

بعد الغداء ذهبنا إلى البنك..ومع مندوبهم رجعنا إلى الشقة..رأيتها.. أعجبتني جدًا لموقعها الممتاز..ورحابتها وتوزيعها الهندسي الرائع..!.. واستلمت المفاتيح..! ووعد آدم آدمز بأنه سيقوم بكل التفصيلات المترتبة

على ذلك من ترتيبات المبالغ اللازم دفعها شهريًا للشركات التي تقدم الخدمة للمبنى وأيضًا من إدارة المبنى وغيرها من التفاصيل..!..ورجعت إلى الفندق بينما ذهب هو إلى المكتب، على وعد بأن يحمل لي قائمة بمبلغ الأتعاب مساءً.

ما أن أوصلني إلى الفندق وذهب حتى أعلمت موظفة الاستعلامات بمغادرتي للفندق صباح اليوم التالي..طلبت منها إعداد فاتورة الحساب، كما رجوتها إنجاز إجراءات الحجز لعودتي غدًا إلى بلدي..وفعلًا قامت بكل التفاصيل..إذ كان علي الرجوع في التاسعة صباحًا.

شعرت بالراحة حينما تأكدت من سفري صباح الغد..لا..لم يكن شعورًا عابرًا بالراحة وإنما دفق من البهجة..أحسست برغبة في معانقة العالم..في الفرح.. وفي الاستمتاع بكل شيء..!.وهيمنت علي فكرة أن أدعو الشاب الأشقر الوسيم إلى جناحي إذا ما جاء..وليكن ما يكون..فأنا مغادرة صباحًا.!..

لم يكن هناك وقت كثير على موعد المساء..لذا صعدت إلى جناحي كي استريح وأستعد لآخر أمسية لي في فيينا. لكن ما أن دخلت المصعد وبدأ يتحرك بي حتى شعرت بإحساس غير مريح..انقباض في النفس..إذ تذكرت ما جرى لي في الممر..ورؤيتي للغرفة الغامضة..وكل التفاصيل الأخرى.. والتي كنت قد نسيتها أو تناسيتها عمدًا..! لكني أقنعت نفسي بأن الأمور مهما كانت غامضة فأني مغادرة كل ما له بهذه الرحلة غدًا..وسأعود إلى مدينتي وإلى إيقاع حياتي..!

حين فتحت باب جناحي شممتُ رائحة فوّاحة ساحرة ومخدرة.. أصابتني الدهشة حينما رأيت المزهرية تنتصب على الطاولة في غرفتي!.

أحسست بأن الغرفة مضاءة بنور بهي ليس مصدره المصابيح في الغرفة.. وإنما ثمة نور غامض خفي يشع من المزهرية ويضيء المكان.. وأحسست بنعاس غريب..!..ولم أعد أتذكر شيئًا.

أفقت من نوم عميق..اندهشت إذ وجدت نفسي في السرير..وجدت نفسي عارية بالكامل..وكانت العتمة تهيمن على غرفتي..كيف صرت في السرير..؟ ومن عراني..!!؟ أنا لا أتذكر سوى لحظة دخولي إلى الغرفة.. ورؤيتي للضوء الباهر المنطلق من المزهرية..بعدها لا شيء ..!؟.. مددت يدي في العتمة إلى المصباح المنضدي..أضأت الغرفة..نهضت بنصف جسدي..لم تكن المزهرية موجودة!!..استغربت ثانية..! ما الذي يجري معي..وكما في المرة السابقة..قمت عارية إلى الحمام ودخلت تحت الدش..وفتحت الماء البارد على جسدي..!

ارتديت البرنس..جئت غرفتي واتصلت بالاستعلامات..وسألت إن كان أحد قد سأل عني وترك لي شيئًا.. !؟ فأجابتني موظفة الاستعلامات بالنفي.. سألتها إن كانوا قد أعدّوا فاتورة الحساب..فقالت إن الفاتورة قد تم تصفيرها والحساب قد تم دفعه.. استغربت وسألت من دفعه..فقالت: السيد آدم آدمز..!! سألتها بأنها قالت إنه لم يسأل عني أحد..! فقالت إن السيد آدم آدمز اتصل هاتفيًا وأخبرنا بتحويل الفاتورة على المكتب..! فسألت أي من الأوادم اتصل..الرجل الكبير آدم آدمز المحامي أم سكرتيره الشاب الأشقر الوسيم.. فقالت: الرجل الأشقر الوسيم..سكرتير المحامي الشهير آدم آدم.!.

كنت أشعر بأن شيئًا غامضًا يحيطني..وأن هذه الغرفة غامضة..فكرت بأن عليّ مغادرتها..فارتديت ثوبًا أسود وسروالًا أحمر.. ووضعت مكياجًا قليلًا وأخذت حقيبة جلدية حمراء وغادرت الجناح.

حين خرجت من المصعد وصـرت في البهو لم أجـد أحـدًا في الاستعلامات..بل لم أجد أحدًا في البهو..ولا حركة ولا نأمة..برغم الأضواء الباهرة التي تغمر المكان..استغربت..إلا أن حركة الحياة في الشارع أعادت لي ثقتي بنفسي..فغادرت الفندق.

لم يكن لدي مكان محدد أذهب إليه..كل ما أردته هو مغادرة جناحي.. شعرت بالخوف هناك..! وراودتني فكرة أن أقضي الليل خارج الفندق.. وأذهب صباحًا لآخذ حقيبتي والتوجه إلى المطار..!!

تجولت في محيط كاتدرائية القديس شتيفان..وقطعت الأسواق التي تقود إلى قصر هوفبورغ..ووجدت نفسي في بارك قصر شوينبرون..كنت أنا ولست أنا..لم أكن أعرف ماذا أريد. كنت متوترة..أريد الهرب من حقيقتي.. غادرت البارك..ورجعت إلى المدينة القديمة..كانت الشوارع قد أقفرت قليلًا..رأيت مجموعات من الشباب الأوربيين..بنات وشبان يقبلون بعضهم بعضًا..بل رأيت في زاوية شارع مقفر امرأة تقرفص أمام رجل وتمص قضيبه بلهفة وشبق..!..شعرت بجسدي يسخن والرغبة تجتاحني..!

انتبهت إلى أن الساعة تجاوزت منتصف الليل قليلًا..لكني قد تعبت.. ولم يكن بمقدوري التسكّع في الشوارع أكثر..!..أوقفت تاكسيًا..ودون أن أنتبه للسائق صعدت السيارة..أخبرته باسم الفندق..نظر إليّ من خلال مرآته الأمامية وانطلق..كان رجلًا اشقر وسيمًا..على مشارف الخمسين..فيه ملامح من آدم آدمز..لكن الشاب المحامي كان على مشارف الثلاثين من العمر..!

لم أكن أعرف إلى أين يقودني..دخل أزقة..وألتفّ على جسور.. وفجأة، وجدت أن سيارة قد توقفت في مكان يكاد يكون طريقًا مسدودًا في غابة..!.

التفت السائق إليّ..لم يقل شيئا..وإنما خرج من مكانه وجاء ليجلس جنبي.. في المقعد الخلفي..كنت شبه مشلولة..وكانت لدي رغبة في أن أرى ما سيفعل بي..كنت خائفة لكن ثمة رغبة وأمنية في أن يخترقني رغما عني..! فأنا أريد أن يخترقني رجل..لكني أعرف أنني لن أطلب ذلك بنفسي ولا أبادر في ذلك..!..وبدون تردد مد السائق يدة إلى ساقي..وصعد بكفه إلى فخذي...وما بينهما..وأخذ يداعب فرجي الذي كان ساخنًا ورطبًا..لم يبدر مني أي رد فعل بالرفض..وبيده الأخرى فتح بنطاله..وأخرج قضيبه..وبدون أن يترك أية فرصة لي..تحرك وصار أمامي..سحبني إلى الأسفل قليلًا وفتح ساقي..رفع ثوبي..وأزاح سروالي جانبًا..وأولجه فيّ..ضغط علي بكل ثقله..أحسست بأنني أغرق في فيض اللذة..وبدون إرادة مني أحطت جذعه الأسفل بذراعي ضاغطة به إلى داخلي..وأنا أتلفظ بكلمات باللغة العربية.. كلمات كلها شبق.. وتوسل بأن يذلني ويخترقني..!..وملأني بالماء الفضي الذي أخذت رائحته تتصاعد في قمرة السيارة..!.

وكأن شيئًا لم يكن..صعد السائق إلى مكانه..وأعادني إلى الفندق..!..ما أن نزلت من السيارة وأردت أن أدفع له حتى غادرني دون أن يأخذ أجرته..!.. ولم يكن ثمة أحد في الفندق هذه المرة ايضًا.

صعدت إلى جناحي..وعند الباب من الداخل نزعت كل ما علي ودخلت الحمام لأنظف نفسي جيدًا فقد خفت أن أحمل من هذا السائق الغامض..!.. ودخلت فراشي عارية..ولم أعرف كيف نمت.

صحوت على صوت المنبه الساعة الخامسة..انتبهت إلى أنني قد نمت بثيابي..!..لم أفهم كيف جرى ذلك..؟ فقد استعدت أحداث الليلة الفائتة..

وأذكر أنني بعد الحمام..نشفت نفسي ودخلت السرير عارية فكيف أنا الآن في ثيابي...ثوبي الأسود الذي بدون أكمام..!

لم أضيع وقتًا في التفكير..أخذت حقيبتي وغادرت الجناح وكأني أهرب من نفسي وأفكاري..!.حين دخلت المصعد ضغطت على زر الطابق الأرضي..إلا أن المصعد أخذ يتحرك صاعدًا إلى الأعلى..بينما إشارات الطوابق تتناقص..!!؟ فجأة توقف..وفتحت أبوابه..وجدت نفسي في بهو الاستقبال..!؟ أين كنت أنا..في سابع طابق تحت الأرض؟؟؟ وكما بالأمس..لم يكن ثمة أحد في الفندق..وكأنما أنا في فندق مهجور..نظرت من زجاج الجدار المطل على الشارع فرأيت الشارع مقفرًا..والثلج يغطي كل شيء..كل شيء..استغربت..متى هطل الثلج..؟ خرجت من بوابة الفندق فرأيت تاكسيًا ينتظرني هناك..خرج السائق ليستقبلني ..لم أستطع تبين وجه السائق.. كان يلبس قبّعة من الجلد المبطن بالفرو والتي تغطي كل رأسه وجانبي وجهه..وكان يتلفع شالًا صوفيًا زيادة في اتّقاء البرد..فكان الشال يغطي وجهه ولم يظهر سوى عينيه.

قادني السائق في براري ثلجية..وكأنني لم أكن في فيينا وإنما في سهوب روسيا وسيبريا..ثلج وثلج وثلج..صحارى وجبال من الثلج..فجأة وقفنا أمام مبنى يكاد يدفنه الثلج أيضًا..ضغط السائق على زر فتح الصندوق الخلفي.. أخذت حقيبتي..وحينما أردت أن أدفع له..رأيته يتحرك مسرعًا تاركًا إيايَ في حيرتي..!..جرجرت حقيبتي خلفي ودخلت بوابة المغادرين..!

حين دخلت المبنى وكأني دخلت إلى عالمٍ ثانٍ مختلف..فقد كانت الضجة عالية والحياة تتدفق بحرارة وكأن داخل المطار ليس له علاقة بالعالم

الثلجي خارجه..! نظرت إلى لوحة المغادرة..وعرفت أن الكاونترات الخاص برحلتي تحمل الرقم سبعة..توجهت إلى هناك..! وسلمت حقيبتي.. واستلمت بطاقة دخول الطائرة..واستغربت أن مقعدي داخل الطائر يقع في الصف رقم سبعة!!؟.

صعدت الطائرة..وجلست في المقعد المخصص لي.. وما أن بدأت الطائرة بالإقلاع حتى وجدتني أنام نومًا عميقًا جدًا..وكأنني لم أنم منذ سبعة أيام..وصحوت على صوت المضيفة التي كانت تشبه موظفة الاستعلامات وكأنها توأمها..لتعلن شد الأحزمة استعدادًا للهبوط.!..وحين دخلت مطار مدينتي أحسست أنني عدت لنفسي من هذه الرحلة الغامضة..!

***

لم أخبر أحدًا عن تفاصيل رحلتي..ولا عمّا ورثته عن زوجي..ولا عن شرائي لشقة في فيينا..حتى لأختي التي سعت بكل الوسائل أن تعرف شيئًا عن الرحلة، لم تحصل مني جوابًا سوى أنني دفنت زوجي الأول هناك.

حينما كنت أختلي لنفسي كنت أستعيد تفاصيل الرحلة لقطة لقطة.. بل أخذت أركز على تفاصيل لم أعرها أي انتباه..!!..فمثلًا أنني لم ألتق بالمحامي الكبير آدم آدم مع أنه وعد بأنه سيدعوني إلى العشاء بعد أن ينجز كل شيء..! كما أن المطار الذي وصلت إليه لم يكن هو المطار الذي أقلعت منه!..وكيف تجرأ السائق بأن يأخذني بهذه الثقة..!!؟ ومن كان السائق الثاني الذي لم أر منه سوى عينيه بينما انتبهت الآن إلى كل جسده وقوامه وعينيه تؤكدان أنه كان السائق الأول..!..ثم كيف صعد المصعد إلى سبع طوابق إلى الأعلى والمفروض أن ينزل سبع طوابق..بينما مبنى الفندق ليس

مرتفعًا..!..وكيف اختفى الشاب الأشقر الوسيم فجأة..!..وكيف أنني نمت طوال الرحلة بحيث أغمضت عيني هناك وفتحتها فإذا بي هنا..!.

بدأت أشكك بأنني قمت برحلة أصلًا..!..لا.لا. هذا غير معقول..فتشت في حقائبي فوجدت البطاقات البنكية موجودة..كيف جاءت هذه البطاقات لو لم أكن هناك..كما فتحت الخزانة الموجودة في الغرفة والتي احتفظت فيها بالأوراق والعقود فرأيت الكيس الذي فيه أوراق البنك وعقد شراء الشقة وعقد بيع الفيلا..وما أن لمحته حتى ارتحت..إذن الرحلة صحيحة.. كل شيء على ما يرام برغم غرابته وغموضه..!..أنا غنية إذن..!

واصلت عملي في دائرتي..!..ووجدتني أعيد قراءة حياتي وما جرى لي فيها..واستيقظت في أعماقي رغبة بأن أعيد تواصلي مع حبيبي الأول آدم ابوالهيل..فبحثت عن أخباره من خلال وسائل الاتصال الاجتماعي.. ووجدته..وتواصلنا عن طريق الفيسبوك بشكل يوميً..وأخذ يعيد كلمات الحب..ووجدتني كالمراهقة أقضي الليل في محادثته..والتواصل المرئي والسمعي معه..! إلى أن اتفقت معه على اللقاء في مكان بعيد عن الأعين.. وصار القرار أن نلتقي في بيروت..وتعهدت أن أرسل له بطاقة السفر وأحجز له معي في الفندق..!

لقد تزوجت بلا حب..الحب الذي كنت أحلم به وعشته لفترة قصيرة حينما كنت في الجامعة..الحب الذي لم يكن مسموحًا فيه بالقبل ولا باللمس..حب رومانسي محاصر بالأخلاق وبحرّاس النوايا..!..وها أنا الآن أحب أن أعيش الحب..أن أشعر أنني محبوبة..وأنا أشعر أنني أحب رجلًا ما..أكرّس مشاعري له..!.

***

أحيانا ندّعي بأننا صرنا أكثر وعيًا من خلال تجاربنا إلى الحد الذي يمكننا أن نسدي النصائح الحكيمة للآخرين، وندّعي مع أنفسنا بأننا توغلنا في غابة الحكمة عميقًا..لكن يتضح لنا بأننا لم نفهم شيئًا..ولم نتعلم من تجاربنا شيئًا وأننا نبقى كائنات عاطفية ساذجة..نكرر الخطأ الساذج والمقيت مرة تلو الأخرى..وندّعي كل مرة بأننا ازددنا حكمة..! يا لهذه الحكمة الماكرة التي لم تنفعنا..!

لقد عدّت إلى حبيبي آدم أبوالهيل..عدّت ضعيفة..لاهثة..شبقة.. حالمة..كنت أريد بعد أن أحسست بسيطرتي المادية..وبعد رحيل أبي وأمي..وبعد تجربتي زواج فاشلتين.. أن أعيش سعيدة..أن أحقق ما حُرمت منه..لذا عدت أبحث عن حبيبي.. ويمكن القول أركض خلفه..أحاول أن أستعيده من العالم الذي أخذه مني..!

هو الوحيد الذي بحت له بما جرى في فيينا..وطبعًا لم أحدثه بما جرى في سيارة التاكسي ولا الأشياء الغامضة التي جرت..بل ولم أحدثه عن حقيقة مرض زوجي الأول..وإنما قلت له إنه كان مصابًا بالسرطان..!..كان في بداية تواصلنا يحاول أن يتملص من حبه القديم لي..وإن الحياة غيرّتنا..لكن حين أخبرته بوضعي المادي الجديد بدأ يلين ويعيد ذكرياتنا..وأنه برغم عدم إنكاره علاقاته خلال هذه السنوات لكنه لم يجد من يحبها مثلما أحبّني..!

لا أنكر أنه قد تغير فعلًا..وللأحسن..فقد واصل دراسته في السويد.. وكذلك في لندن..وغير من اختصاصاته..حيث درس علم الأديـان.. والانثربولوجيا..بينما أنا ضيعت حياتي في تجربتين فاشلتين..!.

بعد أن أبديت له رغبتي في رؤيته وأبديت استعدادي لتحمّل كل نفقات السفر والإقامة أبدى هو أيضًا رغبته..لأنني جسست نبضه ذات مرة فشكا

لي ظروفه المادية..!..المهم. أنا سعيت في دروب عديدة بحثًا عن سعادتي المفقودة..لكني لم أضمن أي درب منها..فقد كانت كلها خسائر أحاول أن أعوّض بها خسارتي لحبيبي..أو أخفف عن محنتي بتجربتي مع الأرملة وابنها الأعمى، التي لا يعرف حبيبي عنها ولا أي مخلوق آخر حرفًا واحدًا...

6

ما لـم يكـن في الحسـبان..

حاولت أن أنام تلك الليلة لكن بدون فائدة..تحممت ..أزلت كل الشعر بجسمي..ومسحته بالدهون العطرة..أنا أعرف ما أريد منه الآن..ولا أتردد في ذلك..سأجعله يلجني بنفس الوضع الذي عشته مع سائق التاكسي!..!.. هيأت نفسي لليلة حمراء.. وفكرت لحظتها بوصف «حمراء»..وسألت نفسي:لماذا تسمى حمراء..وليست زرقاء أو صفراء مثل اللون الذي أحبه..!

كنت مستلقية على سريري أتابع برنامجًا من قناة لبنانية حينما رن هاتف الغرفة..في الغرفة والصالة في آن واحد..فرفعت السماعة ..جاءني صوت موظف الاستعلامات الخفير..بأن التاكسي الذي سيقلني للمطار ينتظرني أمام باب الفندق..كنت متهيأة تقريبًا.. أخذت حقيبتي اليدوية المليئة بالليرات اللبنانية وبالدولارات وغادرت الجناح.

حين صرت في بهو الفندق وجدت بعض النزلاء العائدين كما هو واضح من المطاعم والمراقص الكثيرة..ولمّا صرت في الشارع كانت هناك حركة خفيفة..وكان التاكسي يقف أمام باب الفندق.

بعد ما يقارب العشرين دقيقة كنت في قاعة الاستقبال..وكان هناك الكثير من الناس الذين جاءوا لاستقبال أحبتهم..!..كنت موجودة مع هبوط الطائرة..وبقيت أنتظر لأكثر من نصف ساعة..انتبهت إلى أن هناك رجلًا

وسيمًا يتتبعني بنظراته المليئة بالكلام ..لغة أفهمها..لغة مليئة بالإعجاب لكن بالفجور وبالوعد بملذات لا تندم عليها امرأة..وربما من المعيب القول بأنني تمنيت لو أنني لست بهذا الموقف الذي أنا فيه لمنحته نظرة تحمل جواب قبولي واستعدادي للمغامرة..لكني أنتظر حبيبي..وخجلت من هذه الخاطرة الفاسقة التي مرقت في ذهني..فلم أعره انتباها وكما لو أنه غير موجود برغم أن وجوده في القاعة يحاصرني..وفكرت مع نفسي ربما هو من هؤلاء الجوكلو الذين يصطادون السائحات الباحثات عن المتعة..!

بدأ المسافرون يخرجون بحقائبهم..وهو لم يخرج بعد..!وبدأ المستقبلون يتفرقون مع أحبتهم الواصلين..وحبيبي آدم لم يخرج بعد..! ومضت ما يقارب الساعة حينما خرج من باب القادمين بدون أيما حقيبة.. فأدركت فورًا أن سبب تأخره هو عدم وصول حقيبته.. وبالتالي كان في انتظارها..وفي تسجيل فقدانها أو عدم وصولها..!

انتبهت له..فوجئت بسمنته برغم أنني كنت أرى وجهه في السكايب.. لكني لم انتبه لكرشه الذي صار من مواصفات جسده ..كان قد تغير..صار أكثر رجولة..وجدية..وتعبًا. وانتبهت إلى اللامبالاة..والغضب في عينيه.. لكن ما أن رآني حتى تألقت عيناه بالدهشة السعيدة والفرح المكتوم..

في تلك اللحظات انتبهت إلى أننا كلانا عدنا إلى آخر لقاء بيننا آخر الجامعة ونسينا كل هذه السنوات التي فرّقت بيننا..لكن ما أن اقترب وصار على بعد متر..أحسست أننا كلينا مرتبكان..كيف سنحيي بعضنا.. بالمصافحة أم بالأحضان..وكان هذا الأمر مهمًا جدًا لأنه سيحدد طبيعة علاقاتنا..! وفكرت بسرعة خارقة بأنه لو صافحني فسيعني أننا سنعيش في

جناحين مختلفين، ولو احتضنني فأننا سنعيش في الجناح نفسه..! ..تأملني للحظات..ثم فتح ذراعية فألقيت بنفسي بين ذراعيه..!.

حين مررنا من جانب المقهى القريبة من بوابة الخروج لمحت الرجل الوسيم الجوكلو..حبيبي لم ينتبه.. لكني ألقيت عليه نظرة متفحصة فقام بحركة من لسانه..حركة وقحة..تدل على اللحس..فارتبكت..صُدمت لوقاحته وجرأته..وضعت رأسي على كتف حبيبي ونحن سائران نحو البارك المقابل لبوابة المطار حيث ينتظرني السائق هناك.

في الطريق من المطار إلى الفندق كان ثمة توتر اللقاء الأول وفراق السنين لايزالان يهيمنان على حوارنا لاسيما وأننا لسنا وحدنا.. فالسائق بدا فضوليًا لسماع حوارنا..أخذت أسأله عن الحقيبة وأخذ هو يشرح لي التفاصيل منذ تسليمها في مطار كوبنهاكن إلى آخر حوار له من أحد المسؤولين في المطار..!..لكني بصراحة لا أعرف لماذا فكرت أنا، وهو يتحدث، في الرجل الوقح في قاعة المطار كيف تجرأ وقام بحركته تلك.. هل بي ما يوحي بأني امرأة شهوانية وأني أحب اللحس!!؟ أنا أعرف نساء أشكالهن توحي بأنهن عاهرات شبقات علما هن يعشن في عزلة تامة..! فهل أنا هكذا..! أم هو يعرف السائحات اللاتي يأتين للبنان حيث معظمهن يعشن تجارب جنسية بهذا الشكل أو ذاك..!

أحيانًا يهرب الرجال والنساء من الكلام إلى حركات جسدية تعبر بهذا الشكل أو ذاك عن مشاعرهم..قد يحضنون بعضهم البعض بحرارة ولهفة وقوة..قد يكون ذلك اشتياقًا حقيقيًا ورغبة ملتهبة فعلًا..وقد يكون هروبًا من فراغ المشاعر نحو الآخر وخواء الأعماق والخوف من مواجهة هذا الخواء

و الانتباه له من قبل الآخر ورؤيته متجسدًا في خواء النظرات..عندها يكون الاحتضان أسهل وسيلة للنجاة..!

لا أدري طبيعة مشاعرنا أول ما وصلنا..لأنه ما أن دخلنا الجناح وأقفلنا الباب حتى احتضنني وضمني إليه دون كلام..أحسست بتوهج الرغبة لديه.. عصر صدري ومد يده بين فخذي..توهجت أنا..لكنه سرعان ما سأل عن الحمام..وأخذ ينزع ملابسه وهو في طريقه إلى هناك..! تعرى ودخل كابينه الدش..كنت مشوشة المشاعر..سعيدة..ومرتبكة..متهيجة..ومتعقلة.. وفجأة راودتني فكرة جريئة..فأخذت أتخفف من ملابسي..صرت عارية بالكامل..وتوجهت إلى كابينة الدش..رغبت أن أتحمم معه..وأمارس معه هناك..فكثيرًا ما رأيت هذا المشهد في السينما لكني لم أجربه..وحين فتحت باب الكابينة ورآني عارية اندهش..وأخذني إلى حضنه وهي يقبلني قبلات شبقية حامية.. والتحمت معه..كان الماء ينهمر علينا.. ووجدتني أنزل متربعة أمامه..وأخذت قضيبه المنتعظ في فمي..انتبهت لنفسي وأنا ألهث شبقًا..لم أترك زاوية هناك لم أمرر لساني عليها..فجأة أوقفني على قدمي.. وأدارني ووضع كفي مستندة على جدار الكابينة واخترقني..!

كان كل شيء رائعًا..كان يلهث بكلمات الحب والشبق..لكنه في الأخير قال جملة دمرت كل هذه الأحاسيس الجميلة التي صدرت منه..ففي حمّى شبقه قال لي:

- يبدو أنك صرت خبيرة في النيك..فنانة في المص..!

لا أعرف ما الذي هزني في تلك الكلمات العابرة..لكني اعتبرتها إهانة لي..فقد كان تأثيرها عليّ وكأنه يقول لي أنت صرت عاهرة مبتذلة..!..ولم

يصدر عني أي رد فعل سلبي يدعو إلى الانتباه..وإنما توقفت..وخرجت من الحمام ملتفة بالبرنس القطني..وبعدها بدقائق خرج هو..لا أدري إن كان قد انتبه لوقع كلماته عليّ أم لا..ولا أعتقد ذلك..فهذه الكلمات ربما تعتبر مديحًا لبعض النساء..!.

جلسنا في صالة الجناح..فتح الثلاجة الصغيرة وأخرج منها قنينة نبيذ فرنسي أحمر..سكب النبيذ الأرجواني القاتم في قدحين فارغين كانا في صينية على الثلاجة..وجاء يحمل الكأسين.. أخذت كأسي..وقال لي بمودة:

- نخب حبنا العظيم..!

- نخب حبنا يا حبيبي..

لكن لا أعرف لماذا شعرت بخواء كلماته..وزيفها..لا أعرف..ثمة إحساس داخلي راودني مؤكدًا لى أن هذه الكلمات غير صادقة ..وهي أقرب إلى جملة عاطفية شاعرية تقال في رواية عاطفية للمراهقين..! ..لكنني لم أدع هذه الخاطرة تعكر علي متعتي باللقاء.. فسألته أن يحكي لي ما جرى معه منذ هجرته قبل سنوات..

حكى لي عن هجرته إلى اليونان..وعمله هناك مع أصدقاء آخرين في مزارع الزيتون بطريقة غير شرعية..ثم عمل بحارًا..أو بشكل أدق عاملًا على ظهر سفينة لصيد الحيتان والأسماك ..شغيلًا منظفًا.. وزار البحار كلها.. ووعدني بالحديث عن ذلك لأن ذلك يحتاج إلى ساعات من الحديث..ثم كيف أنه مع أصدقاء له نزلوا ذات مرة في موانئ إحدى المدن..ولم يرجعوا إلى السفينة..وإنما طلبوا اللجوء السياسي في السويد..وكيف أنه بعد فترة حصل على الاعتراف والأوراق الرسمية..وأخذ يدرس الماجستير في

تخصصه الأول: الفلسفة..ثم غير اختصاصه ليدرس علم الأديان المقارن والانثربولوجيا..وبعد ذلك سافر إلى بريطانيا لتكملة الدكتوراه هناك بعد أن حصل على الجنسية السويدية..فسألته لماذا علم الديان المقارن..فقال لي إنه وجد أن مشكلة شعوبنا ليست في الصراع الطبقي والاستغلال وإنما في الدين..فمعظم اا‌لفقراء مقتنعون بأن الأزراق موزعة من الله..وليس للأمر علاقة برأس المال واستغلال فائض القيمة..والنهب..وأنهم غارقون في العزاء والرجاء طلب الشفاعة من الأولياء لنيل مرادهم..!

لست متدينة لكني تضايقت لحد ما من كلامه..أحسست أنه يدينني أيضًا..فأنا واحدة من هؤلاء الناس الذين يتحدث عنهم.. برغم أن أبي كان علمانيًا..لكني كفرت بمبادئه لما وجدته لا يصمد ويثبت على هذه المبادئ.. بل كنت أصارع أهلي دفاعًا عن حبيبي الفيسلوف..كانت القضية بالنسبة لي هي نقد المجتمع وتقاليده البالية والاحتجاج ضد اللاعدالة.. ولاسيّما بالمقدسات التي احتفظ في أعماقي باحترام لها..! فجأة قال لي:

- أتعرفين..إنه لم يظهر في كل تاريخ البشرية أنبياء إلا في الشرق الأوسط..لا أنبياء في تاريخ العالم كله إلا في هذه البقعة من الأرض التي عرفت آلاف الأنبياء..!!لا في أوربا ولا في شرق آسيا ولا في القارتين الأمريكيتين..وعلى مدى تاريخ البشرية كله لم يظهر نبي..أي نبي..وأية نصوص مقدسة مهووسة بالجنة والجحيم مثلما لدينا..كل التاريخ الأوربي منذ القبائل المتوحشة الأولى وانتهاء بالحضارة الرومانية مرورًا بالحضارة الأيونية والهيلينة الإغريقية..لم يعرف الأنبياء..وإنما عرف الشامانات.. الأديان الأوربية والعالمية قاطبة وبلا استثناء عرفت السحرة والعرّافين..من

الرجال والنساء..! ولم تعرف الأنبياء.. ربما عرفت أديانهم الوثنية الجحيم.. عرفته بحكم البيئة كأقسى أشكال العذاب..الإغريق والرومان سموه (هاديس)..حيث الحمم البركانية وأنهار النار في أعماق الأرض..وهذا نتيجة لكثرة البراكين في أوروبا..البراكين التي تنطلق من أعماق الأرض لتدفن المدن تحت حممها ورماد الملتهب..!ديانات القطب الشمالي والجنوبي عرفت الجحيم..لكنه الجحيم البارد..تلك الشعب والوديان المظلمة في أعماق جبال الثلج الأبدي...!لكن كل هذه الحضارات لم تعرف الفردوس والجنة كما عرفتها أديان الشرق الأوسط..!وللدقة...فأن اليهودية لم تهتم في نصوصها المقدسة بالجنة ولا بالجحيم..!المسيحية عرفت الجنة الفردوس لكنه الفردوس الذي عرفه دانتي اليغيري..الصفاء الروحي والتسبيح الإلهي..عالم الأرواح والمثل..وحده الإسلام يصف جنة الملذات والجنس وأنهار الخمر والعسل واللبن..!هل للأديان علاقة بالبيئة التي أنجبته..!..لا أدري..

كان هو مستغرقًا في تداعياته ولم يلاحظ التغيرات التي طرأت على وجهي..فقد وجدت نفسي انفجرت في وجهه بشكل مفاجئ استغربته في نفسي وكأنني لم استقبله منذ ساعة تقريبًا:

- أنت لا تزال ملحدًا..الجلوس معك والحديث معك تُعد خطيئة في مجتمعنا..أنني أشعر بالخوف منك.. لو أبقى معك أكثر سأصير ملحدة ؟

صُدم من ردة فعلي فحاول أن يخفف من كلامه فقال بهدوء مستغربًا:

- هي مجرد تداعيات وأفكار..ما بك..أنا أتحدث بشكل تاريخي.. هل تحولت إلى إسلامية..؟

نظرت إليه متأملة..وقلت مبتسمة وكأنني أكتشف شيئًا.

- أنت هو العنكبوت الذي جثمت على صدري في النوم....!

ارتسمت الغرابة على وجهه وقال بما يشبه الاستنكار:

- ماذا..؟

أردت أن أخفف الموقف وأتراجع عما بدر مني فقلت شيئًا زاد الطيب بلة..وجرّ إلى كارثة غير متوقعة:

- نعم..نعم..البارحة رأيت كابوسًا..خناقًا..بأن هناك عنكبوتا في فراشي..عنكبوتًا صعدت إلى صدري..وهذا هو تفسيرها.. أنت العنكبوت المرعب الذي يريد أن يشوش عليّ راحتي النفسية وإيماني..!.

لم أكن أتوقع ردة فعله..أية حماقة ارتكبت..لماذا تفوهت بتلك الكلمات التي لم أكن أعنيها بالضبط..فلست بالمرأة المتدينة..ولا الدين يعنيني..فلِمَ كانت ردة فعلي هكذا..!..ما الذي أردت أن أثبته من خلال كلماتي تلك..!!؟

فجأة..وبهدوء وصمت وضع كأسه على الطاولة التي أمامه..نهض من مكانه..لبس ثيابه بصمت دون أن ينظر إليّ وكأني غير موجودة..توجه إلى الباب الخارجي..كنت أنظر إليه منذهلة..لا أتحرك..ولا أقول شيئًا..كنت أستشعر حدوث شيء خارق.. وكأنني أرى مشهدًا مكررًا..بعيدًا..ربما حدث معي أو مع غيري..لا أعرف..!

فتح الباب الخارجي ..وقف هناك..التفت فجأة نحوي وقال بنبرة فيها عتاب ومرارة:

- لستِ حواء التي أحببتها.. العنكبوت ياحواء في علم النفس هو فرج المرأة..أو ما له علاقة به..ثم أنني لستُ عنكبوتًا وأنت لست قديسةً، فلِمَ تلعبين دور الداعية المؤمنة..لم أجئك لكي أشوش عليك راحتك النفسية وإيمانك..منذ متى صرت شيخة وداعية دينية..!! ظننت أنني سألتقي حواء التي عرفتها..لكني وجدت نفسي لا أعرفك..ولا أدري إن كنت أنت نفسك تعرفين نفسك..أنك عميـــاء يا حـــواء..أظننت أنكِ بمالك يمكنك أن تشتريني وتسيطري علي وتملكيني..أنت الآن غنية..مليونيرة..يمكنك شراء الرجال والنساء..لكني لست للبيع يا حـــواء..!!؟؟!

وغادر الجناح طابقًا الباب خلفه بقوة.

بقيت كلماته ترن في أذني حتى بعد أن غادر الجناح..ترددت كلماته بصوت أعلى مما قالها هو..كلمة كلمة:

لست حواء التي أحببتها..لستُ عنكبوتًا..وأنت لست قديسة..فلِمَ تلعبين دور الداعية المؤمنة..لم أجئك لكي أشوش عليك راحتك النفسية وإيمانك..ظننت أنني سألتقي حواء التي عرفتها..لكني وجدت نفسي لا أعرفك..ولا أدري إن كنت أنت نفسك تعرفين نفسك..أنت عميـــاء يا حـــواء..ظننت أنك بمالك يمكنك أن تشتريني وتسيطري علي وتملكيني.. أنت الآن غنية..مليونيرة .. يمكنك شراء الرجال والنساء..لكني لست للبيع يا حـــواء..!!؟؟!

7

كوابيس البنابة المحترقة..

لم أصدق ما جرى..هل أنا تغيرت إلى هذا الحد البشع الذي رفضني فيه الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي..رفضني بهذه الطريقة المهينة وكأني نجاسة يجب الابتعاد عنها..! وماذا قلت له حتى يلقيني في الغياب والنسيان ويحكم علي بالتفاهة..!..

لقد استعدت جملي التي قلتها له..فقد علقت على كلامه عن غياب الأنبياء في التاريخ العالمي وحضورهم المكثف في الشام والجزيرة العربية بأنه لا يزال ملحدًا..وأن الجلوس معه يُعدّ خطيئة في مجتمعنا..وأنني أشعر بالخوف منه..لأني لو بقيت معه أكثر سأصير ملحدة..ثم قلت له بأنه العنكبوت التي جثمت على صدري في النوم..وإنني البارحة رأيت كابوسًا.. خناقًا..بأن هناك عنكبوتًا كانت في فراشي..عنكبوتًا صعدت إلى صدري.. وهذا هو تفسيرها..هو العنكبوت المرعب الذي يريد أن يشوش عليّ راحتي النفسية وإيماني..!..هل ترى هذه الكلمات فيها من الإهانة تدفعه إلى تركي والمغادرة بعد ساعة من لقائي به تقريبًا وهو الذي جاء من شمال العالم لرؤيتي..!!..

إن كلماته برغم الهدوء التي قيلت فيه قد حطمتني..دمرتني..جعلتني صغيرة أمام نفسي..:" لستِ حواء التي أحببتها..أنا لستُ عنكبوتًا وأنت

لست قديسةً ، فلِمَ تلعبين دور الداعية المؤمنة..!!"..أو „ إنك عميــاء يا حــواء..أظننت أنكِ بمالك يمكنك أن تشتريني وتسيطري علي وتملكيني.. أنت الآن غنية.. مليونيرة.. يمكنك شراء الرجال والنساء..لكني لست للبيع يا حــواء.. !!؟" ..ياإلهي..يا له من مجنون حبيبي هذا..أأنا أشتريه هو..!! وأنا التي دافعت عنه وأحببته لنزاهته وصموده أمام المغريات!!..لا أنكر.. ربما راودتني مثل هذه الأفكار، فكل من يحيط بي يسعى إلى المال..وزوجي الثاني..طليقي الثاني شفطني شفطًا..سلبني مالي ومال بنتيّ ودفعني لبيع شقتي التي سجلها زوجي الأول باسمي..أخوتي وعمي وكل ما أعرفه يلهث وراء المال..فلِمَ هو الاستثناء..!! ..

وقد راودتني هذه الأفكار عنه بعدما كان يتردد في المجيء للقائي ويشير بأن وضعه لا يسمح له..ولاحظت سعادته عندما عرضت عليه تحمّل كل النفقات..وراودتني خواطر عن قبوله لي وتغير لهجته بعد أن عرف بأني صرت غنية.. لكنه أثبت الآن أنني مخطئة..!..ما الحل..؟ وإلى أين ذهب هذا المجنون الرائع في مثل هذا الوقت..؟ يا لي من غبية..كيف لم أوقفه وأثنيه عن الخروج ..!! وكيف كنت أتأمل المشهد وكأنه استعادة لمشهد جرى معي أو مع غيري..!! أنني أحتقر نفسي..عليّ البحث عنه..! لألحق به..!.

***

لبست ثوبي وانتعلت حذائي الصندل ونزلت خلفه مسرعة..لم أجد له أثرًا في الممر طبعًا..وحين خرجت من المصعد وجدت امرأة كنت قد قابلتها في بهو الفندق تتحدث إلى موظف الاستعلامات الخفير..وتعارفنا.. وقدمت لي نفسها بأن اسمها حواء المعلم، لكنها كل الوقت حدثتني عن

اختها حواء بياع الخواتم..واستغربت حينها اختلاف الاسمين..هل هي أختها من أمها..فابتسمت حينها قالت لي: لا..لكنها أخذت اسم عائلة حبيبها وزوجها..ثم بيّنت لي بأنها هنا للقاء أختها الأخرى القادمة من بلد خليجي..!

نظرت إلى البهو حيث مقاعد الاستراحة فرأيت امرأة ثلاثينية مثيرة الشكل مع أبنائها كما يبدو..فتاة في الرابعة عشرة من العمر وصبي في الثانية عشرة وآخر في الثامنة وصغير في الرابعة..وخمنّت أنها الأخت القادمة من الخليج..وعلى مقعد مقابل لهم يجلس حبيبي آدم أبو الهيل..وهو يدخن سيجارة لا أعرف من أين حصل عليها..!..

دونما أي كلام أو عتاب جلست إلى جانبه..وعلى الرغم من أنه رآني إلا أنه لم يحدثني..ولم يعرني انتباهًا..ظل في غضبه المكتوم ينظر إلى الجهة الفارغة من البهو أو يحدّق إلى الأرض..لكنه لم يصمد في أن لا ينظر إليّ فكما قيل لي إنني جذابة لاسيما للرجال..فكيف بالرجل الذي أحبني وجاء من أقاصي الشمال ليراني!! فجأة.. التفت إليّ فالتقت نظراتنا..أحسست بأن نظراته كانت غاضبة لكنها ناعمة..فيها غفران وشفقة..ورغبة خفية في المصالحة..وكأنه يقول لي أنت حمقاء..لكني أحبك.!.

كانت المرأة المثيرة الجالسة تنظر إليه نظرات متفحصة غير مبالية بوجودي إلى جنبه..ولم تمر دقائق قليلة حتى جاءت المرأة التي اسمها حواء المعلم..ألقت التحية عليّ وتوجهت لحبيبي بالقول: حمد لله على السلامة..فوجد نفسه مضطرًا أن يبتسم لها بأدب ويرد على تحيتها..ثم قدمت لي أختها وقالت إنها وصلت للتو مع أبنائها.. ويبدو أن حبيبي آدم

أبو الهيل ما زال خجولًا كما عرفته..إذ قام فجأة..فقمت معه..وقامت المرأة الثلاثينية أيضًا..سلمت حواء المعلم مرة أخرى متمنية لنا ليلة سعيدة..!.. ووجدت حبيبي يتجه نحو المصعد..فلم أتمالك نفسي إذ ألقيت بنفسي على ظهرة بمحبة وكأنني أعتذر منه عن كل السخافات التي بدرت مني..!..وما أن فتح باب المصعد حتى دفعته أمامي بحركة طفولية..وحين بدأ المصعد بالتحرك ألقيت نفسي في حضنه، وأخذت أمد يدي تحت قميصه.. فالتهبنا معًا.. لكنه أخذ ينظر إلى أعلى المصعد منتبها إذا ما كانت هناك كاميرا..! لذا لم يتجاوب معي..وفي الممر كنت التصق به..لكن ما أن دخلنا الجناح حتى هجم أحدنا على الآخر..وخلال لحظات كنا عراة وكنا نقوم بحركات عنيفة..ربما تبدو للناظر من بعيد بأننا نتصارع بعنف..ويحاول أحدنا أن يلتهم الآخر عضًّا.!..

تلك الليلة كانت الليلة الأولى في حياتي التي عشتها بكل أحاسيسي وأنوثتي وشبقي وحبي ومشاعري.. وأحسست وأنا أنام بين ذراعيه ورأسي على صدره وكتفيه بأنني امرأة سعيدة حقًا.

***

– حواء.. حبيبتي ما بك..استيقظي..حواء..؟

فتحت عيني ..كنت أشعر بحر شديد..جسدي متعرق..حاولت أن أستيقظ..أعرف أنني يقظة..لكني ما زلت في كابوسي.. عقلي يفكر..بأنني استيقظت من كابوس..لكني لست هنا..كنت مرعوبة من كائن مظلم كان يسحبني كي أبقى في كابوسي.. كابوس مرعب..حيث أخذني هذا الكائن المظلم وألقاني في قطار منطلق بسرعة هائلة..قطار مشتعل تنطلق النيران

من عرباته ..نوافذه..سكته..كنت وحدي في هذا القطار..وسمعت أصواتًا مخيفة وكأنها نفير إسرافيل..أخذت أصرخ من الرعب.. صحوت..بيد أني أدركت بأني ما زلت في كابوسي..لكني صحوت منه..ولم أصحُ ..فجأة سمعت صوت حبيبي يوقظني: حواء..حبيبتي ما بك..استيقظي حواء !!.. في تلك اللحظة استيقظت من يقظتي..!.

أحسست بالأمان حين رأيت وجهه القلق المتأثر بصراخي..نظراته التي فيها من الطمأنينة المحبة ما أعاد لي هدوئي..وخفف من توترتي وانقباضي الداخلي..ووجدت نفسي أخفي رأسي في صدره..فاحتضنني برفق وكأنه يحتضن طفلة صغيرة خائفة.

عشت أجمل أيام عمري..كنت أدرك أنها أيام وستنقضي..وفكرت بأنني بما أملك من مال يمكنني العيش في فيينا..ويمكنه أن يعيش معي في شقتي.. وفاتحته بالأمر..فأبدى استعداده للعيش في مدينة موتسارت وفرويد ويونغ وآينشتاين كما أخبرني..!.

قضينا أياما جميلة..في النهار نمضي في رحلات مختلفة..الى مغارة جعيتا..إلى الجبل.. شتوره.. تجولنا في مناطق بيروت.. الأشرفية.. وسط البلد..كورنيش المزرعة..الأوزاعي والفكهاني حيث استرجع هو ذكرياته فيه..إلى الميناء..نتجول على الروشة وامتداداتها.. نمشي لساعات دون أن نتعب.. ننزل هابطين إلى الرملة البيضا..أو نصعد قاطعين الروشة إلى المنارة ومنها ننزل طريقًا يسمى طريق باريس إلى أن نصل ميناء الحصن ونتوقف عند مطعم هناك ..بعد ذلك نأخذ سيارة أجرة إلى الفندق..!..أو كنّا نتجول في الحمراء..ونزور مكتباتها العديدة..نشتري الكثير من الكتب..!..

أنا اشتريت عددًا من الروايات..بعضها كنت قد قرأتها قبل سنوات لكن رأيتها الآن بطبعات جديدة فاشتريتها ثانية..لاسيما روايات د.ه.لورنس، أنيس نن،إيزابيل الليندي، هنري ميللر. وبعض الكاتبات العربيات اللبنانيات والسوريات..!بينما هو اشترى كمية كبيرة من الكتب الفلسفية والتراثية. وياليتنا لم نشتر الكتب، إذ أخذ يقضي معظم وقت تواجدنا في الغرفة في تصفح الكتب وقراءة ما يستهويه منها..!حتى صرت أغار من الكتب..!أنا التي أنوي أن أكون كاتبة!!

لقد تزوجت بلا حب..لكني أحلم بالحب وأريد أن أشعر بأنني محبوبة.. وأن أحب أنا أيضًا..أريد أن أكرّس مشاعري لشخص ما ..!..وها هو حبي الأول آدم أبو الهيل..لكن لماذا يراودني شعور بأنه لا يكرس كل نفسه لي..!! هو يحبني ويقول لي ذلك، لكنه يحب حواء الكتبي التي في ذهنه والتي تركها على الرصيف مقابل الكلية ..وحتى في ذلك الوقت فهو لم يعرفها على حقيقتها..لم يعرف قصتها مع الأرملة وابنها الأعمى..ولا تفاصيل ما جرى مع زوجها الأول..ولا الثاني إلا بما هي قد أخبرته به..فماذا لو عرف ذلك..!!؟..لا.لا. أنا نفسي لا أريد أن أتعرف على نفسي ..ولا أريد استرجاع سيرة الماضي..!..لكني في الحقيقة أعيشه..أنه جوهري.. وشلال ذكرياتي الذي لا يتوقف للحظة..وعالمي الداخلي الذي لا أمل في الخلاص منه..عالمي الذي هو أنا..وجهي الحقيقي..!.

هذا الصباح انتبهت إلى الأختين حول مائدة الفطور في البوفيه مع بقية أبناء الأخت..كانوا يجلسون حول مائدة مجاورة لنا..وكانت الأخت القادمة من الخليج تنظر إلى حبيبي آدم بوقاحة ظاهرة دون اعتبار لوجودي معه..

وراودني شعور أن آدم منتبه لنظراتها المليئة بالرغبة ومستمتع بأن يكون محبوبًا..! فراودتني مشاعر الغيرة..لكني لم أود أن أبدو ضعيفة وغيورة أمامها أو مبالية أمامه..فأبديت شجاعة مزيفة حينما قلت له: تلك القادمة من الخليج تنظر إليك وكأنك تريد أن تلتهمك..! ارتسمت علامات الرضا والغرور الرجولي على وجهه ثم ابتسم بمكر قائلًا: ثم ماذا..هي ليست أجمل منك..!..

صحيح أن جوابه كان مجاملًا..وربما يرضي غرور غيري لكني وجدت جوابه غير مناسبًا..فقلت له مبتسمة: وإذا كانت أجمل مني هل كنت ستجاريها..!!؟..ارتبك من سؤالي الذي حصره في الزاوية فقال مبررًا بكلام إنشائي عام: لا أبدًا..لم أقصد الجمال الخارجي..وإنما أقصد الجمال الروحي.. جمال شخصيتك..ابتسمت لهذا الجواب الساذج المراوغ، بينما أخذت تتصاعد في داخلي رغبة في التحدي والمواجهة فقلت: ومن أين يمكن معرفة الجمال الروحي..!؟ هذا الأمر يأتي من خلال التقرّب والاحتكاك والمعرفة الشخصية والحوار عندها يمكن الحكم على جمال الشخصية الروحي..أليس كذلك..؟ فربما لو تعرّفتَ عليها ستجدها أجمل مني..!..نظر إليّ نظرة متفحصة وبدأ هجومه حينما سألني: ما بك..؟ أتغارين منها..؟ شعرت بأنه غاضب مني لأني شوشت على نشوته الرجولي باعجاب المرأة به، لذا يريد أن يعاقبني، فقلت متحدّية وعلى وجهي ابتسامة مصطنعة: أغار..؟ أغار من تلك..؟ لِمَ أغار..؟ إذهب إليها..وحاول أن تتعرف إليها وإلى جمالها الشخصي والروحي..ولن أغار..!..لحظتها توقف عن الأكل.. نظر إليّ مستغربًا وكأنه يريد أن يرى جدّية دعوتي له بالتعرف إليها..لكنه

تماسك ..وقال لي بنبرة فيها تكلّف أخلاقي أكثر مما فيها من وفاء وحب: أنت مجنونة..أنا جئت إلى هنا من أجلك أنت وليس من أجل أحد آخر..!

ابتسمت..وانتبهت لنفسي إلى أني تماديت قليلًا..لكن رغبة المشاكسة ظلت في داخلي..!..لحظتها تمنيت لو أني غبية ولا مبالية..! إذ يحدث أن أعرف خبايا نفوس الآخرين وأسرار ما يدور فيها..أعرف رغباتهم الغامضة التي يعجزون عن تحقيقها..وكثيرًا ما أجد نفسي عاجزة عن مساعدتهم.. فأتألم..لكني الآن أعرف ما يدور في نفسه من رغبات..ربما راودته أحلام يقظة معها..فهي وبصراحة امرأة مثيرة جدًا..شبقها يطل من كل حركة ونظرة والتواءة في جسدها.. لكن آدم أبو الهيل الذي هو حبيبي يكتم رغبته فيها.. وقررت أن أجرّبه..لكن هل يا تُرى أنا مريضة!! لماذا أفعل ذلك وأنا أحس أن ذلك يؤلمني حقًا وينتقص من كرامتي..! هل لأبرر لنفسي خيانته..! ما بي..لم يبق لي هنا سوى ثلاثة أيام وأغادر.. فلماذا أعذب نفسي بهذا الأمر.. ما هذه النزوة الغريبة التي تملكتني..!.

فجأة نهض حبيبي آدم أبو الهيل عن المائدة..ألقى نظرة عليّ ثم نظرة على المرأة القادمة من الخليج..وقال لي: أنا صاعد إلى الجناح ..!.. أحسست بأنه غاضب..لكني تماسكت..وقلت له سألحق به بعد أن أنهي قهوتي..وانتبهت إلى أن المرأة الأخرى تنظر إليّ مستفسرة ومرتبكة..! لكني لم اشأ أن أبين بأن توترًا جرى بيننا فابتسمت وعلى وجهي نظرة انتصار.

فجأة جرى ما ألهاني عن هذه المشاعر المضطربة كلها..إذ دخل البوفيه الرجل الجوكلو الوسيم الذي التقيته في المطار ومعه امرأة على مشارف الخمسين..امرأة تضع الكثير من المكياج والعقود والخواتم الثمينة لكن

كما هو واضح أنها سائحة..ثرية..!..تجول بنظراته في البوفيه واستقرت عليّ مباشرة..ابتسم لي وكأن بيننا معرفة مسبقة..أحنى رأسه لي من بعيد بالتحية.. وتوجه إلى الطاولة المجاورة لطاولتي والتي كانت فارغة..!.. وبصراحة أحسست بارتعاشة لذيذة تسري في جسدي.. أردت البقاء لكني كنت قد أنهيت قهوتي..ولم أشأ ان أتأخر كثيرا على حبيبي..فقمت من الكرسي..وحينما صرت على مقربة منه..نظر إليّ وحرك لسانه بطريقة لم يفهمها غيري..لكنها كانت بالنسبة لي مكشوفة وداعرة بما يكفي.. واستغربت أن ردة فعلي لم تكن سلبية إذ نظرت إليه بلا مبالاة وعلى وجهي ابتسامة غامضة.!. فابتسم وكأنه تلقى موافقتي..!!.

حين دخلت المصعد متجهة إلى الطابق السابع كان وجه الرجل الوسيم وحركة لسانه هي التي تهيمن على تفكيري..وتخيلته في تلك اللحظة أمامي داخل المصعد مقرفصًا وهو يلحسني..!..وصحوت من تخيلاتي الشبقية حينما صرت قرب باب جناحي.. ودخلت..!.

رأيت حبيبي مستلقيًا على الصوفا في الصالون..وهو يمسك كتابًا.. كان وجهه مليء بسكينة واستسلام لكن ما أن دخلت حتى التفت نحوي وارتسمت ملامح زعل غير معلن على وجهه وقال لي بأني تأخرت !! فأجبته بأنني أنهيت شربي لقهوتي لا أكثر..وانتبهت إلى أنه يقرأ كتابًا في علم الجمال..واستغربت..فقد قرأنا أمس مصادفة على واجهة إحدى المكتبات في الحمرا بأن هناك معرضًا عالميًا متنقلًا متخصصًا في موضوع „ جمال الوجوه في الفن Facing Beauty»..وكان البوستر يعرض لوحة كبيرة لوجه الكاتبة التي أحبها جدًا فرجينيا وولف للفنان جورج بيرسفورد..

والغريب أنني كنت أتصور هذا البورتريت صورة فوتوغرافية..!! المهم..أن حبيبي رفض الذهاب لزيارة المعرض..بل ولم يتوقف عند البوستر الإعلاني الجميل..فانتبهت أنه يقرأ عن الجمال لكنه لا يتذوقه في الفن..فالجمال بالنسبة إليه مفاهيم نظرية يستطيع أن يشرحها بالتفصيل الممل، لكنه ربما لا يحسّه ويتذوقه حقًا.. !..

وتذكرت أيام الجامعة حينما كان يتناقش في الموسيقى الكلاسيكية ويشرح سيفمونيات بيتهوفن إعتمادًا على قراءاته وليس من خلال سماع الموسيقى نفسها..وأحسستُ بالشفقة عليه..لا أعرف لماذا غمرتني أمواج من الشفقة والحنان نحوه..وكأنه طفلي الكبير..فهو جزء من سيرتي.. أشفقت عليه ليس لذاته وإنما لأن شعور الشفقة نحو الآخرين يمنحني الراحة والنشوة..كمن يفعل الخير لاحبًا فيه وإنما ليكون راضيًا عن نفسه وليغمره الشعور بأنه خيّر..! فجأة.. جلس على الصوفا ووضع الكتاب الذي بيده جانبًا وقال مفتعلًا الحزن:

- أتدرين أن رحلتي ستكون بعد سفرك بيوم..أنت تسافرين صباحًا وأنا بعدك بيوم أسافر عصرًا..!

فوجئت..وأحسست بمشاعر غيرة غير مريحة حاولت السيطرة عليها وكتمانها، فقد تخيلته وحده في الجناح مع تلك المرأة القادمة من الخليج على الرغم من أنها لا يمكنها أن تكون لي ندًا..فقلت:

- ألا يمكنك تقديم الرحلة كي نسافر في نفس الوقت..!

- أنت بنفسك من حجز لي البطاقات..ولو كانت هناك رحلة لما تم الحجز بيوم متأخر..! موعد الخطوط الجوية والرحلات ثابتة تقريبًا..

فقلت وأنا أغصب نفسي على الابتسام:

- إذن أنا سأؤجل سفري ليوم..حتى لو استدعى ذلك أن أتأخر يومًا بعد سفرك!

نظر إليّ مستغربًا..ارتسمت ابتسامة شاحبة على وجهه وقال:

- مثلما تشائين..!

وحاول أن يكتم الإنزعاج على وجهه..إذن ربما ما فكرت فيه صحيحًا فهو أراد أن يستمتع وحده..وربما خطرت تلك المرأة في ذهنه..وإلا لماذا انزعج..!..وبشكل تلقائي وسريع..دخلت غرفتي..أخذت جواز سفري وبطاقة رحلتي وخرجت..حينما صرت في الصالون قلت له وأنا اتجه لمغادرة الجناح..:

- سأعود بعد دقائق..سأنزل إلى المكتب السياحي تحت..

نظر إليّ نظرة فارغة..وقال:

- أنا هنا..افعلي ما تشائين..

حين صرت في المصعد شعرت بأنني انتصرت على تلك المرأة الوقحة..!

وفي المكتب السياحي شرحت لهم بأني أحتاج لإجراءات فحوصات وأنني أحتاج لتمديد سفري..فتفهمت الموظفة في المكتب وضعي وأخذت تبحث لي عن رحلات قادمة..وكانت الرحلات إلى بلدي يومية.. فقالت لي بأن هناك بعد أربعة أيام وأن هناك بعد خمسة أيام..وأن علي أن أختار.. ولا أدري لم انبثقت صورة الرجل الوسيم الجوكلو أمام عيني الداخلي..

فقلت لها وأنا ابتسم مع نفسي ابتسامة شيطانية: احجزي لي على الرحلة التي ستكون بعد خمسة أيام..!.

في بهو الفندق لمحت آلة تصريف آلي تتقبل كل الكارتات العالمية.. فأحببت أن أتهيأ لما تبقى لي من أيام..فذهبت إلى الآلة.. فتحت محفظتي وأخرجت البطاقات البنكية...أردت أن أسحب مبلغًا باستخدام البطاقتين.. وأخرجت ورقة صغيرة كنت قد كتبت فيها الأرقام السرية لكل بطاقة..لكن الذي صدمني أنني حين أدخلت البطاقة الأولى تم ابتلاعها من قبل الآلة المصرفية ولم تخرج ولم تعطني إشارة قبولها أصلًا..ضغطت مرارًا على زر إلغاء العمليات البنكية لكن بدون جدوى..وجازفت بإدخال البطاقة الثانية.. وحصل الشيء ذاته..فقد تم ابتلاعها من قبل آلة التصريف الآلي دون أية إشارة لعطل في البطاقة أو أي شيء من هذا القبيل في مثل هذه الحالات..!

توجهت للاستعلامات وشرحت لهم الموضوع وأنا في غاية التوتر.. فاتصل موظف الاستعلامات بالبنك..وأخبروه أنهم سيرسلون تقنيا يقوم بحل الإشكال..فأخبرتهم أنني سأكون في جناحي ويمكنهم الاتصال بي عند مجيء التقني..!

توجهت إلى المصعد..كانت هناك كابينتان..كلاهما معلقتان..واحدة تقف عن الطابق التاسع..والثانية عند الطابق السابع..وما أن ضغطت على زرّها حتى بدأت بالهبوط..كنت متضايقة مما حصل..وحين فُتحت باب الكابينة رأيت الجوكولو يحتضن المرأة الخمسينية ويقبلها بشبق بينما هي تتشبث به وهي على وشك.. ارتبكا..ومرا من أمامي دون أن ينظرا إليّ وكأني

غير موجودة..! ..أحسست بخيبة مشاعري..أمن أجل هذا الرجل غيّرت موعد رحلتي..!

***

استقبلني حبيبي بنظرات مستفهمة..كانت ملامح الضيق واضحة على وجهي..ونظراتي..وقبل أن يسألني قلت له بأنه لا توجد رحلات إلا بعد يومين من سفرك..فحجزت لأني أريد البقاء معك لأطول فترة ممكنة ..!.. ولحظتها قلت لنفسي: أنت منافقة وكذّابة يا حواء..!!..

ابتسم هو بارتباك وقال:

- شيء جميل أن نبقى معًا لأطول فترة ممكنة..وبالمناسبة..لماذا لا تزورينني في مدينتي..الآن كما تقولين لديك إقامة في أوروبا..!

لحظتها فقط انتبهت إلى أنني يمكن أن أكون معه في مدينته أيضًا.. صحيح أنني فكرت بأن يكون معي في شقتي بمدينة فيينا..لكني لم أفكر بأن أكون معه..!!..فقلت له بنبرة فيها حنق واضح:

- أتعرف أن جهاز التصريف الآلي ابتلع بطاقاتي البنكية العالمية..!

- آها..؟ قال بصوت لامبال.

ضايقني رد فعله..ظننت أنه سيهتم بالأمر أكثر..لا أعرف ما بي..وما يدور في أعماقي..أنا أعرف أنني أحببت هذا الرجل الذي يشاركني جناحي في هذا الفندق..وأعرف أنني وجهت إليه الدعوة..وأرسلت إليه تذكرة السفر وتحملت كل نفقاته بما فيها ما اشتراه من كتب وملابس..وأنني يمكنني أن أعيش معه..لكن لا أعرف لماذا أشعر وكأني على مفترق طرق..وكأن حبيبي

هذا ينتمي للماضي وليس للمستقبل..كجزء من ماضيَّ أنا..لذلك لا أريد العودة للماضي..لماذا..؟ ..

هو يحبني..لكن هل هو يحبني حقًا..؟ لقد استمتعت معه..لكني لا أعرف لماذ أحتاج إلى متعة غير رومانسية..متعة بذيئة ومبتذلة وفيها كل ما يذكرني بالأعمى والأرملة..!!..إنني متلهفة لملاقاة الرجل الذي يمد لي لسانه..! إنني احتقره لكني أريده..!.ما بك يا حواء..؟

نظرتُ إلى حبيبي آدم أبو الهيل..شعرت نحوه بالشفقة..آهٍ من الشفقة.. هذا الشعور الذي يستعبدني.. ويسعدني..والذي أحس من خلاله بكمال شخصيتي..ومعنى وجودي..أناي التي تحب أن يكون هناك من يحتاجها ويحتاج مشاعرها وحنانها..لاسيما حبيبي الذي أمنح نفسي له شفقة..شفقة عليه وحنينًا لسنوات خلت عانى هو بسببي الحرمان والشعور بالنبذ..!.. وكأنني أحاول تعويضه عن كل ما جرى له بسببي..! هل الشفقة نوع من الحب..!!؟؟. بيد أنني شعرت بالضيق من بروده ولامبالاته معي وبشكل عام لما حوله..هل تبلدت مشاعره في الغرب..!

دخلت غرفة النوم ومن هناك اتصلت بأختي وأخبرتها بتأخري ليومين آخرين بعد الموعد المحدد..!..لكن لا إراديًا رفعت رأسي إلى النافذة العريضة فاستغربت أن الوقت قد صار ليلًا..!! الظلام يعم الأفق..! والبحر يبدو من النافذة معتمًا ومظلمًا..وهناك في الأفق المظلم نقاط ضوء ضعيفة تشير لسفن بعيدة..!

لم أصدق ما رأيت..لقد فطرنا قبل ساعة أو ساعتين..ثم أننا لم نخرج من الفندق أبدًا..أنا نزلت وغيّرت موعد رحلتي..!..حاولت سحب مبالغ مالية من جهاز التصريف الأوتوماتيكي الذي ابتلع بطاقاتي البنكية..!

خرجت من الغرفة إلى الصالة لأستفسر من حبيبي فاستغربت أكثر لأني لم أجده..كان على الطاولة القريبة من الصوفا بعض الكتب..لكنه لم يكن موجودًا..!!..أين ذهب..؟ كيف خرج ولم يخبرني..!!..ربما هو في غرفة الحمام..أو التواليت..ألقيت نظرة على المرافق الصحية والحمام فلم أجد أحدًا..!! شعرت بشيء غير طبيعي يهيمن عليّ وعلى الغرفة..!

رجعت إلى غرفة النوم وجلست على الكرسي أمام الطاولة..كانت هناك رزمة من الأوراق البيض..وأجندة تخص الفندق..ومحفظة جلدية فيها جيوب عريضة لحفظ الأقلام..وعلى جانب الطاولة ثمة شمعدان تنتصب فيه شمعتان..وقربه على الطاولة ما يشبه المسدس الغازي لإشعال النار.. أوقدت الشمعتين لا إراديًا..فتحت النافذة..كان الجو ثقيلًا..كئيبًا..ثم فجأة..برغم الجو الحار الخانق بدأ رذاذ مطر خفيف يتساقط..!

كان لهب الشمعتين يرتعش..هواء الليل الغامض يدخل إلى الغرفة وكأنه يحمل معه أشباحًا لا مرئية..لهب الشمعتين يرتعش..ثم تنطفئ الشمعتان.. يغمر الظلام الغرفة..لا نأمة..لا حركة سوى صوت الستارة الحريرية وهي تضرب زجاج النافذة..!.

فجأة رن هاتف الغرفة..وجاء صوت موظف الاستعلامات يقول لي بأنهم اتصلوا بي أكثر من خمس مرات اليوم..لقد كان تقني البنك موجودًا وفتح الآلة المصرفية لكنه لم يجد أية بطاقات بنكية قد ابتلعتها الآلة..!! فصرخت به لا إراديًا بأنني قمت بذلك..وأكدت له ابتلاع الآلة لبطاقاتي..!. فتأسف لأنه لا توجد بطاقات داخل الآلة باسمي..!

كدّت أجن..كيف اختفت بطاقاتي البنكية..فكرت أنهم يحاولون سرقتي..من خلال سرقة بطاقاتي..فأخذت سماعة التليفون واتصلت

بالاستعلامات مستفسرة عن فتح آلة التصريف الاتوماتيكي، إن كان التقني وحده من فتحها أم هناك من كان حاضرًا فأكد لي موظف الاستعلامات بأنه كان حاضرًا وشخص من أمن الفندق أيضًا كان حاضرًا..وأنهم يؤكدون بأنه لم يكن هناك أية بطاقات..!

أحسست بأن شيئًا غير عادي يجري معي..وانبثقت في رأسي فكرة أن أفتح خزينة الغرفة وأخرج الأوراق التي تخص نقل أموالي وحسابي وأوراق شراء الشقة وأتصل فورا بالأرقام الموجودة كي يوقفوا الحساب، فربما هناك من سيسرقني..وفعلًا..توجهت لخزينة حفظ الأشياء الثمينة في جانب من الغرفة داخل خزانة الملابس..وضغطت على الأرقام السرية..فُتحت الخزانة الحديدية لكنها كانت فارغة إلا من جواز سفري!!! ارتعبت..ما الذي يجري معي..هل سرقها حبيبي آدم أبو الهيل..!؟ ولماذا يسرقها..!؟ ماذا يستفيد منها؟؟ لا.لا. هو لا يعرف الرقم السري للخزانة..!! لكن أين هو..؟.. أيعقل أنه ذهب من ورائي للتعرف على تلك المرأة القادمة من الخليج..!.. لا.لا. ماذا دهاني كي أفكر بهذه الطريقة وأتخيل كل هذه الأوهام..لكن أين أوراقي..وفكرت بأن السكوت لم يعد ممكناً..

أخذت سماعة الهاتف واتصلت باستعلامات الفندق..وشرحت لهم الوضع قائلة إنني أول ما وصلت وضعت أوراقًا مهمة لي في خزانة الجناح ووضعت لها رقما سريًا.. وبعد يومين وصل خطيبي..لكنه لا يعرف الأرقام السرية..الآن فتحت الخزانة لكنها فارغة..!!..استمع لي موظف الاستعلامات بهدوء ثم قال: سيدتي الفاضلة..اسمحي لي بأن أقول لك إنه لا أحد معك يعيش في الجناح..أنت وحدك هناك..وليس لدينا نزيل آخر

في الجناح غيرك..أنت وحدك تنزلين لدينا في الجناح..!!.. صُدمت.. صحت به غاضبة: ماذا تقصد أيها السيد المحترم..هل أنا مجنونة !! أقول لك إن خطيبي آدم أبو الهيل القادم من السويد وجنسيته سويدية يعيش معي منذ أيام..! بدليل أنتم حجزتم لي تاكسيًا في ساعات الفجر الأولى لأقله من المطار..! فقال لي ببرود: سيدتي..لا وجود لشخص بهذا الاسم لدينا مع الأسف..!.

لحظتها كنت قد نسيت أوراقي وبطاقاتي البنكية..وواجهت كارثة أخرى..هي أن حبيبي آدم أبو الهيل مجرد وهم..!! كيف هذا!! هل أنا مريضة إلى هذا الحد!!

فجأة.. غمرني شعور بارد من الذهول واللامبالاة..وكأن الأمر صار لا يخصني..وكأنما لست أنا.. لكني في الوقت نفسه أحسست أن هناك قوة روحية كامنة في كل شيء..في الهواء..والعتمة..وستارة النافذة.. والشمعتين..والسرير العريض خلفي..وبتردد وبشكل لا إرادي وكأنني مأخوذة ومقادة من قبل قوة غامضة..حملت الموجود على المنضدة المجاورة للسرير ووضعته أمامي على الطاولة ..أخذت قلمًا وسحبت رزمة من الأوراق وكتبت بدون تخطيط مسبق مني:

متاهـة العـميـان

أنا حواء الكتبي..عمري 35 عامًا..أقول عمري، بينما أنا لم أشعر به يومًا..منذ طفولتي كنت أحس وكأنني امرأة عجوز..حين أنظر لحياتي التي مرت أحس كم كنت غبية..لأن كل ما كنت أفعله كان مرتبطًا بمن حولي.. ليس عندي استقلالية أو خصوصية ..كأني نسخة مكررة عن أمي..!

ربما أنا هشة نوعًا ما..فأنا أسمح لجميع الفصول أن تتحكم بي..اسأل نفسي أحيانًا لم بُليت بكوني أنثى..!!؟ أتمرد أحيانًا على جسدي..أرفضه.. أتنكر له..لكنه لايتركني وشأني..كأنني أمشي على خيط رفيع بين جبلين.. الهاوية تحتي..الهاوية التي حذرتني منها أمي دائماً..لكنها لم تكن هاوية.. وإنما هبوط إلى بركان اللذة..والنشوة المحرمة..!

أنا أجلس الآن لأكتب رواية اخترت لها عنوان «متاهة العميان» ..لكن لا عميان لدي لأروي قصتهم وإنما مبصرون..عميان..! سأصبح كاتبة أم لا..! هل ستصدر الرواية باسمي..! هل سأتمكن من الكتابة بحرية دونما خوف من نفسي ومن الناس..! تتعبني هذه الأسئلة..

طوال حياتي كنت مستعجلة..مستعجلة موتي..أسبق السنوات.. كنت أظن أنني سأموت مبكرًا..لكن الموت زهد بي.. وأخذ إبنة عمتي..! وانتظرت المرض ليمضغني لكنه التهم زوجي الأول..طليقي..ووالد ابنتيّ.. لم أعد أخاف من الموت وكذلك الجسد..أشعر أنني تحررت نوعًا ما..!..

لا أعرف لماذا أريد أن أكتب!!؟ ولماذا أجلس هنا لأكتب حكاية عن نساء أخريات..لماذا لا أكتب عن نفسي..! هل أخاف من نفسي..! هل أخاف من صدقي الذي اعتبره أحيانًا ساذجًا..!! هل أسمح لنفسي أن ألعب بالنار..!؟ الحقيقة أنني العب بها..فالكتابة لعب بالنار..ولا أدري إن كانت ستحرقني..أم سأستطيع اخمادها..!!؟

في اليومين الأولين الذين قضيتهما في بيروت قبل وصول حبيبي آدم أبو الهيل..الذي اتضح أنه لم يصل!! تعرّفت في بهو الفندق على المرأة التي استقبلت أختها القادمة من الخليج.. والتي كان اسمها حواء المعلم..

وحكت لي حكاية تمزق القلب وتجعل المرء يعيد نظره في البشر وطبعائهم وعنفهم..وأقنعتهم..! ربما من خلال حكاية هذه المرأة أسرّب ما يجول في نفسي..وما مررت به بشكل ومضات هنا وهناك..!.. لكن من يضمن أن ما أكتبه عن هذه المرأة ليس إلا وهمًا من أوهامي ولم يحدث أنني التقيت بها ولم أسمع منها شيئًا...!!؟ وليكن..سأكتب الآن ثم أتأكد إن كنت أتحدث عن نفسي..!

متاهــة الـعــميــان

حــواء الكتبـــي

1

حــواء المعلــم

***

انتبه الدكتور آدم كارثة إلى صوت قائد الطائرة يطلب من الركاب شد الأحزمة لأن الطائرة تواجه مطبات هوائية.. أغلق الكتاب.. وضعه في المحفظة الشبكية التي أمامه..وشد حزامه بانتباه..وبدأت الطائرة تهتز.. فتعالى صوت الشاب الملتحي بالدعاء..!.

الكلام زمن..والصمت أبدية

حين فتحت حواء الفارسي عينيها شعرت أنها تنام في سريرها لكن المكان ليس غرفة نومها وإنما هو بستان. كانت الأغصان الخضراء تتدلى على السرير، الأغصان من كل جانب..ومن خلل الأغصان كانت السماء تبدو زرقاء..!..وثمة أصوات لعنادل وعصافير وطرقات طائر نقار الخشب.. وخرير ماء يجري بهدوء في ساقية..!!..

ظنت أنها تحلم..فتحت عينيها على وسعهما لتتأكد من ذلك فواجهها سقف الغرفة الإسمنتي!!..«إذن كنت أحلم» فكرت مع نفسها..تمطّت قليلًا في فراشها..وتذكرت أن زوجها آدم أبوالتنك ينام في الصالة..وربما قد استيقظ الآن..!..فنهضت لتعد لنفسيهما الفطور.. لكنها لم تكن تعرف كيف ستواجهه..ففي أول ليلة لهما كمتزوجين ينام كل منهما في مكان منفصل..!.

حين صارت في الصالة فوجئت بآدم الشبيبي نائمًا على الصوفا التي كان ينام عليها عادة..! ولم يكن زوجها آدم أبوالتنك موجودًا..كانت منذهلة مما رأته..فكرت للحظة مع نفسها بأنها ربما لا تزال نائمة وأن ما تراه حلمًا..لكن ما جعلها تصدق ما تراه عندما سمعت حركة في المطبخ فالتفتت إلى هناك فرأت زوجها آدم أبوالتنك وقد أعدّ تقريبا فطور الصباح..كانت هناك صينية كبيرة فيها صحون ثلاثة فيها فول مدمس..وصحنان للجبن البلدي وجبن

الجدائل..صحن للزعتر الأخضر وصحن عميق لزيت الزيتون.. ونوعان من مربى المشمش والنارنج..وكان قد أعدّ الشاي أيضًا..! ..

انتبه لوجودها..نظرا لبعضهما بارتباك..لكنها تمالكت نفسها وكأنما ليلتهما الأولى مرت على وفاق..وشعرا كلاهما بأن حضور آدم الشبيبي كان إنقاذًا لهما..فأشارت برأسها نحو الصالة دون كلام وكأنها تسأله عن النائم فيها فقال لها بصوت خافت:

– لقد عاد بعد منتصف الليل..لم يرتحْ لوجوده هناك..!..طلبتُ منه البقاء عندنا..!

فقالت باهتمام وبتعاطف:

– حسنا فعلت..

في تلك اللحظة سمعوا صوت آدم الشبيبي وهو يلقي تحية الصباح عليهما بنبرة مليئة بالتثاؤب:

– صباح الخير..مبروك لكما..

ارتبكا..وقال له آدم أبوالتنك بصوت عال ومرح:

– صباح النور..الله يبارك فيك..انهض الآن..دعنا نفطر..كل شيء جاهز..

لم تجبه حواء الفارسي وإنما نظرت إليه نظرت فيها ارتياح واضح لوجوده..التقت عيناهما لثوان..انشرح وجهها بابتسامة طيبة.. فقال لها بنبرة فيها تعاطف ومودة:

– مبروك حواء..إن شاء الله بالرفاء والبنين..

– شكرًا لك..الله يبارك فيك..

قالت له بارتباك وخجل..فهي تعرف أنه جاء بعد منتصف الليل وعرف أن زوجها ليس معها في السرير..! لكنه قال جملته بحكم العادة ومن باب اللياقة الاجتماعية.

***

دخل آدم الشبيبي مقهى «الروضة» وحده. وكان قد أدعى أمام صديقيه الزوجين بأن لديه موعدًا خاصًا، وذلك من أجل أن يغادر البيت وحده ويتركهما ينعمان بعزلتهما.. كان يحس نفسه كمن يمخر عباب البحر دون هدى بشراع ممزق وزورق مثقوب وسط عاصفة..!

جال بنظره في قاعة المقهى القريبة من المدخل لا يعرف عمَّ يبحث..فهو لا ينتظر أحدًا..لكنه تمنّى أن يلتقي حواء الساري وصديقتها حواء الزياني ليعتذر لهما عمّا جرى مساء الأمس..!

فجأة..انتبه إلى امرأة تميل إلى الشقرة تلبس ثوبًا أسود..اللون الأسود هو الذي جذبه..وعرف لحظتها أنها المرأة المثيرة التي التقاها أمس في المطعم وكانت برفقة الدكتور آدم كارثة..تذكر لحظتها أن نظراتهما التقت فارتبكا كلاهما لما قدحَ عن تلك النظرة من شرار غير مرئي..!

كانت المرأة منزوية، أمامها كوب وقنينة ماء صغيرة..وكانت تمسك بكتابٍ تقرأ فيه دون اهتمام كبير وكأنها تبحث فيه عن جملة ما..!.

لم يشأ أن يحدّثها..فقد كان يتمنى أن يقابل حواء الساري وصديقتها حواء الزياني، ليعتذر لهما عما جرى ليلة أمس، لكنه لم يجد أحدًا..لاسيما أنه كان يتعمّد المصادفة في لقائهما.

لا يعرف لماذا ظن أن هذه المرأة في الثوب الأسود تنتظر الدكتور آدم كارثة..!!..خلال تلك اللحظات نفسها رفعت هي رأسها فرأته..والتقت نظراتهما مرة أخرى..ابتسمت له ابتسامة ناعمة، فقد تذكرته فورًا..وهي تعرف أنه من أصدقاء الدكتور آدم كارثة.!.

ابتسامتها شجعته..تقدم نحوها وهو يفكر بسرعة في حجة للكلام..ووجد في السؤال عن الدكتور آدم كارثة مناسبة جيدة!. ألقت هي الكتاب على الطاولة بهدوء وتهيأت لسؤاله حينما رأته مقبلًا نحوها..ارتسمت على وجهها ابتسامة صداقة تشي بالفضول.. ألقى عليها التحية ثم سأل عن الدكتور آدم كارثة إن كان سيأتي إلى المقهى فقالت له بأن الدكتور آدم سافر إلى تونس..!

انتبهت المرأة في الثوب الأسود إلى أنه يود أن يجلس معها لكنه لا يتجرأ على الإفصاح عن هذه الرغبة..فقالت له:

- تفضّل بالجلوس..!

فجلس بهمّة وبهجة وكأنه كان يتوقع ذلك..ابتسم لها برقّة وقال:

- شكراً لك..الحقيقة أنا أمس حين رأيتك مع الدكتور آدم كارثة ظننتك أجنبية..لكن صديقي آدم أبو التنك قال إنك تتحدثين العربية..!..أنا آدم الشبيبي..

ابتسمت له برقة وقالت بخجل أنثوي وهي تقدم نفسها:

- أنا حواء البوسني..كاتبة سورية..أو أحاول أن أكون كاتبة..

ابتسم لها ابتسامة احتفائية فيها مبالغة واضحة وقال:

- كاتبة..!!..تشرفنا..

- نعم ..أقول أحاول أن أكون كاتبة..لأني نشرت رواية يتيمة اسمها „متاهة العميان»..

- ماذا..؟ قال.

وارتسمت ملامح الدهشة على وجهه، انتبهت هي لذلك فقالت له:

- هل قرأتها..!سألت بفضول.

ارتبك خجلًا..فلم تكن دهشته لأنه قرأ الرواية وهو يقابل كاتبتها الآن..فقال:

- لا عفوًا..لم يكن لي الشرف بقراءتها..لكني أقرأ منذ أيام اعترافات امرأة وهي شخصية روائية عند روائي آخر..وهذه الاعترافات تحمل عنوان «متاهة العميان» أيضًا.!..

كانت تنظر إليه بانتباه..فقالت باستغراب:

- ماذا تقول..!..ومن هو هذا الكاتب..!

أحس هو بالاهتمام..ووجد في ذلك فرصة لتوثيق علاقته بها فقال:

- إنه الكاتب آدم البغدادي..نشر رواية بعنوان «متاهة آدم».. وفيها كتب قصة كاتب اسمه آدم التائه الذي كتب رواية بالعنوان نفسه «متاهة آدم».. وهذا الكاتب في روايته التي تحمل عنوان «متاهة آدم» أيضا كتب عن كاتب اسمه آدم المطرود وحبيته حواء الصايغ..وأنا الآن أقرأ اعترافات أو مذكرات هذه المرأة التي اسمها حواء الصايغ وهي بعنوان „متاهة العميان»..!

كانت حواء البوسني تستمع إليه بدهشة..وبعد لحظة صمت قالت:

- ما الذي يجري..أيعقل أن يكون هذا التشابه بيننا..فكأنما هو أنا.. أقصد آدم البغدادي..!!

- لم أفهم..!!

- أنا كتبت روايتي «متاهة العميان» عن امرأة كاتبة اسمها حواء الجدي، التي بدورها تكتب رواية بعنوان «متاهة العميان» عن امرأة كاتبة اسمها حواء

الكتبي التي بدورها أيضًا تكتب رواية بعنوان „متاهة العميان" عن حواء المعلم ..!..

نظر آدم الشبيبي إليها مندهشًا..أراد أن يتكلم لكن الصمت كان أقوى من الكلام..إذ كانت الأفكار وما يرافقها من مشاعر تحتدم في أعماقه وتعيقه عن التعبير والكلام بسلاسة ووضوح..أحس بالإحتقان، وبنفَسه يتقطع، وبضيق في صدره..فجأة أخذ نفسًا عميقًا ثم أطلق زفيرًا وقال:

– يبدو أننا كلنا عميان..عميان في متاهة..لقد أثرت فضولي بحديثك عن «متاهة العميان».. وكما يبدو أنه لا خلاص لنا من هذه المتاهة..متاهة الحياة إلا باللامبالاة الوجودية وانتظار الموت باعتباره جزءًا من لعبة الوجود..!

نظرت إليه للحظات وهي تتأمل قسمات وجهه وعينيه وكأنها تبحث عن مصداقية ما يقول، وقالت:

– الكلام زمن..والصمت أبدية..إن موتنا هو الذي يقود حياتنا..وليس لحياتنا من هدف تسعى إليه في النهاية سوى الموت..!

– لكن إذا كان هدف الحياة هو الموت كما تقولين وكما يقول فرويد.. فلماذا جئنا إلى الحياة..!

صمت للحظات..نظر إلى وجهها الأنيق ثم قال:

– أتعرفين..أحيانًا التفكير الدائم في سؤال الوجود والبحث عن معنى الحياة يفقدنا لحظات تذوّق الحياة..من الأفضل أن يكون الإنسان غبيًا كي لا يشعر بثقل الوجود..وبرغم ذلك فهناك من الناس من يقضي العمر في المعاناة من الناس والمجتمع والدين وتخيلات الجحيم والعقاب.. ويسعى مخلصًا إلى الخروج من هذه الغابة المخيفة من الأفكار والأحكام

الاجتماعية القاسية.. ومنهم من يصل بشجاعة إلى أطراف الغابة..لكنه في لحظة التحرر والانطلاق والقفز من فوق سور الغابة تراه يخاف..يجبن.. يشله الرعب..فيتراجع من تلقاء نفسه إلى الغابة..لكنه لا يدري بأن الغابة صارت في أعماقة..الغابة تحيطنا.. وتعشعش بجذورها في أعماقنا..لا مهرب وخلاص منها..لا خلاص..!

كانت تستمع إليه بانتباه شديد..وكأنها تشرب كلماته..وما أن توقف حتى سألته:

- هل أنت كاتب..!

- لا ..لدي محاولات شعرية..ونثرية..لكني أعمل في الصحافة..!

في تلك اللحظة وصل النادل إلى حيث يجلسان وسأله عما يحب أن يشرب فقال له بلطف:

- شكولاته بالحليب..!

- تكرم

ذهب النادل بينما كانت هي تنظر إليه وعلى وجهها ابتسامة ودودة وقالت:

- هل تعرف أن الهنود الحمر وحضارات المكسيك الأولى كانت تستخدم حبات الشكولاته كعملة تبادل مثل النقود اليوم .. !..وأنها كانت تُقدم للمحققين في محاكم التفتيش..وكانت تُعد من مزايا البلاط الأسباني.. وأن تاريخ التجارة العالمية عرف أربعة أشياء رئيسية هي الذهب..التوابل.. الملح..والشكولاته..!

ابتسم لها وقال بمودة ونبرة فيها مزاح وهو يشير يوجهه ونظراته إلى ثوبها:

– وهل تعرفين أن الأسود هو لون الليل لذلك صارت الغربان السوداء وكأنها تمتلك قوة غامضة..كما أن ثياب الكهنة كانت سودًا..وأنَّ الكونَ مليءٌ بالمادةِ السوداء..وأن الأسودَ سيدُ الألوان..!

ابتسمت له بمودة وقالت مازحة:

– واو..أنت نبيه..لكنني لست غرابًا أسود..

– قصدت ثوبك الأسود..قال آدم الشبيبي مرتبكا بخجل.

– فهمت قصدك..أمزح معك..بالمناسبة..هل أنت صديق للدكتور آدم كارثة..!؟

– الحقيقة من الصعب أن أقول إني صديقه..وإن علاقتنا قوية..فلقد تعارفنا في هذه المقهى..وكنا نتناقش في الكثير من الأحيان..لكنه بالنسبة لنا أنا وصديقي آدم أبوالتنك الذي تعرفتُ عليه هنا أيضًا..كنا نجد الدكتور آدم كارثة مُتعاليًا نوعًا ما..معتدًا بنفسه..لاسيما صديقي آدم أبوالتنك الذي كان صاحب الدعوة في المطعم أمس..والذي جاء إليكما ودعاكما إلى الإلتحاق بمائدتنا..ولا أدري إن كان اعتداده وتعاليه نتيجة لمكانته الأكاديمية أو لغزارة معرفته وقراءاته المتعددة..أو كطبيعة وسلوك شخصي..!

فقاطعته قائلة مشيرة إلى آدم أبوالتنك:

– تذكرت صديقك.. الرجل الذي يضع النظارات الطبية على عينيه..!

– نعم هو..

صمتت للحظات ثم قالت له:

– أعذرني على ما سأقوله..فما قلته عن تعاليه نوعًا ما صحيح..لكنك تتحدث عنه بنبرة غيورة..وكأنك تغار حتى من تعاليه واعتداده بنفسه..

ارتبك آدم الشبيبي من صراحتها التي تصل إلى حد الهجوم الناعم..فقال لها بإستنكار واضح:

– أنا أغار منه..!؟ لماذا أغار منه..فحتى لو كان الأستاذ مفكرًا عظيمًا فأن عظمته تبدو لي باردة..وأنا وهو نختلف في الكثير من آرائنا وفهمنا للأمور.. ناهيك أن تجاربنا في الحياة مختلفة..وفي رأيي الشخصي فإن صديقي آدم أبوالتنك يمتلك من الخبرة والتجربة ومعرفة الناس عشرات المرات أكثر من الدكتور آدم كارثة..فالأستاذ هو مكتبة تمشي على الأرض.. وفهرس للكتب في قوام رجل..

صمتت للحظات وقالت بتعجب مشوب باستنكار حزين:

– غريب أمركم أنتم العراقيين ..فبدلًا من أن تشيد بعلمه وتبارك جهده تحاول تسقيطه والتقليل من أهميته أمامي..!

أحسّ آدم الشبيبي بالخجل..وأعجب في أعماقه بهذه السيدة التي لا تعرف المجاملة..فقال لها بنبرة فيها إنكسار وأسف واضح:

– أنا أعتذر..ربما لا أمتلك الحق في توجيه النقد للدكتور آدم كارثة..لا أعرف لماذا قلت ذلك عنه..!!.

فقاطعته بهدوء ودونما ضغينة قائلة:

– أنت لا تملك الحق فعلاً..لاسيما وأنت تقول بأن علاقتكما سطحية.. فلست صديقه بحيث تمنحك الصداقة المصداقية في أن تقول رأيك فيه..

ارتبك آدم الشبيبي أكثر إذ أن كلامها حاصره، فقال:

– أحيانًا أننا نتسرعّ في التعبير عن أحاسيسنا ونعتقد حينها بأنها حقيقية، لكن بعد تأمّل قليل نكتشف أنها أحاسيس خادعة..أحاسيس مزيفة..لا أريد

أن أبدي أمامك أسفًا زائفًا..لكني فعلًا خجل من الحديث عن الدكتور آدم كارثة في غيابه.. نحن البشر كائنات أنانية..لا أعرف أين قرأت..أعتقد لأحد الكتاب الروس يقول عن لسان إحدى شخصياته بأن هناك ثلاثة أصناف من الأنانيين: هناك أنانيون يعيشون.. وفي الوقت نفسه يتركون الآخرين يعيشون..وهناك صنف آخر من الأنانيين..هؤلاء يعيشون لكنهم لا يتركون الآخرين يعيشون..وهناك صنف ثالث من الأنانيين..وهؤلاء لا يعيشون ولا يتركون الآخرين يعيشون.. ولا أدري إلى أي صنف أنتمي أنا..!..

نظرت إليه متفرّسة محاولة أن تجد في كلامه هجومًا مبطنًا عليها..لكنها لمحت نظرات الأسف الحقيقي والتراجع في نبرة صوته فأدركت أن ذلك من سمات النفوس النبيلة، فقالت له مواسية:

– لا تقسُ على نفسك..أنا أعرف أن بعض الناس يخفون تحت ألقابهم المهيبة والنبيلة قلوبًا قاسية..وكثيرًا ما يكون سلوكهم تافها وقذرًا..وأنهم مبتذلون إلى الحد الذي يبعثون فيه على التقيؤ..لكن الدكتور آدم كارثة ليس منهم..صحيح أنني لا أعرفه من مدة طويلة، وأن كل مدة تعارفي معه لا تتجاوز يومًا واحدًا..لكن قضينا وقتا مشتركًا كما دار بيننا حديث امتد إلى أكثر من عشر ساعات..ربما كانت معرفة توازي صداقة تمتد لسنوات..!

التقط آدم الشبيبي جملتها بأن علاقتها مع الدكتور آدم كارثة ليست طويلة وإنما تمتد ليوم واحد..وبما أنه قد غادر سورية الآن..لذا استنتج بسرعة مع نفسه بأنها ليست عشيقة الدكتور آدم كارثة ..فقال بنبرة شجية وكأنما يتأمل شيئًا.

– أنا لا أخاف من أن أنتقد نفسي..على الرغم من أنني أحس بأنني مُشتت..ومحطّم ومبعثر إلى أشياء منكسرة مثل كأس بلوري تهشم على أرض مرمرية..!

– أووف..لماذا تعذب نفسك هكذا..ما هذا التشاؤم الذي تعيشه..!

نظر إليها متأملًا وقال وكأنه يرى ما وراء حضورها الجسدي:

– ومَن منّا لا يعذب نفسه..أنا شخصيًا لا أخشى تناقضاتي..لا أحب أن أكون منطقيًا على الدوام..في تناقضاتي تتوهج روحي..!لاسيما حينما أواجهها بروح طيبة وبقلب عاقل..!.

انتبهت لما قاله..أعجبتها طريقته الغريبة في التعبير عن نفسه، فقالت له:

– ليس الجميع يمتلكون شجاعة مواجهة النفس..! الكثير من البشر.. لاسيما بين المثقفين والفنانين والكتاب تجد تواضعهم مزيفًا ..وتقواهم مزيفة.. ووعيهم مزيفًا..!صورهم مزيفة..اسماؤهم مزيفة..رسالتهم مزيفة..دعواهم مزيفة..شكواهم مزيفة..سيرة حياتهم مزيفة..كل شيء لديهم مُقنَّع..!..

ابتهج هو في داخله..فقد أحس أنه قد أثَّر في هذه المرأة بالثوب الأسود.. هذه المرأة التي برغم حضورها الأنثوي فهي امرأة نقية حد الهشاشة..فقال مصطنعا وجه الحكيم المتأمل:

– الأقنعة..الأقنعة..آه من الأقنعة..! الحياة التي نعيشها حفلة للأقنعة..

– نعم الأقنعة مخيفة..لكن مَن منا لا يضعها على وجهه..!!؟ فأحيانًا ما تكون وجوهنا بشعة..ومرعبة..شوهتها الحياة أو أحداث الطفولة القاسية.. فنحمل تشوهاتنا الداخلية معنا، وليس أمامنا سوى وضع القناع..!

– نعم..ما تقولينه صحيح لحد ما..لكني أقصد الأقنعة المنافقة..! الذين يصرون على أن قناعهم هو وجههم..هذا أمر مختلف عمّا تُشيرين إليه..فما تقولينه يدخل في باب اللياقة السلوكية والتعامل المتّزن مع الآخرين دون إسقاطات نفسية ذاتية.. فمعاناتها تبقى داخلية وسرّية..لكن البعض الآخر يكذب وينافق ويتكبر من خلال صورة القناع الذي يضعه على وجهه..!

أحست حواء البوسني بقُرب نفسي من آدم الشبيبي..فما يقوله تدركه هي بمعرفتها الحدسية، وبخبرتها في الحياة..ووجدت نفسها تنساق مع تيار أفكارها، فقالت بنبرة مشحونة بالمشاعر:

- بعض الناس..رجالًا ونساءً..من المثقفين والسياسيين والناس العاديين حتى..يقفون أحيانًا أمام المرايا..ينظرون إلى وجوههم..يرتعبون من قبحهم..ووساختهم الداخلية..ويتأففون من الروائح الكريهة المنبعثة من مستنقعات أعماقهم..إلى الحد الذي يبصقون فيه على صورتهم في المرآة..وكأنهم يريدون التخلص من عبء هذا القبح والدناءة والوضاعة التي هم فيها..ويشعرون لحظتها بالراحة من بصاقهم على أنفسهم..ويوهمون أنفسهم بأنهم تخلصوا من عبء ثقيل..لذلك يستديرون بعد ذلك للمرايا متوجهين إلى الحياة دون أن يدركوا بأنهم لا يزالون يحملون مستنقعاتهم العفنة معهم أنى أتجهوا..!.

للحظة شعر آدم الشبيبي بالخوف منها، فقد بدت له مثل ساحرة من أعماق العصور القديمة تنظر إلى النفس البشرية وكأنها تنظر في كرة بلورية..وأنها تنظر الآن إلى أعماقه، فقال بانفعال محاولًا أن يدير دفة الحوار الفكري الذي بدأ يثقل عليه ويخافه:

- أنا أحكم على الآخرين من خلال ما يجول في نفسي..وإذا لم أحتكم إلى ذلك فمعناه أنا لا أتعامل مع بشر..أو أنني لستُ إنسانًا..

نظرت إليه وعلى وجهها إبتسامة رقيقة وقالت:

- أنت إنسان طيب..منذ متى أنت في سوريا..؟

- منذ فترة ليست طويلة..

- هل تعمل في الصحافة ..؟

- لا ..أنا هنا أحاول أن أجد منفذًا للهجرة..

- الكل يهاجر..يهرب..أخاف على بلدي سوريا..نحن في أزمنة مضطربة..ترعبني ساعة الشؤم التي تلوح في الأفق المدلهم..

- نعم نحن في أزمنة مضطربة..! رمال الزمن المتحركة تبلع هذا الشرق المسكين بشراهة..

في تلك اللحظة انتبه إلى ابتسامة مشرقة ارتسمت على وجهها وهي تنظر بإتجاه مدخل المقهى..التفت لاإراديًا..فرأى فتاتين محجبتين تدخلان. إحداهما تضع نظارة سوداء على عينيها والأخرى تقودها بهدوء..أدرك أن الفتاة ذات النظارة السوداء كفيفة البصر..!.. اتجهت الفتاتان إلى زاوية أخرى من المقهى..قالت له موضحة:

- الفتاة الكفيفة البصر هي كاتبة شابة..نشرت رواية لها بعد صدور روايتي بعنوان «عميان في متاهة»..تتحدث عن فتاة رومانسية خجولة تتحول إلى امرأة ماكرة..حقودة..مستبدة..تتصرف بشكل مثير للإستفزاز..!..وبرغم أنها كفيفة لكنها كانت تصف الأشياء بعيون مفتوحة..لم يهتم أحد بالرواية.. ولا بها لأنها كما ترى كفيفة البصر..وليس فيها ما يثير نقاد الصحف..ولا يمكن لأحدٍ منهم أن ينفرد بها..فهي لا تتحرك إلاّ مع أختها...

- أووف..قال آدم الشبيبي مستنكرًا.

- نعم..كتبت رواية مهمة..لكن النفاق الثقافي يخنق الإبداع الحقيقي.. ولكن لا بد أن ينتصر الإبداع الأصيل..

– هذه رومانسية المثقفين..ربما يكون ذلك في أزمان لاحقة..لكن يا تُرى كم من المبدعين سعيدي الحظ يمكن اكتشافهم في المستقبل..هذه الكاتبة العمياء رأت بعين القلب..ولأنها كتبت دون أن تفكر بالنجاح..ودون أن تفكر باسترضاء الآخرين..

– الآخرون..الآخرون..هؤلاء الذين وصفهم سارتر بالجحيم..

– نعم..الكاتب الحقيقي هو ذاك الذي لا يفكر بالنجاح وإنما بنفسه وصدقه الإبداعي..لا تفكر بالنجاح عندها ستنجح..بمعنى ستكتب نصًا حقيقيًا..

نظر إليها وفي نظراته إعجاب واضح وقال:

– لقد أثرت فضولي بالتعرف عليك أكثر..أحب قراءة روايتك..هل هي موجودة..

ابتسمت له بفرح، فقد سرها ما سمعت..وقالت:

– مع الأسف.أمس اشتريت نسخة وحيدة من مكتبة ميسلون..وأهديتها للدكتور آدم..

فقال وقد ارتسمت علامات الإحباط على وجهه..:

– سأبحث عنها في أماكن أخرى..ربما في مكتبات الصالحية أو شارع الحلبوني..

– سيسعدني أن تجدها فأنا شخصيًا أبحث عن نسخ منها..فليس لدي سوى نسخة واحدة في ارشيفي البيتي..

– إذا أحببت أن نقوم بجولة في البحث عن «متاهة العميان» فسيسرني ذلك..

ابتسمت له وأدركت ما وراء كلماته من محاولة للتقرب منها فلم تمانع وقالت:

- سيسعدني ذلك..فأن أعظم نزهة أقوم بها هو التجول بين المكتبات..

- وأنا كذلك..لدي إحساس أنها رواية ممتازة..

ابتسمت له وقالت بتواضع:

- الأحاسيس خادعة أحيانًا..الإحساس وحده يريك أن الشمس تدور حول الأرض..تشرق من الشرق وتغرب في الغرب .. لكن العلم وتجاربه ورصده ..والتلسكوبات الخالية من الإحساس تقول حقيقة أخرى غير ذلك..!

وقبل أن يجب قالت له:

- يبدو أن جولتنا بين المكتبات ستتأجل..فصاحبك مقبل..

التفت آدم الشبيبي فرأى آدم أبوالتنك يقبل نحوهما. شعر بالغيظ لأنه جاء في وقت غير مناسب بالنسبة له. كانت علامات التوتر واضحة على وجه آدم أبوالتنك، بيد أنه حين صار على مبعدة أمتار من طاولتهما انتبه لحواء البوسني فعرفها مباشرة..وفكّر مع نفسه سائلًا إياها: كيف يستطيع آدم الشبيبي أن يجعل النساء الجميلات يلتففن حوله ويرغبن في صداقته..!.. ما الذي يميزه..!.

حين صار قرب طاولتهما ألقى التحية عليهما..ثم خصّ حواء البوسني بالتحية والسؤال عن أحوالها من باب المجاملة..وظل واقفًا.. أحس آدم الشبيبي بالحرج..فطلب منه الجلوس معهما..تردد آدم أبوالتنك قليلًا ثم سحب كرسيًا من حول طاولة مجاورة فارغة وجلس معهما.

شعر آدم أبوالتنك بذلك أيضًا، فقال بنبرة محرجة معتذرًا.

– يبدو أنني قطعت عليكما نقاشًا مهمًا..

ابتسمت حواء البوسني بطيبة وقالت له:

– لا..أبدًا..كنا نتحدث حديثًا عامًا في الثقافة والأدب..كما كنّا ننوي التجول في الصالحية بين المكتبات..!

فقال آدم أبوالتنك بنبرة خجولة مرتبكة:

– أرجو أن لا أكون قد أزعجتكما..

نظر آدم الشبيبي إليه بتساؤل وقرأ في وجهه بأن ثمة أمرًا ما قد حدث لكنه لا يريد الآن الكشف عنه..فسأله برغم ذلك:

– هل كل شيء على ما يرام..؟.

– نعم..نعم..كل شيء تمام..

كانت حواء البوسني مسترخية وعلى وجهها ابتسامة طوال وقت الحديث بين الصديقين..لكنها فجأة سحبت ابتسامتها عن وجهها وأبدلتها بملامح جادة..نظرت إليه وكأنها تبحث عن شيء أو ترغب هي أيضًا لمعرفة ما يخفيه..فسألته:

– إذا كنت تريد الإنفراد بالأستاذ آدم فيمكنني أن انسحب..يبدو لي أن لديك شيئًا تود أن تقوله له..!

أحس آدم أبوالتنك بالارتباك..وأعجب في سرّه من بصيرة هذه المرأة الأنيقة..فقال:

– لا أبدًا..ليس شيئًا مهمًا..

كان آدم الشبيبي صامتًا يتابع حوارهما..فجأة انتبه إلى أن صديقه أدار دفة الموضوع بسرعة حين سألها:

- أين الدكتور آدم كارثة..؟

ابتسمت حواء البوسني ثانية وقالت بلطف:

- لقد سافر فجر هذا اليوم..إلى تونس..ومن ثم سيسافر إلى المغرب..

- رافقته السلامة..هو شخصية متميزة..

ابتسمت حواء البوسني لكلامه..نظرت إليه وكأنها تريد أن تستشف صدق ما قاله بحق الدكتور آدم كارثة..إذ أن آدم الشبيبي قبل قليل أخبرها بأنهما يريانه متعاليًا..لاسيما آدم أبوالتنك..لكنها بطبيعتها الواضحة والصريحة قالت له:

- لكني كما عرفت بأن هذا ليس رأيك فيه..فأنت تراه متعاليًا ومعتدًا بنفسه..!

شعر آدم أبوالتنك بالحرج..ونظر إلى آدم الشبيبي نظرة عتاب خفي..وقال:

- صحيح..أراه كذلك..أو كنت أراه كذلك..وربما أيضًا ما زلت عند رأيي فيه..لكن هذا لا يمنع من كونه شخصية متميزة..رأيي فيه لا يغير من حقيقة أنه مثقف كبير..أتعرفين.أحيانًا كنت أستمع إليه وهو يحلل..فتحدوني رغبة قاهرة في مشاكسته..ومعارضته..وكنت أعرف أنه مُحق..لكني كنت أحس بضرورة تسفيه آرائه..ربما غيرة..ربما لشعور بالكبرياء الجريحة..لا أعرف..وقد نبهتني المرحومة صديقتنا المغدورة حواء الكرخي إلى ذلك..

كان وجه حواء البوسني يضج بمشاعر هي مزيج من الإعجاب لجرأة الاعتراف ولهذا التواضع في منح الآخر حقه من التبجيل الذي يستحقه..

ولهذا النقد المبطن للمشاعر الذاتية..ربما من باب تأنيب الضمير..إلا أن الجملة الأخيرة هي التي صدمتها..فسألته:

– صديقتكم المرحومة المغدورة حواء الكرخي..!!؟ أي حواء الكرخي تقصدون..الشاعرة العراقية التي كانت تعيش في دمشق ورجعت إلى العراق..!!؟

في هذه اللحظة تدخل آدم الشبيبي قائلًا:

– نعم..صديقتنا الشاعرة حواء الكرخي التي تم اغتيالها قبل أكثر من شهرين هنا في دمشق..!

– لكنها رجعت إلى العراق..!قالت حواء البوسني مستغربة.

– ثم رجعت إلى دمشق بعد محاولة لاغتيالها هناك..! فتم قتلها هنا في دمشق..!

ارتسمت مشاعر التعجب والصدمة على وجه حواء البوسني..:

– كيف..!؟ أنا لم أعرف أنها عادت إلى دمشق..!

– لكن هذا ما حدث..قال آدم الشبيبي بحزن..

– حواء الكرخي قُتلت؟..سألت حواء البوسني بتعجب وكأنها تحدث نفسها.

نظر الآدمان لبعضهما باستغراب..وسألها آدم أبوالتنك بهدوء:

– أكنت تعرفينها..؟

فقالت بإنفعال:

– نعم..إنها صديقتي..لكن انقطعت بنا السبل ولم نتواصل منذ أكثر من سنة..كنت التقيها هنا في مقهى „الروضة” وأحيانا في مقهى «هافانا»..

لكن في آخر لقاء لنا قالت لي إنها سترجع إلى بغداد..لكن متى رجعت إلى دمشق..وكيف قتلت..قبل فترة..قبل شهرين بالضبط كنت في لقاء عابر مع صديقها السوري ضابط المخابرات..فلم يقل لي شيئًا حينما سألته عنها.. ولم يقل لي بأنها في دمشق..ولم يذكر كلمة عن مصيرها المأساوي...وأمس رأيته في المطعم مع شخص آخر حينما كنت أنا مع الدكتور آدم.. وحينما أردت أن أسلّم عليه أستدار بوجهه وكأنه لم يعرفني فلم أشأ أن أزعجه..؟

كانت جملتها الأخيرة مثل صفعة قوية على وجهيهما..فقال آدم الشبيبي:

– صديقها..ضابط المخابرات السوري..؟

نظرت إليهما ببراءة واستغربت أنهما لايعرفان ذلك على الرغم من ادعائهما بأنهما صديقاها:

– نعم..آدم الحمصي..ضابط مخابرات..كان صديقها على مدى سنوات وجودها في سوريا..أمس كان في المطعم الذي صادف أن التقينا فيه..كيف تقولان إنكما صديقاها ولا تعرفان هذا الأمر..غريب؟؟!

أجابها آدم أبوالتنك قائلاً بهدوء مصطنع محاولًا أن لا يكشف عن مفاجأته وخيبته وجهله بالأمر:

– الحقيقة أنا أعيش في سوريا منذ عقود..وأعرفها منذ أول أشهر وصولها..لقد عانت من محاصرة العراقيين لها ونفاقهن وتشويههم لسمعتها..لذلك اعتزلت الحياة وابتعدت عن العراقيين ..وأبقت حياتها الخاصة سرًا..

نظرت إليهما نظرة فيها تساؤل وشك وقالت:

- ألم تعرفا عن علاقتها بضابط المخابرات آدم الحمصي..الذي سمعت أنه هرب خارج البلاد ملتحقًا بالمعارضين للنظام ثم عاد نادمًا..عمومًا..هو كان صديقها الحميم..وأذكر أنه طلب منها الزواج عرفيًا لكنها رفضت.. طبعًا أنتما لم تعرفا ذلك بالتأكيد..!!.

- لا .لا ..بصراحة..لا نعرف شيئًا عن ذلك..!

كان المفاجآت تتوالى عليهما وكأن حواء البوسني تتحدث عن شخصية أخرى وليست صديقتهما المغدورة التي أحباها معًا .. فسألتهما:

- طيب ألا تعرفان..أو تخمنان..أو حتى تفسران..من قتلها ولماذا..؟

فقال آدم الشبيبي بنبرة فيها ألم واحتجاج مكتوم وغضب من صديقتهما التي خدعتهما:

- لا نعرف من قتلها..؟ ولماذا..؟ هل هم بقايا النظام السابق في العراق..؟ هل هم الفاشيون الجدد أصحاب اللحى والمحابس..؟ لا نعرف..وحتى لو كان أي من هؤلاء فلماذا..؟ هي إنسانة مسالمة وليست خطرة على أحد ولا على أي نظام.. !! والغريب..أنه لا أحد يبحث في لغز موتها..بما في ذلك الجهات الرسمية السورية..وكأنما الجميع متفق على أن تموت..!!

صمتت حواء البوسني للحظات وكأنها تحلل ما قاله..ارتسمت ملامح الحزن على وجهها..وقالت بنبرة حزينة:

- لكنها كانت إنسانة مسالمة..يا إلهي..لكن تُرى مَن له مصلحة في موتها..ثم لماذا بهذه الطريقة البشعة..القتل..!

صمت الآدمان للحظات..في تلك اللحظة جاء النادل وسأل آدم أبو التنك إن كان يريد القهوة كالعادة..فهو معروف لدى نادل المقهى بما يحب أن يشرب..فابتسم له آدم أبو التنك وقال له بأنه لا يغير ما تعود عليه..وأحبه.. وما أن ذهب النادل حتى قال:

- هذا قدر العراقيين أن يُقتلوا على أرصفة المدن الغريبة..! كم قُتل من العراقيين في بيروت وعدن ولندن وأوروبا..

صمتت حواء البوسني للحظات..كانت تعرف أن بعض المعارضين العراقيين تعرّضوا للاغتيال على يد النظام السابق، لذا قالت محاججبة بهدوء:

- نعم..لكن كان ذلك في زمن النظام السابق..وليس الآن..!

- لم يختلف شيئًا..هم أنفسهم وقد امتدت لحاهم ووضعوا المحابس في أصابعهم..قال آدم الشبيبي.

في تلك اللحظة دخل المقهى رجل بأسمال بالية..ملابسه ممزقة ومرقعه بقطع قماش بألوان مختلفة..لحيته غير مشذبة..ونظراته تائهة..ملامحه تدل على أنه معتوه من المنفلتين في طرقات المدينة..وقف في منتصف القاعة ..نظر إلى جميع الجالسين، وفجأة صرخ بأعلى صوته مرددًا شعارًا شائعًا في الثورة المصرية في تلك الأيام:

- الشعب.. يريد.إسقاط النظام.. الشعب..يريد إسقاط النظام.. الشعب.. يريد.إسقاط النظام..

وكأنما من الغيب ظهرت الأشباح؛..فخلال لحظات أحاط بالرجل المعتوه رجال أربعة..من أين أتوا..كيف ظهروا..لم يكن بمقدورهم أن يستوعبوا المشهد..!

التفت الجميع صوب الرجال المتسول الذي اختفى بين الرجال الذين أحاطوا به وأنهالوا عليه بالضرب..ولم يسمع سوى صوته المتقطع المبحوح يتردد:

- الشعب..يريد....النظام..!

وخلال لحظات اختفى المتسول في الأسمال مع الرجال الأشباح ..أخذوه إلى خارج المقهى واختفوا..! كل ذلك لم يستغرق سوى دقائق.. حتى أن بعض الجالسين لم ينتبهوا لما حدث..وحينما انتبهوا للضجة..كان الرجال الأشباح قد اختفوا مع الثائر المجنون.. لكن المنظر كان قاسيًا.. وترك أثرًا مهينًا ومخيفًا في نفوس الجالسين على مقربة من وسط الصالة .

لم يستطع الآدمان وحواء البوسني أن يواصلا حوارهم بسهولة، فقد كان المشهد مؤثرًا.. وأي تعليق معاد للنظام أو لما جرى يكون غير محمود العواقب، لاسيما وأن تعارف الآدمان بحواء البوسني لا يزال سطحيًا!..ا

في تلك اللحظة تقدمت الفتاة التي كانت تقود الكاتبة العمياء من طاولتهم..وتوجّهت إلى حواء البوسني بخجل وقالت بلطف:

- أستاذه حواء..حضرتك تعرفين حواء هبة السماء..هي هناك نجلس معًا على تلك الطاولة..وهي تتمنى أن تتحدث معك وتتعرف إلى شخصك..فإن منحتنا شيئا من لطفك أن تجلسي معنا بعض الوقت..

كان مجيء تلك الفتاة إنقاذا لهم من الحرج في التعقيب على مشهد اعتقال المعتوه في الأسمال البالية..فقالت للفتاة مبتسمة بحزن وهي تلتفت إلى الآدمين:

- يسعدني ذلك..سآتي..لكن طبعًا بعد إذن الأستاذين..

- خذي راحتك..قال آدم الشبيبي

نهضت عن كرسيها وكأنها تهرب من غضبها الداخلي لما شاهدته وأيضًا اتقاءً لمناقشة قد تكون خطيرة..ثم قالت للرجلين اللذين معها:

- أستميحكم عذرًا..سأجلس معهما بعض الوقت..

ظل الآدمان مرتبكين..كانا منزعجين مما حدث مع الرجل المتسول المعتوه..علق آدم الشبيبي بكلمة واحدة: البعث يبقى بعثًا..! سواء في العراق أو سوريا أو حتى على القمر..!..فغمز له آدم أبوالتنك بعينه وهز رأسه بما معناه إن أسكت ..وغيّر الموضوع..!.

انتبه آدم الشبيبي إلى غمزة آدم أبو التنك..فتلفت حوله..صمتا للحظات.. عاد كل منهما يقلب ما سمعه من معلومات عن علاقة حواء الكرخي بضابط مخابرات سوري اسمه آدم الحمصي على مدى سنوات دون أن يعرفا أو تشير إليه صفعة قوية على الأذن.. وشعرا وكأنها خانتهما بكتمانها هذا الأمر..!..لم يودا أن يناقشا الأمر..لكنهما لم يستطيعا أيضا تفاديه..فقال آدم الشبيبي لصديقه:

- ما رأيك في ما قالت..؟

- لا أدري..أعتقد أنها مشتبهة ..تتحدث عن حواء أخرى..!

وجد آدم الشبيبي في جواب صديقه نوعًا من الراحة، على الرغم من أنه لا يتفق معه، لكنه أراد أن يواصل ليطمئن نفسه:

- هل تعتقد ذلك..؟..أنا أيضًا أميل لهذا التفسير..فطوال أشهر تواجدها في بغداد لم تذكر شيئًا عن علاقة لها مع رجل في دمشق..وحتى هنا لم تلمح

لشيء من هذا القبيل..كما أنها كانت طوال الوقت معنا..فكيف ومتى كانت تلتقيه..!؟..ثم إذا كانت هي المقصودة..فلماذا لم يخبر ضابط المخابرات صديقتها حواء البوسني عن موتها؟..هي قالت إنها سألته عنها..ولم يذكر لها أنها قُتلت..! وهذا يفسر أمرًا من إثنين..إذا كانت هي المقصودة فمعنى ذلك أن لضابط المخابرات يد في مقتلها..!أو أنهما كانا يتحدثان عن حواء الكرخي أخرى..وليست صديقتها المغدورة..!..

أنصت آدم أبوالتنك لصديقه واقتنع بتفسيره المنطقي..فقال:

– أنا مقتنع بأنها كانت تتحدث عن امرأة أخرى..لكني لم أشأ أن أربكها وأبيّن لها خطل معلوماتها..

كانت المعلومات الصادمة..وما جرى مع المتسول المعتوه في الأسمال..أعادت لهما أجواء النظام السابق وما فيه من كوابيس..فقال آدم الشبيبي محاولا أن يتوقفا عن النقاش حول علاقة ضابط المخابرات بصديقتهما الراحلة..فقال:

– على أية حال..ثمة شيء غامض في كل القصة..سواء في ما يخص مقتل صديقتنا حواء الكرخي أو (أم) حواء الكرخي الأخرى..وسأستفسر منها لاحقًا..!

في تلك اللحظات جاء النادل يحمل صينية صغيرة فيها فنجان القهوة مع كأس ماء وضعهما على الطاولة..نظر آدم أبوالتنك إليه وغمزه..مشيرًا برأسه إلى ما حصل في القاعة..فهَم النادل ما قصده فابتسم وقال بأن هذا المتسول معتوه..الكل يعرفه..يأتي ويصرخ بشعارات الثورة المصرية والتونسية..فيخرجونه من المقهى لكنه يعود ثانية..قال ذلك وغادر مسرعًا كي لايطول النقاش حول الأمر.

لم يشأ الصديقان أن يعودا إلى مناقشة ما قالته حواء البوسني عن صديقتهما، فالأمر انتهى بالنسبة لهما..وكل منهما لم يشأ أن يشوه الصورة التي في ذهنه عنها..ولا يريد أن يشعر بأنه كان مخدوعًا..بعد لحظات سأل آدم الشبيبي صديقه قائلًا:

- هل حصل شيء..لقد رأيتك متوترًا حينما دخلت..!..

صمت آدم أبوالتنك للحظة..أخرج منديلًا من جيبه ونظف عدستي نظارته الطبية وقال أثناء ذلك:

- نعم..حصل..لقد جاءوا ثانية..

- مـَن؟

- الأربعة الملتحون..

استوعب آدم الشبيبي ما كان يقصده صديقه لكنه أراد أن يتأكد مما قاله فسأله:

- أي أربعة..؟..تقصد الذين خطفوا الطفل هابيل..!؟

- نعم..ومن غيرهم..!! جاءوا صباحًا بعدما خرجت..قالوا إنهم السفراء الأربعة لهابيل..!

- سفراء أربعة لهابيل..؟!؟ سأل بدهشة حقيقية

- نعم..

- أي هابيل..!؟

نظر آدم أبوالتنك إليه باستغراب متضايقًا من محاولته إدعاء عدم استيعابه للأمر بسهولة، أخذ فنجانه وارتشف منه رشفة كبيرة..ثم قال بنبرة فيها بعض العصبية:

- كم هابيل لدينا يا آدم..؟ هو هابيل واحد..؟ الطفل هابيل..وهؤلاء يقولون إنهم سفراؤه..!

- ما معنى ذلك..!؟

صمت آدم أبوالتنك لحظة قبل أن يجيب وكأنه يحاول البحث عن معنى، وقال:

- لا أعرف..!

- وماذا أرادوا منكم..؟..سأل آدم الشبيبي بتوجس.

ركز آدم أبوالتنك النظر في وجهه وقال له:

- قالوا إنهم سيزوروننا مساء..وأنت يجب أن تحضر أيضًا..كانوا هادئين ولطيفين في التعامل..قالوا إنهم سيحملون الطفل هابيل إلينا لنلقي عليه نظرة للمرة الأخيرة لأنه سيغيب غيبة كبرى..!

- ما معنى ذلك..؟ سأل آدم الشبيبي ثم واصل بعصبية..

- هل هو صاحب الزمان حتى يغيب غيبة صغرى ثم كبرى..ويكون لديه سفراء أربعة..!!

تأفف آدم أبوالتنك من الأمر..وقال بنرفزة:

- هذا هو شعبك العظيم..يؤمن بذلك.. منذ أكثر من ألف سنة وهو يؤمن بذلك..وينتظر..

أحس آدم الشبيبي وكأنه عالق في كماشة للجرذان..تفهم عصبية صديقه، وقال محاولًا التعقيب على ما قاله صديقه:

- شعب عظيم..؟؟ كل شعوب الأرض عظيمة..لم أعرف شعبًا لم يدّعِ العظمة..الكل..مهما كان حجم هذا الشعب يدّعي بأنه أصل الحضارة..

انتبه آدم أبوالتنك لما قاله آدم الشبيبي فقال معارضًا ، وكأن ما قاله صديقه هو رد على رأيه:

- لكننا فعلا شعب عظيم..

نظر آدم الشبيبي إليه وكأنه يريد أن يفهم روح المشاكسة في رده، فقال:

- أنا لدي وجهة نظر أخرى..

فقاطعه آدم أبوالتنك بعصبية مكتومة:

- في ما يخص مصير الشعوب لا مجال لوجهات النظر الفردية..!

انزعج آدم الشبيبي من رد صديقه وإصراره على المشاكسة ، فقال:

- بلى..

نظر آدم أبوالتنك إلى صديقه، واستغرب إصراره على رأيه، وانتبه أنهما ليسا في وضع لمثل هذا الجدل، فأراد أن يهدئ من الحوار فسأل مستفسرًا بنبرة مستفزة لكن هادئة:

- كيف..؟

نظر آدم الشبيبي نحو حواء البوسني فرأى أنها تتحدث إلى الفتاة لكنها تمسك بكفي الكاتبة العمياء بين كفيها فأحسّ بفيض من مشاعر الحنان نحوها..التفت لصديقه وقال بنبرة متوترة:

- كثيراً ما نرى شخصًا منحطًا أخلاقيًا..لكن من النادر أن نرى شعبًا منحطًا..وبرغم ذلك..توجد شعوب منحطّة.. شعوب تعشق العبودية.. شعوب فقدت آخر إحساس لها بالكرامة..شعوب تعشق جلادها.. ولصوصها..وخرافاتها.. وظلامها.. شعوب مثل صراصير المراحيض تضعها في الحديقة فترجع لتعيش في المراحيض والخراء..

كتم آدم أبوالتنك نرفزته، فقد كانت تراوده أحيانًا مثل هذه الأفكار، لكنها تتعارض مع الآيديولوجية التي يؤمن بها منذ عقود، فقال:

- هذا تعميم خطير..وعدمية..

خفض آدم الشبيبي وجهه إلى الأسفل ونظر إلى الأكواب التي أمامه وقال بصوت خافت:

- أعرف..

- أنت تنفي عن الشعوب إرادتها في الحياة ..! عقّب آدم أبوالتنك.

أحس آدم الشبيبي في نبرة صديقه نوعًا من الاتّهام، فردّ بصوت مشوب بسخرية مبطنة:

- أعرف أنك يساري ولا يعجبك كلامي هذا..وأنك تسير وراء شعارات رومانسية عمياء..

فقاطعه آدم أبوالتنك بهدوء لا يتناسب مع التوتر الذي ساد الحوار:

- وأنت..ألست أعمى ..!؟

أحس آدم الشبيبي بأنه تمادى قليلًا..ولم يشاء أن يوتر الجو بينهما أكثر فقال مستسلمًا:

- ربما..كلنا عميان...عمومًا..دعنا عن هذا..المهم..متى سيأتي السفراء الأربعة لصاحب الزمان..!

- لا أعرف..علمي علمك..! قال آدم ابوالتنك يائسًا..

- والآن..

نظر آدم أبوالتنك إليه وكأنه امرًا حاسمًا وقال:

- علينا أن نستعد..ونكون حاضرين مساء..

- هل حددوا وقتًا معينًا..؟

- لا..أنت تعرف أنهم يأتون وقتما يشاؤون..!

صمت آدم الشبيبي للحظات وكأنه يفكر في أمر ما..وقال:

- سنرى..

صمت آدم أبوالتنك للحظات..نظر إلى صديقه ثم قال بنبرة تنم عن فضول:

- عموما ..جئت لأبلغك..لأني فكرت ربما ستتأخر أو تنام في مكان آخر..!

ابتسم آدم الشبيبي بحزن وقال بهدوء:

- لا..لا مكان لدي الآن..لكن عليّ أن أرتب وضعي مع هذه السورية.. لأن المغربية والدنماركية اختفتا..لم أرهما..!

فوجئ آدم أبوالتنك من خبر اختفاء المرأتين..ثم قال بعد لحظات:

- ستأتيان..هذا مكانهما المفضّل..!..أنا سأذهب الآن..وأتركك..تعال في حدود السادسة..لا أعرف متى يأتون لكن يفضل أن تكون قبل المساء بقليل..

- اوكي..

نهض آدم أبوالتنك..وغادر الطاولة متجها نحو باب الخروج..لكنه هناك التقى حواء الزياني وهي داخلة..كانت متوترة..حيّاها .. ودون أن تسأله أشار إلى طاولة آدم الشبيبي..فتوجّهت إليه.

- السلام عليكم..

التفت آدم الشبيبي وكأنه فزّ من أحلام يقظته..أحس بالحرج من رؤية حواء الزياني..فهو الآن مع حواء البوسني..وكان يريد الذهاب معها إلى مكتبات منطقة الصالحية..كما كان يأمل أن يعمّق صلته بها..فهي أكثر تحررا من حواء الزياني الغارقة في التصوف والمهووسة بشهاب الدين السهروردي..لكنه استغرب أنها كانت وحدها..وكانت ملامح وجهها تشي بالارتباك..فسألته مباشرة دون أن تتيح له فرصة الرد على تحيتها:

- هل رأيت حواء الساري..؟

- لا..ما بها..؟ أين هي..؟ تفضلي اجلسي.. قال آدم الشبيبي بشيء من الحرج..

جلست حواء الزياني على الكرسي الذي كانت تجلس عليه حواء البوسني..وقالت:

- أرجو أن لا أكون قد اقتحمت عليك عزلتك..هل تنتظر أحدًا..؟

- لا.. لا أنتظر أحدًا..لكني كنت جالسًا مع الكاتبة حواء البوسني.. وصديقي آدم الذي خرج قبل لحظات..

فقالت بدهشة وانفعال:

- حواء البوسني صاحبة «متاهة العميان»..؟

- نعم... أجاب آدم الشبيبي بشيء من الإنتشاء

- وأين هي..؟ سألت حواء الزياني بلهفة.

التفت آدم الشبيبي الى جهة الطاولة التي تجلس حولها حواء البوسني مع الكاتبة الكفيفة ومرشدتها وقال:

- إنها هناك تجالس الكاتبة البصيرة حواء هبة السماء..

التفتت حواء الزياني نحو تلك الطاولة وقالت بإعجاب واضح برغم حالة التوتر التي تطغي عليها:

- إنها امرأة أنيقة..أليست هي التي كانت أمس في المطعم مع شخص آخر..!!؟..لم أتخيل المرأة التي كتبت تلك الرواية بهذه الأناقة والرزانة والجمال..تخيلتها امرأة مشوشة..مضطربة..

نظر آدم الشبيبي إليها باستغراب وقال:

- نعم هي نفسها التي كانت مع الدكتور آدم كارثة.. لكن لماذا تخيلتِها مشوشة..ومضطربة..؟ هل قرأت الرواية..؟

نظرت حواء الزياني إليه وكأنها أدركت عدم رضاه لتوصيفها للكاتبة، فقالت:

- نعم..قرأتها قبل فترة..نزّلتها عن طريق الشبكة العنكبوتية.. واستغربت الجرأة التي فيها..حتى ظننتُ أن الكاتبة مجنونة..أو تعيش في مصح نفسي..! ففيها الكثير من الغور النفسي لأعماق نساء تعرضن لتجارب عنيفة في طفولتهن..ولا يمكن التعرف على ذلك دون المرور بجحيم تلك التجارب...سيسرني التعرف إليها..المهم..كم مضى عليك وأنت هنا في المقهى..؟

- منذ فترة ليست بالقصيرة..قال آدم الشبيبي

- ألم ترَ حواء الساري..؟..سألته مرة أخرى.

- لا..لماذا..؟ هل حدث شيء.. سأل آدم الشبيبي بفضول.

قرّبت حواء الزياني جذعها الأعلى قليلًا منه وقالت وكأنها لا تريد أن يسمعها أحد:

– ليلة أمس..بعدما كنتما معًا..بالمناسبة هي أفهمتني بعدما خرجت أنت بأن الأمر كان طبيعيًا بينكما..ولم يكن عنيفًا كما رأيته أنا للوهلة الأولى.. المهم..بعد أن خرجت أنت..بل بعد منتصف الليل اتصل بها الرجل الذي كانت تخاف رؤيته هنا..

شعر آدم الشبيبي بالإرتياح لإزالة سوء الفهم في المشهد الذي كان بينه وبين حواء الساري..وفي أعماقه شكر حواء الساري لصدقها وتبيانها حقيقة ماجرى..لكنه استغرب ما سمعه عن الرجل الغامض..فسألها بفضول:

– أي رجل..؟

قرّبت حواء الزياني جذعها الأعلى أكثر وقالت بصوت منخفض:

– شخص اسمه آدم الحمصي..تقول إنها قابلته في كوبنهاكن..وكان قد قدّم نفسه لها بصفته تاجر..ومعارض سوري.. وأقامت معه علاقة حميمة جدًا..كانت كما يبدو عشيقته..ثم انقلب الأمر..صارت تخافه..لم توضح لي لماذا..!.. حينما رأته هنا في هذه المقهى قبل يومين ارتعبت..ثم رأيناه أمس مع رجل آخر في مطعم „ الكمال" حينما دعانا الأستاذ آدم أبوالتنك وحرمه للاحتفال بعقد قرانهما..وبعدما خرجت أنت..وقبل اتصال الرجل بدقائق شاهدنا الأخبار في التلفزيون..وعلمنا بانفجار المطعم بقنبلة كانت موجودة في حقيبة جلدية سوداء..لحظتها ارتعبت هي.. وقالت إن آدم الحمصي هو وراء الانفجار..لأنها رأت الحقيبة الجلدية تحت الطاولة حينما كان يتناقش مع رجل آخر كان يجلس معه حول الطاولة نفسها..و

كما قلت لك بعد منتصف الليل بقليل رن الهاتف..وكان هو الذي يحدثها.. طلب رؤيتها بأي شكل..ارتعبتْ حينها..وسألتني مرعوبة: كيف عرف أنني موجودة في دمشق..!؟.. كان قد اتصل بها على الرقم الدنماركي الدولي.. حاولتُ أن أهدئها.. المهم..نمنا..وحين صحوت صباحًا لم أجدها..

أحس آدم الشبيبي برجفة تسري في أوصاله ما إن سمع باسم آدم الحمصي..فقد ذكرت حواء البوسني قبل قليل اسم ضابط المخابرات الذي كان عشيق حواء الكرخي السري واسمه آدم الحمصي أيضًا..لكن أيمكن أن يكون هو نفسه أم هو مجرد تشابه أسماء..؟..فسألها بلهفة:

– وآدم الحمصي هذا..هل هو تاجر فعلًا أم ربما ضابط مخابرات..؟

سحبت حواء الزياني نفسها..وجلست باعتدال..لكن حينما أرادت الجواب تقدمت بجذعها الأعلى مستندة على الطاولة وقالت:

– لا أعرف..هي أيضا تشك في ذلك..وقالت لي بأنها اكتشفت أسرارًا.. فهي تعتقد أنه هنا يمارس دوره كضابط مخابرات ..وربما هو فعلًا كذلك.. لكنه يعمل سرًا مع الإرهابيين والمعارضة..لا أعرف..لا أعرف إن كان إرهابيًا بزي ضابط مخابرات..أم ظابط مخابرات يحاول عامدًا اختراق المعارضة..!!؟ لكن ما أعرفه هي أنها كانت متأكدة بأن التفجير الذي وقع في المطعم من تدبيره..كانت مرعوبة منه..ولا أدري إن كان قد هددها إذا لم تقابله..لأنه أراد رؤيتها عندما اتصل بها بأي شكل ..

– وهل تعتقدين أنها ذهبت للقائه أم ربما عادت إلى الدنمارك..!..سأل آدم الشبيبي بنبرة غير واثقة.

فجأة.. نظرت إليه باستغراب وقالت:

– ربما..أتصدق أنني لم أفكر بأنها ربما رجعت هاربة إلى الدنمارك..! لكن متى خرجت..؟ ولماذا لم تودعني أو تخبرني..؟ كما أن بعض قطع ملابسها موجودة..!

– هل اتصلت بها..؟

بهتت..نظرت إليه نظرات تعجب وقالت بخجل:

– أتصدق أنني لم أفكر في ذلك أيضًا..أنا دائخة..!

وأخرجت هاتفها من حقيبتها..اتصلت بها..لكن دون فائدة..فقالت له:

– هاتفها مغلق..ربما هي لا تزال في الجو..هذا إذا افترضنا أنها قد رجعت إلى الدنمارك فعلاً..!

نظر آدم الشبيبي إليها بقلق وقال بنبرة تشي بارتباك وخوف:

– نعم..لكن ما رويته غريب جدًا..ومخيف نوعًا ما..لاسيما قصة آدم الحمصي هذا..

– نعم.. أنا أيضًا خائفة عليها.. قالت حواء الزياني بتوتر.

في تلك اللحظة تقدمت منهما حواء البوسني باسمة فنهضا كلاهما.. وقدم آدم الشبيبي كل منهما للأخرى بلطف وصداقة قائلًا:

– السيدة حواء الزياني..جزائرية تعيش في المغرب..متصوفة..أو عاشقة للسهروردي..السيدة الكاتبة حواء البوسني..تعرفينها من خلال رواياتها..

– أهلًا وسهلًا..تشرفت بك أستاذه حواء البوسني..أنا معجبة بك..! قالت حواء الزياني بحرارة.

– أهلًا وسهلًا تشرفنا مدام حواء الزياني..

كان آدم الشبيبي مغمورًا بمشاعر طافحة من الفرح لأنه قام بتعريف هاتين المرأتين لبعضهما..ودعاهما للجلوس..وأشار بيده إلى النادل الذي كان على مسافة ليست بعيدة..فأتى هو إليهم وسألهم بلطف عمّا يودونه.. طلب آدم الشبيبي هذه المرة قهوة بينما طلبت حواء الزياني شايًا ، أما حواء البوسني فطلبت شكولاته ساخنة بالحليب.

كان ارتياح المرأتين لبعضهما متبادلًا وواضحًا..لكن كان ثمة حرج في نقطة التواصل والانطلاق في الحديث..فتدخل آدم الشبيبي ليمهد التواصل والحوار بينهم فوجّه كلامه إلى حواء البوسني قائلًا:

– السيدة حواء الزياني جزائرية لكنها مقيمة في المغرب..وقد جاءت إلى سوريا لزيارة ضريح شيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي المقتول.. ويمكن القول إنها متخصصة بفلسفته ونصوصه..

نظرت حواء البوسني بإعجاب إلى حواء الزياني..وقبل أن يتوجه لحواء الزياني ليقدم الكاتبة حواء البوسني بشكل أفضل، قاطعته هي قائلة ومعقبة:

– من النادر أن أرى امرأة تهتم بالتصوف..بل وتتخصص في شيخ الإشراق السهروردي..فطبيعة المرأة هو الحياة وتجديد الحياة والإقبال على الحياة وليس الزهد في الحياة والعزلة..

شعرت حواء الزياني بالإعتزاز لكلمات الكاتبة حواء البوسني، لكنها لم تكن راضية في معارضة التصوف بالحياة، فقالت موضحة:

– لكن شيخ الإشــراق كان يحتفي بالحياة..هو على خلاف بقية المتصوفة..يجذبني توحده بالذات..ورؤيته للتوحد..والطرق إلى التوحد ومقاماته..أتعرفين إن السهرودري مغامر..

- مغامر..؟ بأي معنى..سألت حواء البوسني مستفهمة.

انبرت حواء الزياني لتجيب مستعرضة ثقافتها في مجال اللتصوف قائلة:

- المغامرة كشف ومعرفة..والمعرفة مغامرة وكشف..فالمغامرة بهذا المعنى معرفة..

- لكن أية مغامرة هي كشف ومعرفة..سواء كانت تجربة صوفية.أو فلسفية.أو علمية..أو حتى تجربة حياتية عادية.. ردت حواء البوسني.

أحست حواء الزياني ببعض الحرج..فقد كان اعترض حواء البوسني منطقيًا..فحضّرت نفسها كي تدافع عن السهروردي أكثر مما تدافع عن وجهة نظرها، إلا أن مجيء النادل بطلباتهم أجّل مرافعتها للحظات، وما إن ذهب حتى قالت وهي تقرب كوب الشاي منها:

- يقول السهروردي ما إن يصل السالك إلى وادي التوحّد والتفرّد حتى يصل إلى وادي الاضطراب وعدم القدرة على أن يعرف بين نفسه وبين الخالق..لأن في هذا الوادي تتلاشى ثنائية الذات والآخر...الأنا والهو..ولا بقاء إلا للوحدانية..لذا صرخ الحلاج أنا الحق..!

كانت حواء البوسني تنظر إليها نظرات فيها استنغراب واستفهام واعجاب وهي ترتشف الشوكلاتة الساخنة..بينما كان آدم الشبيبي ينصت إليها مستغربًا هوسها بعالم السهروردي بحيث تحفظ رسائله وتفصلها في الشرح..وتتلو الكثير من نصوصه غيبًا..فسألها وهو يرتشف قهوته:

- ما معنى تتلاشى الأنا والهو..ولا بقاء إلا للوحدانية..؟

ابتسمت له بمودة وكأنه منحها فرصة لتستعرض فكر شيخها..ولتبين تعمّقها وفهمها للسهروردي، لاسيما أمام الكاتبة حواء البوسني، فقالت:

– يوضح شيخ الإشراق درجات التوحيد بأنها أربع درجـات..أولًا: درجة من يقولون: «لا إله إلا الله»..!..وهؤلاء لا يضيفون للإلوهية إلا الله...وثانيًا: درجة من يقولون: «لا هـو إلا هـو»..!..وهؤلاء ينفون عن (الهو) كل أنواع (الهو).. أي لا أحد غيره (هـو)..لأن (الهو) الأولى لا تصدر إلا عنه (هـو)..!.. وثالثًا: درجة من يقولون: «لا أنتَ إلا أنت»..! وهم أسمى من السابقين..لأنهم لا يسمّون «الله» بضمير الغائب..ف«أنتّ» محاط..وحاضر..ويشهدون له بالحضور ..!..ورابعًا: درجة من يعتقدون أن كل خطاب ونداء يعني مسـافـة وبُعـد..مسافة بين القائل والمخاطَب.. ومّن يضع المسافة فهو يشرك..!! لذلك فأن أصحاب هذه الدرجة يتوحدون في قول «لا أنا إلا أنـا»..!..أي كل الكلمات: هـو..أنـتَ.. أنـا..تغرق في حـر الفناء..فلا أوامـر ولا نـواهي..!.

ابتسمت حواء البوسني لها بمودة وقالت:

– يعني الحلاج من أصحاب الدرجة الرابعة حينما صرخ „ أنا الحق»..

– نعم

– لكنهم أتهموه بأنه جدف..!

– نعم..كما أتُهم السهروردي أيضًا بالكفر حينما سُئل: أيمكن لله بأن يرسل نبيًا بعد النبي محمد..فأجاب: ليس هذا على الله بمستحيل فهو قادر على كل شيء قدير..فأتهموه بالكفر لأنه لا نبي بعد النبي محمد حسب قول النبي محمد نفسه إن لا نبي بعدي..!

– يعني أنهم يحجموّن قدرة الله لصالح كلام النبي..والنبي إنسان..! قال آدم الشبيبي بغضب..

فجأة هبَّت حواء الزياني واقفة حينما رأت حواء الساري تدخل وملاصقًا لها كان المدعو آدم الحمصي..! التفتا كلاهما إلى الجهة التي فزّت حواء الزياني بسببها..حواء البوسني ابتسمت..بينما ارتسمت ملامح الذعر على وجه آدم الشبيبي..!

اضطرب وجه حواء الزياني حينما رأت أن حواء الساري ومرافقها آدم الحمصي لم يتجها نحوهما..على الرغم من أن حواء الساري رأتها لكنها لم تعرها اهتمامًا..كانت تبدو وكأنها مخدّرة أو سكرانة..!

ارتسمت ملامح الاستغراب والإحباط على وجه حواء الزياني..جلست ببطء على كرسيها وكأنها غائبة عن مجالسة الآخرين حول الطاولة.

انتبها كلاهما إلى أن حواء الزياني صُدمت من تصرف صديقتها..نظرت حواء البوسني إلى آدم الشبيبي وقالت وكأنها تسره شيئًا:

- هذا هو آدم الحمصي..صديق المرحومة حواء الكرخي الذي حدثتكما عنه..أتريد أن أعرّفك عليه..!

نظر آدم الشبيبي إليها بخوف وقال:

- لا ..لا ..لنترك هذا الأمر الآن..!

وعلى الرغم من أن حواء الزياني بدت وكأنها ليست معهما إلا أنها انتبهت لما قالته الكاتبة حواء البوسني فسألتها بنبرة محبطة:

- هل تعرفين ذاك الرجل..الذي اسمه آدم الحمصي..؟

التفتت حواء البوسني إليها ونظرت إليها نظرة فيها شيء من الاستغراب لسؤالها، وقالت:

– نعم.إنه صديق قديم..صديق مشترك لصديقة راحلة بيني وبين الأستاذ آدم ..!.

– هل هو تاجر..!؟ سألت معقبة.

نظرت حواء البوسني إليها باستغراب وقالت:

– لا..إنه ضابط مخابرات معروف..

أحس آدم الشبيبي برجفة تسري في أعماقه..إذن هذا هو آدم الحمصي صديق حبيبته حواء الكرخي.. ضابط مخابرات..وهو نفسه عشيق حواء الساري..الذي تتهمه بأنه ارهابي وهو الذي فجَّر مطعم أمس..!!..ولم تكن حواء البوسني تعرف ما هي الانفعالات ومشاعر الخوف التي كانت تفور في أعماق آدم الشبيبي.

في تلك اللحظة انشغلت حواء الزياني عنهما ثانية..ونهضت عن كرسيها ببطء وعيناها تتابعان صديقتها حواء الساري وضابط المخابرات آدم الحمصي وهو يقودها كالسكرانة ويغادران المقهى على عجل..سحبت الكرسي.. والتفت إليهما بارتباك وقالت موجهة كلامها إلى الكاتبة حواء البوسني:

– فرصة سعيدة أستاذة حواء البوسني ..تشرفت بك..وددت لو ناقشتك عن روايتك «متاهة العميان»..لكني مضطرة إلى المغادرة.. أتمنى أن تُتاح لي الفرصة للقاء آخر..أحس أن صديقتي في وضع خطر..وأنت أستاذ آدم.. أتمنى أن أراك غدًا ..ضروري..سأنتظرك في البيت..

بُهت آدم الشبيبي لتصرفها وهو يراها تغادر المقهى بعجلة واضحة.. لكنه أدرك في الوقت نفسه بأن حواء الساري في خطر..فهي الآن مع ضابط

مخابرات..أو إرهابي..نظرت حواء البوسني إليه مستفسرة..فقال لها بارتباك:

– هذه قصة غريبة وغامضة..! دعينا الآن من كل هذا..لنمض الآن نفتش عن روايتك..!

ابتسمت له موافقة على اقتراحه..وقالت له:

– قبل أن نذهب..علي أن أمضي إلى مرافق النساء..

– طيب سأنتظرك..

كان آدم الشبيبي محتارًا..قصة حواء الكرخي وعلاقتها بضابط المخابرات آدم الحمصي خلقت لديه منذ سماعها اضطرابًا نفسيًا.. وها هي قصة حواء الساري مع الشخص نفسه..وقصة الإنفجار والاتصال الليلي..! كان مضطرب النفس.أحس أنه في دوامة.. إنه يحتاج إلى الأمان..حواء الساري صارت مشروعًا خطرًا بالنسبة له..وهذه المهووسة بالسهروردي تبدو أنها تحتاج إلى من يعيدها إلى صوابها..أما حواء البوسني فتبدو أنها اكثر استقرارًا..لكنها سورّية..وهو يريد مغادرة سوريا..وبينما هو في خِضَم أفكاره..أقبلت حواء البوسني مبتسمة.أحسّ بأنه يرغب فيها..يشتهيها..فهي امرأة مثيرة..وأنيقة.

قبل أن تصل إليه نهض عن كرسيه..ثم قال:

– انتظري كي أدفع الحساب..!

– لقد وصل..قالت مبتسمة..

– كيف..يفترض..

فقاطعته وهي تبتسم وتتحرك أمامه نحو باب الخروج قائلة بمرح:

– أنا كنت جالسة قبلك..أنت ضيفي..و لكي لا تزعل..ستدفع أنت في المرة القادمة.

الفصل التاسع عشر

بوح حواء السواد

الوقت ليل..ليل مظلم..سماء بلا قمر..والمدينة تلتم على نفسها خوفاً من هذا الظلام الكثيف..وخوفاً من الأشباح التي تختفي بين طبقاته..ليل ثقيل مثل رخ هائل مدّ جناحية على دمشق فكتم أنفاسها. فالأسواق قد أقفلت..والشوارع فارغة..والمقاهي أطفأت مواقد جمرها..ولملمت نراجيلها وقلبت كراسيها على طاولاتها..حتى الفنادق لاذ نزلاؤها بغرفهم، غالقين أقفال أبوابها بالمفاتح من الداخل..داخلين أسرّتهم..ساحبين الأغطية فوق رؤوسهم خوفًا..والمستشفيات أقفلت بواباتها وشددت الحراسة على مداخلها خوفًا من أشباح الظلام..لاشيء سوى سيارات سود تابعة لرجال المخابرات تركن في زوايا الشوارع والساحات..مندغمة في الظلام الحالك.. لاشيء سوى الظلام الكثيف..وهذا الليل الثقيل.

في بيتهم الصغير كان الآدمان وحواء الفارسي ينتظرون بخوف متوجسين مما تخبئة لهم هذه الليلة الظلماء..فقد كانوا ينتظرون مجيء الرجال الأربعة الملتحين..لكنهم لم يأتوا..!!

آدم الشبيبي كان قلقًا على غير عادته..كان متوجسًا..خائفًا..مشغول البال..وكأنه يخبئ شيئًا..كان خائفًا أكثر من آدم أبوالتنك وزوجته حواء الفارسي التي كانت متشوقة لرؤية الصغير هابيل..!..وكلاهما لم يفهما سر حالة آدم الشبيبي غير الطبيعية.

تجاوزوا منتصف الليل ولم يأت الرجال الملتحون الأربعة.

كانت حواء الفارسي مبتهجة بوجود آدم الشبيبي لكنها كانت تضغط على نفسها كي تكتم ذلك.فهي في يوم زواجها الثاني.. لكنها في الوقت نفسه كانت تعامل آدم أبوالتنك باحترام زوجي..وتتصرف كربَّة بيت.

كانوا قد تعشوا ..ثم شربوا الشاي..وتناقشوا عن لغز اختطاف الطفل هابيل..وهم بانتظار الرجال الملتحين الأربعة..ولم يأتوا..ثم تطرقوا للمتسول المعتوه الذي دخل المقهى وهتف بأن الشعب يريد إسقاط النظام..وتحدثوا عن رجال المخابرات الذين لم يعرف أحد من أين ظهروا كالأشباح.. وشربوا الشاي ثانية..والرجال الأربعة الملتحون لم يأتوا.. تابعوا الأخبار في التلفزيون..تحدثوا في السياسية..ثم جاءت حواء الفارسي بصحن كبير فيه أنواع من الفواكه..وبعد ذلك جاءت بالمكسرات السورية اللذيذة.. وتحدثوا..والرجال الملتحون الأربعة لم يأتوا..ساعات مرّت وهم ينتظرون..ولم يحدث شيء..ولم يأت أحد..!!.

في الساعة الواحدة..اتفقوا جميعهم في الرأي بأنهم لن يأتوا..لاسيما أن حواء الفارسي قدمت الحجة المقنعة بأنهم لن يأتوا في مثل هذه الساعة ومعهم الطفل لأنه يجب أن يكون نائمًا في مثل هذا الوقت..! وكان الموقف للزوجين محرجًا..فيجب عليهما الليلة أن يناما في غرفة واحدة..وفي سرير واحد؟؟!

ولم يكن أمامها الانتظار أكثر..فنهض الزوجان..وقبل أن يذهبا إلى غرفتهما توجها إلى المطبخ حاملين ما كان على الطاولة الكبيرة والصغيرة التي قرب الصوفا من أطباق..وضعاها في المطبخ وألقيا التحية على آدم الشبيبي ودخلا غرفة النوم..!.

بينما تمدد آدم الشبيبي على الصوفا مسترجعًا ما جرى له مع الكاتبة حواء البوسني بعد جولتهما بحثا عن روايتها „متاهة العميان”..وذهابه معها إلى شقتها استجابة لدعوتها له..وكان يؤمّل نفسه بمباهج وأفراح جسدية تنتظره..ولم يكن يعرف ماذا كان ينتظره..!! بل هو إلى هذه اللحظة لا يعرف حقيقة ما جرى..!. لكنه حاول استذكار كل التفاصيل..نعم..عليه أن يعيد ترتيب التفاصيل منذ البداية.

***

هو يستذكر الآن وهو مستلق على الصوفا تفاصيل ما جرى..كانا قد غادرا مقهى«الروضة» الوقت كان في حدود الحادية عشرة صباحاً..تجولا في منطقة الصالحية..لكنهما تعبا من التّجوال..وفجأة قالت له لماذا لا يأتي معها إلى شقتها..لديها نسخة أرشيفية وحيدة..يمكنه أن يقرأ الرواية عندها.. وهي ليست رواية طويلة وضخمة من ناحية الحجم..فوافق مباشرة..لا لتلهفه لقراءة الرواية وإنما لكي يكون معها بين أربعة جدران وفي بيتها..!

شقّتها كما يتذكر الآن في منطقة «مساكن برزة».. وهذا ما قالته لسائق التاكسي حينما صعدا معًا من منطقة الصالحية..!. وعلى الرغم من أنها كانت تحدثه خلال الطريق عن مشاكل الطباعة والتوزيع لرواياتها، إلّا أنه كان يفكر في جسدها البض، ويجسّد في ذهنه أوضاعًا يمنّي نفسه بأن يجربها معها..!

حين توقفت سيارة التاكس انتبه آدم الشبيبي إلى أنه أمام بناية تتألف من تسعة طوابق.. قبل أن يدخلا المصعد..انتبه إلى كتابة منقوشة بالحديد على أعلى المصعد: «أيها الداخل..تخل عن كل أمل..عن كل أحلام وأوهام..»..استغرب هذا النقش..ذكرّه بتحوير للنقش على بوابة الجحيم

عند دانتي اليغيري..لم يقل لها شيئًا..لكنه انتبه إلى أنها كانت متوترة وخائفة..ومشغولة الذهن!.

حين خرجا من المصعد وجد ما أثار استغرابه..فقد كان الطابق يضم أربع شقق متقابلة ولا تختلف أية واحدة عن الأخرى أبدًا..الأبواب نفسها..لون الأبواب وطرازها نفسه..بحيث لا يمكن للناظر أن يفرق بينها قط..وكلها تحمل الرقم سبعة 7..

انتبه إلى أن حواء البوسني كانت محتارة بين هذه الشقق..تقدمت من إحدى الشقق فقرأت على اللوحة البرونزية اسم «حواء الجدي».. تراجعت قليلاً..مشت نحو الشقة الجانبية التي تحمل الرقم نفسه وقرأت اسم «حواء الكتبي»..تركتها أيضًا وتوجّهت نحو الشقة الأخرى المقابلة للأولى فقرأت اسم «حواء العطار»..فتركتها واتجهت إلى الشقة الرابعة التي كانت تحمل اسمها «حواء البوسني»..!:

حين دخلا الشقة انتبه إلى أنها ليست بالكبيرة كما كان يتخيل..فالباب الداخلي يقود إلى صالة كبيرة نسبيًا تقود إلى ممر ضيق..المطبخ وبجانبه غرفة الحمام يقعان على جهة اليمين من المرر الضيق..ويقابل المطبخ باب يقود إلى غرفة، بالتأكيد هي غرفة النوم، إذ لا يوجد في الصالة ما يشي باستخدامها للنوم..!..

انتبه إلى أن الصالة مليئة برفوف الكتب. التي تمتد على جدار كامل بينما تتوسط الصالة نافذة عريضة بعرض الجدار تقريبا تطل على الشارع..وعلى الجهة المقابلة للمكتبة ثمة صوفا عريضة من الجلد الأبيض كبيرة تمتد على شكل حرف L..وعلى جانب النافذة ثمة مقعدان كبيران من الجلد الأبيض

أيضًا بينهما طاولة صغيرة..وأمام الصوفا في وسط الصالة ثمة طاولة كبيرة نسبيًا عليها مزهرية فيها باقة ورود ذابلة. ومنفضة سجائر.

جلسا على الصوفا الجلدية الكبيرة.. كان مزاجه رائقًا..وكان يشعر بالراحة والاسترخاء لكونه صار معها في شقتها وحدهما..بيد أنه في الوقت نفسه محرجًا..كان يبحث مع نفسه في إيجاد الطريقة التي يقودها فيها إلى ما يريده..إلاّ أنه لاحظ ثمة انخطافًا في ملامحها..انتبه إلى توتر خفي يهيمن عليها..ونظرات متوجّسة يشع منها ذعر وارتباك.. فكّر هو مع نفسه: «ربما هي محرجة من تواجده في شقتها برغم أنها هي من دعته..»..!.

فجأة التفتت إليه وقالت بتوتر واضح:

- هل تستطيع أن تبقى معي هنا الليلة..؟ أنا خائفة..خائفة جدًا..

فوجئ آدم الشبيبي..لاسيما وأنها كررت كلمة «الخوف»..أحس وكأنه يصحو من أحلام يقظته بمضاجعتها..فسألها بتوجس:

- خائفة..؟ من أي شيء خائفة..؟

- قل ممن أنا خائفة..؟ لكني برغم ذلك لا أستطيع أن أوضح أكثر..أنا خائفة..خائفة جدًا..

- لكن على الأقل أحب أن أعرف ممَّن أنت خائفة...!

نظرت إلى آدم الشبيبي للحظات..ثم شردت بنظرتها تائهة تتجول في رفوف المكتبة وكأنها تهرب من شيء ما..وقالت بنبرة تشي بحزن عميق:

- سؤال طالما حيّرني: متى بدأ الموت؟.. متى كانت لحظة الموت الأولى..؟ أول موت..؟ وكيف كان..؟ أتُرى الموت مصير أرضي فقط..؟ هل هناك موت في العدم..؟ هل تعرف الأبديةُ الموتَ؟..!

صمت هو للحظات..تسرب شيء من الخـوف إلى نفسه..فكر أن هذه المرأة ربما مضطربة الذهن..فما الذي يدفع امرأة أنيقة ومثيرة وكاتبة ناجحة إلى أن تفكر في الموت وتتوغل في البحث عن جوهره بعد دقائق من تجليات الرغبة الملتهبة والحديث عن الأدب والفن والجمال..ووجد نفسه يجيبها قائلًا:

– الأبدية سر الأسرار..الأبدية حياة لا مرئية..محيط لا نهائي من العدم العظيم..الأبدية لاوجود يمنح الموت حياة ومعنى..ويختزل الحياة في لحظة عابرة..ليجعل منها برهة بين موتين ينبضان بالحياة..

نظرت إليه بشكل مفاجئ وسألت:

– العـدم العظيـم ..ما معنى العدم الذي يمنح الموتَ حياة..!

– لا أعرف كيف أشرح لك..لكني أعتقد المقصود به هو أن الوجود الواقعي المادي الذي يحيطنا..وحتى الوجود الذي لا نراه وإنما يخبرنا عنه العلماء من خلال التلسكوبات الموجهة لأعماق الكون وكذلك المسابر والمركبات المرسلة لتقطع خلال سنوات مئات الملايين من الكيلومترات بعيدًا عن الأرض.. بل إن كلّ ما لدينا من كون مرئي هو ليس سوى مظهر لوجود آخر لامرئي..لوجود أكثر جوهرية من مظهر الوجود المادي..وأقصد بذلك „وجود العدم"..فالعدم هو „الوجود" الحقيقي..هو الجوهر الأول واللامتناه والأزلي..هو الله..أما الوجود الذي نعرفه..الوجود الكون أو الطبيعة فهو حيز في المكان والزمان..أحد التمظهرات والتجليات لرعشة العدم العظيم...ومن هنا فإن توما الأكويني كان يرى أن الله هو نوع من العدم الذي لا يمكن أن يقال عنه أي كلام يدركه العقل..

صمتت للحظات تفكر في ما سمعته..وكأنها تحاول أن تفسره وتفككه في ذهنها، ثم التفتت إليه وقالت:

- هل الله هو العدم العظيم..؟

- نعم..هو بهذا المعنى.. أجاب آدم الشبيبي

- وهل حين أمـوت سأحيا في العــدم..؟

- لا أدري..!

كان هو لا يريد أن يستمر بهذا الحوار الجاد والعميق والذي يقتل كل الحواس والغرائز ولا يبقي سوى شعلة الذهن متقدة..بينما هي صمتت للحظات ..ثم سألت:

- لماذا نخاف الموت إذن..؟

- لا أدري..ربما لأننا لا نعرف غير الحياة..ولا نذكر شيئًا عن العدم الذي جئنا منه..

- أجئنا من العدم حقًا..؟

- لا أدري..

- وما الذي ندريه..

- لا أدري ..الذي أدريه أننا لا ندري شيئًا..من أين جئنا..وإلى أين نذهب..أعتقد أن الوجود تجلٍ ورعشة لروح العدم..!

كانت متوترة..ومع كل كلمة يزداد توترها..فجأة نهضت عن الصوفا وقالت:

- سأحضر لك عصيرًا أو أعدّ لك القهوة ..كما تشاء..

– لا داعي لأي شيء..

لكنها لم تعره سمعًا..نهضت بشكل آلي وكأنها سائرة في النوم ..ظن أنها ستتجه إلى المطبخ..لكنها لم تدخل المطبخ وإنما فتحت الباب المقابل له ودخلت..أقفلت الباب خلفها بالمفتاح.

لم يرَ آدم الشبيبي أنها دخلت إلى المطبخ مثلما لم يرها تدخل الغرفة، لكنه سمع الباب تطبق وصوت مفتاح يتحرك في الرتاج.. ومرت دقائق لم يسمع خلالها شيئًا.. لم يفكر بأي شيء سلبي..وجد الأمر طبيعيًا..فربما أرادت أن تغير من ثيابها..أو تحمل له نسخة الرواية التي قالت أن لديها في الشقة..لذا نهض هو من الصوفا وأخذ يتأمل عناوين الكتب في الرفوف..

حين صار في موضع من الصالة قرب رفوف الكتب بحيث يمكنه أن يرى المطبخ تأكد من أنه لا أحد في المطبخ..! استغرب..سأل نفسه: أين اختفت..؟ تقدم ببطء ليعرف أين اختفت..دخل المطبخ..ليس هناك أحد.. والطباخ مطفأ..نظر إلى باب الغرفة المقابل للمطبخ..إنه موصد..ولا نأمة تُسمع من داخله..: «أين هي؟»..سأل نفسه..رجع بهدوء إلى الصالة.. لكنه لم يجلس وإنما وقف أمام رفوف الكتب محاولًا أن يشغل نفسه لحين خروج حواء البوسني من الغرفة.

فجأة فزّ على صوت مواء جوقة من القطط يأتي من الغرفة الوحيدة المقفلة..فكّر مع نفسه بأن حواء البوسني ربما لكونها وحيدة فأنها قد ربّت بعضًا من القطط في بيتها، وربما اسكنتها في غرفتها، وهي إنما دخلت الغرفة من أجل أن تطعمها..لكن فجأة، تعالى صوتها صارخًا وكأنها تكلم أحدًا:

– ألم أقل لكنّ أن لا تكذبن عليّ.. ولا تتوهمن قصصًا ملفقة..لأني أعرف متى تكذبن ومتى تصدقن..!..

وتداخل مواء القطط مع بعضه، وكأنهن يعتذرن لحواء البوسني أو يؤكدن بأنهن لم يكذبن..وفكّر آدم الشبيبي بشخصية حواء البوسني الغامضة..كيف أنها تحولت خلال ساعات لعدد من الحواءات..وها هي تكشف عن قوة غامضة في التوحد مع الطبيعة ومعرفة لغة الحيوان..فشعر برجفة باردة تسري في جسده..!

انتبه آدم الشبيبي لخرمشات على الباب..لم يعرها اهتمامًا..لكنها صارت مثل ضرب خفيف على الباب..توجّه نحو الباب.. فتحه..لم يرَ أحدًا..لكن ترآى له قط أسود كبير يجتاز العتبة داخلًا إلى الشقة..متجهًا نحو الغرفة التي دخلتها حواء البوسني.. واخترق الباب دون أن يُفتح له..!!

لم يصدق ما رآه..ظن أنه يتوهّم..لكن انتبه إلى أن القطط صمتت منذ دخول القط الأسود إلى الغرفة مخترقًا الباب..!.. وهيمن سكون على الشقة..رجع آدم الشبيبي وهو منذهل لما رآه..ظن أنه توهم ذلك بفعل الجو الغامض الذي يهيمن على الشقة..توجّه إلى حيث المقاعد والصوفا ورفوف الكتب..جلس على الصوفا محتارًا..لم يكن يعرف إن كان عليه مغادرة الشقة أم انتظار حواء البوسني لتخرج من غرفتها..لكنه كان متيقنًا من أمر واحد هو أن ما جرى ويجري في هذه الشقة لهو غامض وغريب.. وغير واقعي..بل أشبه بالخرافي..!

فجأة سمع صرخة حواء البوسني تقول:

- أرجوك اتركني.. هذا حرام..أنا أختك..سيرانا أحد..لا..لا..

- لن يأتي أحد..اصمتي..وإلا ضربتك..جاء صوت ذكوري فيه نبرة حاسمة مُشبّعة بالتهديد.

– أنا أختك..جاء صوت حواء البوسني متوسلا

– أنتِ لست أختي..أبونا هو نفسه..لكنك لست أختي..أنت عشيقتي..! والآن اصمتي وإلا اشبعتك ضربًا..

وثم تناهى إلى سمعه لهاث يشبه اللهاث الجنسي والتلذذ الشبقي..وكأن هناك من يمارس الجنس في الغرفة المجاورة المقفلة..إلا أن مواء القطط تعالى مرة أخرى وكأنه جوقة إنشاد..ولم يكن آدم الشبيبي يستوعب ما يجري ولا يدرك ماذا عليه أن يفعل..ثم انتبه إلى سكون كل شيء..وهيمن صمت مشحون بالتوتر على الشقة..شعر أن الصمت يضغط على نفسه..فجأة سمع صهيل حصان..حصان في الغرفة!!؟؟ سأل نفسه مستغربًا..: «كيف يمكن لحصان أن يصعد إلى الطابق السابع..!..ربما أنا واهم..لا.لا.ثمة ضجيج وهمهمة..ما الذي يجري هنا..؟ أين أنا..؟..»..

كان آدم الشبيبي ما زال منشغلًا مع أسئلته لنفسه حين سمع قهقهة نسوية.. وسمع حوارًا طبيعيًا يجري بين حواء البوسني التي عرفها من نبرة صوتها وأخرى كانت تتحدث بالفصحى لكن نبرة صوتها تشي بأنها غير سورية.. وكان حوارهما واضحًا وكأنهما ليستا في غرفة مقفلة ، وإنما يجلسان بالقرب منه.

– من أنت ..؟ ولماذا جئت مع القطط؟..ولماذا دخلت كحمامة وليس كقطة..؟ سألت حواء البوسني.

– أنا حواء السواد..جئتك كحمامة لأني حمامة..وعمري الذي قضيته كله كنت أحس بنفسي حمامة.. أنا حواء السواد. أحب الكحل حول عينيّ.. أحب سواد شعري الطويل الكثيف..أحب ثوبي الأسود الطويل الذي يكشف

عن ضمور خصري الذي يقود إلى مؤخرتي المثيرة..أحب سواد ملابسي وسراويلي الداخلية..أحب جسدي في عريه..وأحب الحمام..فهو صامت مثلي.. وإذا ما تكلم فأنه يتغنى شجنًا.. ألم أجئك بهيئة حمامة....ألست حمامة تطير بعيدًا عن سربها..! باحثة عن شيء لا أدري ما هو بالضبط..!.

- ولِمَ جئت..؟

- لا أدري..إنني أبحث عن شيء لا أعرف ما هو بالضبط.. أسمع أصوات في رأسي..حوارات غير واضحة..تشويش..لا أستطيع الاستقرار.. أريد أن أنام ولا أستطيع..هذا هو الجحيم بعينه..أريدك أن تختمي قصتي وتريحيني..!

- لقد كتبت عنكِ..أنت في مخطوطة روايتي الجديدة..إحدى شخصياتي المهمة..حواء السواد..ثمة مسودات عنك موجودة ..كتبتها عنك..

- أرجوك أدخليني في متاهتك وانهي قصتي فقد تعبت..جاء صوت المرأة المدعوّة حواء السواد متوسلًا..

- الأوراق التي كتبت سيرتك فيها موجودة في المكتبة على رف الروايات الأجنبية في الصالة..سأرى كيف أنهي قصتك.. لكني أرى أن ما كتبته عنك هو بعض اعترافك السابق لي..سأرى كيف سأروي قصتك..أنا نفسي أحس بأصوات تصرخ وتتناقش وتتداخل في رأسي..أنا نفسي صرت لا أطيق نفسي..أريد أن أضع حدًا لحياتي..

كان هو مستغرقًا بالتنصت لحوار المرأتين الذي انقطع فجأة حين سمع خفق أجنحة يأتي..وهيمن الصمت..!..تلفّت في ما حوله..نظر إلى أرفف المكتبة فرأى بضع أوراق..قام من مكانه وأخذها.. اقترب من النافذة

العريضة التي تطل على الشارع من جهة الوسط..قرأ في الأوراق القليلة التي أخذها من الرف: «بوح حواء السواد»..جلس على الصوفا..فجأة سمع صراخًا وسمع حواء البوسني تصرخ به من الغرفة المجاورة:

- انتبه يا آدم..أهرب..أهرب..أهرب..يريدون قتلك..وقتلي..أهرب فورًا..

تلفّت آدم في ما حوله فلم يجد أحدًا لكن صرخة حواء البوسني المحذّرة كانت واضحة بما يكفي..ثم تعالى الصراخ المحذّر له مرة أخرى:

- قلت لك اهرب..اهرب..غادر الشقة فورًا..اهرب..

ارتعب آدم الشبيبي..فقفز من مكانه وهرول دون تفكير مغادرًا الشقة.. وما أن صار خارجها حتى رأى الحواءات الثلاث الأخريات اللاتي يسكن الطابق معها..:حواء الجدي..حواء الكتبي..وحواء العطار يقفن عند أبوابهن صامتات..وكأنهن في مأتم..ضغط على زر المصعد..لكنه انتبه إلى أن المصعد كان قد بدأ بالصعود قبل أن يضغط عليه..هرول نازلًا سلّم البناية على قدميه..وأثناء حركته انتبه جانبيًا إلى المصعد فرأى ضابط المخابرات السوري آدم الحمصي داخل كابينة المصعد..ارتعب ونزل مهرولًا..قافزًا درجات السلّم الملتوي كل درجتين أو ثلاث في قفزة واحدة..كان يهرول.. وحين صار في الطابق الأرضي خرج من البناية راكضا..مبتعدًا عنها..فجأة انتبه إلى أن الأوراق المعنونة „بوح حواء السواد" لا تزال في يده..ولم يكن يبتعد أكثر من عشرين مترًا حتى سمع دويًا هائلًا صاحبه تكسّر زجاج.. فالتفت مرعوبًا إلى جهة الدوي..وأدرك خلال لحظة واحدة أن هناك جثة رُميت من الأعلى فسقطت على سيارة واقفة تحت البناية..

لم يكن يحتاج لمزيد من التأكد ليعرف أن الجسد الملقى على سطح السيارة الذي أصابه اعوجاج كبير كان هو جسد حواء البوسني..وتأكد أنها قتلت..وأن

ضابط المخابرات..آدم الحمصي هو الذي رماها من النافذة إلى الأسفل.. وخلال لحظات تجمّع الناس حول الجثة التي سقطت على السيارة..بينما رأى صاحب السيارة يضرب على رأسه حينما شاهد سيارته مدمرة..!.

بسرعة أوقف آدم الشبيبي سيارة تأكسي..فرّ من المكان..التفت إليه السائق منتظرًا ان يخبره بالمكان الذي يود أن يتوجّه له..ولم يخطر في تلك اللحظات في باله سوى حواء الزياني فقال للسائق:

- إلى حارة اليهود رجاءً..!

***

حين اقترب من المنزل الذي تسكنه حواء الزياني في حارة اليهود كان خائفًا..ولم يكن متأكدًا من تواجدها في البيت..إذ هو يتذكر أنها خرجت مسرعة خلف ضابط المخابرات آدم الحمصي الذي كان يلازم صديقتها التي بدت كالمخدرة..فجأة وجد نفسه عالقًا في شبكة من العلاقات الغامضة.. وحاول بسرعة أن يجد لها رابطًا منطقيًا..فقد رأى أن الضابط آدم الحمصي قد خرج مع حواء الساري..فكيف جاء إلى شقة حواء البوسني..ولماذا قتلها من خلال رميها من الطابق السابق عبر النافذة إلى الأرض..؟ وما معنى صراخها بأن أهرب وإلا سيقتلونني..؟ أيريد آدم الحمصي قتلي..؟ لماذا..؟ لا.لا. يجب أن أغادر البلاد بأقرب فرصة ولا حل أمامي سوى الارتباط بحواء الزياني..علي أن أتوسل بها لتقبل ذلك ولو شكليًا .!..

عائدًا إلى البيت حيث آدم أبوالتنك وزوجته حواء الفارسي..وهو الآن شبه مدرك بأن لهذا الشخص.آدم الحمصي يدًا خفية في مقتل حواء الكرخي..ألم تقل حواء البوسني أنه كان صديقها الحميم..وها هو الآن

بحث عنه ليقتله أيضًا..لأن آخر كلمات الكاتبة حواء البوسني كانت: أهرب..يريدون قتلك..غادر الشقة فوراً..!!.

وصل باب المنزل..طرقه طرقات خفيفة..انتظر للحظات..لم يفتح له أحد..أعاد طرق الباب لكن هذه المرة بقوة..وانتظر للحظات أخرى فلم يفتح له أحد..أدرك بأنه لا أحد في البيت..أحس بالجزع..وسمع صوتا داخليًا يقول له: «لا بد أن تقابلها وتشرح لها وضعك..هي إنسانة طيبة. ستتفهم الوضع..!».. لكن أين سيجدها..لا أحد في البيت..!!..واستدار راجعًا مغادرًا الحارة..لكنه لم يخط سوى أمتار حين لمح حواء الزياني تدلف للزقاق الذي استأجرت فيه منزلها..فشعر بتيار من الفرح يغمره.. وانتعشت روحه..وما أن رأته واقتربت منه حتى ابتسمت له وسألته إن كان طويلًا ينتظرها..وتأسفت لأنها تجولت في سوق الحميدية ولم تعرف أنه قادم لزيارتها..!..فقال لها بأنه جاء ليس لزيارتها وإنما داخلًا عليها طالبًا منها انقاذه من ورطته..نظرت عندها إليه وأدركت بحدسها بأن حياته في خطر..فقالت له بنبرة هادئة ومطمئنة وجادة وكأنها استوعبت الموقف:

- اهدأ الآن..كل شيء سيكون على ما يرام..

وبهدوء شديد فتحت الباب..ودخلا..

حين صارا داخل المنزل أقفلت الباب بالمفتاح من الداخل ودعته للجلوس على الصوفا الموجودة في الباحة التي هي بمثابة صالة. جلس هو مرتبكًا قليلًا مفكرًا بالذي يجب عليه توضيحه وبالحجج التي عليه تقديمها كي تقتنع بها لكي تساعده..وخلال هذه الأثناء ذهبت هي إلى المطبخ.. فتحت الثلاجة وأخرجت قنينة من الماء البارد..وعادت بها مع قدحين

فارغين. جلست قبالته ..صبت الماء في القدحين..مدت له كأسًا ورفعت كأسها..شربت منه قليلًا..نظرت إليه وقالت:

– أرو لي الحكاية..ما بك..؟ وماذا جرى؟ وما المطلوب مني..؟ وماذا تريد فعلًا..؟

لم يعرف كيف عليه أن يبدأ.لكن ما قالته سهّل عليه الأمر فقال:

– أريد أن أهرب..أن أكون في مكان ما..لا أعرف فيه أحدًا..ولا أحد يعرفني..لكن في مكان لا أحس فيه نفسي غريبًا..أنا الآن مُطارد من قوى لا أعرفها..عليّ الهرب..لا يمكنني الآن أن أتوقف..أنا خائف..أخاف الموت.. ومن يطلب الموت فهو مجنون لأن الحياة مهما كانت قاسية تبقى هي كل ما نملك..فنحن لا نعرف من أين أتينا..ولا إلى أين نذهب..!..لست واثقًا من أي شيء..فكل شيء رهن الغيب..والضرورات الغامضة التي لا تفُهم..! سأقص عليك حكايتي..ولك القرار فيها..فأنا أحس نفسي وكأني ممثل ثانوي..فرد من كومبارس صامت..ممثل مسكين..يؤدي دوره الصامت في قاعة فارغة.. وحين ينتهي يقف منتظرًا تصفيق الجمهور، لكنه لا يرى سوى عتمة القاعة الفارغة أمامه.. وثمة أشباح يضعون الأقنعة يجلسون في اللوج..! هذا أنا..!

كانت هي تنظر إليه مستغربة حديثه، فجأة قالت له:

– ما بك يا آدم....ارو لي حكايتك..ما الذي جرى..؟ لِمَ أنت مرعوب هكذا..؟

ارتبك آدم الشبيبي ثم قالت:

– سأروي لك كل شيء..!

وتدفقت مخاوفه مع الكلمات..روى لها كل شيء..سيرة حياته.. قصة اختطاف صديقة قابيل الفهد..واغتيال حواء الزاهد..ثم اغتيال حواء الكرخي..وروى لها قصة الطفل المختطف هابيل..وما جرى منذ لحظة مغادرتها هي مقهى الروضة إلى لحظتهما تلك..! وبيّن لها بأنها الوحيدة التي يمكنها أن تنقذه عن طريق عقد زواج يمكنه ان يغادر سوريا معها..! وكانت دهشته كبيرة حينما أعلنت موافقتها بطريقة عادية جدًا . واتفقا على أن يخرجا حالًا للتوجّه إلى السيدة زينب كي يجريا عقد زواجهما الديني.. وفي الغد يتجهان إلى المحكمة ثم يصدقان وثيقة الزواج في السفارة الجزائرية باعتبارها جزائرية..! وتحدثا عن تفاصيل أخرى..ولم يكن آدم الشبيبي يصدق ما يحصل معه..!

***

حين عاد إلى البيت مساء حاول أن يخبر صديقه..لكنه لم يشأ أن يزيده توترًا فيما يخص جرائم الضابط آدم الحمصي..فربما لن يفهم القصة..فهو دائمًا يحاول معارضته..وكأنها عادة لا يستطيع التخلص منها..!

كان آدم الشبيبي منذ لحظة دخوله إلى منزل آدم أبوالتنك منذ ساعات وهو يحاول استيعاب ما جرى من أشياء غامضة، ومن حلول لم تخطر له على بال..لكنه لم يستطع أن يفهم..وظل يسترجع ما جرى من ظواهر في شقة حواء البوسني..فما معنى دخول القط الأسود مخترقًا الباب..؟ وما معنى تلك الأصوات..التي سمعها..مواء القطط..صهيل الحصان.. خفق الأجنحة.. الصراخ.. صوت المرأة المتوسلة..المرأة الحمامة..حواء السواد..!؟.

فجأة انتبه للصفحات التي أخذها دون أن يدري أنها معه عندما هرب من الشقة..كان قد وضعها تحت الوسادة على طرف الصوفا..لماذا نبهته إلى وجودها..هل كانت تريد أن يأخذ الصفحات المكتوبة معه..؟ ما فيها..؟ وبهدوء قلق سحب الأوراق من تحت الوسادة..كانت بضع أوراق..فقرأ..:

بـوح حــواء الــسواد

- أنا حواء السواد..أنا لا أكذب عليك..جئتك لأني أحتاجك..ثمة أصوات في رأسي تشوش عليّ ..تضرب جمجمتي.. تقبض على روحي.. أصوات وكأنها لأشباح أو لوجوه ملفوفة بالشاش الأبيض..بل وأحس كأن حواء أخرى في داخلي تسخر مني ..تشتمني أحيانًا وتتهمني بالسقوط الأخلاقي..لا أعرف..هذه الأصوات رافقتني منذ سنوات..لكنها أخذت تضايقني مؤخرًا..كانت تضايقني لأني كنت أدرك أن ما أقوم به لا يرضي الله ومحرّم في الشريعة..لكني دائمًا أجد التبريرات لنفسي.التي أعتادت الخطيئة..وصارت لا تؤذيني وإنما تترك في نفسي شيئًا من تأنيب الضمير.. لا أكثر..لكن هذه الأصوات أخذت تضايقني مؤخرًا..ربما لأنها تضعني أمام خيار بين خطيئتين..!!

لقد حدث منذ الأيام الأخيرة من هذا الصيف..كنت في عطلتي الصيفية.. وكنت وحيدة.. وحصل أن التقيت بصديق من مدينتي على الشاطئ..كنا نلتقي دائمًا صدفة..وكنا نسبح معًا..وطبعًا أنا بالبوركيني....أخذت أحس به قريبًا مني..ثم صرنا نتلامس كثيرًا.. أقصد تلك الملامسات المقصودة والتي تبدو غير مقصودة، كأن أصطدم به أو يشدّني من يدي عندما نضحك.. وما شابه ذلك..لكن حدث ذات مرة أن شدني وقبلني قبلة طويلة..وعلى الرغم من أن لي حبيبًا إلا أن قبلة هذا الصديق أعجبتني جدًا.. لكن الغريب أنه تصرف معي في المرة التي تلت ذلك وكأنه لم يحدث بيننا شيء..وبعد

يومين من ذلك التقينا أيضًا..فقبلني أيضا بحرارة وشبق.. ثم مرة ثالثة قبلني.. وكنت اشتهي الذهاب إلى الشاطئ من أجل أن يقبلني فقط..لكن حدث أنه قال لي في المرة الرابعة بأنه غير مرتاح لما فعلناه وأن ذلك سيؤذي صداقتنا وهو لا يريد أن تكون مشاكل بيننا سببها الغيرة..وأنه يفضل أن تبقى علاقته معي طول العمر..مشكلتي أنني صرت اشتاق إليه وإلى قبلاته..صرت أفكر فيه كثيرًا..وأشتاق لقبله وأكثر..

– أكففت عن حب حبيبك..؟

– لا..أنا أحبه..أشعر معه بالراحة..و لكن بدأت أشعر بالملل..حتى علاقتنا الجسدية صارت مملة..

– حين كنت مع هذا الصديق على الشاطئ..ألم تفكري في حبيبك..؟

– لا..لم أفكر فيه اطلاقًا..بل كنت مستمتعة بالقبل..وحين أكون مع الصديق أو حتى أفكر فيه فأني أنسى حبيبي..

– أتريدين الاحتفاظ بالإثنين..؟

– لا أدري..ربما نعم وربما لا..اسمعيني..دعيني أقدم لك نفسي..أنا لا أفهم نفسي..على الرغم من تصوري بأنني أفهم نفسي..دعيني أروي لك عن نفسي..وأقدمها فربما ستفهمينني...أنا حواء السواد..أحب الأسود.. الوردي..ثيابي جلّها باللون الأسود..حتى سراويلي كلها باللون الأسود.. حمالات الصدر كلها باللون الأسود..ربما ستغضبين حين تعرفين إني وحبيبي متفقان على الزواج..لكن هناك مشكلة..هي أن والده غير موافق على زواجه مني..والده أستاذ جامعي في بلد بشرق آسيا..هو يلح على ابنه..حبيبي..للسكن معه..وأراده أن يتزوج من ابنة زميله..بيد أن حبيبي لم

يوافق..يقول لي حبيبي بأن والده يعاني من عقدة نفسية...فقد كان أبوه قاسيًا معه و مع أخوته..وأرغمه على الزواج من فتاة هي التي صارت أم حبيبي.. لذلك يفعل الشيء نفسه الآن مع أولاده..لماذا تنظرين إليّ بهذه النظرات المتهمة..!!؟

- أنا أحاول أن أعرف إن كنت تكذبين في سرد حكايتك..جاء صوت حواء البوسني إلى مسمع آدم الشبيبي.

- لماذا أكذب عليك..!! سأروي لك سيرتي..لو في نيتي أن أكذب عليك لما جئتك في هيئة حمامة..!!

- واصلي..وسنرى..سأعرف أين ستكذبين علي..وأين ستكذبين على نفسك..واصلي..

- أنا لا أكذب عليك..اسمعيني فقط....عندما كنت في سن المراهقة.. وبالتحديد في سن الرابعة عشرة كنت على علاقة مع شاب يكبرني بسنتين..كنت أحبه ذلك الحب العنيف، أقصد حب المراهقة..وذات يوم كنت واقفة معه فرآني أبي..أخذني من يدي و ضربني..لم يسألني عنه وعن هويته.. ولِمَ أقف معه..!!..فقط أشبعني ضربًا..ومنذ ذلك اليوم ما عاد يحدثني..لكن عزلتي وجنون التحدي الذي في أعماقي دفعاني لمواصلة علاقتي مع هذا الشاب..!

ربما يجب أن أوضح لك أن حبيبي هذا كان معي عنيفًا..كان يضربني.. يصفعني..وأحيانًا يلكمني.. وربما لأنه يعرف أن والدي لا يحدثني ولا أخوة لدي كبارًا لكي يؤدبوه على ضربه لي..ولأنه كان متأكدًا من أني لا أستطيع الدفاع عن نفسي و البوح لعائلتي..لذا كان لا يتردد في ضربي..!

كنت أكتم كل هذا في داخلي..أخاف من أن أبوح به حتى لوالدتي..كما كان يحرجني أن أروي ذلك لأحد ما من صديقاتي..كنت أعيش في وضع نفسي مُتأزّم.. كما أن مقاطعة والدي لي ضاعف أزمتي النفسية..فقد كنت دائمًا أقارن ما بين علاقة بنات خالتي و آبائهن وبين علاقتي بوالدي الذي حينما كنت طفلة كنت متعلقة كثيرًا به، وأذهب معه أينما ذهب حتى لعمله..!!

كنت أحتاج أبي كثيرًا..كنت أحس نفسي بلا أب..ودومًا كنت أغار من بنات خالاتي بسبب علاقتهن مع آبائهم..صحيح أن والدي إنسان لا يقرأ ولا يكتب.. ليس متفتحًا..ولا يتحدث معنا كثيرًا..لكني كنت أحتاجه..إنه أبي..مقاطعته لي دمرتني نفسيًا..فتراكمت في داخلي طبقات من العتمة والأفكار السوداء..!.

حاولت دائمًا أن أبدو قوية أمام الناس..لكني كنت هشة وحزينة ووحيدة في أعماقي..كنت مرتبكة..وضائعة....ومرّ أكثر من عامين على علاقتي مع هذا الحبيب العنيف..ولكن حدث ذات مرة أنه أراد أن يضربني.. فهربت منه و توجهت الى صديقة لوالدتي.. صديقة تعمل في عيادة طبيب، ولأني كنت لحظتها أتواجد في تلك المنطقة التي فيها العيادة.. فقد توجهت إليها، لأنها أول من خطر على بالي لينقذني من حبيبي العنيف..ذهبت إليها باكية و خائفة..أخبرتها بحالي..فأخبرت هي أمي و أبي..فذهب والدي إليه و هدّده و ضربه..كنت حينها على مشارف السابعة عشرة..ولكنه بقي يطاردني.. فذهب والدي و اشتكاه عند مركز الشرطة..و منذ ذلك الحين لم أتكلم معه..طبعًا الآن استغرب من نفسي..ومن الفتاة التي كنتها..!! هل أنا مريضة وأحب الإهانة والعنف بحيث أبقى على علاقة مع شاب عنيف..وأواصل علاقتي معه لمدة سنتين..!!؟؟..

بعد ذلك انتقلت لمرحلة الثانوية..صحيح أنني كنت تلميذة جيدة لكن حدثت أشياء أخرى أثرت على نفسيتي..وزادت من عزلتي النفسية ومن انطوائي الداخلي على نفسي..فقد كان لي زملاء دراسة وكنت أجالسهم كثيرًا..نتحدث وندردش و نضحك مع بعض..وكان لديّ هاتف جوال.. في تلك الفترة كنت أكتشف أنوثتي وجسدي..كان جسدي يعجبني جدًا..، لذا كنت ألتقط صورًا لنفسي بالملابس الداخلية..ليس لأريها لأحد ما، وإنما فقط لأني كنت معجبة بجسدي وكنت أكتشفه من خلال تصويري إياه..لذا كان هاتفي مليئاً بهذه الصور..كما بدأت أجرّب التدخين سرًا مع بنات خالتي..

على أية حال..حدث ذات مرة حين طلبت من زميلي أن يرسل لي بعض الأغاني عن طريق وظيفة (البلوتوث) إلى هاتفي..لكني لم أكن أعرف أنه يوجد فيه تطبيق يمكنه من أن يسرق كل ملفات هاتفي عبره من دون أن أعرف..!! وهذا ما قام به الزميل المحتال.. ولم أعرف ذلك إلا بعد مرور فترة من الزمن..حيث صارت تصلني اتصالات من أرقام مجهولة تحدثني عن صوري..لم استوعب الأمر آنذاك.. بعدها صار هؤلاء الزملاء يتكلمون عني في حضرتي بصفة الغائب و يتغامزون علي..فكانوا و كأنهم يعنفونني بكلماتهم.. ولم يمكنني التصدي لهم ..كانوا يشيرون لي وكأنني فاجرة.. لعوب..غاوية..سهلة..وبقيت هكذا عامًا كاملًا..علمًا أني غيرت رقمي.. إلا أنني حينما كنت أمشي في الطريق أسمع تعليقات البعض حول صوري وجسدي..فكنت أكتم انفعالاتي في أعماقي.

فجأة سمع آدم الشبيبي صهيل الحصان..إلّا أنه سرعان ما سمع صوت حواء البوسني..تقول وكأنها تخاطب الحصان:

- اهدأ الآن..دعها تكمل..بعدها أفعل ما تشاء..وأنت واصلي وتحدثي بصراحة دون أن تسعي لتظهري نفسك وكأنك ضحية..تقية..نقية..طاهرة شريفة عفيفة..وبريئة..حدثيني عن نفسك بجرأة..

وسمع آدم الشبيبي صوت المرأة الأخرى ذي النبرة الهادئة والعذبة.. وهي تواصل حكايتها:

- طيب..طيب..لا تغضبي..لم أقل إني عفيفة..وبريئة..حينها كنت في فترة النضوج الأنثوي والتفتح الجسدي..ثدياي يكبران..وخصري يتعرج ليظهر تقسيم جسدي..مؤخرتي بدأت تنتصب..كنت أكتشف أنوثتي..أصور بكامير الهاتف جسدي كاملًا..لم أصور نفسي عارية بالكامل وإنما بملابسي الداخلية..أو كنت أحيانًا أرسم وشمًا على فخذي أو صدري وأصوره..ذلك كان يعجبني كثيرًا ..وفي ذلك الوقت بالذات تعرفت على حبيبي الحالي.. لم تكن علاقتنا آنذاك جدية..إذ كان هو يقيم علاقات مع فتيات أخريات.. كان شابًا لعوبًا..وربما هو إلى الآن كذلك لكني لا أعلم...طبعًا انتشار الصور وسمعتي التي لوثتها الألسن جعلني أتنازل عن طموحاتي بالشخص الذي أحلم به..وقبلت العلاقة..وصار يهاتفني..وبعد شهرين أخذني بسيارته إلى خارج المدينة..وهناك قبلني..ومرة أخرى خرجنا..فأخذني إلى مرآب لسيارته..وأغلق علينا..وهناك عراني..وخلال ممارستنا جربنا كل شيء..لكن حدث أنني صار ظهري أمامه..فما كان منه إلا أن أولجه فيّ من الخلف..وبقوة..اغتصبني من الخلف على الرغم من وجعي ورفضي وصراخي.. لقد كانت أسوأ تجربة لي في حياتي..أحسست بالمهانة..لكني على الرغم من ذلك وجدت هذه العلاقة خطوة جديدة في حياتي..

وتكررت اللقاءات..والأساليب..مع شرط الاحتفاظ بغشاء البكارة.. المهم..تعلقت به جدًا..لكني كنت أشعر أنه كان يطفئ شهوته في جسدي.. كنت أشعر أنه يستغل حبي له فيعبث بجسدي كما يشاء..علاقتي الجسدية به كانت تترك في نفسي شعورًا متعبًا..كنت أشعر بأني ساقطة أخلاقيًا.. والغريب كنت استمر قُدمًا في هذه العلاقة على الرغم من شعوري بتأنيب الضمير..كنت اعتبر ما أقوم به اقتناص للذة جنسية..قضاء حاجة ضرورية.. لا أكثر..كنت أبحث لنفسي عن أي تبرير..علمًا أنني كنت أصلي الفرائض يوميًا حتى بعد أن أرجع للبيت بعد لقائي مع حبيبي وممارستي للجنس معه سواء في فندق رخيص أو في سيارته داخل المرآب..أكيد ما مارسته يُعد خطيئة..لكنه أقل من الزنا..حرام نعم.. لكني لا أستطيع مقاومة شهوتي.. أعرف أنني ضعيفة أمام شهوتي وأنني خاطئة..لكني لم أزن بالكامل..كما كنت أرى نفسي متحفظة أكثر مما أنا متدينة..!.

ربما عليّ أن أخبرك بأني لم أكن بريئة..كنت أريد أن أكون مركز كل شيء برغم عدم سعي إلى ذلك..لكني كنت أحاول أغاظة حبيبي وإثارة غيرته بحيث أروي له عن تواصلي مع الشباب..وهذا ما جعله يتعلق بي أكثر فأكثر..واسعدني ذلك..هل أنا طبيعية أم إنسانة مريضة ..لا أدري!!؟.

ثم التحقت بالجامعة في العاصمة..وخلال هذه الفترة سافر حبيبي ملتحقًا بأبيه الذي يعمل في تلك البلاد التي في أقاصي شرق آسيا..وصرت أشك فيه كثيرًا..فقبل سفره وعدني أنه لن يبقى كثيرًا هناك..شهرًا لا أكثر، بينما مرت أشهر على سفره..ووجدت نفسي محاطة بشلة من الأخوات المسلمات.. أحطن بي..وانسقت خلفهن..وارتديت حجابًا شرعيًا بقناعتي..في حين

عائلتي كانت ضد ذلك...وصرت أقنع نفسي بأن حبيبي لن يعود..وبدأت أشك فيه..وفي تلك الفترة..وبرغم توجهي الديني مع الأخوات المسلمات وارتدائي الحجاب، فقد تعرّفت على شاب جديد في الفيسبوك وأخذت أحدثه هاتفيًا....لكني بصراحة لم أكن مستعدة لأية علاقة..كنت أريد أن أقضي وقتًا أجد فيه من يحتفي بي وبأنوثتي وجمالي..ويساعدني على نسيان حبيبي..لكني بعدها صرت مستعدة لعلاقات جدية...الغريب وإلى الآن أحس نفسي لا أهتم بالجنس كثيرًا..وأميل نفسيًا إلى العفة لكني لا أمانع من أن أذهب إلى الفنادق الرخيصة الخاصة بالعاهرات لأمارس الجنس بشبق داعر..من أنا ..؟ أي واحدة هي حواء السواد..؟ الرومانسية العفيفية أم التي تتصرف كأية فاسقة ضعيفة الإرادة أمام شهوتها..!!؟.

طبعا عرفت من حبيبي أن والده يريد أن يزوجه من ابنة زميله..والغريب أن الفتاة التي سافر من أجل خطبتها اتصلت بي عن طريق الفيسبوك..و علمت منها كل التفاصيل منها، فقد كانت طالبة لدى والد حبيبي ، وهي في الوقت نفسه ابنة صديقه..وسافر حبيبي للتعرف عليها بشكل شخصي.. وكان ذلك صدمة كبيرة بالنسبة لي..كنت منهارة..وبعد اتصال الفتاة التي يفترض أن تكون خطيبته ازددت انهيارًا. .كنت أنام كثيرًا و أبكي بصراخ عالٍ..واعتزلت العالم..أهملت دراستي..وصرت أبقى في غرفتي منعزلة.. كنت كائنًا حزينًا..عاجزًا.

وحدث أن إحدى قريباتي المقيمات في دوسلدورف بألمانيا..والتي تعمل في إحدى المطاعم المعروفة في المدينة..وكان لها زميل عمل عربي الجنسية من شمال أفريقيا..أبوه عربي وأمه كرواتية مسلمة..ولد هو هناك في

ألمانيا و عاش هناك..كان مسلمًا ملتزمًا، وأراد أن يتزوج من مسلمة..وطلب من قريبتي أن تساعده..وأن تجد له من قريباتها، فعرضت عليه صورًا لي ولبنات خالاتي..فأعجب بصورتي..اتصلت قريبتي بأمي وبي..وأرسلت لي صورته..كان وسيمًا، لا يبدو عربيًا..يشبه والدته، وبصراحة أعجبت به..وقلت لنفسي لِمَ لا أجرّب حظي وأتكلم معه..أعطته رابط صفحتي الفيسبوكية..ثم رقمي..فتعارفنا بداية عبر وسيلة التواصل الاجتماعي..ثم اتصل بي..وصار يتصل بي باستمرار..و تحدثنا لفترة من الزمن..ثم قال إنه يريد الزواج بي..!.

بصراحة لم تنشأ لدي على الرغم من تواصلنا أية مشاعر عاطفية تجاهه.. بل ما كان يدفعني لهذه العلاقة هو رغبتي في الانتقام من حبيبي ومعاقبته..إذ كنت أعرف أنه سيعلم عن علاقتي الجديدة ففي مدينتي لا أسرار تخفى..!.. لكن بعد فترة اختفى الألماني..وبعد ما يقارب أربعة أسابيع ظهر من جديد.. في حينها فكرت مع نفسي ربما كان يفكر بارتباطه الجدي بي لذا قلّب الأمر مع نفسه في تلك الأسابيع وأراد أن يحسم قراره..!.

في تلك الأيام عاد حبيبي من أقصى شرق آسيا..وعرفت أنه بعد أيام من عودته بدأ علاقة مع فتاة أخرى..فقطعت مع نفسي علاقتي به نهائيًا.. وابدلت رقم هاتفي..وعملت له حظرًا على صفحتي في الفيسبوك..بل وفي تلك الأيام قررت قبول عرض الزواج والبدء بحياة جديدة مع الألماني.. وبعد أيام جاء لخطبتي..وقابل أهلي..واتفقنا على قراءة الفاتحة والعرس بعد شهرين..وبدأنا في إعدّاد الأوراق الرسمية اللازمة لمعاملة الزواج ومضينا في الإجراءات..كانت أيامًا جميلة..وكان الأوروبي نموذجًا للزوج

المثالي..وكنت أجده هبة من السماء بالنسبة لي..فقد رأيت فيه بداية كل الخصال الحميدة..

وبعد شهرين تزوجته ليس زواجًا رسميًا مدنيًا وإنما زواجًا دينيًا على سنة الله ورسوله..فقد تأخّر زواجنا المدني الرسمي لأننا كنا ننتظر ورقة ما من السفارة لنتمكن من الزواج رسميًا..لكن هذا الزواج لا يُعد زواجًا عند الألمان ما لم يتم تصديقه في السفارة..المهم..اقمنا حفلًا عائليًا....حينما علم حبيبي بالأمر صار يأتي بسيارته ليقف قرب منزلي وتحت نافذة غرفتي.. ويتصل ببنت خالتي التي كان يعرفها أيضًا سائلًا إياها أن تعطيه رقمي أو لتقنعني بأن اتصل به.. لكن حدث قبل أن أقرأ الفاتحة أن التقيته مصادفة في الطريق..سألني أن أسامحه وأعود إليه وأترك الألماني..كان يبكي بكاءً شديدًا، ووجدت نفسي أبكي معه و عانقته و أخبرته بأني لا أستطيع أن أترك كل شيء من أجله..وودعته وذهبت..

كل شيء كان هادئًا و سلسًا و جميلًا.. لكن بعد فترة قصيرة من قراءة الفاتحة وإقامة الحفل بدأ الوجه الحقيقي للزوج المسلم الأوربي يظهر.. فبعد حفل قراءة الفاتحة عاد هو الى دوسلدورف ليعد شقتنا ويستكمل الأوراق اللازمة لإلتحاقي به..وصرنا نتواصل كالمعتاد على الهاتف وصفحة التواصل الاجتماعي..لكن هنا بدأت ألاحظ التغيير.. فمثلًا كان يتصل ويسألني ماذا ستفعلين اليوم..؟ فأقول له سأذهب للجامعة، فيتشاجر معي و يقول أنت تذهبين للجامعة من أجل أن تتحدثي مع الشبان..فأقول له بأنه لا يعي ما يقول..فيجيبني بأنه يعرف الجامعات ويعرف طبيعة النساء..أو يأمرني بألّا أتزين واضع مكياجًا على وجهي..!

كان زوجي الألماني يغار وهو عبر البحار والمسافات.. كنت حينها في سكن جامعي للطالبات فطلب مني أن أترك السكن الجامعي وأسكن عند خالتي..وهي والدة قريبتي التي تعمل معه في دوسلدورف...وكان يتصل بهم على الهاتف الارضي و يسأل عني إن كنت في البيت، ويقول كذبًا إنه اتصل بي على هاتفي النّقال لكني لم أجبه..كان يريد أن يسيء لي بقصد أو بدون قصد تحت تأثير عقده النفسية....ذات مرة سألني إن كنت على علاقة بشخص قبله..فأجبت بنعم.. وقلت له بأنني كنت أعرف شخصًا ولم تتطور العلاقة معه لأنه سافر..ولم أتحدث في التفاصيل الجنسية لأني أؤمن بأن ذلك أمر شخصي ولا دخل له فيه فكل شيء كان قبله..

بعد ذلك صار يتكلم بالسوء عن قريبتي التي تعمل معه..ساءني ذلك كثيرًا..في البداية لم أناقشه في تطاوله بذمها ولم أبدِ رأيًا.. لكنه تمادى.. فقلت له إني لا أحب حديثه عنها وذمّها بهذا الشكل، فأولًا هذه حياتها الخاصة ولا يعنيني أو يعني أي أحد كيف تعيشها، و ثانيًا أنها قريبتي ولا أرضى أن يتكلم بالسوء عنها.. فأخذ يصرخ بي قائلًا إنه زوجي و عليّ أن أوافقه على كل شيء..وأدافع عنه و ليس عن قريبتي..

وصرنا نتشاجر كثيرًا، وعندما نتشاجر يتصل بوالدتي و يقول عني إني غير مؤدبه ولا أحترمه وأنني أكذب عليه وأخفي عنه أشياء..وهذا ما كان يعرضني لعتاب والدتي ونقدها....كثر الشجار بيننا وصرت ارتاب فيه وأخاف منه..بدا لي مهووسًا..متعصبًا..غير طبيعي..ولم يبد عليه وكأنه ولد وعاش في بلد أوربي متفتح وحر..كان يتهمني بالعقوق وأني زوجة غير مطيعة..وبالمناسبة..وشكرت ربي بأنه سافر بعد قراءة الفاتحة وكتب

الكتاب دينيًا..دون أن يمسني..وكان متدينًا وترك كل شيء لوقت الزواج وإقامة شهر العسل بأوربا..

كنت حين أناقشه يذكرنّي بالآيات وبأحاديث النبي عن طاعة الزوج بعد الله...كنت أقول له كان ذلك صالحًا في زمنهم..والآن الطاعة تكون منطقية فلا يمكنني أنا أوافقك على رأي غير منطقي لأنك زوجي..فكان يصرخ بهستيريا بأن القرآن والأحاديث النبوية مقدسة ومُطلَقة وصالحة لكل العصور...وعلي طاعته في كل شيء إلّا الشرك بالله.. وبعد ذلك صار يقول لي: أنا لا أريد لزوجتي أن تعمل أو تدرس..!!.. كنت أناقشه في هذا الأمر.. لكنه كان يتنرفز من ذلك..وكثرت جدالاتنا و كبر خوفي منه..و صرت أهدده بالابتعاد عنه....ولم أعد أحتمل فطلبت منه ذات مرة أن ننفصل..فصُدم.. وأخذ يبكي وقال لي إن حياته لا معنى لها بدوني!!! وإنني إذا ما تركته فأنه سيذهب إلى أفغانستان أو سوريا ثم ليذهب للقتال في العراق..!!!..

وفجأة أخذ يزورني...جاء مرات عدة ..وكان يأخذني إلى بيت خالتي.. وهم يسكنون في بيت كبير متعدد الغرف..وأخذ يلامسني جسديًا..ومثل الرجلين اللذين عرفتهما كنت أمارس معه كل شيء باستثناء فض غشاء البكارة..وربما وجدت نفسي غريبة الأطوار لأنني اكتشفت أنه لم يختن.. على الرغم من أنه مسلم..!! بل أخذت أقارن بين قضيبه الصغير النحيل وبين قضيبي الرجلين الذين عرفتهما..!.

المهم..في كل مرة كنت اكتشف شخصيته..نفاقه..فمثلًا عندما نكون كلنا مجتمعين عائليا فأنه يكلمني بطريقة توحي لوالدي بأنه أفضل زوج في العالم..وعندما نكون وحدنا ينقلب إلى وحش لئيم..وشرس..حتى

أنه في إحدى المرات انفعل كثيرًا وكاد يضربني....ولم أقبل الاستمرار في العلاقة..فقال لي إن من حقه أن يضربني..فقلت له إنه لا يستطيع ذلك.. فتلا علي آية قرآنية أذكر منها: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ ..فقلت له هذا كان في ما مضى..قال لي: القرآن كلام الله وهو يصلح لكل الأزمنة..ولأني لا أفقه في علوم الدين والتفسير فكنت أسكت.. برغم عدم قناعتي بكلام الله هذا..فأنا أؤمن بالحساب يوم القيامة لكن لا أفهم كيف يطلب الله أن يقوم الأزواج بمعاقبة زوجاتهم بالضرب..!!..

المهم..ضقت ذرعًا بحياتي معه..صرت أخاف منه كثيرًا..كان يبدو مختلًا..متطرفًا في فهمه للدين..إلى أن حدث أن تناقشنا وتشاجرنا كالعادة فسبّني وشتمني...هنا وجدتها النقطة في نهاية السطر فطلبت منه أن يطلقني..قلت له إن كل شيء انتهى بيننا..وقاطعته..وبقيت مصرّة على قراري..تحدثت مع والدتي و مع زوج خالتي فطلبوا مقابلته لحل المشكلة بيننا بدون فضائح....بدأ يتهرب من لقائهم..وحين اضطر لذلك كشف مرة أخرى عن كذبه ونفاقه..فحينما سألوه عن سبب مشاكلنا أدّعى بأني طلبت منه أن يشتري لي سيارة..وحينما رفض طلبت الطلاق.. لكني واجهته قائلة بأنه يكذب..وأنه مهما كانت الأسباب فأنا لا يمكنني مواصلة حياتي معه.. فنحن لا نتفق.. ولن نتفق..فأخذ يدعي أمام أهلي بأنه يحبني و يريدني أمّاً للأولاده المقبلين..لكني بقيت على موقفي.. بعدها كان مجبرًا أن يلقي عليّ يمين الطلاق..فصرت طالقًا..

ومضت الأيام ثقيلة كنت فيها تائهة..كل ذلك جرى معي وأنا في العشرين من عمري..وفي ذلك الوقت فقدت دراستي لأن الكلية التي كنت أدرس

فيها لديها إدارة صارمة..بينما كنت أنا أتغيّب كثيرًا و لا أتابع المحاضرات.. فُطردت منها، وبذلك صرت فاشلة من جميع النواحي..فأخذت أهرب إلى الأدب و الرياضة.. واخترت الوحدة والعزلة..لم أدخل في أية علاقة لمدة شهرين..ولا أدري ..وجدت نفسي أتواصل مع حبيبي الذي عاد من رحلته.. حاولت الأخوات المسلمات أن يحطن بي مرة أخرى لكني ابتعدت عنهن لأني رأيت نفسي لا أستطيع أن أعيش على ذلك النحو من الانغلاق والحصار..فأنا مندفعة وعفوية.. وحالمة.. وطموحة.. وبالرغم من ذلك فأنا أحب الجرأة لكني لست جريئة..أو لنقل مترددة..أنا الحمامة. بكل جمالها وشجنها وشبقها..

وتكررت لقاءاتي بحبيبي الثاني..وتطورت..وعلى الرغم من أني أعرف أنه إنسان غير مخلص ولعوب وله علاقات مع غيري..لكني أحاول وبكل ثقة أن لا أفكر بذلك..بل وجدت في تلاعبه وعدم إخلاصه دافعًا للتشبث به أكثر دون وعي مني...!! بل تجاوزت كل الحدود إذ صرت أذهب معه إلى الفنادق الرخيصة التي لا يطلبون فيها وثائق إثبات وهويات..كأية عاهرة.. نعم..لكني أحاول أن لا أنظر للأمر من هذا الجانب..فأنا وحيدة..وصعبة في إقامة علاقة جديدة..كما أنه يمتعني..على الرغم من إصراره على أتياني من الخلف دائمًا..مما يسبب لي أذى وعدم رضا..المهم..يجري ذلك مرة في كل أسبوع أو كل عشرة ايام..!!.

المشكلة أنني امرأة ملولة..صرت أمل حتى من الجنس مع حبيبي..إلى أن التقيت مع صديقي هذا على الشاطئ..والذي قبلني..ويبدو لي أنني أحب أن أعيش جذوة المشاعر العاطفية..لا أدري أن كنت سأقبل أن أكون عشيقة

لأحدهم وحبيبة لآخر..هل أنا مومس فاضلة..أتنقل من شخص إلى آخر وأنا الفتاة المحجبة والتي تصلي الفرائض وتشعر نفسها وكأنها قديسة في خشوعها ..وحمامة في سلامها وطيبتها..؟؟ هل أنا هكذا أم الطبيعة البشرية هي هكذا ..؟ أي هل يمكن للإنسان، امرأة كانت أم رجلًا، أن يقيم علاقة مع أكثر من شخص..في الوقت نفسه..مع أحدهما يعيش المشاعر النقية والرومانسية كلها..ومع الآخر الإبتذال الجنسي وانفلات الغرائز الحيوانية كلها دون عيب أو حياء أو خجل، علما أن الشخص الثاني لا يرتقي لمستوى الآخر خلقًا ولا علمًا ولاطيبةً ولا حناناً !؟.. من أنا..؟

أحيانا أحس نفسي عنيدة جداً..أقرر أشياء غير مقتنعة بها..وأدّعي مواقف عكس ما أرغب في أعماق نفسي..وأندم على رأسي اليابس وعنادي هذا..! هل أنا امرأة مريضة..معقدة..غارقة في العتمة ..!!؟.

وأحيانا أحس نفسي مندفعة..ومقنّعة..أرتدي قناع التقوى المزيف.. حيث أدعي عند النقاش بأنني لا أفكر بالرغبة وبالشهوة، بينما أنا أتحرق في أعماقي رغبة..أو أحاول أن أكون دائمًا في موضع يبهر الآخرين..ويكون مركز اهتمامهم..وأكون حسبما يريدون مني في تجسيدي للقيم..بينما أنا خلال لعبة الفضيلة المقنّعة هذه أخسر حياتي وعمري..!

أعرف أنني مللت حبيبي وأنا على استعداد لاستبداله..لكني أجد نفسي ملتصقة به..ربما أخاف من الوحدة..والإهمال..فأنا أحب أن يحتفي بي الرجل...أي رجل..مهما كان..وربما لأني عرفت الجنس معه لأول مرة.. ولأني تعودت عليه..لا أعرف..أنا أنتظر رجلًا يهز حياتي..حبا يزلزلني ويعيد صياغة حياتي.. لكني أخاف من عنادي وكبريائي المزيفة التي

ستجعلني أتخذ مواقف متبجحة بحيث أفقد مثل هذا الرجل وهذا الحب.. لكن أين هو هذا الرجل..!!؟

أنا امرأة معقدة..رقيقة كالحمامة..لكني شبقة وشهوانية..

***

في تلك اللحظة سمع آدم الشبيبي طرقات على الباب..كانت الساعة تشير بدايات الفجر..لم يكن الطرق قويًا..ولا مستمرًا..مجرد طرقات خفيفة وحذرة.

أنصتّ آدم الشبيبي للطرقات التي تكررت مرة أخرى بنفس الخفوت والحذر..ثم توقفت..انتظر قليلًا..من تُرى يطرق الباب..؟ وفكر مع نفسه أنه لو كان الرجال الملتحون الأربعة لما طرقوا الباب بخفوت..!!.

ظلت أذناه متوجستين كأذني الأرنب..مرت دقائق معدودة دون أن يتكرر الطرق..وكان قد انتهى من «بوح حواء السواد»..فكر مع نفسه..: من ترى هي هذه المرأة الحمامة ..حواء السواد..!!؟؟

استلقى على الصوفا..وضع الأوراق جانبًا..وأخذ يفكر بالأحداث التي شهدها في شقة حواء البوسني مرة أخرى..وما جرى له مع حواء الزياني.. وزواجه الديني منها.. بانتظار زواجها المدني حيث عليها أن تذهب معه إلى سفارتها الجزائرية لتصديق عقد الزواج أولًا..ثم التوجه للسفارة المغربية لمساعدته في استحصال تأشيرة دخول..لكنه أحس بالخوف حين تذكر ضابط المخابرات آدم الحمصي فربما ستمضي الأمور بما لا يمكن التنبؤ بها..لذا قرر أن يخبر صديقه آدم أبوالتنك بكل ما جرى له ومعه صباحًا.. أحس بالتعب الشديد والإرهاق..أراد أن ينام، لكنه لم يستطع..ظل يحدق إلى سقف الصالة..!

ظل على تلك الحالة لأكثر من عشر دقائق..لم يشعر بالنعاس..بل أحس بمشاعر متضاربة..لا هي بالفرح لارتباطه بحواء الزياني التي أخبرته بأن موافقتها ليست أكثر من مساعدة إنسانية شخصية لانقاذه ليس له علاقة بالمشاعر أو الرغبة أبدًا..فهي تعتقد أن شيخها السهروردي كان قد فعل الأمر ذاته..وحمد الباريء أنه توجد مثل هذه النفوس الطيبة لحد السذاجة..!.. ولا شعوريًا مد يده إلى مخطوطة „متاهة العميان" التي كتبتها حواء الصايغ.

***

كان آدم أبوالتنك وحواء الفارسي متوترين..كل منهما يحاول أن لا يكشف عن توتره أمام الآخر..على الرغم من أنهما يقتربان من لحظة المواجهة والكشف..!.

أحضرت حواء الفارسي له بيجاما النوم ووضعتها على جانب من السرير. أضاءت المصباح المنضدي الموجود على الطاولة الصغيرة بجانبها من الطرف الآخر من السرير، ثم أطفأت المصباح الذي يتوسط الغرفة فصارت الغرفة شبه معتمة يضيئها نور شاعري بالكاد يكشف عن السرير ووجانبه الذي قرب المصباح.

أخذ آدم الشبيبي البيجاما بيد مرتعشة..وانزوى في زاوية الغرفة..أعطى وجهه لخزانة الملابس وظهره للسرير.. نزع بنطاله وارتدى البيجاما بسرعة وكأن هناك من يراقب جسده النحيل، بينما على جانب السرير جلست حواء الفارسي بخجل..نزعت عنها ملابسها وارتدت ثوبَ نومٍ حريري ..دخلت الفراش مباشرة بعد أن سحبت جانبًا من اللحاف الخفيف الواسع على جسدها.. وأطفأت الضوء.. فعم الغرفة الظلام.

وبحذر شديد اقترب آدم ابوالتنك من السرير وتلمسه بيديه..جلس على حافة السرير ونزع نظارته..وضعها على الطاولة الصغيرة الموجودة بجانب السرير، واندس في الفراش..سحب اللحاف الخفيف التي غطت حواء الفارسي نفسها بجزء منه..صارا كلاهما مستلقيين على السرير نفسه في عتمة الغرفة.

كانا متوترين..هي تنتظر أن يبادر..وهو يعرف أن عليه المبادرة لكنه لا يستطيع أن يبادر..كل منهما استرجع الطريقة التي عليه أن يبرر وضعه فيها.. هما ليسا اعداء..على العكس..ثمة مودة وطيبة بينهما..لكن هذه المودة بعيدة عن الرغبة الجسدية..وزواجهما لم يكن حبًا ولا من أجل تأسيس عائلة وذرية وأبناء..وإنما من أجل ضمان العيش..بوجود شخص وسقف وغذاء وهروب من العزلة..ولكن لولا آدم الشبيبي ربما لم يحصل هذا الزواج..!! فهي تحس نفسها مأخوذة به ومسحورة بكلماته وتحس أن عليها طاعته.. وحينما طلب منهما الزواج لم تعترض.. لماذا..؟ هي نفسها لا تعرف..!!؟

آدم أبوالتنك كان قد اقتنع بوجهة نظر صديقه آدم الشبيبي..فهو معجب بقوة شخصية هذه المرأة..وتعجبه طيبتها..إلى جانب أنها ربة بيت ممتازة.. لكن كم يتمنى أن تفهم وضعه..ولا تسبب له حرجًا أو فضيحة..

كل منهما كان يعيش محنته بطريقته..كانا تائهين..هي لا تعرف ما به.. وكانت تهيء نفسها للمكاشفة بأنها ليست عذراء وتشرح له ظروفها..وكان هو يهيء نفسه ليشرح لها سبب عجزه الجنسي..كانا يبحثان عن نقطة لبدء المكاشفة....!

ظلا يحدقان في الظلام نحو سقف الغرفة الاسمنتي.. لا يعرفان كيف سينتهي هذا الصمت بينهما..ومن سيبدأ بالكلام..وفجأة أحست حواء

الفارسي بأن عليها أن توضح له وضعها قبل أن يدخلا في علاقة زوجية قد تكون صدمة بالنسبة له..وبفعل غير واع مدت ذراعها اليسرى وأمسكت بكفه الممتدة إلى جنبه..أمسكت بها بقوة..فوجئ هو..استجاب بطيبة لكفها وأرخى كفه لها .. شعر بأنفاسها الهادئة..وبعد لحظات سمع صوتها يأتيه في العتمة، بينما هي لا تزال تمسك بكفه:

– أريد أن أخبرك شيئًا يا آدم..ربما من الأفضل الآن وليس في ما بعد.. الآن ونحن نستلقي على سرير الزوجية..أريدك أن تعرف عني كل شيء..كل شيء..لكني لا أدري إن كنت أنا نفسي أعرف عن نفسي كل شيء كي أخبرك به..ومهما يكن سأخبرك بالذي أعرفه عن نفسي..

صمتت للحظات..كانت تنتظر أن يقول شيئًا..بيد أنه صمت لكنها شعرت بما يشبه الرجفة وصلت إليها من خلال كفه التي تمسك بها..وحينما تأكدت بأنه لن يجب واصلت:

– طيب.أنا سأتحدث..أنت اسمعني فقط..ويمكنك أن تعلق إذا أردت أو أن تصمت وتقول رأيك بعد أن أنتهي..(صمتت لحظات..ثم واصلت)..أتعرف..أحيانًا أتمنى أن أصير كاتبة، لكني لا أعرف أن أكتب كبقية الكاتبات..ولا أدري إذا ما كتبت سيكون بالمستوى المطلوب..لكن دعنا من هذا..وربما ستستغرب رغبتي في الكتابة ..سأقول لك..أنا بدأت الكتابة ولي من العمر عشر سنوات..بدأت بكتابة مذكرات بسيطة بتشجيع من المرحوم والدي..أريد أن أجد نفسي..وأعتقد أنني سأجدها في الكتابة.. الكتابة تعيش داخلي..أتنفسها كالأكسجين..

أنا متأكدة من أنك الآن تستغرب كلامي..فأنت تتصورني الفتاة المسكينة..القطة العمياء المغمضة العينين..أتعرف أنني حينما عملت لدى

المرحومة حواء الكرخي قرأت معظم الروايات والكتب الموجودة في مكتبتها..!!..وكم كنت منبهرة بها..الله يرحمها..سأقول لك شيئا يا آدم.. إنك لا تعرفني أبدًا..فحتى اسمي هذا حواء الفارسي ليس اسمي..!!..أنا حواء المجنون..وهذا لقب العائلة..إذ يُقال إن جد والدي كان يلقب هكذا لأنه كان ينام وحيدًا في البستان الذي تُروى عنه أساطير كثيرة عن الأشباح والجن..وكان لا يتردد أن يزور الخرائب ليلًا..لذلك قال الناس عنه إنه مجنون والجن لا تؤذي المجانين..وقد توارثت العائلة هذا اللقب..ويقال إن جدي المباشر قد استفاد من هذه الأساطير التي نسجت عن أبيه..وصار هو بمقام الدرويش أو الولي..وشخصيًا أنا أحب هذا اللقب..لأن العالم الذي نعيشه مجنون..وأنا مجنونة..فالجنون يسكنني..!..عشت تجارب حياتية بسيطة..لكنها قاسية وعنيفة.. تألمت..ووجدت في الألم لذة.. وسعادة خاصة..أنا جزئية نوعًا ما..هو هكذا أرى نفسي..!.

كان آدم أبوالتنك مسترخيا..أول ما سمع كلامها كان متوترًا..لكنه أدرك أنها في موقف ضعيف..وأنها تروي له كتبرير نفسي لما هي فيه..لكن ماذا لديها..؟ وها هي تقول إنها ليست حواء الفارسي..وإنما حواء المجنون..؟ أكل هذه الفترة كانت تخدعهما.. لكنه كان قد استشعر نبرة الصدق في صوتها..لذلك أحس بتعاطف معها..ووجد الرغبة في أن يسمعها تبوح إلى نهاية قصتها..!! وسمع صوتها الهادئ المشحون برقة وحنين ينساب في صمت الغرفة:

- كنت أعيش في أطراف بغداد..تلك المناطق التي لا هي بالمدينة ولا هي بالريف..مناطق تلتف على نفسها لتؤلف مدينة صغيرة مغلقة على

نفسها..!..لكن هذا البؤس الذي تعيشه هذه المدينة..أو القرية الكبيرة جعلتني أكتشف نفسي أكثر..واكتشف جرأتي...فصرت أجرّب كل شيء.. الجيد والسيء..لم أسع إلى رضا الناس..وقولهم عني بأنني صالحة، مثلما لم أهتم بقولهم عني إنني فتاة سيئة..المهم عندي كان أن أصل إلى النتيجة التي أحسها في أعماقي وتؤكد جنوني واختلافي عن بقية الناس..هذا الاختلاف الذي يعني الخروج عن المألوف في مجتمع مغلق..!

ارتجفت كف آدم أبوالتنك..لكنه لم يقل شيئًا..انتظرت هي للحظات ظنًا منها بأن سيتكلم..لكنه واصل صمته، فواصلت الكلام:

– اصبر علي قليلًا يا آدم..أريـد أن تعرفني بشكل كامل ثم تقول ما تريد..أنا حواء المجنون..أعمل موظفة إدارية في هيئة حكومية تشكلت بعد الاحتلال..كنت مخطوبة لموظف معي في الهيئة نفسها لكنه قُتل لأسباب طائفية..ومقتله كان بالنسبة لي كارثة....أنا من عائلة بسيطة..أبي الله يرحمه قتل في بداية سنوات الصراع الطائفي..لست متدينة..لذا كنت كالبطة السوداء بينهن زميلاتي المحجبات ، ولذلك وضعت الحجاب على رأسي فأندغمت ضمن القطيع..ناهيك أن منطقتنا سيطرت عليها مليشيات طائفية..أسمعوني كلامًا مهينًا بعض المرات حينما كنت غير محجبة..لذلك فأن الحجاب على رأسي جنبني القيل والقال... وبرغم أنني كنت مخطوبة وأنوي الزواج..لكني كنت أحلم بالسفر..هل تصدق أنني كنت أحلم بنفسي بأني مطلقة في بلد غريب..!!

شعرت بكفه تضغط على كفها برفق..وتسرب إلى نفسها دفق من الدفء الروحي..أدركت أن هذا الإنسان طيب جدًا..وأنها يجب أن لا تخاف منه..فواصلت:

- أحيانًا كنت أسأل نفسي: هل أنا شجاعة وجريئة حقًا لأنني حاولت أن أعيش كما أنا..هكذا ببساطة وبدون تصنع..لا أدري..أنا أعرف أن الكثير من الفتيات يكرهن أشياء وأمور وسلوكيات كثيرة لكنهن يجدن أنفسهن يقمن بها بسبب الضغط الاجتماعي والعائلي والخوف من الأحكام القاسية الجاهلة..لذا يعشن شخصيات ليست شخصياتهن..أنا على العكس..كنت أحاول دائمًا أن أفعل الأشياء التي أريدها وأشعر بإنجذاب نفسي نحوها.. أحاول أن لا أفعل أشياء أكرهها بسبب المجتمع والخوف..فمثلا كنت لا أخفي ضحكاتي العالية أو غضبي..ولا أحاول أن أجامل شخصًا لا يعجبني، وإن كان مديري الإداري..بل ولم أخف حبي المعلن للموظف الذي صار خطيبي..هذه أنا..لا تقيدني فوبيا السمعة..وشعار سمعة البنت شرفها..ولم أهتم لهذه الاشياء بتاتًا..! ربما يفاجئك هذا الأمر ..لكن هذه أنا..!...

فجأة مرقت خاطرة على ذهنها فتوقفت. «ربما هو قد نام وأنا أتحدث..؟..»..فمدت يدها وضغطت على زر المصباح المنضدي فغمر الغرفة ضوء شاحب..رفعت رأسها قليلًا ونظرت إليه وسألته:

- هل أنت صاح..أم نمت..!؟

لم يلتفت نحوها وإنما ظل محدقًا في سقف الغرفة وقال:

- أنا صاح .. وأستمع إليك..

صمتت للحظات..لم تشأ أن تقطع سرد حكايتها، لذلك لم تعلق وإنما واصلت:

- خطيبي كان رجلًا متدينًا..بعيدًا عن القراءة والكتب الدينية أو الفكرية.. حياته عمله فقط..والبقية يوزعها بين الاهتمام بأهله وأخواته وبين المسجد

وحلقات المتدينين وبيني....أتعرف...ذات مرة أخبرتني أمي أنّ خالها توفي قبل أيام قليلة من عرسها ، فحزنت العائلة كثيرًا و لم تجر مراسم الزواج كما كان متوقعًا..ووجدت نفسها في ساعات قليلة تُزفّ إلى والدي في جو من الفرح المصطنع.. أتذكر الآن أنني كثيرًا ما كنت أراها تفتح ألبوم عرسها... تشاهد الصور التي فيه بحزن بارد..وكلّما فتحت الألبوم أشعر أنها تفتح جراحها..لذا كنت أريد بزواجي أن أمنحها فرحًا حقيقيًا..أصيلًا..من أعماق القلب..لكن لم يُقدّر لي ذلك.. سأكشف لك سرًا..فهذه هي ليلتنا الأولى.. ليلة هتك الأسرار..

أحست بكفه ترتجف..وكأنه أراد أن يسحبها لكنه لم يتمكن..فكرت مع نفسها ربما أخافه تعبير «هتك الأسرار»..!!..صمتت للحظات..ثم واصلت:

– ربما ستصطدم إذا ما عرفت أنني كنت قبل خطيبي الذي أخبرتك عنه للتوّ قد مررت بتجربتين مع الرجال..الأولى تجربة سطحية..تجربة فتاة مراهقة.. كنت في السابعة عشرة..حين تعرفت عن طريق الماسنجر على شخص يكبرني بإحدى عشرة سنة..لم نلتق سوى مرتين..كان مخادعًا.. أدركت أنه يتكلم بالحب كي يصل إلى جسدي..وقد عرفت نواياه حينما التقيت به..وحسمت أمري بتركه بعد اللقاء الثاني..وقد كرهت نفسي لأني دخلت في هذه العلاقة..

العلاقة الثانية هي العلاقة الكبيرة في حياتي..فقد كنت متزوجة لمدة سنة ونصف..كنت قد تعرفت على زميل لي أثناء أثناء الدراسة في المعهد.. ودامت علاقتنا سنة وثمانية أشهر قبل الزواج..وعقد قران سنة ونص يعني تقريبًا ثلاث سنوات.. وأعترف أني كنت أحبه.. وحسب ما أتذكر الآن كنت

أحبه أكثر من أي شيء في الحياة....كان كل شيء قد ترتب بيننا بشكل رسمي وعائلي..وعقد علي رسميًا في شرعا وفي المحكمة..لكننا لم نتزوج بسبب ظرف عائلي طارئ حطّم كل شيء..فقد تم اختطاف أخي زوجي الذي كان يبلغ اثنتي عشرة سنة من عمره.. كانت هذه نكبة للعائلة..لاسيما وأن الأب كان مريضًا..وتدهور وضعه الصحي بسبب الصدمة..وكان الأب على خلاف دائم مع زوجي..علمًا أن زوجي هو ابنه الأكبر..

ووصل الخلاف إلى أن يقوم الأب باتهام زوجي بتدبير الاختطاف..من أجل ابتزاز العائلة ماليًا..ولأني الوحيدة التي وقفت إلى جانب زوجي من عائلته فقد اتهمني الأب على أني وراء تدبير الأمر أو المشاركة فيه..وبعد مشاكل دامت سنة ونص مع خطيبي وحرب كلامية بين أهله وأهلي انتهت علاقتنا بدموع كثيرة..انتهت لأنه مع الأسف لم ينصفني ولم يقف الموقف الرجولي المطلوب..فطلبتُ الطلاق..عبر المحكمة.. وتم الطلاق بالتفاهم معه..

وعلى الرغم من أني متحررة من الناحية الفكرية..لكني كنت تحت ضغط توصيات أمي المستمرة بأن لا أسمح له بفض بكارتي إلّا ليلة الزفاف حتى وإن كان عقده علي رسميًا وشرعيًا..وربما هي كانت مُحقة في هذا الأمر..لكني لم ألتزم بكل هذه الوصايا بعد أشهر من طلاقي..فقد تطلقت وأنا باكر..لأننا أساسًا لم نقم زفافًا ولا ليلة عرس نتيجة وضع العائلة النفسي بسبب اختطاف الابن..لكني بعد الطلاق كنت حزينة جدًا..ومحبطة..لاسيما وأني خلال هذه السنوات كنت قد ألفت الملامسات الجسدية السطحية التي لم تصل إلى فض بكارتي فقط..أي القبل وتقبيل الأعضاء والسياحة في الجسد الآخر..لذا تقبلت لاشعوريًا محاولات الرجل الذي أخذ يهتم بي

ويواسيني ويشجعني على التماسك ومواجهة وضعي..وشيئًا فشيئًا وجدت نفسي متعلقة به..وكما قلت لم أعد أهتم لوصايا أمي.. فأنا صرت بحكم المطلقة..ولا أحد يصدق بأني عذراء..وبما أن دم البكارة قيمة اجتماعية وهي منزوعة مني لأني مطلقة..لذا لم أعد أحسب الشرف بغشاء البكارة ..

لذا وبرغم أن هذا الرجل الجديد كان متدينًا إلّا أننا مارسنا الجنس بجنون.. بكل أشكاله..وممكناته.. وأوضاعه..وعلى الرغم من أني لست متدينة.. وهو متدين لكني وافقت على أن أتزوجه فتقدم لخطبتي.. وخطبني..وربما سأكشف لك سرًا إذا ما قلت لك بأنني وافقت على الزواج منه لأنه وعدني بالسفر ومغادرة العراق بعد الزواج..لكن ذلك لم يحصل..فبعد أربعة أشهر من فضه لبكارتي..وخطبتي..تم اغتياله لأسباب طائفية..!!.. كنا حينها نود أن نعجل بزواجنا لأنني شعرت بعد شهرين من ذلك بأنني حامل..وحين تم اغتياله كنت في شهري الثالث ودخلت على الشهر الرابع..!!

يمكنك تصور وضعي حينها..لم أفقد بكارتي في زواج شرعي ورسمي مع حبيبي الحقيقي بينما منحت بكارتي وكل ثقوبي لرجل متدين لم أحبه وأنما وجدته مشروعًا للسفر..ولم أنجح..! بل الكارثة أنني حامل بطفل يُعد عير شرعي قانونًا.

حاولت أن أقنع أمي بالسفر..لم تقبل أن تغادر العراق..لكنها طلبت مني أن أجهض الطفل قبل السفر..لم أقبل..أردت الاحتفاظ به ..طبعًا أمي كانت تعرف بحملي..لكنها كانت مطمئنة بأن خطيبي وافق على تعجيل الزواج..لكن القدر كان له ولي بالمرصاد..المهم..أنها رافقتني لعيادة طبيب مختص بالنسائية ويجري عمليات الإجهاض سرًا..دفعنا له مبلغًا لإجراء

الاجهاض..كان صبيًا كما أخبرني الطبيب..بعد ذلك استطاعت أمي أن تبيع بيتنا الكبير نسبيًا لتشتري مشتملًا أصغر..واعطتني نصف المبلغ المتبقي كي أسافر..وهكذا جئت إلى سوريا..لكن ما وددت قوله إنني مررت بكل هذه التجارب..فلا تنتظر مني دم البكارة..لأني رويت لك ما مرّ بي..!

كان آدم أبوالتنك يشعر وكأنه تنفس الهواء بعد أن كان يحس بالاختناق وعدم القدرة على التنفس..لكنه وجد نفسه يضغط على كفها.. وظل صامتا.. انتظرت تعليقًا منه لكن لم يقل شيئًا..فواصلت:

- أتمنى أن أعيش وحدي، لكني أخاف من النوم وحدي..أخاف من الظلام..ففي النوم تأتيني أحلام وكوابيس غير مفهومة..فمثلًا أرى في كوابيسي بناية تحترق..وأرى كلبًا يأكل قدمي..وغالبًا ما أستيقظ وأنا أصرخ كثيرًا..وطبعًا هذه الكوابيس تتكرر منذ سنوات مراهقتي..وثمة كابوس آخر يراودني..أرى نفسي نائمة..وفي نومي ذاك أرى نفسي نائمة ومبتلة بعرقي من شدة الحر..أحاول أن أوقظ نفسي لأني أحس وأنا في النوم بأني أرى كابوسًا..فأفتح عيني لكني لا أستطيع..وأرى كائنًا مظلمًا يخنقني ..وأنا في نومي أحس وكأني بالكاد أتنفس..ثم يرميني هذا الكائن المظلم في قطار يمشي سريعًا..قطار تلتهمه النيران..وحينها أشعر أن النيران بدأت تلتهم ملابسي..أخلعها بسرعة..محاولة الهرب من القطار..فانتبه مرعوبة إلى أن القطار يمشي على مكان مرتفع جدًا عن الارض..ويبدو المشهد لي وكأنه نهايه العالم..إذ أنني من مكان في القطار المشتعل أرى جميع البشر يحترقون..والنيران التي تحرقهم ترتفع لتصل إليّ وأنا في القطار.. في الأعالي..فجأة..، يُصدر الكائن المظلم أصواتًا مخيفة فأبدأ بالصراخ..

فأصحو من كابوسي الأول..لكني لحظتها وأنا في النوم أقول لنفسي أن هذا مجرد كابوس..وعلى الرغم من ذلك لا أستطيع الاستيقاظ الا بعد أن تهزني أمي التي ربما سمعت صراخي في كابوسي الأول..!!

انتبهت حواء المجنون – الفارسي إلى ما يشبه التشنّج سرى في كف آدم أبوالتنك التي تضمها بكفها الممدودة..ظنت أنه يود أن يعلّق أو يقول شيئًا.. لكنه ظل صامتًا..ولم تخطئ في إحساسها..فقد ارتعب آدم أبوالتنك من الكابوس الذي روته له..لكنه ظل صامتًا..كان ينتظر أن تنتهي من حكايتها.. ليحدد هو أيضًا ما يود قوله لها..لذا بعد لحظات واصلت هي:

– كنت في الدائرة حينما جاء خبر اغتيال خطيبي..جاء أحد المراسلين في الدائرة ليخبرني بأن المدير يريدني..وحين دخلت مكتب السكرتارية..كانت الموظفات هناك ينظرن إليّ بحزن وإشفاق..وحين دخلت نهض المدير من وراء مكتبه ودعاني للجلوس على كرسي المداولة..وجلس على الكرسي المقابل لي..وبعد أن قدّم كلامه بالحديث عن بالفوضى التي تعم البلاد.. والجهات الخارجية التي تريد إشعال نار الفتنة بين أبناء البلد الواحد..وكل هذا الكلام الإنشائي الذي نسمعه بالتلفزيون ومن لسان الساسة التافهين.. ألقى الخبر بكل ثقله على مسامعي..مرت لحظات أحسست أن قلبي سيتوقف..لحظات فقط..ومرّت..هل تصدق أنني لم أذرف دمعة..لم أصرخ..بل وقفت أريد الخروج من المكتب.. نهض هو أيضًا..وسمعته يقول لي بأنه يمكنني الذهاب إلى البيت وأخذ اجازة لمدة أسبوع إلى أن أعود إلى نفسي.. لم أقل شيئًا..ولم يعلق هو على ردة فعلي..ربما احترامًا لهول الصدمة التي واجهتها..

وعدت إلى القسم الذي أعمل فيه..ويبدو أن جميع موظفي الدائرة قد علموا بالخبر..فقد انتبهت إلى الكثير من الموظفات توقفن حينما مررت من أمامهن..كن ينظرن إليّ بتعاطف..وحزن..دخلت قسمي..تناولت حقيبتي الجلدية وغادرت الدائرة....وحين وصلت البيت فوجئت أمي برجوعي المبكر..وسألتني: ما بك ..مريضة؟ وكانت تقصد نزول دم العادة الشهرية بشكل مفاجئ أحيانًا..فقلت لها: لا..ثم قلت لها: يجب أن نسافر..نظرت إليّ مستغربة..دخلتُ غرفتي وألقيت بنفسي على سريري..كنت أحس أنني ضائعة في هذا البلد..وسأضيع أكثر لو بقيت..ومن الجيران عرفتْ أمي باغتيال خطيبي..كنت أسمعها وأنا في غرفتي تبكي حظي الأسود وحظها المنيّل..حاولت أمي أن تحدثني..لم أجبها..بقيت في غرفتي ثلاثة أيام..لم أخرج منها إلّا إلى الحمام..كنت فيها كجماد بلا تفكير..لا..كان جسدي ربما لا يبدو نشيطًا..أما عقلي فكان مثل كمبيوتر يدير عمليات حسابية بلا توقف.. لكني لم أذهب إلى دائرتي لمواصلة العمل..بقيت في البيت..وخلال هذا الأسبوع راجعت أمي مكاتب عقارية تعرفها..وأنجزت البيع والانتقال إلى المشتمل الجديد الأصغر..وأعطتني مبلغًا مهما مما تبقى لديها من مال..

وحاولت أن أجد من يستطيع أن يستخرج لي جواز سفر رسميًا بالمال وبسرعة..ووجدت مثل هذا الشخص من داخل دائرة الجوازات..رشوته.. أعطيته مبلغًا من المال كي يعجّل لي باستخراج الجواز..فاستخرج لي جوازًا بلقب آخر..يعود لامرأة أخرى بعد أن تلاعب لي باللقب..لأن استحصال الوثائق اللازمة لمعاملة الحصول على الجواز كانت ستطول لشهرين أو أكثر.. وهكذا صار اسمي حواء الفارسي..ويبدو أنه يخص حواء أخرى..لا أعرف..!

وهكذا غادرت العراق..المهم..كانت معي في السيارة القادمة من بغداد إلى دمشق امرأة بعمر أمي تعيش هنا منذ سنوات..فبقيت عندها لفترة من الزمان وادّعيت أنها أمي..ثم أخذت أعمل منظفة في بيوت عدة..أو جليسة مع الأطفال....وهنا شعرت أنني أولد من جديد..!

الغريب.أنني سمعت بأن أمي تزوجت شابًا صعلوكًا أصغر منها بعشر سنوات..ويبدو أنه دفعها لبيع المشتمل أيضًا..وتأجير غرفة أو شيء من هذا القبيل..وانتقلت للعيش في «حي أور».. وذات يوم استشهدا في انفجار وقع في سوق شعبي أثناء تواجدهما هناك..!..

هنا تنقلت بين مهن مختلفة..إلى أن تعرفت أنت على المرأة التي كنت أعيش عندها..والتي أخبرتك بأني ابنتها..!.. أتعرف..! ..أشعر وأنا أحدثك وكأنني أتعرّف على نفسي مرة أخرى، وهذا ما أريده في هذه الليلة..!!.. أتدري.. كنت لا أحب نفسي كثيرًا.. لا أعرف لماذا..!! ربما بسبب نهاية قصتي بشكل ماساوي مع حبيبي الحقيقي..ومن ثم تجربتي مع خطيبي.. فأنا لم أمنح جسدي لحبيبي الحقيقي الذي كنت على علاقة معه لثلاث سنوات وتزوجني رسميًا ..زوجي المتحرر فكريًا واجتماعيًا..والذي كنت أعشقه..بينما سلّمت نفسي وجسدي وبكارتي لرجل متدين لم أحبه وإنما كنت أميل إليه، بل وحملت منه..لأنه ظهر في وقت كانت معنوياتي في الدرك الأسفل..فوجدت فيه أملًا..لكن خسارتي كانت كبيرة..المهم هذه أنا..وكما فهمت من حكايتي أنا لست باكرًا ..وأم أجهضت جنينها..والأمر متروك لك..يمكنك أن تطلقني من الآن..

ظل آدم أبوالتنك صامتًا..ضايقها صمته..«لقد قلت له كل شيء.. وعليه أن يقول شيئًا» فكرت مع نفسها..ولما طال صمته.. سحبت كفها

عن كفه وأسندت جسدها واستقامت جالسة على السرير ..التفتت نحوه وسألت بهدوء:

– ألا تريد أن تقول شيئًا..!؟..لقد أوضحت لك وضعي..أنا لست باكرًا كما تنتظر مني..!

ظل آدم أبوالتنك مستلقيًا..كان متوترًا..ويفكر مع نفسه: «هل أخبرها بأنني عاجز جنسيًا..نتيجة ما تعرضت له من تعذيب وصدمات كهربائية على قضيبي بحيث تم شله كليًا..أم عليّ أن أصمت عن ذلك وأقبلها كزوجة دون علاقة جنسية، وأكون بذلك متفضلًا عليها لأني قبلتها دون فضائح..»..ولا إراديا أخذ يفتش عن نظارته..مد يده وأخذها من موضعها..ثم استقام جالسًا على السرير وهو يضع النظارة على وجهه..صمت للحظات دون أن ينظر إليها، لكنه قرر أن يكون صادقًا معها أيضًا، فقال بهدوء:

– لقد استمعت لك جيدًا..وأشكرك على صدقك..وأتفهم كل ما مررت به..وأنا أيضًا سأكون معك صريحًا..لقد أُعتقلت العام 78 حينما بدأت الهجمة الشرسة على الشيوعيين من قبل البعثيين الذي كانوا مع في جبهة وطنية..وتعرضت للتعذيب..وتم تعذيبي بإمرار التيار الكهربائي على أماكن حساسة في جسدي..خاصة قضيبي..تأثرت قدرتي الجنسية على أثر ذلك.. وصار من النادر أن يحصل لدي انتصاب..! لم أجرب أن أكون مع امرأة.. لكني من خلال حياتي العادية لا ينتصب قضيبي ولا تثيرني امرأة أو مشاهد جنسية لينتصب..لكن يحدث أحيانًا أن أصحو صباحًا فأراه منتعظًا قليلًا.. لذلك أنا أتقبلك كزوجة لي..لكني من ناحيتي هذا وضعي..ويمكنك أيضًا أن تطلبي الطلاق إذا كان هذا لا يرضيك..وكما حدث معك بعد طلاقك الأول..فلا أحد سيسألك عن غشاء البكارة إذا ما تزوجت مرة أخرى..!..

صدمها كلامه..لكنها صدمة اختلطت فيها طبيعة مشاعرها..فهي مرتاحة من جهة لأنه تقبل وضعها بكل تلقائية ودونما أي تعصب..لكنها كانت غير راضية لأن هذا التقبّل ناتج عن عجز..!..تمنّت لو أنه بكامل عنفوانه الجسدي وتقبّل وضعها..!..لكن ودون إرادة منها فكرت في آدم الشبيبي الذي ينام في الصالة..!

في تلك اللحظات سمعا ضجة تأتي من المطبخ..وتهشم صحون..ففزا كلاهما واستشعرا غريزيًا بأن ثمة شيئًا ما جرى لآدم الشبيبي.

8

بعد سقوط النظام الدكتاتوري المرعب في بلادي..واحتلالها من قبل الأمريكان ومعهم كل جيوش العالم..دخلت البلاد في فوضى لم تشهده إلا في منعطفات تاريخها الطويل.

وبدأت ملفات المخابرات وتفاصيل المقابر الجماعية التي امتدت على طول البلاد تكتشف وتعلن ويروج لها في وسائل الاعلام التي كانت منفلتة أيضًا..ونشرت قوائم الشهداء المغدورين..وصادف أني قرأت اسمه بين قائمة طويلة..وقرأت قصصًا وريبورتاجات صحافية عن تلك المؤامرات والجرائم من خلال عرض محاضر التحقيقات والتُّهم المزيفة والجاهزة ضد المغدورين.. وكانت قصته وملفات التحقيق معه واتهامة في بداية الأمر بقتلي ثم تحول الأمر الى أمر سياسي..وجاء في المحاضر أن زوجي هو الذي اتهمه بالاتفاق مع مسؤول كبير في التحقيقات اسمه آدم التكريتي.

حزنت لذلك جدًا..لكن الحياة عاقبت زوجي..فبرغم أنه بعد احتلال البلاد أطال لحيته..وأقتنى سبحة غالية الثمن من أحجار كريمة..ولبس المحابس..وانتمى إلى أحد الأحزاب الإسلامية التي حكمت البلاد.. وصار متنفذًا فيه..إلّا أني طلبت منه الطلاق.. وأخذ يظهر في وسائل الإعلام ويتحدث بثقة عن نضاله ضد النظام الدكتاتوري..وحينما أحرجه ذات مرة أحد الصحافيين مطالبًا بتفسير عن حضوره القوي في فترة النظام السابق فأجاب مبررًا بأن ما فعله كان بالاتفاق مع المعارضة..!! تف.. على هكذا بلاد يحكمها هؤلاء..!..ولم تمض أموره كما يرام.. فقد سمعت بأنه

تم اغتياله ذات صباح عندما كان في طريقه إلى مطار بغداد الدولي..لا أريد الحديث طويلًا عنه..طويت صفحته..لكني الآن أردت أن أتخفف مما يثقلني منذ سنوات.

***

بقيت في ألمانيا شهرًا كاملًا أراجع فيه دوائر البوليس والجهات الرسمية.. حتى يئست..ولم يكن أمامي سوى العودة إلى بغداد.. حيث واجهني فقدان آخر..إذ اختفى حبيبي الكاتب والمهندس آدم المطرود من الوجود..!

كنت آمل أن يحتضن حزني وفقداني، فإذا به يختفي..! ولم أفهم ما الذي حصل..اتصلت بهاتف مكتبه..فلم يجبني أحد..! ولم أجرؤ أن أسأل زوجي عنه..!! في الأيام والأسابيع الأولى ظننته يئس مني لأني لم أستجب له في آخر محادثة بيننا عن الحب والحب الجنسي..ورفضت زيارته إلى المكتب..واستأت منه لأنه اختفى بهذه الطريقة الجافة.. شعرت بإهانة مرة..وبعجز نتيجة جهلي بسبب هذا الهجر والقطيعة.. وأيضًا لأنني كنت في حاجة حقيقية له كحبيب وصديق مخلص لا أشك بإخلاصه لي وصدقه معي.. وهذا ما ضاعف حزني وكآبتي..ولم يكن أمامي سوى أن أبحث في غرفة مكتب زوجي عن بطاقته الشخصية التي أعطاها له عند تعارفنا في تركيا، لكني لم أعثر عليها في ألبوم البطاقات الخاصة بمعارفه وأصدقائه.

أخذت أحاول أن أجد أية حجة للحوار بحيث أسوقها إلى سبيل يمكنني من أن آتي على ذكر اسمه، لكني كنت أخاف من الذكاء الشيطاني لزوجي الذي بتّ أتجنبه بشكل حقيقي.

ويئست من وجود رجل يمكن الإتمان إليه في هذا العالم..ويئست من مفاهيمي الرومانسية عن الحب والنقاء والسمو الأخلاقي..!..وانزويت في عالم سوداوي ضيق..أكتب واخربش بما أسميه شعرًا..وبرغم كل هذا لم أنقطع يومًا من متابعة أي خبر ربما يصلني عن ابني..لكن بلا جدوى..!!..

بعد أشهر سافرت إلى ألمانيا مرة أخرى..والتقيت بإدارة المدرسة الداخلية مستفسرة عن نتائج تحقيقاتهم، والمعلومات التي توفرت لديهم..! لكن كل شيء كان بلا جدوى..!

وعدت خائبة إلى البلاد الكابوس..المدينة الكابوس..الشقة الكابوس.. الحياة الكابوس..!..وعشت عزلتي في الكابوس.

***

أنا حواء الصايغ..نزلت إلى بئر عزلتي بإرادتي..لا..ربما قُذف بي إليها.. لكني اكتشفت بأن الذي يعيش في العزلة قد يكون يائسًا..محبطًا.. منكسرًا.. بل ومحطمًا إلى قطع يصعب جمعها..قد لا يؤمن بالأمل أو الخلاص..وربما العزلة نفسها بالنسبة له هي الخلاص من شرور البشر..وخياناتهم.. وغدرهم.. وتفاهاتهم..وكرههم لبعضهم البعض..فالبشر، ومن خلال التنافس بينهم على الملذات وعلى السلطة والمال والوجاهة..يحسد بعضهم بعضًا..ويغار منه.. ويتراكم الحسد والغيرة ليصيرا حقدًا أسود..وجدارًا من الكراهية..!

لأكتشف كم كنت ساذجة.. هكذا أنا حواء الصايغ..

أنا الليلك الحزين..

والشرفة المهجورة في المساء..

أنا الباب الموصد على الأحزان..

والحجر الملقى على ضفاف بحيرة نائية..

نزلت إلى بئر عزلتي ..

لأتطهر من الشر المقدس لدى البشر..

أتطهر في عزلتي..

أتطهر لا لأكون ملاكًا.

وإنما لأنزع جلدي الناعم..

ولأتعرى أمام ذاتي وأعماقي الغامضة..

لأكتشف حقيقة نفسي.

وحمقاء..

على الرغم من تقويمي لنفسي كمثقفة..!

***

ومـرت السنوات..سنوات ثقيلة كالرصاص..رصاصية اللون كالرصاص.. تشع موتًا كالرصاص..!

وعلى الرغم من يأسي شبه الكامل من عدم العثور على ابني إلّا أني كنت أحج كل عام إلى المدرسة الداخلية التي كان فيها..أجالس الإدارة..علمًا أن الإدارة قد تغيّرت وأحيل مديرها إلى التقاعد..كنت أدرك أنهم ينظرون إليّ بشفقة وتعاطف إنساني لأني في نظرهم امرأة منكوبة..! وطبعًا لا جديد..!. وكنت أزور الغابة القريبة من المدرسة الداخلية والتي أخبرتني الإدارة بأن ابني كان يقضي الليل مع صديقه الذي من أمريكا اللاتينية فيها .

وفي السنة السابعة من اختفائه سافرنا أنا وزوجي إلى باريس..ولكن لا أدري لـِمَ أحسست أنني لا أرغب في العودة إلى بغداد.. لاسيما وأن لدينا

شقة في باريس..شقة تقع في الطابق السابع من عمارة حديثة في منطقة لا ديفونس..فينيو غوتنبيرغ...شقة كان زوجي قد اشتراها في الأشهر الأولى من زواجنا..وسجّلها باسمي..وكنت أجد راحتي في هذه الشقة..وهذا الحي الراقي الجديد من باريس..! لذا طلبت من زوجي أن أبقى في باريس ويمكنه أن يأتي ويبقى ما يشاء ويغادر متى يشاء لإنجاز أعماله.

رأيت حلمًا..كابوسًا لا أعرف..لكني وجدت نفسي في مقبرة بمدينة أوربية..حيث المقبرة بارك أو حديقة كبيرة..لكني كما أتذكر في الحلم أنه كان يومًا شديد البرودة..وكنت في طريقي إلى التجوال اليومي العفوي.. فرأيت جنازة..كان عدد المشيعين ثلاثة..كان التابوت على ظهر سيارة سوداء قديمة الطراز.. وكانت السيارة تسير ببطء يبعث على الحزن ويكثف المشهد عن الحياة ومأساتها..أهذه هي نهاية الرحلة إذن؟؟.. حينها وأنا في الحلم فكرت ربما أفضل لهذا الميت بأن لا يشيّعه سوى ثلاثة أشخاص.. فهو سيلتفت ليرى كيف انتهت رحلته في الحياة..! ولن يجد حينها أمامه سوى أن يبصق على هذه الحياة..سوف ينظر إلى الوراء بغضب..بينما لو كانت الجنازة مهيبة وتبعها الكثير من المشيعين فلربما سيخاف وسيشعر بالوحشة حينما ينفض هؤلاء ويغادرون المقبرة..! كيف يفكر الإنسان وهو في المنام بكل هذه الأفكار الحزينة عن الحياة.

***

المدن كالبشر..ثمة مدن هادئة..وأخرى صاخبة..وثمة مدن خالية وأخرى مزدحمة..وهناك مدن ضيقة وأخرى عريضة..وثمة مدن كئيبة.. وأخرى تشرح النفس وتبعث فيها البهجة..وثمة مدن حسية.. فاسقة

وفاجرة..مدن تدفعك للتفكير في الجسد.. وللرغبات..وتنبهك لوجودك الجسدي..من خلال حرية الناس وانهماكه الحسي والشهواني بالحياة.. ومن خلال إعلانات الملابس وواجهات المحلات الكبرى للملابس والعطور..وباريس واحدة من هذه المدن الحسية..!.

أيـام باريس متعة..وضياع جميل..كنت أهبط صاعدة إلى قطار الأنفاق..أزور المحطات المهمة..أخرج إلى الشارع..أتعرف على المنطقة ومحيطها..لم أنزل مرة أخرى إلى قطار الأنفاق لأواصل تجوالي ..كنت أجلس في المقاهي..وأتجول في المحلات الكبرى.. وأزور المعارض.. كنت أخرج من جلدي شيئًا فشيئًا..وكنت أحاول أن أرهق ذاكرتي بسيل من المعلومات المتدفقة يوميًا..إلى أن جاء اليوم الذي لا أدري إن كنت فقدت نفسي فيه أم وجدتها..؟

كنت أجلس في العديد من المقاهي، لكني أعتدت الجلوس في مقهى ببوليفار سان جيرمان وهي من مقاهي باريس الشهيرة واسمها «كافية دي فلور».. كنت أتناول قهوتي فيه..لمحت فتىً وسيمًا أسمر البشرة.. بشعرٍ طويلٍ مسترسلٍ على الأكتاف..شاب ملامحه تشي بوقاحة تصل إلى حد الابتذال مع أصالة معجونة بغموض مأساوي.. شخصيته جذبتني بغواية خفت منها..بدا لي كذئب رمادي يترصد فريسته..ويتركها تقترب من مصيدته بهدوء وأمان..!

فجأة التقت نظراتنا للحظات..أحسست بهزة تجتاحتي..! «ما الذي يجري معي وأنا المرأة الرزنة والوقورة.. أنا الباردة مثل نبيذ أبيض» سألت نفسي...سرى في جسدي خدر ودفء..خفت من نفسي..فغادرت المقهى

وكأني أهرب من الشيطان.. بينما ظل هو جالسًا وحينما مررت بجانبه نظر إليّ نظرة شهوانية مليئة بالغواية..فخفت من نفسي أكثر مما تأثرت بنظرته..هربت مبتعدة عن المقهى بعد أن دفعت ثمن قهوتي..! لكني ما أن قطعت مسافة مبتعدة عن المقهى..وشعرت بالأمان حتى أخذت أنتقد نفسي لجبني وخوفي الغامض!! وراودتني رغبة في التحدي بأن أعود للمقهى..لكنني أنثى وأعرف أن هذا الشعور للتحدي ليس إلا رغبة مقنعة وتبريرًا لكي أتلذذ بالغواية.

وفي اليوم التالي عدت إلى المقهى..لم أذهب إلى أي مكان آخر مثلما أفعل في جولاتي اليومية، وإنما جئت المقهى مباشرة، وكلي رغبة ولهفة على أن أرى الفتى الوسيم..المثير الملامح..واستغربت من نفسي فهذا الفتى في النصف الثاني من عشرينات عمره..أنا أكبره بما لا يقل عن خمسة عشر عامًا.. ما الذي يجذبني إليه..؟ ولماذا أفكر فيه..؟..وأحسست بالخيبة واجتاحتني كآبة حينما لم أجده في المقهى..!

توجهت إلى زاوية المقهى..جلست هناك..أوصيت على قهوتي المعتادة.. وما أن بدأت أرتشف منها حتى انتبهت غلى الطاولة التي تجاورني..ثمة امرأة ليست شقراء لكنها تميل إلى الشقرة تبتسم لي بطيبة..راودتني لحظتها خاطرة بأن هذه المرأة قد شبه لها مع امرأة أخرى.. لكن المرأة ابتسمت لي وكأنها تعرفني أو تريد التعارف.. قالت بتلقائية وباللغة العربية:

- الأخت عربية

- نعم..أجبت مستغربة الحديث بالعربية.

- أهلًا بك ..أنا أيضًا عربية.. ردت المرأة.

وقبل أن أن أتواصل مع هذه المرأة دخل الفتى المثير إلى المقهى..وقف للحظات عند المدخل وأخذ يجول بنظره في أرجائها..والتقت نظراتنا..

وانتبهت إلى أنه توجّه إليّ ..شعرت بالخوف من تهوره..لكنه ما أن صار على بعد أمتار حتى مال قليلًا وجلس على الطاولة القريبة مني..بل إنه جلس على الكرسي الذي يواجهني..بحيث صرت أنا موضع رؤيته وهو أمامي.. وأقرب شخص لرؤيتي..!!.. وكان ينظر إليّ بتركيز واصرار وكأنه يدعوني للتواصل معه.. ولا أدري لِمَ انتبهت إلى أن المرأة العربية انزعجت من ذلك..إذ رأيتها تنهض مغادرة المقهى وعلى وجهها انزعاج خفي..! لكني لم أعر الأمر أهمية بل على العكس شعرت بالراحة لأنني سأكون وحدي مع هذا الغاوي الغامض.

فجأة..ابتسم..وأشار لي برأسه إلى شيء أسفل على الأرض..لم أفهم حركته..نظرت إليه متسائلة..فقال شيئًا بالفرنسية..لم أفهم الكلمة..لكني نظرت إلى حيث يشير برأسه ويده..فانتبهت إلى ورقة نقدية فئة العشرة يورو.. ملت إليها وأخذتها من الأرض..ووجدت نفسي لا إراديًا أقول له بالإنكليزية..بأن الورقة لا تعود لي..!!..وضعت الورقة النقدية على الطاولة..لكني شعرت بتيار لذيذ يجتاحني..خفت من نفسي وجسدي أن يجرني إلى مغامرة محفوفة بالمخاطر..خفت أن أتواصل معه..نهضت ..اتجهت الى حيث المحاسب..ودفعت دون أن أنتظر مناداة النادل وأنا على طاولتي..وهربت..!..

خفت من نفسي..وخفت من إلحاحة اللطيف ونظراته التي تدعوني إلى الخطيئة بلا حجب..خفت من جسدي الذي لم يعرض الرعشة منذ عقود.. بينما رؤية هذا الفتى ونظراته تحرقني وتفجر تيارات اللذة في جسدي.!!.. خفت..حتى أني لم أذهب إلى منزلي بقطار الأنفاق وإنما أخذت سيارة تاكسي.

حين وصلت شقتي وجدت نفسي ساخنة الجسد..ودون أن أترك فرصة لنفسي..ألقيت حقيبتي..ونزعت حذائي بشكل فوضوي..ونزعت ثوبي ملقية إياه على الصوفا..ونزعت سوتياني..وذهبت وأنا بسروالي الأسود الشفاف إلى الحمام..فتحت دش الماء وتركت الماء يطفئ لهيب الجسد. وتحت الماء نزعت سروالي وألقيته جانبًا.!!..

لا أعرف كم مضى علي وأنا تحت دش الماء..كنت كمن سافرت إلى اللازمان واللامكان..فجأة..أوقفت تدفق الماء.. نشفت جسدي.. لبست برنسي..وخرجت..ذهبت إلى المطبخ ..فتحت الثلاجة..صببت لنفسي كأسًا من عصير الفراولة.. وجئت إلى الصالون..بقيت ساكنة لفترة ليست قليلة.. نهضت بهدوء..ذهبت إلى غرفة النوم..فتحت خزانة الملابس..وبرغم أني لم أكن أنوي الخروج ثانية إلا أني لبست ثوبًا أسود.. أنيقًا بدون أكمام وقصير إلى الركبة..!..وكنت أحاول أن أضع الحلي في أذني حين رن جرس الشقة.. فتركت الحلي في موضعها من الجارور الوسط في خزانة الملابس وغادرت الغرفة لأرى من هناك..لاسيما وأنا لا انتظر أحدًا..ولا علاقة لي مع الجيران.. نظرت من خلال العين الساحرة في القسم الأعلى من الباب..فرأيت وجه امرأة يبتسم لي وكأنها أدركت أنني أنظر إليها..فتحت الباب..واجهني وجه بشوش شرقي الملامح..امرأة تفيض بالحيوية..وهي تحمل بيدها صينية فيها كعكة عيد الميلاد..!..لم تترك لي مجالًا للسؤال، إذ قالت مباشرة بمرح بريء وهي تشير إلى الجهة التي جاءت منها وهي الشقة في طرف الممر:

– أنا جارتك حواء التلمساني..جزائرية..اليوم عيد ميلادي..لكني وحيدة..وفي طابقنا لا يوجد غيرك وغير الشيخ المبروك.. لكنه دائمًا هنا

وغائب في الوقت نفسه..رأيت من عين الباب السحرية وأنت تدخلين شقتك..فقلت ربما من غير اللائق أن أدعوك وربما سترفضين.. لذا فكرت بأن أحمل كعكتي وآتي بنفسي إليك لأحتفل بها..طبعا إذا لم يكن لديك مانع..!

ووجدت نفسي أمام طيبتها ومرحها أتقبل الدعوة لا إراديًا..ودعوتها للدخول..فدخلت وكأنها تعرفني منذ فترة طويلة..ابتسمت مع نفسي لهكذا شخصيات يفرضن أنفسهن على الآخرين بسهولة ومرح..ودون مقدمات..!.. وضعت الكعكة على الطاولة التي أمام الصوفا في الصالة.. كنت حائرة..التفتت إليّ وسألتني:

– هل تشربين النبيذ..؟

– نعم..

واستدرت لأخرج من الثلاجة قنينة نبيذ من نوع شيراز الاسترالي الذي أفضله..وأشربه أحيانًا في وحدتي..وأخذت قدحين مخصصين للنبيذ ووضعتهما على الطاولة..انتبهت هي لطبيعتي الصامتة..لكن ذلك لم يكبح حيويتها ومرحها..فأشارت لي بطريقة مرحة بأن أناولها مفتاح القناني الذي كان على الثلاجة..وفتحت هي القنينة وصبت لنا كأسين.!..

لحظتها جئت بصحنين وبمدية خاصة بقطع الكعك..ثم جلست على المقعد المقابل لها..فقطعت الكعكة..تمنيتُ لها عيد ميلاد سعيد.. وأخبرتها باسمي الذي استغربت بأنه يشبه اسمها..لكنها علقت نحن جميعنا حواءات..لا فرق في الزمان والمكان..!..وشربنا نخب عيد ميلادها..ولم تمض سوى دقائق حتى بدأت تروي لي قصة حياتها:

– أنا حواء التلمساني..فيلسوفة أنا منذ صغري..كنت أطرح الأسئلة أكثر من البحث عن الأجوبة.. رومانسية و عاطفية..بدأت الكتابة منذ كنت في سن العاشرة..وما أذكره أن إحدى خواطري وقعت في يد والدتي يومًا و هي ترتب لي مكتبي فاعتقدتها رسالة حب لأحدهم فضربتني ضربًا مبرحًا لتعرف صاحبها، لكن دون جدوى لأنه لم يكن هناك شخص حقيقي، فهذا الشخص كان يعيش في خيالاتي الواسعة ليومنا هذا....ما أذكره عن طفولتي غريبة الأطوار أنني لم أكن كباقي الأطفال، كنت كثيرة الصمت والتأمل والتفكير وأبحث دومًا عن الاستنتاجات..!..ففي دراستي، كنت دومًا الأولى منذ الابتدائي إلى المتوسط ثم الثانوي..ويوم حصلت على المرتبة الأولى في سنتي الأولى، اشترى لي والدي قصتين، إحداهما «القفص الذهبي» والأخرى «حارس الحقول» ..و في المرة الثانية أخذني إلى المكتبة وتركني أختار القصة التي أريد، و هكذا بدأت مع الكتب..

توقفت عن الكلام..تناولت شيئًا من الكعكة..وارتشفت رشفة كبيرة من النبيذ ..نظرت إليّ نظرة عتاب حينما رأت أنني لم أمس شيئًا من الكعكة.. فجأة ..رفعت كأسها عاليًا مشيرة لي بأن أرفعه أيضًا..وارتشفت كأسها حتى آخره..ووجدت نفسي أفعل مثلها..أحسست بالدفء يسري في جسدي.. ابتسمت لي..ثم أخذت القنينة وصبت كأسين آخرين حتى الامتلاء.. ابتسمت..ثم واصلت حديثها:

– كنت أجمع النقود التي يعطيني إياها والدي أو والدتي و أذهب مباشرة إلى مكتبة بالقرب من مدرستي الابتدائية لأشتري قصة، و لم أكن ممن يشتري الحلويات كباقي الأطفال في سنّي..و من يومها و أنا أضع أساس

مكتبتي الخاصة التي باتت ضخمة الآن و تجمع شتى أنواع الكتب: روايات، شعر، فلسفة، تاريخ، دين، صوفية، رسم،موسيقى،..إلخ..ما أتذكره أنني بكيت ثلاث مرات في حياتي و أنا أطالع: الأولى في موت „جان فالجان" في البؤساء لفيكتور هيجو، الثانية في مقتل „أبي مسلم الخراساني"مؤسس الدولة العباسية عندما غدر به أبو جعفر المنصور لجرجي زيدان، و الثالثة في معاناة „آدم الواسطي" من متاهة الأشباح لبرهان شاوي....أعشق موسيقى بيتهوفن و جايكوفسكي و أرتاح لسماعها كما أعتدّت عزف بعض القطع الموسيقية المنفردة..!...

ودون إرادة مني..أخذت الريموت كونترول الخاص بجهاز الموسيقى لأضغط عليه..فانسابت موسيقى بيانو خفيفة كقطرات المطر لشوبان.. أحسست بالموسيقى تمطر في أعماقي..كنت أعيش مشاعر خوف..ورغبة.. وكآبة.. وفضول للمعرفة شيء مجهول..كنت أشعر وكأنني على حافة قطع جبلي وتحتي هاوية ..وبدون تخطيط..وبحركة لا إرادية رفعت أنا كأسي وأشرت إليها بالشرب وبحركة تعني أنني أشرب نخبها..فرفعت الكأس مثلي..وارتشفت جرعة كبيرة من النبيذ وكأنني عطشى قادمة من صحراء.. بينما كانت هي تشرب بهدوء وتراقبني من خلال الكأس..شعرت أنا بالخدر يسري في جسدي..بينما واصلت هي سرد حكايتها:

- كالجميع كانت لديّ مراهقتي الجامحة ، و أول علاقة لي في سنّ الثامنة عشرة، وكذلك كانت أول قبلة لي..كنت رياضية حينها في فريق الكرة الطائرة..كان صديقي الذي يكبرني سنا بثلاث سنين رياضيًا أيضًا، لكن في فريق كرة القدم..كنا نلتقي صدفة عند باب الملعب ، أنا داخلة و هو

خارج أو العكس فنتبادل التحية فقط.. إلى أن تجرأ يومًا و تحدّث معي بكلّ أدب.. و بدأنا نلتقي أحيانًا خارج الملعب ليرافقني في طريق العودة للبيت بعد دروسي الخصوصية، وكنت حينها أحضر لشهادة الباكالوريا..فنذهب لبعض المطاعم أو المقاهي فنشرب كوبًا من العصير أو نتناول الغذاء معًا ..و ذات يوم ونحن نتحدث قبلني بقوة، فشعرت حينها بقشعريرة في كامل جسدي، هل لأنها قبلتي الأولى؟ أم لأنني كنت أحبّه؟ لست أدري.. لكن شاءت الصدف أن رأته صديقتي معي يومًا لتتربص به و تدريجيًا باتت عشيقة له ومارست معه كل شيء.. وكنت قد اكتشفت الأمر لاحقًا بسبب غياباته المتكررة و كذبه اللامتناهي..إلى أن اعترف لي يومًا بكل شيء وأخبرني أنه عاشرها وكل ما قاما به معًا وأين كانا يذهبان..تركته أنا بكل بساطة رغم اعتذاراته المتكررة ....لكن الغريب في الأمر أنه بعد عشر سنوات ظهر بعد أن بحث عنّي، ليعتذر مجددًا لأنه جرحني ذات يوم و طلب الزواج بي، لكني رفضت رفضًا قاطعًا و م أوافق رغم توسلاته الكثيرة، وعلمت بعدها أنه تزوج وله ابنان وحياته مهددة بالفشل..! نهاية قصة حب شرقي عادية..عادية جدًا.. أما بالنسبة لي فقد تزوجت زواجًا تقليديًا ، لم أعرف زوجي سابقًا،ولم ألتقه، ولم أكن أحبه أصلا..شاهدني صدفة في مكتبي يومًا فأرسل أهله لبيتنا بعد أن طلب العنوان من أحدهم لطلبي من أهلي، فكانت موافقة أهلي..!!وأيضا هذا زواج شرقي عادي ..عادي جدًا.

في تلك اللحظة رن جرس الشقة..توقفت عن الكلام..وارتسمت ملامح القلق والتوجس على وجهها..فقمت بهدوء لأفتح الباب..لكني وأنا انهض أحسست بالخدر في كل جسدي..صرت أمام الباب..نظرت من عينه

الساحرة فلم أر أحدًا..فتحت الباب..كان الممر خاليًا..استغربت..عدت إلى الصالة..نظرت إليّ مستفهمة..فقلت لها:

- لا أحد..غريب..والممر فارغ..

صمتت..لم تقل شيئًا..لكنها استرخت قليلًا..ثم واصلت حكايتها:

- علي إنهاء حكايتي...كنت أحلم بقصة حب تنتهي بزواجي، و كوني رومانسية و شاعرة أكتب دومًا عن الحب حلمت بحب حياتي الذي يشاطرني دنياي وأحلامي ومشاعري، لم أتخيل يوما أنني أتزوج شخصًا لا ينتمي لعالمي الأدبي وليس من مستواي الدراسي كوني متحصلة على باكالوريا علوم وآداب، وعلى مشارف إنهاء دراستي في المحاماة وصحفية..

- هل أنت شاعرة..وصحافية.. ومحامية..؟

صمتت لحظة..ثم قالت بثقة:

- نعم..

- هل نشرت كتاباً شعرياً..؟ سألت.

- لا..بعد..

- هل تعملين في صحيفة..؟..سألت مستغربة قليلًا من ادعائها..!

- لا..

- هل تنشرين في صحيفة ما بشكل ثابت..؟..سألت مستوضحة أكثر.

- لا.. لكن أحيانًا أنشر في صحف متفرقة..!

- هل لديك مكتب محاماة..؟

- لا..لقد عينت موظفة في إحدى الدوائر..!..المهم دعيني أكمل لك حكايتي..

- تفضلي..

- زواجي كان أسوأ كابوس عشته في حياتي، فمنذ ليلة الدخلة كما نسميها، بكيت بحرقة على نفسي وضياعي،لأنه كان كوحش في معاملته لي..كان يغتصبني بقوة ثم ينام قليلًا ..فيستيقظ مرة أخرى فيغتصبني بقوة، وهكذا كانت ليلتي الأولى إلى الصباح ..كنت أتألم وأبكي وهو لا يبالي بي.. كان يخترقني بقوة وحش وليس آدميًا..لم أشعر باللذة وإنما بالألم فحسب.. شهر عسلي كان مقبرتي وموتي المنتظر....(صمتت وكأنها تسترجع مشاهد ليلة عرسها..ثم واصلت)...هكذا استمرت حياتي اليومية..لم يكن لطيفًا معي أبدًا في المعاملة الحميمة..فعندما يدخل الغرفة يغلق الباب بالمفتاح و يرميني على السرير بوحشية، ليرفع ثيابي و يفتح فخذيّ بقوة و يولج قضيبه فيّ بكل عنف، وعندما ينتهي يغادر أو يدير ظهره لينام.. وأحيانًا لا يقترب منّي فأكون سعيدة حينها لأنني أنجو من اغتصاب الوحش لي..

لم أشعر يومًا بتلك اللذة التي أقرأ عنها في الروايات والكتب والشهوة أثناء الممارسة والوصول للذروة وتلك الرعشة.. لا وألف لا، كنت أتخيلها عند قراءتي للروايات لأعيشها بعيدًا عن واقعي المرير...(صمتت للحظات.. وكأنها تستعيد شريطًا آخر...ثم واصلت)..و ذات يوم ، دخل البيت و ناداني إلى الغرفة، و بمجرد دخولي أغلق الباب بالمفتاح كالعادة فارتعبت ككل مرة و خفت، نزع ثيابه التحتية و طلب منّي بصيغة الأمر أن ألعق قضيبه فرفضت رفضًا قاطعًا، فأمسكني من شعري و جعله في فمي، و فعلتها مرغمة و أنا

أشمّ رائحته النتنة، و بعد ذلك تقيّأت كثيرًا.. وبرغم ذلك حملت منه..و يوم علم بحملي لم يكترث قطّ ، وبعد شهور أنجبت طفلًا..لم يكن يهتمّ بي وبطفلي..وكأنما انعدمت لديه غريزة الأبوة..!!

لم ينفق عليّ شيئًا بتاتًا... ولكوني كنت أعمل لذا لم أطلب منه شيئًا... وكذا مرت الأيام والأسابيع والأشهر..وبعد بلوغ ابني السنتين لاحظت الغيابات المتكررة له التي بدأت تطول ليظهر مرة في الشهر أو الشهرين تقريبًا، و إذ ما جاء يبقى لساعة من الزمن يغتصبني حينها ثم يغادر ، إلى أن اختفى قرابة السنة دون خبر منه..احتملت بما يكفي وسئمت حينها.. فرفعت قضية طلاق وخلع..وطلقته لأتنفس الصعداء بعد حياة مريرة معه مليئة بالكوابيس والآلام.. !.. ....أعترف أنني رومانسية وشبقة إلى حدّ اللعنة.. لكنّي أحافظ على شبقي طاهرًا، و لم أغتنم فرصة الغيابات المتكررة له لأمارس العلاقات أو لأطفئ شهوتي كبعض الحواءات، لكني لست حواء التي عقلها بين فخذيها و تجري وراء شهوتها..تعلمت كيف أكبح جموحي تدريجيًا و بمرور الوقت.....

كنت أستمع إليها وأنا منذهلة..الخدر يسري في جسدي..فكرت حينها: «كيف لها أن تتحدث لي عن حياتها وتفاصيلها دون أن تعرفني..بل هي التي اقتحمت عليّ شقتي لتروي لي حكايتها»..! لكني على الرغم من ذلك لم أقاطعها قط..فقد أدركت حاجتها للإعتراف..هي انتبهت إلى أنني أفكر في شيء ما..ابتسمت لي..كانت تنتظر ربما تعليقًا مني..لكني ابتسمت لها بطيبة..فواصلت:

- أحب الحياة بكل ما فيها، وأعيش اللحظات كلها و لا أفكر بالغد أو الآتي أبدًا، لأن الحياة لحظات فقط..عاطفية أنا مع الجميع، و مبتسمة دومًا

على الرغم من أن في قلبي شبكة عنكبوت..يحبني الجميع و يقع في غرامي الكثيرون، إلا أنني أتصدى للجميع، أفضّل الصداقة و أكره العلاقات، نتيجة لكابوسي الذي عشته في مرحلة من مراحل حياتي السابقة.....مؤخرًا تقرّب مني صديق عرفته صدفة لأن أخاه الأصغر صديق لي، و توطدت علاقتنا تدريجيًا، لكن عندما باح لي بحبه لي وإعجابه بي ضحكت منه كثيرًا..وصددته بقوة ورفضت بشدة أن يحبني، وأخبرته أنني أقبل بصداقته فحسب...والحقيقة تُقال لقد أعجبتني صراحته التامة، إذ قصّ عليّ حكايته و زواجه الفاشل من امرأة زوجتها له أمه لأنها أعجبتها وأرغمته على الزواج منها بشتى الطرق، فتزوج منها إرضاء لرغبة أمه، و من يومها و هو يعاني و أثمر عن زواجه الذي دام أربع عشرة سنة فتاتان ..

في البداية اعتقدت أنه مطلّق، وزادت زياراته المتكررة لي في مكتبي إلى أن شعرت بتعلقه الشديد بي، و أصبح يشاطرني يومياته، لأجد نفسي أحبه دون أن أشعر وأتورط فيه تدريجيًا دون أن أعلم أنني أرتكب أكبر غلطة في حياتي!...نسيت رفضي حبه في البداية..واشتراطي الصداقة فقط..نعم أحببته لأنني وجدت فيه كل الصفات التي كنت أبحث عنها في الرجل، فماذا أريد أكثر من رجل يحبني ويحترمني ويغار عليّ من النسيم..؟؟ لكن هل نحب الآخرين لأنهم يحبوننا فحسب؟؟ أيمكن أن نحب ونعرف أن الآخر لا يحبنا..؟؟ لا أدري..نحن النساء مخلوقات غامضة..!..(صمتت للحظات) ثم واصلت.. وذات لقاء بيننا وهو في مكتبي وعلى غفلة منّي ضمني إليه بقوة فأحسست أنه يحبني حقيقة، لكن كنت أشعر دومًا أنه يخفي سرًا وراء حزنه الدائم، شيئًا لا يريد البوح به و أنه يبحث عن فرصة ليتكلّم، شعور كان يختلجني أن هناك

أمرًا لا أعرفه..وفي يوم آخر وعلى غفلة ونحن نتبادل أطراف الحديث ضمّني إليه وقبّلني قبلة شعرت فيها بروحه تتغلغل في أعماقي وأحسست بسعادة لا توصف بهذا الحبّ الذي افتقدته ووجدته أخيرًا..

اتفقنا على الزواج بعد فترة قليلة..لكن ثمة مفاجأة دمرت كل شيء..فقد عرفت أنه لا يزال متزوجًا، و يعيش مع زوجته و بناته في بيت أهله مع أمه.. صدمت..وأصبت بجمود، لأنني أعلم أنه ليس سعيدًا في زواجه، لكني لم أشأ أن تتشتت عائلته بسببي أنا، لم أشأ أن أعيش سعيدة على تعاسة أخرى... حاول إقناعي بشتى الطرق بأن أمه هي من اختارتها، وأنه لا يحبها ولا يكنّ لها أدنى مشاعر، لكن كلامه ذهب سُدى..هي زوجته أولًا وأخيرًا ولن أقبل أن أكون زوجة الأب الشريرة، ولا أريد تخيّل سماع بكاء زوجته ولا معاناة بناته..لم أعد أرغب في شيء....وتركته..لم أندم على صداقته أو حبه..لأنه كان أجمل صدفة في حياتي وأروع ما حدث لي يوما..

ورغم لقاءاتنا الكثيرة لم أعاشره ليبقى شبقي طاهرًا كراهبة.....سأقول لك شيئًا..ثمة مقولة تقول «هناك أشياء خلقت لتبقى في القلب لا يشملها قانون الفضفضة «هذه حقيقة..لكني أعيد صياغة المقولات..فكما يقال» وراء كل رجل عظيم امرأة..» أقول أنا: «وراء كل امرأة ناجحة حبّ فاشل» ...وهكذا أنا..ككلّ حواء، عندما أواجه جسدي عاريًا وأنا استحمّ، أو أنظر إلى نفسي في المرآة، أسخر من نفسي أحيانًا، لأنني أملك جسدًا مغريًا، لكنّه لي فقط، ولم ولن أسمح لأحد بتدنيسه....صحيح أن شهوتي عارمة ككل النساء لكنني أكبحها دومًا، وأنني شبقة ككلبة في فترة النزو..لكنّني أحافظ على شبقي طاهرًا.

حكايتها أثارت استغرابي وانتبهت إلى أن توصيفها لنفسها بأنها كالكلبة في فترة النزو..أثار رعشة خفية في جسدي..يا له من تشبيه..من أين تعرف شبق الكلبة في تلك الفترة وكيف أنها تقبض على عضو الكلب في داخلها ولا تتركه حتى لو أنه سحب نفسه عنها..! نظرت لي وكأنها قرأت أفكاري.. فابتسمت لي وقالت:

– هل تستغربين توصيفي لنفسي بالكلبة في فترة النزو..أعذريني إذا ما قلت أننا نحن النساء جميعنا كذلك..نختلف باختلاف نوع وأصل الكلب وبالتالي لا فرق..ربما ما يكبحنا ويدفعنا للكبت هو الثقافة والدين..لكن هناك نساء حتى ذلك لا يضبطهن..نحن مخلوقات بائسة..!

– نعم..نحن أشجار الحزن والوحشة..والفرح المقتول..نحن الأمهات المفجوعات..الزوجات الخائبات..الأحجار الكريمة الملقاة تحت ركام من أوراق الخريف الصفر..!

وفجأة راودتني رغبة في البكاء..ولا إراديًا نهضت متجهة إلى غرفة الحمام..لم أشأ أن أبكي أمامها..أغلقت باب الحمام لكن الغريب لم أبك.. وبقيت هناك لحظات..ثم انتبهت أنه ليس من اللائق أن أترك جارتي الغريبة الأطوار وحدها..فخرجت من الحمام..لكن الذي صدمني أني لم أر أحدًا في الصالة.. نظرت إلى الطاولة فلم أر سوى قنينة النبيذ وكأسًا واحدة... أحسست في بداية الأمر بالخوف..لكني كنت مخدرة..منتشية بالنبيذ الذي شربته..فوجدت نفسي أتجه لغرفة النوم وألقي بنفسي وأنا في ثوبي الأنيق على السرير ..وأغط في نوم عميق..عميق.!.

***

أحيانًا..نرفض الاهتمام المبالغ فيه من قبل البعض..لأننا ندرك أن هذا البعض يريد الوصول إلينا بطريقة مباشرة ومكشوفة.. ولحوحة..ونرفض ذلك لأننا نرفض هذه الأساليب..ونرفض هؤلاء الأشخاص الذين هم ، ربما، لا يرتقون لمستوانا..أو لأننا لا نتقبل سلوكهم..أو لأننا نكره التملق.. أو لأن أشكالهم لا تعجبنا..وتنفرنا..وغير محببة لنا..لكـن الغريب..حينما يتوقف هؤلاء الأشخاص عن تملقنا..ويكفّوا عن الاهتمام بنا بعد يأسهم منّا.. ومن الوصول إلينا..عندها نشعر بالخيبة..!فنبدأ نحن بالتقرب الخجول منهم..وكلمّا ابتعدوا صرنا أكثر ميلًا للكشف عن رغبتنا للتملق..نريدهم أن يستمروا في تملقنا..ونسعى بطرق ملتوية لكي يكذبوا علينا بوسائلهم وتملقهم المكشوف..ونكتشف أننا نستعذب التملق والمديح الكاذب.. نحن كائنات بائسة..!

وهذا ما جرى لي مع شخصين أولهما زوجي آدم الولهان الذي أحسست أنه كف عن الاحتفاء بي وتملقي وإغداق الهدايا علي والسعي إلى إرضائي.. وأخذت أفكر في السبب الذي يمنعه من مواصلة سلوكه السابق معي.. وبصراحة اشتقت لكل ذلك على الرغم من علمي أن كل ذلك زيف وقناع..!

أما الشخص الثاني فهو الفتى الوسيم المثير والغامض الذي صار جزءًا من يوميات حياتي..فلم يمر يوم لي في باريس دون أن أراه..بل صار يتملقني.. أو لأكن دقيقة أكثر..صار يتقرب لي بشكل واضح لا يحتاج لتفسير..حتى أني اعتدت عليه وعلى تواجده..وكنت أعي أنني أشتهيه..لكن مجرد التفكير في ذلك كان يرعبني..فأنا كما يبدو أكبر منه بما لا يقل عن خمس عشرة سنة..لكن ماذا أفعل..أنا أشتهيه..وأتذكره دائمًا..وأفكر فيه ساعات طويلة

من النهار والليل..وقبضت على نفسي وأنا في فراشي اتقلب وأفكر فيه في مشاهد داعرة في المجلات الجنسية المعروضة في المحلات..!..

بل حدث أن جاء زوجي ليقضي بعض الوقت معي..وربما لأول مرة في حياتي الزوجية أتجاوب معه..ففي لحظة ما.. توهمت أني أحضن الفتى الغامض حينما كان زوجي يلجني بقوة..فحضنته وبلغت معه لحظة نشوتي.. حتى هو استغرب من ذلك..! وفي تلك الليلة علّق زوجي قائلًا بأنه لو كانت باريس تجعلني أشتاق له وأرغب فيه لكان عاش معي في باريس..!.. ولم يكن يدرك خيبتي حينما انتبهت لنفسي..وعرفت ما جرى لي..!

في اليوم التالي لم أذهب إلى المقهى..لكني كنت في لهفة لرؤية الشاب الغامض ولو من بعيد..ولم أشأ أن أدخل المقهى..كان زوجي معي..ولكن الأقدار أحيانًا لها منطقها..إذ أننا لم نكن في المقهى بل على مبعدة عشرين مترًا منها حينما وجدته مقبلًا خارجًا من المقهى... تقابلنا بالنظرات..ألقى عليّ نظرات غاضبة ومضى في سبيله..! وكأنني خنته..!

كدت أنهار لحظتها..سألني زوجي:ما بك..؟ فقلت له انقباض في معدتي..وحموضة..ولم يكن يعرف أن هذا الشاب الذي مر قبل لحظات يلاحقني منذ أسابيع..أو بدقة أكبر أنا التي ألاحقه..وأنه يتملقني أحيانًا بزهرة يأتي ويضعها على الطاولة التي أجلس عليها ويذهب دونما كلمة..وأنني كنت لا آبه لتلك الحركات الرومانسية لأنني أخمن أنه يكذب..فربما قام بتلك الحركات لكل النساء الناضجات والمحرومات والوحيدات..علمًا أنه كان يقوم بذلك بشكل يومي تقريبًا ومنذ أسابيع..

بعد ذلك لم أره..توقف عن المجيء للمقهى..ومر أكثر من أسبوع وهو لا يأتي..كنت أمر من هناك..مع زوجي..وحينما لا أراه أجلس في المقهى مع زوجي..إلى أن سافر زوجي راجعا إلى بغداد..لكني كنت في حاجة لهذا الفتى الغامض..كدت أجن..أردت مرات أن أسأل النادل عنه..لكني تراجعت..لقد تعودت على وجوده في حياتي ..كدت أفتقد تلك المشاعر التي كان يمنحني إياها..الشعور بالأنوثة الطاغية وكأني أول وآخر امرأة في الدنيا..إلى أن ظهر ثانية..ويا ليته ما ظهر..!

***.

يقول أفلوطين: نحن جميلون حين ننتمي لأنفسنا..وحين نعرف أنفسنا..وقبيحون عندما نجهلها..!بيد أن علم النفس التحليلي وكل العلوم التي لها علاقة بالبشر تؤكد أننا كثيرًا ما نعتقد أننا نعرف أنفسنا.. لكننا نتوهم ذلك..فعبوديتنا للعادات والتقاليد وهيمنة اللاوعي الجمعي.. يوحي لنا بأننا أذكياء..وأننا نعي أنفسنا ونعرفها جيدًا..دون أن ننتبه إلى أننا مساقون مثل بيدق شطرنج بيد لاوعينا..فالإنسان لغز..مجموعة من الأوهام المتراكمة..مهرج حزين..لكن..إذا ما كان معرفة النفس يمنحنا شيئًا من الرضا والسلام النفسي..! فأنا على العكس..ليتني ما عرفت نفسي..!!

كنت أعتقد أنني مثقفة..عميقة..أعرف نفسي..لكني اكتشفت جهلي بنفسي مع هذا الفتى الغامض..فلم أكن أتخيل نفسي أبدًا أن أكون هكذا.. عشيقة لفتى يصغرني بخمس عشرة سنة..عشيقة لصديق ابني المفقود..!!

كانت صدمتي هائلة..أولًا لإنحداري إلى وادي الظلمات واللذة السوداء.. وثانيًا لما رواه لي عن ابني واختفائه..وهذا ما دمرني وزادني حيرة..!

فبعد أن سافر زوجي راجعًا إلى بغداد عبر استنبول..أخذت أرتاد المقهى..وصرت أبقى فيها فترات أطول..وأحيانًا أزورها في المساء أيضًا.. ولم أجده..وكدّت أجن..أنا المرأة العاقلة..الرزنة.. المحافظة..المثقفة.. صار هو بالنسبة لي يمثل الرجال كلهم..مع علمي أنه لا يناسبني من ناحية العمر فهو يكاد يكون ابنا لي..لكني كنت منجذبة له..وصرت لا أخاف من شهوتي ورغبتي فيه..المهم كنت أتلهف لرؤيته..لكن دون جدوى..!

وذات مساء..كنت أجلس في شرفة المقهى المطلة على الشارع.. وشعرت بتيار مخدر يجتاحني..أحسست بالشلل..فقد رأيته..وحين رآني توقف..نظر إليّ بعمق وتركيز وكأنه يطلب مني أن أتبعه..!..دفعت ثمن القهوة فعادة يضعون قائمة الحساب في الصينية منذ البداية..ووضعت مبلغًا أكبر من المطلوب بكثير لأنه لم يكن لدي أوراق نقدية من فئة أقل..وقمت اتبعه كالمجنونة..!.

سار أمامي..كانت العتمة قد أخذت تقبض على المدينة المضيئة..فجأة دخل زقاقًا معتمًا لحد ما..وهناك انعطف إلى منطقة في باحة مجاورة.. وفي جانب من الباحة كانت زاوية مهجورة شبه معتمة..كنت أسير خلفه كالمخدرة..وكنت متهيجة الأعصاب في الوقت نفسه..على الرغم من أننا لم نتبادل كلمة واحدة منذ أول لقاء لنا..سوى ما قاله لي عندما رأى الورقة النقدية الساقطة تحت طاولتي..وهنا الآن لم أعرف لماذا أسير خلفه..وإلى أين يتجه..فليس في تلك الزاوية أي باب أو فتحة تقود لمكان آخر..دخل المنطقة المظلمة..وغاب عن مجال رؤيتي..تقدمت إلى تلك المنطقة..

وفجأة..رأيته..سحبني من ذراعي فجأة وأخذني بين أحضانه والتهم شفتي..بينما يده تسافر في جسدي ..وتهبط تحت ثوبي لتدخل تحت

سروالي ..وبين فخذي..ولم انتبه إلى أنني كنت مبتلة ورطبة..فجأة أدارني إلى الجدار..ونصب جسدي مثلما يشاء، مدّ ذراعي ّلتستندا على الجدار.. وباعد ما بين ساقي..وبسرعة سحب سروالي إلى الأسفل..واخترقني ..لم أشعر في حياتي بلذة شيطانية ..جهنمية كتلك التي شعرتها في تلك اللحظة.. كان يدفعه فيّ وكأنه ينتقم مني..وتفجرت ينابيعه وشلالاته في أعماقي..ملأ رحمي بحليبه الساخن المتدفق..! كان يتلفظ بكلمات أعرفها..لحظتها لم انتبه..لكني كنت أفهم ما يقول..كان يصرخ بي: يا قحبتي..أيتها العاهرة المثقفة..سأجعلك تعبدين أيري..لا يشفيك سوى أيري..!! وأدركت أنه كان يتحدث بالإسبانية..!. ووجدت نفسي أنهار من اللذة..!

إذن هو ليس فرنسيًا وإنما أسباني..ومن دون أن أعرف كيف سألته بالإسبانية:

- من أنت..؟ هل أنت إسباني ..؟

صُدم...فجلس جنبي على الأرض..وسالني بالإسبانية:

- من أنت؟ هل أنت إسبانية ..؟

- لا ..عراقية..

- وكيف تتحدثين الإسبانية..؟

- أتحدث الألمانية والإنكليزية أيضًا..درست اللغة الإسبانية والألمانية في الجامعة..!

فسألني بالإلمانية:

- وتتحدثين الألمانية أيضًا..؟

استغربت..كان حنونًا ولطيفًا معي ..وكنت لما أزل في شقهات الشهوة.. وهدأ كل شيء..وفجأة سألته:

- من أين تعرف الألمانية.

وكان جوابه أملًا قاسيًا وصدمة رائعة..إذ قال:

- درست الألمانية في مدرسة داخلية في جنوبي ألمانيا..

- ما اسمك..؟ سألت بلهفة

- آدم زباتو..!

وشعرت نفسي أمسك بيده وأقبلها..سحب يده..لم يعجبه ذلك.. وسألني:

- ما بك..؟ لم تقّبلين يدي..

- هل تعرف صبيًا اسمه آدم آدم من العراق..!

فقفز وكأنه رأى أفعى الكوبرا في هيئتي..وسألني:

- من أنت؟

- أنا حواء الصايغ..أم الصبي المفقود آدم آدم..!

لا أعرف كيف أصف ما جرى..أنهضني برفق...وتأسف لما جرى بيننا.. وللكلمات التي تلفظ بها..كنا نتبادل الحديث بالإسبانية التي أجيدها..سرت منكسرة..تغمرني لذة اختراقه لي من جهة..ومن جهة أخرى صدمة اكتشاف أنه صديق ابني..وهذا ما ضايقني قليلًا..وسألته إن كان لديه الوقت أن يأتي معي للشقة..فوافق..أوقفت سيارة أجرة ..وذهبنا إلى شقتي.

حينما وصلنا المبنى الذي أسكن فيه رأيته متضايقًا ومرتبكًا..سألته ما به.. فقال لي بأنه يعرف عائلة لبنانية في هذه العمارة تسكن في الطابق السادس... فقلت له إنني لا أعرف أحدًا من الجيران..فقال لي إنها امرأة أنيقة ورائعة وتشبهني.. اسمها إيفا سميث.!.. قلت له لا أعرفها ولم ألتق بها.

حين دخلنا الشقة طلبت منه أن يتصرف براحته..ودخلت الحمام مباشرة.. نظفت نفسي مما علق وسال من مني على فخذي..ونظفت بطن رحمي كي لا أترك فرصة للحمل..برغم أن حملي بحكم عمري ليس سهلًا..!

لم يكن هناك شيء ما في البيت كي نطبخه..فقال لي بأنه يمكننا الأن أن نطلب طعامًا جاهزًا.. وافقت..وقلت له أنا لا أجيد الفرنسية..فأخذ الهاتف واتصل..وطلب لنا طعامًا صينيًا!!..

لبست برنسي وخرجت من الحمام..رأيته جالسًا على الصوفا..مرتبكًا.. جلست قبالته..وقلت له بالإسبانية:

– أريد أن تروي لي كل شيء..كل شيء..وكل تفصيل..أنا ميتة منذ سبع سنوات..أزور ألمانيا..والمدرسة الداخلية سنويًا..ليس لديهم من جواب سوى أنه هرب معك..!

صمت قليلًا..نظر إليّ وقال بهدوء:

– لم نهرب معًا..أنا الذي هربت..

صدمني جوابه..سألته بلهفة:

– ماذا تقصد..؟ ما الذي جرى لإبني..؟

– لا أدري.. أجابني بخوف وكأن هناك سرًا يخفيه..

- قلت لك أخبرني عن كل شيء ..وبالتفاصيل المملة..لا تترك شيئًا.. وقل الحقيقة مهما كانت قاسية..هل ابني ميت..؟

نظر إليّ نظرة غامضة وقال لي:

- لا أدري..

- لا تدري..؟ كيف لا تدري؟

نظر إلي نظرة تائهة..وقال متجنبًا النظر إليّ:

- سأروي لك ما حدث تلك الليلة..بالتفصيل..وسأكون صادقًا في كل شيء..وأرجو منك أن تصدقيني لأن ما جرى لا يقبله عقل..!

- تكلم..سأصدقك..فقط تكلم..أتوسل إليك..!

صمت للحظات كانت ثقيلة علي ..وأردت أن أصيح به أن يتكلم..لكنه بدأ بالكلام قبل أن أفتح فمي:

- كنا أصدقاء..صحيح أنني أكبره بأربع سنوات..لكنه كان صبيًا رائعًا.. وربما لأننا كنا الأجانب الوحيدين في المدرسة الداخلية فقد تقاربنا من بعضنا..وقويت علاقتنا بعد السنة الثانية له وتمكنه من اللغة الألمانية..كان صموتًا..غريب الأطوار..يعشق التأمّل..ويعشق الطبيعة..وعلّمني الخروج معه إلى الغابة القريبة..كنا نستلقي أحيانًا على العشب متلفعين ببطانياتنا التي نأخذها معنا..ونراقب السماء المرصعة بالنجوم..وصيفًا كنا نقضي الليل هناك..لاسيما وأنا وهو لا نذهب إلى أهالينا..وأعتقد أنك كنت تزورينه.. والحقيقة أنه يحبك كثيرًا..وكان يكره زوجك..وكان يقول لي إنه لا يستحق أن يكون زوجك..هل هو الرجل الذي كان معك قبل فترة حين رأيتكما معًا..

- نعم هو..

صمت للحظات..ثم واصل:

- يبدو أنيقًا..لكني لم أرتح له..المهم..وذات ليلة خرجنا إلى الغابة.. فرشنا بطانيتينا واستلقينا عليهما..وبعد نصف ساعة من الوقت..أقبل أربعة رجال من الجهات الأربع..من جهة المدرسة الداخلية ومن شرق وغرب المكان الذي كنا فيه..وآخر من أعماق الغابة..اقتربوا منا.. وأحاطوا بنا.. خفنا..لكن أنا كنت أكبر منه بأربع سنوات..وكان علي المبادرة بالسؤال..إلّا أنه بدا لي وكأنه عرفهم..كانوا أربعة رجال ملتحين..يرتدون ملابس سودًا ..تحدثوا معه بالعربية..وأبدوا له احترامًا كبيرًا..وكان هو يحدثهم بثقة.. بل وكأنه كان يأمرهم..حتى أني خفت من آدم..فلم أصدق أنه يتحدث مع هؤلاء الرجال وكأنهم خدم عنده..!

فجأة نهض هو..التفت إليّ وقال لي بالألمانية..بأن عليه أن يذهب معهم.. فلم أسمح له..قلت له لا تذهب معهم..من هؤلاء..فقال لي: هم السفراء.. ابتعدوا قليلا عني.. التفت إليّ وقال: سأعود..سأظهر من جديد..! ولم أفهم ما كان يقصده..وفي لحظة خارقة لا أعرف كيف أفسرها..اختفوا جميعًا.. وكأنهم لم يكونوا موجودين..ارتعبت..هرعت إلى المدرسة الداخلية.. أخذت ما لدي من وثائق ومحفظتي..وخرجت ثانية..أخذت أركض باتجاه المدينة القريبة التي وصلتها بعد ركض وهرولة ومشي سريع بعد ساعات.. ومنها إلى ميونخ..ومن هناك ركبت سيارة باص سياحي إلى باريس...

- ما معنى ذلك..؟ سألت كالمجنونة

نظر إليّ وكأنه يواسيني:

– ابنك لم يمت..ولم يُقتل..إنه اختفى..غاب في الزمان والمكان.. وكأن الذين جاءوا ظهروا من عالم آخر لا مرئي..!..أنا تابعت كل ما كتب ونُشر عن الحادثة..وعرفت أنهم يعتقدون أننا هربنا معًا ..لكن الحقيقة هي ما رويته أنا لك..!هذا ما رأيته وشهدته بنفسي..وما زالت جملته الأخيرة ترن في أذني منذ تلك اللحظة: سأعود..سأظهر من جديد..!.

لم أصدق ما سمعته..لا أدري أأفرح أم أحزن..؟أخاف أم ابتهج..؟ أأصدق ذلك أم أشك فيه..؟..ابني حي..لم يهرب..ولم يقتل..لكنه غائب..!! لم..؟ من هم هؤلاء الرجال الأربعة..؟ وما معنى أنهم السفراء..؟ وما معنى قوله: سأعود..سأظهر من جديد..؟

***

حين خرج آدم أبوالتنك من غرفة النوم متوترًا كانت حواء المجنون – الفارسي خلفه على بعد خطوات.. وانتبها إلى أن آدم الشبيبي كان صاحيًا ولم ينم بعد..كان واقفًا قرب الصوفا والخوف باد على ملامح وجهه.

تصاعد الطرق على الباب.. وخلال لحظات صار آدم أبوالتنك عند الباب.. وسأل مرتبكًا:

– من هناك..؟

– افتح ..هؤلاء نحن..قادمون..ألم نقل لكم بأننا سنزوركم..؟

وبدون أن يرد آدم أبوالتنك على المتكلم فتح الباب فدخل الرجال الأربعة الملتحون إلى الصالة..ضغط لحظتها آدم أبوالتنك زرًا قرب الباب فأضيئت الصالة بكاملها.. حينها كانت حواء المجنون – الفارسي تقف على مقربة من آدم الشبيبي.أوكانت تنظر إليه وكأنها تراه لأول مرة.

تقدم الرجال الأربعة الملتحون إلى وسط الصالة..وبدون أيما دعوة توزعوا على المقاعد والصوفا التي كان آدم أبوالتنك ينام عليها. ظل الثلاثة واقفين ينظرون بتساؤل متوتر إليهم لاسيما وأن الطفل هابيل لم يكن بينهم..!.

- اجلسوا..قال أحدهم والذي بدا أنه صاحب الكلمة بينهم.

وبارتباك شديد وتوتر جلس الآدمان تتوسطهما حواء المجنون - الفارسي على الصوفا التي هي بمثابة سرير آدم الشبيبي.. قال الرجل الملتحي صاحب الكلمة بيهم:

- جئنا لنبلغكم سلام هابيل..

- من..؟ سألت حواء المجنون - الفارسي بدهشة.

- الإمام هابيل..المخلص..

- ماذا تقول..؟ ماذا يعني هذا..؟ سأل آدم الشبيبي مندهشًا ومتوترًا.

كان بقية الرجال الملتحين بملابسهم السود يستمعون إلى الأسئلة بهدوء برغم ملامح العجلة البادية على وجوههم وهيئة جلوسهم لكن لا أحد تكلم منهم سوى الرجل صاحب الكلمة الذي أخذ يتدفق في الشرح وكأنه كان يريد أن يتحدث عن أسئلة متوقعة ربما تدور في أذهانهم:

- تعذر علينا أن نأتيكم بالصغير «هابيل» فقد غاب الآن عنا أيضًا..كنا قد وضعناه في مهده بالمكان الذي نعيش فيه..في عمق الزمن الماضي.. وفجأة اختفى من بين أيدينا..تماهى في الغياب..لم نجد خلال لحظات أي شيء في المهد سوى هالة من نور...

كان الثلاثة في حالة دهشة وتوتر وكأنهم يسمعون شيئًا عجبًا..فجأة سألت حواء المجنون - الفارسي، والتي بدت أكثر جرأة من الآدمين اللذين معها:

- وأنتم..من أنتم..ما هذا الذي تتحدثون عنه..؟

ارتسمت على وجه الرجل صاحب الكلمة ابتسامة حزينة وقال:

– ليس لدينا الشجاعة للإجهار بهويتنا..نحن السفراء الأربعة.. سفراء المخلص الطفل..العائد لأعماق الزمان..

كان آدم أبوالتنك متوترًا..وكأن ثمة سؤالًا يكاد يخنقه، لذا قاطع الرجل الملتحي صاحب الكلمة قائلًا:

– هل أنت مؤمن بذلك..مؤمن بما تقول..بأن الطفل هابيل هو المخلص..؟

ابتسم الرجل الناطق باسم الرجال الأربعة الملتحين قائلًا بنبرة أقرب للتعصب منها إلى الثقة بما يجيب:

– نعم..لدينا الإيمان بذلك..لا يوجد ما يحطم إيماننا بأن الطفل هابيل هو المخلص المنتظر..لا شيء يمكنه إلى يهزنا ويهز قناعتنا..حتى الحقيقة العلمية والمنطق البارد لا يمكنهما أن يؤثرا على إيماننا هذا..هل تفهم ذلك..!

صمت آدم أبوالتنك لما استشعره في نبرته من تهديد مبطن..لكن آدم الشبيبي بادره بالسؤال بنبرة خافتة وهادئة ولا استفزازية قائلًا:

– إذا كانت الحقيقة العلمية والمنطق البارد يؤثران على إيمانكم بذلك، فربما الشك يمكنه أن يزلزل جبال الثلج المتجمدة ويهدها ثم يقودها إلى انهيارات هائلة..!

نظر الرجل الملتحي صاحب الكلمة إليه نظرة ساخرة وقال بنبرة فيها استهزاء مبطن:

– على الرغم من أن الشك والحقيقة اليقينية يتعارضان وينفي أحدهما الآخر..فالذي يشك لا يرى الحقيقة..وحتى إن رآها فهو يتجاهلها..لكن

حين تمر الحقيقة بالشك فأنها تنحني له إجلالًا لأن الشك تسامٍ وبحث أصيل عنها..فالشك لا يقف عند وجه من وجوه الحقيقة ولا عند مرآة واحدة لها.. أنه يسعى إلى رؤية كل مرايا ووجوه الحقيقة..الحقيقة وحدها تعرف قيمة الشك..وبالرغم من ذلك..فأن إيماننا هو حقيقتنا الصلدة كالصخرة..!.. أنتم لا تتصورون عمق إيماننا..إنه أعمق من أشد المحيطات عمقًا..فالكلام يخفي الأفكار والمشاعر أكثر مما يكشف عنها كما يعتقد الناس.

– لكنكم تتحدثون عن طفل..!؟ سأل آدم الشبيبي.

نظر الرجل الملتحي صاحب الكلمة إلى رفاقه ثم التفت إليه وقال:

– الضوء لا يأتي من الشمس وحدها..أحيانا يأتي من القمر..ومن النجوم البعيدة في أعماق الكون المظلم..والضوء يأتي من الأماكن البعيدة غير المتوقعة أحيانًا..قد يأتي من طفل يتحكم بالزمن المقبل دون أن نستشعر.. من طفل هو الوريث والحلم والمخلص..ونحن نؤمن بذلك سواء كان حقيقة أم وهماً..نحن نؤمن..ونتشبث بإيماننا..إيماننا النابع من أعماقنا.. الذي خلقناه نحن..ولن نتخلى عنه لأنه يمنحنا قيمة وتميزًا..ونحن نؤمن بالطفل هابيل باعتباره المخلص.. وصاحب الماضي والمستقبل.. هو الأمير الحاضر الغائب..المنتظر.

نظرت حواء المجنون – الفارسي بدهشة إليه وقالت باستنكار لكن بنبرة غير مستفزة:

– لكن هابيل هو ابن آدم المحروم وحواء الزاهد..آدم المحروم الذي ذبحه الحاج هابيل وبقية أعوانه من أصحاب الجباه السود.. وهو ابن البهية الزهراء حواء الزاهد التي اغتالها الحاج هابيل أيضًا لأنه يئس من أن تكون زوجة له..فكيف تقول عنه ما تقوله وكأنه صاحب الزمان..!

نظر الرجل الملتحي صاحب الكلمة إلى أصحابه وقال محرجًا:

- لدي كلمات محددة العدد أقولها في هذا المقام..وقد قلت أشياء كثيرة..وكلمات ستستنفد..لم يبق لي سوى القليل من الكلمات..سأقول قبل أن يحل علي صمت الزمان..!

نظرت حواء المجنون - الفارسي إلى الآدمين اللذين تتوسطهما نظرة صامتة ومستفسرة، بينما واصل الرجل الملتحي صاحب الكلمة كلامه:

- أنتم عطاشى إلى الإيمان..لكنكم لا تعرفون كيف تنهلون من نبعه..! الطفل هابيل هو الإمام لكن بلا عمامة أو شريعة..وقبل أن أدخل في مقام الصمت أقول لكم: تعبنا من الناس الذين لا يكتشفون سحر الإيمان..ولا يسمعون موسيقاه..الإيمان الذي يمنح الدرويش كرامة الملوك..ويجعل من الطفل قابضًا على المستقبل..!

- لم نفهم.. ردت حواء المجنون - الفارسي باستسلام.

- ولن تفهموا..سنعود إلى مغارة الزمان..رد الرجل الملتحي.

فجأة نهض الرجل الملتحي صاحب الكلمة فنهض معه الرجال الآخرون. ولم يكن أمام الآدمين وحواء المجنون - الفارسي سوى أن ينهضوا عن الصوفا أيضًا..وخلال أقل من ثانية اختفى الرجال الملتحون الأربعة.. نظر الآدمان وحواء لبعضهم البعض..وبسملت حواء المجنون - الفارسي رهبة مما جرى..وقالت:

- هل نحن في حلم أم ماذا..؟

- نحن في ماذا..تمتم آدم أبو التنك بنبرة فيها سخرية مبطنة.

التفتت حواء المجنون – الفارسي نحو آدم الشبيبي منتظرة تعليقًا منه لكنه كان غارقًا في أعماقه..نظر إليها نظرة غامضة فيها الكثير من الرجاء والرغبة، وقال:

– أنا مثلك أحس وكأن ما واجهناه رسالة غيبية غامضة..لكني لم أفهم شيئًا..! كيف كانوا هنا وكيف اختفوا..لو كنت وحدي هنا لقلت أنني أتوهم ذلك وما رأيته ربما هو من أحلام اليقظة، لكنني لم أكن وحدي..أنتما معي.. ورأيتما وسمعتما ما رأيت وسمعت..!!

– نعم.. قالت هي.

لم يجب آدم أبوالتنك..كان يفكر بما سيأتي حينما سيذهب مع زوجته إلى غرفة النوم.. وكم تمنى أن يفتح آدم الشبيبي موضوعًا للحديث كي يجنبه حوارًا وموقفًا يتجنبه حاليًا..لقد تكاشفا هو وزوجته..لكنهما لم يقررا بعد طبيعة العلاقة التي ستكون بينهما، فقد فوجئا بمجيء الرجال الغامضين..!.

لم تنتظر حواء المجنون – الفارسي كثيرًا.. توجهت ماشية نحو غرفة النوم وقبل أن تدخل نظرت إلى الرجلين نظرة تائهة تشي بأنها كانت تفكر مع نفسها بشيء ما..وخلال فتحها للباب ركزت نظرتها على آدم الشبيبي وهي تدخل..وفي تلك اللحظات جلس آدم الشبيبي على الصوفا..نظر آدم أبوالتنك إليه فوجده تائه النظرات مشغول الذهن فلم يكن أمامه سوى أن يتوجه إلى غرفة النوم ليواجه الموقف الزوجي العصيب.

انتهت

بدأت بكتابة متاهتي السابعة «متاهة العميان» بتاريخ 8.7.2015 في برلين..

ثم واصلت الكتابة فيها في أربيل..واليونان (جزيرتي ميكنوس وسانتوريني)..

وانهيتها في برلين بتاريخ 18.9.2016..

رقم الإيداع: ❋❋ / 2019

الترقيم الدولي: ❋❋ – 838 – 977 – 978